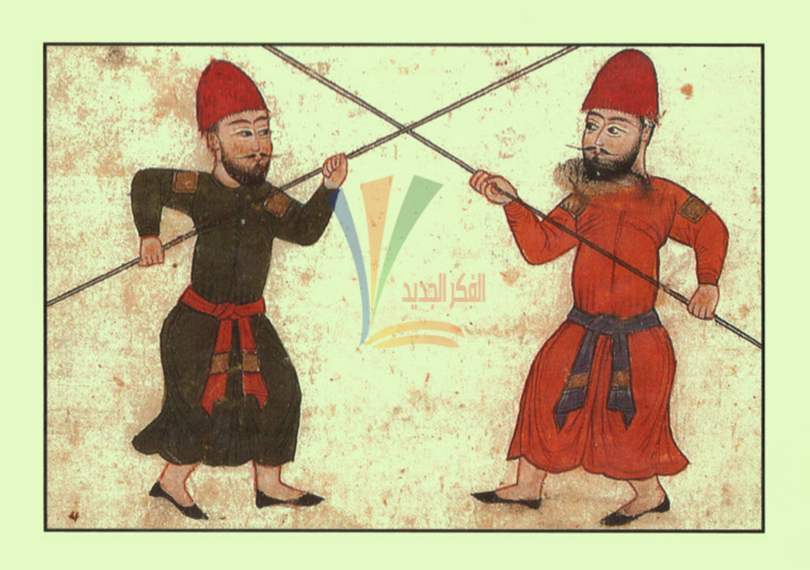


بثينة بن حسين

الفتنة الثانية

في عهد الخليفة يزيد بن معاوية



تقديم

هشام جعيط

منشورات الجمل

بثينة بن حسين: الفتنة الثانية في عهد الخليفة يزيد بن معاوية

بثينة بن حسين

الفتنة الثانية

في عهد الخليفة يزيد بن معاوية

(٦٠ ـ ٦٤هـ / ٦٨٠ ـ ٦٨٤م)

تقديم

هشام جعيط

منشورات الجمل

بثينة بن حسين: **الفتنة الثانية في عهد الخليفة يزيد بن معاوية**، تقديم هشام جعيط
الطبعة الأولى، جميع حقوق الطبع والنشر والاقتباس باللغة العربية محفوظة
لمنشورات الجمل، بغداد ـ بيروت، ٢٠١٣
ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣، بيروت ـ لبنان
تلفاكس: ٣٥٣٣٠٤ ٠١ (٠٠٩٦١)

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a.N . Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

إهداء

إلى الأستاذ هشام جعيط

إلى والديّ وسلمى

إلى أحمد وملاك والطيّب وهشام

تقديم

إنّ كتاب الدّكتورة بثينة بن حسين يتناول ما أسمي بالفتنة الثّانية أو بالأحرى الفترة الأولى منها، من تولّي يزيد بن معاوية الخلافة في سنة ٦١هـ إلى زمن وفاته في ٦٤هـ. في هذه الفترة القصيرة ابتدأت الفتنة، لكنّ في واقع الأمر استعرت نارها بعد موت يزيد على حدود سنة ٧٨هـ واتّخذت أشكالاً متنوّعة، ولم يكن من الممكن أن تُدرس كاملة من بدايتها إلى نهايتها في كتاب واحد مهما كان حجمه، فوجّهت الدّكتورة بثينة طاقتها إلى فترة انطلاقها وعلى وجه من وجوهها، هذا الوجه هو مشكلة شرعيّة خلافة يزيد التي أورثه إياها في آخر حياته أبوه معاوية، وهذا تغير جذريّ في مسار الخلافة الإسلاميّة، فقامت ثورة الحسين بن عليّ ومن بعده ثورة عبد الله بن الزّبير، ممتنعين عن مبايعة الخليفة الجديد، وفي وسط كل ذلك ثورة الحرّة في المدينة. كلّ هذا، وطوال هذه الفترة، حلّلته الدكتورة بثينة، بكلّ تأنّ وفي تفاصيله اللاّمتناهية التي زخرت بها كتب التّاريخ القديمة من أمثال تاريخ الطّبري، وأنساب الأشراف للبلاذري، وغيرهما من الكتب والمصادر.

إنّا نجد في مصادر بثينة معرفة دقيقة بكلّ المصادر وكذلك بما كتب حديثا من المراجع وتفسير الأسباب والمسبّبات ونظرة فسيحة إلى الأمور، وبالتّالي يدخل هذا الكتاب في زمرة من الكتب ظهرت منذ خمسين عاما وبرهنت على أنّ المسلمين ولجوا باب العلم الحديث في استقراء تاريخ الإسلام، ومنذ ثلاثين سنة برهنت المدرسة التّونسيّة على طول باعها في هذا الميدان بعد العمل الذي قام به المؤرّخون العراقيّون منذ الخمسينات إلى حدود الثّمانينات.

ليس هذا أوّل عمل قامت به الدّكتورة بثينة، فقد درست بكلّ جديّة وعمق مؤسّسات الدولة الأموية في المركز وفي كلّ أقطاب بلاد الإسلام، وهذا بتمام الدقّة وطول النّفس. ثمّ قامت بكتابة مقالات مختصّة متعدّدة، وأخيرا يأتي هذا الكتاب الجديد.

إنّ ما قامت به المدرسة التّونسيّة في مقام الدراسات التاريخية مفخرة لكلّ الوطن العربيّ وللعالم الإسلاميّ عامّة، لكنّ هذا المجهود لم يُعرف بما فيه الكفاية، ذلك أنّ علم التّاريخ في خصوص المجال الإسلاميّ كان إلى زمن قريب حكرا على المستشرقين، لسبب بسيط وهو أنّ العلم بصفته الأعمّ فتح من فتوحات العالم الغربي ابتداء من القرن السابع عشر، العلم بمعنييه: استكشاف الطبيعة واستكشاف التّاريخ الإنساني وقد برز الألمان في هذا الميدان. هؤلاء كتبوا في تاريخ الإسلام بكلّ جديّة وعمق، والعلماء الكبار منهم كتبوا بكلّ نزاهة.

هنا في هذه الرّقعة الصغيرة من الأرض التي أنجبت ابن خلدون برز علم التاريخ بصبغته الحديثة بقوّة بعد الاستقلال في أوجهه المتعدّدة، وتاريخ الإسلام بصفة خاصّة.

ولنذكر هنا أسماء متكاثرة من أجيال عدّة من الطالبي إلى عبد الحميد الفهري والرّاضي دغفوس ومحمد حسن وحياة قطاط وحياة عمامو ولطيفة البكّاي وسلوى بالحاج صالح وبثينة بن حسين وغيرهم ممن لم أذكر وقد كان لي الشّرف أن كوّنت البعض منهم أو ساهمت في تكوينهم.

إنّ العالم العربي الآن منغمس في متاهاته ولا يعير اهتماما إلاّ إلى واقع مشاكله، وهو مازال بعيدا عن البحث العلمي بجميع روافده، ومازال مصابا بمركّب النقص أمام الغرب وإنتاجاته، لكنّ النموّ الديموغرافي وتعميم التعليم ورسوخ روح البحث والمعرفة، لا بدّ، ولكلّ هذا، سيأتي يوما ما ـ يقرب أم يبعد ـ يتمّ فيه الاعتراف بإسهامات علماء القرن العشرين والواحد والعشرين وما قاموا به من تغيير

جذريّ في تحليل الماضي، وفي آخر المطاف في استنطاق روح حضارة هي حضارتنا، لكن أيضا هي من كبرى الثّقافات الإنسانيّة، إلى جانب الصين والهند وأوروبا. وهذا الكتاب من الإسهامات الرّصينة في هذا الميدان، فليفتحه القارئ، وليتشبّع بما أتى فيه.

هشام جعيط

المقدمة

إنّ موضوع الفتنة هو موضوع قديم جديد لأنّه مثّل ظاهرة تاريخيّة ترجع للقرن الأوّل للهجرة. لكنّه موضوع معاصر لأنّه يشغل بال كلّ العرب والمسلمين. فالفتنة جزء من هويّتنا الثقافيّة وما التعدّد المذهبي الذي نعيشه (الانقسام إلى شيعة وسنّة) إلاّ نتاج للفتنة!

إنّ هذا الموضوع مسّ الأمّة الإسلاميّة منذ مقتل الخليفة عثمان بن عفّان سنة ٣٥هـ/ ٦٥٦م. لقد أحدث مقتل عثمان انشقاقا في الضّمير الإسلامي وجرحا لم يندمل إلى الآن.

ابتدأت الفتنة الأولى منذ فترة الخليفة عثمان وتواصلت بعد مقتله. فقد رفض الصّحابة كالزّبير بن العوّام وطلحة بن عبيد الله وعائشة زوجة الرّسول البيعة لعليّ بن أبي طالب لأنّه حسب رأيهم آوى قتلة عثمان[١].

على هذا الأساس، اندلعت حرب بين الشقّين وهي واقعة الجمل ١٠ جمادى الثانية ٣٦هـ/ ٤ ديسمبر ٦٥٦م التي انتهت بانتصار الخليفة عليّ بن أبي طالب ومقتل طلحة بن عبيد الله والزّبير بن العوّام وترحيل عائشة للحجاز. وطالب معاوية بن أبي سفيان ـ والي الشام من قبل الخليفة عمر بن الخطّاب والخليفة عثمان بن عفّان ـ بالقصاص لوليّه عثمان. فاندلعت بينهما حرب صفّين ٣٦هـ/ صيف ٦٥٧م التي أدّت لانقسام جيش علي لشيعة وخوارج. وأدّى مقتل عليّ

---

(١) البلاذري، *أنساب الأشراف*، دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، ١٩٩٦، ج٥، ص١٢١.

لتولّي ابنه الحسن السّلطة لكنّه لم يكن قادرا على السّيطرة على الأوضاع.

لماذا ندرس الفتنة الثّانية أو فترة الخليفة يزيد بن معاوية ٦٠ ـ ٦٤هـ/ ٦٨٠ ـ ٦٨٤م؟.

لقد درس الأستاذ هشام جعيط الفتنة الأولى[١]، فكانت دراسته أوّل دراسة تاريخيّة معمّقة لهذه الفترة. وقد كنت ضمن طلبته عندما درّسنا هذا الموضوع الشيّق. إنّ كلّ ما يمتّ بصلة لفترة الفتنة الثّانية لم يقع دراسته من طرف المؤرّخين العرب أو المستشرقين. فأهمّ دراسة تعرّضت لهذه الفترة هي دراسة المستشرق الألماني فلهاوزن في مطلع القرن العشرين[٢].عنون فلهاوزن الفصل المخصّص لفترة الخليفة معاوية بن أبي سفيان «السفيانيّون والحرب الأهليّة الثانية». ورغم اقتضاب هذا الفصل فإنّ المؤرخ حلّل بعمق هذه الفترة. كما درس هنري لامنس فترة الخليفة يزيد بن معاوية في كتاب شيّق[٣] لأنّ هذا الكاتب يكنّ إعجابا كبيرا بالأمويّين. و تناول بالدّرس الخليفة معاوية بن أبي سفيان و كبار رجال دولته كعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة الثّقفي وزياد بن أبي سفيان[٤].

وبحث محمد عبد الحيّ شعبان في هذه الفترة في السبعينات من القرن الماضي[٥]. وعنون فصله عن الفتنة الثانّية بـ«معاوية والحرب الأهليّة الثّانية». لكنّه

---

(١) هشام جعيط، *الفتنة جدليّة الدّين والسياسة في الإسلام المبكّر*، دار الطليعة للطّباعة والنشر، بيروت، د.ت (الترجمة العربيّة).

(٢) يوليوس فلهاوزن، *تاريخ الدولة العربيّة من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأمويّة*، ترجمة محمد الهادي أبو ريدة وحسين مؤنس، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٨، ص١٠٦ ـ ١٨١.

(3) Henri Lammens,Le califat de Yazid Ier, Beyrouth, 1921.
Henri Lammens, *Etudes sur le règne du calife omaiyade Moawia Ier*, Extrait des Mélanges de la Faculté Orientale de l'Université Saint-Joseph, Imprimerie Catholique, Beyrouth,1906.

(4) Henri Lammens, *Etudes sur le siècle des Omaiyades*, Beyrouth, 1930.

(٥) محمد عبد الحيّ شعبان، *صدر الإسلام والدولة الأمويّة ٦٠٠ ـ ٧٥٠م (١٣٢هـ)*، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٧، ص٩٠ ـ ١٠٨.

غيّب ذكر الخليفة يزيد بن معاوية وعتّم عليه، حيث مرّ من خلافة معاوية إلى خلافة مروان بن الحكم فلماذا هذا التّجاهل والتّعتيم لفترة الخليفة يزيد بن معاوية؟

فرغم أهميّة كلّ من المرجعين فإنّهما لم يدقّقا دراسة الفترة فبقيت غامضة وضبابيّة رغم أهميّتها.

فقد رفض أبناء الصّحابة كالحسين بن علي وعبد الله بن الزبير البيعة ليزيد على أساس أنّه لا تتوفّر فيه صفات الخلافة فهو ماجن وفاسق ويشرب الخمر. وبدأ الحسين بن عليّ حركته السياسيّة الدينيّة أي المطالبة بالحكم بالتحاقه بالعراق وبالتّحديد بالكوفة بعد أن ناداه أهلها. وقتل الأمويّون الحسين وآله بكربلاء بعد أن تخاذل عنه أهل الكوفة. كما رفض أهل المدينة سلطة الخليفة يزيد فتراجعوا عن بيعتهم له بعد أن أعطوها للخليفة. فأرسل إليهم يزيد جيشًا شاميًا فقتّلهم في واقعة الحرّة. كما أعلن عبد الله بن الزّبير، العائذ بالحرم، بعد مقتل الحسين بن عليّ رفضه مبايعة يزيد لعدم اكتسابه لشرعيّة تاريخيّة. ولجأ يزيد لنفس الأسلوب وهو الأسلوب العسكري بواسطة جيش الشام الذي حاصر الحرم المكّي وضرب الكعبة بالمنجنيق.

«تعدّى» الأمويّون حسب أبناء الصّحابة على ثلاث «حُرمات» في عهد الخليفة يزيد بن معاوية: حرمة الحسين بن عليّ «حفيد الرسول» وابن عمّ يزيد لأنّه طالب بالسّلطة، وحرمة المدينة مدينة الرّسول (واقعة الحرّة) لرفضهم البيعة والطاعة، وحرمة البيت الحرام لإجبار ابن الزّبير العائذ بالحرم على البيعة ليزيد. كما غُيّب الخليفة الذي أمر بكلّ هذه الأفعال وهو الخليفة يزيد بن معاوية. وتعتبر مصادرنا[1] كلّها مصادر كُتبت في الفترة العبّاسيّة. فإلى أيّ مدى كانت هذه المصادر قريبة من الحقيقة التّاريخيّة؟

يعتبر الطّبري مصدرا أساسيًا لدراسة هذه الفترة لأنّه قدّم الأخبار في شكل

---

(١) الطبري، *تاريخ الرسل والملوك*، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩، ج٥ ـ ٦؛ البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣ ـ ٥ ـ ٦.

حوليّات، فنقل الأحداث بدقّة كبيرة. كما أنّ البلاذري أرّخ للأشراف كيزيد بن معاوية والأحداث المتعلّقة بفترة حكمه (ثورة الحسين بن عليّ، وثورة عبد الله بن الزّبير، وثورة أهل المدينة وواقعة الحرّة).

لقد بدأت دراستنا للنّصوص منذ سنة ١٩٨٩، تاريخ بدايتنا لأوّل بحث عن الدّولة الأمويّة. وقد استهوتنا هذه الفترة وتعلّقنا بكلّ شخصيّاتها. ووجدنا أنّه لم يقع دراسة هذه الفترة أي الفترة الأمويّة وبالتّحديد فترة الخليفة يزيد بن معاوية بما فيه الكفاية. فقد كان همّنا الأساسي في كتابنا[1] الأوّل دراسة الدّولة الأمويّة بينما تطرح علينا دراسة الفتنة التطرّق إلى آليّات هذه الحركة أو الحركات وعلاقة الحركات المنبثقة من الفتنة بالدّولة الأمويّة أو الخليفة يزيد بن معاوية وآليّات السّلطة أو الدّولة في التّعامل مع هذه الحركات. فمنطق السّلطة يفرض على الخليفة يزيد بن معاوية تركيز إيديولوجيا الدولة كفرض الطّاعة والمحافظة على وحدة الجماعة أو الأمّة من الانشقاق. بينما رأى الحسين بن عليّ أو عبد الله بن الزّبير أنّهما يكتسبان شرعيّة تاريخيّة ودينيّة تجعلاهما أحقّ بالخلافة من يزيد. فالحسين هو حفيد الرّسول وابن عليّ - ابن عمّ الرّسول وختنه والصّحابي - بينما لم تتوفّر في يزيد كلّ هذه الصّفات لكونه عهد له الخليفة معاوية في حياته. وقد اعتبروا أنّ هذا اختراق للتّقاليد الإسلاميّة لا سيّما أنّ يزيدا كان حسب رأيهم فاسقا وماجنا.

ساعدتنا دراستنا للدولة الأمويّة كمؤسّسات ومقوّمات إيديولوجيّة واجتماعيّة في هذه الدّراسة للفتنة الثّانية من تخطّي بعض الصّعوبات المتعلّقة بآليّات الدّولة وردود فعلها تجاه الحركات المناهضة لسلطتها وسلطانها.

---

(١) بثينة بن حسين، *الدولة الأمويّة ومقوّماتها الإيديولوجيّة والاجتماعيّة*، منشورات كليّة الآداب والعلوم الإنسانية بسوسة، ٢٠٠٨، ٤١٣ ص. درسنا في هذا الكتاب مؤسّسات الدولة الأمويّة أي الهياكل العامّة للدّولة والدعائم الإيديولوجيّة والاجتماعية لهذه الدولة من عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان إلى آخر عهد الخليفة هشام بن عبد الملك (٤١ - ١٢٥هـ/ ٦٦٠ - ٧٤٣م).

ما هي الإشكاليّات التي تطرحها هذه الدّراسة؟ كيف تطوّرت هذه القوى المتصارعة والمتنافسة على السلطة؟ ما هي طبيعة هذه القوى السياسيّة أو السياسيّة الدّينيّة؟ وما هي مطالبها؟ وما هي إنجازاتها؟ وما هي علاقاتها ببعضها البعض؟ وهل نجحت هذه القوى المتصارعة في إقامة دول؟ وما هي الشرعيّات الدينيّة أو السياسيّة والمطالب والبرامج السياسيّة أو الدينيّة لهذه الحركات؟ لماذا كانت هذه الحركات عنيفة في التّصفية الجسديّة لبعضها البعض؟ وما هي مدى مصداقيّة المصادر في حديثها عن هذه الحركات؟

كلّ هذه الإشكاليّات سنحاول الإجابة عنها في هذا الكتاب. ولا نخفي على القارئ شعورنا بالرهبة في تناول هذا الموضوع الحسّاس والمتعلّق بدولة طالما غُيّبت من الشّيعة العبّاسيّين لأنّها قتلت الحسين بن عليّ وآله وقتّلت أهل المدينة في واقعة الحرّة وضربت الكعبة بالمنجنيق.

إنّ دراسة الفتنة الثّانية أساسيّ لنحسّن فهمنا لهذه الفترة. فكيف يمكن للمؤرّخ فينا أن يقوم بعمله بكلّ موضوعيّة علميّة دون تحمّس أو تعصّب أو انغلاق؟ نحن أيضًا نبحث في جوّ مفعم بالرّمزيّة التي طبعت المخيال العربي الإسلامي لقرون ومازالت تغذّيه. فكيف يمكن تفكيك تلك الرمزيّة واستنطاقها لتُدْلي لنا بما وراءها وما يحرّكها؟ ففهم هذه الرمزيّة يمكّننا من فهم ذاتنا وهويّتنا.

ونرجو أن يفتح هذا الكتاب للقارئ نوافذ يفهم من خلالها مكوّنات ماض غائب ـ حاضر، لا يزال يحرّكنا لكنّه لم يدرس بعمق.

القسم الأوّل

الفترة الأولى من الفتنة

رفض الحسين بن عليّ و عبد اللّٰه بن الزّبير البيعة

الفصل الأوّل
أسباب الفتنة الثّانية

المقدمة:

إنّ ما يلفت انتباهنا هو اختلاف المصادر في تناولها لفترة الخليفة يزيد بن معاوية. فالطّبري تناول الفترة ككلّ ولم يركّز تركيزا مباشِرًا على شخص يزيد لاعتماده دراسة التّاريخ العام في شكل حوليّات. بينما اتّبع البلاذري طريقة في التّأريخ برزت في عنوان الكتاب وهي أنساب الأشراف. على هذا الأساس، ظهر يزيد شخصيّة متميّزة ذات معالم مختلفة أي معالم إيجابيّة. فهو رجل دولة مقتدر وحريص على فرض سلطة الدّولة وإكمال ما قام به معاوية. لكنّه ذو سلطة منقوصة وهشّة لأنّه لم يقع الإجماع عليه من الأمّة جمعاء.

سياسة الخليفة معاوية بن أبي سفيان

حكم معاوية عشرين سنة فاتّبع سياسة شبيهة بسيّد القبيلة. فقد كان داهية يسوس النّاس بدهائه وكريما يغدق العطاء على النّاس[1]. وكانت سلطته ترتكز على الحلم[2] كوسيلة لسياسة النّاس ممّا كان يثير غضب أهله ضدّه. فقد لامت عليه

---

(١) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٩٠ ـ ٩١ ـ ٩٣.

(٢) ابن منظور، *لسان العرب المحيط*، دار لسان العرب، بيروت، د.ت، ج١، ص٧٠٧: الحِلمُ: الأناةُ والعقل.

هشام جعيط، *في السيرة النبويّة عدد ٢، تاريخية الدعوة المحمّدية في مكّة*، دار الطليعة، بيروت، =

زوجته فاختة ابنة قَرَظة بن عبد عَمرو بن نوفل بن عبد مناف حلمه على النّاس وضعفه في التّعامل معهم. وأشارت عليه باتّباع سياسة فيها استعلاء. لكنّ معاوية أجابها بأنّه لا يستطيع أن يُذِلّ العرب لإحساسهم بالأنفة والاستقلالية تجاه السّلطة. وبيّن لها - وهي تستمع من وراء السّتار - أنّ نظرته للأمور صائبة. فأدخل أشرافا من قيس وربيعة واليمن فحقّر من شأنهم وتهدّدهم بالعقاب لانتقادهم للخلافة. فكانت إجابات الثّلاثة أشراف تعبّر عن إحساسهم بالقوّة نظرا لمساندة عشائرهم لهم. كما أنهم حقّروا من شأن معاوية. عندها اقتنعت زوجة معاوية بحكمته في اتّباع الحلم والرّفق والمداراة[1]. أقام معاوية سياسته الاجتماعيّة على الأشراف الذين كانوا يلعبون دور الواسطة بينه وبين عشائرهم. ولعلّ أهمّ خطّ سياسي لمعاوية يتلخّص في قولته التّالية: «لا أضع لساني حيث يكفيني مالي، ولا أضع سَوْطي حيث يكفيني لساني، ولا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي، فإذا لم أجدْ من السيف بُدًّا ركبتُه[2]».

لكنّ هذا التّوازن سيتصدّع بعد موته خاصّة أنّه خلق بذور الفتنة. فقد ذكر أبو مخنف[3] عن الحسن[4] أربع «موبقات[5]» لمعاوية: أوّلها ابتزاز أمر الأمّة دون

= ٢٠٠٧، ص١٣٨ - ١٣٩: «من يكتسب عقولاً (من عَقَل) أي انضباط النفس وحسن الحكم في الأمور وهو ضد الجهالة وضد السفاهة والسّفهاء. المسألة اجتماعيّة في الأصل ثم يتعمّم المفهوم على السلوك».

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص١١٥ - ١١٦.

(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٢٨.

(٣) عبد العزيز الدوري، بحث في *نشأة علم التاريخ عند العرب*، المطبعة الكاثوليكيّة، بيروت، د.ت، ص ٣٥: أبو مخنف (ت ١٥٧هـ / ٧٧٤م) إخباري كوفي من قبيلة الأزد. كتب عن الردّة، و عن فتوح الشّام و العراق، و الشّورى، و صفّين، و عن الحوادث التّالية في العراق حتّى نهاية العصر الأموي و خاصّة الثّورات والمعارك. ويورد أبو مخنف عادة الصّورة العراقيّة العراقيّة (الكوفية) للأحداث. كما أنّه أميل للعلويّين تجاه الأمويّين. لكنّه يتميّز بموضوعيّته.

(٤) الطبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٢٧٩.

من الأرجح، أنّه الحسن البصري و هو مولى من سبي ميسان. كانت أمّه أمّ الحسن مولاة أمّ سلمة زوجة الرّسول. نشأ بالمدينة ثمّ انتقل إلى البصرة حيث تولّى القضاء في فترة الخليفة عمر بن عبد العزيز.

وكيع، *أخبار القضاة*، عالم الكتب، بيروت، د.ت، ج٢، ص٣ - ٧.

(٥) ابن منظور، معجم مذكور، ج٣، ص٨٧٠: المُوبِقات أي الذنوب المُهلكات.

استشارة لأبناء الصّحابة، واستخلافُه ابنه يزيد وهو سكّير ويلبس الحرير ويضرب الطنابير[١]، وادّعاؤه زيادًا[٢] بينما ذكر الرسول أنّ «الولد للفِراش، وللعاهِر الحَجرُ»، و قتله لحُجر بن عدي الكندي[٣].

لقد اتّخذ معاوية عدّة مظاهر من مظاهر الملك منذ ولايته في عهد عمر[٤] حيث كان يغدو ويروح في موكب وعندما لامه الخليفة عمر على ذلك، برّر معاوية موقفه بوجوده في أرض متاخمة لأرض العدوّ ووجوب إخافتهم بعزّ الإسلام. فأفحم هذا الجواب عمر.

فقد استأثر بالسّلطة وتجاوز مبادئ الشّيخين التي تعتبر فترتهما الفترة المُثلى للحكم: حكم الخلافة الحقّ والشّرعيّة[٥] واستخلف يزيدا. وادّعى زياداً ليقوّي به سلطته لأنّ المجتمع الأموي كان مجتمعا قبليًا ولا بدّ لموظّف هامّ من موظّفي الدّولة الأمويّة أن يكون منتميًا لقبيلة شريفة. وكان هذا الإدّعاء على حساب السنّة. وقضى معاوية على حجر قضاء مبرما من منطق السّلطة لأنّه مسّ الإيديولوجيا الأمويّة وهدّد الحكم الأموي.

إنّ ما يهمّنا هو العهد ليزيد وهو يندرج في إطار تقاليد الملك. فتوريث الحكم غير موجود لدى قريش (انتخاب الأكثر شرفا والأكبرسنّا). بينما توجد هذه العادة لدى ملوك اليمن في جنوب الجزيرة العربيّة والمناذرة (مملكة تبيعة للفرس في العراق) والغساسنة (مملكة تبيعة للبيزنطيّين[٦]). وهذه الفكرة هي فكرة مقبولة من أهل الشّام.

---

(١) ابن منظور، معجم *مذكور*، ج٢، ص٦١٧: الطنبورُ، الطّنبار معروف، فارسي معرّب دخيل. يشبه ألية الحَمَل. الطّنبور الذي يُلعبُ به.

(٢) والي العراق وخراسان في عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان و «أخ» معاوية حيث استلحقه بنسبه بحجّة أنّ أبا سفيان زنى مع بغيّ في الجاهليّة ـ وهي سميّة ـ وكانت هذه من بين الهنات التي أوخذت على معاوية.

(٣) أوّل حركة شيعيّة بالكوفة. قضى عليها معاوية بقتل أعضائها.

(٤) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص١٥٥.

(٥) هشام جعيط، *الفتنة*، ص٦.

(٦) العهد لدى البيزنطيين.

لقد أدخل معاوية العهد وهو قاعدة أساسيّة في الحكم الأسروي. فأنشأ بذلك السّلالة السفيانيّة. لكنّ يزيدا لم يكن الوريث المثالي لأنّه مخمور وسكّير ويلبس الحرير ويضرب الطّنابير.

هل كان معاوية يشرب الخمر ويلبس الحرير ويستمع إلى الغناء؟ هل وقع الإغضاء عن معاوية ونُسبت كلّ هذه المظاهر ـ وهي مظاهر الملك ـ ليزيد؟ لا ننسى أنّ هذه الرّواية هي رواية كوفيّة، وبالكوفة يوجد تيّار شيعيّ معادٍ للأمويّين. ربّما تطوّر الملك في فترة معاوية إلى درجة معيّنة جعلت يزيدا يستفيد من هذا التطوّر ويتصرّف مثل وليّ عهد بيزنطي. ومن بين مظاهر الملك التي تدخل في إطار الأنتروبولوجيا التّاريخيّة نذكر لبس يزيد للحرير[1] أي اتّخاذ يزيد مظهرًا من مظاهر التّرف والبذخ في اللّباس بينما حرّم من قبل الرّسول. وهنا يجب علينا التّأكيد على عدم اعتماد الأمويّين على السنّة النبويّة لأنّهم أدخلوا مظاهر الملك في المحيط السّياسي البيزنطي والسّاساني والتي تضفي على سُلطتهم جانب الفخامة والأبّهة. ويمكننا الاستناد إلى خبر قصصي يذكر تحريض والي الكوفة ابن أخت معاوية، وهوعبد الرحمن بن أمّ الحكم، الأشراف على يزيد لشربه الخمر. وشهد على ابن أمّ الحكم هانئ بن عروة المرادي وأبو بردة بن أبي موسى الأشعري. لكنّ معاوية عندما أعلمه يزيد بحقيقة الأمر أنكر ذلك واعتبره مكيدة

---

(١) كان عبد الرحمن بن عوف الصحابي يلبس الحرير «من شرًى كان به» وحرّم عمر لبس الحرير ابن سعد، *الطبقات الكبرى*، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٩٠، ج٣، ص٩٦.
ابن منظور، معجم *مذكور*، ج٢، ص٣٠٩ الشّرى: شيء يخرجُ على الجسد أحمر كهيئة الدراهم، وقيل: هو شبه البَثْر يخرج في الجسد.
الإمام أبو الحسين مُسلم بن الحجّاج القُشيري النّيسابوريّ، *صحيح مسلم*، دار إحياء التّراث العربي، بيروت، ١٩٥٥، ج٣، ص١٦٤٦: «حدّثنا أبو كُريْب، محمّد بن العلاء. حدّثنا أبو أسامة عن سعيد بن أبي عروبةَ. حدّثنا قَتادةُ؛ أنَّ أنس بنْ مالكٍ أنبأهمْ؛ أنّ رسُول الله صلّى الله عليه و سلّم رخّص لِعبد الرّحمن بن عوفٍ والزّبيرِ ابن العوّام في القُمُص الحرير في السّفرِ من حكّةٍ كانت بهما، أو وجع كان بِهما. «الحكة هي الجرب أو نحوه.» حدّثني إبراهيم بن موسى الرّازي. أخبرنا شُعيب بن إسحاق الدّمشقيُّ عن الأوزاعيِّ. حدّثني شدّادُ، أبو عمّارٍ. حدّثني أبو أُمامةَ؛ أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال «من لبس الحرير في الدّنيا، لم يلْبسْهُ في الآخِرة».

دُبّرت ضدّ ابن أمّ الحكم. ونصح يزيد بأن يتّقي الله في ابن عمّته[١]. واكتفى معاوية بعزله عن الكوفة. والحال أنّ هناك صراع بين ابن أمّ الحكم ويزيد[٢] لعلّه راجع لغيرة ابن أمّ الحكم من يزيد. وربّما يدخل هذا التّحريض ضدّ يزيد في إطار هذا الصّراع.

ولعب الشعر دورا هامّا في الدّعاية ضدّ البيعة ليزيد. فقد هجا عبد الله بن هَمّام السَلولي[٣] الأمويين وأساسا معاوية على تركيزه للحكم الأسروي وهي كسرويّة في الحكم. كما حقّرالشّاعر من شأن يزيد الذي كان يصطاد الأرانب وضيّع شؤون الرعيّة:

فإنْ تأتوا بِبَرَّةَ أو بهندٍ	نُبايِعْها أميرة مؤمنينا
وكُلّ بَنيكَ نَرْضاهُمْ جميعًا	وإنْ شِئْتُم فعمُّهُمُ البَطينا
إذا ما ماتَ كِسْرَى قام كِسْرَى	نَعُدُّ ثَلاثَةً متناسِقينا
أيا لَهْفاَ لَو أنَّ لنا رجالاً	ولكِنّا نَعود كَما عُنينا
إذًا لَضُرِبْتُمْ حتّى تَعودوا	بِمَكَّةَ تَلْعَقونَ بِهَا السخينا
خُشينا الغَيْظَ حتّى لوْ سُقينا	دِماءَ بَني أُمَيَّةَ ما رَوينا
لَقد ضاعَتْ رعيَّتُكُمْ وأنْتُمْ	تَصيدونَ الأرانبَ غافِلينا

لقائل أن يقول كيف ظهرت فكرة البيعة ليزيد وهي فكرة جديدة أدخلها معاوية في التّقاليد السياسيّة[٤]. وكيف تمّت البيعة ليزيد؟ ومن أين انبثقت الفكرة؟

يبدو أنّ فكرة البيعة ليزيد جاءت من المغيرة بن شعبة[٥] الثّقفي والي الكوفة من

---

(١) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص١٤٥ ـ ١٤٩.

(٢) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٨٤ ـ ٨٥ ـ ١٠٢ فخر ابن أمّ الحكم على يزيد فقال له: «خالي من قريش وخالك من كلب» ورفع يزيد أمره إلى معاوية.

(٣) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٧٠.

(٤) مصعب الزّبيري، *كتاب نسب قريش*، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢، ص١٢٧.

(٥) المغيرة بن شعبة: هو أحد دهاة العرب. شهد الحديبيّة مع النبي، و بايع بيعة الرضوان تحت الشجرة. شهد المغيرة يوم القادسية، وولاّه عمر البصرة فافتتح بها فتوحا. وعزله عمر وولاّه بعد ذلك الكوفة. وولاه =

قبل الخليفة معاوية الذي طلب من الخليفة أن يعفيه من عمله لكبر سنّه. لكنّه تفطّن إلى إمكانيّة تعيين الخليفة لسعيد بن العاص. فدخل على يزيد وعرض عليه البيعة. فأبلغ يزيد معاوية بذلك. وعلى هذا الأساس، أرجع المغيرة إلى عمله بالكوفة. وأمره الخليفة في العمل على البيعة ليزيد. و يبدو أنّ المغيرة قد ابتدأ البيعة ليزيد لكنّ المصادر لم تذكر من وافق على البيعة ليزيد هل هم الأشراف، أشراف الكوفة؟ هل كانت الفكرة موجودة بذهن معاوية وتشجّع على تنفيذها بإشارة من المغيرة؟ يبدو من خلال هذه الرّواية أنّ الفكرة الأسرويّة نشأت بصفة عرضيّة. فقد كان دهاء المغيرة (المحافظة على منصبه) محدّدا لنشأتها.

من الممكن أنّ فكرة الحكم الأسروي كانت تختمر بذهن معاوية، بما أنّه وضع قواعد الملك، لكنّه كان متخوّفا من ردّ فعل أبناء الصّحابة أساسا الحسين بن علي[1] أي رفضهم للفكرة الأسرويّة.

ثمّ استشار معاوية زياد بن أبي سفيان[2] في البيعة ليزيد. لكن قبل الخوض في هذه المسألة، يجب أن ندرس طبيعة العلاقة بين معاوية وزياد.

كان هذا الأخير لا يُطيع معاوية في الأمور التي يكرهها النّاس أي أنّه يعلن عصيانه لمعاوية بكلّ استقلاليّة[3]. فهناك اقتسام للسّلطة بين الخليفة وعامله على شاكلة الأباطرة الرّومان. وعلى هذا الأساس، استشار زياد أحد رجال العراق وهو عبيد بن كعب النّميري الذي يتميّز بعقله وشرفه ودينه، في البيعة ليزيد[4]. فقال له إنّ معاوية استشاره وهو يتخوّف على الأمّة. كما أنّ يزيد «صاحبُ رَسْلَة[5]

= معاوية الكوفة. البلاذري، *مصدر مذكور*، ج١٣، ص٣٤٣ ـ ٣٤٤.

(١) توفي الحسن بن علي سنة ٤٩ أو ٥٠ أو ٥١هـ وهذا ما سيفسح المجال أمام معاوية للبيعة ليزيد. البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٢٩٩.

(٢) والي العراق من قبل الخليفة معاوية.

(٣) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٢٢٣.

(٤) ربّما كان هذا الشخص مستشارًا لزياد. فقد أوفده زياد على معاوية، فسأله الخليفة عن سياسة زياد للعراق فأجابه جوابا مقنعا وصريحا وإيجابيّا. البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٩٨ ـ ٩٩.

(٥) ابن منظور، *معجم مذكور*، ج١، ص١١٦٦: رجل فيه رَسْلة أي كَسَل.

وتهاون، مع ما قد أولع به من الصيد[١]»، وطلب زياد من عبيد بن كعب أن يعلم معاوية برأيه في يزيد. لكنّ المستشار نصح زيادًا أن يلتقي بيزيد سرّا ويعلمه بما نوى معاوية (استشارة زياد في البيعة ليزيد)، وتخوّف زياد من إنكار النّاس لبيعته للأسباب السّابقة الذّكر ثمّ الإشارة عليه بالإقلاع عن «أفعاله المكروهة»[٢] من النّاس حتّى يتمكّن معاوية من إقناع النّاس بالبيعة ليزيد ويستقيم أمر الأمّة.

وطبّق المستشار ما أشار به على زياد، فأتى يزيد فأبلغه الرّسالة، وكتب زياد إلى معاوية يأمره بالتأنّي و عدم التسرّع. «فقبل» معاوية ذلك، «وكفّ يزيد عن كثير ممّا كان يصنع». وأهدى زياد عبيدا قطيعة[٣].

تبدو صورة يزيد من خلال حديث زياد سلبيّة فهو كسول ومتهاون وماجن وأقلع عن كثير من أفعاله بعد أن أشار عليه عبيد بن كعب لكنّنا نتساءل هل هذا هو رأي زياد بالفعل؟ أم أنّه نُسِبَ له من طرف أهل العراق؟ وهل كانت هناك منافسة بين يزيد وزياد ـ بما أنّ زيادا يعتبر مؤسّسا للدّولة مثلَه مثل معاوية ـ؟ فكان زياد يُفضِّل أن يتولّى هو ولاية العهد عوضا عن يزيد!؟

من الملاحظ من خلال الخبر المذكور أنّ معاوية لم يتخوّف من ردّ فعل أهل الشام لتعوّدهم على الملك. بل كان يخشى ردّ فعل أهل العراق خاصّة القرّاء الذين كانوا حريصين على المبادئ القرآنيّة وكانوا بالأساس متشيّعين وبالتّالي حريصين على تطبيق ما جاء في صلح الحسن مع معاوية.

كان معاوية متخوّفا من ردّ فعل زياد لذلك بايع ليزيد بعد موت زياد[٤] سنة ٥٦هـ هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، «أخلّ» معاوية بالصّلح[٥] الذي أبرمه مع

---

(١) الطبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٠٢.
(٢) نُسبت إلى يزيد عدّة أفعال قصد تشويه صورته.
(٣) الطبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٠٣.
(٤) الطبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٠٣ توفي معاوية سنة ٦٠هـ.
(٥) محتوى الصّلح هو: «هذا ما صالح عليه الحسن بن علي معاوية بن أبي سفيان، صالحه على أن يسلّم إليه ولاية أمر المسلمين، على أن يعمل فيها بكتاب الله وسنّة نبيّه وسيرة الخلفاء الصالحين، وعلى أنّه ليس=

الحسن بن عليّ سنة ٤١هـ. فقد بايع لابنه ولم يجعلها شورى وقتل حجرًا وأصحابه وسمّ الحسن[١] حسب حصين بن المنذر الرّقاشي[٢] ـ وهو أحد أشراف البصرة ـ المهمّ أنّ معاوية أخلّ بمبدأ أساسي من الصلح بالبيعة لابنه وهو مبدأ الشّورى الذي وضعه عمر بن الخطّاب[٣] وهو من أهمّ المبادئ الإسلاميّة في الحكم.

كيف تمّت البيعة ليزيد؟

قرأ معاوية كتابا على النّاس باستخلاف يزيد إن حضرته الوفاة أي أنّه وليّ عهده. هل كانت هذه العادة موجودة لدى البيزنطيّين أو الغسّانيّين؟ وهل يعتبر هذا الكتاب وثيقة رسميّة للاستخلاف؟ من كتب هذا الكتاب؟ ومن حضركتابته: هل حضر كتابته أشراف الشّام أي العناصر الاجتماعيّة القريبة من معاوية؟ يبدو أنّ هناك تململ حول مبايعة يزيد. فقد لعن رجل (لم يذكر البلاذري من هو الرّجل) معاوية عند البيعة ليزيد. فحلُم عنه معاوية على أساس أنّه يبايع ليزيد «فإنّ الله جعل في الكثرة خيرًا كثيرًا[٤]».

أين تمّت البيعة التي يذكرها البلاذري؟ هل الرّجل ينتمي للشّام أم للحجاز أم للعراق؟ يدلّنا هذا الخبر على أنّ البيعة لم تكن مقبولة من كلّ النّاس. كما أنّ معاوية كان حريصًا على الإجماع (إجماع النّاس على البيعة) أي أنّه كان يحسّ بهشاشة هذه البيعة (لضعف الشرعيّة التّاريخيّة ليزيد بالمقارنة مع أبناء الصّحابة) ويتخوّف من ردّ فعل أوساط أبناء الصّحابة. وقد بايع كلّ النّاس ليزيد ماعدا خمسة أشخاص وهم الحسين بن عليّ بن أبي طالب وعبد الله بن عمر بن الخطّاب وعبد

= لمعاوية أن يعهد لأحد من بعده، وأن يكون الأمر شورى والناس آمنون حيث كانوا على أنفسهم وأموالهم وذراريهم، وعلى أن لا يبغي الحسن بن علي غائلةً سرّا ولا علانية، ولا يُخيف أحدًا من أصحابه». البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٢٨٧.

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٢٩٥ تذكر الرواية أنّ معاوية دسّ إلى إحدى زوجات الحسن سمّا لتقتله مقابل مال أعطاه لها!.

(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٢٩٠.

(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج١٠، ص٤١٢.

(٤) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٨٨.

الله بن الزّبير بن العوّام وعبد الرحمن بن أبي بكر الصدّيق وعبد الله بن عبّاس بن عبد المطلّب[١]. وقد ذهب معاوية للحجاز (على الأرجح بمكّة[٢]) لطلب البيعة من أبناء الصّحابة فتخادع لهم ليجبرهم على البيعة ليزيد ابتداء من الحسين بن عليّ. وقال له معاوية بأنّ النّاس بايعوا ليزيد ما عدا خمسة أشخاص من قريش هو يقودهم. فأجابه الحسين بأن يرسل إليهم فإن بايعوا كان رجلا منهم. وأوصاه معاوية بأن لا يذيع السرّ[٣]. لكنّ ابن الزّبير توصّل إلى معرفة ما دار بين الحسين وابن الزّبير. وأعاد معاوية على مسامع ابن الزّبير ما ذكره للحسين. فوعده بالبيعة إذا بايع النّاس وأن لا يفشي السرّ. كما وعد ابن عمر معاوية بنفس الشيء. وتخاصم معاوية مع عبد الرحمن بن أبي بكر وأغلظا لبعضهما القول. ولم يذكر ابن عبّاس[٤].

المهمّ أنّ أبناء الصّحابة لم يبايعوا ليزيد، أي أنّ البيعة لم تكن في أعناقهم. وبذلك سيكون المجال مفتوحا أمامهم لإعلان الثّورة على يزيد. ويبدو أنّ معاوية أجبر أبناء الصّحابة على البيعة بقوّة السّيف[٥].

وتظهر مخاوف معاوية من هذه الوضعيّة عندما رجع من الحجاز إلى الشّام أي لماّ لم يتمكّن من فرض البيعة على أبناء الصّحابة[٦]. فقد ذكر معاوية لابنه أنّه أخضع له أعناق العرب ما عدا الحسين بن عليّ وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزّبير وعبد الرحمن بن أبي بكر. أمّا الحسين بن عليّ فهو «ذو رحم ماسّة» و «حقّ عظيم» و «قرابة بالنبيّ» وسيخرجه أهل العراق على يزيد، ونصحه أن يعفو عنه.

---

(١) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٠٣؛ ابن سعد، *مصدر مذكور*، ج٢، ص٢٧٨ ـ ٢٨٤؛ البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٤، ص٣٩ ـ ٧٣.

(٢) فهمنا ذلك من كلام ابن الزّبير الذي ذكر لمعاوية أنّهما في حرم الله. الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٠٤.

(٣) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٠٤.

(٤) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٠٤.

(٥) السّيوطي، *تاريخ الخلفاء*، بيروت، ١٩٨٨، ص٢٤٥.

(٦) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص١٥٢.

واستبعد معاوية أن يُطالب ابن عمر يزيدا بالخلافة لأنّه كان مشغولا بالعبادة وقراءة القرآن. كما أنّ عبد الرحمن بن أبي بكر كان مشغولا عن المطالبة بالخلافة بالنّساء، وهو يتبع أصحابه في اختياراتهم[١].

أمّا من يهدّد سلطة يزيد فهو عبد الله بن الزّبير الذي وصفه معاوية بالمراوغ والمتوثّب للسّلطة ونصح الخليفة ابنه أن يقضي عليه قضاءً مبرمًا إلاّ إذا طلب منه الصلح فإنّه يقبل منه. وتمثّلت النّصيحة الأخيرة في تجنّب إراقة دماء قومه ما استطاع.

وبعد مدّة قصيرة من رجوع معاوية من الحجاز، توفي عبد الرحمن بن أبي بكر فلم يبق إلاّ أربعة منافسين. وفي الأثناء، تلقّى معاوية البيعة لابنه من الوفد الذي قدم مع عبيد الله بن زياد من البصرة[٢]. وأعاد معاوية على مسامع ابنه نفس النصائح أو العهد حين مرض قبل موته لكنّه أشار على يزيد بقتل ابن الزّبير[٣] إذا ثار عليه. وكرّر معاوية في وصيّته ليزيد عندما حضره الموت[٤] هذه التّوصيات. ولم يبق من الخصوم السياسيّن ليزيد إلاّ ثلاثة الحسين بن عليّ وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزّبير. فعبد الله بن عمر رجل مهتمّ بالدين ولا يثور عليه. أمّا الحسين بن عليّ فهو رجل خفيف[٥] وسيخذل ويقتل من قِبل من قتل أباه وجرح أخاه. كما يضيف معاوية أنّ آل أبي طالب «محدودون» أي ليس لديهم بعد الرؤيا وهم يطلبون السّلطة لكنّ العرب لم تمنحهم إيّاها[٦]. لكنّ العنصر الأكثر خطورة هو عبد الله بن الزّبير لأنّه مخادع، ونصح معاوية ابنه بأن يثبت له فسيضعف إلاّ إذا طلب الصّلح.

---

(١) الطبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٢٢.
(٢) الطبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٢٢ عبيد الله بن زياد هو والي البصرة من قبل الخليفة معاوية.
(٣) الطبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٢٢.
(٤) الطبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٢٣؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص١٥٣.
(٥) الطبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٢٣؛ابن منظور، معجم مذكور، ج١، ص٨٦٧: خفة الرّجل: طيشه وخفّته في عمله.
(٦) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص١٥٣.

يبدو معاوية من خلال هذه النّصائح والتّوصيات التي ذكرها ليزيد في ثلاث مناسبات أنّه متخوّف من أبناء الصّحابة وأساسا الحسين بن عليّ وعبد الله بن الزّبير لشرعيّتهما التّاريخيّة بالمقارنة مع يزيد. وقد كانت تخوّفات معاوية في محلّها.

شخصيّة يزيد بن معاوية قبل تولّي الخلافة

أرسل الخليفة معاوية جند الشام لجهاد الروم سنة خمسين، وأمر يزيد بالغزو «فتثاقل» وادّعى أنّه مريض. «فأمسك» عنه معاوية. وقد أصاب النّاس في الغزو وباء وأمراض وجوع، فأنشد شعرًا يتغنّى فيه بزوجته أمّ كلثوم، وهي بنت عبد الله بن عامر بن كُريْز:

«ما إنْ أبالي بما لاقَتْ جُمُوعُهُم ... بالفَرْقَذونةِ[1] مِنْ جوعٍ ومِن مومِ[2]

إذا آتّكأْتُ عَلى الأَنماطِ في غُرَفٍ ... بِدَيْرِ مُرّانَ[3] عِنْدِي أُمُّ كُلْثُومِ»

فقد فضّل التمتّع بالملذّات الدنيويّة (الزّوجة) على الغزو. فبلغ الخليفة معاوية «استخفافه» بالجهاد فأجبره على الالتحاق بالنّاس ومقاسمتهم همومهم حتّى وإن مات، وإلاّ يخلعه[4]. فتهيّأ يزيد للذّهاب وكتب لأبيه:

تجنّى لا تزال تعدّ ذنبا ... لتقطع حبل وصلك من حبالي

فيوشك أن يريحك من بلائي ... نزولي في المهالك وارتحالي[5]

---

(١) ياقوت الحموي، معجم *البلدان*، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٦، ج٤، ص٩٥ ذكر ياقوت الغذْقَذُونة وهو اسم جامع للثغر الذي منه المصّيصة وطرسوس. القرقذونة من بلدان بيزنطة في آسيا الصغرى هي Chalidon.

(٢) ابن منظور، معجم *مذكور*، ج٣، ص٥٥٠.
المُومُ: البِرسامُ، الجُدريُّ الكثيرُ المُتَراكِبُ.

(٣) ياقوت الحموي، معجم *مذكور*، ج٥، ص٩٥؛ ج٢، ص٥٣٣ ـ ٥٣٤.
موضع بالشام قريب من دمشق.

(٤) ياقوت الحموي، معجم *مذكور*، ج٤، ص١٨٩.

(٥) ياقوت الحموي، معجم *مذكور*، ج٤، ص١٨٨ ـ ١٨٩.

فغزا بالنّاس وهزم الرّوم[١]. يبدو أنّ معاوية قد بايع ليزيد بولاية العهد، وغضب الخليفة على ابنه فتهدّده بحرمانه من العهد إذا لم يلتحق بالجند. وقد عاتبه يزيد على ذلك. لكنّ هذه الرّواية لا نجدها إلاّ لدى ياقوت.

وكان يزيد يقيم مجالس الغناء بحضور المغنّين من بينهم سائب خاثر[٢].

كان هذا المغنّي من أهمّ المغنّين في الفترة الأمويّة حيث كان مولى من أصل فارسي مرتبط بعبد الله بن جعفر. وكان تاجرا للقمح. وقد جدّد في الغناء بواسطة العود. وكان معاوية يستحسن ذلك[٣]: فقد سأل يزيد عن جليسه في ليلة فأجابه بأنّه سائب خاثر فطلب معاوية من ابنه أن يجزل له البذل لأنّ غناءه جميل. كما كان معاوية يطرب هو أيضًا للغناء (حضور المغنّين كبُدَيح[٤] وسائب خاثر). وعندما لامه عبد الله بن جعفر بن أبي طالب[٥] على طربه أجابه معاوية بأنّ الطّرب من صفات الكرماء[٦].

لم يكن الاستمتاع بالغناء مقتصرًا على معاوية وابنه بل شمل أيضًا القرشيّين بالمدينة كعبد الله بن جعفر الذي كان يقيم المآدب، يحضر فيها المدنيين للاستماع للمغنّين[٧]!

---

(١) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٩٣ ـ ٩٤ ـ ٣٠١.

(2) *E.I²*, article Sâib Khathir ;

البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٢، ص٣١٢.

«كان سائب مولى لبني ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة، وكان تاجرًا موسرًا يبيع الطعام، وكان يغنّي مرتجلاً ويوقع على غنائه بقضيب، وكان انقطاعه إلى عبد الله بن جعفر، وكان عبد الله يحسن إليه. سمّي سائب خاثر، لأنه غنّى صوتًا ثقيلاً. وقتل سائب يوم الحرة مع أهل المدينة».

البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٣ ـ ٤٠؛ ج٢، ص٣١١ ـ ٣١٢.

(٣) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٣؛ ج٢، ص٣١١.

(٤) بُديح المليح، مولى آل الزبير أو مولى عبد الله بن جعفر، ذُكر في البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٢، ص٣١٢.

(٥) «إنّ معاوية بن أبي سفيان كان محبًا لعبد الله بن جعفر» وكان يكرمه واتّبع يزيد نفس سياسة أبيه بإكرام عبد الله بن جعفر. وهو أخ عليّ بن أبي طالب.

البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٢، ص٣٠٢؛ج٥، ص٣٧.

(٦) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٣؛ ج٢، ص٣١٢؛ الطبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٣٧.

(٧) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٢، ص٣١٢.

كما كان معاوية يلوم على عبد الله بن جعفر «استهتاره بالغناء والطّرب[١]». وكان عبد الله بن جعفر يفِد على معاوية ومعه سائب خاثر[٢]. ويضيف الطّبري أنّه كان فاجرًا[٣].

إنّ الغناء ظاهرة ثقافيّة نشأت وتطوّرت في المدينة في أوساط الموالي الذين حذقوا الشّعر العربي وغنّوه واستعملوا الآلات الموسيقيّة المجلوبة من فارس كالعود[٤]. فمدينة الرّسول أصبحت نقطة التقاء للشّعراء والمغنّين إضافة لمكانتها الروحيّة! وعندما انتقل الغناء للبلاط الأموي اتّخذ شكلاً مختلفا مرتبطا بمظاهر السّلطة. وتواصل تطوّر الغناء في العهد الأموي وأساسا في فترة الخليفة يزيد بن عبد الملك حيث ذاع صيت عبد الله بن سريج الذي كان يغني مرتجلاً وهو أوّل من ضرب بالعود بمكة[٥]. كما غنّى ليزيد بن عبد الملك وللوليد بن يزيد معبد[٦]. إنّ التّعريض بفجور سائب خاثر يحيل في نفس الوقت على أخلاقيّة يزيد التي تصبح محلّ شكّ.

كما كان لمعاوية مضحك[٧] في بلاطه بالخضراء. وهذا دليل على تطوّر السّلطة كظاهرة مسرحيّة يمثّلها ويركّزها المضحك الملكيّ.

أدخل معاوية ثقافة سياسيّة جديدة (أو رمزيّة للسّلطة) في البلاط استوحاها من الثّقافة السياسيّة الغسّانيّة والبيزنطيّة. وقد استوحى يزيد من أبيه هذه الثّقافة التي لم

---

(١) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٢، ص٣١٢.
(٢) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٢، ص٣١١.
(٣) الطبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٣٧؛ ابن منظور، معجم *مذكور*، ج٢، ص١٠٥٤ الفاجر: المُنبَعِث في المعاصي والمحارم.
(٤) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٢، ص٣٠٣ ـ ٣١١ ـ ٣١٣.
(٥) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٨، ص٢٥٢.
(٦) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٨، ص٢٥٣ «هو أبو عبّاد معبد بن وهب، مولى ابن قطر، كان أبوه أسود، وهو خلاسي. غنى في أوّل دولة بني أميّة ومات أيّام الوليد بن يزيد».
(٧) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٢.
Georges Balandier, *Le pouvoir sur scènes*, Editions Balland, Paris, 1992, p.54 - 55 - 56.

تكن مفهومة من طرف أبناء الصّحابة الذين تربّوا في المدينة في جوّ مفعم بالرّوحانيّات.

هل يعني هذا التصرّف استخفافا بالواجبات الدينيّة والسياسيّة؟

تذكر المصادر أنّ يزيدا كان يحضر في مجلس أبيه ويشير على الخليفة برأيه في بعض المسائل: فقد طلب منه قتل رجل من باهلة أغلظ له إغلاظا شديدًا. لقد سكت معاوية عندها لكنّه أرسل الرّجل للجهاد فقتل. وعلّم معاوية ابنه درسًا في السّياسة: «يا بُنَيَّ هذا أَخْفَى[1]». كما أشار يزيد على الخليفة معاوية بقتل عبد الرحمن بن حسّان بن ثابت الأنصاري لأنّه شبّب في شعره بأخت معاوية. فأجابه الخليفة أنّ القتل لا يستحسن في هذه الحالة، وأنّ العقوبة تشجّعه على مواصلة فعله. وأحسن تصرّف في هذه الحالة هو إكرام الشاعر عن طريق الهديّة والإغضاء عنه[2]. فهذه الأمثلة هي أدلّة على ممارسة يزيد للسّياسة ومشاركته لمعاوية في اتّخاذ قرارات سياسيّة هامّة.

كما كان يزيد يلعب دور الوساطة بين الخليفة والعمّال: فقد طلب منه النّعمان بن بشير الأنصاري أن يطلب من معاوية أن يعزله عن حضرموت لكرهه ولايتها. فكلّم يزيد الخليفة فأعفاه وعيّنه على الكوفة[3].

وربّما كان ليزيد اندفاع هو اندفاع الشّباب، فقد طلب من معاوية أن يقتل عبدالله بن الزبير الذي أغلظ للخليفة. فأجابه معاوية بأنّ لديه أبناء وعشيرة تمنعه. وتغاضى معاوية عن عبد الله بن الزّبير ووهب له مالا. فأجاب ابن الزّبير بأنه غلبهم بحلمه. عندها قال معاوية ليزيد بأنّ هذا الحلّ أصوب من القتل[4]. كان يزيد يرى أنّ معاوية كثير العفو والحلم[5] إلى حدّ أنّه كان متخوّفا أن يعتبر النّاس حلم أبيه ضعفا و جبنًا[6].

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣١.
(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٢٥ ـ ٢٦.
(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص١٦٧.
(٤) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٦٠ ـ ٦١.
(٥) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص١٢٤.
(٦) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٨٦.

كما كان يزيد بن معاوية يقوم بواجبات الضّيافة تجاه القرشييّن الوافدين من المدينة (بأمر من معاوية): فقد استقبل عبد الله بن عبّاس عندما قدم وافدًا ورحّب به وحدّثه. وهذا ما دفع بابن عبّاس للقول: «إذا ذهب بنو حرب ذهب حُلماء النّاس[1]».

كان يزيد إذاً يقوم بشؤون الحكم ويتمتّع بنفس صفات معاوية أساسا الحلم.

كلّ هذه الأسباب التي ذكرناها والمتمثّلة في سياسة معاوية خاصّة منها البيعة لابنه على حساب الصلح مع الحسن بن عليّ، واختراقه مبدأ الشّورى الذي يفرض تشاور أبناء الصّحابة لاختيار خليفة المسلمين، كما اتّفق الرّواة على اعتبار يزيد فاسق وماجن وغير كفء لتولّي الخلافة. أدّت كلّ هذه الأسباب إلى رفض أبناء الصّحابة العهد ليزيد في حياة معاوية ورفضهم البيعة له بعد تولّيه الخلافة.

وهكذا حدث تطوّر لقوّتين في اتّجاه معاكس ومتضاد، فمن ناحية، كان الأمويّون يدافعون عن حقّهم في الخلافة وعن كلّ المبادئ السياسيّة التي ورثوها عن الخليفة عثمان بن عفان كالدنيويّة من حبّ للإثراء إضافة لمبادئ جديدة فرضها الملك كالحكم الأسروي. ومن ناحية أخرى، كان أبناء الصّحابة يدافعون عن مبادئ إسلامية وهي حقّهم في الخلافة من باب الشّرعيّة التّاريخية والسّابقة والقدمة التي لا يكتسبها يزيد.

تولّي يزيد الخلافة واندلاع الفتنة

لقد قدّمت المصادر صورة ليزيد بن معاوية تفرض علينا التوقّف من جديد. فقد ذكر البلاذري في رواية رواها أبو مخنف: «كان يزيد بن معاوية أوّلَ من أظهر شرب الشراب والاستهتارَ بالغناء والصيد واتّخاذ القيان والغلمان والتفكّه بما يضحك منه المترفون من القرود والمعاقرة بالكلاب والديكة ثمّ جرى على يده قتل الحسين،

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٥٦.

وقَتْلُ أهل الحَرّة، ورمْيُ البيت وإحراقه، وكان مع هذا صحيح العُقْدة فيما يَرَى، ماضيَ العزيمة لا يهمّ بشيءٍ إلاّ ركبه [١]».

يبدو من خلال هذه الرواية كثرة الصفات السلبيّة المسندة ليزيد فهو أوّل من بدأ باتّخاذ كلّ «المحرّمات حسب المنطق الكوفي والحجازي» من إظهار لشرب الخمر أي أنّه كان في البلاط الأموي بالخضراء يشرب الخمر، ويتّخذ الندماء[٢] كسرجون مولى معاوية[٣] ومسلم بن عمرو الباهلي أبو قتيبة[٤].

وقد أدخل يزيد حسب الرواية الاستهتار[٥] بالغناء والصيد. و قد سبق أن ذكرنا أنّ «تهمة» الغناء التي نُسبت ليزيد خاطئة لأنّ الغناء نشأ في المدينة ولم ينشأ في الشّام.

كما أنّ الصّيد كان رمزا من رموز السّلطة الملكيّة تأثّر فيه الأمويّون بالبيزنطيّين والغسّانيّين. فدارس الفنون الأمويّة يرى في القصور الأمويّة رسوما لحيوانات اصطادها الخلفاء الأمويّن كالأسد والنمر[٦].

وتدخل تربية الكلاب في إطار الصّيد حيث تستعمل هذه الحيوانات لإحضار الفريسة مثلا. ويذكر البلاذري كلبة من كلاب صيد يزيد في عنقها طوق من ذهب[٧]! كما تستعمل الحيوانات في إطار تسلية وترفيه الخليفة وهي تقاليد بيزنطيّة

---

(١) البلاذري، مصدر *مذكور*، ج٥، ص٢٩٩.

(٢) ابن منظور، معجم *مذكور*، ج٣، ص٦٠٩: النّديمُ: الشّريبُ الذي ينادمه. النّديمُ الذي يُرافقك ويُشاربُك. ويقال: المنادمةُ مقلوبةٌ من المُدامَنةِ، لأنه يدمن شرب الشراب مع نَديمه.

(٣) البلاذري، مصدر *مذكور*، ج٥، ص٣٠٠.

(٤) البلاذري، مصدر *مذكور*، ج٥، ص٣١٢؛ ج١٣، ص٢٣٣: «وكان مسلم بن عمرو خاصّا بيزيد بن معاوية، وقيل أنّه كان يغنّيه».

(٥) ابن منظور، معجم *مذكور*، ج٣، ص٧٦٧ ورجل مستهتَرٌ: لا يبالي ما قيل فيه ولا ما قيل له ولا ما شُتِمَ به. وأمّا الاستهتارُ فهو الوُلوعُ بالشيء والإفراط فيه حتى كأنّه أهتر أي خرف. استهتر فلان، فهو مستهتر إذا كان كثير الأباطيل.

(6) Musée sans frontières *les Omeyyades naissance de l'art islamique Jordanie*, Edisud, Aix-en-Provence, France, 2000, p.105.

(٧) البلاذري، مصدر *مذكور*، ج٥، ص٣٠٩.

في السّلطة: القرود والمعاقرة[1] بالكلاب والديكة. لكنّ الرّواة والنّاس بالغوا في ذكر اهتمام يزيد بالحيوانات، فذكروا أنّه أراد الحجّ ثمّ زيارة اليمن، فأنشد رجل من تنوخ:

يَـزيـدُ صَـديـقُ الـقِـردِ مـلَّ جِـوارَنـا ... فَـحـنَّ إلـى أرْضِ الـقُـرودِ يـزيـدُ
فَتَبّا لِمَنْ أمْسَى عليـنا خليفةً ... صَحابَتـهُ الأدْنَـوْنَ مـنْـهُ قـرودُ[2]

يبدو من خلال هذا الخبر وجود «حملة» للتّحقير والتّشنيع على يزيد لمصاحبته للقرود.

كما كان ليزيد قرد يسمّيه أبا قيس يناوله الشراب ويضحك منه و يقول: «هذا شيخ من بني إسرائيل أصاب خطيئة فمُسخ[3]». وقد بلغ من يزيد الاستهتار حسب هذه الرّوايات أنّه خرج يصطاد بحوّارين وهو سكران فركب وبين يديه أتان يُركضها، وقد حمل عليها قردًا فسقط ومات[4].

واتّخذ يزيد القيان[5] والغلمان[6] أي أنّه أكثر من استعمال الجواري والعبيد. وكانت القيان تستعمل للخدمة أو الغناء أو الجماع، وهذا يدخل أيضا في باب التلذّذ بالسّلطة والملك.

خرجت هذه النّظرة المشوِّهة ليزيد من الكوفة، فأبو مخنف أصله من الكوفة وهو شيعي. وقد دعّم الشّيعة هذه النظرة المعادية ليزيد لقتله الحسين بن عليّ

---

(١) ابن منظور، معجم مذكور، ج٢، ص٦٠٩: وفي الحديث: خمس من قَتَلهُنّ، وهو حرامٌ، فلا جُناح عليه: العقرب والفأرة والغُراب والحِدأ والكلبُ العقُورُ؛ قال: هو كلّ سبع يَعْقِرُ أي يجرح ويقتل ويفترس كالأسد والنمر والذئب والفهد وما أشبهها.

(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٠٠.

(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٠٠.

(٤) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٠٠.

(٥) ابن منظور، معجم مذكور، ج٣، ص٢٠٤: القَيْنَةُ: الأمة المُغنيةُ، تكون من التَزَيُّن لأنّها كانت تَزَيَّنُ. إنّما قيل للمُغنّية قينةٌ إذا كان الغناءُ صناعة لها، وذلك من عمل الإماء دون الحرائر.

(٦) ابن منظور، معجم مذكور، ج٢، ص١٠١٠ ـ ١٠١١ الغلمان: الغُلام الطّارُ الشارب، وقيل: هو من حين يولد إلى أن يشيب.

ودعّمها أهل المدينة وأهل مكة لقتل أهل الحرّة وضرب الكعبة وحرقها. تهدف هذه النّظرة إلى تصغير يزيد في أعين الناس والتّأكيد على ضعف شرعيّته التّاريخية بالمقارنة مع أبناء الصحابة.

كما تذكر المصادر[١] أنّ الرّواة «تزعم» أنّ رجلا من أهل الكتاب وفد على معاوية، وكان عالما يقرأ الكتب فقال لمعاوية: «ثمّ يكون منك رجلٌ شرّاب للخمرِ، سفّاكٌ للدّماء، يَختَجن الأموال[٢]، ويَضطنِعُ[٣] الرّجال، ويَجْنُبُ[٤] الخُيُولَ، ويُبيحُ حُرْمَةَ الرسولِ[٥]».

تنبّأ هذا الرّجل من أهل الكتاب ليزيد بن معاوية باتّباع سياسة تتّسم بالإسراف في شرب الخمر، وبالإسراف في سفك الدّماء، وجمع الأموال على حساب النّاس، واصطناع الرّجال أي أنّه كان مكوّنا حوله لسلسلة من الرّوابط والعلاقات التي تمكّنه من سياسة الدّولة، وامتلاك الخيول كرمز من رموز الثّراء والسّلطة، وإباحة حرمة الرّسول بقتل الحسين بن عليّ وآله. تهدف سياسة الخليفة يزيد بن معاوية لتأكيد المُلك على خلاف ما ذُكر عنه. كما تبدو هذه الرّواية مشكوك في صحّتها لأنّها تهدف أساسا للتّعتيم على يزيد بن معاوية. لكنّ رواية البلاذري تذكر ليزيد صفات إيجابيّة فهو صحيح العقدة[٦] وماضي العزيمة[٧]. كما كان يزيد يشبه معاوية في حلمه حيث تذكر المصادر أنّه حلُم على غلمان لعمرو بن سعيد بن

(١) المبرّد، *الكامل*، دار نهضة مصر للطّبع والنّشر، القاهرة، د.ت، ج٣، ص٢٣٣.

(٢) ابن منظور، معجم *مذكور*، ج١، ص٥٧٨: اختجانُ المالِ: إصلاحُه وجَمْعُهُ وضمُّ ما انتشر منه. واحتجانُ مال غيرك: اقتطاعُهُ وسرقتُه.

(٣) ابن منظور، معجم *مذكور*، ج٢، ص٤٨٣: الصّنيعةُ: ما أعطيتَهُ وأسْديتَهُ من معروف أو يد إلى إنسان تصطنعه بها. وفلان صنيعة فلان وصنيع فلان إذا اصطنعه وأدّبه وخرّجه وربّاهُ.

(٤) ابن منظور، معجم *مذكور*، ج١، ص٥٠٨ يجنب الخيل يقودها إلى ما يركب منها اختيالا وعجبا بها.

(٥) قال المرصفي: «ذلك ما كان من قتل الحسين ومن معه من فتيان بني هاشم وإهانة آل البيت الذين أذه، الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا».

(٦) ابن منظور، معجم *مذكور*، ج٢، ص٨٣٦: اعتقد كذا بقلبه و ليس له معقود أي عقدُ رأي.

(٧) ابن منظور، معجم *مذكور*، ج٢، ص٧٦٩: العزمُ: الجدُّ. العزمُ ما عقد عليه قلبُك من أمرِ أنّك فاعله.

العاص الأشدق عندما تعرّضوا لغلمانه[١]. كما حلم على عبد الرحمن بن حسّان لمّا هجاه ولم يقتله كما أشار عليه حصين بن نمير أو مسلم بن عقبة[٢].

كان يزيد ملكا على الطّراز البيزنطي أكثر من معاوية (الخمر ـ الصيد ـ النساء أي التلذّذ بالسّلطة). ولم يكن ضعيفا أو متهاونا بشؤون الحكم مثال الخليفة يزيد بن عبد الملك[٣] الذي دفعه حبّه لجاريته المفضّلة حبابة للتلهّي معها والتخلّي عن شؤون الحكم[٤].

بل أراد وعزم وبادر إلى فرض سلطته للتحصّل على البيعة وفرض الطّاعة[٥]. فكان منذ تولّيه الخلافة حريصا على أخذ البيعة من النّفر الذين رفضوا إعطاء معاوية البيعة لابنه عندما دعا النّاس إلى مبايعته. وهم الحسين بن عليّ وعبد الله بن الزّبير وعبد الله بن عمر.

علاقة الخليفة يزيد بن معاوية بالحسين بن عليّ، وعبد الله بن عمر، وابن الزّبير بعد موت معاوية بن أبي سفيان سنة ٦٠هـ:

أرسل الخليفة يزيد بن معاوية رسالة للوليد بن عتبة بن أبي سفيان[٦] واليه على المدينة[٧] أخبره بموت معاوية. ثمّ أرسل رسالة ثانية «كأنّها أذن

---

(١) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٢٩٩.

(٢) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣١٢.

(٣) هو ابن عاتكة بن يزيد بن معاوية!.
البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٨، ص٢٤٣.

(٤) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٨، ص٢٥٨.

(٥) الطبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٣٨.

(٦) هو ابن عمّ يزيد. أبوه عتبة هو شقيق معاوية (أمّهما هند بنت عتبة). شهد عتبة يوم الجمل مع عائشة ثمّ التحق بأخيه معاوية بالشّام وبقي معه. وبعد أن تولّى معاوية الخلافة، ولّى عتبة الطّائف وعزل عنبسة بن أبي سفيان (ابن عاتكة بنت أبي أزيهرمن الأزد).
البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص١٣ ـ ٤٥ ـ ٤٦؛ مصعب الزّبيري، *مصدر مذكور*، ص١٢٥ ـ ١٢٦.

(٧) أبقى يزيد على ولاة أبيه: النّعمان بن بشير الأنصاري على الكوفة، وعبيد الله بن زياد على البصرة، والوليد بن عتبة على المدينة، وعمرو بن سعيد بن العاص الأشدق على مكّة.
الطبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٣٨؛ البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣١٣.

فأرة[1]» للوليد يأمره فيها بالتّضييق على الحسين بن عليّ وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزّبير حتى يبايعوا.

تبيّن هذه الرّسالة الثانية اعتماد يزيد السريّة في إبلاغ عامله وتبيّن كذلك حرص يزيد على أخذ البيعة. فهو لا يتمتّع ببيعة كاملة أي أنّ الأمّة لم تجمع عليه مثله مثل عليّ بن أبي طالب في الفتنة الأولى.

يبدو أنّ الأمويّن على مختلف فروعهم بالمدينة كانت بينهم مشاحنات. فقد كان مروان بن الحكم واليا على المدينة قبل الوليد بن عتبة وحزّ في نفسه عزله، فتثاقل في زيارة الوالي. وشتمه هذا الأخير في مجلسه، فامتنع مروان عن زيارته[2].

كانت الصّراعات بين فرع حرب وفرع العاص في بني أميّة. فكان معاوية يعيّن مرّة مروان بن الحكم على ولاية المدينة ومرّة أخرى سعيد بن العاص. كما كان يؤرّش بينهما[3]. فقد أمر سعيد بن العاص أن يهدم دار مروان بن الحكم، فلم يهدمها، فأعاد عليه الكتاب بهدمها فلم يمتثل لأمر معاوية فعزله وولّى مروان[4]! وأرسل معاوية لمروان بهدم دار سعيد، فأرسل الفعلة وذهب بنفسه ليهدمها. فاستنكر سعيد فعل مروان وبرّر الوالي موقفه بأمر الخليفة له بهدم داره. لكنّ سعيد أحضر له كتاب الخليفة معاوية بهدم دار مروان بن الحكم و إخفاؤه للخبر.

وبيّن له سعيد أنّ معاوية كان يحرّض بينهما. فأكبر مروان عراقة النّسب والأخلاق الحسنة لدى سعيد وبالمقارنة مع بقيّة الأمويين[5].

كما أمر معاوية سعيد بن العاص أن يفتكّ أموال مروان كلّها بما فيها الضياع كضيعة فدك[6]. لكنّ سعيد رفض تنفيذ أمر معاوية للقرابة التي تربطه بمروان[7].

---

(١) الطبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٣٨؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣١٣.
(٢) الطبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٣٨؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣١٤.
(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٩.
(٤) الطبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٢٩٣.
(٥) الطبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٢٩٤ ـ ٢٩٥؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٩.
(٦) ياقوت، معجم مذكور، ج٤، ص٢٣٨ ـ ٢٣٩ ـ ٢٤٠.
(٧) كانت زوجة سعيد بن العاص -أمّ البنين ابنة الحكم بن أبي العاص أخت مروان. =

وعندما عزل معاوية سعيدا، أمر مروان أن يصطفي أموال سعيد بن العاص بالحجاز. وقد أخذ معاوية هذه العادة عن الخليفة عمر بن الخطاب الذي كان يقاسم عمّاله[١]. فأعظم سعيد ذلك وأخرج كتب معاوية التي يأمره فيها باصطفاء أموال مروان. فكفّ مروان عن سعيد واعتبره أحفظ للقرابة[٢] منه.

وكتب سعيد بن العاص إلى معاوية يلومه لومًا شديدًا. فالخليفة رغم حلمه وصبره وعفوه يدخل القطيعة والتّشاحن بينه وبين مروان وتوارث أبناءهما الحقد والضغينة[٣]. وذكّر سعيد بن العاص معاوية بالقرابة التي تجمع بينهم واتّحاد كلمتهم نتيجة نصرة الإمام المظلوم وضرورة المحافظة على هذه العلاقات. فكتب إليه معاوية بأنّه سيحافظ على هذه العلاقات[٤].

ترجع هذه السّياسة التي اتّبعها معاوية بن أبي سفيان مع آل العاص لغيرته من مروان وسعيد لأنّهما لديهما الكثير من الأبناء الذكور[٥]، و كان مروان يفاخر معاوية لكثرة عدد آل أبي العاص وقلّة عدد آل أبي حرب «فإنّي أبو عشرة وأخو عشرة وعمّ عشرة[٦]»، وأنشد معاوية شعرًا:

تُفاخرني بكثرتها قُرَيطٌ ... وقبلَكَ طالتِ الحَجَلَ الصقورُ
فإنْ أكُ في عِدَادِكُمُ قليلاً ... فإنّي في عَدُوّكُمُ كثيرُ
بُغاث الطيرِ أكثَرُها فراخا ... وأمُّ الصّقرِ مقلاتٌ نزورُ

= الطبري، مصدر مذكور، ج٦، ص١٤٧؛ مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص١٣٣.

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص١٦٠.

(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٢٩٤.

(٣) أعطت سياسة معاوية (بثّ الشحناء) مع مروان وسعيد بن العاص أكلها بعد سنوات كان عبد الملك بن مروان وعمرو بن سعيد بن العاص متحاسدان منذ الصّغر. وأدّى تنافسهما على السّلطة إلى مقتل عمرو بن سعيد على يد عبد الملك. إضافة إلى تأريش أمّ مروان وهي آمنة بنت علقمة الكنانيّة بينهما. الطّبري، مصدر مذكور، ج٦، ص١٤٨.

(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٢٩٤.

(٥) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٥٢.

(٦) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٦٤.

يعتبر معاوية نفسه صقرا، فهو لا يكتسب الكثير من الأبناء. بينما يعتبر مروان وأبناؤه كصغار الطّيور التي لديها الكثير من الفراخ. كما أنّ سياسة العزل تعود أساسًا للإنقاص من طموحات مروان بن الحكم حتّى لا يطمع في منصب أهمّ[١].

وذهب مروان إلى حدّ تحريض عمرو بن عثمان بن عفّان (وهو زوج رملة ابنة معاوية[٢]) بافتكاك الخلافة لكثرة عدد آل العاص (آل عثمان وآل مروان) بالمقارنة مع آل حرب. بينما طلب وولي معاوية الخلافة باسم أبيه أي عثمان[٣].

تبدو هذه الصّراعات كأنّها صراعات جاهليّة بين فرعي أميّة واحتدمت هذه الصّراعات خاصّة لمّا كبر معاوية في السنّ.

كما كانت ولاية الحجاز حكرا على بني أميّة[٤]، فلم يعيّن معاوية ولاة من قبائل أخرى لتخوّفه ربّما على العلاقات التي تربط الدّولة الأمويّة كفرع من أرستقراطيّة قريش ببقيّة فروع قريش.

ويظهر من خلال المصادر أنّ علاقة الولاة الأمويّين بأهل الحجاز هي علاقة صعبة لأنّ الوالي الأموي لا يستطيع أن يستعمل ضدّهم السّوط أو السيف حسب تعبير سعيد بن العاص عندما سأله معاوية عن مروان بن الحكم «إنّه لمع قوم لا يُحمل بهم السّوط، ولايحلّ لهم السّيف، يتهادَوْن كوقع النّبل، سهمٌ لك وسهمٌ عليك[٥]».

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٧٢.

(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٢٩٥ ـ ٢٩٧.
رملة هي ابنة كنود بنت قرظة بن عبد عمروبن نَوفَل بن عبد مناف.

(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٥٢.

(٤) ماعدا خالد بن العاص بن المغيرة المخزومي. ولّى معاوية المدينة مروان بن الحكم ثمّ عزله وولّى سعيد بن العاص، ثمّ رد مروان ثم عزله وولّى الوليد بن عتبة بن أبي سفيان. وولّى معاوية مكّة عتبة بن أبي سفيان ثمّ عزله، وولّى خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة المخزومي ثم عزله، وولّى عنبسة بن أبي سفيان وضمّ إليه الطائف التي بقي واليا بها إلى أن مات سنة ثمان وأربعين، فضمّ مكّة إلى مروان لمدّة أشهر، ثمّ عزله وولّى سعيد بن العاص المدينة ومكّة والطائف، فعيّن سعيد ابنه عمرًا الأشدق مكّة والطائف لكنّ عمرًا تعسّف عليهم. فعزل معاوية سعيدًا عن الولاية وولّى مروان المدينة ومكّة.
البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص١٦٥.

(٥) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٢٩٥.

واجهت السّلطة الأمويّة بالحجاز حرجًا كبيرًا نظرا لصعوبة التّعامل سياسياً مع أهل الحجاز لانتمائهم لقريش. كما يبدو أيضا أنّ فروع قريش لديهم استقلاليّة تجاه السلطة الأموية.

وقد حتّمت الظرفيّة الجديدة (عدم تحصّل الخليفة يزيد بن معاوية على البيعة كاملة)، تضافر جهود بني أميّة بالمدينة لتوحيد الأمّة.

مجهود والي المدينة الوليد بن عتبة في أخذ الطاعة من الحسين وعبد اللّه بن الزّبير و عبد اللّه بن عمر

يعتبر مروان بن الحكم كبير بني أميّة بعد موت سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص وموت الخليفة معاوية بن أبي سفيان. لذلك أرسل إليه الوليد بن عتبة واستشاره في الأمر: موت معاوية وضرورة أخذ البيعة ليزيد[1]. تعود هذه الاستشارة لشعور الوليد بن عتبة بصدمة كبيرة لموت عمّه معاوية وإحساسه بثقل المسؤولية المناطة بعهدته. ونصحه مروان بن الحكم بأن يرسل إلى الحسين بن عليّ وعبد الله بن الزّبير فيدعوهم إلى البيعة فإن بايعوا قبل ذلك منهم وإن رفضوا «ضرب أعناقهم» قبل أن يسمعوا بوفاة معاوية. وأضاف مروان بأنّهم إن علموا بوفاة معاوية، ثار كلّ واحد منهم بمكان، وأعلن العصيان والثّورة ودعا إلى نفسه. وأَخرج الوليد[2] أو مروان[3] بن عمر من هذه البوتقة بوتقة الصّراع على الحكم لأنّه لا يحبّ السّلطة إلاّ أن يدفعه النّاس إلى ذلك.

وأرسل الوليد بن عتبة طبقًا لنصيحة مروان بن الحكم عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفّان[4] ليأتي بالحسين بن عليّ وبعبد الله بن الزّبير. وكان غلامًا، كما أنّه أتاهم في

---

(١) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٣٩؛ البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣١٤ ـ ٣٢٦.
(٢) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣١٤.
(٣) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٣٩.
(٤) مصعب الزّبيري، *مصدر مذكور*، ص١١٣: هو عبد الله الأكبر بن عمرو، وأمّه: حفصة بنت عبد الله بن عمر بن الخطّاب. «وكان يقال لعبد الله «المُطرَف» من حُسنِه وجماله.».

وقت لا يأذن فيه للنّاس[1]. نلاحظ تطوّرا لتشريفات الدّولة الأمويّة شمل ولاية الحجاز. ويعتبر إرسال حفيد عثمان ـ رغم صغر سنّه ـ لأبناء الصّحابة حدث رمزيّ وتكمن رمزيّته بالأساس في كون عثمان هو الأساس الإيديولوجي للدّولة الأمويّة. فلم يرسل الوالي موظّفا من موظّفي الدّولة بل أرسل أحد أفراد الأسرة الأمويّة الذي يدافع عن وعي أو عن غير وعي عن مصالح الأمويّين كدولة أو كأسرة أو كعشيرة.

كما يمثّل صغر السنّ رسول الوليد لأبناء الصّحابة ربّما تحقير من شأنهما، فقد استخفّا به. المهمّ أنّ إرسال هذا الرّسول قد أثار شكوك الحسين وابن الزّبير وتوقّعا موت معاوية. وقد أجابا الرّسول بأنّهما سيأتيانه في الحال[2]. لكنّهما أبطآ في المجيء فألحّ الوليد عليهما بإرسال الرّسل والرّجال[3] التي لم تذكر المصادر من هم. هل هم من الأمويّين؟ أو من موظّفي الدّولة الذين ينتمون لقريش؟

المهمّ أنّ الوليد حرص حرصا كبيرا من موقعه كعامل للدّولة على أخذ البيعة من الحسين ومن ابن الزّبير هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى، «امتنع»[4] كلّ من الحسين وابن الزّبير بأهل بيتهما ومن كان يساندهما.

وقد انتقل ابن الزّبير من المسجد حيث كان جالسًا مع الحسين، إلى داره حيث «كمن[5]» فيها «متحرّزًا[6]» ومعه أصحابه[7]. يبدو من خلال الأفعال المستعملة من الطبري أنّ ابن الزّبير احتمى بمنزله مع أصحابه.

---

(١) الطبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٠؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣١٤.

(٢) الطبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٣٩؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣١٤.

(٣) الطبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٠.

(٤) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣١٤؛ ابن منظور، معجم مذكور، ج٣، ص٥٣٤: المنعُ: أن تحول بين الرجل وبين الشيء الذي يريده.

(٥) ابن منظور، معجم مذكور، ج٣، ص٢٩٨: كَمَنَ كُمُونًا: اختفى. وكمن فلانٌ إذا استخفى في مكمنٍ لا يُفطَنُ لهُ.

(٦) ابن منظور، معجم مذكور، ج١، ص٦٠٦: في حديث الدّعاء: اللّهمّ اجعلنا في حرزٍ حارزٍ أي كهفٍ منيعٍ. واحْترزَ منه و تحرّزَ: جعل نفسه في حرزٍ منه.

(٧) الطبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٠.

لم يذكر الطّبري من هم أصحابه. هل هم المساندين له من عائلته ومن قريش؟ وهذا التكتّل يعتبر أوّل تكتّل ضدّ السّلطة الأمويّة، وهو تكتّل عائلي أو عشائري بالأساس وانضمّ إليهما من كان يرى رأيهما. كما أنّ المصادر لم تذكر من كان يساند الحسين من قريش أو من الأنصار. كما أنّنا لم نجد معلومات حول عدد المتحالفين مع الحسين وعدد المتحالفين مع ابن الزّبير. ولم يكن للحسين تصرّف مشابه لابن الزّبير فهو لم يكمن في بيته بل كان يتنقّل في المدينة وهذا مرتبط بطبيعة حركته حيث سينتقل فيما بعد للكوفة وسيواجه جيش الدّولة الأمويّة في مكان مفتوح أي ساحة معركة. بينما سيعكف ابن الزّبير بمكّة أو سيعوذ بالحرم أي سيتحصّن ويغلق على نفسه. يعود هذا الاختلاف لشخصيّة كلّ منهما.

ثمّ أرسل الحسين للوالي يطلب منه أن يتريّث حتّى يتدارس كلّ منهما الوضع[١]. وأرسل ابن الزّبير للوليد بن عتبة بعدم العجلة لأنّه سيأتيهم. فأرسل الوليد بن عتبة لابن الزّبير موالي له فشتموه وعيّروه بأمّه «يا ابن الكاهِليَّة[٢]» وتهدّدوه بالقتل إذا لم يأت الأمير. وأجابهم ابن الزّبير بأنه سيأتي الأمير. وأرسل أخاه جعفر بن الزّبير[٣] للوليد، فطلب منه أن يكفّ عن عبد الله لأنّه أخافه بكثرة رسله وسيأتيه في الغد[٤].

عندها توقّف الوليد عن إرسال رسله لابن الزبير أو أنّ الرسل كانوا بباب ابن الزبير فانصرفوا بأمر من الوليد[٥]. هذه الحركة حركة التململ دامت يومًا كاملا واشتدّ إلحاح الوالي في استدعاء ابن الزبير والحسين العشيّ كلّها وأوّل اللّيل[٦]،

(١) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣١٤؛ الطبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٤٠.
(٢) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٤٧٥: «يعني بابن الكاهلية عبد الله بن الزّبير وذلك أن أمّ خويلد أبي العوام زهرة بنت عمرو بن حنثر من بني كاهل بن أسد بن خزيمة».
ابن حزم، *جمهرة أنساب العرب*، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٨٣، ص١٩٠.
(٣) ابن سعد، *مصدر مذكور*، ج٥، ص١٤٠ وأمّه هي أمّ جعفر بنت مَرْثَد بن عمرو بن عبد عمرو بن بشربن قيس بن ثعلبة.
(٤) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣١٤؛ الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٤٠.
(٥) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٤٠.
(٦) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٤٠.

وفي آخر اليوم أي في اللّيل فرّ ابن الزّبير إلى مكّة مع أخيه جعفر وفي هذا اندلاع للفتنة وإعلان لحركة العصيان. كما أرسل الوليد لابن عمر ليبايع ليزيدا فأجابهم إذا بايع النّاس بايع. فلم يرسل له الوالي مرّة أخرى الرسل لزهده في السّياسة وتفرّغه للعبادة[١].

يبدو أنّ ابن عمر لم يُخف الوليد لأنّه لم تكن لديه طموحات سياسيّة كالحسين بن عليّ وعبد الله بن الزّبير. فاستُثني من «عمليّة الإلحاح» التي أخضع لها الحسين وابن الزّبير.

نلاحظ نشأة علاقات جديدة بين الوالي أي ممثّل السّلطة وأبناء الصّحابة. وقد خصّ الوليد بهذا التّعامل ابن الزّبير فقط ولم يشمل الحسين. بل كان الوليد يراعيه ويرفق به[٢]. لماذا كان الوالي الأموي مرنًا ومتسامحا مع الحسين؟ هل كان هذا التصرّف يعود للقرابة التي تربط بني أميّة وبني هاشم؟ وهل كان الأمر متعلّقاً بقرابته القريبة من الرّسول وضرورة مراعاة هذه الحُرْمة؟

لماذا خصّ ابن الزّبير بهذا التصرّف؟ هذا التّحقير قام به موالي الوليد وليس عمّال الدّولة الشّرط مثلاً. هل مثّل هؤلاء الموالي شرطة خاصّة بالأمير؟ كما أنّه لأوّل مرّة تذكر كلمة القتل قتل الوالي لابن الزّبير في صورة عدم امتثاله لأمر الوالي[٣].

يبدو الصّراع كأنّه صراع قبلي جاهلي بين الفئة الأرستقراطيّة لقريش (بني أميّة) وأسد بن عبد العُزّى التي يمثّلها ابن الزّبير. كما ألغى وغيّب هؤلاء الموالي منزلة ابن الزّبير كابن حواريّ الرسول وأسماء ابنة أبي بكر الصدّيق ـ ذات النّطاقين ـ وأصبح مجرّد شخصٍ عاصٍ للدّولة يجب ردعه. وكان عبد الله بن الزّبير يماطل

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣١٦؛ الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٢.
(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٠ «و كانوا على حسين أشدّ إبقاءً».
ابن منظور، معجم مذكور، ج١، ص٢٤٧: وأبقيت على فلان إذا أرْعَيْتَ عليه ورحمتَهُ.
(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٠؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣١٤.

في المجيء للوالي حتّى لا يعطي بيعته. وكان إرسال أخيه جعفر مجرّد ذرّا للرّماد في الأعين. من كان من إخوته مساندا له[١]؟ .لماذا لم يرسل المنذر[٢] وهو أخوه لأمّه وأبيه أو عروة[٣] وهو أيضًا أخوه لأمّه وأبيه؟. كما أنّه لم يبعث مصعبا وأمّه الرّباب بنت أنيف بن عُبيد بن مَصاد. . .من كلب[٤].فالحركة تبدو حركة عائليّة وعشائريّة.

وقد نجح جعفر في إقناع الوالي بالكفّ عن أخيه، وهذا يرجع لطبيعة العلاقة بين القرشيّين. بينما كان عبد الله ابن الزّبير يخطّط للهرب إلى مكّة. المهمّ أنّ ابن الزّبير لم يأت الوالي أي لم تكن بينه وبين الوليد مواجهة. لكنّ الحسين بن عليّ كانت لديه علاقة مختلفة بالسّلطة الأمويّة. يبدو حسب رواية الطّبري أنّ الحسين بن عليّ وعبد الله بن الزّبير تسارّا ـ عندما جاءهم رسول الوليد بن عتبة ـ وتفطّنوا لموت معاوية ولحرص الوالي على أخذ البيعة منهم قبل أن يسمع النّاس. وقد أسرّ الحسين لابن الزّبير أنّه سيجمع فتيانه[٥]، والمقصود بالفتيان هم أهل بيته ومواليه، ويذهب للوليد ثمّ يتركهم بالباب إذا دخل. بينما يذكر البلاذري أنّه أدخل معه فتيانه ومواليه[٦]. فأجابه ابن الزّبير بأنّه يخاف عليه إذا دخل عليه. لكنّ الحسين طمأنه بأنّه لا يدخل على الوالي إلاّ وهو محروس من أصحابه[٧].

تدلّ تخوّفات ابن الزّبير على وجود سلطة أمويّة حريصة على تأكيد سلطتها. كما أنّ تهديد الوالي لابن الزّبير بالقتل دفعه إلى تحذير الحسين من «غدر» الوالي. وقد عرّف الطبري التّحالف الذي نشأ حول الحسين بأهل بيته ومواليه وأصحابه وفتيانه

---

(١) وهذا سيظهر فيما بعد عند لجوء ابن الزّبير إلى مكّة.

(٢) ابن سعد، مصدر مذكور، ج٥، ص١٣٩.

(٣) ابن سعد، مصدر مذكور، ج٥، ص١٣٦.

(٤) ابن سعد، مصدر مذكور، ج٥، ص١٣٩ ـ ١٤٠.

(٥) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٣٩؛ ابن منظور، معجم مذكور، ج٢، ص١٠٥١: الفَتاء: الشباب. فتيان وفتية الفتى بمعنى الكامل الجزل من الرجال.

(٦) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣١٦.

(٧) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٣٩ ـ ٣٤٠.

أي أنّ هذا التّحالف بُنِيَ على العشيرة والفتيان والموالي والأصحاب. وقصد الحسين الوالي الأموي في أهل بيته ومواليه ولمّا وصل إلى باب الوليد أوصى أصحابه أن يقتحموا عليه المكان (لم تذكر المصادر أين كان الوليد مجتمعا بداره أو بدار الإمارة) إذا دعاهم أو سمعوا صوته قد علا. وفي صورة عدم وقوع أيّ شيء من هذا فإنّهم لا يبرحون مكانهم[١].

يبدو الحسين بن عليّ متخوّفا من الوليد صاحب السلطة الأمويّة فاحتمى بعشيرته ومواليه. وهذا دليل على قوّة الأواصر العشائريّة التي كانت سائدة في الجاهليّة وتواصل فاعليّتها في الإسلام.

دخل الحسين على الوالي وسلّم عليه بالإمرة[٢]. وهذا يدلّ على أنّ الحسين يعترف ظاهريّا بسلطان الأمويّين. ولاحظ الحسين حضور مروان بمجلس الوليد ـ وكان يعرف ما بينهما من خلاف ـ فبارك اجتماعهما وتوطيد أواصر القرابة بينهما. فقرأ له الوليد نعي معاوية ودعاه إلى البيعة. فأجابه الحسين بأنّ منزلته (يشير لقرابته من الرّسول) تفرض عليه أن لا يعطي بيعته سرًّا بل «يُظْهِرُها على رؤوس النّاس[٣]»، فإذا اجتمع النّاس بايع معهم. فاقتنع الوليد بكلامه وسمح له بالانصراف حتّى يأتي مع النّاس. لكنّ مروان بن الحكم نصح الوليد ـ بحضور الحسين ـ بأنّ هذا الأخير إذا خرج من مجلس الوالي دون أن يعطي بيعته، لا يقدر الوالي أن يتسلّم منه البيعة أبدًا. وستكثر القتلى بين الفريقين. وأشار مروان على الوليد بحبس الحسين حتّى يبايع أو «يضرب عنقه». عندها عيّر الحسين بن عليّ مروانًا بجدّته الزّرقاء[٤]، واتّهمه بالكذب واللّؤم والإثم، وقال له بأنّه لا يقدر أن

---

(١) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٣٩.
(٢) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٣٩.
(٣) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٣٩ ـ ٣٤٠؛ البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣١٦.
(٤) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣١٧؛ج٦، ص٢٥٧: وهي مارية بنت موهب الكنديّة وكان موهب قَيْنًا.

يقتله لا هو ولا الوليد[1]. أو أنّه ساءله من يقتله هو أو الوالي[2] أي أنّه ذكّره أنّه ليس بصاحب السّلطة.

ثمّ خرج الحسين واصطحب معه أصحابه حتّى أتى منزله[3]. وهذا الخروج هو شقّ لعصا السّلطة من منطق الدّولة الأمويّة وإعلان ضمنيّ من الحسين لبداية حركة معارضته للدّولة.

يبدو أنّ الوليد بن عتبة منع أهل العراق من الاتصال بالحسين بن عليّ فتهجّم هذا الأخير على الوالي ناعتًا إيّاه «بالظّالم» و «العاصي لربّه» ولامه لومًا شديدًا على منعه من مقابلة قوم عرفوا حقّه بينما جهله هو وعمّه معاوية. فحلُم عنه الوليد ونبّهه إلى جهل غيره له. كما غفر له تهجّمه اللّفظيّ عنه إذا لم يخاطر بيده[4]. والمقصود بالمخاطرة بيده أي إلقاء نفسه في الهلاك[5] وبالتّالي معارضة السّلطة الأمويّة وعدم تقديم البيعة.

لم يذكر البلاذري متى تمّت هذه المحادثة، هل تمّت في نفس الفترة التي طلب فيها الوليد البيعة لمعاوية؟

وتواصل الاجتماع المضيّق بين الوالي ومروان بن الحكم حيث لم تذكر المصادر وجود عناصر من بني أميّة حضرت هذا الاجتماع. فلام مروان بن الحكم الوليد على عصيانه وعدم إتّباع نصيحته واستحالة التحصّل على البيعة من الحسين[6]. ونبّهه إلى أنّه سيندم على تركه الحسين يخرج[7]. وأجابه الوليد بأنّه أشار عليه بأمر فيه هلاك دينه لأنّه لا يريد أن يحاسب يوم القيامة بقتل الحسين لأنّه لم يرد البيعة.

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣١٧.
(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٠.
(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٠.
(٤) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣١٧؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٦٩.
(٥) ابن منظور، معجم مذكور، ج١، ص٨٥٧.
(٦) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٠.
(٧) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣١٧.

فأجابه مروان بأنّه مُصيبٌ في رأيه بينما كان في قرارة نفسه غير موافق على اتّباعه لهذه السّياسة(١).

لم يفقد الوالي الأمل في التحصّل على البيعة من الحسين فأرسل عند المساء رجالا للحسين فأجابهم أنّهم سيتدارسون الأمر في الغد عند الصّباح. فتوقّف الوليد عن إرسال الرّسل للحسين و لم يُلحّ عليه(٢).

نلاحظ اختلافا في وجهات النّظر بين مروان بن الحكم والوليد بن عتبة. كان الوليد «رَجُلُ بني عُتبة. . .وكان حليمًا كريمًا(٣)». أي أنّ الوليد اكتسب الصّفات السفيانيّة المشهورة كالحلم(٤) والكرم. لكنّه لم يكن كمعاوية أو يزيد رجل سياسة أي يحرص على الملك الأموي. بل تفادى المشاكل خاصّة أنّ الأمر يتعلّق بأبناء الصّحابة من قريش. وهذا هو المقصود في المصادر بكلمة «محبّا للعافية(٥)». راعى الوليد منزلة الحسين بن علي كحفيد للرّسول أي احترم القرابة والحرمة والدّين وخشي قتل حفيد الرسول في سبيل فرض الملك الأموي. كما يبدو أنّ الحلم السّفياني أصبح مبدأ سياسيّا غير جاري المفعول في هذه الفترة.

بينما كان مروان يمثّل مصلحة الدولة العليا (فرض الطاعة والدّخول في الجماعة كعنصر أساسي من عناصر الإيديولوجيا الأمويّة)، مهما كانت التّكاليف أي حتّى وإن بلغ الأمر إلى حدّ قتل حفيد الرسول. وهي السّياسة التي سيتّبعها يزيد فيما

---

(١) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٤٠.
(٢) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٤١.
(٣) مصعب الزّبيري، *مصدر مذكور*، ص١٣٣.
(٤) البقرة٢/ ٢٢٥ ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.
الطّبري، *جامع البيان في تأويل القرآن*، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ٢٠٠٤، ج٢، ص٥٩٥: حليم يعني أنّه ذو أناة لا يعجل على عباده بعقوبتهم على ذنوبهم.
هود ١١/ ٧٥ ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾؛ الطّبري، *جامع البيان*، ج٧، ص٨٤: إنّ إبراهيم لبطيء الغضب متذلّل لربه خاشع له، منقاد لأمره، منيب رجاع إلى طاعته.
(٥) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٣٩؛ البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣١٧؛ ابن منظور، *معجم مذكور*، ج٢، ص٨٢٧: وهو التّجاوز عن الذنب وترك العقاب.

بعد مع الحسين بن عليّ وابن الزّبير وأهل المدينة. وكان حازما لأنّ هذه الظرفيّة الصّعبة تتطلّب الإسراع في اتّخاذ قرار حاسم. كما أنّ تدخّل مروان للإدلاء برأيه ولدفع الوالي للأخذ برأيه دليل عن عجز الوالي عن مواجهة هذه الوضعيّة الحسّاسة التي ستؤدّي حتما إلى تفكّك وتفتّت السّلطة الأمويّة.

كما لعب مروان دور المستشار لم يتبوّأ هذا الدّور لأوّل مرّة بل كان مستشارا للخليفة عثمان بن عفّان. وكانت هذه المنزلة التي اتّخذها مروان لدى عثمان من بين الهنات التي أوخذ بها الخليفة. فقد لامه عليّ بن أبي طالب على تقريبه لمروان فأفسد عليه دينه وخدعه. كما أكّدت له زوجته نائلة بنت الفرافصة الكلبيّة هذا الرّأي[١].

ويذكر الطّبري سلسلة من الرّواة من بينهم خالد بن يزيد بن أسد بن عبد الله القَسْري[٢]، رووا مقتل الحسين بن عليّ، وهنا نؤكّد على أهميّة الرّواية الشّفويّة والذّاكرة التي حفظت هذه الأخبار. لكنّنا نرجّح أيضًا أنّ التّدوين والكتابة ربّما وجدت منذ هذه الفترة. فالتطوّر لم يحدث على مستوى الدّولة الأمويّة فقط التي طوّرت بيروقراطيّة الدّولة أي طاقم من الكتّاب في الدّواوين. فالتّدوين كان متطوّرًا من باب تطوّر الإدارة. لكنّ هذا التطوّر السّياسي والإداري كان يتبعه تطوّر للكتابة في أوساط القرّاء والأشراف في المدينة وفي الأمصار أي الكوفة والبصرة والفسطاط. وقد ذكر الرّواة رواية شديدة الاقتضاب عن موت معاوية وإرسال الوليد بن عتبة بن أبي سُفيان ـ والي المدينة ـ إلى الحسين بن عليّ ليأخذ منه البيعة. فأجابه الحسين بأن يُمهله أو يأخّره ويرفق به. فاستجاب له الوليد. وبذلك تمكّن الحسين من الخروج إلى مكّة.

وردت هذه الرّواية مقتضبة لأنّ الرّواة ركّزوا على المرحلة المكيّة أي رسل أهل الكوفة إلى الحسين وإرسال مسلم بن عقيل إلى الكوفة ومقتله ومسير الحسين

(١) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٦، ص١٨٠.
(٢) وهو والي العراق وخراسان في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك.

ومقتله أيضًا. كما تذكر الرّوايات بعض العلامات التي لوحظت على الحسين وفُهِم منها أنّه مصمّم على الخروج من المدينة و التنصّل من البيعة. فيذكر أبو مخنف أنّ الحسين دخل مسجد الرّسول معتمدا على رجلين «يعتمد على هذا مرّةً وعلى هذا مرّة» متمثّلاً بقول ابن مفرّغ:

لا ذَعَرتُ السَّوامَ في فَلَقِ الصّبْـ ـحِ مُغِيرًا ولاَ دُعِيتُ يَزِيدا
يَوْمَ أُعْطَى من المهابةِ ضيمًا والمَنَاياَ يَرْصُدْنَنِي أَن أَحيدا[1]

بيّن هذ الشّعر أنّ الحسين كان مصمّما على الرّحيل أو الخروج على يزيد. ولم يلبث إلاّ يومين بعد تمثّله بهذا الشّعر، فهرب إلى مكّة.

لماذا كان الحسين يعتمد على رجلين؟ هل كان مريضًا؟ هل كان يعاني من معاناة نفسيّة قبل خروجه إلى مكّة؟

ربّما كان متألّمًا من الرّحيل من المدينة؟ فهل كان متيقّنًا من الهزيمة وخذلان الشّيعة والأشراف له وأخيرًا القتل؟ المهمّ أنّ سياسة الوليد مع المعارضين للبيعة كانت سياسة فاشلة وأدّت لابتداء الفتنة الثّانية نتيجة هروب ابن الزّبير ثمّ الحسين إلى مكّة.

هروب ابن الزبير إلى مكّة

هرب ابن الزّبير في جنح الظّلام في ليلة السّبت لثلاث بقين من رجب سنة ستّين[2] بعد تلقّيه يومًا كاملا للدّعوات المتكرّرة للوالي حتّى يقدّم بيعته. وكان خروجه قبل يوم من خروج الحسين. وقد خرج ابن الزّبير هو وأخيه جعفر الذي كان رسوله للوالي حتّى يكفّ عن إرسال الرّسل له.

لم يخرج ابن الزّبير في أصحابه وأهله وربّما كان ذلك تخطيطًا منه حتّى لا يشكّ الوالي في تحرّكه. هل سيلتحق به أهله وأصحابه في ما بعد؟

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٢؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٦٨.
(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣١٤.

سلك الأخوان طريق الفُرع[1] وتجنّبا الطريق الأعظم[2]، أي الطريق الرّئيسيّة التي يرتادها النّاس عند الذّهاب من المدينة إلى مكّة، حتّى لا يقبض عليهما.

هل كانت الشّرطة والعسس لا تقوم بدورها في الحراسة؟ كما أنّ الوالي لم يقم بالمجهود الكافي لتتبّع ابن الزّبير لأنّه لم يخطر بباله أنّه سيهرب.

لماذا اختار ابن الزّبير مكّة؟ هل كان لديه أنصارًا بها؟ أمْ أنّ رمزيّتها كمدينة لديها حُرمتها في الجاهليّة والإسلام جعلته يختارها دون بقيّة المناطق؟

ثمّ تذكر المصادر تمثّل جعفر بن الزّبير ببيت لمُتَمِّم بن نُوَيْرة الحَنْظلي[3] أو صَبِرة الحنظليّ[4]:

وكلّ بني أمّ سيُمْسُون ليلةً ولم يَبْقَ من أعْقابِهِمْ غيرُ واحِدِ

فتطيّر ابن الزّبير ولام أخاه تمثّله هذا الشعر. فانضاف إلى وِحْشَةِ اللّيل الذي هرب فيه ابن الزّبير، الشّعر الذي أنشده أخ ابن الزّبير عن غير قصد كما أكّد ذلك لأخيه. وقد تطيّر منه ابن الزّبير لأنّه يخبره بمستقبل حركته التي ستبوء بالفشل لأنّه سيبقى وحيدًا أي أعْزَلا في مواجهة أعدائه الأمويّين. فالجانب النّفساني كان له دوره في التّأثير على أصحاب هذه الحركات السياسيّة الدينيّة.

استقرّ ابن الزّبير بمكة. وهذا الاستقرار مفعم بالرمزيّة لأنّ بمكّة كانت منذ الجاهلية «محميّة من العنف الخارجي بالدّين[5]». وارتبطت مكّة بالحرم الذي يفرض نفي كلّ أشكال العنف: فلا قتال في الأشهر الحرم ولا عنف داخل الحرم المكيّ[6].

---

(١) ياقوت، معجم مذكور، ج٤، ص٢٥٢: الفُرْعُ: «قرية من نواحي المدينة عن يسار السقيا بينها وبين المدينة ثمانية بُرُد على طريق مكة، و قيل أربع ليال، بها منبر ونخل ومياه كثيرة».

(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣١٥ ـ ٣١٦؛ الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٠ ـ ٣٤١.

(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣١٥.

(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤١.

(٥) هشام جعيط، مرجع مذكور، ص١٠٧.

(٦) هشام جعيط، مرجع مذكور، ص١٠٦.

كان ابن الزّبير مدركا لأهميّة مكّة ورمزيّتها في الضّمير العربي الإسلامي، فاختارها مقرّا له وكهفا يأوي إليه في مواجهة الأمويّين، مثلما اختار بيته في المدينة ليحتمي من إلحاح الوالي الأموي عليه.

كان على ولاية مكّة في تلك الفترة عمرو بن سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أميّة الأشدق(١). وكان ابن الزّبير يقول بأنّه عائذٌ(٢). فهذا اللّفظ يُحيل على حالة دينيّة بحتة يعيشها ابن الزّبير، بينما يبدو المعطى السياسي غائبًا! لكنّ ما سيقوم به ابن الزّبير يعلنُ عن دخوله في فترة جديدة هي فترة عصيان سياسيّ. فهو لا يُصلّي بصلاة الوالي الأموي أي أنّه لا يعترف بالسّيادة والسّلطة الأمويّة. وبقي بجانب الكعبة يصلّي كامل النّهار ويطوف. كما أنّه لا يُفيض بإفاضتهم(٣). فكان يقف هو وأصحابه على حدة ثمّ يفيض بهم وحده ويصلّي بهم وحده(٤). يبدو من خلال ما ذكر الطّبري أنّ ابن الزّبير كان محاطًا ومحفوفًا بأصحابه. لكنّنا لا نعرف من هم أصحابه باستثناء عبد الله بن مطيع العدوي الذي هرب من سجن الوالي الوليد بن عتبة(٥). ولم تذكر المصادر ما هو مصير مصعب بن عبد الرحمن بن عوف هل بقي في سجن الوليد أم خرج منه؟

إنّ قيام ابن الزّبير وأصحابه بالصّلاة وطقوس الحجّ بمعزل عن الوالي الأموي هو عبارة عن انشقاق وإعلان للفرقة وشقّ عصا الطّاعة داخل الحرم المكّي في وقت

---

(١) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٦، ص٥٥ ـ ٥٦: عُرف بالأشدق لِلفَوَة عرضت له فأمالت شدقه. كما سمّي بلطيم الجنّ ولطيم الشيطان. عُرف بسخاءه وفصاحته. وأمّه أمّ البنين بنت الحَكَم بن أبي العاص، وهي أخت مروان وعَمَّةُ عبد الملك بن مروان، وقد ولي المدينة ليزيد بن معاوية. ابن حزم، *مصدر مذكور*، ص٨١.

(٢) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٤٣؛ البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣١٥.
ابن منظور، *معجم مذكور*، ج٢، ص٩٢٣: عاذ به يعُوذ عوذًا وعِيَاذًا ومَعَاذًا: لاذ به ولجأ إليه واعتصم.

(٣) ابن منظور، *معجم مذكور*، ج٢، ص١١٥٥: الإفاضةُ: الزّحفُ والدّفعُ في السّيْرِ بكثرة؛ ومنه طَوافُ الإفاضَةِ يوم النّحر يُفِيضُ من مِنى إلى مكّة فيطوف ثم يرجع.

(٤) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٤٣.

(٥) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣١٦.

الحجّ الذي يعتبر موسما موحّدا للمسلمين. وهو أوّل انشقاق يحدث في الإسلام في الحرم المكّي زمن الحجّ. وفي هذا رمزيّة كبيرة لأهميّة الدين في توحيد الأمّة. ويعتبر هذا التصرّف أيضا مسّا للسّلطة الأمويّة التي تزعزعت أركانها. كما أحاط ابن الزّبير نفسه بهالة من القُدُسيّة، فلا ننسى أنّ ابن الزبير جاء لمكّة في شهر رجب[1]. إنّ حرمة المكان وحرمة الظّرف جعلت من ابن الزّبير يتمتّع هو نفسه بحرمة. فالوالي الأموي لم يتعرّض له بل تغاضى عنه هو والحسين بن عليّ.

كان ابن الزّبير يشير على الحسين على أساس أنّهما ينتميان لأبناء المهاجرين وأولي القدمة بماذا يفعل. فأخبره الحسين أنّه قاصد الكوفة لأنّ شيعته بها وأشرافها كتبوا إليه في القدوم إليهم. فشجّعه ابن الزّبير على المُضيّ قدُمًا إليها. وخاف أن يتّهمه فقال له بأنّه لو أراد البقاء بالحجاز لم يخالفه أحدا[2].

من الملاحظ أنّ ابن الزّبير كان متضايقًا أشدّ التّضايق من وجود الحسين بمكّة لأنّه ينافسه سياسيًّا منافسة شديدة[3] وأهل الحجاز لا يبايعوه ما دام الحسين موجودا[4]. وقد بقي ابن الزّبير ينتظر ويتابع تطوّرات حركة الحسين. وكانت حركته تتطوّر طبقًا لتطوّرات هذه الحركة. فعند خروج الحسين بن عليّ، طوّر ابن الزّبير في مضمون حركته حيث انتقلت من حركة ذات طابع ديني (العائذ بالحرم) إلى حركة ذات طابع سياسي ديني (الشّورى).

بعد أن خرج الحسين إلى العراق حسب ما يبدو من رواية البلاذري، أرسل الخليفة يزيد بن معاوية كتابًا لابن الزّبير. وعلى قدر ما كان هذا الكتاب مُقتضَبًا، كان بَليغًا ومُحمّلاً بالمعاني وأسَاسًا تبرز فيه المقدرة السياسيّة ليزيد. وهذه المقدرة تضاهي مقدرة معاوية. فقد كان يزيد بن معاوية حريصا على أخذ البيعة من ابن

---

(١) ابن منظور، معجم مذكور، ج١، ص١١٢٤: ورَجَبٌ: شهر سموه بذلك لتعظيمهم إيّاه في الجاهليّة عن القتال فيه، ولا يَسْتَحِلُّونَ القتالَ فيه.

(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣١٥.

(٣) شرعيّته الدينيّة والتّاريخيّة أقوى من شرعيّة ابن الزّبير. فهو حفيد الرّسول وابن علي ابن عمّ النبيّ.

(٤) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣١٥.

الزّبير. وكان مرنا ومحترمًا لمكانة ابن الزّبير في قريش وسنّه وفضله في الإسلام بانتمائه «لسلفٍ صالحٍ» وعبادته ودينه. فهو لم ينكر منزلة ابن الزّبير. لكنّه نصح ابن الزّبير بضرورة المحافظة على هذه السّيرة الحسنة والدّخول في البيعة التي دخل فيها النّاس وعدم إدخالهم في الفتنة وعدم إحلال حرم الله.

خاطب الخليفة يزيد بن معاوية ابن الزّبير بمنطق الإمام الحريص على البيعة وعلى الطّاعة والجماعة. وذكر الخليفة، كما ذكرت المصادر لأوّل مرّة الفتنة التي تبدو شبحًا مُخيفًا لأنّه يُدخل الأمّة في حالة عصيان وفوضى. كما ذكر الخليفة لأوّل مرّة إحلال حرم الله وهو أيضًا في إطار المُقدّسات الدّينيّة الهّامة في إطار الأمّة (أي الحرم المكّي) والتي يجب المحافظة على حُرمتها[١]. وكانت وسيلة التّخاطب بين الخليفة الأموي وابن الزّبير الكتاب أي رسالة. فلم تكن هناك مواجهة بين الطرفين مثلما لم تكن هناك مواجهة بين الوالي الأموي الوليد بن عتبة وابن الزّبير بل كان الرّسل هم الواسطة بين السّلطة وابن الزّبير الرّافض للبيعة. لكنّ ابن الزّبير دعا الخليفة إلى الشّورى ورفض الامتثال للخليفة وأعلن لأوّل مرّة وبوضوح تامّ أنّه يرفض أن يبايع[٢]. بينما كان موقفه في الفترة السّابقة تكتنفه الضّبابيّة. فحلف يزيد بأنّه لا يقبل بيعته إلاّ في جامعة[٣].

أبرز ابن الزّبير برنامجه الديني ـ السّياسي لأول مرّة منذ خروجه من المدينة واستقراره بالحرم المكّي. كما دعا يزيد إلى قبول هذا البرنامج وهو الشّورى[٤]. فقد انقلبت الأدوار فكأنّ ابن الزّبير هو الخليفة الشرعي وغيّب الخليفة الأموي وغيّب أيضا الحسين بن عليّ. وعمل ابن الزّبير على دعوة الخليفة لمبدئه!

ما هو المقصود بالشّورى؟ هل هو شعار سياسيّ دينيّ يذكّر بفترة الخلفاء الأوائل

---

(١) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣١٨.
(٢) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣١٨.
(٣) الجامعة: الغُلّ يجمع اليدين إلى العنق.
(٤) ابن منظور، معجم *مذكور*، ج٢، ص٣٨١: الشّورى أشار عليه بأمر كذا: أمره به.

كما أنّه يذكّر بصفة ضمنيّة بعدم اتّباع الأمويّين وعدم تطبيقهم لهذا المبدأ.

تكتسب الشّورى مفهوما قرآنيّا[١] لكنّها أيضا تتنزّل في إطار شورى الخليفة عمر بن الخطّاب. فعندما طُعِنَ هذا الأخير أوصى أن يتشاور السّتّة من الصّحابة[٢] في أمر الأمّة ويختاروا منهم أحدا يتولّى الخلافة. وأجّلهم ثلاثة أيّام للتّشاور حتّى لا تحدث فتنة. وعلى هذا الأساس، تمّ اختيار عثمان بن عفّان كخليفة للمسلمين[٣].

هل أراد ابن الزّبير أن يرجع إلى فترة الخلفاء الأوائل على أساس أنّه ابن أحد الصّحابة الذين شاركوا في الشّورى أي الزّبير بن العوّام حواريّ الرّسول؟ أم أنّ لديه تصوّر آخر؟

يبدو هذا المفهوم مفهوما ضبابيّا وغير متطابق مع روح العصر خاصّة أنّ ابن الزّبير واجه دولة ذات مؤسّسات شبيهة ببيزنطة أي دولة دنيويّة. وفي نفس الوقت، كانت الدّولة الأمويّة ذات طابع إمبراطوري تقوم بالجهاد ضدّ أكبر الإمبراطوريّات الأرثوذكسيّة في الشّرق.

إنّ وجود دولة مثل هذا القبيل أدّى إلى قسم الخليفة أن لا يقبل بيعة ابن الزّبير إلاّ في جامعة. وتفرض هذه الطريقة إذلال الخصم السّياسي بغلّ يديه إلى عنقه ورجليه كذلك[٤]. وهو يجمع كالثّور، ولا يخرج الثّائر من الجامعة إلاّ صُعُدًا أي

---

(١) الشورى ٤٢/ ٣٨ ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾.
الطّبري، *جامع البيان*، ج١٤، ص٣٧: (وإذا حزبهم أمر تشاوروا بينهم).
آل عمران ٣/ ١٥٩ ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾.
الطّبري، *جامع البيان*، ج٣، ص١٥٨: «أمر الله نبيه صلّى عليه وسلّم بمشاورة أصحابه في مكايد الحرب وعند لقاء العدو، تطييبا منه بذلك أنفسهم، وتألّفا لهم على دينهم، وليروا أنه يسمع منهم ويستعين بهم، وإن كان الله عزّ وجلّ قد أغناه بتدبيره له أموره وسياسته إياه وتقويمه أسبابه عنهم».

(٢) عليّ بن أبي طالب وعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقّاص والزّبير بن العوّام وطلحة بن عبيد الله.
الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٤، ص٢٢٨.

(٣) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٤، ص٢٣٤.

(٤) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٦، ص٦٣.

ميّتًا[١] كما أنّ القسم هو تعبير عن روح السّلطة الأمويّة لدى يزيد في إذلال وقهر من خرج عن طاعة الدّولة حتّى وإن كان ابن حواري الرسول وقرشي من أعرق الفروع في قريش. لكنّ القسم يفرض مسألة أخلاقيّة ودينيّة هامّة وهي برّ القسم[٢] أو اليمين. كما أنّ برّ القسم يفرض مسألة سياسيّة وهي فرض سلطة الخليفة يزيد بن معاوية. فإذا لا يبرّ ابن الزّبير قسم الخليفة فهو يبقى معلّقاً، وهي وضعيّة تهدّد سلطة الخليفة الأموي بالضّعف والانحلال.

وأصبحت السّلطة تستعمل أساليب ردعيّة في فرض سلطتها وإذلال من لا يمتثل لسيادتها من أشراف قريش ويتسبّب في الانشقاق والفرقة؛ وهذا تطوّر جديد للدّولة الأمويّة. وبذلك أصبح ابن الزّبير يمثّل حركة معارضة للدولة الأمويّة واندلعت على هذا الأساس الفتنة الثّانية.

هروب الحسين بن عليّ إلى مكّة

هرب الحسين بن عليّ ليلة الأحد ليومَيْن بقيا من رجب سنة ستّين[٣]. وقد وجد الفرصة سانحة لانشغال الوالي عنه بالبحث عن ابن الزّبير الهارب[٤].

يبدو حسب رواية للواقدي أنّ ابن عمر لم يكن بالمدينة عندما جاء نعي معاوية إلى المدينة و بيعة يزيد على الوليد[٥]. و خرج كلّ من الحسين و ابن الزّبير مع بعضهما إلى مكّة في نفس اللّيلة التي دُعِيَا فيها إلى البيعة بعد أن رفضوا إعطاء بيعتهما إلى الوليد. واعترضهما ابن عبّاس وابن عمر قادمين من مكّة فأعلماه

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٦، ص٥٩ ـ ٦١ ـ ٦٣ حلف الخليفة عبد الملك بن مروان أن يجمع ابن عمّته عمرو بن سعيد في جامعة لأنّه ثار عليه. وذبحه بعد ذلك.

(٢) ابن منظور، معجم مذكور، ج١، ص١٩١: برّت يمينه وتبرّ برًّا: صدقتْ. أبرّ فلان قَسَمَ فلانٌ وأحنثه، فأمّا أبرَّهُ فمعناه أنه أجابه إلى ما أقسم عليه، وأحنثه إذا لم يجبه. وفي الحديث: برّ الله قسمه وأبرّه برّا وإبرارا أي صدقه؛ ومنه الحديث أُمرنا بسبع منها إبرارُ القسم.

(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣١٥؛ ج٣، ص٣٧١؛ الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٠.

(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤١.

(٥) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٣.

بموت معاوية والبيعة ليزيد. فنصحهما بتقوى الله وعدم تفريق المسلمين. وهي رواية مستبعدة لأنّ الحسين وابن الزّبير لم يقصدا مكّة مع بعضهما. كما أنّ ابن عمر وابن عبّاس لم يكونا في مكّة عند موت معاوية وقدوم البيعة للوليد بن عتبة.

خرج الحسين بن عليّ ببنيه وإخوته وبني أخيه وكلّ أهل بيته ما عدا محمد بن الحنفيّة أو محمد بن عليّ بن أبي طالب.

يبدو الحسين من موقعه كأحد أفراد أهل البيت النبوي محاطًا في خروجه إلى مكّة بأهل بيته كلّهم أي بني طالب. وفي هذا اختلاف كبير عن خروج ابن الزّبير. وهذا الاختلاف يعود لإحساس الحسين بشرعيّته التّاريخيّة القويّة لأنّها مستمدّة من القرابة من الرّسول ومن عليّ بن أبي طالب. ولم يبق بالمدينة من إخوته ولم يخرج معه إلى الكوفة، إلاّ محمد بن الحنفيّة[1]. فقد نصح هذا الأخير أخاه بتقديم البيعة ليزيد بن معاوية[2] أو لمروان بن الحكم[3]. لماذا ذكر البلاذري مروان بن الحكم بينما لم يكن هو والي المدينة في تلك الفترة بل الوليد بن عتبة؟

ربّما خلط الرّواة بين الفترة السّابقة التي كان فيها مروان واليًا على المدينة في عهد معاوية وفترة الخليفة يزيد بن معاوية. كما نصحه باجتناب الأمصار وإرسال رسله إلى الناس يدعوهم إلى نفسه فإن بايعوا حمد الله على ذلك، وإن أجمع النّاس على غيره فإنّ ذلك لا ينقص من قيمته شيئا. وكان محمد بن الحنفيّة متخوّفا على أخيه من القتل. ونصحه أن يستقرّ بمكّة إن وجد الظروف بها سانحة، أو أن يلتحق باليمن[4]. كما اقترح عليه أن يحتمي بالصحراء أو الجبال ويطوف

---

(١) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٤١؛ البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣١٧؛ ابن سعد، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٦٧: «هو محمد الأكبر بن عليّ بن أبي طالب بن عبد المطّلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصيّ، وأمّه الحَنَفيّة خَوْلة بنت جعفر بن قيس بن مسلمة من بكر بن وائل. ويقال بل كانت أمّه من سبي اليمامة فصارت إلى عليّ بن أبي طالب».

(٢) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٤١.

(٣) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣١٧.

(٤) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣١٧.

بالبلدان حتّى يستقر على رأي. يبدو محمد بن الحنفيّة خبيرًا بيزيد بن معاوية وبحرصه الشديد على فرض سلطته نظرا لتردّده على البلاط الأموي.

كما كان متأكّدا من دعم الأمصار أي الكوفة والبصرة للدولة عسكريّا وماديّا وإمكانيّة خذل الحسين بها وأساسا اقتتال النّاس. ووقع اختيار ابن الحنفيّة على مكّة كمدينة لديها حرمة أو اليمن. فربّما كان بها متشيّعون.

يبدو ابن الحنفيّة متخوّفا على أخيه من القتل لذلك اقترح عليه التّرحال كوسيلة للفرار من عقاب السّلطة. وهذا الموقف مرتبط بقناعات ابن الحنفيّة.

فقد كان لمحمد بن الحنفيّة موقف مختلف عن أخيه الحسين تجاه السّلطة الأمويّة. فقد بايع ليزيد بن معاوية حين أخذ له معاوية البيعة دون تلكّؤ أو تردّد. فكان معاوية معترفا له بالجميل. كما كان يعترف له بذلك[1]. وكان محمد بن الحنفيّة يخشى الفتنة[2]. لكنّ الحسين كان مصمّما على الرّحيل إلى مكّة ثمّ إلى الكوفة.

ولمّا اتّجه الحسين إلى مكّة قال: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾[3].

يبدو هروب الحسين مشابهًا لهروب الأنبياء المضطَهَدين من قومهم. فهو كالنبيّ موسى يعتبر نفسه ذو شرعيّة أتته من السّماء. وهو مجبر على الرحيل من موطنه في سبيل الله. فهو بدون شكّ، كان يحسّ بمرارة الخروج من المدينة وبالخوف من المجهول ومن تتبّع الأمويّين. لكنّه كان معتمدا على الله. ويبدو أنّه اعترضه في طريقه إلى مكّة عبد الله بن مطيع العدويّ (وهو من قريش)، فسأله إلى أين

---

(١) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٤٦٩.

(٢) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٤٧٧.

(٣) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٤٣؛ القصص ٢٨/ ٢١.

الطّبري، *جامع البيان*، ج١١، ص٥٣ ـ ٥٤: «فخرج موسى من مدينة فرعون خائفًا من قتله النفس أن يقتل به. خائفا من قتل النّفس أن يأخذه الطلب.

خرج على وجهه خائفا يترقب ما يدري أي وجه يسلك. قال موسى وهو شاخص عن مدينة فرعون خائفا: رب نجّني من هؤلاء القوم الكافرين، الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم بك».

يذهب. فأجابه ذاهب إلى مكّة ثمّ يستخير الله أين سيذهب. فدعا له عبد الله بن مطيع بأن يجعل الله له خيرا في قراراته ويجعله أي عبد الله بن مطيع فداء لابن بنت رسول الله. ونصحه إذا أتى مكّة أن يبقى بها ويلزم الحرم. فهو سيّد العرب ولا يعوّضه أهل الحجاز بشخص آخر. وهنا نشير لتخوّف ابن الزّبير في ما بعد من الحسين عندما جاء إلى مكّة نظرًا لقوّة شرعيّة الحسين بالمقارنة مع ابن الزّبير. ويضيف عبد الله بن مطيع متخوّفًا بأنّ الحسين إن قُتل «لَنُسْتَرَقَّنَّ بعدك». يظهر من خلال كلام عبد الله بن مطيع العاطفيّة الكبيرة التي يتعامل معه بها النّاس عند خروجه للرّحيل من المدينة لمنزلته من الرّسول.

يبدو أنّ التخوّف الأساسي هو تخوّف من مقتل الحسين. ووراء هذا التخوّف هو خاصّة خروج السّلطة من بني هاشم.

من سيُسْتَرَقُّ؟ هل ستسترِقّ الدّولة الأمويّة قريش؟

هل أنّ الصّراع أصبح صراعا جاهليّا بين قوى سياسيّة إسلاميّة أي آل البيت أو الحسين وهو من بني هاشم، و يزيد بن معاوية الذي ينتمي لبني أميّة ـ من عبد شمس ـ بيت قريش في الجاهليّة والإسلام. فقد جمع بنو أميّة بين الشّرف الحاضر المتأتّي من التّجارة والشّرف التّليد المتأتّي من انحدارهم من قصيّ وبصفتهم ممثّلين لبني عبد مناف وأكثرهم عدداً[1].

يعترف عبد الله بن مطيع بأنّ الحسين بن عليّ «سيّد العرب». ومفهوم السّيادة هو مفهوم سياسي وقبلي. والمقصود به هو سيادة العرب على المستوى القبلي سيادة سياسيّة فيُحيلنا على مرجعيّة جاهليّة. ويتمثّل هذا الصّراع داخل قريش بين يزيد والحسين في صراع سياسي على السّلطة. وتدخل في هذا الإطار الشرعيّة التّاريخيّة أي السّابقة والقدمة والانتماء لآل البيت كسلاح يستعمل في الصّراع. كما يبدو أنّ عبد الله بن مطيع غير معترف بسلطة الخليفة يزيد بن معاوية القائمة الذّات.

---

(١) هشام جعيط، *تاريخيّة الدعوة المحمّدية في مكّة*، ص٥٨.

نلاحظ وجود حرمتين في خطاب عبد الله بن مطيع، حرمة المكان (أي الحرم المكّي) وحرمة الشّخص وهو الحسين بن عليّ ابن بنت الرّسول. والمقصود بلزوم الحرم هو الاعتصام به من الأمويّين وعدم تقديم البيعة ليزيد. فهو يفرض وجود جانب ديني أي الاعتصام بالحرم، فيصبح الحسين محميًا حماية إلهيّة من السّطوة العسكريّة للدّولة الأمويّة[١] لأنّه لا قتال في الحرم. كما يفرض وجود سيطرة سياسيّة للحسين على الحجاز. ويفرض أخيرًا وجود شرعيّة دينيّة للحسين وحرمة الانتماء لأهل البيت تربط صلتها بحرمة البيت والبلد الحرام فتكوّن سياجا تستبطنه الأذهان[٢] وقد اعتقد عبد الله بن مطيع أنّهما تكفيان لحماية الحسين. ولعلّ ذلك مرتبط في الأذهان بحرمة وقدسيّة الكعبة في الجاهليّة والإسلام. لكنّ الحسين كان مصمّما على المسير إلى الكوفة رغم كلّ هذه التخوّفات من جانب ومن آخر.

ولمّا دخل مكّة قال: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾[٣]. كما أنّ الوصول إلى مكّة كان مرحلة من المراحل قبل الانتقال إلى العراق. فسواء السّبيل هي الطّريق التي سيسلكها الحسين فيما بعد أي المشاريع السياسيّة الدينيّة التي سيقوم بها فيما بعد. وعندما نزل الحسين بمكّة كان أهلها «يختلفون إليه»[٤] وكذلك المعتمرين وأهل الآفاق أي النّاس من مختلف ولايات الدّولة الأمويّة.

من هم أهل مكّة هل هم من قريش ومن خزاعة؟ هل فيهم عناصر من الصّحابة؟ تحصّل الحسين على «إجماع» بتواجده بمكّة زمن الحجّ[٥]. وفي هذا أيضا رمزيّة

---

(١) سنرى فيما بعد خطأ هذا الاعتقاد فيما يخصّ ابن الزّبير، وإرسال يزيد جيش للقضاء على فتنة ابن الزّبير في مكّة.

(٢) هشام جعيط، *تاريخيّة الدعوة المحمّديّة في مكّة*، ص١٢٣ ـ ١٢٤.

(٣) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٤٣؛ القصص ٢٨/ ٢٢.

الطّبري، *جامع البيان*، ج١١، ص٥٤ ـ ٥٥: «خرج موسى متوجّها نحو مدين، و ليس له علم بالطريق إلا حسن ظنّه بربّه. فهيّأ الله الطريق إلى مدين، فخرج من مصر بلا زاد ولا حذاء ولا ظهر ولا درهم ولا رغيف، خائفا يترقب، حتى وقع إلى أمّة من الناس يسقون بمدين».

(٤) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٣٦٨.

(٥) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٨٤.

لأنّ الموسم يجمع كافّة المسلمين، فكان فرصة للالتقاء بالحسين. والمقصود بالإجماع هو إعظامه وتعظيم حقّه بالتردّد عليه. وقد لعبت رمزيّته الكبيرة ـ انتماءه لأهل البيت ـ في استقطاب النّاس حوله.

ما هي النّقاشات التي كانت تدور بينهم؟ هل نجح الحسين في تعبئة النّاس للقيام بثورته؟ أي هل كان هذا التكتّل تكتّلا حقيقيّا بشريّا وعسكريّاً؟ أم أنّ هذا التكتّل كان مجرّد اندفاع عاطفيّ لحفيد الرّسول؟.

من المؤكّد أنّ النّقاشات بينهم كانت تدور حول بقاء الحسين بالحرم المكّي وإعلان الثّورة على الخليفة يزيد بن معاوية أو الذّهاب للكوفة.

إنّ في هذا التكتّل حول الحسين كان يُثير غيرة ابن الزّبير ـ الذي كان يلزم جانب الكعبة يصلّي ويطوف. ويزور الحسين لكنّه كان «أثقل النّاس عليه»[١]. وكانت لابن الزّبير، العائذ بالبيت، مفاوضات مع الحسين بن عليّ. وكان حفيد الرّسول متفطّنًا إلى نوايا ابن الزّبير الذي يريد أن يتخلّص من وجوده بالحجاز وأساسا بمكّة حتّى يستقلّ بها ويعلن بها سلطته[٢]. وأخبر الحسين ابن الزّبير عن مشاريعه السياسيّة وهي أساسا الذّهاب للكوفة بإلحاح من شيعته بها والأشراف. وعلى هذا الأساس، سيقصد الحسين العراق[٣].

كما ذكر أبو مخنف في روايات أخرى في خصوص المفاوضات بين ابن الزّبير والحسين في مكّة قبل رحيل الحسين إلى الكوفة. عرض ابن الزّبير على الحسين أن يبقى بمكّة ويُولّى أمر النّاس. ووعد ابن الزّبير الحسين أن يساعده ويبايعه. فأجابه الحسين بأنّ أباه حدّثه أنّ بها «كبْشًا يستحلّ حُرْمتها» وهو لا يُريدُ أن يكون ذلك الكبش. فأشار عليه ابن الزّبير أن يبقى بمكّة ويولّيه هذا الأمر وهو يطاع[٤].

(١) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٣٦٨.
(٢) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٨٣؛ البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣١٥.
(٣) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣١٥.
(٤) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٨٤.

يبدو من خلال هذه الرّواية أنّ ابن الزّبير كان يراوغ الحسين حتّى لا يتّهمه بالطّمع في الخلافة. يكون قد عرض. فهذا الأخير كان يدرك منزلته بالمقارنة مع الحسين بل بقي يتربّص خروجه للعراق ثمّ مقتله لكي يُعلن نفسه خليفة. ويظهر من خلال هذه الرّواية أنّ الحسين كان متخوّفا من «رؤيا» لعليّ بن أبي طالب مفادها أنّه سيوجد كبش[١] يستحلّ حرمتها.

وهذا تعبير على رفض الحسين أن يبقى في الكعبة فيقاتله الأمويّون بها فتستحلّ حرمتها، وهو أمر عظيم لديه. كما نلاحظ أهميّة الرموز في هذه الحركات وفي الفتنة بوجه عامّ: فحلم عليّ بن أبي طالب ـ أب الحسين وابن عمّ الرّسول وختنه ـ يصبح شبحا مخيفا بالنّسبة للحسين ويتطيّر منه.

وفي رواية أخرى، طلب ابن الزّبير من الحسين أن يبقى بمكّة وبالمسجد الحرام ويجمع له النّاس[٢]. فغضب الحسين من هذا الاقتراح لأنّه سيُعتدى عليه كما اعتدت اليهود في السبت[٣] أي أنّ الأمويّين سيُحلّون ما حرّم الله بقتلهم للحسين في المسجد الحرام وفي البيت الحرام. يبدو من خلال هذه الرّواية حضور الروح القرآنيّة لدى الحسين بن عليّ واستشهاده بالقصص القرآني.

يبدو من خلال هذه المفاوضات أنّ ابن الزّبير كان يجسّ نبض الحسين ليعرف أين سيستقرّ حفيد الرسول لكنّه كان مدركا في قرارة نفسه أنّه لن يبقى بالحجاز.

كما هبّ أشخاص من قريش ومن بني هاشم للحسين ونصحوه بعدم المُضيّ إلى الكوفة. فقد جاءه عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزوميّ[٤] عندما

---

(١) ابن منظور، معجم *مذكور*، ج٣، ص٢١٣: كبش القوم: رئيسُهُم و سيّدهم.

(٢) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٣٧٥.

(٣) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٨٥.
البقرة ٢/ ٦٥ ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾﴾.
الطّبري، *جامع البيان*، ج١، ص٤٠٥.

(٤) مصعب الزّبيري، *مصدر مذكور*، ص٣٠٣ ـ ٣٠٤: عبد الرحمن بن الحارث «. وهو «الشّريد» أُتِيَ به من الشّأم وبفاختة بنت عُتبة بن سُهيل بن عمرو بن عبد شمس. ، ولم يكن بَقِيَ من ولد سُهيل بن عمرو -

وصلته الكتب من العراق واستعدّ للرّحيل؛ فنصحه قائلا بأنّه يخافُ عليه أن يأتي بلدًا به عمّال الدّولة، وفيه بيوت المال، والنّاس ينساقون وراء الدينار والدرهم. كما تخوّف عليه عمر بن عبد الرحمن بن الحارث من أن يقاتله مَن طلب منه المجيء إلى الكوفة.

تُعبّرُ هذه النّظرة عن قوّة الدّولة الأمويّة بالعراق: فهي لديها مؤسّسات قائمة الذّات كالنّظام الإداري والمالي. وكانت الأموال تمكّن الدّولة منذ عهد معاوية من شراء الضّمائر. وتنبّأ هذا القرشي من مخزوم بردّ فعل أهل الكوفة تجاه الحسين وهو مساندة الدولة ضدّ الحسين.

وكانت نصيحة ابن عبّاس أي ابن عمّ الحسين مشابهة لنصيحة المخزوميّ. فقد حذّره من الذّهاب إلى قوم عليهم والٍ «قاهرٍ» لهم، وعمّاله يجبون الخراج. وأعرب عن خوفه أن يغرّروا به ويكذبوا عليه ويقاتلوه[١].

يلحّ ابن عبّاس على قوّة السّلطة الأمويّة القائمة وإتباعها للإرهاب على حدّ تعبير فيبير[٢]. كما أنّ ابن عبّاس تخوّف من ردّ فعل أهل العراق (الغدر، الكذب والخذلان والمخالفة).

تبدو نظرة الخلفاء الأوائل لأهل العراق نظرة خاصّة. فقد سألهم الخليفة عليّ بن أبي طالب عن ردّ فعلهم إذا جاءهم أهل بيت نبيّهم، فأجابوه بأنّهم يفعلون ويفعلون. لكنّه أجابهم بأنّهم يستجيبون لكنّهم يهربون ويتركون الطريق[٣].

وسنرى أنّ هذه التصرّفات أصبحت الخطّ الأساسيّ المتّخذ من أهل الكوفة في علاقتهم بأهل البيت العلوي.

= غيرُها؛ فسماهما عمر بن الخطّاب «الشّريدَيْن». فزوّج عبد الرحمن بن الحارث فاختةَ؛ وأقطعهما عمر بن الخطّاب بالمدينة خطّةً. الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٨٢. البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٣٧٣.

(١) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٣٧٣ ـ ٣٧٤؛ الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٨٣.

(2) Max Weber, *Economie et Société*, Paris, Plon, 1971, T.1, p. 57.

(٣) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٠٧.

وأعاد ابن عبّاس النّصيحة للحسين في عشيّة ذلك اليوم. فعلاقة القرابة و الرّحم دفعت ابن عبّاس للإلحاح على الحسين بالعدول عن الرّحيل للكوفة. فقد تخوّف عليه من الهلاك والاستئصال خاصّة أنّه حمل معه نساؤه وصبيانه. فيحدث له مثلما حدث للخليفة عثمان بن عفّان حيث قُتِل على مسمع ومرأى من بناته وصبيانه.

إنّ مفهوم الاستئصال هو مفهوم انتروبولوجي شديد الأهميّة لدى العرب منذ الجاهليّة. وبرز هذا المفهوم بقوّة في الفتنة الأولى في حرب صفّين بين معاوية وعليّ حيث رفع مقاتلة الشّام بأمر من عمرو بن العاص المصاحف على الرّماح حتّى يكفّ أهل العراق وأهل الشّام عن القتال وكان شعارهم: «هذا كتاب الله بيننا وبينكم من لثغور الشّام بعد أهل الشّام، ومن لثغور العراق بعد أهل العراق[1]». ويتّخذ الاستئصال في وضعيّة الحسين بن عليّ أبعادًا خطيرة لأنّه يُؤدّي إلى القضاء قضاءً مبرمًا على أهل البيت النّبوي وفي هذا رمزيّة كبيرة. أي أنّ آل البيت النّبوي سيُقضى على وجودهم وعلى «حقّهم» في الحكم حسب تخوّفات ابن عبّاس. كما أنّ عثمان قُتل على مرأى ومسمع من زوجته نائلة بنت الفرافصة الكلبيّة التي أرادت أن تحميه بيدها فقُطعت أصابعها بسيوف الثّوّار[2]. وكانت لحظة القتل، قتل عثمان، شديدة الألم بالنّسبة لنائلة لأنّها فارقت زوجها الخليفة فراقا أبديّا في جوّ من العنف والإذلال والوحدة.

يبدو ابن عبّاس متخوّفا على الحسين من عودة سيناريو الفتنة الأولى التي مازال شبحها مخيّمًا على الأمّة. فهذا الانشقاق في الضّمير الإسلامي خلّف جروحا عميقة في نفوس المسلمين.

وأعاد ابن عبّاس على مسامع الحسين نفس الملاحظات بخصوص أهل العراق فهم أهل غدر وأشار عليه أن لا يقربهم. وهم إن كانوا يحبّونه ينفوا عدوّهم

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٩٨؛ الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٨.
(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٦، ص٢٢٠؛ الطّبري، مصدر مذكور، ج٤، ص٣٩١.

فيلتحق بهم عندئذٍ[1]. وأشار ابن عبّاس على الحسين بمثل نصيحة ابن الحنفيّة أن يبقى بالحجاز أو يرحل إلى اليمن لأنّها أرض كبيرة، وبها عدّة حصون، وبها شيعة أبيه عليٍّ. فيكتب إلى النّاس ويبثّ دعاته. فيتمكّن من إقامة سلطة بكلّ سهولة[2].

وفي رواية أخرى، استشار الحسين بن عليّ ابن عبّاس في الخروج إلى الكوفة. فأجابه ابن عبّاس أنّه لولا الحرمة أي حرمة القرابة التي تربط بينهما لقتله حتّى لا يقتل بالكوفة. لكنّ الحسين قال بأنّه بأن يقتل على أن تستحلّ به هذه الحُرمة[3].

كان ابن عبّاس متخوّفا من مقتل الحسين بن عليّ عند انتقاله للكوفة.

كان ابن الحنفيّة وابن عبّاس وعمر بن عبد الرحمن المخزوميّ على علم بمقدرة السّلطة الأمويّة أي فرضها لسلطتها على حساب المعارضين لسلطتها.

كما تذكر المصادر إرسال عبد الله بن جعفر بن أبي طالب إلى الحسين بعد خروجه من مكّة رسالة إلى الحسين مع ابنيه ينصحه فيها بعدم العجلة في السّير لأنّه سيلتحق به. كما نصحه بعدم الرحيل إلى العراق لأنّه يخاف عليه من الهلاك والاستئصال[4]. أصبح هذا المفهوم يسيطر على أذهان بني هاشم.

أحسّ بنو هاشم برعب وخوف شديد من هلاك الحسين واستئصال آل بيته. فوجود الحسين المادّي يُؤرّخ للبيت النّبوي، ويؤرّخ لوجودهم هم كفئة لديها شرف إسلامي.

كما سأل الحسين حاجّا جاء من العراق عن العراقيّين فأجابه بأنّ «القلوب معك، والسيوف مع بني أميّة[5]».

يبدو من خلال هذا الجواب أنّ وضعيّة أهل العراق قبل قدوم الحسين عليهم هي

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٨٣.
(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٨٤.
(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٦٣.
(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٨٧ ـ ٣٨٨.
(٥) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٨٦.

وضعيّة معقّدة: فمن ناحية، كانوا عاطفيًا يحبّون الحسين لكنّهم كانوا يرضخون لسلطة الدّولة التي كانت ماسكة بزمام الأمور سياسيًّا وعسكريًّا.

ورغم كلّ هذه التّحذيرات وهذه التخوّفات من جانب بني هاشم ومن جانب بعض القرشيّين، كان الحسين مصمّما على الذّهاب للعراق. كما تقول الرواية بأنّه كان مسرعًا إلى العراق(١)، وهو لا يلوي على شيء(٢)، حتّى لا يُؤْسَرَ من الأمويّين(٣). وهو في إسراعه إلى حتفه يشبه قصص الأنبياء وقتلهم(٤). وربّما كانت هذه نظرة الشّيعة له أي إبراز صورته كإمام شهيد.

بدا الحسين مستعدّا استعدادا روحيّا وماديّا للسّفر والقتال، فحمل معه أسيافَه وتراسُهُ(٥).

أقام الحسين بمكّة شعبان وشهر رمضان، و شوّال، وذو القعدة. ثمّ خرج منها لثمان ليال خلون من ذي الحجة يوم التروية(٦). المهمّ أنّ توقيت خروج الحسين كان في فترة مفعمة بالرّمزيّة (زمن الحجّ). تضافرت كلّ العوامل لتجعل من خروج الحسين إلى الكوفة محاطا بهالة من القداسة مرتبطة بشخصه (بُعده الميتا ـ تاريخي كحفيد للرّسول).

وشيّعت النّبوءات الحسين بن عليّ إلى حتفه بالكوفة؛ فكأنّ كلّ النّاس كانت تعرف أنّه سيلقى حتفه إلاّ هو.

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٨٦.
(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٨٧.
(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٨٦.
ابن منظور، معجم مذكور، ج١، ص٢٨: «وقد أُخِذ فلان إذا أُسرَ».
(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٨٧.
(٥) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٨٦.
ابن منظور، معجم مذكور، ج١، ص٣١٧: «التّرس من السّلاح المُتَوقّى بها».
(٦) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٧١؛ ابن منظور، معجم مذكور، ج١، ص١٢٦١: «يوم التّروية يوم من قبل يوم عرفةَ، وهو الثامن من ذي الحجّة، سُمّي به لأنّ الحُجّاج يترَوَّون فيه من الماء وينهضون إلى مِنًى ولا ماء بها فيتزوّدون رِيّهم من الماء لأي يسقون ويَسْتَنْقُون».

يبدو أنّ عبد الله بن عمرو بن العاص كان حاضرًا بمكّة يقوم بمناسك الحجّ لمّا خرج الحسين إلى الكوفة، وقد تنبّأ بقتله «وكان عبد الله بن عمرو يقول: لا تبلغ الشجرة ولا النّخلة ولا الصّغير حتى يظهر هذا الأمر[1]».

كان لعبد الله بن عمرو بن العاص صحبة وروى الحديث عن الرّسول[2] وكان بمصر؛ وكانت قريش تعدّه عالما؛ وكان قد قرأ كتب دانيال بمصر[3]. كما كان يقرأ السريانيّة[4]. كان عبد الله بن عمرو عالما مهابا في قريش وصحابيًّا جليلاً وتنبّأ بمقتل الحسين. فما الذي منع عبد الله بن عمرو من إعلام الحسين بمصيره إذا رحل للكوفة؟

المهمّ أنّ بهروب ابن الزّبير إلى مكّة وهروب الحسين إلى مكّة ثمّ إلى الكوفة، بقيت البيعة معلّقة وهو أمر عظيم في الإسلام لأنّ الأمّة ستدخل في فترة انشقاق رغم محاولات والي المدينة التحصّل على البيعة.

فما هو ردّ فعل الولاة الأمويّين تجاه هروب ابن الزّبير والحسين؟

ردّ فعل الوليد تجاه ابن الزّبير (بعد هربه إلى مكّة)

عند الصّباح، تفقّد الوليد بن الزّبير فلم يجده. فأكّد له مروان بن الحكم بأنّه التحق بمكّة ونصحه بإرسال الرّجال للقبض عليه. وقد امتثل الوالي لنصيحة مروان بدون تردّد وأرسل حبيب بن كرّة وهو من موالي بني أميّة[5] في ثلاثين[6] أو ثمانين[7] راكبًا[8].

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٨٧.
(٢) مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص٤١١.
(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٧٧.
القديس دانيال (٤٠٩ ـ ٤٩٣) قام بمعجزات وتنبّأ بعدّة أشياء حتّى موته بالقسطنطينيّة.
(٤) ابن سعد، مصدر مذكور، ج٧، ص٣٤٣.
(٥) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣١٥.
(٦) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣١٥.
(٧) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤١.
(٨) ابن منظور، معجم مذكور، ج١، ص١٢١٢: قال ابن السكيت وغيره: تقول إذا كان على بعيرٍ خاصّة.

يبدو أنّ هذه القوّة المسلّحة متكوّنة من موالي بني أميّة أي أنّها لا تمثّل قوّة عسكريّة حقيقيّة. ولعلّ ذلك يعود لتعظيم بني أميّة للحجاز لأنه يحوي قريش أي قومهم وعدم توقّعهم لحدوث مواجهات عسكريّة بينهم وبين أهل الحجاز. وتركّزت القوّة العسكريّة العربيّة الإسلاميّة بالأمصار بالعراق، وبالشّام لقربه من الخطر البيزنطي، وبمصر لتواصل حركة الانتشار باتّجاه المغرب. كما اختلفت المصادر في عدد هؤلاء الرّجال من الموالي الذين أُرسلوا. كما أنّ هذه القوّة لم تتمكّن من القبض على ابن الزّبير، فرجعت إلى المدينة[1].

هل كان للأمويّين جيش بالمدينة لردع حركات المعارضين؟ من المؤكّد أنّه لم تكن هناك قوّة عسكريّة بالمدينة.

كيف كان ردّ فعل الوليد تجاه فشل هذه المحاولة في القبض على ابن الزّبير؟

قبض الوليد على كلّ الموالين لابن الزّبير أي المائلين إليه والذين يهوون هواه[2]، لكنّنا لم نعثر في المصادر عن أسماء لهؤلاء الأنصار ما عدا عبد الله بن مطيع ومصعب بن عبد الرحمن.

يبدو أنّ الخليفة يزيد بن معاوية أرسل للوليد بن عتبة وأمره أن يحبس عبد الله بن مطيع العدويّ[3] ـ وهو ابن العَجْماء نُسب إلى جدّته وهي خُزاعيّة ـ كما حبس الوليد مصعب بن عبد الرحمن بن عوف الزّهري[4].

فاجتمع بنو عديّ إلى عبد الله بن عمر وقالوا له بأنّ ابن مطيع حُبس عن ظلم. فكلّم ابن عمر الوليد بن عتبة في إخلاء سبيل ابن مطيع لأنّه حُبس بغير حقّ. كما أنّ ابن عمر أشار على الوالي بعدم اتّباع الظّلم في سياسته. فأجابه الوالي بأنّه حبسه بأمر من الخليفة وسيكتب للخليفة يعلمه بهذا الأمر. كما طلب منهم أن

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤١.
(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣١٦.
(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج١٠، ص٤٨٢؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣١٦.
(٤) مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص٢٦٧ ـ ٢٦٨ ـ ٢٦٩.

يكتبوا له. فهبّ شبّان من بني عديّ إلى السجن فاقتحموه وأخرجوا ابن مطيع الذي هرب إلى مكّة والتحق بابن الزّبير ثمّ رجع فأقام بالمدينة.

وتذكر رواية أخرى للبلاذري أنّ بنو عديّ اجتمعوا وفيهم عبد الله بن عمر وأبو جهم بن حذيفة[١]. يعتبر أبو جهم من علماء قريش ونسّابها، وكانت له صحبة؛ وكان من معمّري قريش، وبنى الكعبة مرّتين مرّة في الجاهليّة حين بنتها قريش؛ ومرّة في الإسلام حين بناها ابن الزّبير؛ ودفن عثمان رابع أربعة[٢].

نلاحظ أنّ رجال عديّ بن كعب هما أساسا عبد الله بن عمر وأبو جهم بن حذيفة.

يبدو أنّ الخليفة أمر بحبس عبد الله بن مطيع كردّ فعل على عدم مبايعة ابن الزّبير وهروبه إلى مكّة. أي أنّ الخليفة يزيد كان حريصا على فرض سلطته وعلى تركيز مبادئ الإيديولوجيا الأمويّة كالطّاعة ووحدة الجماعة. كما أنّ هذه السّلطة لديها أعوان ينفّذون أمرها كالوالي ووسائل ردعيّة كالسجن. لكنّ الحميّة القبليّة التي تعود للجاهليّة نجحت في تخليص عبد الله بن مُطيع. وهذا يُعتبر إضعافًا من سيطرة الدّولة وسلطتها.

ولم تذكر المصادر ردّ فعل الوليد بن عتبة في المدينة تجاه فرار الحسين إلى مكّة. وهذا يرجع لوجود أنصار الحسين بالعراق وانتقال الحسين في أهله. كما لم يتعرّض الوليد بسوء لابن الحنفيّة لموالاته للسّلطة الأمويّة.

فما هو ردّ فعل والي مكّة عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق تجاه الحسين بن عليّ؟

ردّ فعل عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق تجاه الحسين بن عليّ

يبدو أنّ الوالي الأموي لم يبادر إلى أيّ مواجهة بينه وبين الحسين بن علي[٣].

---

(١) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج١٠، ص٤٨٣ هو من ولد عبد الله بن عبيد بن عويج من بني عديّ بن كعب.

(٢) مصعب الزّبيري، *مصدر مذكور*، ص٣٦٩.

(٣) سندرس في فصل لاحق بصفة مفصّلة علاقة الوالي عمرو بن سعيد بعبد الله بن الزّبير.

وهذا يرجع ربّما لعلاقة الرّحم والقرابة بين بني أميّة وبني هاشم، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، لم يتلقّ عمرو بن سعيد ربّما أمرا من الخليفة يزيد بن معاوية يأمره فيه باتّباع سياسة قمع أو غيرها تجاه الحسين.

ولم ترد في المصادر إلاّ إشارة واحدة «لقمع» عمرو بن سعيد للحسين حيث اعترض رسله، الحسين وأهله عندما خرج من مكّة. فحُرمة الكعبة فرضت على عمرو بن سعيد أن لا يواجه الحسين داخل الحرم المكّي.

ما المقصود بالرّسل؟ هل المقصود بهم فرقة عسكريّة عشائريّة من بني العاص (عشيرة الأشدق)؟ ممّن تكوّنت هذه الفرقة: هل تكوّنت من إخوة الأشدق؟ و قد قاد هذه الفرقة أخ عمرو يحيى بن سعيد بن العاص بن أبي أحيحة. وقد كان لهذا الأخير علاقة خاصّة بالأشدق رغم عدم انتمائهما لنفس الأمّ[1]؛ كما كانت له مقدرة عسكريّة[2]. هل كان يحيى بن سعيد على شرطة عمرو بن سعيد؟ من عيّنه هل عيّنه الخليفة يزيد بن معاوية أم عيّنه عمرو؟ ولم تذكر المصادر من كان مع يحيى بن سعيد من الرّسل.

حاولت هذه الفرقة منع الحسين من التقدّم، و سألوه إلى أين يذهب. لكنّه رفض أن ينقاد لهم، وواصل مسيره. «فتدافع[3] الفريقان» وضرب بعضهم بعضًا بالسّياط[4].

يبدو هذا العنف من الطّرفين تعبير عن اختلاف في الأفكار وفي الإيديولوجيا وهو عنف شبيه بعنف الفتنة الكبرى أي الفتنة الأولى.

---

(١) مصعب الزّبيري، *مصدر مذكور*، ص١٧٨ ـ ١٧٩ أمّ يحيى العاليَةُ بنتُ سلَمَة بن يزيد. بن جُعْفيّ بن سعد العشيرة و أمّ عمرو أمُ البنين بنت الحكم بن أبي العاص، أخت مروان بن الحكم لأبيه وأمّه.
ساعد أخاه في ثورته ضدّ الخليفة عبد الملك بن مروان وسيّره هذا الأخير بعد مقتل الأشدق إلى مصعب بن الزّبير بالعراق.
ابن سعد، *مصدر مذكور*، ج٥، ص١٨٤.

(٢) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٦، ص٦٤.

(٣) ابن منظور، *معجم مذكور*، ج١، ص٩٩١: «تدافَع القومُ أي دفع بعضُهم بعضًا».

(٤) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٨٥؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٧٦ ـ ٣٧٧.

فقد تضارب أنصار الثّالوث (عائشة زوجة الرّسول، والزّبير بن العوّام، وطلحة بن عبيد الله) وأنصار عليّ بن أبي طالب (الخليفة الغير مجمع عليه)، تضاربوا بالنّعال بعد أن ألقت عائشة خطبة تدعو فيها للقصاص من قتلة عثمان وأن يجعل الأمر شورى[1]. فالاختلاف الإيديولوجي كان يدفع كلّ فرقة للدّفاع عن قناعاتها إلى درجة التّصادم والضّرب لبعضهم بعضًا. لكنّ الحسين وأصحابه رفضوا الانصياع لأوامر رسل الوالي الأموي أي أعلن خروجه عن الدولة وعدم طاعتها.

كان الحسين وأصحابه مدفوعين بأصوات داخليّة وقناعات قويّة مرتبطة بإحساس عميق بالشّرعيّة التّاريخيّة. عندها نادى رسل الوالي الأموي الحسين ودعوه إلى تقوى الله وعدم الخروج عن الجماعة وعدم تفريق الأمّة.

أجابهم الحسين مستشهدا بالقرآن: ﴿لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾[2].

يضع الحسين نفسه في نفس وضعيّة النبيّ في مواجهته للكفّار، فهو يُخرج نفسه من بوتقة الدولة ليضع نفسه في مسار النّبوّة. وبذلك يتغيّر منطق الأمور لأنّ كلّ فرقة ترى الحقيقة من زاويتها، وتعتبر أنّها هي الوحيدة التي على حقّ.

ويعتبر هذا الخطاب أوّل خطاب سياسي موجّه من السّلطة الأمويّة للحسين، وهو خطاب يحيل على الفتنة بصفة غير مباشرة ويحيل كذلك على الإيديولوجيا الأمويّة أساسا إيديولوجيا الطّاعة[3]. يبدو خطاب الحسين خطابًا مفعمًا بالرّمزيّة. فصورة النبيّ في مواجهة الكفّار توقظ في الأذهان ماضي الأمويين ذوي الشرعيّة

---

(١) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٢٥ ـ ٢٦.

(٢) سورة يونس١٠/ ٤١، الطّبري، *جامع البيان*، ج٧، ص١٣٢: «يقول تعالى ذكره لنبيّه محمد صلّى الله عليه وسلّم: وإن كذّبوك يا محمد هؤلاء المشركون وردّوا عليك ما جئتهم به من عند ربّك، فقل لهم: أيّها القوم لي ديني وعملي ولكم دينكم وعملكم، لا يضرّني عملكم ولا يضرّكم عملي، وإنما يُجازى كلّ عامل بعمله. وهذا كما قال جلّ ثناؤه: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣﴾ سورة الكافرون١٠٩/ ١ ـ ٣.

(٣) بثينة بن حسين، مرجع *مذكور*، ص٣١٣.

الهشّة لأنّهم كانوا من الطّلقاء. فإسلامهم إسلام حديث بالمقارنة مع أبناء المهاجرين ذوي السّابقة والقُدمة وبالمقارنة بابن بنت الرّسول! فمُمثّلُ السّلطة يحيى بن سعيد بن العاص تجرّد مثل مروان بن الحكم بن العاص في مجلس الوليد بن عتبة، من مشاعر القرابة والرّحم[1] اللّذان كانا يربطانه بالحسين بن عليّ ليحرص على تركيز الطّاعة والحفاظ على وحدة الجماعة أو الأمّة من الانشقاق.

لم يخضع الحسين لأوامر السّلطة ومضى في سبيله إلى العراق. كما أنّ هذه الفرقة لم يكن لديها من القوّة لمنع الحسين من الرحيل إلى العراق. أو ربّما لم تكن لهذه الفرقة تعليمات واضحة في خصوص الحسين فتركته يذهب. كما أنّ عدم معرفتنا لعدد الرّجال بهذه الفرقة لا يمكّننا من البتّ في هذه المسألة.

وبذلك يظهر شبح الفتنة مخيّمًا، لأنّ عمّال الدّولة حاولوا بكلّ جهدهم تركيز سلطة وإيديولوجيا الدّولة الأمويّة. بينما حاول الحسين أن يفرض شرعيّته التّاريخيّة المستمدّة من الرّسول ومن عليّ بن أبي طالب.

تبدو إذا حادثة رسل عمرو سابقة حسب رأينا لتدخّل عبد الله بن جعفر ـ ابن عمّ الحسين وصديق معاوية بن أبي سفيان ـ لفائدة الحسين لدى والي مكّة عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق. وتحرّك الوالي بمقتضى تدخّل عبد الله بن جعفر[2]. فقد طلب منه هذا الأخير أن يكتب كتابًا للحسين يمنحه فيه الأمان و «يمنّيه فيه بالبرّ والصّلة» ويطلب منه الرّجوع. فقال له الوالي بأن يكتب ما يريد في رسالة أي عبد الله بن جعفر ويأتيه بها فيختمها. وتمّت الأمور كما أراد عبد الله بن جعفر. كما طلب من الوالي أن يبعث معه أخ عمرو بن سعيد، يحيى حتّى يطمئنّ الحسين للوالي ويعود. وكان مع يحيى بن سعيد عبد الله بن جعفر.

قصد الرّسولان الحسين وسلّماه رسالة الوالي وقرأها وألحّا عليه في الرّجوع معهم لكنّه اعتذر إليهم بأنّه رأى رؤيا فيها رسول الله وأمره فيها بأمر وهو ماض

---

(١) هو ابن عمّه.

(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٨٨.

للعراق لتحقيق هذا الأمر مهما كانت التّكاليف والعواقب. فسأله عن هذا الأمر لكنّه صارحهم بعدم البوح بهذا السرّ إلى أن يلقى ربّه.

يبدو من خلال هذا الكتاب أهميّة بعض المعطيات الانتروبولوجيّة كمنح الأمان وهي معطيات وجدت منذ الجاهليّة وتواصلت في الفترة الإسلاميّة. كما أنّنا نتساءل عن سبب تسليم الوالي لإحدى مسؤوليّاته لعبد الله بن جعفر أي مسؤوليّة كتابة الرّسالة للحسين. أي أنّ الوالي لم يقم إلاّ بمجهود الختم.

يرجع ذلك ربّما لمكانة عبد الله بن جعفر من السّلطة الأمويّة وكذلك لأهميّة القرابة التي تربط الحسين بالأسرة الأمويّة فهو ابن عمّهم.

كما ظهر من خلال هذه الرّواية الجانب الرّمزي والعاطفي في موقف الحسين الذي سعى لتبليغ أوامر جدّه رسول الله التي وصلته في رؤيا رآها في المنام. وهذه الرّؤيا هي التي كانت حافزا قويّا له للرّحيل للعراق. إنّ هذه الرّؤيا هي عبارة على وصيّة طبعت قلب الحسين وروحه ودفعته دفعا قويّا لتنفيذ واجبه تجاه جدّه الرّسول وتجاه الإنسانيّة. على هذا الأساس، لم يكن الجانب العقلاني موجودا في تصوّر الحسين بل كان الجانب العاطفي والروحي والرّمزي يلعب دورا هامّا في دفع الحسين إلى العراق. وربّما لعب المخيال الشّيعي دورا هامّا في إبراز هذه الزّاوية من شخصيّة الحسين. ولا ننسى أنّ الرّواية هي رواية شيعيّة لأبي مخنف.

وتشبه رؤيا الحسين رؤيا الخليفة عثمان التي رأى فيها الرّسول قبل ليلة من مقتله ودعاه إلى الغداء عنده في الغد. وخيّره الرّسول بين حلّين: أن يفطر عنده أو ينصره على القوم الذين حصروه ففضّل عثمان أن يفطر لدى الرّسول(١). أدّت الرّؤيا لا محالة إلى «استشهاد» أي قتل من قبل طائفة أخرى من المسلمين.

فما هو محتوى رسالة عمرو بن سعيد للحسين بن علي؟

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٦، ص٢٠١.

احتوت رسالة عمرو بن سعيد بن العاص للحسين على نصح الحسين حتّى يُقلع عمّا يوبقه خاصّة الشّقاق[1] بمسيره للعراق. كما عبّر له عن تخوّفه من الهلاك. وأعلمه أنّه أرسل له عبد الله بن جعفر ويحيى بن سعيد ليأتي معهما. ووعده بالأمان والبرّ والصّلة وحسن الجوار[2].

يظهر من خلال هذه الرّسالة للحسين ـ رغم أنّ المصادر تتحدّث عن كتابة عبد الله بن جعفر للرّسالة ـ يظهر حرص السّلطة الأمويّة على حمل الحسين على الحفاظ على وحدة الجماعة. كما أنّ الوالي تخوّف على الحسين من الاستئصال أو الهلاك، وهو مفهوم بقي يتردّد على ألسنة بني هاشم. وهو غير مستغرب من عمرو بن سعيد لأنّه ابن عمّ الحسين أيضا! وكان جواب الحسين بأنّه «لم يشاقق الله ورسوله من دعا إلى الله عزّ وجلّ وعمل صالحا وقال إنّني من المسلمين[3]». يعتبر هذا الجواب البرنامج السّياسي والإيديولوجي للحسين وهو برنامج مستمدّ من شرعيّة الانتماء لآل البيت والإيمان بالله وبرسوله والقيام بالعمل الصّالح والانتماء لفئة المسلمين.

يرتكز هذا الخطاب الإيديولوجي والسّياسي للحسين على مرجعيّة قرآنيّة. وهو بذلك يهدّد ويُضعف من الشرعيّة الأمويّة. كما أنّ الحسين لا يرى أنّه يحدث الشّقاق لأنّه يعتقد أنّه يدعو إلى مبادئ اتّفق عليها المسلمون. على هذا الأساس، ابتدأت الفتنة في ثورة الحسين نتيجة اختلاف في الإيديولوجيات بين فئتين. فمن ناحية، يرى عمّال الدّولة كالأشدق أنّه يفرض سلطة الدّولة الأمويّة. ومن ناحية أخرى، كان الحسين يرى أنّه مرسل برؤيا من الرّسول ليدعو إلى مبادئه. فكلّ فئة تحرّكها مبادئ وإيديولوجيّات مختلفة لذلك كان لا بدّ أن يتصادم الفريقان.

---

(١) ابن منظور، معجم مذكور، ج٢، ص٣٤٢: الشّقاقُ: العداوةُ بين فريقين والخلافُ بين اثنين. شقّ أمره يشُقّه شقًّا فانشقّ: انفرق وتبدّد اختلافًا.
شقّ فلان العصا أي فارق الجماعة، وشقّ عصا الطّاعة فانشقّت وهو منه.

(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٨٨.

(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٨٨.

يبدو أنّ ابن عبّاس (وهو بمكّة) كان يرى في يزيد بن معاوية خير وريث لمعاوية، و حرّض النّاس على الطّاعة والبيعة[1].

وبايع ابن عمر الوليد بعد أن انتظر قدوم البيعة من البلدان فبايع الوليد بن عتبة هو وابن عبّاس[2].

سعت الدّولة الأمويّة في هذه المرحلة من الفتنة لفرض البيعة على الرّافضين للطّاعة والدّخول في الجماعة الحسين بن عليّ وعبد الله بن الزّبير. لم تستعمل الدولة عنفًا أو قهرًا كبيرًا في هذه المرحلة. كما أنّ وجود كلّ من ابن الزّبير والحسين بن عليّ في مكّة جعل الوضعيّة حسّاسة لقداسة الحرم المكّي. لكنّ الانشقاق ابتدأ على المستوى الدّيني وهو حدث جديد في الفتنة يتمثّل في قيام ابن الزّبير بشعائر الحجّ مع أصحابه و بمعزل عن الوالي الأموي.

كما أنّ انتماء الولاة لبني أميّة جعل التّخاطب صعبا بين الفريقين. فعلاقات القرابة والرّحم بين هذه العشائر المتنافرة من قريش، كانت حاسمة ومحدّدة لعدم تفاقم الأزمة بين الطّرفين على الأقلّ في هذه الفترة.

واكتست كلّ من حركة ابن الزّبير وحركة الحسين طابعا رمزيّا دينيّا؛ فربط ابن الزّبير مصيره بالكعبة كحرم مقدّس لكنه منغلق. واختار الحسين بن عليّ الانتقال إلى العراق. ويعتبر هذا الحدث حدثا هامّا في هذه الفترة من الفتنة لأنّه سيغيّر تطوّرها. فالدّولة الأمويّة ستتّخذ سياسة جديدة تجاه ثورة الحسين. كما أنّ حركة ابن الزّبير ستتّخذ شكلاً جديدًا بعد خروج الحسين إلى العراق. وستتّخذ الدّولة الأمويّة سياسة جديدة في مواجهة هذه الحركات لتركيز سلطتها وإيديولوجيّتها تجاه هذه الحركات التي رفضت البيعة للخليفة يزيد بن معاوية ثمّ أعلنت عن تطوّر حركاتها من رفض للبيعة إلى حركة معارضة للدّولة. وهذا ما سنبحثه في الفصل الثّاني من هذا الكتاب.

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٠٢ ـ ٣٠٣.

(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٣.

الفصل الثاني
الوجه الجديد للفتنة

تطوّر حركات رفض البيعة: حركة ابن الزّبير وثورة الحسين بن عليّ

المقدّمة:

اتّسمت هذه المرحلة من الفتنة في فترة الخليفة يزيد بن معاوية بتطوّر لحركة ابن الزّبير وبثورة الحسين بن عليّ بالكوفة، وامتدّت هذه الفترة من سنة ٦٠ إلى سنة ٦١هـ. فقد عاذ ابن الزّبير بالحرم رافضا البيعة منتظرًا ما سيحدث مع الحسين لأنّه كان على يقين أنّ حركته لا يكتب لها النّجاح وسبط الرّسول على قيد الحياة. وفي نفس الوقت، كان الخليفة يزيد بن معاوية يسعى لفرض البيعة وسيتطوّر موقفه في سبيل فرض الطّاعة والجماعة خلافا لما يروّج عنه من خمول وضعف في ممارسته للسّلطة.

وانتقل الحسين بن عليّ إلى العراق بعد أن أرسل له شيعة أبيه علي وأشرافها الكتب للقدوم عليهم. وكان هذا الرّحيل للكوفة محمّل بالرّموز السّياسيّة والدّينيّة المرتبطة بالهالة المقدّسة المحاطة بأهل البيت.

فما هي خصائص هذه الفترة؟ وكيف حضّرت الأمّة لثاني انشقاق في الضّمير الإسلامي؟ وما هي مظاهر العنف الجديدة التي أفرزتها قبل أن تحدث المواجهات العسكريّة بين حركات المعارضة والدّولة الأمويّة؟

تطوّر حركة عبد اللّه بن الزّبير بعد رحيل الحسين إلى الكوفة

أصبحت حركة ابن الزّبير في تطوّرها حركة معارضة للدّولة الأمويّة بما أنّ ابن الزّبير رفض البيعة وبالتّالي رفض إعلان الطّاعة والدّخول في الجماعة. فحلف الخليفة يزيد بن معاوية أن لا يقبل بيعة ابن الزّبير إلاّ في جامعة. كما حرص الخليفة يزيد بن معاوية على إحداث تغييرات على ولاية المدينة بعزل الوليد بن عتبة. فقد اعتبر يزيد الوليد ضعيفًا أي عاجزا لأنّه لم ينجح في أخذ البيعة من ابن الزّبير والحسين بن عليّ. ويبدو أنّ مروان بن الحكم كتب كتابا للخليفة يذكر فيه ضعف الوليد وإدهانه[١] لابن الزبير[٢]. وتصرّف مروان نتيجة غضبه على الوليد الذي لم يعمل بنصيحته.

يتبوّأ مروان مكانة هامّة لدى يزيد، فهو مسموع الكلمة لديه. كما أنّه يتدخّل في سياسة الدّولة من منطق الانتماء لبني أميّة. وتقتضي المصلحة العليا للأمويّين الدّفاع عن مصالحهم السيّاسيّة في الحجاز.

وعيّن يزيد عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق الذي جمع له مكّة والمدينة[٣]. وولّى عمرو بن سعيد يحيى بن الحكم بن صفوان بن أميّة بن خَلف الجُمحي أو يحيى بن حكيم بن صفوان[٤] مكّة. كما ولّى يزيد عمرا الموسم[٥]، فحجّ بالنّاس في جماعة من مواليه[٦]، وهو خائف من ابن الزّبير. لكنّ هذا الأخير لم يصلّ بصلاته ولم يُفض بإفاضته[٧]. وذكر البلاذري أنّ ابن الزّبير أتى عمرو بن سعيد

---

(١) ابن منظور، معجم مذكور، ج١، ص١٠٢٩: والمداهنة والإدهانُ: المُصانعة واللّين، وقيل: المداهنة إظهار خلاف ما يُضمرُ. والإدهان: الغشُّ. ودهن الرّجل إذا نافق. الإدْهانُ المقاربة في الكلام والتّليين في القول.

(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٢٢.

(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٣؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٢٣ ـ ٣٢٧.

(٤) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٢٢ ـ ٣٢٣؛ مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص٣٩٠.

(٥) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٢٥.

(٦) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٢٥.

(٧) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٢٣.

«فسكن» الوالي لذلك. لكنّنا لا نعرف ماذا دار بينهما من حديث ولماذا سكن الوالي أو اطمأنّ؟ هل وعد ابن الزّبير الوالي بشيء ما؟

واشتكى عمرو بن سعيد ابن الزّبير لابن عبّاس، فنصحه بالرّفق به لأنّ له «قرابة وحقّا[1]». والمقصود بالقرابة والحقّ، السّابقة والقدمة والانتماء لفئة المهاجرين الأوائل وأبناء الصّحابة.

لم يكن الوالي متجرّئا على تقوية اللّهجة أو التّصعيد مع ابن الزّبير لحرمة المكان والزّمان وحرمة ابن الزّبير نفسه (وجود ابن الزّبير بالكعبة زمن الحجّ).

ثمّ رجع عمرو بن سعيد إلى المدينة، فأمره الخليفة يزيد بن معاوية أن ينتدب جيشا لغزو ابن الزّبير. وأمره بتأمير عمرو بن الزّبير ـ وهو أخ ابن الزّبير وأعدى شخص له ـ على هذا الجيش.

يطرح هذا الحدث علينا إشكالا وهو عنصر التّأريخ؛ فقد جعله الطّبري قبل مقتل الحسين أي أرّخه في سنة ٦٠ بعد تولّي عمرو بن سعيد لولاية مكّة والمدينة. بينما أرّخه البلاذري بعد مقتل الحسين.

في اعتقادنا، يبدو تأريخ الطّبري أقرب للواقع التّاريخي نظرا لحرص الخليفة يزيد على فرض الطاعة وإخضاع ابن الزّبير. فخلافًا لما روّجت المصادر من أخبار سلبيّة ومضعّفة ليزيد بن معاوية، فقد كان منذ تولّيه الخلافة يسعى للحفاظ على وحدة الجماعة، ففتح واجهتين: واجهة أولى في العراق لمحاولة القضاء على ثورة الحسين بن عليّ، وواجهة ثانية في الحجاز بإرسال جيش إلى مكّة[2]!

ما هو السّبب المباشر الذي دفع يزيد ليقرّر إرسال جيش لابن الزّبير؟

يبدو أنّ والي مكّة يحيى بن حكيم حسب رواية للواقدي أنّ ابن الزّبير بايعه ليزيد. وقال أنّه يقدّم طاعته الآن لأنّه لا من قبل كره جِوار الوليد بن عتبة.

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٢٥.

(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٣؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٢٧.

ووصف ابن الزّبير هذا الأخير بالأخرق[1]. كما أنّه ذكّر بمقدرة معاوية السياسيّة. وبيّن أنّه عائذ بالبيت لشيء لا يأمنه[2]!

لكنّنا نستبعد هذه الرّواية لأنّها الرّواية الوحيدة في المصادر التي تذكر هذه البيعة. كما أنّ العلاقة بين الخليفة والثّائر ابن الزّبير تعقّدت في هذه الفترة لأنّ ابن الزّبير تشدّد في رفض البيعة ليزيد، وبدأت تظهر نواياه في افتكاك السّلطة وينتظر انتهاء أمر الحسين ليعلن نفسه خليفة. كما أنّ تفسيره لسبب احتمائه بالبيت يبدو غير مقنع.

كان يحيى بن حكيم مُسالما لابن الزّبير، فكتب الحارث بن خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة المخزوميّ[3] إلى يزيد «يذكر له مداهنة يحيى بن حكيم ابن الزُّبير[4]». فعزل يزيدُ يحيى بن حكيم، وولّى الحارث بن خالد مكّة[5]؛ فلم يتركه ابن الزّبير يصلّي بالنّاس؛ فكان الحارث يصلّي في «جوف[6] داره بمواليه ومن أطاعه من أهله[7]». وكان مصعب بن عبد الرحمن[8] يُصلّي بالنّاس في المسجد الحرام بأمر من ابن الزّبير.

تصلّبت سياسة الخليفة يزيد بن معاوية ضدّ ابن الزّبير لعدم دخوله في الطّاعة ولضربه للسّلطة الأمويّة المتمثّلة في الصّلاة بالنّاس وخلق وضعيّة فتنة وانشقاق داخل الحرم المكّي حدث لأوّل مرّة في تاريخ الإسلام والمسلمين. فأصبح والي مكّة خائفا ومعزولا في بيته، وانفضّ عنه النّاس ما عدا مواليه وبعض أهله. وافتكّ ابن الزّبير سلطة الصّلاة في البيت الحرام وعيّن عاملا له من رجاله.

---

(١) ابن منظور، معجم مذكور، ج١، ص٨٢٠: الخُرْقُ: الحمْقُ.
(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٢٢.
(٣) مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص٣١٣ ـ ٣٩٠.
(٤) مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص٣٩٠.
(٥) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٤ ذكر الطّبري أنّ الحارث بن خالد المخزوميّ كان على الصّلاة.
(٦) ابن منظور، معجم مذكور، ج١، ص٥٣٥: «جوف كلّ شيء داخله».
(٧) مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص٣٩٠.
(٨) مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص٢٦٨.

كما نلاحظ توجّه الخليفة يزيد بن معاوية في تعيين ولاة على مكّة من قريش (جُمح ومخزوم). كما يبدو أنّ مشكلة أنصار الدّولة الأمويّة تتمثّل في تخوّفهم وإعلامهم للخليفة بإدهان العمّال الأمويّين في مكّة والمدينة تجاه ابن الزّبير. والإدهان هو مزيج من المصانعة واللّين والنّفاق والغشّ. وترجع هذه السّياسة لانتماء هؤلاء الولاة لقريش وتخوّفهم من استعمال العنف مع أحد رجال قريش من ذوي السّابقة والقدمة وهو ابن الزّبير، ابن حواريّ الرّسول وأسماء بنت أبي بكر. كما اتّبع الخليفة يزيد بن معاوية نصيحة الحارث بن خالد المخزوميّ وعزل يحيى بن حكيم. أي أنّه أخذ بعين الاعتبار نصيحة أحد رجال قريش قبيلته هذا من زاوية السّلطة الأمويّة.

ومن جانب ابن الزّبير، عيّن العائذ بالحرم لأوّل مرّة عاملا على الصّلاة صلّى بالنّاس في البيت الحرام. وهذا الحدث هو حدث هامّ وجديد لأنّه حدث سياسيّ إلى أبعد الحدود. فهذا يعني بالأساس أنّ ابن الزّبير كوّن حركة سياسيّة منشقّة ومهدّدة للدّولة في قلب الحرم المكّي أي انّه أفرغ السّلطة الأمويّة من سلطتها الدينيّة ـ السياسيّة. وهذا التصرّف من قبل ابن الزّبير يقوّي شيئا فشيئا طموحاته السياسيّة ويحدّد سلطاته كقائد لحركة مناهضة للسّلطة.

نحن أمام ظاهرة جديدة لم تحدث في فترة الخلفاء الأوائل وفي فترة الخليفة معاوية بن أبي سفيان. انقسمت قريش نتيجة خروج معارضين قرشيّين من صنف خاصّ (أبناء المهاجرين الأوائل)؛ وبالتّالي انطلق الانشقاق من قريش نفسها. وكان القرشيّون وعمّال الحجاز (القرشيّين) في حيرة من أمرهم. وكانت الرسل بين يزيد وابن الزّبير في البيعة فحلف يزيد ألاّ يقبل منه البيعة حتّى يأتيه في جامعة[1]. أصبح هذا المطلب مطلبا أساسيّا للخليفة يزيد بن معاوية لحفظ سلطته تجاه عصيان ابن الزّبير. أمام حيرة الجميع، اتّخذ الخليفة قرار إرسال جيش لابن الزّبير لعقابه على مسّه السّلطة الأمويّة ولإجباره على القدوم في جامعة ومبايعته.

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٤.

كان الغرض الأساسي من إرسال الجيش لابن الزّبير هو أخذ البيعة منه. وأن يُؤتى به في جامعة ليُبَرّ يمين الخليفة. واقترح الوالي أن يجعل جامعة خفيفةً من ورِق[١] أو ذهب، ويلبس عليها بُرْنُسًا[٢]، حتّى تُحجب عن الأنظار لكنّها تُسمع[٣]. ارتبطت الجامعة بسلطة الخليفة وأصبحت تُصنع من موادّ ثمينة كالذّهب والفضّة. كما أنّ الجامعة يمكن أن تكون ثقيلة أو خفيفة حسب الغرض. وترتبط الجامعة بالبرنس لحجبها عن النّاس؛ بينما يبقى «الصوت» الذي تُحدثه الجامعة مسموعا وذلك في إطار بروتوكول ملكي أمويّ للعنف أوجده الخليفة يزيد بن معاوية ليُذلّ ابن الزّبير لخروجه عن الطّاعة.

ويبرّ الخليفة قسمه أو يمينه من باب الأخلاقيّة الدّينيّة وحتّى يظهر بمظهر الخليفة الذي لديه هيبة. وتدخل الجامعة في منطق الفتنة لأنّه لا يكفي أن يدخل «العاصي» في الطاعة، بل يجب أن يُذلّ. لنا أن نتساءل من أين أُخذت هذه الأساليب في العقاب السياسي؟ هل تنتمي للمحيط السياسي البيزنطي؟

لقد ذُكرت الجامعة في الفتنة الأولى حيث خاطب أحد الثوّار الخليفة عثمان بن عفّان، فطلب منه أن ينزل من المنبر ليدرّع في العباءة[٤] ويطرح في الجامعة ثمّ يُحمل على الشّارف[٥] ويطرح في جبل الدّخان[٦] لأنّه لم يستجب لمطالبهم[٧].

---

(١) ابن منظور، *معجم مذكور*، ج٣، ص٩١٢: الورِق، الفضة.

(٢) ابن منظور، *معجم مذكور*، ج١، ص٢٠٤: البُرْنُس: كلّ ثوب رأسه منه مُلتزِقٌ به، درّاعةً كان أو مِمْطَرًا أو جبّة. البرنس قلنسوة طويلة، وكان الناس يلبسونها في صدر الإسلام.

(٣) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٤٦.

(٤) ابن منظور، *معجم مذكور*، ج٢، ص٦٦١: العباءة، ضرب من الأكسية.

(٥) ابن منظور، *معجم مذكور*، ج٢، ص٣٠٢: الشارف من الإبل: المسنّ و المسنّة.

(٦) ياقوت، *معجم مذكور*، ج٢، ص٤٧٥ ـ ٤٧٦ ـ ٤٧٧ دُنْباوَنْد: وهو جبل من نواحي الريّ. وهو جبل عال مشرف شاهق لا يفارق أعلاه الثلج شتاءً ولا صيفًا ولا يقدر أحد من النّاس أن يعلو ذِرْوته ولا يقاربها. وهو يُسمّى بجبل الدّخان لأنّ فيه عينا كبريتيّة وحولها كبريت مستحجر، فإذا طلعت عليه الشّمس والتهبت ظهرت فيه نار. فالدّخان هو بخار تلك العين الكبريتيّة. ودنباوند من فتوح سعيد بن العاص في أيّام عثمان، لمّا ولي الكوفة سار إليها وافتتحها سنة ٢٩ أو ٣٠هـ. وأشيعت حول هذا الجبل الكثير من الأساطير.

(٧) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٤، ص٣٦٦؛ البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٦، ص١٦٠ ـ ١٦١.

ففي منطق الفتنة الأولى، أراد الثوّار أن يذلّوا الخليفة عثمان لأنّه لم يتّبع تعاليم القرآن، وبدّل طبيعة السّلطة الإسلاميّة وقرّب ذوي قرابته، فأحضروا الجامعة والعباءة والشّارف وهدّدوه بطرحه في الجامعة وإلباسه العباءة ورميه في جبل الدّخان كما سيّر خيار النّاس ظلمًا على حسب تعبيرهم. فقد كان جبل الدّخان مكانا للنّفي وهي وسيلة عقاب اتّبعها عثمان مع أحد قرّاء الكوفة وهو ابن ذي الحبكة النّهدي. وأمر عثمان واليه على الكوفة ـ وهو الوليد بن عقبة ـ أن يضربه ضربا مبرّحا و ينفيه إلى جبل الدّخان[1].

إذا طلب الخليفة من عمرو بن سعيد أن يختار جيشا من أهل الدّيوان والعطاء[2]. فجهّز عمرو بن سعيد جيشًا يتركّب من بدلاء من العطاء أي أنّهم لا ينتمون للدّيوان بل يقومون بالجهاد بدلاً لأشخاص آخرين. وكانوا كلّهم موالين لابن الزّبير[3]. اما كان هذا الجيش متركّبًا من موالي بني أميّة وعدد كبير من موالي أهل المدينة[4] وأشخاص لا ينتمون لأهل الديوان. وكان عدد الجند ٤٠٠[5] أو ٧٠٠[6] أو ٢٠٠٠[7] أو «ناس كثير[8]». يبدو عدد الجند مبالغ فيه من قبل المصادر، وهذا مرتبط بطبيعة الرّواية الشّفويّة التي تضخّم الأرقام أو تُنقص من قيمتها. ويذكر الطّبري أنّ الوالي أخرج لأهل الدّيوان عشرات[9]. فما المقصود

---

(١) ياقوت، معجم مذكور، ج٢، ص٤٧٧: كان سبب العقاب غريبا: «كان ابن ذي الحبكة النّهدي يعالج تبريجًا. ابن منظور، معجم مذكور، ج١، ص١٨٧: التّبريح: وفي حديث عكرمة: أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، نهى عن التّوليهِ والتّبريحِ؛ قال: التّبريح قتْلُ السّوْء للحيوان مثل أن يُلقى السّمك على النّار حيّا.

(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٢٧.

(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٢٨؛ ابن منظور، معجم مذكور، ج١، ص١٧٥ ـ ١٧٦: بدل، يقول الرّجل للرّجل اذهب معك بفلان، فيقول: معي رجل بدله أي رجل يغني غناءه ويكون مكانه.

(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٤، ص٣٦٦.

(٥) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٤.

(٦) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٤.

(٧) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٦.

(٨) المصدر نفسه.

(٩) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٤.

بالعشرات؟ هل وزّع عليهم العطاء أو زادهم فيه؟

يبدو هذا الجيش غريبا في تكوينه لعدم وجود جيش للدّولة الأمويّة في المدينة. فجيش الدّولة هو جيش الشّام المُوالي إيديولوجيّا للدّولة. بينما كان هذا الجيش المرسل لابن الزّبير جيشا غير متجانس ولا يتركّب من أهل الدّيوان والعطاء. كما يبدو من خلال المصادر أنّ هناك تضاربا بينها حول تكوين هذا الجيش. فالبعض يذكر أنّ هذا الجيش متركّب من أهل الدّيوان، والبعض الآخر يذكر أنّه متركّب من الموالي. فهل كان هؤلاء الموالي يأخذون العطاء أي مسجّلين في الدّيوان؟ ولعلّ صعوبة تكوين جيش من هذا القبيل تعود للعلاقات العشائريّة والقبليّة بين أهل الديوان في المدينة ومكّة (الذين ينتمون لفروع قريش) وابن الزّبير. كما أنّ عناصر عديدة من هذا الجيش تنتمي للموالي الذين ليس لديهم أصول قرشيّة. هل كان الوالي على علم بميولات هذا الجيش؟ المهمّ أنّ الخليفة يزيد بن معاوية انتدب جيش لأوّل مرّة بالحجاز لإخضاع أحد أبناء الصّحابة.

وأمر الخليفة الوالي أن يولّي على الجيش رجلا حازما[1]؛ أو أنّه كتب إلى عمرو بن سعيد بأن يُعيّن عمرو بن الزّبير على جيش، ويبعث معه أَنيس بن عَمرو الأسلمي[2]. وفي رواية أخرى، طلب عمرو بن الزّبير من الوالي أن يبعثه على رأس الجيش لأخيه لأنّه كان يستخفّ بحقّه ومقاطعا له[3]. كما كان عمرو يعلن عِداءه لأخيه بثلبه وانتقاده انتقادا لاذعا[4].

رغم اختلاف هذه الرّوايات فإنّ عمرو بن الزّبير رُشّح من الخليفة ومن الوالي لقيادة هذا الجيش لأنّه أعدى شخص لابن الزّبير في قريش.

ويبدو أنّ عمرو بن سعيد عيّن عمرو بن الزّبير على شرطته بالمدينة عندما تأكّد

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٢٧.
(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٤: ينتمي هذا القائد ربّما لأسلم بن أوس. بن كعب بن الخزرج من الأنصار!.
(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٢٨.
(٤) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٢٨.

أنّه أعدى شخص لابن الزّبير[١]. لكنّ عمرو بن الزّبير كان أمويًا عن طريق علاقة الرّحم، فهو يميل إلى أخواله من أبناء العاص[٢]. فأمّ عمرو بن الزّبير هي أمة أو أمّ خالد بنت خالد بن سعيد بن العاص[٣]. وهي من المبايعات، ولدت بأرض الحبشة، وقدمت مع أبيها في السّفينتين، وسمعت من الرّسول وهي صغيرة وبايعته[٤]. كما أنّ أباها خالدا عُرف بفضله وشرفه وإسلامه. واستشهد بمرج الصفر أو باليرموك في فتح الشّام[٥]. على هذا الأساس، كان بين عمرو بن الزّبير وعمرو بن سعيد (والي المدينة)علاقة قرابة وثيقة لأنّ أمّ عمرو بن الزّبير هي ابنة عمّ الأشدق.

إضافة لهذه القرابة، كان بين الوالي وصاحب الشّرطة علاقة مصاهرة، فقد تزوّج عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق شقيقة عمرو بن الزّبير لأمّه وأبيه وهي سَوْدة بنت الزّبير بن العوّام بن خُويلد[٦]. وكان له من الأبناء عبد الملك وعبد العزيز ورمْلة[٧]؛ أي أنّ عمرو بن سعيد هو صهر عمرو بن الزّبير.

أدّت قوّة أواصر القرابة والمصاهرة بين الرّجلين إلى توطيد التّحالف السّياسي بينهما.

ما هي أسباب العداوة بين عبد الله بن الزّبير وأخيه عمرو؟

هل كان هناك تحاسد بينهما؟ هل كان عبد الله بن الزّبير يحسّ بأنّه أشرف إسلاما من جانب أمّه ويحسد عمرو على قرابته وانتمائه لبني أميّة؟ هل كان تكبّر عمرو

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٤ ـ ٣٤٦؛ ابن سعد، مصدر مذكور، ج٥، ص١٤١؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٢٨.

(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٣٣.

(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٢٧ ـ ٣٢٨؛ابن سعد، مصدر مذكور، ج٥، ص١٤١.

(٤) مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص٢٣٦.

(٥) البلاذري، مصدر مذكور، ج٦، ص٤٢ ـ ٤٣ ـ ٤٤ ـ ٤٥.

(٦) هناك إشكال مطروح بالنّسبة لسودة. فقد تزوّجت عمرو بن سعيد وعبد الرحمن بن الأسود بن أبي البختَري. ولا تحدّد المصادر متى كان الزّواج الثّاني وهو ربّما بعد مقتل عمرو بن سعيد الأشدق.

(٧) ابن سعد، مصدر مذكور، ج٥، ص١٨٤.

يقلقه ويمسّ من كبريائه؟ هل كان لعمرو نفس الإحساس تجاه عبد الله بن الزّبير؟
أي أنّه يحسّ باحتقاره له لأنّه حفيد أبي بكر الصدّيق؟

لعلّ العداوة ترجع لشخصيّة عمرو بن الزّبير فهو شديد الكبر[١] لانتمائه لبني أميّة وبالتّحديد لفرع العاص بن أميّة. فقد كان جدّهم أبو أحيحة عظيم الشّرف في قومه، «وكان إذا اعتمّ لم يعتمَّ أحدٌ بمكّة بلون عمامته إعظاما لهُ[٢]».

فشرف عمرو من جهة أمّه هو شرف جاهلي وشرف إسلامي مرتبط لإحساسه بالانتماء للأمويّين أي أصحاب السّلطة والحكم. وربّما لعب رجال قريش دورًا هامًا في توتير العلاقة بينهما. فقد كان سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص يُشير على الخليفة معاوية بن أبي سفيان بالإذن لعمرو بن الزّبير أوّلا لأنّ أمّه أمة بنت خالد بن سعيد بن العاص، وذلك على حساب عبد الله بن الزّبير. لكنّ معاوية لم يكن يحبّذ لا هذا و لا ذاك[٣].

ويشترك عمرو بن الزّبير في الإحساس بالكبر مع الوالي عمرو بن سعيد. فقد كان يعرف بشدّة تكبّره[٤]. لكنّ تكبّر الوالي كان أقلّ حدّة من عمرو بن الزّبير. كما كانا يشتركان في الشّدق، حيث صنّفُهُما ابن حبيب في الفُقم الأشراف[٥]. ولعلّ هذه العاهة الخُلُقيّة (اعوجاج في الشّدقين) كانت تُفسّر الكبر المفرط من عمرو بن سعيد وعمرو بن الزّبير، وكان كلّ منهما يقوم بأفعال لتأكيد ذاته وإخفاء

---

(١) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٩٨.
(٢) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٦، ص٤١.
(٣) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٧٣.
(٤) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٤٣؛ البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٦، ص٥١: ورث عمرو بن سعيد الكبر عن أبيه سعيد بن العاص.
(٥) ابن حبيب، *كتاب المُحبّر*، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، د.ت، ص٣٠٤؛ ابن منظور، معجم *مذكور*، ج١، ص١١١٩: «الفَقَمُ في الفم: أن تدخل الأسنان العليا إلى الفم، وقيل الفقم اختلافه، وهو أن يخرج أسفل اللَّحْي و يدخل أعلاه، فقِم يفْقمُ فقَمًا وهو أفقَم، ثمّ كثر حتّى صار كلُّ مُعْوَجٍّ أفقم، وقيل: الفقمُ في الفَم أن تتقدّم الثّنايا السفلى فلا تقع عليها العليا إذا ضمّ الرجل فاه.
ابن منظور، معجم *مذكور*، ج٢، ص٢٨٤ الأشدق: «الشّدق، جانب الفم. والأشدق: العريض الشّدق الواسعُ المائلُ».

هذا النّقص الخُلُقي. لكنّ عمرو بن الزّبير كان أكثر تطرّفًا في عنفه. وسنرى فيما بعد أنّ شخصيّة عمرو بن سعيد وتكبّره وسياسته مع أهل المدينة ومكّة وخاصّة إرسال هذا الجيش للحرم المكّي، ستكون سببا من أسباب فشل السّياسة الأمويّة في الحجاز.

لو رجعنا لعمرو بن الزّبير لنحلّل مساره، هذا المسار المتّسم بالعنف والتكبّر. فقد ذكرت المصادر حادثة له في عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان. فقد اتّفق جماعة من قريش على إغضاب معاوية، فتطوّع شخص ـ هو مالك بن أسماء المُنى القرشي، وهي أمّه ـ أن يغضب الخليفة مقابل أن يتحصّل على جُعل.

فأتى معاوية في الحجّ، فقال له مالك بأنّ عيناه تشبهان عينا أمّه. لكنّ معاوية حلُم عنه وأعدّ ديّته لأنّه تأكّد من موته على يد غيره. وأطمع مالكا أحد رجال قريش بأن يأتي عمرو بن الزّبير ويقول له بأنّه يشبه أمّه و يضاعف له الجعل.

فكان العمل كذلك. وقال مالك لعمرو بأنّه شبيه بأمّه، فأمر به فضُرب حتّى مات؛ ودفع معاوية ديّته إلى أمّه[1]. وهذا ما جعل القرشيّين يقولون «بأنّ عمرو لا يُكلّم ومن يكلّمه يندم[2]».

يظهر من خلال هذا الخبر أنّ عمرو بن الزبير كان شديد الكبر وعنيفًا وكثير العدائيّة. لكنّ هذا العنف في الشّخصيّة عندما يستعمل في إطار منصب سياسي يصبح عنفا للدّولة. فقد عيّن عمرو بن سعيد عمرا بن الزّبير على شرطته في إطار معيّن وهو عزل صاحب شرطته مصعب بن عبد الرحمن بن عوف. فقد أمر عمرو بن سعيد مصعب بن عبد الرحمن أن يهدم دور بني هاشم وما يمتلكونه والتشدّد معهم؛ وهدم دور بني أسد بن عبد العُزّى والشِدَّةِ عليهم عندما خرج الحسين بن عليّ وعبد الله بن الزُّبير ورفضا البيعة للخليفة يزيد بن معاوية[3].

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٩٨.

(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٢٨.

(٣) مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص٢٦٨.

فأجابه مصعب بأنّه لا ذنب لهؤلاء ورفض الامتثال لأوامر الوالي. فأجابه عمرو بأنّه عدا طوره وجاوز قدره. وعايره بأمّه: «يا بْن أمّ حُريْث[1]»؛ وطلب منه أن يُرجع له «سيف الدّولة». فرمى له بالسّيف وخرج فالتحق بابن الزّبير[2]. إذا عزل عمرو بن سعيد مصعبا عن شرطته بالمدينة لرفضه الامتثال لطلبه وعيّره بأمّه أي أنّه أنقص من قيمة قرشيّ وحقّر من شأنه. وهذا نوع جديد من العلاقات بين الدّولة الأمويّة وقريش تميّز بالتكبّر والغلظة. وأدّت سياسة الوالي إلى ارتماء مصعب في أحضان ابن الزّبير.

يبدو أنّ مصعب بن عبد الرحمن كان من الرّجال الذين حبسهم الوليد بن عتبة لميلهم لابن الزّبير بعد هروبه إلى مكّة[3]. وبقي فيما بعد في المدينة ولم يلتحق بابن الزّبير بمكّة. فهو قرشي ورفض الإساءة إلى قرشيّين من البيت النّبوي (بني هاشم) ومن أسد بن عبد العزّى التي ينتمي إليهم آل الزّبير بن العوّام حواريّ رسول الله. ويندرج هذا الرّفض في إطار انتماء مصعب نفسه إلى قريش فهو من زهرة بن كلاب[4]، ولفئة أبناء الصّحابة[5]. فقد رفض معاقبة قرشيّين لم يرتكبوا ذنبا. كما رفض فكرة العقاب التي أراد عمرو بن سعيد أن يفرضها عليه ليطبّقها.

مثّل عمرو بن الزّبير الشخصيّة المُثلى والمناسبة للقيام بدور لا يقوم به غيره في قريش، فينفّذ سياسة الخليفة يزيد بن معاوية في فرض الطّاعة والجماعة. كما أنّ عمرو بن سعيد نفسه يمثّل شخصيّة قُرشيّة غريبة لأنّه هو نفسه ابتدأ سياسة تعنيف وشدّة ضدّ قريش ـ القبيلة الأكثر أرستقراطيّة لدى العرب في الجاهليّة؛ وشُرفت

---

(١) مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص٢٦٨: «وكانت أمّه سبيّةً من بهراء».
ابن حزم، مصدر مذكور، ص٤٤١: بهراء من قضاعة.

(٢) مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص٢٦٨.

(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣١٦.

(٤) مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص٢٦١.

(٥) مصعب هو ابن الصحابي عبد الرحمن بن عوف ـ صاحب الشّورى ـ مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص٢٦٥.

في الإسلام بالرّسول[1] ـ لم يسبقه فيها أحد!

فقد عيّنه أبوه سعيد بن العاص على مكّة والطّائف عندما جمع له الخليفة معاوية بن أبي سفيان ولاية الحجاز (مكّة والمدينة والطّائف). فتشدّد في معاملة قريش وظلمهم. فشكاه عبد الله بن صفوان بن أميّة إلى معاوية فعزل سعيدًا عن الولاية وعيّن مروان بن الحكم. فقال ابن صفوان لعمرو بن سعيد: «الحمد لله الذي عزلك عن رقاب قريش، فقال عزلني عن رقبتك ووضعني على رأسك[2]».

لقد تركت ولاية عمرو بن سعيد في عهد معاوية ذكرى سيّئة في نفوس القرشيّين لشدّته وتعسّفه وتكبّره في معاملتهم. وقد عزل معاوية أباه وبالتّالي عزله حتّى يُحافظ على التّوازن الموجود داخل قريش.

ويبدو من خلال هذه الرّواية أنّ عمرو بن سعيد كانت له علاقات سيّئة بعبد الله بن صفوان الجُمَحي الذي اشتكاه إلى معاوية وصارحه بفرحته لعزله عن قريش. وربّما اضطغن عليه عمرو ذلك (سيصبح عبد الله بن صفوان حليفًا لابن الزّبير). كما أنّ عمرو ربّما حقد على قريش لأنّه جُرح في كبريائه بعد عزله من معاوية.

لقد ابتدأ عمرو بن الزبير وظيفته بالمدينة بضرب جماعة من أهل المدينة لميلهم لابن الزبير[3] وهم المنذر بن الزّبير، ومحمد بن المنذر، وعثمان بن عبد الله بن حكيم بن حزام، وعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث، وخُبيب بن عبد الله بن الزّبير، ومحمد بن عمّار بن ياسر. ضربهم أربعين وخمسين وستّين ضربة بالسّياط[4]. وبحث عن جماعة من قريش يرون رأي أخيه فهربوا منه إلى مكّة[5]،

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٣، ص٢١٨: في حديث السّقيفة: «نحن المهاجرون وصحابة رسوله الأوّلون، ونحن عشيرته وأولياؤه».

(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص١٦٥.

(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٤.

(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٤.

(٥) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٢٨.

ومن بينهم عبد الرحمن بن عثمان وعبد الرحمن بن عمرو بن سهل[1]. كما ضرب بعض الأنصار[2].

ووصفت المصادر عمرا بالظّلوم والسيئ السّيرة والمتعسّف مع النّاس[3]. فقد نفّذ سياسة الوالي عمرو بن سعيد في معاقبة القرشيّين لعصيانهم للخليفة يزيد بن معاوية أي للدّولة الأمويّة. وهي سياسة جديدة نشأت في هذه الظرفيّة الحرجة.

دشّن عمرو بن الزّبير سياسة العنف مع الإخوة في سبيل فرض سلطة الدّولة أي الضّرب على أيدي المعارضين لسلطتها، وفي سبيل تصفية حساباته السّياسيّة مع عبد الله بن الزّبير؛ فقد ضرب أخاه المنذر وأبناء إخوته محمد بن المنذر وخبيب بن عبد الله بن الزّبير. ويعتبر المنذر شقيق عبد الله بن الزّبير لأنّ أمّهما واحدة وهي أسماء ابنة أبي بكر الصدّيق[4]. وهو أصغر بقليل من عبد الله. وكان المنذر مقرّبًا من الخليفة معاوية بن أبي سفيان إلى درجة أنّه أوصى أن يحضر المنذر غسله، وأمر أن يعطى له مال. فأمر الخليفة يزيد بن معاوية عبيد الله بن زياد أن يعطيه ذلك المال، وأقطعه الدّار التي تُنسب للزّبير بالبصرة، كما أقطعه منزلا آخر بالبصرة[5].

وكان مقرّبا من آل زياد بن أبي سفيان. وعندما خالف ابن الزّبير يزيدا، كتب هذا الأخير لعبيد الله بن زياد أن يمنع عن المنذر المال الذي كان أمر له به معاوية، وأن يمنع المنذر أيضًا من الخروج من البصرة حتّى لا يلتحق بأخيه عبد الله بن الزّبير بمكة ويُعينه بالمال. فأرسل عبيد الله للمنذر وأمره بالهرب إلى مكّة أي أنّه أعانه على حساب السّلطة الأمويّة صيانة للمعروف الذي بينهما[6].

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٤.
(٢) ابن سعد، مصدر مذكور، ج٣، ص١٤١.
(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٢٨.
(٤) ابن سعد، مصدر مذكور، ج٣، ص١٣٩.
(٥) مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص٢٤٤.
(٦) مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص٢٤٥.

يبدو أنّ المعروف الذي يربط آل زياد بن أبي سفيان تجاوز مصلحة الدولة. كما حرص الخليفة يزيد بن معاوية على حبس المنذر بن الزّبير بالبصرة حتّى لا يلتحق بأخيه بمكّة و يسانده. وآزر المنذر أخاه عبد الله بن الزّبير بالمال بانتقاله إلى مكّة.

وضرب عمرو بن الزّبير محمد بن المنذر وأمّه عاتكة بنت سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفيل[١]؛ وهي من عديّ بن كعب من قريش[٢]. يُعتبر محمد بن المنذر من «وجوه آل الزّبير[٣]»، وكان معروفا بحلمه وشرفه: «كان محمد بن المُنذِر بن الزّبير بن العوّام من أحلم الناس وأشرفهم وكان إذا مرَّ في الطريق أطفئت النيران تعظيماً له، يقولون هذا محمد بن المُنذِر لا تُدَخِّنُوا عليه[٤]»؛ وكان لديه نفس مرتبة أعمامه، فعندما قُتل مصعب بن الزّبير قال عبد الله بن الزّبير بأنّه إن قُتل مصعب فقد بقي فيهم محمَّد بن المنذر[٥].

كما عنّف عمرو ابن أخيه خبيب بن عبد الله بن الزّبير. وأمّه تُماضِر بنت منظور بن سيّار من فزارة[٦]. وهو أكبر أبناء عبد الله بن الزّبير. وكان هذا الأخير يُكنّى به «أبا خُبيب[٧]». وهو معروف بعلمه وفضله وصلاحه؛ وقتله عمر بن عبد العزيز وهو والي المدينة في خلافة الوليد بن عبد الملك[٨]. فقد «سمع الخليفة الوليد بن عبد الملك عنه أحاديث[٩] كرهها، فكتب إلى واليه على المدينة أن يضربه مائة سوط، ويصبّ عليه قربة من ماء بارد، بُيِّتت باللّيل، فبقي أيّامًا ثمّ تُوُفّي[١٠]». ربّما أراد

---

(١) ابن سعد، مصدر مذكور، ج٣، ص١٣٩.
(٢) مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص٣٤٧.
(٣) مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص٢٤٤.
(٤) ابن سعد، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٣.
(٥) مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص٢٤٤.
(٦) ابن حزم، مصدر مذكور، ص٢٥٥؛ مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص٢٣٩.
(٧) مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص٢٣٨.
(٨) مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص٢٤٠.
(٩) ابن منظور، معجم مذكور، ج١، ص٥٨٢: الخبر: يأتي على القليل والكثير، والجمع: أحاديث.
(١٠) ابن سعد، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٢٧.

الخليفة الوليد بن عبد الملك بقتل خُبيب بن عبد الله بن الزّبير أن يتجنّب المنافسة السّياسيّة والدّينيّة لآل الزّبير حتّى لا تُعاد نفس الأزمة التي حدثت في عهد الخليفة يزيد ولم يقض عليها إلاّ الخليفة عبد الملك بن مروان. وكان الخليفة الوليد بن عبد الملك معروف بتجبّره[١].

يعتبر هذا العنف ضدّ الإخوة وأبناء الإخوة وجه من وجوه الفتنة التي تفرز كلّ أشكال العنف: عنف الدّولة وعنف الأفراد. انقسمت عشيرة الزّبير بن العوّام الصّحابي وحواري الرّسول إلى شقّين: شقّ موالي لعبد الله بن الزّبير كالمنذر لأنّه شقيق ابن الزّبير لأبيه ولأمّه، وشقّ موالي للدولة يقوده عمرو بن الزّبير.

وعنّف عمرو بن الزّبير أحد سادات وأشراف أسد بن عبد العُزّى أي الفرع الذي ينتمي إليه الزّبير بن العوّام وهو عثمان بن عبد الله بن حكيم بن حزام[٢]. وهذا التّعنيف هو تعنيف مُضاعف لأنّه موجّه ضدّ أحد الأشراف القرشيّين وفي نفس الوقت هو ابن عمّ عمرو. وفي هذا كان للفتنة تمخّض جديد أيضا.

وعنّف عمرو بن الزّبير عبد الرحمن بن الأسود بن أبي البَخْتَريّ، وهو من ولد هاشم بنُ الحارث بن أسد بن عبد العُزّى[٣]. كانت أمّه، الحلال بن نصر بن قُعَيْن، وأخْتُه لأمّه خديجةُ بنتُ الزّبير بن العوَّام. وكان أخوه أيضًا الزّبير بن مُطيع بن الأسود بن حارثة العدويّ؛ وكان متزوّجا لسودة بنت الزّبير بن العوّام. وهي شقيقة عمرو وخالد من أمَة أو تَخْلُدُ بنت خالد بن سعيد بن العاص. ولمّا أسر عمرو بمكّة، استقاد منه عبد الرحمن بن الأسوَد؛ فنصحه عبد الله بن الزّبير بتطليق سودة لأنّه خافها عليه. لكنّه لم يرد ذلك فاعتدت عليه وهو نائم، وتفطّن إليها، فنشب السكّين في يده؛ فطلّقها[٤].

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٦، ص٤٢٣.
(٢) مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص٢٣٣.
(٣) مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص٢١٤.
(٤) مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص٢١٥.

ارتبط هذا الشّريف بعدّة علاقات عشائريّة بآل الزّبير وكذلك بعمرو بن الزّبير نفسه، فهو صهره. كما أنّ حركة ابن الزّبير كانت سببا في انقسام عشيرة الزّبير بن العوّام وتسمّم علاقات المصاهرة بين أخت عمرو وأحد رجال عبد الله بن الزّبير وأدّى هذا التشنّج في العلاقات إلى الطّلاق.

وعنّف عمرو بن الزّبير ابن الصّحابي عمّار بن ياسر. وكان هذا الأخير صحابيّا من حلفاء بني مخزوم، وشهد المشاهد كلّها مع الرّسول. ثمّ قاتل في صفّ عليّ بن أبي طالب في صفين وقُتل(١).

ولم نجد ما هو الانتماء العشائري للقرشيّين الذين هربوا إلى مكّة. كما أنّ المصادر لم تذكر أسماء الأنصار الذين ضربوا بالسّياط من قبل عمرو.

عنّف عمرو أخاه، وأبناء إخوته، وأشراف أسد بن عبد العزّى، وابن صحابيّ لانتمائهم السّياسي لأخيه عبد الله بن الزّبير ضدّ الدّولة. وكانت هذه الموجة من العنف تحت أنظار عمرو بن سعيد ـ والي المدينة ـ وهذا التّعنيف سيُخلّف جروحًا عميقة داخل عشائر قريش بصفة عامّة، وداخل عشائر أسد بن عبد العزّى. كما أنّ هذا العنف ساهم في هروب كلّ العناصر الموالية لابن الزّبير إلى مكّة خوفًا من اضطهاد صاحب شرطة المدينة.

لم يقم عمرو بن سعيد بالغزو بنفسه بل أوكل لعمرو بن الزّبير هذه المهمّة. فهو قد نفّذ هذه السّياسة فأرسل جيشا يتركّب من قائدين: عمرو بن الزّبير وأنيس بن عَمرو الأسلميّ. وهنا لا بدّ من الإشارة إلى مكانة وحرمة الكعبة في القرآن والسنّة. فقد ذكرها القرآن: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾(٢). كما ذكرت حرمتها في الحديث النبوي (حدثني سلمةُ بنُ

---

(١) ابن سعد، *مصدر مذكور*، ج٥، ص١٣٩؛ مصعب الزّبيري، *مصدر مذكور*، ص٢٤٤ ـ ٢٤٥.

(٢) المائدة ٥/ ٩٧؛ الطّبري، *جامع البيان في تفسير القرآن*، ج٥، ص٨٣ ـ ٨٥: «يقول تعالى ذكره: صيّر الله الكعبة البيت الحرام قواما للنّاس الذين لا قوام لهم، من رئيس يحجز قويهم عن ضعيفهم ومسيئهم عن محسنهم وظالمهم عن مظلومهم. فحجز بكل واحد من ذلك بعضهم عن بعض، إذ لم يكن لهم قيام =

شَبِيبٍ، حدّثَنا ابْنُ أعْيَنَ. حدّثنا مَعْقِلُ عنْ أبي الزُّبيرِ، عن جابرٍ. قال سمعتُ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يقُول: «لا يَحِلُّ لأحدكُمْ أنْ يحْمِلَ بمكَّةَ السّلاحَ»[1].

وذكر صحيح مسلم[2] قدسيّة الكعبة رواها أبو هريرة[3] عن الرّسول بعد فتح مكّة: «إنّ خُزاعةَ قَتَلُوا رَجُلاً من بني لَيْثٍ عام فتح مكّةَ بِقَتيلٍ منهُمْ قَتَلُوهُ. فَأُخْبِرَ بذلك رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. فركب راحلتهُ فَخطبَ فقالَ «إن الله عزّ وجلّ حَبس عن مكّة الفيلَ. وسلَّطَ عليها رسولهُ والمُؤمنينَ. ألاَ وإنَّها لمْ تَحِلَّ لأحدٍ قَبْلي ولَنْ تَحلَّ لأحدٍ بعدي. ألاَ وإنّها أُحلّت لي ساعةً من النَّهارِ. ألاَ وإنّها، سَاعتِي هذه، حرامٌ. لا يُخْبَطُ شَوْكُهَا ولا يُعْضدُ شَجَرُها. ولا يَلْتَقِطُ سَاقِطَتَها إلاَّ مُنْشِدٌ[4]».

يحدّد الرّسول الهالة القدسيّة للكعبة التي حماها الله من أصحاب الفيل[5]، ولم

= غيره، وجعلها معالم لدينهم ومصالح أمورهم.

حواجز أبقاها الله بين النّاس في الجّاهليّة، فكان الرّجل لو جر كلّ جريرة ثمّ لجأ إلى الحرم لم يتناول ولم يقرب. وكان الرّجل لو لقي قاتل أبيه في الشّهر الحرام لم يعرض له ولم يقربه. وكان الرّجل إذا أراد البيت تقلّد قلادة من شعر فأحمته ومنعته من النّاس، وكان إذا نفر تقلّد قلادة من الإذخر أو من لحاء السمر، فمنعته من النّاس حتى يأتي أهله؛ حواجز أبقاها الله بين النّاس في الجاهليّة.».

(١) الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجّاج القُشيريّ النّيسابوري، *مصدر مذكور*، ج٢، ص٩٨٩.

(٢) الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجّاج القُشيريّ النّيسابوري، *مصدر مذكور*، ج٢، ص٩٨٩.

(٣) ابن سعد، *مصدر مذكور*، ج٢، ص٢٧٦ ـ ٢٧٧ ـ ٢٧٨.

(٤) الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجّاج القُشيريّ النّيسابوري، *مصدر مذكور*، ج٢، ص٩٨٨: حبس عن مكّة الفيل أي منعه من الدّخول فيها حين جاء يقصد خراب الكعبة.
لا يخبط شوكها: أي لا بقطع. وأصل الخبط إسقاط الورق من الشّجر؛ ساقطتها معنى السّاقطة ما سقط فيها بغفلة مالكه؛ المنشد: المعرّف.

(٥) الفيل ١٠٥/ ١؛ الطّبري، *جامع البيان في تفسير القرآن*، ج١٦، ص ٣٢٧ ـ ٣٣٥: «أقبل أبرهة الأشرم من الحبشة يومًا ومن معه من عداد أهل اليمن، إلى بيت الله ليهدمه من أجل بيعة لهم أصابها العرب بأرض اليمن، فأقبلوا بفيلهم، حتى إذا كانوا بالصفاح برك؛ فكانوا إذا وجّهوه إلى بيت الله ألقى بجرانه الأرض، وإذا وجهوه إلى بلدهم انطلق وله هرولة، حتى إذا كان بنخلة اليمانية بعث الله عليهم طيرًا بيضا أبابيل. والأبابيل الكثيرة، مع كلّ طير ثلاثة أحجار: حجران في رجليه، وحجر في منقاره، فجعلت ترميهم بها حتّى جعلهم الله عزّ وجلّ كعصف مأكول؛ قال: فنجا أبو يكسوم وهو أبرهة، فجعل كلّما قدم أرضًا تساقط بعض لحمه، حتى أتى قومه، فأخبرهم الخبر ثمّ هلك».

تحلّ إلاّ للرّسول ساعة واحدة في فتح مكّة. فقد ذكر الطّبري[1] أنّ الرّسول أرسل الزّبير بن العوّام بن خويلد وخالد بن الوليد المخزومي وأوصاهما أن لا يقاتلا إلاّ من قاتلهما. فقاتل خالد بني بكر والأحابيش بأسفل مكّة فهزمهم. فكان هذا القتال الوحيد بمكّة. على هذا الأساس، أحيطت الكعبة بهالة من القدسيّة منذ الجاهليّة وفي فترة الرّسول والخلفاء الأوائل، لكنّ الأمويّين «سيكسّرون» هذه القدسيّة في سبيل الدّنيويّة والسّياسي أي فرض إيديولوجيا الدّولة وسلطتها وهذا تطوّر هامّ وجديد للسّلطة في علاقتها بالمقدّس. وكذلك تطوّرت الفتنة داخل هذه المظاهر الجديدة من التّعتيم على القرآن والسنّة والمقدّس.

ولنا أن نتساءل هل وقع ردّ فعل تجاه غزو الحرم المكّي من قبل عمرو بن الزّبير؟

حصل ردّ فعل من قبل بعض الصّحابة ومن قبل أكبر الأمويّين سنًّا وهو مروان بن الحكم. فقد أراد الأمويّون غزو الكعبة لكنّ قرارهم لم يحظ بموافقة الأطراف الدّينيّة ومروان بن الحكم. فقد ذكر الطّبري[2] أنّ أبا شريح الكعبي[3] الذي شهد فتح مكّة، وكان يحمل أحد ألوية بني كعب الثلاثة من خزاعة[4]، قال لعمرو بن سعيد بن العاص «لا تغزُ مكّة فإنّي سمعتُ رسول الله يقول: «إنّما أذن الله لي في القتال بمكّة ساعة من نهار، ثمّ عادت كحُرْمتها[5]». لكنّ عمرو بن سعيد رفض أن يستمع لنصيحته وأجابه بأنّه أعلم بحرمتها منه. وأضاف عمرو «إنّ الحَرم لا يُعِيذُ عاصِيًا ولا فَارًّا بِدَمٍ ولا فارًّا بِخَرْبَةٍ»[6]. وبذلك يمنح عمرو لنفسه الشرعيّة

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٣، ص ٥٦.

(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٦.

(٣) ابن سعد، مصدر مذكور، ج٤، ص٢٢١: هو خُويلد بن عمرو بن صخر بن عبد العُزى بن معاوية بن المحترش بن عمرو بن زمّان بن عدي بن عمرو بن ربيعة (وهو من خزاعة). أسلم قبل فتح مكّة، ومات بالمدينة سنة ثمان وستين. وقد روى عن الرسول أحاديث.

(٤) ابن حزم، مصدر مذكور، ص٤٨٠.

(٥) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٦.

(٦) الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجّاج القُشيريّ النّيسابوري، مصدر مذكور، ج٢، ص٩٨٨.
لا يعيذ عاصيا أي لا يجيره ولا يعصمه، أراد به عبد الله بن الزّبير.

التّاريخيّة في مهاجمة الكعبة لأنّ ابن الزّبير خرج عن الطّاعة وأفسد في الأرض فاستوجب قتله.

بينما يذكر البلاذري تدخّل أحد الصّحابة من الأنصار وهو رافع بن خَديج الأنصاري[1]، وهو من الخزرج[2].

نصح هذا الصّحابي عمرو بن سعيد أن يتّقِ[3] الله ولا يرسل جيشه لغزو مكّة لأنّ الله حرّمها، «فلم تُحلّ لنبيّه إلاّ ساعة من نهار ثمّ عادت حرمتها». لكنّ عمرو حقّر من شأنه قائلا بأنّ قريش لديها علم لا يبلغه لا هو ولا أصحابه[4].

دفع الكِبَرُ عمرو بن سعيد إلى إهانة هذا الصّحابي الأنصاري وتعنيفه تعنيفا لفظيّا، عندما ذكّره بحرمة مكّة، وأنّها لم يحلّلها الله إلاّ ساعة من نهار للرّسول فقط ثمّ رجع و حرّمها.

ويحقّر عمرو بن سعيد من علم الصّحابي الخُزاعي والصّحابي الأنصاري؛ وفي هذا احتقار لعلم الصّحابة، ومن وراء ذلك ذكرى الرّسول. فقد ركّز الوالي الأموي ـ الذي كان يدافع عن مصالح البيت الأموي بكلّ قوّة بما أنّه ينتمي إليه ـ الإيديولوجيا الأمويّة التي تُغيّبُ القرآن وذكرى الرّسول لإحساس الخلفاء السّفيانيّين بنقص في شرعيّتهم التّاريخيّة[5].

تتشابه الرّوايتان للطّبري والبلاذري في ذكر كبر عمرو وعجبه وتحقيره لفئة الصّحابة وإقصائه لهم من التدخّل في شؤون الدّولة لأنّ غزو مكّة أصبح أمرا سياسيّا مرتبطا بالأسرة الأمويّة الحاكمة التي ينتمي إليها عمرو بن سعيد، والتي

= ولا فارّا بدم أي ولا يعيذ الحرم هاربا التجأ إليه بسبب من الأسباب الموجبة للقتل.
ولا فارا بخربة وأصلها سرقة الإبل. وتطلق على كلّ خيانة. قال الخليل: هي الفساد في الدّين من الخارب، وهو اللصّ المفسد في الأرض.

(١) ابن سعد، *مصدر مذكور*، ج٥، ص١٩٨؛ج٢، ص٢٨٤ ـ ٢٨٧.
(٢) ابن حزم، *مصدر مذكور*، ص٣٤٠.
(٣) ابن منظور، *مصدر مذكور*، ج١، ص٣٢٤: تقي الله تَقْيًا خافه.
(٤) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٢٨.
(٥) بثينة بن حسين، *مرجع مذكور*، ص٣٢٧ ـ ٣٢٨.

تقرّر في شؤون المسلمين. ولم تعد المشورة والقرارات متعلّقة بالدّين وبالصّحابة ذوي السّابقة والقدمة. فنُزع مفهوم الحرمة المرتبط بمكّة في الجاهليّة وفي الإسلام، نُزع عنها على يد الأشدق؛ فهو لديه السّبق في ذلك.

أسّس عمرو بن سعيد لشرعيّة جديدة قوامها تركيز الملك والحكم للخليفة يزيد بن معاوية وبالتّالي للأمويّين الذين ينتمي إليهم على حساب الرّمز الدّيني (مكّة) والرّموز الاجتماعيّة الدّينيّة (الصّحابة).

ركّز عمرو روحا أرستقراطيّة جاهليّة كامنة في الدّولة الأمويّة على حساب الصّحابة. كما كان مسؤولا على توتّر وتأزّم العلاقات بين الأمويّين والأنصار. فهو قد نفى وغيّب وهمّش المكانة التّاريخيّة والدّينيّة لهذا الصّحابي الأنصاري ليركّز إيديولوجيا قائمة على الانتماء لقريش وللبيت الأموي بالتّحديد. فهي القبيلة الوحيدة التي تتحكّم في مصير مكّة ـ بلدها ـ وتقرّر في الأمور الهّامة التي تعرض لها. همّش عمرو رافع بن خديج ومن وراءه همّش الصّحابة كفئة ميتا ـ تاريخيّة لعبت دورا أساسيّا في بناء الإسلام كدين ودولة. كما همّش عمرو من وراء رافع فئة الأنصار التي شرّفها الرّسول باختيار مدينتهم يثرب كملجأ وكهف له ولأصحابه من المهاجرين بعد أن هُجّر من قريش، بينما هو يتولّى سلطان الدّولة في مدينتهم. ستُؤدّي سياسة الإقصاء هذه إلى حدوث شرخ هائل بين قريش والأنصار.

كان الأمويّون يحسّون بنقص في شرعيّتهم التّاريخيّة أو الإسلاميّة (القدمة والسّابقة) بالمقارنة مع الصّحابة والأنصار فهمّشوهم. ولعب عمرو بن سعيد دورًا في ذلك. كما خلق هذا التوتّر والتسمّم في العلاقات وجها من وجوه الفتنة التي غذّتها الأحقاد والضّغائن والإحساس بالإهانة بين الدولة الأمويّة وعمّالها والفئات المؤسّسة للإسلام، كالصّحابة والأنصار. واسترجعت الدّولة المبادئ الجاهليّة والأرستقراطيّة (غلبة قريش على العرب وأساسا بنو أميّة[1]) على حساب مبادئ الصّحبة والقدمة والسّابقة التي ركّزها عمر بن الخطّاب.

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٣، ص٦١، وهم من الطّلقاء الذين أسلموا بعد فتح مكّة.

إضافة لتدخّل الصّحابي الخزاعي أو الأنصاري لمنع عمرو بن سعيد من غزو الكعبة، حاول مروان بن الحكم بصفته كبير قريش التدخّل كعادته لفضّ الأزمة[1].

فنصح مروان عمرا بن سعيد أن يتّقي الله ولا يغزُو مكّة ولا يُحلّ حرمة البيت؛ كما أشار مروان على عمرو بترك ابن الزّبير وعدم قتاله لأنّه مسنٌّ (له ستّون سنة فما فوق). كما أنّه لجوجٌ[2]، وإن لو يقتله جيش عمرو فهو سيموت لا محالة[3].

وأجاب عمرو بن الزّبير مروانا: «والله لنقاتلنه ولنغزونّه في جوف الكعبة على رغم أنف من رَغِم[4]».

المهمّ أنّ مروان ساءه ما سمعه لكنّه كان عاجزا عن إيقاف هذا التيّار الجارف من العنف الدّيني والسّياسي والعشائري الذي دشّنه عمرو بن الزّبير. كانت هذه الإجابة لعمرو قمّة ما وصل له العنف في كلّ مظاهره.

لقد أعظم مروان بن الحكم هذا الموقف من قبل عمرو بن سعيد لكنّه لا يستطيع وحده أن يقف في وجه هذا التيّار الجديد والغريب من نوعه.

ويبرز من خلال رواية الطّبري الشّعار السّياسي والإيديولوجي لعمرو بن الزّبير وهو قتال وغزو ابن الزّبير «في جوف الكعبة». وهو يكرّس تحدّي الشبّان من بني أميّة لسياسة وضعها معاوية مؤسّس الدّولة الأمويّة، سياسة تقوم على توازن عجيب من حلم وكرم!

لا بدّ أن نذكر أنّ مروان هو خال الأشدق لكنّه لم يستمع لنصيحته أو أنّ عمرو بن الزّبير تحدّاه. و قد سكت عمرو بن سعيد ولم يُعلّق على أقوال عمرو بن الزّبير لأنّه كان مساندا له.

كما أنّنا نذكر أنّ سعيد بن العاص ومروان بن الحكم كانا متنافسين على السّلطة

---

(١) استشارة الوليد بن عتبة والي المدينة له عند موت معاوية وامتناع الحسين بن عليّ وعبد الله بن الزّبير عن البيعة.

(٢) ابن منظور، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٣٤٣: لجّ في الأمر، تمادى عليه وأبى أن ينصرف عنه.

(٣) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٤٤؛ البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٢٩.

(٤) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٤٤.

أي ولاية الحجاز في عهد معاوية. فهل كان مروان يحسّ بالغبن لتعيين شبّان من بني أميّة وأساسا الأشدق ابن غريمه سعيد واليا على حسابه؟

كما كان موقف مروان في هذه الحالة ـ خلافًا لموقفه في أخذ البيعة من الحسين بن عليّ وعبد الله بن الزّبير ـ موقفا متّسما باتّباع التّقاليد الإسلاميّة. فهل هو موقف شيخ يخشى القتال والحرب؟ أم أنّه موقف مسلم يتّقي الله ويتجنّب إحلال الحرمات؟

لا شكّ في أنّ مروان صُعق لإقدام عمرو على غزو مكّة. كما أنّ غرابة الأقدار ستدفع ابن مروان نفسه أي الخليفة عبد الملك إلى إرسال جيش إلى مكّة بقيادة الحجّاج بن يوسف الثّقفي ـ الذي يتّسم بعنفه ـ للقضاء على ثورة ابن الزّبير.

قصد الجيش مكّة حيث عقد عمرو بن سعيد لعمرو بن الزّبير لواء[1]. وكان معه أنَيْس بن عمرو الأسلميّ وزيد غلام محمد بن عبد الله بن الحارث بن هشام المخزومي[2]. فهل عيّنهما عمرو بن سعيد كقائدين لهذا الجيش؟ أم أنّ أحدهما أي أنيس ابن عمرو كان قائدا والآخر كان مساعدا له؟

وأوصى عمرو بن سعيد عمرا بن الزّبير بالصّبر على القتال وأن يتبع الهارب ويقتل الجريح، وأن ينفّذ حكم يزيد أي يُلبِس ابن الزّبير الجامعة أو يأسره[3].

لكنّ عمرو بن سعيد ندم بعد أن أرسل عمرو بن الزّبير إلى مكّة بما فعله بابن الزّبير. وكان متخوّفا من حقد ابن الزّبير عليه لهذا الصّنيع الذي صنعه به[4]. كان الوالي الأموي مُتخوّفًا في قرارة نفسه من «تسمّم العلاقات» بين الأمويّين وابن الزّبير. لكنّه كان مجبرًا على تنفيذ أوامر الخليفة وإجبار ابن الزّبير على البيعة.

وعسكر أنيس بن عَمرو الأسلميّ ـ وكان في مقدّمة جيش عمرو بن الزّبير ـ في

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٢٩ ـ ٣٣٠
الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٦.
(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٦.
(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٣٠.
(٤) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٣٠.

الجرف[1] ثمّ عسكر بذي طُوًى[2] ـ وُيقال كان بالحَجُون[3] إلاّ أنّهم انهزموا فقُتلوا بذي طُوًى. ونزل عمرو بن الزّبير بالأبطح[4].

دخل عمرو مكّة وأرسل إلى أخيه يطلب منه أن يبرّ يمين الخليفة يزيد بن معاوية ويلبس جامعة من فضّة في عنقه لا تُرى، ويذهب فيها للخليفة ليرضى عنه. وبذلك لا يحدث القتال بين النّاس، كما نصحه أن يتّقي الله لأنّه في بلد حرام. فأجابه ابن الزّبير في رواية البلاذري بأنّه على طاعة يزيد، وقد بايع عامل مكّة حين دخلها[5].

تصرّف عمرو بن الزّبير من منطلق انتمائه للدّولة، فتجاوز الأخوّة لينفّذ أوامر الخليفة؛ وتمثّلت هذه الأوامر أساسًا في برّ يمين الخليفة الذي بقي معلّقا.

كما ركّز عمرو بن الزّبير الإيديولوجيا الأمويّة: فبدا عبد الله بن الزّبير غير مراع لحرمة البيت بما أنّه جعله عرضة للغزو والقتال. وبالتّالي، يبرّأ عمرو نفسه في هذا المنطق الإيديولوجي بما أنّه يمثّلُ الدّولة التي تسعى لفرض الطّاعة والجماعة. كما أنّ إجابة ابن الزّبير لا نجد لها أثرًا من الصِحّة، لأنّ ابن الزّبير لم يُبايع البتّة. فهل كان هذا الجواب مجرّد مراوغة من ابن الزّبير لأخيه؟

وفي رواية ثانية، أجابه ابن الزّبير بأنّهما سيلتقيان بالمسجد (أي قبل اندلاع الحرب بينهما)[6]، لكنّه أرسل عبد الله بن صفوان الجمحي لقتال أنيس بن عمرو.

---

(١) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٤٤؛ ياقوت، *معجم مذكور*، ج٢، ص١٢٨: الجُرْفُ ما تجرَّفتهُ السيول فأكلته من الأرض، وقيل الجرْفُ عرضُ الجبل الأملَس، وقيل جرفُ الوادي ونحوه من أسناد المسايل إذا نخجَ الماءُ في أصله فاحتفره وصار كالدَّحل وأشرف أعلاه، فإذا انصدع أعلاه فهو هارٍ، ومنه قوله جرْفٌ هارٍ.

(٢) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٣٠؛ الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٤٤ ـ ٣٤٥؛ ياقوت، *معجم مذكور*، ج٤، ص٤٥: ذو طُوًى، موضع عند مكّة.

(٣) ياقوت، *معجم مذكور*، ج٢، ص٢٢٥ الحجون: جبل بأعلى مكّة عنده مدافن أهلها.

(٤) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٤٤؛ ياقوت، *معجم مذكور*، ج١، ص٧٤: الأبطحُ، كلّ مسيل فيه دُقاقُ الحصى فهو أبطح. والأبطح يُضافُ إلى مكّة وإلى مِنى، لأنّ المسافة بينه وبينهما واحدة، وربّما كان إلى منًى أقرب.

(٥) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٣٠.

(٦) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٤٤.

وفي رواية ثالثة للواقدي، استقرّ عمرو بن الزّبير في داره في الصّفا[1]، وعسكر أنيس بن عمرو بذي طُوًى. فكان عمرو بن الزّبير يصلّي بالنّاس، ويصلّي خلفه عبدالله بن الزّبير، «فإذا انصرف شبّك أصابعه في أصابعه[2]». أي أنّ كلّ من الطّرفين لم يصلا إلى اتفاق. ولم يبق قرشيّ لم يأت عمرو بن الزّبير، لكنّنا لا نعرف إن بايع هؤلاء القرشيّون أم لا. ونرجّح أنّهم لم يبايعوا لأنّهم كانوا من أنصار ابن الزّبير بل زاروا عمرو بن الزّبير من باب الانتماء لقريش. ولم يأت لزيارته سوى عبد الله بن صفوان الجُمحِي. فسأل عمرو بن الزّبير عنه وعاير بني جُمح (عشيرة عبد الله بن صفوان) ومن ضوى إليهم بقلّة عددهم. فأغضبت هذه الملاحظة المتكبّرة عبد الله بن صفوان، فحرّض عبد الله بن الزّبير على أخيه بأن قال له: «إني أراك كأنّك تريد البُقْيا على أخيك[3]». فأجابه ابن الزّبير بأنّه حريص على القضاء على أخيه. فوعده عبد الله بن صفوان بالقضاء على أنيس بن عمرو مقابل قضاء ابن الزّبير على أخيه[4]. وعلى هذا الأساس، هزم عبد الله بن صفوان جيش عمرو بن الزّبير.

هذه الرّواية مستبعدة حسب رأينا لأنّ العلاقات كانت عدائيّة وسيّئة بين الطرفين، ولا يمكن أن يقبل ابن الزّبير بالصّلاة وراء أخيه عمرو لأنّ هذا يعني القبول بسلطته وبسلطة الخليفة يزيد بن معاوية.

---

(١) ياقوت، معجم مذكور، ج٣، ص٤١١ الصفا والمروة: وهما جبلان بين بطحاء مكّة والمسجد، أمّا الصّفا فمكان مرتفع من جبل أبي قبيس بينه وبين المسجد الحرام عرض الوادي الذي هو طريق وسوق، ومن وقف على الصفا كان بحذاء الحجر الأسود والمشعر الحرام بين الصفا والمروة.

(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٥؛ ابن منظور، معجم مذكور، ج٢، ص٢٦٤ شبك: الشّبكُ: من قولك شبكْتُ أصابعي بعضها في بعض فاشتبكت وشبّكتُها فتشبّكت على التّكثير. الشّبكُ: الخلط والتداخل، ومنه تشبيك الأصابع. وفي الحديث: إذا مضى أحدكم إلى الصلاة فلا يُشبِّكَنَّ بين أصابعه فإنّه في صلاة، وهو إدخال الأصابع بعضها في بعض. وتأوّله بعضهم أنّ تشبيك اليد كناية عن ملابسة الخصومات والخوض فيها.

(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٥.

(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٥.

لكنّنا نلاحظ أنّ تكبّر عمرو بن الزّبير قد هيّج العداوات الجاهليّة بين عشائر قريش وأساسًا أحد أشراف جمح. فأدّى ذلك إلى تدهور العلاقات بين ابن الزّبير وأخيه.

كان جيش ابن الزّبير أكثر انسجاما. وانضمّ إليه عدد كبير من النّاس وساعدوه بالمال والسّلاح(١). فقد ساعده وجماعة من نواحي الطّائف لحماية الحرم(٢)؛ وعدد كبير من أهل مكّة وممّن نزل حول مكّة والأعوان(٣). من هم الأعوان هل هم من الموالي؟ لم تذكر المصادر ما هي العناصر القبليّة التي كانت تكوّن جيش ابن الزّبير. وعيّن ابن الزّبير ابنه عبّاد على مقدّمة الجيش(٤). وهو أخ خبيب وأمّهما تماضر بنت منظور من فزارة. وكان عبّاد بن عبد الله بن الزّبير من الأبناء الكبار لعبد الله. وروى عن عائشة؛ وكان ينوب أباه إذا غاب(٥). وفي رواية الطّبري، عيّن عبد الله بن الزّبير عبد الله بن صفوان الجمحي على جيشه(٦)، أي أحد أشراف قريش الذين التحقوا به.

يظهر من خلال هذا الخبر أنّ ابن الزّبير كان يشرك أبناءه في القتال. وكان قائد الجيش المعادي عمّ عبّاد بن عبد الله بن الزّبير، عمرا بن الزّبير. كما منح ربّما مسؤوليّة قيادة الجيش لأحد أشراف قريش.

كما أنّ القبائل المحيطة بمكّة والقبائل المحيطة بالطّائف ساعدت ابن الزّبير لكنّ المصادر ربّما بالغت في عدد هذا الجيش.

اكتست هذه المساعدة طابعا رمزيّاً هائلا يتمثّل في الدّفاع عن الحرم ضدّ «الغزو» الأموي. وفي الأثناء، هَرب المِسْوَرُ بن مَخْرَمة(٧) من المدينة إلى مكّة. وسأل عنه

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٣٠.
(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٣٠.
(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٥.
(٤) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٣٠.
(٥) مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص٢٤٠ ـ ٢٤٢.
(٦) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٣ ـ ٣٤٤؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٣١.
(٧) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٣٠.

عمرو بن سعيد فأخبروه بهروبه إلى مكّة. فقال عنه إنّ حبّه للفتنة سيقتله؛ وكان ابن الزّبير يستشيره في أموره.

والمسور هو ابن مَخْرَمَة بن نوفل بن أُهيْب بن عبد مناف بن زُهْرة بن كلاب[1]. وكان مخرمة ممّن أسلموا في فتح مكّة، وكان عالمًا وعارفا بالنّسب.

وكان عبد الرحمن بن عوف خال المسور بن مخرمة. وحفظ المسور عن عمر بن الخطّاب الحديث. وكان يعتبر من أهل الفضل والدّين. وساهم مع خاله عبد الرحمن في أمر الشورى. وانتقل إلى مكّة إلى أن توفّي معاوية؛ ولم يُبايِع ليزيد[2].

كيف أفلت المسور بن مخرمة من قبضة الوالي دون أن يتفطّن لهروبه؟ هل كان هناك نوع من الاضطراب لدى السّلطة فلم تتفطّن لهروبه؟ نلاحظ أنّ التّحالف الزّبيري نشأ شيئًا فشيئاً منذ هروب ابن الزّبير إلى مكّة و «احتمائه» بالحرم.

كما التحق بابن الزّبير مصعب بن عبد الرحمن بن عوف، وعُبيد بن عمير، وعبد الله بن صَفوان بن أميّة بن خلف الجُمَحي. وقد عرّفنا مصعبا بن عبد الرحمن بن عوف سابقًا.

أمّا عُبيد بن عُمير بن قَتَادة الليثي[3] فهو من الطّبقة الأولى من أهل مكّة ممّن روى عن عمر بن الخطّاب وغيره. «وكان ثقة كثير الحديث»، وهو أوّل من قصّ[4] في عهد عمر بن الخطّاب في مكّة[5]. ويعتبره ابن حزم «فقيه أهل

---

(١) مصعب الزّبيري، *مصدر مذكور*، ص٢٦٢.

(٢) مصعب الزّبيري، *مصدر مذكور*، ص٢٦٢ ـ ٢٦٣.

(٣) ابن حزم، *مصدر مذكور*، ص١٨٤: من بكر بن عبد مناة بن كنانة.

(٤) ابن منظور، معجم *مذكور*، ج٣، ص١٠٢، القاصُّ: الذي يأتي بالقصّة على وجهها كأنّه يتتبّع معانيها وألفاظَها. وفي الحديث: لا يقُصُّ إلاّ أميرٌ أو مأمورٌ أو مختال أي لا ينبغي ذلك إلاّ لأمير يَعظُ الناس ويخبرهم بما مضى ليعتبروا، وأما مأمورٌ بذلك فيكون حكمُه حكم الأمير ولا يقُصّ مكتسباً، أو يكون القاصّ مختالاً يفعل ذلك تكبّرًا على الناس أو مرائيًا يرائي الناس بقوله وعملِه لا يكون وعظُه وكلامه حقيقة، وقيل الخطبة لأن الأمُراء كانوا يَلونها في الأول ويَعظون الناس فيها ويَقُصّون عليهم أخبار الأمم السّالفة.

(٥) ابن سعد، *مصدر مذكور*، ج٦، ص١٦.

مكّة[1]» أي أنّه من القرّاء لأنّ الفقه لم يتكوّن ولم يتبلور إلاّ في بداية القرن الثّاني للهجرة.

والتحق بابن الزّبير عبد الله بن صفوان بن أميّة بن خلف الجُمحي. فهو ينتمي لجُمح في هُصيص بن كعب من قريش. وهو من أشراف قريش، ومن المقرّبين لابن الزّبير[2].

لماذا التحق كلّ هؤلاء بابن الزّبير؟ هل كان للعصبيّة القبليّة دور في ذلك؟ أم أنّ انتماءهم لفئة أبناء الصّحابة أو القرّاء دفعهم لمساندة ابن الزّبير؟ يبدو أنّ كلّ هذه العوامل كانت دافعا لكلّ هؤلاء الرّجال لمساندة ابن الزّبير.

ابتدأ القتال بين الطّرفين، فكان ميزان القوى غير متكافئ ورجحت الكفّة لصالح ابن الزّبير لتماسك جيشه ولرمزيّة الدّفاع عن الحرم؛ اقتتلوا قتالاً شديدا في مكّة[3]. ولعب عبد الله بن صفوان الجمحي دورا هامّا في إذكاء نار العداوة بين الأخوين المتحاربين، فحرّض ابن الزّبير على محاربة أعدى عدوّ له أي عمرو بن الزّبير. فأرسل إليه ابن الزّبير عبد الله بن صفوان في موالي ابن الزّبير[4]. كان على ما يبدو عبد الله بن صفوان قائد جيش ابن الزّبير[5].

لقد كان جيش ابن الزّبير أكثر عدد. فهزم أنيس بن عمرو شرّ هزيمة وقُتل المُهاجر مولى القَلَمّس[6]. والقَلَمّس هو حُذَيفة بن عَبْد بن فُقَيْم بن عَدِيّ بن عامر بن ثَعْلَبة بن الحارث بن مالِك بن كِنانة، أوّل من نسأ الشهور؛ ثمّ ورث عنه ذلك بنوه[7]. وقتل قوّاد جيش ابن الزّبير، الهارب والجريح من الجيش الأموي[8]. وكلّف

(١) ابن حزم، مصدر مذكور، ص١٨٤.
(٢) مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص٣٧٩.
(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٣٠.
(٤) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٣٠.
(٥) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٣٠؛ الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٤ ـ ٣٤٥.
(٦) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٦.
(٧) ابن حزم، مصدر مذكور، ص٤٩٤.
(٨) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٣٠؛ الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٤ ـ ٣٤٥ ـ ٣٤٦.

ابن الزّبير مصعب بن عبد الرحمن بأسر عمرو بن الزّبير[١].

منح ابن الزّبير القرشيّين الذين التحقوا به مهمّات عسكريّة. وهذا دليل على نشأة «نواة نظام معارض» لابن الزّبير بمكّة لديه جيش يقف به في وجه الدّولة، وانتصر هذا الجيش على الجيش الأموي.

بعد أن انهزم عمرو وتفرّق عنه أصحابه، دخل دار علقمة[٢]، فاحتمى بها[٣]. وحاصره فيها مصعب بن عبد الرحمن، ثمّ قبض عليه وأسره[٤]. بعد أن أُسر عمرو، وعده أخوه عبيدة بن الزّبير بالجوار والذمّة[٥]. كان عبيدة أخًا لجعفر بن الزّبير وأمّهما زينب بنت بِشْر بن عبد عمرو بن مرْثد، من بني قَيْس بن ثَعْلبَة[٦].

وقد كانت علاقات الأخوة قويّة في هذه المرحلة من الفتنة، كما كان الجوار عنصرا انتروبولوجيًا هامّا في توازن العلاقات داخل العشيرة. وقد دخلت هذه المؤسّسة العربيّة المحضة في اللّعبة السياسيّة وهي تعبّر عن الذهنيّة العربيّة وقيم هذه الثّقافة من ذمّة ونجدة وشعور الشريف بواجب الحماية واستنفار الأنفة ورفض الضّيم. فقلّ ما يُرفض مطلب الجوار لما ينجرّ عن ذلك من إضعاف للشّرف و مسّ بالعرض[٧].

ودخل عبيدة بصحبة عمرو إلى عبد الله بن الزّبير. وكان عمرو بن الزّبير قد شُجّ في وجهه والدّم يقطر على قدميه[٨]. لكنّ عمرا لم يفقد كبرياءه، رغم هزيمته الثّقيلة، وتمثّل ببيت شعر للحُصين بن الحُمام المرّيّ:

لَسْنا على الأعقاب تَدْمَى كُلُومنَا ولكنْ على أقدامنا تَقْطرُ الدَّمَا

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٣١.
(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٥.
(٣) الأزرقي، *أخبار مكّة وما جاء فيها من الآثار*، دار الأندلس، بيروت، ج٢، ص٢٥٠.
(٤) ابن سعد، مصدر مذكور، ج٥، ص١٢٠.
(٥) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٣٠ ـ ٣٣١؛ الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٥ ـ ٣٤٦.
(٦) مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص٢٣٦؛ ابن سعد، مصدر مذكور، ج٥، ص١٤١ ـ ١٤٢.
(٧) هشام جعيط، *تاريخيّة الدعوة المحمديّة في مكّة*، ص٨٠.
(٨) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٣١.

وأغلظ عبد الله بن الزّبير لأخيه عمرو بسؤاله عن الدم الذي على وجهه، وشتمه بنعته بالخبيث[١]، و بعدوّ الله، ووبّخه لاستخفافه بحرم الله[٢].

نقض عبد الله بن الزّبير عهد أخيه عبيدة لعمرو قائلا بأنّه لم يأمره بإجارة الفاسق المستحلّ لحرمات الله[٣]. رفض عبد الله بن الزّبير إجارة أخيه وهو أمر هامّ لأنّه يعني قطع الرّحم أو قطع عُرى القرابة. وحبس عبد الله بن الزّبير عمرا على أساس أنّ للنّاس عليه حقوقًا ولا بدّ أن يُقصّهم منه[٤]، أو أنّه يجب أن يرفع المظالم عن النّاس. وهو يذكر أنّ حقّه تركه للأخوّة[٥]. استقى ابن الزّبير شتائمه من المعجم القرآني أي الخبيثُ[٦] والفاسقُ[٧] وعدوّ الله[٨]، كما أنّه اعتبره مستحلاً لحرمات الله بغزوه لمكّة. كما أنّ فكرة القصاص[٩] من عمرو هي فكرة قرآنيّة. كما ذكر عبد الله بن الزّبير فكرة القود[١٠].

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٦؛ ابن منظور، معجم مذكور، ج١، ص٧٦٢ خبث: الخبيثُ: خبٌّ، رديءٌ. الخبثُ، الكُفرُ، الخُبثُ، خلافُ طيّب الفعل من فُجور وغيره، والخبائثُ، يُريدُ بها الأفعال المذمومة والخصال الرّديئة.

(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٣١.

(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٦؛ ابن منظور، معجم مذكور، ج٢، ص١٠٩٦: الفَاسِقُ، العصيان والترك لأمر الله عزّ وجلّ والخروج عن طريق الحقّ. الفسوق: الخروج عن الدّين والفجور.

(٤) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٣١.

(٥) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٣٣.

(٦) المائدة ٥/ ١٠٠ ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾.

(٧) الحجرات ٤٩/ ٦ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾.
السجدة ٣٢/ ١٨ ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾﴾.

(٨) الأنفال٨/ ٦٠ ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾.
التوبة٩/ ١١٤ ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾.
التوبة٩/ ١٢٠ ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾.

(٩) ابن منظور، معجم مذكور، ج٣، ص١٠٣: القصاصُ والتّقاصُّ في الجراحات شيءٌ بشيء، وقد اقتصّ من فلان. وامتثل.
المائدة ٥/ ٤٥ ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾.

(١٠) ابن منظور، معجم مذكور، ج٣، ص١٨٥: والقَوَدُ: قتل النّفس بالنّفس. القَودُ القصاصُ. وأقدْتُ القاتل بالقتيل أي قتلته به.

يدلّ حبس عمرو على استعمال هذه السّلطة الخارجة عن الدّولة الأمويّة للعقاب كوسيلة للرّدع والانتقام، والعقاب هو من مقوّمات السّلطة. كما أصبحت السّلطة مركّزة بيد عبد الله بن الزّبير وليس لأحد الحقّ في اتّخاذ قرار حتّى وإن كان أحد إخوته.

فقد حبس ابن الزّبير أخاه في سجن عارم. وسُمّي سجن عارِم لعبد كان يقال له زيد عارم[1]. وحُبس معه غلام لمحمد بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي أو أنّه مولى لبني زهرة واسمه زيد ولقبه عارم. والاحتمال الثّالث أن يكون عبدا لمصعب بن عبد الرحمن بن عوف[2].

ودشّن ابن الزّبير طريقة جديدة في العقاب والعنف السّياسي بإحداث ما يُعرف بالزّنزانة، فقد بُني له بناء في «ذراعين وأُقيم فيه» في سجن عارم. ووُضع عارم وجماعة معه في بناء خُصّص لهم وأُطبق عليهم حتّى ماتوا[3].

لماذا حُبس هذا العبد أو المولى مع عمرو؟ هل ارتكب إثما استحقّ عليه العقاب؟ هل حُبس عمرو معه للتّحقير من شأنه؟

حبس ابن الزّبير أخاه شهرًا أو أشهرًا أو أنّه بقي محبوسًا إلى أن بويع ابن الزّبير وأقاد منه إلى أن مات[4].

وكان يوقفه كلّ يوم للنّاس ليقتصّون منه فيلطم ويوجأُ[5] ويلكز[6] وتنتف لحيته ويضرب بالعصا ويضرب بالسّياط ويشجّه آخر بحجر. وقد ذكر مصعب بن عبد الرحمن لعبد الله بن الزّبير بأنّ عمرو بن الزّبير ضربه مائة جلدة بالسّياط، ولم يكُن

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٧.

(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٣١.

(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٣١.

(٤) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٣١ ـ ٣٣٣؛ الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٥.

(٥) ابن منظور، معجم مذكور، ج٣، ص٨٧٧: وجأ: الوجْءُ: اللّكزُ. ووَجَأَهُ باليد والسّكّين وجْأ، مقصور: ضربَهُ ووجأ في عنقه كذلك.

(٦) ابن منظور، معجم مذكور، ج٣، ص٣٩٠: لكز يلكزُهُ لكزًا: وهو الضرب بالجُمْعِ في جميع الجسد.

عمرو وقتها صاحب سلطة ولم يرتكب مصعبا أمرا منكرا ولم يخلع طاعةً، أي أنّه لم يخلع طاعة الأمويّين. فأمر عبد الله بن الزّبير بعمرو أن يُقام وسلّم له السّوط وأمره بضربه، فجلده مصعب مائة جلدة[1]. وكان يُخرجه إلى النّاس كلّ يوم يقتصّون منه ثمّ يُردّ إلى السّجن ثمّ يُخرج فيُفعل به بمثل ذلك.

وكان عبد الله بن الزّبير إذا ضرب عمرو رجل بالسّياط اقتصاصًا منه، يتركه حتّى يبرأ أيّامًا. وكان عمرو صبورًا لكنّ الضّرب أنهكه وضعُف جسديًا[2].

وأقاده من كلّ من ضربه إلاّ المنذر بن الزّبير وابنه محمد فإنّهما رفضا أن يستقيدا منه[3]. فقد حافظ المنذر وابنه على علاقة الأخوّة والقرابة رغم الضّرر الذي لحقهما من عمرو وتنازلا عن القود والقصاص الذي أصرّ عليه ابن الزّبير.

ومات عمرو بن الزّبير تحت السّياط[4]؛ فقد قدم سهيل بن عبد الرحمن بن عوف ـ أي ابن الصّحابي عبد الرحمن بن عوف[5] وأخ مصعب بن عبد الرحمن لأبيه ـ فقال بأنّ عمرو جلده مائة جلدة بدون أن يقترف ذنبا. فجُرّد عمرو، وضُرب مائة ضربة بالسّوط فنغل[6] ظهره إلى أن مات[7]!

وفي رواية أخرى، أتى رجل من هُذيل بن مُدْركة[8] يقال له جُنادة بن الأسود قال لعبد الله بن الزّبير بأنّ عمرو بن الزّبير نطحه على جبينه نطحة بقي ألمها إلى حدّ ذلك اليوم. فأذن له عبد الله بن الزّبير في القصاص منه. فنطح جبينه نطحة

---

(١) ابن سعد، مصدر مذكور، ج٥، ص١٤١ ـ ١٤٢.
(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٢٩.
(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٧.
(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٧.
(٥) مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص٢٦٩: هو أبو الأبيض، وأمُّهُ: مجد بنت زيد بن سلامة ذي فايش الحِمْيريّ.
(٦) ابن منظور، معجم مذكور، ج٣، ص٣٩٠: نغِل الجُرْحُ نغَلاً: فسد، وبَرِئ الجُرْحُ وفيه شيء من نَغَلٍ أي فسادٍ.
(٧) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٢٩ ـ ٣٣١ ـ ٣٣٣.
(٨) ابن حزم، مصدر مذكور، ص١٩٦.

سقط منها مغشِيًّا عليه؛ وبقي ليلةً فقط ومات[1]. فمهما كان سبب موت عمرو فإنّه قُتل نتيجة إصرار ابن الزّبير على الانتقام منه وإلحاق الضرر به.

وأمر عبد الله بن الزّبير أن يصلب ثمّ أنزله[2]. ويبدو أنّ عبد الله بن الزّبير قد طرح أخاه عمرو بعد موته في شعب الجَيف[3] وهو المكان الذي صُلب فيه ابن الزّبير فيما بعد! فكان هذا التصرّف منطلقا لنقمة النّاس على ابن الزّبير، فأصبح سجن عارم رمزا لتجبّر وغدر وعقوق ابن الزّبير أي قطعه للرّحم والقرابة.

عرّى عبد الله بن الزّبير بقتله لأخيه عمرو الوجه الحقيقي لسياسته. فقد كان يخطب فيقول بأنّه عائذ بالبيت، بينما هو حبس أخاه في سجن عارم.

ولا يُريدُ إلاّ الإصلاح[4] وإقامة الحقّ[5]، وهو لا يحبّ جمع المال ولا ادّخاره، وإنّما بطنه شِبر أو أقلّ، فيكفيه ما ملأه[6]. بينما هو طمّاع وجشع ولم يتّبع سنّة عمر أو سنّة صدّيق النبيّ أبي بكر.

استعمل ابن الزّبير مبادئ قرآنيّة وأخلاقيّة مطلقة: فالإصلاح مفهوم قرآني يخصّ الأنبياء، لكنّه يهمّ البشر أيضا[7]. وقد ورد الحقّ في القرآن لمرّات عديدة[8]. وهو لديه معانٍ عديدة لكنّها كلّها مرتبطة بالله والرّسل. فقد وضع ابن الزّبير سياسته على

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٢٩.

(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٣٣؛ ابن حبيب، *كتاب المحبّر*، ص٤٨١.

(٣) ابن سعد، مصدر مذكور، ج٥، ص١٤٢؛ ياقوت، معجم مذكور، ج٣، ص٣٤٧ لم نجد في المعجم تعريف الجيَف. بل وجدنا تعريف الشِّعْب. وهو الطريق في الجبل أو ما انفرج بين جبلين فهو شعب.

(٤) ابن منظور، معجم مذكور، ج٢، ص٤٦٢ الصّلاح ضدّ الفساد. ورجل صالح في نفسه من قوم صُلحاء ومُصلح في أعماله وأموره، وقد أصلحه الله.

(٥) ابن منظور، معجم مذكور، ج١، ص٦٨٠ الحقُّ: نقيض الباطل. وقوله تعالى: ولا تَلْبِسوا الحقّ بالباطل، الحقّ أمر النبي، صلّى الله عليه وسلّم، وما أتى به من القرآن؛ وكذلك قال في قوله تعالى: بل نقذف بالحقّ على الباطل. وحقّ الأمر يحقُّ: صار حقّا وثبت. والحقّ من أسماء الله عزّ وجلّ، وقيل من صفاته

(٦) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٣٢.

(٧) هود ١١/ ٨٨ ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾؛ النساء٤/ ١١٤ ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾.

(٨) محمد فؤاد عبد الباقي، *المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم*، دار الفكر للطباعة والنّشر والتوزيع، بيروت، د.ت، ص٢٠٨ ـ ٢٠٩ ـ ٢١٠ ـ ٢١١.

نفس خطّ الأنبياء، الذي يلعب على المشاعر الدّينيّة لما تبقّى من الصّحابة وأبناء الصّحابة والقرّاء. فأصبح ابن الزّبير يمثّل طموحاتهم ومُثُلهم. ومن هنا تكمن ضبابيّة هذا البرنامج السّياسي الدّيني.

فكأنّه أراد بذلك أن يسلك سياسة مناهضة ومناقضة ومخالفة للأمويّين حتّى يعتّم عليهم ويبيّن أنهم لا يصلحون للسّلطة من باب نقص شرعيّتهم التّاريخيّة بالمقارنة معه. لكنّ هذا البرنامج السّياسي هو برنامج ضبابيّ. وربّما كان عدم الوضوح مقصودا من ابن الزّبير ليَعِد النّاس بمبادئ كان الخلفاء الأوائل يتّبعونها، أو «يوهمهم» بأنّه سيسلك فيهم نفس سياسة أبي بكر الصدّيق جدّه أو عمر بن الخطّاب. فهل كان ابن الزّبير واعٍ بتغيّر الأوضاع وتركيز الخليفة معاوية بن أبي سفيان لدولة ذات مؤسّسات شبيهة بالبيزنطيّين أي دولة دنيويّة. لكنّها كانت في نفس الوقت دولة تركّز الإسلام بالجهاد؟ هل كان ابن الزّبير مدركاً لعدم تزامن ما يدعو إليه مع هذه الفترة؟

كان خطاب ابن الزّبير متناقضا لأنّه من ناحية يظهر غير محبّ للدّنيا بالمعنى السّياسي والتلذّذ بالسّلطة. ومن ناحية أخرى، كان حريصا على الدنيا أي السّلطة مستعملا العنف في أقصى درجاته. ونجد صدى هذا الاستنكار لسياسة ابن الزّبير في الأشعار وخاصّة قتله لعمرو، فقد أنشد كُثيِّر[1]:

تُـخـبّـِرُ مَـن لاقـيـتَ أنّـك عـائـذٌ — بل العائذ المَحبوسُ في سِجنِ عارِمِ

كما قال الضحّاك بن فيروز بن الدَيْلمي ـ وهو من أحرار اليمن ـ:

تَقولُ لَنا أنْ سوْفَ تَكْفيكَ قَبْضَةٌ — وبَطْنكَ شِبرٌ أوْ أقلُّ منَ الشِبْر

وأنت إذا ما نلتَ شَيئًا قضمْتَهُ — كما قضمَتْ نارُ الغَضا حطب السِدْرِ

لَكُمْ سُنّةُ الفاروقِ لا شيْءَ غَيرَهْ — وسُنّةُ صدّيقِ النَّبِيّ أبي بَكر

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٣٢.

فلو ما اتقيتَ الله لا شيءَ غيرَهْ إذًا عَطفتكَ العاطفات على عَمْرِو[1]

المهمّ أنّ قتل عبد الله بن الزّبير لأخيه عمرو سقّط خطابه الدّيني والسّياسي في أعين النّاس منذ بداية تولّيه للسّلطة وأفقده المصداقيّة.

انتقم ابن الزّبير من أخيه عمرو معتمدا القرآن كشعار إيديولوجيّ لتبرير موقفه الجديد من نوعه لأنّه نتاج لهذه الفتنة الثّانية. لكنّ هذه المبادئ القرآنيّة لم تكن إلاّ قناعاً وذرّا للرّماد في أعين أنصاره. كما أنّ أواصر الأخوّة انفصمت عُراها وبالتّالي لم تعُد لها قيمة تُذكر. وهذا نوع جديد من العلاقات أفرزته الفتنة ولم يسبق إليه مثيل لا في الجاهليّة ولا في الإسلام.

وكان ردّ فعل عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق عنيفًا تجاه فلّ عمرو بن الزّبير أي ما بقي من جيشه المنهزم. فقد ضربهم ولامه الخليفة يزيد بن معاوية على ذلك[2]. كان الوالي متشدّدا أكثر من الخليفة في ردود فعله.

لعب الدّيني والرّمزي دورًا هامًا في هذه الواقعة. فالبيت الحرام مثّل رمزا دينيّا هامًا. وابتدأ الخليفة يزيد بن معاوية سياسة جديدة اتّسمت بالعنف السّياسي والدّيني والقبلي أو العشائري وهي تعنيف ابن الزّبير في الحرم المكّي على يد أخيه عمرو بن الزّبير أي تعنيف قرشي وهو يزيد بن معاوية لقرشي ثائر على سلطته (ابن الزّبير)على يد قرشي هو أخ ابن الزّبير! كان يزيد يسعى لاسترداد سلطته التي تضيع تدريجيّا منه وفرض إيديولوجيا الدولة. كان هذا العنف في شخصيّة عمرو بن الزّبير يخدم مصلحة الدّولة الأمويّة لأنّه لن يتهاون ولن يتلطّف في معاملة أخيه! وهذا يعتبر عنفا جديدا فحتّى العنف الجاهلي لم يكن يمسّ العشيرة. وهذا تطوّر جديد لظاهرة الفتنة الثّانية التي أفرزت عدّة مظاهر جديدة لعنف الدولة من ناحية، وعنف حركة المعارضة من ناحية أخرى تجاه القائد العسكري الأموي.

---

(١) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٣٢.
(٢) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٣٠.

فقد كان عمرو بن الزبير ورقة رهان بين الخليفة والوالي الأموي من ناحية، وابن الزّبير من ناحية أخرى. ودفع حياته ثمنا لنزاع على السّلطة بين أخيه والخليفة الأموي.

كان عمرو بن الزّبير قربان الدّولة الأمويّة في هذه الفترة من الفتنة لفرض البيعة والطّاعة والحفاظ على الجماعة. قُتل عمرو بنفس سلاحه أي أنّ العنف الذي وظّفه عمرو على إخوته وأبناء إخوته وأشراف قريش سُلِّط عليه. ولم يتدخّل عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق والي المدينة وقريب عمرو بن الزّبير لتخليصه من أيدي أخيه عبد الله بن الزّبير. بل ترك الأمويّون النّزاع بين الإخوة وتصفية الحسابات.

خلّفت هذه الواقعة العسكريّة نتائج وخيمة على الطّرفين أي السّلطة الأمويّة وسلطة ابن الزّبير. وكانت من بين أسباب تأزّم العلاقات بين الدّولة الأمويّة وابن الزّبير.

تسمّمت العلاقات داخل قريش تسمّما لا مثيل له: وهذا عنصر جديد خرج من رحم الفتنة الثّانية.

فهل مات عمرو بن الزّبير نتيجة نزاع على السّلطة بين الخليفة وابن الزّبير؟ هل مات عمرو بن الزّبير نتيجة عنفه المفرط وكرهه لأخيه ـ الذي كان سلاحا ذو حدّين ـ، وتكبّره واستخفافه ببعض رجال قريش كعبد الله بن صفوان؟

وفي خصوص سلطة ابن الزّبير، تطوّر وتصاعد العنف داخل العشيرة ـ أبناء الزّبير بن العوّام حواري الرّسول ـ فعذّب وسجن وجرّد أخاه من الأخوّة في سبيل فرض سلطته وزعامته أو سيادته في عشيرته وفي الحرم.

أصبح ابن الزّبير متجرّدا من حبّ وحنان وعطف ومؤاساة عواطف الأخوّة أي أنّه قطع علاقات القرابة (بما أنّ عمرو هو أخاه من الأب) في سبيل تحقيق أهداف سياسيّة. فهل كانت علاقات الرّحم المُتَأتّية من القرابة من الأمّ أقوى من علاقات القرابة؟ أو بعبارة أخرى، إن كان عمرو أخا لابن الزّبير لأبيه وأمّه هل كان ردّ فعله هو نفسه؟

من الزّاوية الأنتروبولوجيّة، ضُربت حرمة الجوار الذي منحه عبيدة بن الزّبير لأخيه، فقد نقض ابن الزّبير هذا العهد. كما ضربت حرمة القرابة والدّفاع عن العشيرة.

كما ضربت حرمة قريش القبيلة المختارة من الله، وتحارب القرشيّون في الحرم: إنهيار أسطورة قريش كقبيلة موحّدة، وهذا يعتبر حدثا هامّا وجديدا تمخّض من الفتنة الثّانية حيث جُرّد الحرم من حرمته ليصبح مسرحا للتّنافس القبلي والعشائري.

فمن ناحية، عنّف الخليفة الأموي ابن الزّبير بإرسال جيش للحرم المكّي. وكان عنف عبد الله بن الزّبير أشدّ ضراوة لكنّه عنف موجّه ضدّ أخيه ممثّل السّلطة الأمويّة.

فقد جعله عرضة لما سمّاه بالقَود والقصاص انتقاما منه، وهو نوع من التّعذيب الذي دام شهورا. وكلّ هذا التّعذيب كان يحدث وعمرو مسجون. وكان ابن الزّبير قاسياً إلى أبعد حدّ بما أنّه ترك أخاه معذّبا مسجونًا إلى أن تعفّن جسده وتوفّي.

ولم يتوقّف عند هذا الحدّ بل صلب أخاه وهي أقصى درجة من العنف. وكان كلّ هذا العنف موظّفًا في الحرم المكّي، وهو حدث لم يُسبق إليه. وعلى هذا الأساس، فهو عنف فاق عنف الدّولة الأمويّة. فهل أنّ كسر أواصر الأخوّة والقربى واستعمال العنف المطلق كانت في ذهن ابن الزّبير تعني فرضا لسلطته السّياسيّة؟

فاق هذا التّعذيب والعنف الذي دشّنه ابن الزّبير في هذه الفترة من الفتنة عنف الدّولة الأمويّة التي عُتّم عليها وَوُصِفت بالتّجبّر.

ظهرت جماعة حول ابن الزّبير وهي متكوّنة من عناصر مختلفة: إخوته ومواليه وعناصر من قريش وعناصر من الأنصار، ومثّلت هذه الجماعة العناصر السّياسيّة والعسكريّة لسلطة ابن الزّبير.

هل هذه النّواة هي نواة صلبة؟ سنرى ذلك من خلال تطوّر الأحداث.

لم تُأتِ هذه الغزوة العسكريّة أُكلَها للدّولة الأمويّة ولسلطة الخليفة يزيد بن

معاوية بما أنّ الجيش هُزم وقائد الجيش قُتل وصُلب. كما تأكّد أنّ هذه اللّعبة (إرسال عمرو لأخيه) كانت لعبة خطرة بما أنّها فجّرت وأنشأت علاقات جديدة مبنيّة على العنف. ونشأت سلطة ابن الزّبير قائمة على شعار المبادئ القرآنيّة كالقصاص لكنّها سلطة عنيفة إلى أبعد درجات العنف. وأصبح لعبد الله بن الزّبير مستشارين وجيش يقوم بالقتال. لكنّ هذه السّلطة كانت سلطة فرديّة أي أنّ ابن الزّبير كان يتّخذ القرارات بنفسه.

وستتطوّر سلطة ابن الزّبير وعلاقة السّلطة الأمويّة به بعد مقتل الحسين بن عليّ.

الفصل الثالث
ثورة الحسين بن عليّ

مثّلت ثورة الحسين بن عليّ حدثا جديدا من نوعه حيث كانت حركة معارضة للسلطة الأمويّة (سلطة الخليفة يزيد بن معاوية) تنتمي لأهل البيت[1]. والمقصود بأهل البيت هم أهل البيت النّبوي.

فقد انطلق الحسين من الحجاز إلى الكوفة برغبة من شيعة عليّ وأشرافها. وكان الحسين مدفوعا باسترجاع حقّه الذي ضاع منه بعد الصّلح بين معاوية والحسن أي الحق الديني والسياسي. كما أنّه كان مدفوعا بدوافع عاطفيّة ونفسانيّة. لكنّه لم يقرأ حسابا لتغيّر الظّروف السّياسيّة أي وجود سلطة قويّة تسعى لفرض وجودها بكلّ قوّة، وهذه السّلطة يمثّلها الخليفة يزيد بن معاوية وواليه على العراق عبيد الله بن زياد. وبرزت معطيات اجتماعيّة جديدة مرتبطة بعلاقة أهل الكوفة خاصّة منهم الفئات الثريّة أي الأشراف بالدولة. فهم يوطّرون عشائرهم لفائدة الدّولة الأمويّة.

فما هي العناصر القبليّة المشاركة في هذه الثّورة؟ وكيف اندلعت هذه الثّورة؟ وما هو ردّ فعل الدّولة تجاهها؟

وارتكز الحسين بن عليّ شرعية تاريخيّة مستندة على مفهوم أهل البيت، واتّخذ هذا المفهوم بعدا رمزيّا وعاطفيّا هامّاً.

---

(١) كانت حركة حجر بن عدي الكندي في عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان، أوّل حركة شيعيّة. كما أنّ حركة التّوابون فيما بعد كانت حركة شيعيّة تهدف للثّأر للحسين.

مفهوم أهل البيت

اكتسب الحسين شرعيّة تاريخيّة مأتاها انتمائه لعائلة الرّسول: فهو حفيده ابن فاطمة. و «كان يشبّه بالرّسول، كما قال الرّسول: حسين منّي وأنا منه، أحبَّ الله من أحبَّ حسينًا[1]. حسين سبط من الأسباط[2]».

كان الحسين يشبه جسديّا الرّسول وكان هذا التّشابه الجسدي بينه وبين الرسول إضافة إلى تدخل الرّسول لإكساب حفيده هالة ميتا ـ تاريخيّة. فالحسين هو جزء من الرّسول أي بضعة من لحمه ودمه وسنجد صدى لهذه الرمزيّة في ما بعد عند ثورة الحسين ومقتله. كما أنّ من أحبّ الحسين يكون قد أحبّ الرّسول. ومفهوم الحبّ هنا هو مفهوم ديني بالأساس.

وقال أبو هريرة: سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول له ولأخيه الحسن: «هما سيّدا شباب أهل الجنّة[3]».

كما أكّد الحديث النبوي على مكافأة الحسن والحسين في اليوم الآخر بمنحهما مكانة مرموقة في الجنّة.

وتدعّمت هذه الشرعيّة التّاريخيّة للحسين بن عليّ بضبطها في القرآن أي أنّ آل البيت أصبح مؤسّسة دينية ميتا ـ تاريخية. فقد ذُكر آل البيت في القرآن ﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[4].

---

(١) ابن منظور، *مصدر مذكور*، ج١، ص٥٤٤.

(٢) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٣٥٩؛ ابن منظور، *مصدر مذكور*، ج٢، ص٨٧: «السّبطُ واحد الأسباط وهو وَلد الولدِ. وفي الحديث: الحسنُ والحسينُ سِبْطا رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم ورضي عنهما، ومعناه أي طائفتان وقِطعتان منه. وفي الحديث أيضاً: الحسينُ سبط من الأسباط أي أمّةٌ من الأمم في الخير، فهو واقع على الأمّةِ والأمّة واقعة عليه».

(٣) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٢٩٧.

(٤) الأحزاب ٣٣/ ٣٣؛ الطّبري، *جامع البيان في تأويل القرآن*، ج١٢، ص٧ ـ ٨ ـ ٩: «.فهم أهل بيت طهرهم الله من السوء، وخصهم برحمة منه. الرجس ها هنا الشيطان، وسوى ذلك من الرجس: الشرك. اختلف أهل التأويل في الذين عُنوا بقوله (أهل البيت) فقال بعضهم: عني به رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وعلي وفاطمة والحسن والحسين رضوان الله عليهم. عن الأعمش، عن عطية، عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «نزلت هذه الآية في خمسة: في، وفي علي، وحسن، =

على هذا الأساس، اكتسب الحسين مكانة خاصّة في الضّمير الإسلامي بفضل صلة القرابة والرحم التي تربطه بالرّسول. وكذلك بفضل ورود هذا المفهوم في القرآن و السنّة.

ويرد مفهوم أهل البيت في رسالة أرسلها عليّ بن أبي طالب لمعاوية قبل أن يخوضا صفّين[١]. فقد ذكر عليّ بعث الله لمحمد الذي دعا إلى التّوحيد والإيمان به. فكان أهل البيت أوّل من آمن به وتحمّلوا معه «بغي» قومهم. والمقصود بقومه قريش. وفي هذا تعريض بأبي سفيان ومن وراءه الأمويّين الذين كانوا معادين للرّسول وأسلموا بعد فتح مكّة.

وهاجر أهل البيت مع الرّسول فتحمّلوا معه مرارة ترك الدّيار والأهل والطّرد من القبيلة أو تقطيع الأواصر القبليّة[٢]. وكان الرّسول يحمي أصحابه في قتال المشركين بتقديم أهل البيت فاستشهد عبيدة بن الحارث بن المطلّب في بدر وحمزة بن عبد المطلّب في أحد وجعفر بن أبي طالب[٣] في يوم مؤتة.

= وحسين، وفاطمة رضي الله عنها. حدثنا ابن وكيع، قال: ثنا محمد بن بكر، عن حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن أنس أن النبي صلّى الله عليه وسلّم كان يمرّ ببيت فاطمة ستة أشهر، كلما خرج إلى الصلاة فيقول: «الصلاة أهل البيت». حدثني موسى بن عبد الرحمن المسروقي، قال: ثنا يحيى بن إبراهيم بن سويد النخعي، عن هلال، يعني ابن مقلاص، عن زبيد، عن شهر بن حوشب، عن أم سلمة، قالت: كان النبي صلّى الله عليه وسلّم عندي، وعلي وفاطمة والحسن والحسين، فجعلت لهم خزيرة، فأكلوا وناموا، وغطى عليهم عباءة أو قطيفة، ثم قال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي، أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا». حدثني عبد الكريم بن أبي عمير، قال: ثنا الوليد بن مسلم، قال: ثنا أبو عمرو، قال: ثني شداد أبو عمار قال سمعت واثلة بن الأسقع يحدث، قال: سألت عن علي بن أبي طالب في منزله، فقالت فاطمة: قد ذهب يأتي برسول الله صلّى الله عليه وسلّم، إذ جاء، فدخل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ودخلت، فجلس رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على الفراش وأجلس فاطمة عن يمينه، وعليا عن يساره وحسنا وحسينا بين يديه، فلفع عليهم بثوبه وقال: (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) اللّهم هؤلاء أهلي، اللهم أهلي أحق».

(١) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٦٨ ـ ٦٩ كانت هذه الرّسالة ردّا على رسالة أرسلها له معاوية يتّهمه فيها بالتّخاذل في الذبّ عن عثمان وبإيواء قتلته وبالتّنصّل من دم عثمان. وطلب منه تسليم قتلة عثمان أو أنّه يحاربه. البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٦٦ ـ ٦٧.

(٢) هشام جعيط، *تاريخيّة الدّعوة المحمديّة في مكّة*، ص٢٩٥.

(٣) مصعب الزّبيري، *مصدر مذكور*، ص٨٢.

دافع عليّ بن أبي طالب عن شرعيّة أهل البيت تجاه معاوية في الفتنة الأولى. وتتمثّل هذه الشرعيّة في انتمائهم لعائلة الرّسول الذي اختاره الله، وإيمانهم المبكّر بدعوته، وتحمّلهم الأذى في سبيل إنجاح دعوته، وهجرتهم في صفّه، واستشهادهم في سبيل الله. فاكتسبت هذه الجماعة مكانة ميتا ـ تاريخيّة مثل المكانة التي تبوّأها الصّحابة في الضّمير والذّاكرة الإسلاميّة.

ورجع هذا المفهوم بقوّة في عهد معاوية حيث وظّفه الحسين بن عليّ لتبرير حقّ أهل البيت تجاه الخطاب الإيديولوجي لمعاوية (خصم أبيه بالأمس).

واكتسب الحسين بفضل هذا المفهوم «حرمة» وشرعية تاريخيّة صلبة تحطّم آليًا الشّرعيّة التّاريخيّة الأموية الهشّة[1]! فهل كانت هذه الحرمة والشّرعيّة التّاريخيّة لأهل البيت تكفي لتحمي الحسين من السّلطة الأمويّة؟ وما هي جذور حركة الحسين بن عليّ؟

موقف الحسين بن عليّ من الصلح بين الحسن بن عليّ ومعاوية بن أبي سفيان

ترجع جذور حركة الحسين بن عليّ إلى فترة إبرام الصلح بين أخيه الحسن بن عليّ ومعاوية بن أبي سفيان.

لم يكن الحسين بن علي راضيا بالصلح بين الحسن ومعاوية[2] لكنّه كان مجبرًا على قبوله. وقد عبّر عن ذلك لشيعة أبيه عندما جاءوه لقصر الكوفة عند رحيله منها إلى المدينة. فقد كان هؤلاء الشّيعة في حالة من الحزن دفعت بالحسين لتفسير وجهة نظره. فقد أجبره الحسن على قبول هذا القرار على مضض كبير منه. ويروي الحسن البصريّ[3] حدوث سوء تفاهم بينهما، فالحسن بن عليّ رأى أنّ خلافته لن تتمّ إلاّ بتقاتل أهل الشام وأهل العراق. ففضّل الحسن أن يُسلّم

---

(١) انتماء الأمويّن للطّلقاء الذين أسلموا بعد فتح مكّة.

(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٦٣.

(٣) ابن سعد، مصدر مذكور، ج٧، ص١١٤ ـ ١٣٣ الحسن البصري هو من قرّاء وعلماء البصرة، وهو ثقة.

السّلطة لمعاوية لأنّه رأى أنّه الأجدر سياسيًا، بينما كان للحسين رأي آخر حيث بدا له تخلّي الحسن خروجًا عن سياسة أبيهما علي بن أبي طالب وتخلّ عنها وطعن عليها. وأجابه الحسن أنّه لا يرى ذلك وتهدّده أن يشدّه في الحديد إذا لم يتبعه في أمره(1). حدث إذا انشقاق داخل فئة أهل البيت على الحكم والسّلطة أي على الأمور الدنيويّة!

ويقول الحسين في خيبة أمله: «فأطعته وكأنما يحُزُّ أنفي بالمواسي ويُشَرِّحُ قلبي بالمُدَى(2)». عاش الحسين وضعيّة نفسيّة صعبة بسبب الصلح وتفضيل الحسن للأمويّين على حسابه.

كان الحسين يعتبر أنّ حقّه في الخلافة ـ وهو حقّ آل البيت ـ قد ضيّعه منه أخوه الحسن، لكنّه لم يعص أخاه بدافع الرّحم والقرابة.

من هم شيعة أبيه الذين جاءوا لتوديعه؟

ذكر البلاذري أربعة أشخاص وهم: جندب بن عبد الله الأزدي والمسيّب بن نجبة الفزاري، وسليمان بن صُرد الخزاعي، وسعيد بن عبد الله الحنفي.

ذكرت كتب الطّبقات هؤلاء الشّيعة الأوائل، فجندب بن عبد الله الأزدي هو جندب بن كعب بن عبد الله بن جَزءِ بن عامر بن مالك بن عامر بن ذهْل بن ثَعْلبة بن ظَبْيان بن غامِد، الذي تلقّبه الشّيعة جندب الخير(3). وقد وفد جندب بن كعب على الرّسول بالمدينة في قومه فأسلم(4). وقد ذُكر في سلسة الرّواة الذين نقلوا أخبار عليّ بن أبي طالب بعد النهروان(5).

ويعتبر سليمان بن صُرد الخزاعي من رؤوس الشّيعة. أسلم وصحب النبي، وكان اسمه يسار. فلمّا أسلم سمّاه الرّسول سليمان. كان له شرف في قومه، ولمّا

---

(1) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٢٩٣.
(2) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٦٣.
(3) ابن حزم، مصدر مذكور، ص٣٧٨ ـ ٣٧٩.
(4) ابن سعد، مصدر مذكور، ج١، ص٢١٤.
(5) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص١٥٤.

توفّي الرّسول انتقل إلى الكوفة عندما استقرّ بها المسلمون. وكان من بين قرّاء الكوفة الذين أرسلوا كتابًا للخليفة عثمان يلومونه على اتّباعه لرأي سعيد بن العاص ـ واليه على الكوفة ـ في معاقبة القرّاء. وذكّروه الله في أمّة محمّد أن يكون فسادها على يده[١].

وشهد مع عليّ بن أبي طالب الجمل وصفّين، وكان ممّن كتب إلى الحسين بن عليّ يطلب منه القدوم إلى الكوفة. فلمّا قدمها امتنع عنه ولم يقاتل معه. وقد وصفه ابن سعد بأنّه «كان كثير الشكّ والوقوف[٢]».

وهو كما كتب الأستاذ هشام جعيّط يعتبر «مفهوما أساسيًا في صحّة وحقيقة القضيّة الواجب الدّفاع عنها»[٣]، ولنا عودة فيما بعد لهذا المفهوم عند دراستنا لمسير الحسين إلى الكوفة ومقتله.

ولمّا قتل الحسين ندم هو والمسيّب بن نجبة الفزاري وكلّ من لم ينصر الحسين وتخاذل عنه ولم يقاتل معه. فسُمّوا بالتّوّابين الذين صمّموا التّوبة من ذنبهم الأعظم والقصاص له ـ أي للحسين ـ من قتلته أي الأمويّين. وكان قائدهم سليمان بن صرد الذي قُتل بعين الوردة بقرقيسياء عن سنّ متقدّمة تبلغ ثلاث وتسعين سنة[٤].

كما جاء الحسين بن عليّ بعد الصلح بين الحسن ومعاوية، المسيّب بن نجبة الفزاري. شارك في الفتوحات حيث شهد القادسيّة. وكان من بين قرّاء الكوفة الذين أرسلوا كتابًا للخليفة عثمان يدعونه فيه للعمل بكتاب الله والتّراجع عن سياسة المحاباة التي اتّبعها مع ذوي قرابته من بني أميّة، وخوّفوه الحياد عن المبادئ القرآنيّة ومغبّة الفتنة[٥]. كما شهد مع عليّ بن أبي طالب كلّ مشاهده أي واقعة الجمل وواقعة صفّين وواقعة النّهروان.

---

(١) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٦، ص١٥٣.
(٢) ابن سعد، *مصدر مذكور*، ج٤، ص٢١٩.
(٣) هشام جعيط، *الفتنة*، ص١٦١.
(٤) ابن سعد، *مصدر مذكور*، ج٤، ص٢١٩ ـ ٢٢٠؛ج٦، ص١٠٢.
(٥) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٦، ص١٥٣.

وزوّج ابنته جُمانة لعبد الله بن جعفر بن أبي طالب[1]. وولدت له الحسن وعون الأصغر الذي قُتل يوم الحرّة[2]، أو مع الحسين بن عليّ في الطّفّ[3]. فقد كانت للمسيّب بن نجبة علاقة قرابة ورحم عن طريق الزّواج. وقُتل يوم عين الوَرْدة مع التوّابين الذين خرجوا وتابوا من التّخاذل في نصرة الحسين. وأُرسل رأسه إلى الخليفة مروان بن الحكم فنصبه بدمشق[4].

هل يعتبر هؤلاء الأشخاص من النّواة الصلبة للشّيعة؟ هذا ما ستبيّنه الأحداث فيما بعد.

برّر الحسين حصول الصلح بين الحسن ومعاوية وخروج السّلطة من آل البيت وأساسا عدم انتقال الحكم له معتمدا على القرآن. فاستشهد بهذه الآية: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾[5].

كما قال معتمدا على القرآن ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾[6]. وجد الحسين العزاء في قوّة إيمانه بالقرآن.

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٢، ص٣٢٥؛ الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٦٩؛ مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص٨٣.

(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٢، ص٣٢٥.

(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٦٨ ـ ٤٦٩.

(٤) ابن سعد، مصدر مذكور، ج٦، ص٢٤١؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج١٣، ص١٨٠.

(٥) النساء ٤/ ١٩؛ الطّبري، *جامع البيان في تفسير القرآن*، ج٣، ص٣٢٧ ـ ٣٢٨: «لا تعضلوا نساءكم لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن من غير ريبة، ولا نشوز، كان منهن، ولكن عاشروهن بالمعروف وإن كرهتموهن، فلعلكم أن تكرهوهن، فتمسكوهن، فيجعل الله لكم في إمساككم إياهنّ.
فعسى الله أن يجعل في الكراهة خيرًا كثيرًا. والخير الكثير: أن يعطف عليها، فيرزق الرجل ولدها، ويجعل الله في ولدها خيرا كثيرا».

(٦) البقرة ٢/ ٢١٦؛ الطّبري، *جامع البيان في تفسير القرآن*، ج٢، ص٣٨٧: «ولا تكرهوا القتال، فإنّكم لعلّكم أن تكرهوه وهو خير لكم، ولا تحبّوا ترك الجهاد، فلعلكم أن تحبّوه وهو شرّ لكم. يقول: إنّ لكم في القتال الغنيمة والظّهور والشّهادة، ولكم في القعود أن لا تظهروا على المشركين، ولا تستشهدوا ولا تصيبوا شيئا».
البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٦٤.

كما وجد الحسين بن عليّ التّشجيع المعنوي في كلام شيعته. فقد عبّر له جندب بن عبد الله على لسانهم عن وفائهم لآل البيت. فقال له إنّ الأمويّين سيعملون على طلب مودّتهم بكلّ الوسائل لكنّهم لن يساندوا «الظّالمين» و«المجرمين»[١]. فقد اعتبر الشّيعة الأمويّين ظالمين ومجرمين لأنّهم حسب رأيهم افتكّوا الخلافة من آل البيت. ثمّ اقترح عليه سليمان بن صرد الخزاعي وسعيد بن عبد الله الحنفي بالتّراجع عن الصّلح. لكنّه أجاب أنّ هذا أمر غير جائز. ومن الغد، ودّعه الشّيعة الأربعة وكانت ساعة الوداع مفعمة بالحزن وبالأسف وبالمرارة من الجانبين[٢].

نلاحظ أنّ مفهوم الشّيعة سينزلق أو ينتقل من المفهوم الذي يخصّ أصحاب عليّ بن أبي طالب إلى أصحاب الحسن بن عليّ. ثمّ سينحصر في أصحاب الحسين بن عليّ. وهو يعني في هذه الفترة بعد الصلح بين الحسن ومعاوية وتأسيس الدّولة الأمويّة، الوفاء للحسين بن عليّ لأنّه عبّر عن حفاظه على ذكرى أبيه عليّ وحقّه في الخلافة ـ على عكس الحسن ـ، وعلى حقّ آل البيت.

وفي رواية أخرى، أتت الشّيعة[٣] الحسن بن علي وطلبوا منه التّراجع في الصّلح فرفض. فقصدوا الحسين وطلبوا منه نفس المطلب الذي عرضوه على الحسن. فردّ عليهم الحسين بأنّه كان صلحا وكانت بيعة كرهها لكنّه طلب منهم أن ينتظروا ما دام معاوية حيّا، فإن مات ينظروا في الأمر[٤] (أي الحسين والشّيعة).

وعاش الشّيعة في فترة خلافة معاوية يقومون بالمغازي ويأخذون أعطيتهم على أمل أن يموت معاوية وتنتقل الخلافة للحسين.

كان الحسين مكرها على الصّلح وعلى البيعة لكنّه لم يخرج عن البيعة ما دام

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٦٤.

(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٦٤.

(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٦٤ لم يذكر البلاذري من هم الشّيعة، هل هم الأربعة أشخاص الذين كلّموا الحسين أم أنّهم أشخاص آخرين.

(٤) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٦٤ ـ ٣٦٥.

معاوية حيًا. وهذا يعتبر معطى هامّا. فالبيعة تربط الحسين رباطًا دينيًا ومعنويًا للإمام أي معاوية وبالتّالي تعتبر في عنق الحسين.

وركّزت رواية أخرى للبلاذري على شخص حجر بن عدي الكندي الذي كان أوّل من انتقد الحسن بن علي بشدّة على تسليمه بالصّلح. وطلب منه أن يتراجع عنه. لكنّ الحسن ذكر له أنّه جرّب الناس فوجدهم لا يشبهونه في وفائه وصدقه[١].

ثمّ أتى الحسين وطلب منه أن يترك الحسن ورأيه، ويجمع شيعته فيدْع قيس بن سعد بن عبادة[٢] ويبعثه في الرّجال. واقترح حجر على الحسين أن يكون هو على الخيل، فيحاربوا معاوية. فرفض الحسين الاستجابة لمطلب حجر بن عديّ على أساس أنّه بايع. ويعود هنا أيضا مفهوم البيعة بقوّة.

إنّ التّركيز على حجر دون غيره من الشّيعة دليل على المكانة التي يتمتّع بها في الكوفة، وربّما كان هذا تمهيدا من الشّيعة لذكر الدّور الذي سيلعبه حجر في ما بعد في الدّفاع عن حقّ الشّيعة تجاه السّلطة الأمويّة.

من هو حجر؟

هو حجر بن عديّ الكندي. وفد إلى النّبيّ مع أخيه هانئ بن عديّ. وساهم في معركة القادسيّة، كما فتح مرج عذراء[٣]. وكان من أصحاب عليّ بن أبي طالب وحارب معه في الجمل وصفّين[٤].

---

(١) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٣٦٥.

(٢) ابن سعد، *مصدر مذكور*، ج٦، ص١٢١ ـ ١٢٢: قيس بن سعد بن عُبادة بن دُليم من بني ساعدة بن كعب بن الخزرج. ولاّه عليّ بن أبي طالب مصر ثمّ عزله عنها، فقدم قيس المدينة ثمّ لحق بعليّ بالكوفة فلم يزل معه. وكان على شرطة الخميس. ولمّا قُتل عليّ أصبح مع الحسن بن عليّ. ولمّا صالح الحسن معاوية، رجع قيس إلى المدينة.

(٣) ياقوت، *معجم مذكور*، ج٤، ص٩١: عذراء قرية بغوطة دمشق من إقليم خولان. وبها قُتل حجر ابن عديّ الكندي وبها قبره، وقيل إنه هو الذي فتحها، وبالقرب منها راهط الذي كانت فيه الوقعة بين الزّبيرية والمروانية.

(٤) ابن سعد، *مصدر مذكور*، ج٦، ص٢٤١ ـ ٢٤٢.

أصبح حجر في عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان، وفي ولاية زياد بن أبي سفيان مُمثّل وقائد التيّار الشّيعي في الكوفة حيث اعتبرته الشّيعة «شيخهم وأحقّ النّاس بإنكار هذا الأمر[1]» أي قيام الدولة الأمويّة وخروج السّلطة من أيدي أبناء عليّ بن أبي طالب. وكانوا يجتمعون إليه ممّا دفع بزياد إلى تكليف أشراف الكوفة بكتابة شهادتهم عليه وعلى أصحابه بأنّه خلع الطّاعة، وفارق الجماعة[2]. كما أرسل هو وأصحابه إلى الشّام حيث أمر الخليفة معاوية بقتلهم[3].

يبدو أنّ مفهوم الشّيعة بدأ في التّبلور كمفهوم مرتبط بأبناء عليّ بن أبي طالب، الحسن ثمّ الحسين في مرحلة ثانية خاصّة بعد موت أخيه.

أصبح هذا التيّار الدّيني ـ السّياسي يتطوّر في نفس النّسق مع تطوّر الدّولة الأمويّة. ونشأ كتيّار معارض لها منذ نشأتها.

بعد موت الحسن بن عليّ[4]، اجتمعت الشّيعة ومعهم بنو جعدة بن هبيرة بن أبي وهب المخزومي، وأمّ جعدة أم هانئ بنت أبي طالب[5] في دار سليمان بن صرد (وهو على ما يبدو أكبر الشّيعة سنًا)، فكتبوا كتابًا للحسين يعزّونه فيه وصرّحوا له أنّهم شيعته. وبذلك ظهر مفهوم الشّيعة بعد موت الحسن كمفهوم مرتبط بالحسين بن عليّ.

التفّت الشّيعة بعد موت الحسن حول الحسين وبذلك تبنّى الشّيعة «الحقّ» الدّيني

---

(١) ابن سعد، *مصدر مذكور*، ج٦، ص٢٤٢.
(٢) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٢٦٩.
(٣) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٢٧٥.
(٤) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٣٦٦.
(٥) ابن سعد، *مصدر مذكور*، ج٨، ص١٢٠: هي أمّ هانئ بنت أبي طالب بن عبد المطّلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصيّ (أي اخت عليّ بن أبي طالب). وقد خطب النبيّ إلى أبي طالب ابنته أمّ هانئ في الجاهليّة، وخطبها هبيرة بن أبي وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم، فتزوّجها هبيرة. ثمّ أسلمت ففرّق الإسلام بينها وبين هبيرة فخطبها الرّسول إلى نفسها لكنّها اعتذرت على أساس أنّ لديها صبية وتخاف أن يُؤذوه. ولمّا أدرك بنوها عرضت نفسها عليه لكنّ الرّسول رفض لأنّ الله أنزل عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ﴾ الأحزاب: ٥٠، إلى قوله: ﴿ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ﴾ الأحزاب: ٥٠. ولم تكن من المهاجرات. وولدت لهبيرة بن أبي وهب جعدة وعَمرًا ويوسف وهانئًا بني هبيرة.

والسّياسي للحسين وأصبحوا شيعته. كما توسّع مفهوم أهل البيت فأصبح يشمل أبناء عمّة الحسين بن علي (بنو جعدة) الذين اجتمعوا في الكوفة مع شيعة الحسين وأرسلوا له يعلموه بتشيّع أهل الكوفة له، و «حبّهم لقدومه» و «تطلّعهم» إليه[1]. ونُسج هذا الارتباط بين الحسين بن عليّ وشيعته نسج بينهم بعاطفيّة كبيرة[2]: فما يُحزن الحسين يُحزنهم، وما يُفرحه يُفرحُهُم. وجدّد الشّيعة للحسين تمسّكهم بحقّه الدّيني والسّياسي «المنتظرة لأمرك».

نلاحظ تركيز أهل الكوفة دائما على حبّهم للحسين ورغبتهم في القدوم عليهم. ولنا أن نتساءل هل يكفي الحبّ والعاطفة لصنع التّاريخ؟ نشأت علاقة فريدة من نوعها بين أهل الكوفة والحسين.

فكتب إليهم الحسين بأنّه اتّخذ منهجًا سياسيًّا مختلفًا عن أخيه. فقد اتّبع الحسن «الموادعة»[3]، بينما اتّخذ الحسين «جهاد الظَلَمَة»[4]. ونصح الحسين شيعته بأن يُخفوا تشيّعهم ويحذروا من الوشاية ما دام «ابن هند[5]» حيّاً. والمقصود بابن هند معاوية بن أبي سفيان. وتدخل هذه التّسمية في إطار الشّتم والتّحقير من قيمة معاوية بالتّعريض بأمّه. ويضيف الحسين بأنّه إن تُوفّي معاوية وهو حيّ ـ أي الحسين ـ فهو سيقرّر ويُعلمهم بماذا سيفعل[6].

نلاحظ ارتباط الصّلة بين الحسين والشّيعة عن طريق الرّسائل. ولنا أن نتساءل هل كان الأمويّون غافلون عن هذه المراسلات في عهد الخليفة معاوية؟ هل كان ديوان البريد في العراق وفي الحجاز غافلاً عن هذه التحرّكات؟

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٦٦.
(٢) كانت هذه العاطفيّة، في تعامل الشّيعة بالكوفة مع الحسين بن عليّ، كثيرة الغموض وكانت في ما بعد عُرضة للتقلّب ككلّ شعور مرتبط بالعاطفة وليس لديه أساس عقلاني!.
(٣) ابن منظور، مصدر مذكور، ج٣، ص٩٠٠: والموادعةُ والتوادعُ: شبه المُصالحةِ والتَّصالُحِ.
(٤) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٦٦.
(٥) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص١١ هي هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف.
(٦) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٦٦.

وكان رجال من أهل العراق ورجال من أهل الحجاز ملثّمين أي يخفون هويّتهم خوفا من تفطّن السّلطة الأمويّة، يجتمعون للحسين بن عليّ «يُعظّمونه ويذكرون فضله»[1]، ويؤكّدون على مساندتهم له، وينتظرون موت معاوية ومبايعة النّاس كافّة للحسين. وكانوا لا يشكّون في ذلك أبدًا لمنزلة الحسين كأحد عناصر أهل البيت[2].

يبدو أنّ أهل العراق والحجاز التفّوا حول الحسين بن عليّ في عهد معاوية. وهو ارتباط سياسيّ ودينيّ وعاطفيّ ورمزيّ بشخصه. وسيحضّر هذا الارتباط لحركته بعد موت الخليفة معاوية. وستلفت هذه الحركة انتباه الأمويّين بالمدينة.

ردّ فعل السّلطة الأمويّة في عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان تجاه التحرّكات الشيعيّة في المدينة

كثر تردّد النّاس على الحسين بالمدينة، فلفت ذلك انتباه عمرو بن عثمان بن عفّان[3].

يعتبر عمرو بن عثمان أمويّ الإيديولوجيا، فهو ابن الخليفة المظلوم عثمان وختن معاوية أي زوج رملة[4]، وولدت له خالدًا وعثمان؛ وأُمُّهَا: كَنُود بنت قَرَظَة، أخت فاختة بنت قرظة[5]. وقد أخبر عمرو بن عثمان والي المدينة من قبل معاوية مروان بن الحكم بما يجري من تحرّكات شيعيّة لدى الحسين. كما أنّه نبّهه لإمكانيّة ثورته ضدّ الأمويّين.

فكتب مروان بذلك إلى الخليفة معاوية الذي ردّ عليه بكتاب أمره فيه بعدم مواجهة الحسين ما دام لم يواجهه ولم يظهر عداوته لمروان ممثّل السّلطة الأمويّة. كما أمره أن يراقبه بكلّ سريّة[6].

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٦٦.
(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٦٦.
(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٦٦.
(٤) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص١٢؛ مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص١١٠ ـ ١١١.
(٥) مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص١٢٨.
(٦) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٦٧.

يبرز من خلال هذا الخبر التّحالف والتّآزر داخل الأسرة الأمويّة ككلّ، بفرعها السّفياني وفرع أبي العاص بن أميّة[١] الذي ينتمي إليه مروان بن الحكم وعمرو بن عثمان. كان هذا التّآزر يهدف للمحافظة على السّلطة الأمويّة من منافسة بني هاشم.

ثمّ يتدخّل الخليفة معاوية بنفسه في مرحلة ثانية لدى الحسين حيث يرسل إليه رسالة يعلمه فيها أنّه وصلته عنه أمور يكرهها، فإن كانت حقّا فإنّه سيُطالبُه بها. وذكّره أنّه أعطاه عهد الله أي البيعة وهذه البيعة تُجبرُه على الوفاء. ونصحه بعدم إجباره على قطيعته والإساءة إليه لأنّه سيُجيبه بالمثل. كما نصحه باتّقاء الله وعدم شقّ عصا الأمّة وأن يرجع بالنّاس على يديه للفتنة.

وبين معاوية للحسين أنّه جرّب النّاس فوجد أنّ أباه أي عليّ كان أحسن منه أي من الحسين، وقد اجتمع إليه النّاس ـ أي الشّيعة ـ الذين يجتمعون إليه. وقد عصوا عليّا فلا يظنّهم يجتمعون إليه[٢]. وأنهى معاوية رسالته للحسين بأن نصحه «بأن ينظر لنفسه ولدينه»[٣]. ودعّم معاوية خطابه الإيديولوجي بآية من القرآن: ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾[٤].

ارتكز معاوية على خطاب إيديولوجي قرآني ويبدو أهل العراق وأساسًا أهل الكوفة بمنزلة الكافرين بمكّة في علاقتهم بالرّسول. وهنا يتناقض معاوية مع مبادئ الإيديولوجيا الأمويّة التي تعتّم على الرّسول، حيث ذكر آية متعلّقة به! فالحسين هو في نفس موقع النبيّ محمد في علاقته بأهل العراق وأساسا الشّيعة ـ شيعة عليّ ـ

---

(١) البلاذري، مصدر *مذكور*، ج٦، ص٩٥ ـ ٩٦.
(٢) البلاذري، مصدر *مذكور*، ج٥، ص١٢٨.
(٣) البلاذري، مصدر *مذكور*، ج٥، ص١٢٨.
(٤) الروم ٣٠/ ٦٠؛ الطّبري، *جامع البيان*، ج١٢، ص٧٠: «يقول تعالى ذكره: فاصبر يا محمد لما ينالك من أذاهم، وبلغهم رسالة ربك، فإن وعد الله الذي وعدك من النصر عليهم، والظفر بهم، وتمكينك وتمكين أصحابك وتباعك في الأرض حق. يقول: ولا يستخفن حلمك ورأيك هؤلاء المشركون بالله الذين لا يوقنون بالمعاد ولا يصدقون بالبعث بعد الممات، فيثبطوك عن أمر الله والنفوذ لما كلفك من تبليغهم رسالته».

التي شملها التّعتيم والتّهميش من قبل معاوية. فقد كان أهل العراق يدفعون الحسين حسب معاوية إلى الخلاف والخروج عن الدّولة.

فهل كان معاوية من وراء هذا التّوظيف الإيديولوجي يهدف أساسا لتثبيط الحسين عن تحالفه مع أهل العراق وبالتّالي لم يكن غرضه تمجيد صورة الرّسول لأنّها تضعف من شرعيّته التّاريخيّة؟

كما أنّ معاوية يؤرّخ لبداية علاقة صعبة بين أهل العراق والدّولة الأمويّة. وستبقى الأوضاع السّياسيّة والدّينيّة والعسكريّة بالعراق العصب الرّئيسي المحرّك والمؤثّر في الدّولة الأمويّة طيلة فترة انتصابها.

حاول معاوية من باب موقعه كخليفة أن يفرض سلطته ويحافظ على الطّاعة وعلى وحدة الأمّة من الدّخول في فتنة. وهي مفاهيم أساسيّة في الحكم في الإسلام. إضافة إلى أنّ الطّاعة هي إحدى المقوّمات الإيديولوجيّة الأمويّة[1]. كما كان معاوية متخوّفًا من رجوع النّاس للفتنة على يد الحسين، وقد كان شبح الفتنة الكبرى مازال مخيّمًا على الأمّة.

فقد بيّن في رسالته للحسين أنّه قادر على قطعه والإساءة إليه إذا هو بدأ بالقطيعة. من هنا، يبدأ معاوية تاريخا سياسيًّا جديدًا في إطار الدّولة الأمويّة. ويتمثّل هذا التّاريخ السّياسي الجديد في الفصل بين مصلحة الدّولة العليا وعلاقات القرابة والرّحم التي تُصبح ثانويّة إلى أبعد حدّ، إذا هدّد الأقارب السّلطة الأمويّة. وهذا مفهوم سيُطوّرُه في ما بعد الخليفة يزيد بن معاوية في علاقته بالحسين بن علي.

كما أنّ رسالة معاوية للحسين تذكّر ـ حفيد الرّسول ـ بدون شكّ بالخلاف الإيديولوجي الذي كان بين أبيه علي ومعاوية في الفتنة الكبرى.

فقد كان عليّ يدافع عن شرعيّته كخليفة لم يتحصّل على بيعة معاوية ـ والي

---

(١) بثينة بن حسين، مرجع مذكور، ص٣١٣ ـ ٣١٤.

الشّام من قبل الخليفة عثمان ـ [1]. وظلّ عليّ يتوقُ للتحصّل على البيعة في حربه لمعاوية. بينما دافع هذا الأخير على مبدأ القصاص لوليّه المظلوم عثمان[2]. وتذكّر خاصّة بهشاشة صفّ عليّ بن أبي طالب أي تقاعس رجاله عن مواصلة الحرب إلى جانبه [3]. وفي هذا كان معاوية مُحقًّا لكنّ التّصريح بذلك للحسين ابن عليّ هو نوع من الاستفزاز له ولمشاعره بما أنّ ذكرى الخلاف بين معاوية وأبيه ما زالت حاضرة بذهنه. وأجابه الحسين بكتابٍ حادّ اللّهجة، فذكر لمعاوية أنّ ما وصله عنه من أخبار هو من صنع أصحاب النّميمة. وبيّن له أنّه لا يُريدُ إعلان الحرب عليه أو الخلاف. وهو يتخوّف الله من ترك محاكمة معاوية إليه وكذلك محاكمة رجاله «الملحدين، وحزب الظالمين وأولياء الشياطين[4]». ويقصد الحسين برجال معاوية أساسًا زياد بن أبي سفيان. وعدّد الحسين لمعاوية التّجاوزات التي قام بها. فأوّلها قتل حجر بن عدي وأصحابه «المصلّين العابدين»[5]. واعتبر الحسين هذا القتل ظُلمًا وعُدْوانًا خاصّة أنّ معاوية منحهم الأمان. ويندرج رفض الحسين لهذا القتل في إطار الدّفاع عن شيعة عليّ بن أبي طالب وحجر هو أحدهم. كما أنكر الحسين على معاوية قتله عمرو بن الحمق، صاحب الرّسول الذي «أبلته العِبادة وصفّرت لونه وأنحلت جِسْمه»[6]. وهو أيضا من أصحاب عليّ.

وأعظم الحسين ادّعاء معاوية زياد بن سُمَيّة المولود على فراش عُبَيْد عبد ثقيف بينما زعم معاوية ـ حسب تعبير الحسين ـ أنّه ابن أبي سفيان بن حرب ـ أب معاوية ـ ويعتبر الحسين هذا التصرّف تجاوزا متعمّدًا للسنّة النبويّة، فقد قال الرّسول: «الولد للفِراش وللعاهِرِ الحَجَرُ[7]»، كما أكّد الرّسول على أنّ: «من

(١) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٧٨.
(٢) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٦٧ رسالة معاوية إلى عليّ قبل صفّين.
(٣) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص١٥٤ ـ ١٥٥.
(٤) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص١٢٨ ـ ١٢٩.
(٥) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص١٢٩.
(٦) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص١٢٩.
(٧) البخاري، *صحيح البخاري*، دار الجيل، بيروت، ١٣١٣هـ، ج٣، ص٢٠٥؛ الإمام أبو الحسين مسلم =

الحق بقومٍ نسبًا ليس لهم فهو ملعون».

وفي هذا الإطار، لا ننسى أنّ زياد بن عبيد ـ أي قبل استلحاقه من معاوية ـ كان من رجال عليّ بن أبي طالب، فتولّى ولاية فارس. ولمّا قُتل عليّ وصالح الحسن معاوية الذي أنشأ الدّولة الأمويّة، تحصّن زياد بقلعة في فارس. لكنّ زياد رفض الدّخول في طاعته، واستعمل معاوية معه القوّة حيث بعث بُسر بن أبي أرْطاة للبصرة فحبس أبناء زياد ليقتلهم.

وهدف هذا التّهديد إلى تخويف زياد حتّى ينضوي إلى صفّ معاوية، وانفرجت الأزمة بتدخّل أبو بكرة أخ زياد الذي قصد معاوية بدمشق وتحصّل على أمان لزياد. وانقلبت الوضعيّة لصالح معاوية حيث تمكّن المغيرة بن شعبة الثّقفي ـ وهو أيضًا من دهاة العرب ـ وصديق زياد من ربط الصّلة بين الخليفة وآخر حليف وعامل لعليّ.

وترجع الصّداقة الرّابطة بين المغيرة وزياد إلى حادثة الزّنا التي ذُكرت عنه، فقد كان زياد ضمن الشّهود الأربعة فلمّا نظر إليه الخليفة عمر بن الخطّاب وقال بأنّه يرى رجُلاً لا يفضح الله به رجلا من أصحاب محمّد. فتراجع زياد عن الإدلاء بشهادته وتمكّن بذلك عمر من تبرئة المغيرة[١].

وحفظ له المغيرة ذلك في نفسه، ونجح في ربط حبله بحبل معاوية[٢]. ويبدو

= بن الحجّاج القُشيريّ النّيسابوريّ، مصدر مذكور، ج٢، ص١٠٨٠ ـ ١٠٨١ «(الولد للفراش وللعاهر الحجر) قال العلماء: العاهر الزاني. وعهر زنى. وعهرت زنت. والعهر الزنى. ومعنى: له الحجر: أي له الخيبة، ولا حقّ له في الولد. وعادة العرب أن تقول: له الحجر، وبفيه الأثلب، وهو التّراب، ونحو ذلك، يريدون ليس له إلاّ الخيبة. وقيل المراد بالحجر، هنا، إنّه يرجم بالحجارة. وهذا ضعيف. لأنّه ليس كلّ زان يرجم، وإنّما يرجم المحصن خاصة، لأنه لا يلزم من رجمه نفي الولد عنه. وأمّا قوله صلّى الله عليه وسلّم «الولد للفراش» فمعناه أنه إذا كان للرجل زوجة أو مملوكة صارت فراشًا له، فأتت بولد لمدة الإمكان منه، لحقه الولد. وصار ولدا يجري بينهما التّوارث وغيره من أحكام الولادة، سواء كان موافقا له في الشبه أم مخالفًا. ومدة إمكان كونه منه ستة أشهر من حين أمكن اجتماعهما».

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٢٠٠.

(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٢٠١.

أنّ فكرة الاستلحاق كانت خُدعة من زياد لمعاوية بعد أن دخل في طاعته حيث طلب من مصقلة بن هبيرة الشّيباني[١] ـ وهو أحد أشراف العراق ـ أن يذكر على مسامع معاوية بأنّ زيادًا أعطاه ألفي ألف من مال فارس بينما هو خدعه. فما تقول النّاس من أنّه ابن أبي سفيان حقّا[٢].

أراد زياد أن يكتسب شرعيّة تاريخيّة تتمثّل في شرف الانتماء لبني أميّة ـ الفرع الأكثر شرفا في قريش ـ كما أنّ زياد كان مُدركا للطّابع الأرستقراطي والعربي الذي يميّز المجتمع والدّولة حيث اتّخذ الأمويّون إيديولوجيا الدّولة العربيّة كإحدى مقوّمات إيديولوجيّتهم[٣].

ويعبّر موقف زياد عن طموحه لمشاركة الأمويّين في دنيويّة حكمهم لأنّه كان عمليّا وسياسيّا مثلهم. ولم يكن ولاؤه لعليّ ولاء عاطفيّا كولاء الشّيعة بل كان مجرّد تحالف سياسي انتهى بمجرّد تحصّل زياد على امتيازات جديدة في ملك معاوية.

كما كان معاوية في حاجة إلى رجال يمنحهم مسؤوليّات هامّة في الدّولة ولديهم خصائص زياد.

ويبدو أنّ معاوية كان يُريد استلحاق جُنادة بن أبي أميّة الأزديّ أخا مثل ما فعل مع زياد. وهو من أهمّ قوّاد معاوية وكان يقوم بالصّوائف. لكنّ جنادة رفض[٤].

وعلى هذا الأساس، ادّعى معاوية زيادا. وكان الخليفة حريصًا على هذا الحليف الجديد الذي يتمتّع بدرجة كبيرة من الدّهاء وحسن التّسيير والتّجربة في الدّواوين بما أنّه كان كاتبا لدى المغيرة بن شُعبة الثّقفي.

كانت فكرة الاستلحاق فكرة سياسيّة موجودة في المحيط الثّقافي والسّياسي

---

(١) ابن حزم، مصدر مذكور، ص٣٢١: هو من بكر بن وائل.
(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٢٠١.
(٣) بثينة بن حسين، مرجع مذكور، ص٣٣١ ـ ٣٣٢.
(٤) ابن حزم، مصدر مذكور، ص٣٨٦.

الرّوماني، وقد نُفّذت للمحافظة على المؤسّسات والحكم. وكان معاوية متأثّرًا بالتّقاليد السّياسيّة البيزنطيّة فلم يجد حرجًا في تنفيذ هذه الفكرة بعد «مشهد مسرحي» جمع فيه الشّهود الذين شهدوا على مواقعة أبي سفيان بن حرب في الجاهليّة لبغيّ وهي سُميّة أمّ زياد[١].

بينما وجّه الحسين أصابع الاتّهام لمعاوية على هذا الاستلحاق لتغييبه للسنّة النبويّة[٢]، وهذا متعلّق أيضا بالمقوّمات الإيديولوجيّة للدّولة الأمويّة. فقد غيّب الخلفاء السفيانيّون بصفة عامّة السنّة النبويّة لإحساسهم بنقص في شرعيّتهم التّاريخيّة، وركّزوا إيديولوجيا خليفة الله في خطبهم كما ذكرت كرون[٣].

على هذا الأساس، لم يكن الحسين ليتفهم هذه العقليّة السّياسيّة الأمويّة، وهذا التطوّر الذي عرفه الحكم الأموي نظرًا لقناعاته الدّينيّة القويّة التي تنصّ عليه نموذجا سياسيّا دينيّا مستمَدّا من دولة النبيّ.

وسلّط معاوية زيادًا على أهل العراق «فقطع أيدي المسلمين وسمل أعينهم، وصلبهم على جذوع النّخل» كأنّه ليس من هذه الأمّة وليست منه[٤].

أدخل زياد عامل معاوية بالعراق جذور العنف السّياسي الذي يتنزّل في إطار العقاب ـ عقاب الدّولة للمعارضين السياسيّن. التي سيدعّمها فيما بعد الحجّاج بن يوسف الثّقفي.

أصبحت الدّولة الأمويّة مثل الإمبراطوريات الرومانيّة[٥]، . . . .

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٢٠٢ ـ ٢٠٣.

(2) Pierre Bonte,Edouard Conte,Constant Hamès, Abdel Wedoud Ould Cheik, *Al-Ansâb la quête des origines anthropologie historique de la société tribale arabe*,Editions de la maison des sciences de l'homme,Paris,1991,p.88.

(٣) بثينة بن حسين، مرجع مذكور، ص٣٢٧.
Crone Patricia & Hinds Martin, *God's Caliph Religious Authority in the First Centuries of Islam*, Cambridge, 1986,p.28.

(٤) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص١٢٩.

(5) Jean-Pierre Callu, Le jardin des supplices au Bas-Empire, in *Du châtiment dans la cité supplices corporels et peine de mort dans le monde antique*, collection de l'Ecole Française de Rome =

والبيزنطيّة[1] والفارسيّة تسيطر على الجسد وتعاقبه بشتّى أنواع التّعذيب (تقطيع الأيدي وسمل العيون والصّلب). وفي هذا تطوّر لمؤسّسات الدّولة الردعيّة على غرار الملكيّات القديمة.

ويدخل هذا العنف في إطار إبراز الطابع المسرحي للعنف السّياسي ومن ورائه هيبة الدّولة وسطوتها ومقدرتها على التحكّم في أجساد المعارضين لسلطتها[2]. بينما كان الحسين لديه تصوّر إسلامي وقرآني للجسد ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ۝٧﴾[3]. فالتّعذيب محرّم بما أنّ الجسم خلقه الله ويحرّم التّمثيل بما خلقه الله. فالجسد لديه حرمة، وقد اخترق الأمويّون هذه الحرمة.

نلاحظ وجود مفارقة كبيرة بين فلسفة الأمويّين في الحكم والتصوّر الدّيني للعالم لدى الحسين بن عليّ. كما لم يغفر الحسين لمعاوية قتله لحجر بن عديّ وأصحابه غدرًا بعد أن منحهم الأمان. فيكون معاوية أوّل خليفة أموي تجاوز هذا المعطى الانتروبولوجي الهامّ الجاهلي ثمّ الإسلامي. وهو يدخل في إطار الأخلاقيّات والقيم القبليّة. وسيتبعه في ذلك الخليفة عبد الملك بن مروان عندما قتل ابن عمّته عمرو بن سعيد الأشدق بعد أن منحه الأمان[4].

كما نقض معاوية شروط الصّلح بينه وبين الحسن الذي يقضي بأن لا يتعرّض لرجاله فقتل الشّيعة (حجر وأصحابه) الذين لم يقاتلوه أو يتعرّضوا له. وسارع

= 79,table ronde organisée par l'Ecole française de Rome avec le concours du Centre national de la recherche scientifique (Rome 9-11 novembre 1982),Ecole Française de Rome, 1984, p. 313-359 ;.

Michel Foucault, *Surveiller et punir*, tel Gallimard, Paris, 1975,p.19.

(1) Evelyne Patlagean, "Byzance et le blason pénal du corps, in *Du châtiment dans la cité supplices corporels et peine de mort dans le monde antique*" collection de l'Ecole Française de Rome 79,table ronde organisée par l'Ecole française de Rome avec le concours du Centre national de la recherche scientifique (Rome 9-11 novembre 1982), Ecole Française de Rome, 1984,p.405-427.

(2) Michel Foucault,*Idem* ,p.18.

(٣) السّجدة ٣٢ / ٧.

(٤) البلاذري، مصدر مذكور، ج٦، ص٦٠.

معاوية بكلّ ما أوتي من قوّة حسب الحسين للقضاء قضاء مبرمًا على شيعة عليّ[1]. وفي نقض الصلح غدر وإدخال لتقاليد جديدة لم يعرفها العرب ونهى عنها الإسلام. وقد كان زياد بن أبي سفيان المنفّذ لسياسة معاوية في خصوص حجر بن عديّ وأصحابه.

ومن الغريب أنّ زياد كان قبل التحاقه بصفّ معاوية عاملا لعليّ. كما كان آخر معقل للمقاومة ورفض سيطرة معاوية. كما كان صديقًا لحجر، لكنّ تغيّر الظّروف وتقلّد زياد للسّلطة الأموية جعله يغيّر طبيعة علاقته بصديقه القديم. ويعبّر زياد عن علاقته القديمة بعليّ بن أبي طالب: «يا هذا كنّا على ما علمتَ، وقد جاء أمر غير ذلك، أمْسِك عليك لسانَك، ولَيسعْك منزلُك»[2]. وفي خبر آخر يقول زياد لحجر: «يا أبا عبد الرحمن إنّ الأمر الذي كنّا فيه مع عليّ كان باطلاً، وإنّما الأمر ما نحن فيه الآن، فقال حُجْر: كلاّ والله يا أبا المغيرة، ولكنّ الدّنيا استمالتك وأفسدتك[3]».

يجعل زياد تحالفه القديم مع عليّ أمرًا باطلاً[4]. فالحقّ إذا هو تحالفه مع الدّولة الأمويّة. وهذا الخطاب هو خطاب إيديولوجي يدعّم الشّرعيّة الأمويّة على حساب عليّ بن أبي طالب. وأجابه حجر من منطلق إيديولوجيا دينيّة قرآنيّة حيث اعتبر أنّ زياد أفسدته الدنيا وجلبته والمقصود بالدّنيا السّياسة أو الدنيويّة التي ظهرت منذ فترة عثمان. وتتعارض هذه الإيديولوجيا الدّينيّة مع إيديولوجيا الدّولة. ممّا حوّل هذه الصّداقة إلى عداوة. كما أنّ زياد أصبح يدعو النّاس للعن عليّ والبراءة منه[5]، وذلك في إطار تقوية الشرعيّة الأمويّة.

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص١٣٠.

(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٢٥٥.

(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٢٥١.

(٤) ابن منظور، مصدر مذكور، ج١، ص٢٢٧: الباطل نقيض الحقّ. وأبْطَلت الشيءَ: جعلته باطلاً. وأبطل فلان: جاء بكذب وادّعى باطلاً.

(٥) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٢٨٤.

وهنا نلاحظ أنّ بذور الفتنة الثّانية موجودة منذ فترة معاوية نظرا لكبر الهوّة واتّساعها بين عقليّتين مختلفتين: عقليّة سياسيّة يمثّلها الأمويّون و تهدف لتركيز إيديولوجيا الدّولة و سلطتها، وعقليّة دينيّة يُمثّلها الحسين بن عليّ وأبناء الصّحابة والقرّاء. على أنّ الأمويّين كانوا مُتديّنين وعمِلوا على تركيز ونشر الإسلام عن طريق الفتوحات. فما يعتبره الحسين ظلما وعدوانا على حُجر بن عديّ وأصحابه، يعتبره معاوية خلع للطّاعة وتفريق للجماعة ودعوة للحرب والفتنة. وما يعتبره الحسين غدرا ونقضا للصّلح يراه معاوية أمرا أساسيّا لحفظ الدّولة والدّفاع عن إيديولوجيّتها.

كما أنّ الحسين أنكر على معاوية قتل عمرو بن الحمق. وهو عمرو بن الحمق بن الكاهن الخُزاعي. صحب النبيّ، واستقرّ بالكوفة وشارك عليّا في مشاهده. وكان فيمن سار إلى عثمان وأعان على قتله[1]. وهو يعتبر من الشقّ المصري «المتطرّف»[2]. وكان من أصحاب حجر بن عديّ فهرب من زياد واحتمى بجبل في الجزيرة، فقبض عليه عبد الرحمن بن أمّ الحكم أخت معاوية ـ عامل معاوية على الموصل والجزيرة[3] ـ فكتب إلى خاله معاوية بأنّه قبض عليه، فأمره الخليفة بأن يطعنه تسع طعنات كما طعن الخليفة عثمان بن عفّان، فطُعِن تسع طعنات مات في الأولى منهنّ أو الثّانية. وربّما اتّخِذت له مشاقِص[4] فطُعن بها كما فعل بعثمان. ففي روايته لمقتل عثمان يذكر البلاذري ما يلي: «وقعد عمرو بن الحَمِق الخُزاعي على صدره فَوجَأه[5] تسع وجآت بمشاقص كانت معه

---

(١) ابن سعد، مصدر مذكور، ج٦، ص١٠١.

(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٦، ص٢١٩.

(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٢٨٢.

(٤) ابن منظور، مصدر مذكور، ج٢، ص٣٤١: المِشْقَصُ: نصلُ السّهم إذا كان طويلاً غيرَ عريض. والمِشْقصُ على النصف من النَّصْل ولا خير فيه يلعَب به الصبيانُ وهو شرُّ النّبل وأحْرَضَهُ، يُرْمى به الصيد وكلّ شيء ولا يُبالى انْفِلاله.

(٥) ابن منظور، مصدر مذكور، ج٣، ص٨٤٤: وجَأهُ باليد والسكّين وجْأً: ضَرَبَهُ.

فكان عمرو يقول: طعنتُهُ تسع طعنات علمتُ أنّه مات في ثلاث منهنّ، ولكنّي وَجَأْتُه السّتّ الأُخَر لِما كان في نفسي عليه من الحَنَق والغيظ»[١]. أراد معاوية تطبيق القصاص لوليّه المظلوم[٢] بقتل كلّ من قتل عثمان وبنفس الطّريقة.

على هذا الأساس، كانت الفتنة الأولى مؤثرّة برمزيّتها الدينيّة والسّياسيّة والإيديولوجيّة ووقائعها على الفتنة الثّانية بما أنّ الدّولة الأمويّة اعتمدت من القصاص للخليفة المظلوم أساسا إيديولوجيّا لها. كما أنّ مقتل عثمان كان انفكاكا للعقدة كما ذكر ذلك الأستاذ هشام جعيّط، وابتداء للفتنة الهوجاء[٣].

وكان رأسه (أي رأس عمرو بن الحمق) أوّل رأس حُمل في الإسلام من بلد إلى بلد[٤] وأُهدِي لمعاوية فنصبه للنّاس ثمّ بعث به إلى امرأته التي كانت بدورها محبوسة لدى معاوية. فقد حُبست الزّوجة بجرم زوجها ونفيت بعد مقتله لحمص حيث ماتت بها[٥]. وهو أمر جديد ويدخل في إطار الأنتروبولوجيا السياسيّة، فقد ابتدع معاوية تقاليد سياسيّة جديدة بحبس زوجة المعارض السّياسي. فالسّجن كأداة للعقاب السّياسي أصبحت تخصّ النّساء والرّجال على السّواء. وهذا تطوّر جديد للسلطة الأمويّة في أوّل تكوينها. كما قلّد معاوية البيزنطيّين (الذين قلّدوا بدورهم الرّومان) في حزّهم لرؤوس أعدائهم السياسيّين ونصبها للنّاس كتعبير عن انتصار سياسيّ للدّولة[٦].

---

(١) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٦، ص٢٠٣.
(٢) بثينة بن حسين، *مرجع مذكور*، ص٢٨٨ ـ ٢٨٩.
(٣) هشام جعيط، *الفتنة*، ص١١٤ ـ ١٢٢.
(٤) ابن سعد، *مصدر مذكور*، ج٦، ص١٠٢.
البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٢٨٢.
(٥) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٢٨٢.
(6) Jean-Louis Voisin, "Les Romains, chasseurs de têtes,in *Du châtiment dans la cité supplices corporels et peine de mort dans le monde antique"*, collection de l'Ecole Française de Rome 79, table ronde organisée par l'Ecole française de Rome avec le concours du Centre national de la recherche scientifique (Rome 9-11 novembre 1982), Ecole Française de Rome, 1984,p.241-293;. Jacques Le Goff Nicolas Truong, *Une histoire du corps au Moyen Age*, Liana Levi, Paris, 2003,p.175.

كما يندرج حزّ الرّأس في إطار تقليد سياسي قوامه تطوّر السّلطة السياسيّة أو سلطة الدّولة التي جعلت من جسد المعارض السّياسي أداة لإبراز هيبتها: فتعذيب جسد المعارض وحزّ رأسه هو جانب من جوانب هذه الهيبة حسب تحليل الفيلسوف الفرنسي ميشال فوكو(١).

وأصبح عنف الفتنة الأولى الأعمى الذي وظّفه الثوّار ضدّ عثمان، موظّفا في الفترة المؤسّسة للدّولة الأمويّة من قبل معاوية. وهذا العنف سيتفجّر ضدّ الدّولة في حركات المعارضة. كما أنّ الدّولة ستُطوّر آلة العنف السّياسي لحماية نفسها أي إيديولوجيّتها وكينونتها.

ووضّح له الحسين أنّ دين عليّ هو دين محمد الذي كان يقاومه أب معاوية، أبو سفيان بن حرب. واعتبر الحسين معاوية «منتحِلا(٢)» للدّين الإسلامي(٣). كما ذكّره أنّه من الطّلقاء ولولا الإسلام لبقي تاجرا يقوم بالرّحلتين لطلب الخمور. يحيل الحسين على النّشاط التّجاري الذي كان يتّبعه أبو سفيان(٤). يهدف الحسين بالتّعريض بالخمر لتأكيد شرب الخمر من قبل معاوية وابنه يزيد. بينما يدخل الخمر في إطار لذّة الحكم والسّلطة(٥). وهذا أمر يتعارض مع الأخلاقيّة الدينيّة للحسين.

يعرّض الحسين بطريقة دخول معاوية للإسلام ومن ورائه الأمويّين أساسا أبو سفيان بن حرب ـ أب معاوية وأحد أسياد قريش وقائدها في حروبها ضدّ النبيّ أحد والخندق(٦) ـ فهم من الطّلقاء ومن المؤلّفة قلوبهم.

---

(1) Michel Foucault, *Idem*, p.19.

(٢) ابن منظور، *معجم مذكور*، ج٣، ص٥٩٨: انتحَلَ فلان شِعر فلانٍ أو قولَ فلان إذا ادّعاه أنّه قائله. وتنحلّه: ادّعاه وهو لغيره. وفلان يَتحلُ مذهب كذا وقبيلة كذا إذا انتسب إليه.

(٣) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص١٢٩.

(٤) هشام جعيط، *تاريخيّة الدعوة المحمّدية في مكّة*، ص١٢٩ ـ ١٣٢.

(5) Paul Veyne, *Le pain et le cirque sociologie historique d'un pluralisme politique*, Seuil,Paris,1976, p.681.

(٦) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص١٢.

فقد شرّفه الرّسول في الإسلام بعد فتح مكّة بقوله: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن»[١]. كما خاطب الرّسول الأرستقراطيّة المكيّة: «. . . يا معشر قريش، ويا أهل مكّة؛ ما تُرَوْنَ أنى فاعلٌ بكم؟ قالوا: خيرًا، أخ كريمٌ وابن أخ كريم. ثم قال: اذهبُوا فأنتم الطُّلَقاء»[٢].

ويفسّر الطبري معنى كلمة الطّلقاء بأنّها تعني عتق الرّسول لهم بعد أن أمكنه الله من رقابهم عَنْوة، وكانوا له فيئًا.

لم يُسلم أبو سفيان ومعاوية إلاّ بعد فتح مكّة مقارنة بعليّ أو بقيّة الصّحابة الذين كان لديهم سابقة وقدمة في الإسلام. كما أنّ الرّسول «تألّف قلوبهم»[٣] أي منح عناصر الأرستقراطيّة القرشيّة ومن بينها أبو سفيان وابنه معاوية من أموال هوازن حتى يربط الصّلة بهم ويربطهم بالدولة النبويّة النّاشئة[٤]. وبالتّالي كان إسلامهم إسلاما مصلحيًا ولقضاء أغراضهم الماديّة[٥].

ودخلت هذه النّقاشات في الفترة العبّاسيّة في إطار التّعتيم على الأمويّين والإنقاص من شرعيّتهم التّاريخيّة فهم دخلوا كرها في الإسلام ولقضاء مصالح ماديّة بحتة. كما يعرّض الحسين بالنّشاط التّجاري لأبي سفيان في الجاهليّة وهو النّشاط التّجاري (التّجارة للشّام والحيرة) والتّجارة في جنوب الجزيرة العربيّة أي اليمن.

ذكّر الحسين معاوية بماضيه الجاهلي وبضعف سابقته وقدمته ليحقّر من قيمة دينه.

يبدو أنّ طبيعة الصّراع انقلبت إلى صراع قبلي سياسي وإيديولوجي داخل قريش بين بني هاشم وبني أميّة. فمن هو أفضل؟ علي أو معاوية؟ فعلي هو من أهل البيت يتمتّع بسابقة وبقرابة ورحم ماسّة بالرّسول وبالتّالي لديه هالة قُدسيّة محاطة به.

---

(١) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٥٤ ـ ٥٥.
(٢) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٦١.
(٣) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص١٨.
(٤) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٩٠.
(5) Isaac Hasson, "La conversion de Mu'âwiya Ibn Abî Sufyân", *Jerusalem Studies in Arabic and Islam*,22 (1998) p.220.

وقد وظّف الشيعة هذا الصّراع بين بني أميّة و بني هاشم و جعلوه صراعًا قديمًا منذ الجاهلية واشتدّ في الإسلام[1]. وحقّروا من الأمويّين وشكّكوا في إسلامهم. كما سعى الأمويّون لتقوية شرعيّتهم التّاريخيّة فروّجوا أحاديث للرّسول تذكر فضل أبي سفيان ومعاوية[2]. كما وضع الحسين نفسه موضع المنتمي لأهل البيت فأصبح يلقّن معاوية حقيقة الإسلام والدّين. وانقلبت الوضعيّة والصّورة حيث أصبح معاوية ـ خليفة المسلمين ـ في قفص الاتّهام.

وردّ الحسين على معاوية الذي خوّفه من شقّ عصا الطّاعة وردّ النّاس إلى الفتنة، أجابه الحسين بأنّ أعظم فتنة بالأمّة هي ولاية معاوية عليها.

ماذا يقصد الحسين بالفتنة[3]؟ هل يقصد المفهوم القرآني والمفهوم الوارد في السنّة؟

وردت كلمة الفتنة ثلاثين مرّة في القرآن[4]. فنذكر على سبيل المثال ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾[5]. كما ذكرت كلمة فتنة في سياق آخر ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾[6].

---

(١) المقريزي، *كتاب النّزاع والتّخاصم فيما بين بني أميّة وبني هاشم*، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٤، ص٢٧ ـ ٣٧ ـ ٥٢.

(2) Isaac Hasson, Idem,p.229.

(٣) ابن منظور، *معجم مذكور*، ج٢، ص١٠٤٩ ـ ١٠٥٠: فتن: جماع معنى الفتنة الابتلاء والامتحان والاختبار، وأصلها مأخوذ من قولك فَتَنْتُ الفضّة والذّهب إذا أذبتهما بالنّار لتميز الرديء من الجيّدِ. والفَتْنُ: الإحراقُ، ومن هذا قوله عز وجلّ: يوم هم على النّار يُفتنونَ؛ أي يُحرقُون بالنّار. ويسمّى الصّائغ الفتّان، وكذلك الشيطان. الفِتنة الاختبار، والفتنة المِحْنة، والفتْنةُ المال، والفتنةُ الأولادُ، والفتنةُ الكُفرُ، والفتنةُ اختلافُ الناس بالآراء، والفتنة الإحراق بالنار؛ وقيل: الفتنة في التّأويل الظُّلم. يقال: فلان مفْتونٌ بطلب الدنيا قد غَلا في طلبها. الفتنة: الخبرةُ. والفتنة إعجاب الكفّار بكفرهم.
ويقال: فتنَ الرجلُ بالمرأة وافْتتن. فتنتهُ المرأةُ إذا ولّهتْهُ وأحبّها. المفتون الذي فُتنَ بالجُنون. وفتن إلى النّساء فُتُونًا وفُتن إليهن: أراد الفُجُور بهنّ. والفتنة: الضّلال والإثم. الفاتن: المضلّ عن الحقّ. والفاتن: الشيطان لأنّه يُضلّ العباد. وقوله تعالى: الفتنة أشدّ من القتل، معنى الفتنة ههنا الكفر، والفتنة: الفضيحة. والفتنة ما يقع بين النّاس من القتال. والفتنة: القتل.

(٤) محمد فؤاد عبد الباقي، *معجم مذكور*، ص٥١٢.

(٥) البقرة ٢/ ١٩٣.

(٦) الأنفال ٨/ ٧٣.

وذكرت الفتنة في السنّة: «حدّثنا عبيد الله بن موسى عن الأعمش[1] عن شقيق قال كنت مع عبد الله وأبي موسى فقالا قال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم إنّ بين يَدي السّاعةِ لأيّامًا ينزل فيها الجهلُ، ويُرفعُ فيها العلمُ، ويَكثر فيها الهَرْجُ، والهَرْجُ القَتْلُ»[2].

ويتعارض مفهوم الفتنة لدى الحسين مع مفهوم الفتنة لدى معاوية، فكلّ طرف لديه إيديولوجيا معيّنة للفتنة.

إنّ مفهوم الفتنة يفرض وجود مفهوم الفئة[3] الباغية. أي أنّ هناك فئة مؤمنة بالله وفئة كافرة به ﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾[4].

على هذا الأساس، أباح الحسين لنفسه الحقّ في جهاد معاوية لأنّه متسبّب في الفتنة. وهذا المفهوم هو مفهوم جديد أفرزته الفتنة كظاهرة خلاف بين المسلمين.

فهل ظهر مفهوم الجهاد[5] في الفتنة الأولى؟ وما هو مفهومه؟ هل هو جهاد الفئة الباغية؟

ظهر الجهاد في الفتنة الأولى ففي صفّين قاتل الصحابي عمّار بن ياسر في صفّ عليّ وكان يدعو المقاتلة إلى الجنّة[6]. وفي هذا جهاد. كما أنّ مفهوم الفئة الباغية ظهر في الفتنة الأولى، فعندما قتل عمّار، قال عبد الله بن عمرو بن العاص بأنّه سمع الرّسول يقول: «تقتل عمّار الفئة الباغية»[7]

الجهاد بالمفهوم القرآني: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾[8]

---

(١) ابن سعد، مصدر *مذكور*، ج٦، ص٣٣١ ـ ٣٣٢: الأعمش واسمه سليمان بن مهران ويكنّى أبا محمّد الأسدي مولى بني كاهل. شهد أباه مقتل الحسين بن عليّ. وكان الأعمش صاحب قرآن وفرائض وعلم بالحديث».

(٢) البخاري، *صحيح البخاري*، ج٣، ص٦١.

(٣) ابن منظور، معجم *مذكور*، ج٢، ص١١٥٢: الفئةُ: الطائفةُ أو الفرقة.

(٤) آل عمران ٣/ ١٣.

(٥) ابن منظور، معجم *مذكور*، ج١، ص٥٢١: وجاهد العدوّ مجاهدة وجهادا: قاتله وجاهد في سبيل الله.

(٦) البلاذري، مصدر *مذكور*، ج٣، ص٩٥.

(٧) البلاذري، مصدر *مذكور*، ج٣، ص٩٢.

(٨) الفرقان ٢٥/ ٥٢.

و﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى﴾[1]. لم يعد الجهاد موجّها ضدّ الكافرين بل ضدّ المسلمين الخارجين عن مبادئ الإسلام.

وبذلك ظهرت مفاهيم جديدة وتصوّرات إيديولوجيّة جديدة أفرزتها الفتنة الأولى وتواصلت في الفتنة الثانية. وتعتبر هذه المراسلة بين معاوية والحسين (أي كتاب الخليفة للحسين وردّ الحسين على هذا الكتاب) «نصّا تأسيسيًّا لمبادئ الفتنة الثّانية» إن صحّ التّعبير.

أدّت جدليّة الفتنة الثّانية إلى خلق «لغة» أو «معجم» خاصّ بها استمدّ جذوره من الفتنة الأولى، وسنرى إن كان هذا المعجم قد تطوّر في هذه الفترة.

يبدو شبح الفتنة الأولى مخيفا للطّرفين سواء معاوية أو الحسين حيث بقيت جراح الفتنة الكبرى عميقة ولم تندمل بعد. وبقي التوتّر بين آل علي أساسا الحسين ومعاوية خصم علي في الفتنة الأولى[2]. وتطفو على السّطح شعارات ومبادئ الفتنة الأولى وهي مبادئ قرآنيّة يوظّفها كلّ طرف لمصلحته أو يقرأ القرآن قراءة خاصّة من زاويته الخاصّة.

وعاب الحسين على معاوية أخذه بالظِنَّة[3] وقتله النّاس على الشّبهة والتّهمة، وإجباره النّاس على البيعة لابنه «غلام سفيه يشرب الشراب ويلعب بالكلاب»[4]. إذ اعتبر الحسين معاوية غير عادل في حكمه على النّاس وغير متثبّت من صحّة التّهم الموجّهة إليهم. وهو يُصدر حكمه بقتل النّاس بكلّ بساطة. بينما من وجهة نظر معاوية ورجال دولته أساسا زياد كان هذا التصرّف يُعتبر حزمًا وضبطًا لأمور

---

(١) الممتحنة ٦٠/ ١.

(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص١١ طالب معاوية بالقصاص للخليفة المقتول عثمان على أساس أنّ عليّ آوى قتلته.

(٣) ابن منظور، معجم مذكور، ج٢، ص٦٥٥: الظنّ شكّ ويقين إلاّ أنّه ليس بيَقين عِيَانٍ، إنّما هو يقين تدبُّرٍ. وفي الحديث: إياكم والظنّ فإنّ الظّنّ أكذبُ الحديث؛ أراد الشكّ يَعْرِضُ لك في الشيء فتحققه وتحكم به. الظِنَّة التُّهمة.

(٤) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص١٣٠.

الدّولة حتّى يهابه النّاس ويستتبّ الأمن أساسًا بالعراق. فقد بيّن زياد برنامجه السّياسي في خطبة لأهل البصرة[1]، وهو برنامج مبنيّ على العنف والقوّة المبرمة والتّهديد والوعيد لسيادة العصبيّة القبليّة في البصرة. فكان على زياد أن يمحو آثار الجاهليّة ويعيد تركيز مبادئ «الإسلام» ويضع مبادئ الدّولة الجديدة. وقد أعطت هذه السّياسة أُكلها واستتبّ الأمن بالعراق[2]!

لكنّ المأخذ الأساسي على معاوية هو العهد لابنه يزيد بالقوّة متحدّيا المبادئ الإسلاميّة في الحكم التي ترتكز على السّابقة والقدمة. أدخل معاوية مبدأ من المبادئ البيزنطيّة والفارسيّة في الحكم على حساب المبادئ الإسلاميّة في الحكم التي وضعها الخلفاء الأوائل.

إضافة إلى ذلك، كان معاوية حريصًا على توريث ابنه «السكّير والماجن» على حساب أبناء الصّحابة وأساسًا الحسين بن عليّ حفيد الرّسول لم يكن الحسين قادرًا على فهم هذه العقليّة السياسيّة الجديدة وبالتّالي سيحدث تطوّر.

لقد كان هذا التّجديد أو التّجاوز الخطير الذي قام به معاوية ـ من وجهة نظر المعارضين أساسا الحسين بن عليّ في ما بعد في عهد يزيد ـ كان على حساب الأمّة وعلى حساب أهل البيت سيكون البند الأساسي في مطالب المعارضين. أي أنّ عدم تسليم البيعة ليزيد من قبل الحسين وابن الزّبير يرجع لعدم شرعيّته التّاريخيّة ولطريقة توليته.

وتهدّد الحسين معاوية بالقصاص[3] والحساب[4]. وأعلمه أنّه خسر نفسه وأوبق دينه، وأكل أمانته، وغشّ رعيّته وتبوّأ مقعده من النّار. ويعتمد الحسين على القرآن ليدعّم رأيه فـ ﴿بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[5]. يعتبر الحسين معاوية من القوم الظّالمين أي الكافرين بالله.

---

(١) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٢١٥ ـ ٢١٦.

(٢) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٢١٣.

(٣) البقرة ٢/ ١٧٨ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾.

(٤) البقرة ٢/ ٢٠٢ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾.

(٥) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص١٣٠؛ هود ١١/ ٤٤؛ الطّبري، *جامع البيان في تأويل القرآن*، =

أصبح الحسين بفعل منزلته في أهل البيت مكلّفًا بمحاسبة معاوية ـ الخليفة الضّال ـ قبل يوم الحساب. فهو قد قام بكلّ التّجاوزات على حساب الأمّة من غدر وغشّ وعدم تأدية الأمانة.

استعمل الحسين مفاهيم قرآنيّة. فقد ورد مفهوم الحساب خمسة وعشرين مرّة في القرآن[1]. كما أنّ مفهوم القصاص هو مفهوم قرآني. ركّز الحسين على الخطاب القرآني ووظّفه بما أنّه يعتبر نفسه أحقّ شخص باستعماله لقرابته من الرّسول، ولمكانة القرآن من النبيّ. المهمّ أنّ الحسين كسّر وقوّض في ردّه على معاوية كلّ مقوّمات الإيديولوجيا الأمويّة. كما نسف الشرعيّة الدينيّة والتّاريخيّة الأمويّة بخطابه الدّيني المستمدّ من شرعيّة الانتماء لأهل البيت. لكن سنرى في ما بعد، بعد تطوّر الأحداث إن كان هذا الخطاب قد نجح في القضاء على الإيديولوجيا والشرعيّة الدينيّة الأمويّة؟ فالدّولة لم تسقط عند ثورة الحسين.

لقد اغتاظ معاوية من الكتاب «الغليظ» الذي أرسله له الحسين. وكان يشكو ذلك إلى النّاس، لكنّ البلاذري لم يذكر مَن هم هؤلاء النّاس؟ هل هم من الأمويّن؟ أم من أشراف كلب وغيرهم من أشراف الشام؟

وأشار عليه بعضهم ـ ولم تذكر المصادر من هم الذين أشاروا عليه ـ بأن يرسل كتابًا للحسين يعيبه فيه، ويعيب أباه[2]. لكنّ معاوية أجاب أنّ ما يقوله في عليّ بن أبي طالب هو كذب. وبيّن أنّه لا يعيب أحدًا بالباطل، كما أنّ الحسين ليس موضعا للعيب. وبرّر معاوية موقفه من إرسال الرّسالة للحسين بأنّه أراد أن يتوعّده و يتهدّده.

= ج٧، ص٤٩ ـ ٥٠: «يقول الله تعالى ذكره: وقال الله للأرض بعد ما تناهى أمره في هلاك قوم نوح بما أهلكهم به من الغرق: ﴿يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾ أي تشربي. ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾ يقول: أقلعي عن المطر: أمسكي. ﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾ ذهبت به الأرض ونشفته. ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ يقول: قضي أمر الله، فمضى بهلاك قوم نوح. ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾ يعني الفلك. استوت: أرست على الجودي، وهو جبل فيما ذكر بناحية الموصل والجزيرة. ﴿وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يقول: قال الله: أبعد الله القوم الظالمين الذين كفروا بالله من قوم نوح».

(١) محمد فؤاد عبد الباقي، معجم مذكور، ص٢٠١.

(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٦٧.

اعترف معاوية لعليّ وللحسين بفضلهما، وفي هذا يتناقض معاوية مع مبدأ أساسي من مبادئ الشرعيّة التّاريخيّة الأمويّة وهو لعن عليّ على المنابر لتقوية هذه الشرعيّة. وقد كان معاوية مجبرًا على اتّباع حلمه المشهور أي كظم الغيظ والعفو والتّغاضي على الحسين بن عليّ لأنّ خطاب الحسين الدّيني أقوى من الشرعيّة الدينيّة والتّاريخيّة الأمويّة والشرعيّة التّاريخيّة لأهل البيت ومن ورائها رمزيّة الرسول، كما عمل معاوية على الحفاظ على العلاقة التي كانت تربطه بالحسين. فكان يُكرمه في كلّ سنة فيُرسل إليه في كلّ سنة بألف ألف درهم وعروض[١] وهدايا من كلّ نوع[٢]. ويعتبر الكرم أحد عناصر السّياسة السّفيانية لشراء الضّمائر.

نلاحظ أنّ الحسين بن عليّ كان لديه برنامج سياسي منذ صلح الحسن مع معاوية أي سنة ٤٠هـ. وكان هذا البرنامج واضحا في ردّ الحسين بن علي على معاوية.

وحاول تطبيق هذا البرنامج السّياسي بعد موت الخليفة معاوية بن أبي سفيان. لكنّه لم يكن لديه معارضة شفويّة للسّلطة مثل هذا الردّ العنيف الذي ردّ فيه الحسين على معاوية.

وتعبّر هذه الرّسالة الحادّة اللّهجة عن البرنامج الدّيني والسياسيّ للحسين بالمقارنة مع المنهج السّياسي الجديد لمعاوية. وقد كسّر وقوّض ونسف الحسين بخطابه الدّيني وبانتمائه لأهل البيت الشرعيّة التّاريخيّة الهشّة والمقوّمات الإيديولوجيّة للأمويّن حتّى أنّنا نتصوّر أنّ الدّولة ستنهار. لكنّ الدّولة الأمويّة اكتست طابعا فريدا فهي دولة خرجت من رحم الفتنة الأولى أو الفتنة الكبرى. وستدخل في أزمة سياسيّة ـ دينيّة تتحوّل إلى فتنة ثانية لكنّها ستستمرّ وتبقى وتتقوّى.

وسيقتل الحسين وتبقى الدّولة في صراع مع القوى الدينيّة السياسيّة الأخرى أي ابن الزّبير وأهل المدينة، رغم هشاشة شرعيّتها التّاريخيّة وإيديولوجيّتها.

---

(١) ابن منظور، معجم مذكور، ج٢، ص٧٤٠: والعروض من الإبل: التي لم تُرَضْ.
(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٦٨.

وقد تلقّى الحسين بن عليّ بعد وفاة الحسن بن عليّ وموت معاوية[1] مراسلات من أهل العراق يدعونه بإلحاح إلى القدوم عليهم. فما هو محتوى هذه الرّسائل؟ ومن أرسلها؟

مراسلات أهل العراق للحسين بن عليّ

مراسلات أهل الكوفة

بلغ إلى مسامع أهل الكوفة موت معاوية، فأرجف[2] أهل العراق بيزيد حيث ذكروا أنّ الحسين بن عليّ وعبد الله بن الزّبير التحقا بمكّة. فكتب أهل الكوفة إلى الحسين (رغم أنّ عليهم النّعمان بن بشير)[3].

ركّز هذا الخبر الذي أورده الطّبري على حساسيّة أهل الكوفة لأهل البيت أو تعاطفهم الكبير معهم بعد موت معاوية وخوض أهل العراق بصفة عامّة أي أهل الكوفة والبصرة في الفتنة والأخبار السيّئة.

وكان الشّيعة حسّاسون أكثر من غيرهم لخبر موت معاوية بما أنّهم كانوا ينتظرون هذا الخبر بفارغ الصّبر منذ الصّلح بين الحسن ومعاوية. فكيف كان ردّ فعلهم؟

تذكر الرّواية الشّيعيّة (محمد بن بشر الهمداني) أنّه عندما توفّي معاوية، اجتمعت الشّيعة بمنزل سليمان بن صرد وذكروا موت معاوية، وحمدوا الله عليه. وقال لهم سليمان بن صرد بأنّ معاوية هلك، ورفض الحسين أن يسلّم بيعته إلى يزيد. وقد خرج إلى مكّة. وهم يمثّلون شيعته وشيعة أبيه، «فإن كنتم تعلمون أنكم ناصروه ومجاهدو عدوّه فاكتبوا إليه، وإن خفتم الوهَلَ[4] والفَشَلَ فلا تغرُّوا الرّجلَ من

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٢، ص٣٣٤.

(٢) ابن منظور، معجم مذكور، ج١، ص١١٣٣: أرجفُوا: خاضُوا في الفتنةِ والأخبار السيّئة.

(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٥٢.

(٤) ابن منظور، معجم مذكور، ج٣، ص٩٩٣: وَهِلَ وهلاً: ضعُفَ وفزع وجبُن وهو وَهِلٌ، الوهلُ، الفَزعُ.

نفسه». . فأجاب الشّيعة بأنّهم سيقاتلونه عدوّه ويقتلون أنفسهم في سبيله. عندها قال لهم سليمان بن صرد بأن يكتبوا إليه، فكتبوا إليه[١].

يبدو من خلال هذا الخبر أنّ سليمان بن صرد تبوّأ رئاسة هذه «النّواة التّنظيميّة» للشّيعة. كما أنّه كان متخوّفا من ردّ فعل الشّيعة تجاه الحسين بعد موت معاوية، أي الإغرار بالحسين وحثّه على المجيء إلى الكوفة ثمّ عدم نصرته. واستمدّ سليمان بن صرد هذا الشكّ من تاريخيّة العلاقة بين عليّ بن أبي طالب وأهل الكوفة. فهذه العلاقة تميّزت بتوتّرها وعدم صفائها لعدم ثبات أهل الكوفة على ولائهم وطاعتهم لعليّ وبالتّالي تخاذلهم عنه، ثمّ تخاذلهم عن الحسن، وستكون ثنائيّة التّخاذل والخوف والتّعاطف الكبير والاندفاع الخصائص الأساسيّة للشّيعة في علاقتهم بالحسين. كما أنّ برنامجهم السّياسي بُني على العاطفة. فهل يدفعهم حبّهم للحسين للدّفاع عن الحسين والموت في سبيله وقتل عدوّه؟ على هذا الأساس، ابتدأت ازدواجيّة المغامرة مغامرة الحسين، ومغامرة الشّيعة انطلاقًا من هذا الاجتماع الذي أراد لنفسه أن يكون تأسيسيّا للحركة وابتدأ «التّنسيق» الفعلي مع الحسين.

كتب الشّيعة إلى الحسين وعلى رأسهم، سليمان بن صرد والمسيّب بن نجبة، ورفاعة بن شدّاد[٢]، وحبيب بن مُظهِر ـ أو مُطهَّر[٣] ـ يحمدون الله على أنّه قتل عدوّه الجبّار والعنيد والذي افتكّ أمر الأمّة، وتأمّر عليها بغير رضى منها، واستصفى مال الله ملكا له ولجبابرة الدّولة وأغنيائها ـ أي أشرافها ـ وهم فرحون

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٥٢.

(٢) ابن حزم، مصدر مذكور، ص٣٨٩: رفاعة بن شدّاد الفتيانيّ، أحد رؤساء التوّابين يوم الوردة، وهو ينتمي لبطن من بجيلة (الأزد).

(٣) لعلّ هذه التّسمية تحيل على استشهاد حبيب بن مظهر مع الحسين بن عليّ. وهو الوحيد من بين الشّيعة الذي حافظ على وعده للحسين واستشهد معه. وتكون الطّهارة إحدى خصائص الشّهداء لأنّهم تغسلهم الملائكة.
أُضيف للقائمة القديمة للشّيعة اسم جديد وهو حبيب بن مظهر الفقعسي.

بهلاكه كهلاك ثمود[1].

كما أنّهم استحثّوه للقدوم عليهم وأكّدوا أنّه ليس لديهم إمام. فالنّعمان بن بشير في قصر الإمارة لكنّهم لا يجتمعون معه في جمعة. أي أنّهم لا يُصلّون معه الجمعة. ولا يحضرون معه العيد. وإن أبلغهم الحسين بقدومه فسيخرجونه للشّام[2].

وفي رواية الطّبري، قالوا له بأنّهم «حبسوا[3] أنفسهم عليه» ولا يحضرون الجمعة مع الوالي[4]، واستحثّوه في القدوم عليهم[5].

انتقد الشّيعة بشدّة طريقة وصول معاوية إلى الحكم فهو افتكّ الأمر أو الحقّ من أهل البيت. وبالتالي فهم لا يعترفون أنّ الحسن صالحه وسلّمه الأمر. بل يُغيّبون ذلك لأنّ الحقيقة الوحيدة بالنّسبة لهم هي تولّي أهل البيت الأمر.

يبدو خطاب الشّيعة شديد العاطفيّة، فهو يظهر فرحا بموت معاوية. كما أنّه ينقد بكلّ ضراوة سياسة معاوية الدّنيويّة والملكيّة والتي كان يعتمد فيها على الأشراف. وهو يُدرّ لهم الأموال ليكونوا الواسطة بينه وبين عشائرهم[6]. فما هي علاقة الشّيعة بالأشراف؟ وهم يستعملون المعجم القرآني للتّعبير عن القصاص الإلهي بموت معاوية وبالتّالي رجوع الحقّ لصاحبه أي الحسين.

وأكّدوا له غياب السّلطة لعصيانهم الصّلاة مع الوالي في الجمعة، وعدم حضور العيد أيضا معه. فهل يكفي هذا العصيان للوقوف في وجه الدّولة؟

لكنّ تصوّر الشّيعة للسّلطة الأمويّة تصوّر منقوص لأنّ وراء النّعمان يوجد يزيد

---

(١) ابن منظور، معجم مذكور، ج١، ص٢٣٢: البعد: الهلاك.
هود ١١/ ٩٥ ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَآ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾.

(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٦٩؛ الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٥٢.

(٣) ابن منظور، معجم مذكور، ج، ١ص٥٥١: حبس. وقيل احتِباسك إياه اختصاصك نَفْسَك به.

(٤) هو النّعمان بن بشيرالأنصاري.

(٥) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٧.

(٦) بثينة بن حسين، مرجع مذكور، ص٣٥٦.

بالشام وتوجد دولة قائمة. فقد تصوّر الشّيعة الدّولة تصوّرا غير عقلاني أي حقّروا من قوّتها في سبيل تضخيم اندفاع وتعلّق عاطفي بالحسين بن عليّ ـ حفيد الرّسول وممثّل أهل البيت ـ، وهذا ما ستكشفه الأحداث فيما بعد.

كما أكّد الشّيعة على حبسهم أنفسهم على الحسين وانتظارهم له، وفي هذا تأكيد على هذا الارتباط العاطفي والدّيني والسّياسي بالحسين.

فهل سَيفِي الشّيعة بعهدهم للحسين ويخرجون الوالي عندما يعلمون بقدومه؟ وبعثوا بالكتاب مع عبد الله بن سَبُع الهمدانيّ[1] وعبد الله بن وال التيمي[2] وأمراهما بتبليغ الرّسالة بسرعة إلى الحسين.

فقدما على الحسين لعشر مضين من شهر رمضان سنة ٦٠هـ. ثمّ أرسلوا بعد ذلك بيومين قيس بن مُسْهِر بن خليد الصيداوي[3] من بني أسد، وعبد الرحمن بن عبدالله بن الكدر الأرحبي[4] وعمارة بن عبد السّلولي[5] الذين جاؤوا بحوالي خمسين صحيفة[6] أو ثلاث وخمسين صحيفةً[7]. والصّحيفة[8] من الرّجل والاثنين والأربعة[9]. وأرسلوا مع هذين الرّسولين رسالة هذا نصّها: «أما بعد

---

(١) ابن حزم، *مصدر مذكور*، ص٣٩٥ سبُع من همدان.

(٢) ابن حزم، *مصدر مذكور*، ص ٣٩٩ تيم بطن من طيّء.

(٣) ابن حزم، *مصدر مذكور*، ص١٩٥ من أسد: أرسله الحسين إلى الكوفة، فأخذه عُبيد الله بن زياد، فأمره بلعن الحُسين، فلعن ابن زياد، فأمر به، فرُمي من فوق القصر، فمات.
البلاذري، *مصدر مذكور*، ج١١، ص١٦٤ ـ ١٦٥.

(٤) ابن حزم، *مصدر مذكور*، ص٣٩٦: بنو أرحب بطن ضخم من همدان؛ هشام جعيط، *نشأة المدينة العربية الإسلاميّة، الكوفة*، دار الطليعة للطّباعة والنّشر، بيروت، ٢٠٠٥، ص٣٧٦: «أرحب، عشيرة يزيد بن قيس، قائد شرطة عليّ».

(٥) ابن حزم، *مصدر مذكور*، ص٢٧١: بنو سلول من قيس.

(٦) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٣٧٠.

(٧) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٥٢.

(٨) ابن منظور، معجم *مذكور*، ج٢، ص٤١٢: صحف: الصحيفة: التي يكتب فيها، والجمع صحائفُ وصُحُفٌ وصحفٌ. وقال الجوهري: والصحيفة الكتاب.

(٩) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٥٢؛ البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٣٧٠.

فَحَيَّ[1] هَلاَ[2]، فإن الناس منتظرون، لا إمام لهم غيرك، فالعجل، ثم العجل، ثم العجل، والسلام»[3].

وانتظر الشّيعة يومين بعد ذلك وأرسلوا رسولين آخرين إلى الحسين وهما هانئ بن هانئ السَّبيعيّ[4]، وسعيد بن عبد الله الحنفيّ. وأرسلوا معهما نفس الكتاب الذي أرسل مع الدّفعة الثّانية للرّسل وهو: «أما بعد فَحَيَّ هَلاَ، فإن الناس منتظرون لا إمام لهم غيرك، فالعجل، ثم العجل، ثم العجل، والسلام»[5].

يبدو من خلال هذا الخبر أنّ التّنظيم الشّيعي «أسّس» شبه مجلس أصبح يُصدر قرارات ويرسل رسلاً.

إنّ تدوين هذه الرّسائل المعبّرة عن رغبة الشّيعة وأهل الكوفة في قدوم الحسين عليهم هي عبارة عن «تعهّد» من أهل الكوفة بالوفاء للحسين والانضمام إليه بوجدانهم و «أجسادهم» أي بالمجهود العسكري.

لماذا لم يكتف الشّيعة بإرسال الرّسل إلى الحسين برسالة شفويّة؟

لماذا كتبت إليه الكثير من الرّسائل؟ ـ كتبها الشّيعة وعبّر فيها كلّ شخص عن رغبته في قدوم الحسين عليهم. كما أنّ كثرة الرّسل أو تواترهم على الحسين وتدعيم الرّسالة الأوليّة الجماعيّة للشّيعة برسائل فرديّة أو ثنائيّة أو ثلاثيّة أو رباعيّة، يدفعنا للقول بأنّ الحاجة لوجود ابن بنت الرّسول بالكوفة، كانت حاجة ملحّة.

فمن النّاحية الشّكليّة، أرفق الرّسل بكتب فرديّة أو ثنائيّة أو ثلاثيّة أو رباعيّة دعّمت هذه الرّسائل برسالة جماعيّة ثانية على لسان الشّيعة يستعجلون فيها الحسين بالقدوم عليهم استعجالا شديدا لأنّهم ينتظرون قدومه كإمام عليهم.

---

(١) ابن منظور، معجم مذكور، ج١، ص٧٧٤: حيّ: يقولون: أتيت فلانًا وحيُّ فلان شاهد وحيّ فلانة شاهدة؛ المعنى فلان وفلانة إذ ذاك حيٌّ؛ وقال الكسائي: يقال لا حيَّ عنه أي لا منْعَ منه.

(٢) ابن منظور، معجم مذكور، ج٢، ص٤١٢: هَلاَ: استعجال وحثّ.

(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٧٠.

(٤) ابن حزم، مصدر مذكور، ص٣٢٥: السّبيع من همدان.

(٥) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٥٣.

ثمّ أرسل رسولين بعد يومين ـ وهنا نلاحظ تتابع الرّسل والرّسائل في فترة وجيزة وبدون انقطاع ـ بنفس رسالة الحثّ على القدوم وبنفس المطلب السّياسي الدّيني (الحاجة للحسين كإمام).

وهنا نحسّ كأنّها صيحة فزع منهم أي من الشّيعة ليصبح الحسين إمامهم. فأمّة بدون إمام تعتبر من «المصائب» العظمى التي يجب على المسلمين تفاديها.

كما يعبّر هذا العدد الهائل من الرّسائل على أهميّة الكتابة في الكوفة كمصر متشيّع. فقد عبّر الشّيعة عن مشاعرهم وحثّوا الحسين على المجيء إليهم بوثائق مكتوبة.

هذه الفترة هي فترة ازدهرت فيها الكتابة خاصّة بعد تدوين القرآن من قبل الخليفة عثمان بن عفّان. ويعبّر تطوّر الكتابة عن طريق المراسلات عن بداية حركة عامّة للتّدوين.

وعبّرت كثافة هذه المراسلات عن «فيضان» و «تدفّق» للصّبابة الشّيعيّة، والمقصود بالتشيّع هنا التشيّع للحسين المبني على تشيّع قديم لعليّ عبّر عنه الشّيعة والأشراف. فهل كان هذا العشق الشيعي لحفيد الرّسول يعبّر عن رغبة في العمل السّياسي والعسكري أي الخروج عن سلطة الدّولة ومقاومتها؟

هل بلغت هذه الحركة مستوى من النّضج السّياسي يمكّنها من مواجهة الدّولة الأمويّة القائمة بمؤسّساتها أساسا وإيديولوجيّتها؟ أم أنّ هذه الحركة هي مجرّد تعبير عاطفي عن حبّ أهل البيت؟

كما أنّ كثافة هذه المراسلات تعبّر عن رغبة عميقة من قبل الشّيعة أساسا في بعث الثّقة في نفس الحسين حتّى يتجاوز وينسى التّخاذل المؤلم لأهل الكوفة تجاه عليّ والحسن. وبالتّالي تحثّه بطريقة غير مباشرة على بداية فترة جديدة من التّعامل بينها و بينه.

يجب التّأكيد على دور هؤلاء الرّسل الذين لم يكونوا مجرّد رسل بل كانوا نشطين في الحركة الشّيعيّة ونذكر بالأساس قيس بن مُسْهِر بن خليد الصيداوي

وسعيد بن عبد الله الحنفي. وإضافة للشّيعة، كتب للحسين أشراف أهل الكوفة وهم شبث بن ربعي اليربوعي[1]، ومحمد بن عمير بن عطارد بن حاجب التّميمي[2]، وحجّار بن أبجر العجلي[3]، ويزيد بن الحارث بن يزيد بن رويم الشّيباني[4]، وعزْرة بن قيس الأحمسي[5]، وعمرو بن الحجاج الزّبيدي[6]

---

(١) ابن سعد، *مصدر مذكور*، ج٦، ص٢٤١. شبث بن ربعي بن حُصين بن عُثم بن ربيعة بن زيد بن رياح بن يربوع (وهو من بني تميم). ذكر الأعمش وهو سليمان بن مهران مولى أسد الكاهلي، وهو من قرّاء الكوفة، جنازة شبث بن ربعي. يبدو من خلال هذه الجنازة أنّه كان عظيم الثّراء والشّرف بما أنّه أُقيم له موكب دفن فيه تشريفات معيّنة. فقد صُفّف العبيد والجواري والنوق والإبل والخيل والإبل الخراسانيّة، كلّ صنف على حدة. وكانوا ينوحون عليه ويلتدمون. وهنا نؤكّد على أهميّة ابن سعد كمصدر يوفّر مادّة انتروبولوجيّة هامّة لدراسة قرّاء وأشراف الكوفة.

البلاذري، *مصدر مذكور*، ج١٢، ص١٦٢: كان مؤذّنا لسجاح قبل رسوخه في الإسلام (وهذا يبيّن أنّ هذه المدّعية كان لها مراسم أو بروتوكول). وبعد تأكّد إسلامه، كان فارسا وناسكا ومتعبّدا. وكان مع عليّ بن أبي طالب فأصبح مع الخوارج، ثمّ تاب. يبدو المسار الإيديولوجي لشبث كثير التقلّب!.

ابن حزم، *مصدر مذكور*، ص٢٢٧: «كان مع سجاح، ثمّ أسلم وحسُن إسلامه، ثمّ سار مع الخوارج؛ ثمّ رجع عنهم تائبًا بعد أن أرادت الخوارج تقديمه، وعمّر إلى بعد أيّام المختار». قدّم ابن حزم نفس المعلومات التي قدّمتها بقيّة المصادر مع إضافة جانب جديد وهو بلوغ شبث بن ربعي سنّ متقدّمة.

البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٢٦٣ ـ ٢٦٥ شهد ضدّ حجر وكان من الأشراف الذين اختارهم زياد لمرافقة حجر وأصحابه وهم في السّلاسل لمعاوية.

(٢) ابن حزم، *مصدر مذكور*، ص٢٣٢ ـ ٢٣٣: هو من عبد الله بن دارم من تميم وفد أبوه عُطارد بن حاجب على الرّسول. وقد كان لمحمد بن عُمير ابن عُطارد شرف وقدر بالكوفة؛ وولي أذرَبيجان.

(٣) ابن سعد، *مصدر مذكور*، ج٦، ص٢٥٠: من ربيعة (عجل)، كان شريفا وروى عن عليّ بن أبي طالب. أي ربّما كانت لديه ميولات شيعيّة. ابن حزم، *مصدر مذكور*، ص٢٩٧: بنو عجل بن عمرو بن وديعة بن لُكيز من ربيعة.

(٤) ابن حزم، *مصدر مذكور*، ص٣٢٥: هو من بني مُرّة بن ذهل بن شيبان بن ثعْلبة من بكر بن وائل.

(٥) ابن سعد، *مصدر مذكور*، ج٦، ص٢٥٠: «عزرة بن قيس البَجَلي من أحمس من بني دُهْن من أنفسهم. روى عن خالد بن الوليد و كان معه في مغازيه بالشأم، وروى أبو وائل عن عزرة بن قيس».

ابن سعد، *مصدر مذكور*، ج٦، ص١٥٤ ـ ١٥٩ أبووائل أو شقيق بن سلمة الأسدي: هو من قرّاء الكوفة. من أصحاب عبدالله بن مسعود. شارك في القادسيّة وفي صفّين. ولاّه زياد على بيت المال وعاش إلى عهد الحجّاج. ابن حزم، *مصدر مذكور*، ص٣٨٨ أحمس بن الغوث: هو بطن من قبيلة بجيلة (من الأزد) لهم سابقة في الإسلام. فقد ساهم مائة وخمسون فارسا منهم مع جرير بن عبد الله البجلي في حرق ذي الخلصة، وهو صنم كان لهم يعبدونه «فبارك رسول الله. على خيل أحمس ورجالها».

(٦) ابن حزم، *مصدر مذكور*، ص٤١١: عمرو بن الحجّاج بن عبد الله بن عبد العزّى بن كعب بن سلمة بن مالك بن سلمة بن مازن بن ربيعة بن زبيد، كان من أشراف الكوفة، شهد قتل الحسين. وهو ينتمي لزُبيد=

ومحمد بن عُمير التّميمي[1]. ويتمثّل نصّ الرّسالة في: «أما بعد فقد اخْضرَّ الجناب[2]، وأيْنَعَتِ الثّمار، وطمَت[3] الجمام[4]، فإذا شئت فأقدم علينا فإنما تقدم على جُندٍ لك مجنّد، والسلام»[5].

ما المقصود بهذه التّعابير المجازيّة، الاخضرار، الإيناع، امتلاء الماء؟ فما المقصود بهذا؟ هل المقصود أنّهم على أتمّ استعداد لتقبّل الدّعوة الشّيعيّة؟ هل المقصود أنّ الحركة الشّيعيّة قد نضجت وأصبح بالإمكان تركيز نظام شيعيّ؟

هل أراد هؤلاء الأشراف (شبث بن ربعي اليربوعي ومحمد بن عمير بن عطارد بن حاجب التّميمي ويزيد بن الحارث بن يزيد بن رويم الشّيباني وعمرو بن الحجاج الزبيدي) حجّار بن أبجر العجلي (لعلاقته بعليّ) وعزْرة بن قيس الأحمسي (لكونه من القرّاء وأحد أصحاب عبد الله بن مسعود) «التّكفير عن ذنبهم» تجاه مساهمتهم في الشّهادة على حجر بن عديّ الكندي وأصحابه من الشّيعة الأوائل وتحمّسوا لمجيء الحسين بدافع حبّ أهل البيت؟

أين بقيّة الأشراف؟ فهذه القائمة لا تحوي كافّة الأشراف بالكوفة كمحمد بن الأشعث الكنديْ وأسماء بن خارجة الفزاري والعُريان بن الهيثم النّخَعي. كما نلاحظ أنّ هؤلاء الأشراف لديهم انتماءات قبليّة مختلفة.

تبدو هذه الرّواية ضعيفة نظرا لعدم تحمّس الأشراف للتيّار الشيعي. فقد كانوا فاتري الحماس تجاه عليّ بن أبي طالب. كما تبعهم العامّة المرتبطون بهم بالكوفة. بينما استند عليّ على فئة القرّاء الذين ربطوا مصيرهم بمصيره.

= بن صعب بن سعد العشيرة بن مذحج.

(١) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٥٣ هذا الشّريف أورده الطّبري فقط ولم يذكره البلاذري. ينتمي هذا الشّريف إلى تميم.

(٢) ابن منظور، *مصدر مذكور*، ج١، ص٥٠٩: الجنَابُ: جَنابُ القوم، وهو ما حولهم، وفلان خصيبُ الجنابِ وجَديبُ الجنابِ، وفلان رحبُ الجناب أي الرَّحْل.

(٣) ابن منظور، *مصدر مذكور*، ج٢، ص٦١٥: طمم: طمّ الماءُ إذا كثُر وهو طامٌّ.

(٤) ابن منظور، *مصدر مذكور*، ج١، ص٥٠٤: الجمّةُ: المكان الذي يجتمع فيه ماؤه.

(٥) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٣٧٠؛ الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٥٣.

لكنّ فئة منهم كانت أكثر تشدّدا من الآخرين ثمّ التحق هذا الجناح الأكثر تشدّدا من القرّاء بالخوارج في التحكيم. وتخلّى عنه الأشراف المحافظون، فتبعثر التّحالف حول عليّ [1] وعندما انتصبت الدولة الأمويّة انضمّ إليها أشراف العراق وأساسا الكوفة حيث لعبوا دور الواسطة بين الدّولة وعشائرهم.

ولم يكن الأشراف يحبّون الأمويّين بل كانوا متحالفين معهم لحماية مصالحهم ونفوذهم الاجتماعي المتعاظم. وكانت السّلطة تستند عليهم للقضاء على الثّورات الشّيعيّة [2].

فقد قضى زياد بن أبي سفيان على ثورة حجر بن عديّ معتمدا عليهم فثبّطوا عشائرهم من نصرة حجر[3]. وشهدوا أنّه خلع الطّاعة وفارق الجماعة، ولعن الخليفة[4]. وعلى أساس هذه الشّهادة تمّ قتل حجر وأصحابه. على هذا الأساس، من الصّعب التّصديق بصحّة هذه الرّواية.

المهمّ بدت الرسائل من قبل شيعته بها تلهّف و تشوّق لقدوم الحسين بن عليّ. على هذا الأساس، كان الجانب العاطفي حاضرًا حضورًا قويًّا.

إنّ كثرة الرّسل والحركيّة الشيعيّة بين الكوفة ومكّة دلالة على «ضعف» والي الكوفة بالمنطق الأموي لأنّه لا يريد أن يستعمل عنف الدولة كزياد وعبيد الله فيما بعد.

تجمّع كلّ الرّسل عند الحسين، فقرأ الكتب، وسأل الرّسل عن حالة النّاس بالكوفة. وأجابهم الحسين على آخر كتبهم[5]. وبيّن لهم أنّه فهم ما ذكروه له وخلاصته أنّهم ليس عليهم إمام، وأنّهم طلبوا منه القدوم عليهم. وأعلمهم أنّه أرسل إليهم مسلم بن عقيل وهو أخوه وابن عمّه والشّخص الذي يثق فيه من أهل بيته. وأمره أن يكتب بأمرهم وطاعتهم له. فإن كتب إليه بأنّه قد اجتمع رأي ملئهم

---

(١) هشام جعيط، *نشأة المدينة العربيّة الإسلاميّة الكوفة*، ص٣٥٩.
(٢) هشام جعيط، *نشأة المدينة العربيّة الإسلاميّة الكوفة*، ص٣٥٩.
(٣) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٢٥٨ ـ ٢٥٩.
(٤) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٥٧.
(٥) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٣٧٠.

وذوي الفضل والعقل منهم على مثل ما قدمت عليه به رُسُلهم، وقرأ في كتبهم، يقدم عليهم قريبًا. وأعطى الحسين تعريفًا للإمام وبالتّالي لوظيفته المستقبليّة. فهو العامل بالكتاب أي المطبّق للقرآن والعامل بالحقّ و «الحابس نفسه على ذات الله»[1].

بيّن الحسين في هذه الرّسالة لأهل الكوفة بأنّه يحتاج إلى التأكّد من نواياهم تجاهه قبل المسير إليهم. وبيّن لهم برنامجه الدّيني ـ السّياسي أو إيديولوجيّته التي ترتكز على الكتاب أي القرآن كمصدر للتّشريع الإلهي.

لا بدّ من التّأكيد على أهميّة القرآن ـ الرّمز الذي يظهر في كلّ فترة فتنة ليكون مصدر تقارب وتآلف ووحدة للمسلمين.

ففي الفتنة الأولى، كان القرآن شعارا ورمزا محوريّا دارت حوله النّقاشات بين القرّاء من الثّوار والخليفة عثمان بن عفّان. فقد لام عليه القرّاء إشراكهم له في قراءته بينما لم يعمل بما فيه، وكان حجّة عليه [2]. كما لاموا عليه تحريق المصاحف[3]. وكانت حجّة عثمان أنّه أراد الحفاظ على الصّحف التي كانت لدى حفصة ـ زوجة الرّسول ـ وهي صحف كُتب فيها القرآن بين يدي الرّسول[4]. ورُفع القرآن في كلّ معركة في الفتنة بعد مقتل عثمان (في الجمل[5] وفي صفّين[6]) لفضّ النّزاع ولجمع الشّمل.

ورجعت فكرة القرآن ـ الكتاب ـ الرّمز للظّهور من جديد في الفتنة الثّانية ليعبّر عن هذا الحلم في الاجتماع زمن الفرقة.

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٥٣.
(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٦، ص١٥٤.
(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٦، ص١٧٨.
(٤) البلاذري، مصدر مذكور، ج٦، ص١٧٨.
(٥) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٥: قُتل كعب بن سور ـ وهو قاضي بالبصرة ـ قاتل في صفّ الثّالوث في واقعة الجمل، قُتل وفي عنقه مصحف.
(٦) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٩٨: في صبيحة ليلة الهرير سنة ٣٧هـ، أشار عمرو بن العاص برفع المصاحف حين تخوّف استئصال أهل الشّام وصبر أهل العراق في القتال.

فقد استمدّ الحسين شرعيّته من الكتاب وتمسّك بتطبيق مبادئه إلى حدّ الالتقاء بذات الله. أحدث الحسين الإمام المستقبلي لأهل الكوفة تحوّلاً من الوظيفة الدّينيّة ـ السّياسيّة للإمام لوظيفة دينيّة ـ دينيّة وهي «وظيفة» المُتصوّف أو منزلة شبيهة بمنزلة النبيّ ـ جدّ الحسين ـ كما يتعارض هذا الخطاب مع الخطاب السّياسي والإيديولوجي الأموي الذي يعتّم على القرآن والسنّة.

لم يكتب الحسين بن عليّ كتابًا للشّيعة على حدة، وكتاب للأشراف بل كتب كتابًا لأهل الكوفة من شيعته «الملأ من المؤمنين والمسلمين». كما أنّه بيّن لأهل الكوفة مكانة مسلم بن عقيل من نفسه ـ فهو يستثيقه وتربطه به عاطفة خاصّة ـ ومن أهل البيت.

وأرسل الحسين الكتاب مع آخر رسل أهل الكوفة، هانئ بن هانئ السَّبيعيّ وسعيد بن عبد الله الحنفي.

مراسلات أهل البصرة

هل أرسل أهل البصرة وأشرافها للحسين كتبًا؟

ذكر البلاذري[1] خبرًا واحدا عن مكاتبة شريف واحد من البصرة للحسين بن عليّ. وهو الأحنف بن قيس ـ وهو سيّد تميم ـ وقد كتب الأحنف للحسين عندما سمع بخروجه للكوفة نصّا يحتوي على هذه الآية من القرآن ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ۝٦٠﴾[2].

وضع الأحنف الحسين في وضعيّة الرّسول ـ أي جدّ الحسين ـ الذي يجاهد الكفّار ـ وهم الأمويّن ـ وشجّعه الأحنف على المُضيّ قُدما لتبليغ رسالته ويصبر

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٧٥.

(٢) الروم ٣٠/ ٦٠؛ الطّبري، *جامع البيان في تأويل القرآن*، ج١٢، ص٧٠: «يقول تعالى ذكره: يا محمد لمّا ينالك من أذاهم، وبلغهم رسالة ربك، فإن وعد الله الذي وعدك من النصر عليهم، والظفر بهم، وتمكينك وتمكين أصحابك وتباعك في الأرض حق (ولا يستخفنّك الذين لا يوقنون) يقول: ولا يستخفنّ حلمك ورأيك هؤلاء المشركون بالله الذين لا يوقنون بالمعاد ولا يصدقون بالبعث بعد الممات، فيثبّطوك عن أمر الله والنفوذ لما كلفك من تبليغهم رسالته».

على أعدائه مثل صبر الرّسول على قومه الكفّار، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، اعترف الأحنف بشرعيّة حركة الحسين وسانده معنويّا وإيديولوجيّا. على هذا الأساس، يبدو الأحنف بن قيس متشيّعا لكنّنا لا نجد أثرًا لهذا التشيّع على مستوى المساندة الفعليّة.

هل كتب الأحنف رسالة للحسين لكن لم يصلنا نصّها؟ هل وقع إخفاء النصّ حتّى لا يتعرّض هذا السيّد لقمع السّلطة الأمويّة؟ هل وعد الأحنف الحسين بن عليّ بالمساعدة الماديّة والبشريّة. كما أنّ الخبر لم يذكر من كان رسول الأحنف للحسين.

لكن عبّر الأحنف في الآية المُرسلة عن تعاطف كبير مع الحسين واعتراف بشرعيّته التاريخيّة المستمدّة من أهل البيت بالمقارنة مع الشرعيّة الهشّة للأمويّين. كما أنّ النصّ القرآني كان في كلّ مرة حاضرا بقوّة لِيُعبّر عن تعاطف النّاس مع الحسين واعتراف برسالته المقدّسة.

ولم تذكر المصادر إرسال أهل البصرة وأشرافها للحسين كتابًا أو كُتبًا أخرى ما عدا هذه الرّسالة للأحنف بن قيس. وربّما يرجع ذلك لعدم وجود تعاطف مع أهل البيت ومسك عبيد الله بن زياد بزمام الأمور.

ويذكر الطّبري[١] خبرًا (وهنا الرّواية يرويها أبو مخنف) يذكر فيه أنّ الشّيعة بالبصرة كانوا يجتمعون ويتحدّثون بمنزل امرأة متشيّعة من عبد القيس يقال لها مارية ابنة سعْد ـ أو منقذ ـ وقد قرّر أحد هؤلاء الشّيعة الرحيل للحسين بن عليّ إلى مكّة، وهو يزيد بن نُبيط ـ وهو من عبد القيس ـ الذي انتدب من بين أبنائه ابنان له، عبد الله وعبيد الله. فأعلم أصحابه بمنزل المرأة بقراره. فخوّفه أصحابه من أصحاب ابن زياد. ما المقصود بهم؟ الأشراف أو رؤوس الأخماس[٢] أو

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٥٣.

(٢) بثينة بن حسين، مرجع مذكور، ص١١٦ ـ ١١٧: «أعاد زياد بن أبي سفيان تنظيم البصرة إلى خمسة أقسام كبرى. وهذه الأخماس هي أهل العالية (أي أهل الحجاز) وتميم وبكر والأزد وعبد القيس. وكان رؤساء الأخماس يختارون ممّن لهم مكانة هامّة في القبائل. وهم يعيّنون بعد أن يوافق الخليفة على تعيينهم. =

العرفاء[1]؟ من الممكن أنّ المقصود بأصحاب ابن زياد هم كلّ هؤلاء. وقد بيّن الرّجل أنّه لا يخاف فهو شجاع ويمكنه أن يواجه أعداءه.

وخرج الرجل مُسرعًا إلى مكّة لملاقاة الحسين. يبدو جانب السّرعة أساسيًا في الحركة الشّيعيّة. فالحسين يسرع في هروبه من المدينة وسيسرع في ذهابه للكوفة. كما أنّ مسلم بن عقيل أسرع في مسيره إلى الكوفة.

ووصل الرّجل إلى مكّة ودخل الأبطح وسمع الحسين بمقدمه فخرج يبحث عنه. وجاء الرّجل إلى رحل[2] الحسين فقيل له إنّه خرج يبحث عنه وذهب الرّجل لملاقاة الحسين فوجده ينتظره في رحله. وفرح الرّجل بهذا اللّقاء والالتقاء بحفيد الرّسول وقال ﴿بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾[3].

كان هذا الرّجل على إيمان عميق بالقرآن، فحرص على اتّباع مبادئه التي جاء بها الرّسول أي جدّ الحسين.

يبدو القرآن حاضرًا بقوّة لدى أنصار الحسين بن عليّ. و يبدو هذا القرآن موظّفًا لخدمة حركة الحسين وهو يمنح عاطفيّة كبيرة لحركته. كما أنّ هذا الرّجل يعتبر من

= و لرؤساء الأخماس سلطات واسعة. ففي حالة السّلم، كانوا يرأسون مجالس القبائل ويحكمون في بعض الخلافات التي تنشأ بين أفراد القبيلة ويمثّلون العشيرة ومصالحها أمام الوالي، ويقرّرون موقفها السياسي في الأحداث الهامّة. ويوزّعون العطاء و يقومون بالتّعبئة. وكانوا يشتركون في الوفادات التي ترسلها الأمصار للخلفاء. وعند الحرب، كانوا يقودون قبائلهم في الحملات».

(١) بثينة بن حسين، مرجع *مذكور*، ص١١٧: «عمل زياد على تنظيم مؤسّسة إداريّة وهي مؤسّسة العرافة. وقد كان زياد أوّل من عرّف العرفاء ونكّب المناكب بالبصرة حسب البلاذري. إن العريف هو القيّم بأمور القبيلة أو الجماعة من النّاس يلي أمورهم ويتعرّف الأمير منهم أحوالهم. وكان العرفاء من أهمّ الموظّفين الذين اعتمد عليهم الأمير في تثبيت سلطانه وفي إدارة المصر وتوزيع العطاء والسيطرة على السكّان.

(٢) ابن منظور، معجم *مذكور*، ج١، ص١١٤٠ ـ: الرّحْل: مركبٌ للبعير والنّاقة، وجمعه أرْحلٌ ورحالٌ.

(٣) يونس١٠/ ٥٨؛ الطّبري، *جامع البيان في تأويل القرآن*، ج٧، ص١٣٧: يقول تعالى ذكره لنبيّه محمد: (قل) يا محمد لهؤلاء المكذّبين بك وبما أنزل إليك من عند ربّك (بفضل الله) أيّها النّاس الذي تفضّل به عليكم، وهو الإسلام، فبينه لكم ودعاكم إليه، (وبرحمته) التي رحمكم بها، فأنزلها إليك من فعلمكم ما لم تكونوا تعلمون من كتابه، وبصركم بها معالم دينكم، وذلك القرآن.

(فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) يقول: فإنّ الإسلام الذي دعاهم إليه والقرآن الذي أنزله عليهم، خير مما يجمعون من حطام الدنيا وأموالها وكنوزها.

النّواة الصّلبة للشّيعة بما أنّه رافق الحسين وقاتل معه هو وابناه وماتوا في سبيل الدّفاع عنه وعن الرّمز الذي يمثّله.

وسلّم الرّجل على الحسين وخبّره عن سبب قدومه إلى مكّة. فدعا له الحسين بخير. وبقي الرّجل هو وابنيه مع الحسين إلى أن قُتلوا جميعا معه [١].

تبدو هذه الحركة الدّينيّة ـ السّياسيّة سريّة لكنّها لم تذكر المصادر كم كان عدد الشّيعة بالبصرة. كم كان الشّيعة الذين يجتمعون بمنزل هذه المرأة؟

يبدو هذا الشّخص متعاطفا مع أهل البيت، مع «القضيّة الشّيعيّة».

يظهر أيضًا من خلال هذا الخبر أنّ اجتماعات الشّيعة من الرّجال كانت تُقام في دار امرأة لديها مُيولات شيعيّة. وفي هذا دليل على بلوغ النّساء في الفترة الأمويّة درجة من الوعي السّياسي والدّيني جعلتهنّ يشاركن في العمل السّياسي ـ الدّيني.

وهنا لا ننسى دور عائشة بنت أبي بكر ـ زوجة الرّسول ـ في العلم. فقد كان الأكابر من الصّحابة يسألها عن الفرائض والسّنن. كما أنّها كانت تُفتي في عهد الخليفة عمر وعثمان[٢]. وبالتّالي كانت المرأة تشارك في الحياة الفكريّة والسّياسيّة في الفترة الأمويّة، كما أنّها أصبحت تشارك في حركات المعارضة. ففي فترة الخليفة عبد الملك بن مروان، شاركت النّساء في حركة الخوارج حيث تمكّنت غزالة أمّ شبيب الخارجي من الإيفاء بنذر كانت نذرته على نفسها وهو الصّلاة بالمسجد ـ الجامع بالكوفة وقراءة سورتي البقرة وآل عمران فيه على رغم أنف الحجّاج بن يوسف الثّقفي والي العراق[٣]. على هذا الأساس، أصبحت دار المرأة الشّيعيّة بمثابة «الصّالون الأدبي» في القرن السّابع عشر والثّامن عشر والتّاسع عشر في فرنسا الذي كانت تقيمه نساء الأرستقراطية الفرنسيّة ـ وهنّ من الأديبات.

---

(١) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٥٣.

(٢) ابن سعد، *مصدر مذكور*، ج٢، ص٢٦٢.

(٣) لطيفة البكّاي، *حركة الخوارج نشأتها وتطوّرها إلى نهاية العهد الأموي (٣٧ ـ ١٣٢هـ)*، دار الطّليعة للطّباعة والنّشر، بيروت، ٢٠٠١، ص١٩١ ـ ١٩٢.

وساهمت هذه الصّالونات في تطوّر الأدب. كما كانت لديهنّ علاقة بالسّياسة[1].
لكنّ هذا المثال هو مثال معزول وفريد بالبصرة ومقارنة بالتشيّع الكبير والواسع بالكوفة. وهو مثال فردي لحبّ هذا الشّخص لأهل البيت، وقد دفعه هذا الحبّ لخوض المغامرة الشّيعيّة والتّضحية بنفسه في سبيل أهل البيت.

كما أرسل الحسين إلى أهل البصرة[2] كتابًا مع مولى له يقال له سليمان[3].
وكتب بنسخة إلى بالبصرة وإلى الأشراف، فكتب إلى مالك بن مِسمَع البكري[4]، وإلى الأحنف بن قيس[5]، وإلى المنذر بن الجارود[6]، وإلى مسعود بن عمرو[7] وإلى قيس بن الهيثم [8]، وإلى عَمرو بن عبيد الله بن مَعمَر[9].

وقد بيّن الطّبري أنّ الحسين أرسل نسخة واحدة إلى جميع أشراف البصرة[10].
وقد تداول الأشراف ورؤساء الأخماس هذه النّسخة. ثمّ يبدو أنّها عندما وصلت

---

(1) Mona Ozouf, *Les mots des femmcs essai sur la singularité française*, Fayard, Paris,1995,p. 112-141.

(٢) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٢، ص٣٣٥.

(٣) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٥٧.

(٤) ابن حزم، *مصدر مذكور*، ص٣٢٠: من بكر بن وائل، مالك بن مُقاتل بن مِسمع له عدد وثروة بالبصرة. قتله يزيد بن المهلّب إذ قام بالبصرة.

(٥) ابن سعد، *مصدر مذكور*، ج٧، ص٦٤ ـ ٦٥ ـ ٦٦ ـ ٦٧ ـ ٦٨: ينتمي الأحنف لتميم. كان ثقة، مأمونًا قليل الحديث، وقد روى عن عمر بن الخطّاب وعليّ بن أبي طالب وأبي ذرّ. كان شريفًا مُهابًا وحليمًا.

(٦) ابن حزم، *مصدر مذكور*، ص٢٩٦: من عبد القيس، المنذر بن الجارود، ولي إصْطَخر لعلي بن أبي طالب.

(٧) ابن حزم، *مصدر مذكور*، ص٣٧٠: هو من ولد العتيك بن الأزد، مسعود بن عمرو. وقد قُتل مسعود بالبصرة، وكان لقَبُهُ القَمر، ففيه كانت حربُ تميم والأزد؛ أبو بكر محمّد بن الحسن بن دُريد، *الاشتقاق*، دار الجيل، بيروت، ١٩٩١، ص٥٠٢: يُقال له «قمرُ العراق». قتله بنو تميم. كان سيّد الأزد. وهو الذي أجاز عُبيد الله بن زياد أيّام الفتنة، أخو المهلّب بن أبي صفرة لأمّه.

(٨) ابن حزم، *مصدر مذكور*، ص٢٦٢: من قيس، قيس بن الهيثم بن قيس، القائم بدعوة ابن الزّبير بالبصرة.

(٩) مصعب الزّبيري، *مصدر مذكور*، ص٢٨٨: من تيم بن مرة (قريش) «عمرو بن عُبيد الله، الجوادَ، الذي قتل أبا فُدَيْك، وكان يُقاوم قطريَّ ابن الفُجَاءَة؛ وكان يَلِي الولايات العِظام، وشهد مع عبد الرحمن بن سمُرة بن حبيب فتوح كابُل شاه، وهو صاحب الثُّغرة، بات يُقاتل عنها حتّى أصبح؛ ومناقبه كثيرة وممادحُه؛ مات بِدمشق عند عبد الملك بن مروان».

(١٠) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٥٧.

إلى المنذر بن الجارود وقرأها، قرّر أن يُعْلِم بها الوالي!

وكتب الحسين بن عليّ في هذا الكتاب أنّ الله اصطفى رسوله محمّدا وأكرمه بنبوّته واختاره لرسالته. وتوفّاه الله وقد بلّغ للنّاس ما أرسل به.

ويبيّن أنّه كان «أهله وأولياءه وأوصياءَه وورثته وأحقَّ النّاس بمقامه في النّاس»[1]. فاستأثر عليه قومه بالأمر، ورضي بذلك مخافة الفرقة. وهو يقصد بقومه الخلفاء الأوائل، أبو بكر الصدّيق، وعمر بن الخطّاب، وعثمان بن عفّان.

أحبّ الحسين «العافية»[2] رغم أنّه يعلم أنّه أحقّ بالسّلطة منهم. كما أنّ قومه «أحسنوا وأصلحوا، وتحرَّوْا الحقّ»[3]. وترحّم عليهم الحسين.

ودعا الحسين الأشراف إلى كتاب الله وسنّة نبيّه، فالسنّة قد أُميتت، و «البدعة[4] قد أحيِيت ونعشت»[5]. كما أنّه طلب منهم أن يسمعوا قوله ويُطيعوا أمره فيهديهم إلى سبيل الرّشاد[6].

يبدو هذا الخطاب خطابًا «إيديولوجيًّا» حيث يستمدّ الحسين شرعيّته التّاريخيّة والدّينيّة من الانتماء لأهل البيت. وتستمدّ هذه الشرعيّة من القرابة للرّسول. لكنّ الحسين لم يتمكّن من أن يمارس حقّه في تولّي «الخلافة» نظرًا لاستئثار صحابة الرّسول من قريش بالأمر. وهنا يُشير الحسين بصفة غير مباشرة لحادثة السّقيفة التي فرض فيها عمر بن الخطّاب البيعة لأبي بكر[7]، ثمّ تواتر الصّحابة على

---

(١) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٥٧.

(٢) ابن منظور، *معجم مذكور*، ج٢، ص٨٢٧: العفو هو التّجاوز عن الذّنب وترك العقاب عليه.

(٣) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٥٧.

(٤) ابن منظور، *معجم مذكور*، ج١، ص١٧٤: بدعَ الشيء يبْدعه بدْعًا وابتدعه: أنشأه وبدأه. والبِدعة: الحدث وما ابتدع من الدّين بعد الإكمال.

ابن الأثير: البدعة بدْعتان: بدعة هُدى، وبدعة ضلال، فما كان من خلاف ما أمر الله به ورسوله، فهو في حيز الذمّ والإنكار، وما كان واقعا تحت عموم ما ندب الله إليه وحضّ عليه أو رسوله فهو في حيّز المدح.

(٥) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٢، ص٣٣٥.

(٦) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٥٧.

(٧) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٢، ص٢٥٩ ـ ٢٧٢.

الخلافة إلى حدود مقتل عثمان وتولّي عليّ بن أبي طالب. ويبيّن الحسين أنّه قبل الصّلح بين أخيه الحسن ومعاوية حتّى يتجنّب الفرقة أي الفتنة.

يبدو مفهوم الفتنة مفهوما مركزيًّا ويعود كلّ مرّة في خطاب الحسين وفي خطاب ممثّلي الدّولة.

كان التخوّف من الفتنة الهاجس الأساسي للحسين عندما رضي بالصّلح بين الحسن ومعاوية. فقد رأى الحسين أنّ وفاة الحسن ثمّ موت معاوية تخوّل له أن يمسك بزمام الأمور. ويركّز الحسين بن عليّ برنامجًا سياسيًا دينيًا قائمًا على القرآن وعلى إحياء السنّة. فهو بذلك «يحطّم» ويضرب بقوّة الشرعيّة التّاريخيّة الأمويّة والإيديولوجيا التي ترتكز على التّعتيم على القرآن والسنّة. واعتبر ما قام به الخليفة معاوية بدعة وهي كلّ الأمور المتعلّقة بالسّياسي وإدخال عادات جديدة في الحكم كسنّ الحكم الوراثي، وإلحاق زياد وقتل حجر وغيرها من الأمور التي سبق أن ذكرها الحسين عن معاوية.

وقد قرأ الأشراف بالبصرة كتاب الحسين ولم تذكر المصادر تحمّس وتعاطف أحدهم أو أحد رؤساء الأخماس لرسالة الحسين بل بالعكس فقد أذاع أحد الأشراف ـ وهو المنذر بن الجارود العبديّ ـ خبر الرّسالة على أساس أنّه خاف أن يكون عبيد الله دسّه إليه فأخبره بها و قرأها له[١].

بينما يذكر الطّبري أنّ المنذر بن الجارود «خشيَ بزعمه»[٢] أن يكون الرّسول دسيسا لعبيد الله بن زياد وبالتّالي فأبو مخنف ـ وهو كوفي ومتشيّع ـ يشكّ في صفاء نيّة هذا الشّريف.

وكانت تربط المنذر بن الجارود علاقة نسب عن طريق الزّواج فعبيد الله هو خَتَنُ المنذر أي زوج ابنته[٣]. المهمّ أنّ أشراف البصرة ورؤساء الأخماس كانوا خائفين

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٢، ص٣٣٥.
(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٥٧.
(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٠٢.

على مصالحهم الاقتصادية وحريصين على ولائهم للدّولة. وبالتّالي لم يتحرّكوا لنصرة الحسين.

ظهر في رواية الطبري وجود رسول أرسله الحسين بن عليّ لأهل البصرة، وهو مولى له. فجاء لعبيد الله بالرّسول في العشيّة. وقد قرّر عبيد الله أن يذهب إلى الكوفة بأمر من الخليفة في صبيحة الغد. وقرأ له المنذر بن الجارود الكتاب. فضرب عبيد الله عنق الرّسول[١].

وصعد عبيد الله على منبر البصرة، وخطب النّاس[٢]. «فأرعد وأبرق[٣] وتهدّد وتوعّد»[٤]. وبيّن لهم أنّه لا يهابُ مصاعب الأمور. وهو مستعدّ للقضاء على كلّ التحرّكات في حالة تمرّد أهل البصرة. كما ذكر لأهل البصرة بأنّه ينكل بأعدائه، وهو سمّ لهم.

وتهدّدهم إن تجرّأ رجل على الخلاف يقتله هو وعريفه ووليّه. كما أنّه يعاقب كلّ من له صلة به حتّى يستقيموا[٥]. وأعلم عبيد الله أهل البصرة بأنّ الخليفة عيّنه على الكوفة وأنّه ذاهب إليها من الغد، واستخلف عليهم عثمان بن زياد بن أبي سفيان، وأمرهم بطاعته. وحذّرهم من الخلاف والإرجاف والمشاقّة[٦]. فهو ابن زياد ولا يشبه خاله أو ابن عمّه (أي الخليفة يزيد بن معاوية).

لم يمتثل عبيد الله بن زياد لعادات العرب الموجودة منذ الجاهليّة في احترام الرّسول وعمد إلى قتل رسول الحسين إلى البصرة.

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٥٨.
(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٥٨؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٢، ص٣٣٥.
(٣) ابن منظور، معجم مذكور، ج١، ص١٩٨: برق الرّجل وأبرَق: تهدّد وأوعد، وهو من ذلك، كأنّه أراهُ مخيلة الأذى كما يُري البرقُ مخيلةَ المطَر.
(٤) البلاذري، مصدر مذكور، ج٢، ص٣٣٥.
(٥) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٥٨.
(٦) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٥٨؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٢، ص٣٣٥؛ ابن منظور، معجم مذكور، ج١، ص٣٤٢: والمُشَاقّةُ والشّقاق: غلبة العداوةِ والخلافِ، شاقّهُ مشاقّةً وشقاقاً: خالفه. الشّقاقُ: العداوةُ بين فريقين والخلافُ بين اثنين. وشقّ أمره يشُقّه شقًّا فانشقّ: انفرق وتبدّد اختلافًا. شقّ فلان العصا أي فارق الجماعة، وشقّ عصا الطّاعة فانشقّت وهو منه.

يعتبر ردّ فعل الوالي أوّل ردّ فعل تجاه حركة الحسين. فقمع حركة الحسين ابتدأ بالبصرة بقتل رسوله إلى الأشراف ورؤوس الأخماس.

فقد فرضت عليه مصلحة الدّولة العليا أن يكون صارما وحازما في التصدّي لهذه الحركة.

ثمّ كانت الخطبة ـ خطبة عبيد الله لأهل البصرة ـ التي تذكّرنا بنفْس نَفَسِ زياد في التّهديد والوعيد وربّما أكثر منه. فقد برهن عبيد الله أنّه يشبه زياد في حرصه على فرض سلطة الدّولة الأمويّة.

كما استعمل عبيد الله بن زياد التّهديد بالقتل كوسيلة لمنع أهل البصرة من المشاركة في ثورة الحسين. فتهدّد بقتل كلّ من أراد أن يثور مع عرفه ووليّه. وفي هذا يُحمّل الوالي بصفة غير مباشرة المسؤوليّة للعريف كموظّف يراقب الميولات السّياسيّة لأبناء عشيرته وبالتّالي يرفع للوالي أسماء المعارضين، ويوزّع العطاء، ويقوم بالتّعبئة للجهاد.

ويظهر اعتزاز عبيد الله بأبيه بذكر شبهه به وهو عبارة عن تذكير لأهل البصرة بسياسة زياد. وهذا الشّبه من زياد هو بمثابة منهج سياسي وشرعيّة تاريخيّة للوالي في خطّته الجديدة كوالي للبصرة والكوفة. فصورة زياد أصبحت مثالا يرعب به عبيد الله أهل البصرة حتّى لا يشاركوا في ثورة الحسين.

عيّن عبيد الله بن زياد على البصرة أخاه عثمان بن زياد بن أبي سفيان[١]. وأمّ هذا الأخير هي أمّ ولد[٢].

يبدو أنّ عبيد الله بن زياد جعل من السّلطة بالعراق سلطة عائليّة أو عشائريّة بتعيينه لأخيه. فعبيد الله يستمدّ سلطته من شرعيّة الانتماء للبيت السّفياني.

أحدث عبيد الله بن زياد منهجًا سياسيًا جديدا مبنيًا على العنف اللّفظي السّياسي وبالتّالي عبّر بصفة غير مباشرة عن برنامجه بالكوفة تجاه تحرّك الحسين. فلم تحدث في البصرة حركة شيعيّة موالية للحسين ما عدا حركة فرديّة لشخص.

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٥٨؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٢، ص٣٣٥.
(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٩٧: أمّ عبيد الله هي مَرْجانة أمّ ولد.

يبدو من خلال المصادر أنّ أهل الكوفة كانوا مَعْنيّين أكثر من أهل البصرة بمجيء الحسين بن عليّ.

وحدّدت هذه المراسلات طبيعة العلاقة بين الحسين بن عليّ وأهل الكوفة (الشّيعة أساسا والأشراف).

إرسال الحسين لمسلم بن عقيل بن أبي طالب للكوفة

اتّخذ الحسين قرار إرسال مسلم بن عقيل بعد أن أرسل له الشّيعة والأشراف من الكوفة رسائل عديدة ورسل في فترة قصيرة واستحثّوه في القدوم عليهم ليكون إمامهم.

كان الحسين مدفوعا حتما إلى هذا القرار بعد هذا الطّلب المُلحّ والمسترسل أساسًا من الشّيعة بالكوفة، ومن أشرافها. فقد دعا مسلم بن عَقيل وأرسله مع رسل أهل الكوفة قيس بن مُسْهِر بن خليد الصيداوي وعبد الرحمن بن عبد الله بن الكدر الأرحبي وعمارة بن عبد السّلولي[(١)]. وأمر الحسين مسلم بن عقيل بتقوى الله[(٢)] وكتمان أمره[(٣)]، واللطفِ[(٤)]، وإن رأى الناسَ مجتمعين على البيعة له ومستوسقين[(٥)] له، أعلمه بذلك بسرعة.

يُؤكّد هذا الخبر أنّ مسلم بن عقيل رحل مع الحسين بن علي في أهل البيت من مكّة إلى المدينة. كما أنّ الحسين سطّر «برنامجا» سياسيًّا ودينيًّا لمسلم بن عقيل. ولو أنّنا لا يمكننا الحديث عن برنامج لأنّه ضبابيّ وليس فيه استراتيجيّة سياسيّة. بل يرتكز على مبادئ دينيّة كتقوى الله ومبادئ للتّعامل كاللّطف أي اللّين والرّفق مع أهل الكوفة والتكتّم في الأمر أي عدم إعلان دعوته خوفًا عليه من سطوة الدّولة الأمويّة.

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٧ ـ ٣٥٤.

(٢) ابن منظور، معجم مذكور، ج١، ص٣٢٤: تقى الله تقْيًا خافه.

(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٢، ص٣٣٤.

(٤) ابن منظور، معجم مذكور، ج٣، ص٣٦٩ اللّطف أي الرّفق والبرّ.

(٥) ابن منظور، معجم مذكور، ج٣، ص٩٢٧: «وفي حديث النّجاشي: واستوسق عليه أمر الحبشة أي اجتمعوا على طاعته واستقرّ الملك له».

فمن هو مسلم بن عقيل بن أبي طالب[1]؟ هو ابن عمّ الحسين بن عليّ. فلو تتبّعنا جذور مسلم بن عقيل، لنجده قريب القرابة بالحسين. فولد أبو طالب بن عبد المُطلّب: طالِبًا؛ وعَقِيلاً؛ وجعفرًا؛ وعليًّا؛ وأمّ هانئ، واسمها فاخِتة؛ وجُمانة بنت أبي طالب[2]. ويبدو حسب البلاذري أنّ عقيل بن أبي طالب كان مناصرا لمعاوية في صفّين على حساب أخيه عليّ[3].

إذا ينتمي مسلم بن عقيل لآل البيت بما أنّه ابن عمّ الحسين بن عليّ. بما أنّ عقيل بن أبي طالب هو أخ عليّ بن أبي طالب.

وقد اختار وقدّم الحسين مسلمًا[4] لرسوله إلى أهل الكوفة لكفاءاته فقد كان أرجل[5] أبناء عقيل وأشجعهم[6] رسولاً من أهل البيت وليس من عشيرة أخرى من قريش؛ وفي هذا رمزيّة كبيرة فكأنّ هذا الأمر أي الحقّ في السّلطة لا يخصّ إلاّ بني هاشم وأساسا بني عبد المطلّب. كما كان مسلما متزوّجا رقيّة بنت عليّ بن أبي طالب ـ أخت الحسين بن عليّ[7].

كما يبيّن إرسال مسلم متانة الأواصر داخل العشيرة. وهذه الأواصر كانت موجودة في الجاهليّة، واستمرّت في الإسلام. وعوّل الحسين على مسلم لرباطة جأشه ورجولته وثقته فيه[8]. ولا شكّ أنّ هذه المهمّة تتطلّب كلّ هذه الصّفات في شخص ليقوم بها.

---

(١) ابن حزم، *مصدر مذكور*، ص٦٩؛ مصعب الزّبيري، *مصدر مذكور*، ص٨٤.

(٢) مصعب الزّبيري، *مصدر مذكور*، ص٣٩ ـ ٤٠؛ ابن حزم، *مصدر مذكور*، ص٣٧؛ ابن سعد، *مصدر مذكور*، ج٤، ص٣١: «وهو الذي بعثه الحسين بن عليّ بن أبي طالب، عليهما السّلام، من مكّة يبايع له النّاس فنزل بالكوفة على هانئ بن عروة المُرادي فقتلهما جَميعًا وصلبهما».

(٣) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٢، ص٣٣٠.

(٤) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٢، ص٣٣٤.

(٥) ابن منظور، *معجم مذكور*، ج١، ص١١٣٣: وقد يكون الرّجل صفة يعني بذلك الشدّة والكمال.

(٦) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٢، ص٣٣٤.

(٧) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٢، ص٣٢٨ ـ ٤١٣: أمّ رقية الصهباء ـ وهي أمّ حبيب بنت حبيب بن بجير التّغلبي سبيت من ناحية عين التمر.

(٨) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٥٣.

ما هو سبب إرسال مسلم بن عقيل إلى الكوفة؟

وتتمثّل مهمّة مسلم بن عقيل في معرفة طاعة أهل الكوفة وتشيّعهم للحسين. ثمّ يكتب لحفيد الرّسول «بحالهم ورأيهم»[1]. والمقصود بحالهم ورأيهم أي التّطابق بين ما وعدوه به وأفعالهم وعدد المناصرين للحسين إلى آخره من التّفاصيل.

وفي رواية الطّبري، يكلّف الحسين بن عليّ مسلم بن عقيل بالسّير إلى الكوفة والتثبّت ممّا كتبوا به إليه فإن كان حقًّا «خرجْنَا إليهم»[2].

يبدو من خلال هذه الرّواية أنّ الحسين أراد التأكّد من صحّة ومصداقيّة نوايا أهل الكوفة قبل أن يسير إليهم. فهذا يعني أنّ الحسين كانت لديه شكوك في دعم أهل الكوفة له نظرًا لتصرّفاتهم مع أبيه وأخيه. وتتمثّل مهمّته في «تقديم الحسين إيّاه إلى الكوفة أمامه»[3]. وهي مهمّة سياسيّة وعسكريّة واستراتيجيّة ودينيّة أساسيّة في مسار الحسين إلى الكوفة.

ولم يرحل مسلم بن عقيل مباشرة من مكّة إلى الكوفة بل أتى المدينة وصلّى بمسجد الرّسول، وودّع «من أحبّ» من أهله، واستأجر دليلين من قيس ـ ليدلاّنه على الطّريق ـ[4].

اتّبع مسلم بن عقيل طريقة في الوداع خضعت لمراسم، محمّلة برمزيّة كبيرة. فالصّلاة في مسجد الرّسول يحيلنا على شرعيّة تاريخيّة ودينيّة مستمدّة من أهل البيت. وهي صلاة تعبّر عن استعداد لخوض تجربة سياسيّة دينيّة بالكوفة. كما أنّ توديع من يحبّه من أهله يعبّر عن إحساسه بأنّه ذاهب نحو مصير مجهول.

كيف دخل مسلم بن عقيل إلى المدينة دون أن يتفطّن إليه الوالي الأموي ـ وهو يُعتبر في وضعيّة الهارب عن السّلطة ولم يقدّم بيعته ليزيد مثله مثل الحسين وأهل البيت؟ لماذا لم ينتدب دليلين من مكّة؟ هل كان أهل المدينة أعلم بالطّرقات من

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٧٠.

(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٧.

(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٢، ص٣٣٥.

(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٧ ـ ٣٥٤.

أهل مكّة؟ هل كانوا يتردّدون أكثر على الكوفة؟ من هم أهل البيت الذين بقوا في المدينة ولم يرحلوا مع الحسين؟

إنّ كلّ هذه التّساؤلات لا نجد لها إجابات واضحة.

يذكر الطبري في روايته أنّ مسلم بعد أن انتدب دليلين، مرّ بالصّحراء فأصابهم عطش شديد، فمات أحد الدليلين. فكتب مسلم إلى الحسين يطلب منه إعفاءه من هذه المهمّة. لكنّ الحسين كتب إليه يأمره أن يذهب إلى الكوفة[1].

بينما يذكر البلاذري أنّ مسلم أرسل كتابًا مع قيس بن مُسْهِر بن خليد الصيداوي للحسين عندما وصل للمَضيق[2] من بطن[3] الخبيت[4]. فذكر له فيه توجّهه مع دليلين من أهل المدينة، فضلاّ الطريق وعطشا عطشًا شديدًا إلى أن ماتا. ولم ينج إلاّ مسلم ورسل شيعة الكوفة (وعبد الرحمن بن عبد الله بن الكدر الأرحبي وعمارة بن عبد السّلولي) بعد أن توصّلوا إلى الماء.

وأضاف مسلم في رسالته للحسين بأنّه تطيّر من هذه المهمّة، وطلب منه أن يعفيه ويُرسِل غيره. لكنّ الحسين كتب إليه يدفعه إلى التخلّي عن الجبن، وتنفيذ ما أمره به[5]. و قد قُرِأ لمسلم كتاب الحسين، فبيّن مسلم أنّه لم يخف على نفسه. أي أنّ مسلم تخوّف على مصير الحسين وآل بيته. فامتثل مسلم لأمر الحسين، وذهب للكوفة.

المهمّ من خلال هذه الأخبار المتعلّقة بمسير مسلم بن عقيل إلى الكوفة بروز

---

(١) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٤٧.

(٢) ياقوت، *معجم مذكور*، ج٥، ص١٤٦: المضيقُ أو المضَيِّقُ قرية في لحف آرة بين مكّة والمدينة. ياقوت، *معجم مذكور*، ج٥، ص١٤ لحف: هو واد بالحجاز يقال له لحف عليه قريتان جبلة والسّتارة. ياقوت، *معجم مذكور*، ج١، ص٥٢: آرةُ جبل بالحجاز بين مكّة والمدينة، يُقابل قُدْسًا، من أشمخ ما يكون من الجبال، أحمرُ، تخرج من جوانبه عيون على كلّ عين قرية، فمنها: الفَرع، وأمُّ العِيال، والمَضيق إلخ؛ وفي كلّ هذه القرى نخيل زروع.

(٣) ياقوت، *معجم مذكور*، ج١، ص٤٤٧: البطن: الغامض من الأرض.

(٤) ياقوت، *معجم مذكور*، ج٢، ص٣٤٥: الخُبيت: تصغير خَبت، وهو ماء بالعالية يشترك فيه أشجعُ وعبس. العاليةُ: اسم لكل ما كان من وجهة نجد من المدينة من قراها وعمايرها إلى تهامة فهي العالية، وما كان دون ذلك من جهة تهامة فهي السّافلة.

(٥) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٣٧٠ ـ ٣٧١؛ الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٥٥.

عدة معطيات جديدة. أصبح الحسين رئيس وسيّد أهل البيت فهو يقرّر وبقيّة عناصر أهل البيت ينفّذون. وتمنحه هذه الرّئاسة سلطة روحيّة أو معنويّة وسلطة دينيّة وسلطة سياسيّة. كما وجدت مراسلة بين مسلم بن عقيل والحسين بن عليّ سهّلت طريقة الاتصال بينهما.

رغم اختلاف الرّوايات فإنّها تتّفق على وجود صورة قاتمة، وغير مشجّعة سابقة لمقدم مسلم بن عقيل للكوفة ولرحيل الحسين إليها أي مستقبل الحركة السّياسيّة والدّينيّة للحسين بن عليّ. وتتمثّل هذه الصّورة اليائسة في الضّياع في الصّحراء والعطش الشديد وموت أحد الدّليلين أو موتهما. وعبّر مسلم بن عقيل عن هذه الوحشة النفسيّة بالتّطيّر أي أنّه أحسّ بسوء سيلحق آل البيت من هذا الرّحيل إلى الكوفة وبالتّالي صعوبة هذه المهمّة وفشلها.

وفي طريقه إلى الكوفة، مرّ مسلم بماء لقبيلة طيّئ[(١)]، فارتاح بين أظهرهم ثمّ رحل، فرأى رجلاً يصطاد فرمى ظبيًا فقتله. فقال مسلم: «يُقتل عدوُّنا إن شاء الله»[(٢)].

حاول مسلم بن عقيل ـ مثل أبطال المأساة الإغريقيّة ـ أن يتفادى التطيّر ويأمل في المستقبل أي بنجاح مهمّته بالكوفة وقتل عدوّ أهل البيت وهو العدوّ الأموي. فقوّة الأمل والرّغبة في النّجاح في مهمّته والإيمان بشرعيّة أهل البيت، جعلت مسلما متفائلاً.

منذ سماع أهل الكوفة بوفاة معاوية خاصّة منهم الشّيعة، عبّروا عن حركة الرّفض والتّململ التي قادها الحسين بن عليّ منذ صلح معاوية مع الحسن. وقد اتّصل أهل الكوفة وأساسا شيعة عليّ بالحسين عن طريق رسل ورسائل عديدة. وألحّوا عليه في القدوم عليهم. وكانت هذه الرسائل مشجّعة له على إعلان رفضه للبيعة ـ بيعة الخليفة يزيد بن معاوية ـ

لكنّ الحسين لم يكن مطمئنّا أتمّ الاطمئنان لوعود أهل الكوفة، فأرسل مسلم بن عقيل بن أبي طالب للتأكّد من صحّة نوايا أهل الكوفة.

---

(١) ابن حزم، مصدر مذكور، ص٣٩٨: قبيلة يمنيّة.

(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٥٥.

الفصل الرّابع
تجربة مسلم بن عقيل بن أبي طالب في الكوفة

بدأت حركة الحسين بن علي مع حلول مسلم بن عقيل بالكوفة. فقد كان مسلم الممهّد للحركة الشّيعيّة بالكوفة قبل مجيء الحسين إليها.

لقد ظهر في هذه الحركة جدليّة السّلطة الأمويّة في علاقتها بأهل الكوفة أو بالحركة الشّيعيّة التي وُلِدت وظهرت للوجود كحركة دينيّة سياسيّة معارضة للسّلطة الأمويّة على يد مسلم بن عقيل وليس على يد الحسين.

فقد كان مسلم بن عقيل الباعث الحقيقي لهذه الحركة بأمر من الحسين. كما أنّه كان الفاعل السّياسي أو القائد لهذه الحركة بالكوفة ـ المصر الذي يعتبر مركزا من مراكز السّلطة الأمويّة ـ لكن السّلطة الأمويّة برهنت على تطوّرها وعلى قوّتها وانبعثت جدليّة الصّراع بين الدّيني والسّياسي في الكوفة.

ودخلت القوى الاجتماعيّة والسّياسيّة في الصّراع بكلّ ما أوتيت به من قوّة.

فحُظي السّياسي بقوّة المقاتلة وبيت المال[1] والدّواوين وطموح يزيد وعبيد الله اللاّمتناهي للحفاظ على ميراث معاوية وزياد، وذكراهم الحاضرة في الأذهان. وكان السّياسي عقلانيّا وعمليّا ومجرّدا من العواطف.

وتقدّم الدّيني بكلّ رموزه الغائبة (الرّسول) والحاضرة (أي مسلم بن عقيل

---

(١) هشام جعيط، *نشأة المدينة العربيّة الإسلاميّة الكوفة*، ص٩٩: كان بيت المال ملحقا بالقصر.

والحسين بن عليّ) للحفاظ على مبادئ الكتاب والسنّة كرموز لدين ودولة أسّسها الرّسول. فتدفّق العاطفي بكلّ توهّجه. وبالتّالي سيكون الصّراع مؤلمًا لأنّه مزّق الضّمير الإسلامي فمسّ القرابة والأرحام والحرمات. وكان هذا بداية لسياسة جديدة اتّبعتها الدولة منذ فترة زياد قوامها العنف السّياسي في أعلى درجاته.

فلمن سيحسم الصّراع؟ هل سينتصر الدّيني أو السّياسي؟ وما هي خصوصيّة الكوفة في كلّ هذه التطوّرات السياسيّة والدينيّة؟

الخصائص السياسيّة و الإيديولوجيّة للكوفة

مثّلت الكوفة طيلة القرن الأوّل الهجري أي السّابع الميلادي مركزا هامّا للتطوّرات السياسيّة و الإيديولوجيّة التي أكسبتها طابعا خاصّا. فقد ساهمت في الثّورة ضدّ عثمان (٣٤ ـ ٣٥هـ/ ٦٥٤ ـ ٦٥٥م)، مساندة عليّ بن أبي طالب في المعركتين الحاسمتين: وقعة الجمل (٣٦هـ/ ٦٥٦م) ووقعة صفّين (٣٧هـ/ ٦٥٧م)، ونشأة حركة الخوارج في الكوفة، «وبداية التّشيّع السّياسي[1] مع ولادة حركة التمرّد التي قادها حجر بن عديّ الكندي، والتي انتهت بفشل الحركة وقمعها وقتل أفرادها (٥١هـ/ ٦٧١م).

وانطلاقا من هذا التّاريخ، «ستكون الكوفة رحم التشيّع وحصنه الحصين»[2].

توالت الثّورات الشيعيّة، وقد وقع القضاء عليها جميعا: حركة مسلم بن عقيل ومقتل الحسين بن عليّ في كربلاء (٦٠ ـ ٦١هـ/ ٦٧٩ ـ ٦٨٠م)، ثورة التوّابين (٦٥هـ/ ٦٨٤م)، ثورة المختار الثّقفي (٦٦ ـ ٦٧هـ/ ٦٨٥ ـ ٦٨٦م)، ثورة زيد بن عليّ (١٢٢هـ/ ٧٣٩م)، وثورة عبد الله بن معاوية (١٢٧هـ/ ٧٤٤م). إضافة إلى ذلك، كانت الكوفة مركز تخطيط للثّورة العبّاسيّة.

كما كانت الكوفة مسرحا لهجمات الخوارج المتعدّدة خاصّة التي اندلعت سنة

---

(١) هشام جعيط، *الفتنة*، ص٣٥٧.

(٢) هشام جعيط، *الفتنة*، ص١٥٣.

٧٦هـ/ ٦٩٥م بقيادة شبيب الخارجي، ثمّ ثورة الضحّاك الشّيباني في الجزيرة الفراتيّة (١٢٧ ـ ١٢٨هـ/ ٧٤٤ ـ ٧٤٥م) التي كانت شديدة الضّراوة.

واتّحدت الكوفة والبصرة في ثورة عبد الرّحمن بن محمّد بن الأشعث (٨٢ ـ ٨٣هـ/ ٧٠١ ـ ٧٠٢م) التي كادت أن تقضي على الحكم الأموي، وشارك فيها القرّاء والأشراف.

وقد طبعت هذه الثّورات شخصيّة الكوفة التي اتّخذت طابع «المدينة الهائجة الطّموحة»[١].

كما كانت تشكو من السُمّ النّرجسي الذي يخترقها لأنّها مسقطة للإمبراطوريّات[٢].

فقد اتّخذت الكوفة طابعا عسكريّا منذ تمصيرها، وكانت مكلّفة بفتح العالم الإيراني، حيث «قال عمر وذكر الكوفة فقال: هم رمح الله وكنز الإيمان، وجمجمة العرب يحرزون[٣] ثغورهم ويمدّون الأمصار»[٤].

وقد اجتمع الصّحابة بالكوفة وأهمّهم عبد الله بن مسعود الذي علّم المقاتلة القرآن والحديث. ولعب القرّاء دورا أساسيّا في الفتنة.

وكانت علاقة أهل الكوفة بأهل البيت علاقة خاصّة حيث كانوا يُظهرون الموالاة والتحمّس لهم لكنّهم كانوا يتخاذلون عنهم في الأوقات الحرجة. وقد ذكر البلاذري خبرا لعليّ بن أبي طالب يخاطب أهل الكوفة، وقد لخّص هذا الخبر العلاقة الرّابطة بين أهل البيت (أي عليّ بن أبي طالب وأبناؤه فيما بعد الحسن بن عليّ والحسين بن عليّ): «قال عليّ وهو بالكوفة: كيف أنتم إذا أتاكم أهل بيت نبيكم يحمل قويهم ضعيفهم؟. قالوا: نفعل ونفعل. فحرَّك رأسه ثم قال: توردون

---

(١) هشام جعيط، *نشأة المدينة العربية الإسلامية الكوفة*، ص٣٥٧ ـ ٣٥٨.

(٢) هشام جعيط، *الفتنة*، ص٢٧٢.

(٣) حرزالشيء حرسه وحافظ عليه.

(٤) البلاذري، *فتوح البلدان*، منشورات مؤسسة المعارف، بيروت، ١٩٨٧، ص٤٠٦؛ الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٤، ص٥٩.

ثم تعردون[١]، ثم تطلبون البراءة و لا براءة لكم[٢]». ويضيف عليّ: «وتُعينُون عليه شرَّ أهلِ زمانه في نسبه وسيرته»[٣].

كما ذكر عبد الله بن مطيع أهل الكوفة للحسين بقوله: «ولا تأت الكوفة فإنّها بلدة مشؤومة بها قتل أبوك وطُعن أخوك»[٤].

وستحدّد هذه العلاقة بعليّ علاقة أهل الكوفة بالحسين بن عليّ.

وضعيّة السّلطة الأمويّة بالكوفة عند حلول مسلم بن عقيل

كان النّعمان بن بشير الأنصاري، عامل الخليفة يزيد بن معاوية على الكوفة، وكان «رجلا حليمًا يحبّ العافية»[٥]. وعندما سمع بقدوم مسلم خطب النّاس فدعاهم إلى «التمسّك بالطّاعة والاستقامة، وحذّرهم من الفرقة والفتنة. وقال لهم بأنّه لا يُقاتل إلاّ من قاتله ولا يأخذ أحدا بظنّة وقرف وإحنة»[٦].

كان النّعمان بن بشير من أخطب النّاس[٧] لكنّه كان يعتبر ذو شخصيّة «ضعيفة» مقارنة بشخصيّة زياد بن أبي سفيان. فهو لم يُرد عِقاب أهل الكوفة على انضمامهم لمسلم بل اكتفى بدعوتهم للتمسّك بالطّاعة والجماعة ـ وهي إحدى دعائم الإيديولوجيا الأمويّة. كما خوّفهم من الفتنة وشقّ عصا الجماعة لكنّه صرّح أنّه لن يبادر لقتالهم ما لم يُقاتلوهُ. ولا يقتل لمجرّد الظنّ وهذا تعريض بسياسة زياد في العراق.

وكان ردّ فعل الأشراف سريعا ومرتبطًا بمصلحة الدّولة وحفاظا على مصالحهم حيث كتب عمر بن سعد بن أبي وقّاص، وعبد الله بن مسلم بن سعيد الحضرميّ

---

(١) ابن منظور، معجم مذكور، ج٢، ص٧٢٨: «عرّد الرّجل عن قرنه إذا أحجم ونكل. والتّعريدُ: الفرار، وقيل: التعريد سرعة الذّهاب في الهزيمة».

(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٦٣؛ج٥، ص٤٠٧.

(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٠٧.

(٤) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٦٨.

(٥) البلاذري، مصدر مذكور، ج٢، ص٣٣٤.

(٦) البلاذري، مصدر مذكور، ج٢، ص٣٣٤ ـ ٣٣٥.

(٧) ابن سعد، مصدر مذكور، ج٦، ص١٢٢.

حليف بني أميّة وعمارة بن عقبة بن أبي معيط ومحمّد بن الأشعث الكندي، وغيرهم، كتبوا إلى يزيد بن معاوية بقدوم مسلم بن عقيل، وإرسال الحسين إيّاه إلى الكوفة، «وما ظهر من ضعف النّعمان بن بشير وعجزه ووهن أمره»[1].

هؤلاء الأشراف ينتمي البعض منهم لقريش، وهم من شيعة بني أميّة، أي كانت هناك نواة في الكوفة ترتكز على أنصار من نوع خاصّ للأمويّين كعمر بن سعد بن أبي وقّاص الذي ينتمي لزهرة بن كلاب من بني عبد مناف. كان أبوه سعد بن أبي وقّاص صحابيّا، وهو أحد العشرة الذين كان الرّسول يسمّيهم فيقول: «فلان في الجنّة، وفلانٌ في الجنّة». شهد بدرا والمشاهد كلّها مع الرّسول. فتح القادسيّة، ونزل الكوفة واختطّ بها خططا لقبائل العرب. وهو أحد السّتّة الذين جعل عمر بن الخطّاب الشّورى إليهم بعده[2].

وأمّ عمر بن سعد مارية بنت قيس بن معْدي كَرِب بن أبي الكَيْسم بن السِّمْط بن امرئ القيس من كندة[3]. كما تزوّج عمر بن سعد زوجتين من كندة[4]. وتتبوّأ هذه القبيلة مكانة هامّة في الكوفة ممّا يمّكن عمر بن سعد من الاستفادة من استراتيجيّة علاقات الزّواج واحتلال موقع هامّ في القرار السّياسي بالكوفة نظرا لشرفه وماضي أبيه كصحابيّ من البدريّين ومُمصّر للكوفة.

كما كان من قريش بالكوفة عمارة بن عقبة بن أبي مُعيط[5] ـ وهو أموي ـ، ومن أنصار بني أميّة أيضا بالكوفة عبد الله بن مسلم بن سعيد الحضرميّ حليف بني

---

(١) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٢، ص٣٣٥.

(٢) مصعب الزّبيري، *مصدر مذكور*، ص٢٦٣؛ ابن سعد، *مصدر مذكور*، ج٦، ص٩٢.

(٣) مصعب الزّبيري، *مصدر مذكور*، ص٢٦٤.

(٤) ابن سعد، *مصدر مذكور*، ج٥، ص١٢٨.

(٥) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٤٩؛ مصعب الزّبيري، *مصدر مذكور*، ص١٣٥ ـ ١٣٨ ـ ١٤٠ ولد أبو عمرو بن أُميّة: أبانًا، وهو أبو مُعَيْط. ومن ولدِ أبو مُعَيْط بن أبي عمرو: عُقْبةُ قتله الرّسول يوم بدر صبرًا. فولدُ عُقبة بن أبي مُعيْط: الوليدَ، وكان من رجال قُرَيش وشعرائهم؛ وكان له سخاءٌ؛ استعمله عثمان بن عفّان على الكوفة؛ فرفعوا عليه أنّهُ شرب الخمر؛ فعزله عثمان وجلده الحدّ. وأخوهُ عُمارة بن عُقبة نزل الكوفة؛ وله يقول الوليد: =

أميّة[1]. وبالتّالي كان هناك من «شيعة يزيد»[2] أو «ممّن يهوى يزيد»[3] نواة صلبة بالكوفة أي أنّها كانت تسعى للحفاظ على المصالح الأمويّة بالكوفة.

فمفهوم شيعة الخليفة يتعارض مع مفهوم شيعة الحسين بن عليّ. فيبدو الصّراع قائما بين هذين المفهومين مثل الصّراع بين يزيد والحسين. كما أنّ مفهوم «الهوى» فيه جانب عاطفي أي تعاطف وحبّ أنصار الخليفة له. وهذا «الحبّ» ليس عاطفيًا ودينيًا مثل حبّ أهل الكوفة للحسين لكنّه حبّ متعلّق بالانتماء لقريش، أو علاقة الحلف لبني أميّة، أو ارتباط مصالحهم بمصالح الدّولة كأشراف الكوفة.

ردّ فعل الخليفة يزيد بن معاوية تجاه تحرّك الحسين بن عليّ

ولّى الخليفة معاوية بن أبي سفيان على الكوفة عبد الرحمن بن أم الحكم بعد موت زياد. ثمّ عيّن النّعمان بن بشير الأنصاري[4] الذي كان «عثمانيًّا مجاهرًا ببغض عليٍّ، سيّء القول فيه»[5].

بلغ الخليفة يزيد بن معاوية خبر إرادة الحسين بن عليّ الخروج إلى الكوفة[6]. «فغمَّه ذلك وساءَهُ»، فاستشار سرجون مولى آل معاوية ـ وهو كاتبه و «أنيسه» ـ

= وإنْ يكُ ظنّي بابنِ أُمّيَ صادِقًا ... عُمارةَ لا يُدْرَكْ بِدخلٍ ولا وِتْرِ.
تُضاحِكُ أقتالَ ابنِ عفّان لاهِيا ... كأنّكَ لمْ تَسْمعْ بِموتِ أبي عمرِو.
البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٦، ص٩٧: «وإخوة عثمان لأمّه: الوليد، وخالد، وعمارة، وأمّ كلثوم، بنو عُقبة بن أبي مُعَيْط».

(١) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٥٦.

(٢) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٥٧.

(٣) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٤٨.

(٤) ابن سعد، *مصدر مذكور*، ج٣، ص١٢٢ ـ ١٢٣: ينتمي النّعمان للخزرج. وكان أوّل مولود من الأنصار وُلد بالمدينة بعد هجرة الرّسول. شهد صفّين مع معاوية وولي اليّمن لمعاوية ثمّ الكوفة وأقام بها. وكان عثمانيًا ثمّ عزله معاوية بن أبي سفيان (عزله يزيد وليس معاوية). فانتقل إلى الشّام. فلمّا مات يزيد بن معاوية أصبح النعمان زبيريًا، وكان عاملاً على حِمص. فلمّا قُتل الضحّاك بمرج راهط في ذي الحجّة سنة ٦٤ في خلافة مروان بن الحكم هرب النعمان بن بشير من حمص، فقبضوا عليه واحتزّوا رأسه ووضعوه في حجر زوجته الكلبيّة، وقد افتتح عهد مروان بقتله، وكان معروفًا بخطابته؛ ابن حزم، *مصدر مذكور*، ص٣٦.

(٥) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٣٦٩.

(٦) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٠٧.

والمقصود بالأنيس المستشار والنديم. استشار سرجون عمّن يولّي الكوفة، فنصحه بتولية عبيد الله بن زياد. فأجابه يزيد بأنّه لا خير يرجى منه. لكنّ سرجون ذكر له إن كان معاوية حيًّا وأشار به عليه فهل كان سيولّيه.

فأجاب يزيد بنعم؛ عندها أخرج سرجون عهد معاوية بخاتمه بتولية عبيد الله بن زياد. و قد أخفى سرجون عهد معاوية وكان قد ولاّه لعلمه بكره يزيد له. فأرسل يزيد إليه بعهده على الكوفة و عزل النّعمان بن بشير الأنصاري. وأرسل رسالة لعبيد الله بن زياد بيّن له فيها ارتفاع قدره بهذا التّعيين متمثّلا بيت شعر:

رُفِعتَ فَجَاوَزْتَ السَحابَ وفَوْقَهُ   فَماَ لكَ إلاّ مَرْقبَ الشَمْسِ مقْعدُ

فكأنّ الخليفة يزيد بن معاوية أراد أن يضع عبيد الله بن زياد في موضعه ويذكّره بأنّه صاحب نعمة عليه حتّى لا يعدو طوره.

لماذا اغتمّ يزيد بن معاوية واستاء لهذا الخبر؟ هل أيقن يزيد من أنّه سيستعمل العنف عنف الدولة مع ابن عمّه يزيد؟

تبرز طريقة جديدة لتَعيين الولاة أو والي الكوفة ـ وهو ابن أخ معاوية ـ، وهي طريقة وضعها الخليفة معاوية مثلما وضع العهد لابنه يزيد. وهذا العهد هو عهد مختوم حتّى يكتسب شرعيّة تاريخيّة في نظر النّاس.

لماذا ترك معاوية عهدا مكتوبا؟ هل كان متخوّفا من رفض يزيد لتولية عبيد الله بن زياد لكرهه له، فترك عهدا مكتوبا ـ وهو عادة لم يسبقه إليها أحد ـ؟ ما هو سبب كره يزيد لعبيد الله بن زياد؟ هل كان يزيد يكره عنف ابن زياد؟

هل أراد معاوية أن يجعل منصب والي العراق وراثيّا مثل الخلافة؟ هل كان هناك اتّفاق ضمنيّ وسريّ بين الخليفة معاوية وزياد بن أبي سفيان على تولية عبيد الله بن زياد؟ وروى بعض رجال قريش أنّ الخليفة يزيد بن معاوية كتب إلى ابن زياد: «بلغني مسير حسين إلى الكوفة وقد ابتُلي به زمانك من بين الأزمان، وبلدك من بين البلدان، وابتُليت به من بين العمال، وعندها تعتق أو تعوذ عبدًا كما يُعتبد العبيد»[1].

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٧١؛ مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص١٢٧ ـ ١٢٨.

يعتبر هذا الخبر تشجيعا للوالي على استعمال العنف ضدّ الحسين بن عليّ. فقد كان الخطاب السّياسي للخليفة واضحا.

حلول عبيد اللّه بن زياد للكوفة

كان الخليفة سريعا وصارما في اتّخاذ القرارات. وهذا دليل على حرصه على الدّفاع على ميراث أبيه وعلى إيديولوجيا الدّولة.

فاتّخذ الوالي المناسب لهذا النّوع من المهمّات، وهو عبيد الله بن زياد الذي هو امتداد لزياد (أخ معاوية والمنفّذ الوفيّ لسياسته بالعراق). فقد أرسل الخليفة يزيد بن معاوية إلى عبيد الله بن زياد رسالة تعيينه على الكوفة والبصرة مع مسلم بن عمرو الباهلي ـ وهو أب قتيبة بن مسلم ـ وكان عنده بدمشق[1]. وكتب الخليفة لعبيد الله حسب رواية أولى للطّبري أن يبحث عن مسلم بن عقيل فيقتله إن وجده[2].

وتذكر رواية ثانية للطّبري[3] رسالة الخليفة يزيد بن معاوية لعبيد الله بن زياد وهذا نصّها: «أما بعد، فإنّه كتب إليّ شيعتي من أهل الكوفة يخبرونني أنّ ابن عَقيل بالكوفة يجمع الجموعَ لشقّ عصا المسلمين؛ فسِرْ حين تقرأ كتابي هذا حتى تأتيَ أهل الكوفة فتطلب ابن عقيل كطلب الخرزَة[4] حتى تثقَفَهُ[5] فتوثِقه أو تقتلَه أو تنفيه».

وتذكر رواية البلاذري أنّ الخليفة يزيد بن معاوية أرسل مسلم بن عمرو الباهليّ بعهد عبيد الله بن زياد على الكوفة والبصرة، وأمره بالبحث عن ابن عقيل ونفيه، إذا ألقى عليه القبض، أو قتله.

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٥٧.

(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٨.

(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٥٧.

(٤) ابن منظور، معجم مذكور، ج١، ص٨١١: الخرَزَة: حمْضةٌ من النَّجيل ترتفع قدر الذّراع خضراء ترتفع خِيطانًا من أصل واحد لا ورق لها، لكنّها منظومة من أعلاها إلى أسفلها حَبًّا مدوّرا أخضر في غير عِلاقة كأنّها خرزٌ منظوم في سلك، وهي تقتل الإبل.

(٥) ابن منظور، معجم مذكور، ج١، ص٣٦٥: ثَقِفَ الرجل: ظفِر به.

كما أمره أن «يتيقّظ في أمر الحسين بن علي ويكون على استعداد له»[١].

تصرّف الخليفة يزيد بن معاوية من موقعه كإمام حريص على وحدة الأمّة لذلك اعتبر مسلم بن عقيل شاقًا لعصا المسلمين. وفي هذا يُعتبر الخليفة حريصا على أمر الوالي بالبحث عن مسلم بن عقيل ـ بما أنّه كان متخفّيًا في الكوفة. وأمره كذلك باتّخاذ الإجراءات التي يجب اتّخاذها تجاه مسلم بن عقيل وهي من أقصى درجات العقاب أي النفي أو القتل. كما أمر الوالي بالاستعداد لقمع الحسين بن عليّ.

أمر الخليفة يزيد بن معاوية عبيد الله بن زياد بفتح واجهتين لقمع ثورة الحسين بن عليّ ـ طِبقا لطبيعة هذه الثورة التي تحوي حركتين في حركة واحدة وثورتين في ثورة واحدة. أمر الخليفة واليه على العراق أن يعاقب مسلم بن عقيل بأقصى درجات العقاب السّياسي وهي السّجن أو النّفي أو القتل، ويرد قرار القتل كقرار إحادي وأوحد في خبر واحد، بينما يرد في الأخبار الأخرى هو وقرار النّفي في نفس المرتبة. وفي كلّ الحالات، تعتبر هذه القرارات صارمة وعنيفة على مستوى العقاب السّياسي لأنّ الإيثاق يعني حسب اعتقادنا السجن.

هل كان قرار السّجن مرتبطا بالنّفي والقتل؟

المهمّ أنّ تعريض جسد ابن عقيل ـ أحد أفراد أهل البيت ابن عمّ الرّسول ـ، للسجن[٢] دلالة على تطوّر طريقة التّعامل مع جسد المُعارض. فهو جسد معرّض لعقوبة الدولة، كما أنّ هذه الأخيرة أصبحت تستعمل كوسيلة من وسائل فرض سلطتها وقمع كلّ الخارجين عن طاعتها.

يبدو الخليفة يزيد بن معاوية لا يقلّ حزمًا عن الخليفة معاوية. فقد سارع إلى تعيين ـ ابن عمّه ـ عبيد الله بن زياد بن أبي سفيان للقضاء على هذه الثّورة.

كما أنّ محتوى أمْر الخليفة ـ في رواية البلاذري ـ فيه وضوح والتباس في نفس الوقت. فماذا أراد الخليفة من وراء هذا الأمر المزدوج الأركان؟

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٢، ص٣٣٥.

(2) Michel Foucault, *Idem*,p.270.

هل أراد من الوالي أن يقتل مسلم بن عقيل، وكان استعمال كلمة النّفي مجرّد تمويه حتّى لا يتعدّى للقتل مباشرة. بينما أراد الخليفة من الوالي أن يقمع ثورة مسلم بن عقيل قمعا.

كما أنّ الاستعداد للحسين بن عليّ أتمّ الاستعداد هو دلالة على تحريض الخليفة للوالي على اتّباع نفس السّياسة أي سياسية القتل المبرم والقمع. ويدخل التيقّظ الذي أمر به الخليفة الوالي في إطار نصب المحارس ومراقبة الطّرق حتّى يحصر الحسين وجماعته.

فالخليفة لم يترك للوالي حريّة التصرّف في كيفيّة القضاء على ثورة مسلم بن عقيل. ونلحظ مركزيّة هائلة للسّلطة وابتداء لعنف سياسي جديد ضدّ صنف جديد من المعارضة وهي معارضة أهل بيت الرّسول للسّلطة الأمويّة. وبالتّحديد حفيد الرّسول الحسين بن عليّ وأحد أفراد عشيرة بني هاشم من قريش. وهو ليس إلاّ ابن عمّ يزيد! كما أنّ مسلم بن عقيل هو ابن عمّ يزيد.

كان يزيد بن معاوية ذكيّا وسياسيّا على درجة كبيرة من حذق للسّياسة وحاضر البديهة وسريعا في قمع الثّورة قبل استفحالها ـ أي تحصّلها على الأنصار وقوّة السّلاح وأساسا تغلغلها في النّفوس كحركة عاطفيّة ودينيّة ورمزيّة على درجة كبيرة من الرمزيّة لأنّها تُحْيِي الرّسول كشخصيّة ميتا ـ تاريخيّة لا تموت، ومن وراء النبيّ عظمة وشرعيّة القرآن والسنّة.

وكلّ هذه الرّموز كانت سيلا مهدّما للإيديولوجيا الأمويّة في بدايات تكوين الدّولة خاصّة إيديولوجيا الطّاعة وكذلك الشرعيّة التّاريخيّة الأمويّة. فكان لا بدّ عليه أن يقمع هذه الحركة في المهد. على هذا الأساس، تصلّبت سياسته بسرعة واتّخذت منحى جديدا.

وهي صفات سيبرهن عنها الخليفة عبد الملك بن مروان في ما بعد عند قضائه على ثورة عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق ـ ابن عمّه الذي ثار عليه وافتكّ منه السّلطة وغلب على دمشق عاصمة الخلافة ـ فكان جزاؤه القتل المبرم حيث ذبحه

الخليفة بنفسه وقمع ثورته ونفى إخوته وأبناءه إلى عدوّهم مصعب بن الزّبير بالعراق[1]. وتتّفق كلّ الرّوايات على أنّ الخليفة أرسل مسلم بن عمرو الباهليّ بعهد عبيد الله على البصرة والكوفة وبرسالته التي يحدّد فيها ما يجب فعله تجاه مسلم بن عقيل والحسين بن عليّ.

أرسل يزيد في هذه المهمّة الخاصّة والسريّة أحد رجاله الثّقات، الذي لم يكن رسولا فقط بل سيكون من حاشية الوالي.

هل كان عَيْن الخليفة على عبيد الله بن زياد؟ أم أنّه كان مستشارًا لعبيد الله في هذه الأزمة الكبرى التي تمرّ بها الدّولة لأوّل مرّة منذ تأسيسها ـ خاصّة أنّه عراقيّ وبصريّ بالأساس أي خبير بخصوصيّة الأمصار ـ؟

مهما كانت دوافع هذه الفئة المرتبطة بالسّلطة فإنّها كانت متيقّظة لكلّ محاولة للخروج عن سلطة الدّولة ويساعدون الدولة للقضاء عليها.

أحاط الخليفة يزيد بن معاوية واليه على العراق بنخبة من رجال الدّولة المناصحين والحريصين على نجاح السّلطة الأمويّة في مهمّتها.

وهذه المهمّة هي الإبقاء على قوّة الإيديولوجيا الأمويّة لأنّ في بقاء كيان الدّولة قويّا، تبقى هذه الفئة من الأشراف محافظة على مصالحها الماديّة والسياسيّة والإداريّة والاجتماعيّة. فهذه الفئة مصلحيّة إلى أبعد الحدود، وكانت تدافع عن مصالحها بكلّ ما أوتيت من قوّة داخل الدّولة التي تضمن لها الأمن والاستقرار.

إذا نشأت حول الخليفة يزيد في بلاطه الملكيّ بالخضراء فئة من رجال الدّولة ـ خلافا لما يُروّج عنها من المجون والفسق ـ تلعب دور الحاشية كان الخليفة يستشيرها في أمور الدولة. وهذه الفئة ليست شاميّة من كلب أو القبائل الشّاميّة الأخرى فحسب بل من أشراف الأمصار كمسلم بن عمرو الباهليّ. وهذه الفئة

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٦، ص١٤٥ ـ ١٤٦.

ستلعب دورا هامّا في بناء الدولة وهذا يؤكّد أنّه لم يكن معزولا عن واقع الأمصار بل كان مواكبا لكلّ التطوّرات السياسيّة بواسطة أنصاره بها.

عزل الخليفة يزيد بن معاوية النّعمان بن بشير الأنصاري، وعيّن عبيد الله بن زياد[1] الذي جاء للكوفة متلثّمًا بعمامة سوداء[2] مصحوبًا بأشراف البصرة حتّى أنّ النّاس حسبوه الحسين وكانوا يسلّمون عليه منادين إيّاه بابن رسول الله «قدمت خير مقدم»[3]، أو سلّموا عليه «مرحبا يا ابن ابنة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم»[4]. فقد كانوا منتظرين قدومه عليهم.

وفي رواية أخرى[5]، وجد عبيد الله نفسه معزولاً (بعد أن انفضّ عنه رجاله)، فاعتجر بمعجَرة يمانيّة[6]، وركب بغلته، ثمّ ترجّل ومشى وحده. ومرّ بالمحارس[7]، فكان النّاس يسلّمون عليه يرحّبون به على أساس أنّه ابن بنت الرّسول لكنّه لم يُجبهم. وخرج إليه النّاس من بيوتهم يسلّمون عليه. ولم يجبهم الوالي وكان شديد الاستياء من فرحة النّاس بقدوم الحسين وغمّه ذلك[8]. وقال: «ألا أرى هؤلاء كما أرى»[9]. صُدِم عبيد الله بن زياد من فرح النّاس بقدوم الحسين.

وفي رواية أخرى أجابهم مسلم بن عمرو الباهليّ لـمّا أكثروا من التّرحيب

---

(١) سنعود لذكر ملابسات التّعيين في عنصر ردّ فعل الخليفة يزيد بن معاوية تجاه تحرّك الحسين.

(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٢، ص٣٣٥؛ الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٥٨.
ابن منظور، معجم مذكور، ج٢، ص٨٨٩: العمامة: من لباس الرّأس. وعُمّم الرجل: سُوِّد لأنّ تيجان العرب العمائم، وكانوا إذا سوّدوا رجلا عمّموه.

(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٨؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٢، ص٣٣٦.

(٤) البلاذري، مصدر مذكور، ج٢، ص٣٤٢.

(٥) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٥٩.

(٦) ابن منظور، معجم مذكور، ج٢، ص٦٩٠: الاعتجارُ: لفّ العمامة دون التّلحّي. والمِعْجر والمعاجرُ: ضرب من ثياب اليمن.

(٧) مناطق الحراسة.

(٨) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٥٨؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٢، ص٣٣٦.

(٩) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٥٨.

بالحسين، فطلب منهم أن يتأخّروا لأنّه الأمير عبيد الله بن زياد[١].

ولعلّ هذا الشّريف أحسّ بغضب الوالي من هذا الاستقبال الموجّه للحسين على حسابه وبالتالي رفض النّاس لمقدمه، فأسرع الشّريف لتبديد أحلامهم. كما تختلف الرّوايات في طريقة دخول عبيد الله بن زياد القصر.

فكلّ الرّوايات اتّفقت على أنّ عبيد الله كان مرفوقا بموكب. ما عدا رواية واحدة تؤكّد على أنّه كان وحيدا.

تتفرّد هذه الرّواية بهذا الخبر. فقد سمع بهم النّعمان بن بشير فغلّق الأبواب عليه وعلى خاصّته. ووصل إليه عبيد الله بن زياد ـ والنّعمان لا يشكّ أنّه الحسين ومعه النّاس في جلبة كبيرة[٢].

وكلّمه النّعمان فطلب منه أن يتنحّى عنه لأنّه لن يسلّم له أمانته. والمقصود بالأمانة ـ السّلطة والولاية ـ كما أضاف بأنّه لن يقتله، لكنّ عبيد الله لم يجبه.

«ثمّ إنّه دنا وتدلّى الآخر بين شُرفتين[٣]» ونفد صبر عبيد الله فكلّم النّعمان: «افتح لاَ فتحتَ، فقد طال ليْلُك». فسمع الصّوت أحد رجال النّعمان، فأخبر القوم بأنّه ابن مرجانة. لكنّهم لم يصدّقوه واعتبروا الطّارق الحسين. وفتح النّعمان له الباب، فدخل. وأغلقوا الباب في وجوه النّاس.

تبدو هذه الرّواية مغرقة في الطّابع المسرحي حيث تسلّم عبيد الله السّلطة في جوّ من الالتباس بين هويّتين، هويّة الحسين بن عليّ وهويّة الوالي الأموي وفي الاضطراب والفرحة الانتظار أو الترقّب. فلم يتوقّف الالتباس على أهل الكوفة بل شمل أيضا الوالي السّابق وأعوانه. وعبّر هذا الأخير على احتراز تجاه الحسين من باب المحافظة على سلطته لكنّه لم يكن حازما في موقفه.

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٥٨.
(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٥٩.
(٣) ابن منظور، معجم مذكور، ج٢، ص٣٠١: الشّرْفةُ: ما يوضعُ على أعالي القصور والمُدن، والجمع شرفٌ.

وشعُر أهل الكوفة بعد أن علموا بقدوم عبيد الله بن زياد «بكآبة وحزن شديد»[1]. إذ انقلب جوّ الفرح العارم الذي كان يحسّ به ويعيشه أهل الكوفة منتظرين الحسين إلى جوّ من الحزن. وهو تعبير سابق لأوانه ربّما عن هذا الحزن الذي سيحدث بعد مقتل الحسين. فهذه الحركة ابتدأت منذ بداياتها بتدفّق عاطفي كبير ينتقل من أقصى حالات الفرح إلى أعمق حالات الحزن.

يبدو دخول عبيد الله بن زياد إلى الكوفة في شكل مسرحي (اللّثام وسكوت عبيد الله عن الإجابة هو بدون شكّ نوع من التأكّد ممّا قيل له عن شعبيّة الحسين بن عليّ). كما أنّ هذا الدّخول هو تأريخ لفترة جديدة من الحكم الأموي بالكوفة وبالعراق.

يندرج هذا التلثّم في إطار مغالطة أهل الكوفة حتّى يتأكّد من قوّة الحركة ودرجة تطوّرها. ربّما حرص الوالي على طابع التكتّم حتّى يتمكّن من القضاء على هذه الحركة. كما أنّنا لا نعتقد أنّه كان يستطيع أن يُجيب أهل الكوفة بما أنّه لم يقدم في جيش بل كان في قلّة من رجاله.

كما اعتبر أهل الكوفة الحسين ابن النبيّ وبالتّالي «نفوا» بنوّته لعليّ بن أبي طالب في حركة عاطفيّة تصلُهم بالرّسول وتربطهم به. وهنا لعب الرّمز دورا هامّا في هذه الحركة بالكوفة في تلك الفترة.

تطوّر موقف أهل الكوفة عندما سمعوا بقدوم الحسين، فقرّبوا الحسين من الرّسول حيث أصبح ينحدر منه مباشرًا. وهذا يُعبرُ عن قوّة الرّمز المرتبط بالرّسول وبأهل البيت.

كان هذا الالتباس والخلط الذي تبادر لأذهان الكوفيّين، (أي ظنّوا أنّ المتلثّم هو الحسين بن عليّ) تعبير عن صراع قام في تلك اللّحظة بين شخصيّتين مختلفتين اختلافا كبيرًا (أي الحسين بن عليّ والولي عبيد الله بن زياد).

ويكمن الاختلاف أساسًا في تواجد شرعيّتين متصارعتين: شرعيّة ابن الرّسول ـ بما أنّ الرّسول لم يترك ابنا ـ أو ابن ابنته.

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٥٨.

وبالتّالي يتجلّى في دخوله قوّة الرّمز (غيبة الرّسول)[1] وأساسا الدّيني بكلّ قوّته والعاطفي في اندفاعه.

وتتمثّل شرعيّة عبيد الله بن زياد في الانتماء لسُميّة - جدّته البغيّ - ولمرجانة أمّه وهي أمّ ولد[2]. وقد دخل الكوفة مُمَثّلا لشرعيّة الدّولة الأمويّة ولإيديولوجيّتها أي كان يمثّل السّياسي.

تؤكّد كلّ الرّوايات أنّ عبيد الله بن زياد دخل هو ومرافقيه قصر الإمارة[3]. المهمّ أنّ دخول عبيد الله القصر هو تعبير ودلالة على السّيطرة الفعليّة على السّلطة والحكم. وسيتغيّر موقفه من السّكوت إلى اتّخاذ القرارات.

يُعتبر القصر بالكوفة إنجازا معماريّا عظيما قام به زياد بن أبي سفيان. وقد شمل عناصر ثلاثة هي الحزام الخارجي والجدار الداخلي وعدّة بنايات. لا يقل قياس الحزام الخارجي عن ٢٠، ١٦٨ مترا للضلع الشمالي الجنوبي، و٦٨، ١٦٩ مترا للضلع الشرقي الغربي. كان بناء من آجر، وقد أحيط بـ ٢٣ برجًا، فتحصّن فيه عبيد الله بن زياد مع الأشراف. وكان حزاما تحصّنت وراءه السلطة، فقام بدور رئيسي لصدّ الانتفاضات[4].

وقد بدأت فترة عبيد الله بن زياد بإلقاء خطبة على أهل الكوفة كانت استفتاحًا لفترة ولايته وبالتّالي بداية عهده بقمع مسلم بن عقيل وحركة الحسين.

وتعتبر الخطبة عنصرا ثانيا من عناصر السّيطرة على السّلطة في الكوفة. اجتمع النّاس، وخطب ابن زياد خطبة[5] وعد فيها بتطبيق أوامر الخليفة[6].

---

(١) وهو المقتول أو الشّهيد.

(2) Lynn Hunt, *Erotism and the Body Politic*, The Johns Hopkins University Press, Baltimore and London, 1991,p.108 - 130.

(٣) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٢، ص٣٤٢.

(٤) هشام جعيط، ، *نشأة المدينة العربيّة الإسلاميّة الكوفة*، ص٢٢٢.

(٥) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٢، ص٣٣٦.

(٦) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٥٨ - ٣٥٩.

سرى خبر قدوم الحسين بن عليّ في الكوفة سريانًا سريعا وسلّم النّاس على عبيد الله بن زياد على أساس أنّه الحسين نظرًا لوجود مسلم بن عقيل فحسبوا أنّ قدوم الحسين على هذا الشّكل كان نتيجة طبيعيّة لقدوم مسلم قبله. انتقل عبيد الله بن زياد في موكب يتركّب من أشراف البصرة وهم المنذر بن الجارود العبدي[1]، وشريك بن الأعور الحارثي[2]، ومسلم بن عمرو الباهليّ[3] وهو رسول الخليفة يزيد بن معاوية لعبيد الله بن زياد. وقد أعلمه بخبر توليته على الكوفة والبصرة. وهو يعتبر أيضا من أشراف البصرة ينتمي لباهلة بالبصرة، كما أنّه كان نديم وصديق الخليفة يزيد بن معاوية وأب قتيبة فاتح بلاد ما وراء النّهر. وربّما خصّ عبيد الله بن زياد المنذر بن الجارود بشرف مصاحبته إلى الكوفة لأنّه أعلمه بخبر رسالة الحسين بن عليّ. إضافة لعلاقة التّصاهر التي تربط بينهما. وكان شريك بن الأعور الحارثي «شديد التشيّع»، فقد شهد صفّين مع الصّحابي عمّار بن ياسر[4]. كما أرسله المغيرة بن شعبة الثّقفي ـ والي الكوفة من قبل معاوية سنة ٤٣هـ لقتال الخوارج نظرا لقتاله لهم مع عليّ. وانتدب فرسان ربيعة في البصرة من الشّيعة، وكانوا يطيعونه[5]. كان ربّما عامل زياد بن أبي سفيان (والي العراق من قبل

---

(١) ذكره البلاذري فقط.

(٢) ابن دريد، مصدر مذكور، ص٤٠١: من مذحج شريك بن الأعور الحارثي، وهو الذي خاطب معاوية، وله حديث، فقال في ذلك:

أيشتمني معاويةُ بن حربٍ وسيفي صارمٌ ومعي لساني

البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص١٢٢ ـ ١٢٣: «كان رجلاً دميما آدم شديد الأُدْمة شريفًا في قومه».

(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣١٢: كان نديما ليزيد يشرب معه ويغنّيه فقال الشّاعر حين عُزل يزيد بن المهلّب عن خراسان ووليّها قُتيبةُ:

شتّان مَن بالصنج أدرك والذي بالسّيف أدرك والحروبُ تسعّر

يدخل هذا الهجاء في إطار الصّراع بين اليمنيّة والقيسيّة في فترة الخليفة الوليد بن عبد الملك؛.

ابن حزم، مصدر مذكور، ص٢٤٦ باهلة من قيس.

(٤) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٩٤.

(٥) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص١٩٣ ـ ١٩٤.

معاوية) على اصطخر[1]. فقد حمل إليه مالا من عمله. وكان كريما على عبيد الله بن زياد وغيره من الأمراء أو الولاة[2].

يبدو أنّ شريك بن الأعور كان شديد التشيّع أي شديد التعلّق بعليّ بن أبي طالب. لكن في نفس الوقت كان مرتبطا ارتباطا وثيقًا بالولاة ومن بينهم ابن زياد. وكان يبذل لهم من ماله الخاصّ.

فهل كان تشيّعه تشيّعا «نشيطا» أي هل سيساعد الحسين بن عليّ؟ أم أنّه سينضوي تحت السّلطة الأمويّة للحفاظ على مصالحه الاقتصادية؟ وبالتّالي هل خدم مصلحة الدّولة على حساب الحسين بن عليّ؟

كان هؤلاء الأشراف في ماض غير بعيد من رجال وشيعة عليّ بن أبي طالب ما عدا مسلم بن عمرو الباهليّ. لماذا اختار عبيد الله بن زياد هذين الشّريفين الّذين لديهما حبّ لعليّ بن أبي طالب لمصاحبته للكوفة؟ هل كان متخوّفا منهما على البصرة عند تغيّبه بالكوفة فاصطحبهما؟ هل كان سيكلّفهم بمهمّة بالكوفة؟ هل سيساعداه على تأطير عشائرهم للقضاء على ثورة الحسين؟

من المؤكّد أنّ الوالي كان يبحث عن دعم هؤلاء الأشراف ومساندتهم له في انتقاله للكوفة. فالسّلطة ـ أو الوالي ـ ليس لديها جيش نظاميّ تنتقل به من البصرة إلى الكوفة. فالسّلطة تبدو «معزولة» بما أنّها تتنقّل في عدد قليل من النّاس. كما أنّهم يمثّلون النّخبة. كما انتقل الوالي في حشمه[3] وغلمانه[4] وأهل بيته[5]. يكتسي مفهوم أهل البيت في هذا السّياق مفهوم العائلة أي عائلة عبيد الله بن زياد.

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٢٥٠؛ ياقوت، معجم مذكور، ج١، ص٢١١: إصْطَخْر «وهي من أعيان حصون فارس ومُدُنها وكُوَرها».

(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٣.

(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٥٨؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٢، ص٣٣٥.
ابن منظور، معجم مذكور، ج١، ص٦٤٦: الحشَمُ خدم الرّجل، وسُمّوا بذلك لأنّهم يغضبون له.

(٤) البلاذري، مصدر مذكور، ج٢، ص٣٣٥.

(٥) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٥٨: مفهوم أهل البيت: يتمثّل هذا المفهوم في عائلة الوالي؛ ابن منظور، معجم مذكور، ج١، ص١٢٤: أهل الرّجل وأهل الدّار، سكّانه. وأهل الرجل أخصّ النّاس به.

وفي رواية أخرى، ذكر البلاذري أنّ عبيد الله خرج على بغاله هو واثنا عشر رجلاً حتّى قدم الكوفة[1]. ويؤكّد الطّبري هذه الرّواية «وإنّما معه بضعة عشر رجلاً»[2].

انتقل الوالي في موكب وفي هذا تعبير على تطوّر مظاهر السّلطة بولاية العراق وأساسا البروتوكول أو التّشريفات. ويعتبر هذا التطوّر تواصلا لفترة زياد بن أبي سفيان، وهي فترة أساسيّة في تاريخ المؤسّسات الأمويّة بالعراق. لكنّ هذا الموكب لم يكن موكبًا كبيرًا. ولم يكن جيشًا لأنّه لم يكن الوالي غبيًّا ليهاجم الكوفة بمقاتلة البصرة. فهو بدون شكّ يعرف خصوصيّة هذا المصر ولم يكن ليضرب هذه النّرجسيّة التي يحسّ بها أهل الكوفة التي تتأتّى من الدّور الذي لعبته في الفتوحات، وفي كتابة القرآن. ثمّ في الخلافة، عندما انتقلت السّلطة من المدينة إليها في عهد عليّ بن أبي طالب.

وذكر الطّبري[3] رواية أخرى، لانتداب عبيد الله بن زياد ـ بعد أن جاءه كتاب الخليفة يزيد يأمره فيه بالذّهاب إلى الكوفة ـ انتدابه لخمسمائة من أهل البصرة فيهم عبد الله بن الحارث بن نوفل، وشريك بن الأعور. وقد كانا من شيعة عليّ بن أبي طالب. فعبد الله بن الحارث بن عبد المطّلب بن هاشم، هو الذي يُقالُ له «بَبَّة»[4].

أعطت هذه الرّواية دورا لعبد الله بن الحارث سيلعبه في ما بعد عند موت الخليفة

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٢، ص٣٤٢.
(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٥٨.
(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٥٩.
(٤) مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص٨٦؛ ابن سعد، مصدر مذكور، ج٧، ص٧٠.
يعتبر ابن عمّ عليّ بن أبي طالب لأنّ أب عليًا أبو طالب بن عبد المطّلب والجدّ الأعلى لعبد الله هو الحارث بن عبد المطّلب. صحب الحارثُ - أب عبد الله - النبيّ وروى عنه.
وأمّه هند بنت أبي سفيان بن حرب بن أميّة. حضر عبد الله بن الحارث خطبة الخليفة عمر بن الخطّاب في الجابية، وسمع الحديث منه ومن عثمان بن عفّان، ومن أبيّ بن كعب، وحُذيفة بن اليمان الأزدي، وعبد الله بن عبّاس ومن أبيه الحارث بن نوفل. وقد تحوّل للبصرة مع أبيه وابتنى بها دارا.

يزيد بن معاوية واندلاع الفتنة بالبصرة. كما يبدو أنّه كان أوّل قاض بالمدينة لمروان بن الحكم ـ والي المدينة من قبل الخليفة معاوية بن أبي سفيان(١).

وقد قاد شريك بن الأعور حركة «عصيان» للوالي في طريقهم إلى الكوفة، وانضمّ إليه ناس. ثمّ التحق عبد الله بن الحارث ومعه ناس بشريك.

ويورد الطبري عبارة «سقط غمرةً»(٢)، واصفًا شريك بن الأعور الذي أسبغت عليه هذه الرّواية طابعا بطوليّا. وحاولت أن تبرزه بصورة الفارس الشّجاع والوفيّ الذي قاد التمرّد ضدّ الوالي باتّجاه الكوفة لمساعدة الحسين.

وتمنّى شيعة عليّ من الأشراف بعد عصيانهم أن يتثاقل عبيد الله بن زياد، فيسبقه الحسين إليها.

ولم يكترث عبيد الله بن زياد بمن تخلّى عنه بل واصل طريقه إلى أن بلغ القادسيّة(٣)، حيث تخاذل عنه وتركه مِهْران مولاه(٤). وطلب الوالي من مولاه أن يبقى معه حتّى يبلغ القصر ـ قصر الإمارة بالكوفة ـ و له مكافأة تبلغ مائة ألف.

ولم يحدّد الطبري إن كانت مائة ألف درهم أو مائة ألف دينار. وبالتّالي التحق مهران مولى عبيد الله بالحسين بن عليّ.

كما «يذوب» الشّيعة في الطّريق إلى الكوفة حيث لم ترجع الرّواية إلى ذكرهم. ويعود الإخباريّ لذكر عبيد الله بن زياد الذي دخل الكوفة وحده وفي حالة انعزال وضعف!

---

(١) وكيع، *أخبار القضاة*، عالم الكتب، بيروت، د.ت، ج١، ص١١٣.

(٢) ابن منظور، معجم *مذكور*، ج١، ص٦٤٦: السَّقط من الأشياء: ما تسقطُه فلا تعْتدُّ به من الجُند والقوم ونحوه؛ ابن منظور، معجم *مذكور*، ج١، ص١٠١٤: وفي حديث معاوية: ولا خُضتُ برجل غمرةً إلاّ قطعتُها عرْضا؛ الغمرة الماء الكثير، فضربه مثلا لقوّة رأيه عند الشّدائد، فإن من خاض الماء فقطعه عرضا ليس كمن ضعُف واتّبعَ الجِريةَ حتّى يخرج بعيدًا من الموضع الذي دخل فيه.

(٣) ياقوت، معجم *مذكور*، ج٤، ص٢٩١: بينها وبين الكوفة خمسة عشر فرسخاً.
فرسخُ الطريق: ثمانية كيلومترات. تبعد القادسيّة عن الكوفة حوالي ١٢٠ كلم عن الكوفة.

(٤) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٦١.

يبدو هذا التصرّف غريبا من عبيد الله بن زياد لأنّ عدم الاكتراث بمن تخاذل عنه لا ينطبق مع شخصيّته.

هذا الخبر يؤكّد على العكس انتقال عبيد الله بن زياد في قلّة من رجاله وأهل بيته لأنّ لديه إستراتيجية سيُنفّذها عند وصوله إلى الكوفة. ويُعزل عبيد الله شيئا فشيئا، كما يدعو تخاذل مولى عبيد الله عنه للشكّ.

لم تحدّد الرّواية كم كان عدد النّاس الذين انضمّوا للشّريفين هذه الرّواية مستبعدة لأنّنا لا نعتقد أنّ الوالي انتقل في قوّة عسكريّة بصريّة للكوفة. بل الهدف من هذه الرّواية هو تلميع صورة الشّيعة ـ شيعة عليّ بن أبي طالب ـ نظرًا لعدم انضمامهم وتخاذلهم عن الحسين بن عليّ. فهي تحاول أن تعطي لهؤلاء الأشراف صورة ملحميّة وإيجابيّة وذلك بعد فترة من الزّمن (بعد مقتل الحسين بن عليّ وظهور التوّابين والمختار بن أبي عبيد الثّقفي) أي في القرن الثّاني للهجرة.

كما أنّ هذه الرّواية عاطفيّة وفيها جانب كبير من الإحساس بالذّنب تجاه الحسين. وحاول الرّواة إعادة كتابة التّاريخ حتّى يبرّروا موقفهم، لكنّها تبقى رواية غير متماسكة.

كما تحقّر هذه الرّواية من قيمة السّلطة الأمويّة، وتستهين بها من باب هذه العاطفيّة والتّعاطف مع الحسين أو حركته الشّيعيّة. ولعلّ هذا يدخل في إطار عمل قبلي أو عشائري يمنيّ أساسا وبصريّ أي تعلّق بمصر البصرة ككلّ، قامت به الأجيال اللاّحقة لردّ الاعتبار لهذا الشّريف البصري وكذلك لابن عمّ عليّ بن أبي طالب، وللبصرة لأنّها لم تساهم في دعم حفيد الرّسول مقارنة بالكوفة في هذه المرحلة بالذّات من تاريخ حركة الحسين.

من هو عبيد الله بن زياد؟

كان عبيد الله بن زياد بن أبي سفيان بن زياد بن أبي سفيان من مَرْجانة وهي أمّ ولد[1]، وأخوه لأمّه وأبيه هو عبد الله. ولاّه الخليفة معاوية أي «عمّه» خراسان.

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٩٧.

ويبدو أنّه قدم على معاوية بعد وفاة زياد، وطلب منه أن يولّيه فأجابه الخليفة بأنّه لو كان فيه خيرا لولاّه أخوه ـ أي زياد ـ فناشده عبيد الله أن يولّيه حتّى لا يقول النّاس «لو علم أبوك وعمّك فيك خيرًا لوليّاك»[1].

على هذا الأساس، ولاّه معاوية بعد أبيه البصرة[2]. ثمّ أقرّه الخليفة يزيد بن معاوية على البصرة[3].

لا ننسى أنّه ابن زياد «مؤسّس الدولة السلطويّة وفارض الاستبداد والعسف والممارس للقسوة في الضرب على أيدي الأعداء»[4]. تبدو صورة عبيد الله صورة سيّئة لدى الشّيعة (الحسن البصري)، وهي صورة شبيهة بصورة الخليفة يزيد بن معاوية. ولعلّ هذه الصّورة جاءت كردّ فعل على قتل عبيد الله بن زياد للحسين بن عليّ.

كما يدخل هذا النّهم في الأكل في مظاهر أو رموز السّلطة:

«قال الحسن: قدم علينا عبيد الله بن زياد فقدم شابًّا مترفًا[5] فاسقًّا[6] يأكل في اليوم خمس أكلات، وإن فاتته أكلة ظلّ لها صريعًا يتّكيء على شماله ويأكل بيمينه، حتّى إذا غلبت عليه الكِظّة[7] قال: ابغوني حاطومًا[8] ثكلتك أُمّك إنّما تحْطِم دينَكَ»[9].

مثّل شباب الوالي مثل شباب الخليفة يزيد بن معاوية عنصرا سلبيًا في شخصيّته

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٢٩٢.

(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٩٧.

(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٠٥.

(٤) هشام جعيط، *نشأة المدينة العربيّة الإسلاميّة الكوفة*، ص٣٢٠.

(٥) ابن منظور، معجم مذكور، ج١، ص٣١٨: المترف: الذي قد أبطرته النّعمةُ وسَعة العيشِ. وأترفته النّعمةُ أي اطغتهُ.

(٦) ابن منظور، معجم مذكور، ج٢، ص١٠٩٦: فسق عن أمر ربّه أي خرج.

(٧) ابن منظور، معجم مذكور، ج٣، ص٢٦٤: كظظ: الكِظَّةُ: البِطنة. كظّه الطّعامُ والشّرابُ يكُظُّه كظًّا إذا ملأه حتّى لا يُطيقَ على التّنَفسِ، وقد اكتظّ.

(٨) ابن منظور، معجم مذكور، ج١، ص٦٦٤: ويقال للهاضومِ، حاطُومٌ.

(٩) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤١٢ ـ ٤١٣.

لدى الرّواة ـ مقارنة بسنّ الحسين بن عليّ أو عبد الله بن الزّبير أصحاب السّابقة والقُدمة ـ ويعني التقدّم في السنّ النّضج والتّجربة. بينما كانت فكرة الشّباب أو فتوّة السنّ تشكّل عائقا أساسيّا لتولّي السّلطة لدى العرب منذ الجاهليّة. فقد كان سادة العشائر القرشيين يجتمعون في دار النّدوة أو في الحِجْر أو يجلسون في المسجد الحرام، كانوا مُطاعين في عشيرتهم وأثرياء وأشرافا ومن ذوي الأسنان. وعندما مات حرب بن أُميّة أراد ابنه أبو سفيان أن يجلس مكان أبيه في دار النّدوة، فرُفض لصغر سنّه[1]. وقد استرجع أبو سفيان رئاسة أبيه بعد بدر وبعد موت ذوي الأسنان من قريش[2].

المهمّ أنّ قدوم الوالي الجديد بالكوفة سيحدث انقلابا في التّوازن السّياسي بها.

ملابسات حلول مسلم بن عقيل بالكوفة

نزل مسلم بن عقيل على رجل من أهل الكوفة يسمّى ابن عوْسجة[3]؛ من هو هذا الرّجل؟ إلى أيّ قبيلة ينتمي؟

هل هو مسلم بن عوْسجة الأسدي الذي استمات في ما بعد في القتال مع الحسين بن عليّ[4]؟ ربّما هو لأنّ مسلم لن يقيم إلاّ لدى أحد من الشّيعة الثّقات بما أنّ الحسين أمره بالتكتّم في أمره. لكن لماذا وقع الاختيار على داره هو دون غيره؟

إذ دار الحديث بقدومه إلى الكوفة فهبّوا إليه فبايعوه، وقد بايعه منهم اثنا عشرَ ألفًا[5]. وهنا وجب الشكّ في هذا العدد الذي قدّمته المصادر. فهل بالفعل انضمّ كلّ هؤلاء الكوفيّون لمسلم بن عقيل أم هو تضخيم اعتمده الإخباريّون من الشّيعة للتّعبير على شعبيّة هذه الحركة؟

---

(١) هشام جعيط، *تاريخيّة الدعوة المحمّدية في مكّة*، ص١٣٦.
(٢) هشام جعيط، مرجع *مذكور*، ص٥٨.
(٣) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٤٧ ـ ٣٤٨.
(٤) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤١٩.
(٥) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٤٧.

وتذكر رواية أخرى[١]، أنّ مسلم نزل في دار المختار بن أبي عبيد[٢]. وأصبحت في الفترة العبّاسيّة تعرف بدار مسلم بن المسيّب[٣].

يعتبر المختار من أشراف الكوفة ومن الأشراف القلائل المتشيّعين. وسيقوم سنة (٦٦ ـ ٦٧هـ/ ٦٨٥ ـ ٦٨٦م) بثورة شيعيّة كانت أكثر الثورات الشّيعيّة أهميّة في القرن الأوّل/ السّابع[٤]. وكانت دار المختار بن أبي عبيد ملاصقة لحائط المسجد[٥]. وهذا الموقع هو موقع استراتيجي لأنّه يمكّن النّاس من الخروج من المسجد ـ الجامع والدّخول لداره للاتصال بمسلم بن عقيل. وقد اختلف إليه الشّيعة في منزل المختار بن أبي عُبيد الثّقفي[٦].

المهمّ في مقدم مسلم بن عقيل هو أنّه تحصّل على بيعة الشّيعة. وهنا لابدّ من التّأكيد على نشأة مفهوم الشّيعة كمفهوم مرتبط بالحسين بن عليّ ـ الممثّل الوحيد لأهل البيت ـ أي شيعة الحسين بن عليّ حتّى وإن وجدت عناصر كانت من شيعة عليّ.

وتفرض البيعة[٧] لمسلم بن عقيل لفائدة الحسين بن عليّ إلغاء لسلطة الدّولة الأمويّة أو سلطة الخليفة يزيد بن معاوية وعدم الاعتراف بشرعيّته التّاريخية

---

(١) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٥٥؛ البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٢، ص٣٣٤.

(٢) ابن حزم، *مصدر مذكور*، ص٢٦٨: «هو من بني عُقدة بن غيرة بن عوف بن ثقيف. وقد ادّعى النبوّة بالكوفة».

البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٢٦٣ هرب المختار بن أبي عُبيد وعُروة بن المغيرة بن شُعبة من الشّهادة على حجر بن عديّ الكنديّ!.

(٣) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٥٧٩.

(٤) هشام جعيط، *نشأة المدينة العربيّة الإسلاميّة الكوفة*، ص٣٦٠.

(٥) هشام جعيط، مرجع *مذكور*، ص٢٢٨.

(٦) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٢، ص٣٣٤؛ الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٥٥.

(٧) ابن منظور، معجم *مذكور*، ج١، ص٢٩٩: البيعةُ: الصّفقةُ على إيجاب البيع وعلى المبايعة والطّاعة. والبيعةُ: المبايعة والطّاعةُ. وقد تبايعوا على الأمر: كقولك أصفقوا عليه، وبايعَه عليه مُبايعة: عاهده. وبايعْتُه من البيْع والبيْعة جميعا، والتّبايع مثله. وفي الحديث أنه قال: ألا تُبايِعوني على الإسلام؟ هو عبارة عن المُعاقدةِ والمُعاهدةِ كأنّ كلّ واحد منهما باع ما عنده من صاحبه وأعطاه خالصة نفسه وطاعته ودخيلة أمره، وقد تكرّر ذكرها في الحديث.

وبسلطته. وبالتّالي كانت بيعة مسلم بن عقيل من الزّاوية الأمويّة خروج عن الطّاعة وشقّ لعصا الجماعة ودخول في الفتنة والفرقة.

لا بدّ من التّأكيد هنا أيضًا أنّ هذه البيعة كانت بيعة غير مباشرة للحسين بما أنّ مسلم بن عقيل كان الواسطة.

إذا أصبح هذا المفهوم مفهوما رسميًا أو أخذ شكله الرّسمي والتّاريخي بحلول مسلم بن عقيل بالكوفة وتقبّله لبيعة أهل الكوفة. وكان اللّقاء الأوّل أو المجلس الأوّل الذي نظّمه مسلم بن عقيل بدار المختار بن أبي عبيد.

واجتمعت إليه جماعة، لم يذكر الطّبري[١] من تكون هذه الجماعة وكم كان عددهم. فقرأ مسلم على مسامعهم كتاب الحسين فأخذوا يبكون.

يبدو من خلال هذا الخبر تعاطف الشّيعة أو الجماعة التي حضرت الاجتماع مع حركة الحسين، واندفاعهم العاطفي معها. فبكوا، وهذا يخالف القيم التي رُبّي عليها الرّجال منذ الجاهليّة. أي أنّ الرّجل لا يبكي ولا يجزع لأنّ المرأة هي التي تجزع وتبكي[٢].

فقد قال عليّ للحسن عندما بكى لمّا أراد منعه من الذّهاب إلى العراق بعد تولّيه الخلافة خوفا عليه من القتل: «يا أمير المؤمنين إني لا أستطيع أن أكلّمك وبكى، فقال عليّ: تكلّم ولا تحنّ حنين[٣] المرأة»[٤].

لقد خلقت الفتنة تقاليد جديدة أو انفعالات جديدة أو مشاعر جديدة وهي البكاء والتأثّر لقدوم الحسين بن عليّ. فأصبح البكاء وسيلة رجال الشّيعة للتّعبير عن حبّهم لأهل البيت.

لم يمثّل الشّيعة في هذا الاجتماع الأوّل لهم بالكوفة، للقيم القديمة التي تفرض

---

(١) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٥٥.

(2) Anne Vincent Buffault, *Histoire des larmes*, Editions Rivages/ Histoire, Paris,1986,p.7.

(٣) ابن منظور، معجم *مذكور*، ج١، ص٧١٤: حنن: الحنان هو الرّحمة والعطف. والحنين: الشّديدُ من البُكاء والطّرب، وقيل هو صوتُ الطّرب كان ذلك عن حزن أو فرحٍ؛ والحِنّةُ: رقّةُ القلب.

(٤) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص١٧.

عليهم أن يتماسكوا ويتجلّدوا ولا يُظهروا مشاعرهم وبالعكس لم يتمالكوا أنفسهم من البكاء تأثّرًا وحُبًا في الحسين ممثّل أهل البيت.

فهل كان هذا البكاء يعبّر عن فرحة بلقاء الحسين؟

سيصبح هذا البكاء في ما بعد مع التوّابين وسيلة للتّعبير عن الإحساس بالذّنب لعدم نصرة الحسين. كما أنّه سيصبح على مرّ القرون إحدى الاحتفالات المرتبطة بالمأتم الحسيني، والتي تتّخذ بُعدا هامًا لدى الشّيعة إلى يومنا هذا[١].

وتكلّم عابس بن أبي شَبيب الشّاكريّ[٢] فذكر أنّه لا يتحدّث عن النّاس لأنّه لا يعرف ما في أنفسهم وهو لا يُريدُ أن يغرّه. وفي هذا ربّما كان هذا الشّيعي يُحيل على إمكانيّة إغرار أهل الكوفة بمسلم بن عقيل. والتزم بإجابة أهل البيت إذا دعوه، ويقاتلنّ معهم عدوّهم، وهو يضرب بسيفه حتّى يلاقي الله. وهو يقصد بذلك الاستشهاد في سبيلهم. وهو لا يريد من وراء ذلك إلاّ مرضاة الله. ويقدّم عابس بن أبي شبيب الشّعار الإيديولوجي للشّيعة وهو شعار عاطفي وروحي وديني يتمثّل في القتال أو الجهاد، قتال عدوّ آل البيت ابتغاء مرضاة الله.

كما يبدو هذا الخطاب حديثا حيث يتناول فيه عابس بن أبي شبيب خطابا ذكر فيه الأنا والآخر في الكوفة.

وأخذ حبيب بن مظاهر الفقعسيّ الكلمة، فعبّر عن نفس الشّعور والرّغبات والاستعدادات التي ذكرها عابس بن أبي شَبيب الشّاكريّ. ثمّ قال سعيد بن عبد الله الحنفي نفس الكلام. بينما سكت محمد بن بِشر ولم يُرد أن يكذب لأنّه لم يكن مستعدًا أن يقاتل ويُقتل لكنّه كان يُريدُ أن ينتصر أصحابه. وهذا دليل على أنّ هناك

---

(١) الشيخ محمد مهدي شمس الدّين، *دراسات ومواقف في الفكر والسياسة والمجتمع أبحاث فكريّة وإسلاميّة عامّة*، المؤسّسة الدوليّة للدّراسات والنّشر، بيروت، ١٩٩٥، ص٢٧٣.

(٢) ابن حزم، *مصدر مذكور*، ص٤٧٦: بنو شاكر بن ربيعة بن مالك بن معاوية بن صعب بن دَوْمان ابن بكيل وهو بطن من هَمْدان؛ الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٤٤: «وقد شاهدته في المغازي، وكان أشجع النّاس»؛ هشام جعيط، *نشأة المدينة العربية الإسلاميّة*، ص٣٧٧: «شاكر، عشيرة كبيرة جدًا، ومنها ابن كامل أحد صحابة المختار».

أفراد أو جماعة داخل هذه المجموعة كانت غير مقتنعة اقتناعا تامّا بهذه المبادئ الشّيعيّة، لكنّها لم تُصرّح بحقيقة مشاعرها أو مخاوفها.

فأين بقيّة الشّيعة (النّواة التي كانت من صحابة عليّ وراسلت الحسين أي سليمان بن صرد والمسيّب بن نجبة ورفاعة بن شدّاد) هل تخوّفوا من العمل السّياسي والدّيني ولم يحضروا الاجتماع؟ لا بدّ أن نذكّر أنّ ثلاثتهم تخوّفوا من الخليفة عثمان بن عفّان في الفتنة الكبرى فلم يذكروا أسماءهم و يوقّعوا في الكتاب خوفا من قمعه لهم[١].

لم يذكر الطبري من هذه النّواة القياديّة إلاّ حبيب بن مظهر. كما يبدو أنّ أحد الرّسل الذين أرسلهم الشّيعة للحسين ـ وهو سعيد بن عبد الله الحنفي ـ كان موجودا في هذا الاجتماع.

لماذا لم تذكر المصادر بقيّة أسماء الشّيعة الذين شاركوا في هذا الاجتماع التّأسيسي؟ فنحن لا نستطيع أن نضبط قائمة لهؤلاء الجماعة. فهل أخفى أو تجنّب الرّواة أسماء هؤلاء الشّيعة لأنّهم تراجعوا عن مساندتهم لأهل البيت وتخوّفوا من قمع واضطهاد السّلطة الأمويّة.

كما لم يذكر الإخباري أيضا حضور الأشراف في هذا الاجتماع. فربّما تراجع الأشراف عن وعودهم للحسين عندما جاء ابن عقيل للكوفة ولم يشاركوه في تنظيمه للحركة. بل بالعكس سينضمّون في ما بعد للوالي في قضائه على هذه الثّورة.

وبذلك نشأت الحركة الشّيعيّة كحركة عاطفيّة وكتوجّه ديني ـ سياسي. وتبدو هذه الجماعة كجماعة مرتبطة ارتباطا وثيقا بأهل البيت. فهي تبدو كعصبة عاهدت الله على نصرة الحسين والموت في سبيل رسالته.

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٦، ص١٥٣: كانت قائمة القرّاء الذين أرسلوا الرّسالة لعثمان تحتوي على اثنا عشر اسما لكنّ الشّخص الوحيد الذي تجرّأ على كتابة كتاب وذكر فيه اسمه هو كعْب بن عبدة النهدي فضربه عثمان بالسّوط وسيّره.

وكان الصّحابة جماعة ميتا - ريخيّون مرتبطون بالرّسول[١]. وقد لعبوا دورا هامّا في نقل الحديث عن الرّسول، وفي تأسيس الإسلام كدين و كدولة.

وقد ذكر الصّاحب في القرآن والمقصود به أبو بكر الصدّيق ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[٢].

كما ذُكر فضل الصّحابة في الحديث[٣]: «حدّثني إسحقُ حدّثنا النَّضْرُ أخْبرنا شُعْبةُ عَنْ أبي جَمْرةَ سَمِعْتُ زهْدم بن مُضَرِّب سمعتُ عِمْرانَ بنَ حُصينٍ رضيَ الله عنهما يَقولُ قال رسولُ الله صلّى الله وعليه وسلّم خَيْرُ أُمَّتي قرْني ثمّ الّذين يلُونهُم، ثمّ الّذين يَلُونهُم. قال عمْرانُ فلا أدري أَذَكَرَ بعْدَ قَرْنِهِ قرنيْن أو ثلاثًا».

فقد ارتبط الصّحابة بالرّسول وتحمّلوا معه إيذاء قريش له. ثمّ رافقوه عند تهجيره، وشهدوا معه مشاهده، وبنوا معه دولة المدينة. فهم جماعة لديهم ميتا - تاريخيّة أو قداسة بفعل تضحيتهم في سبيل الله والرّسول.

كما ظهر مفهوم الحواري فقد قال الرّسول: «إنّ لكلّ نبيّ حواريّاً وحواريّي الزبير»[٤].

فهل كان هذا المفهوم شبيها بالمفهوم الموجود في المسيحيّة[٥]؟

على هذا الأساس، ظهر مفهوم الجماعة التي لديها ارتباط عاطفي قويّ وديني وإيديولوجي بشخص الحسين بن عليّ وبأهل البيت. وهي جماعة لا تبتغي شيئا إلاّ الدّفاع عن الحسين وأهل بيته ابتغاء مرضاة الله. وظهر مفهوم شيعة الحسين بن علي في هذا الاجتماع كجماعة عاهدت الله أن تبذل كلّ ما في وسعها، وظهر مفهوم الاستشهاد[٦] في سبيل أهل البيت مماثلا للاستشهاد في سبيل الله.

---

(1) *E.I²*, article Sahâba.

(٢) التوبة ٩/ ٤٠.

(٣) البخاري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٢.

(٤) ابن سعد، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٧٨.

(٥) الصفّ ٦١ / ١٤ ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

(6) *E.I²*, article Shahîd.

يرى غولدزيهر أنّ مفهوم الشّهداء هو مفهوم سبق القرآن فهو مسيحي وسرياني. وقد تحدّث القرآن عن الذين يجازون لجهادهم في سبيل الله. وقد أحيط الشّهيد بهالة من الأحاديث التي تصف الثّواب الذي ينتظره، فكلّ ذنوبه تغفر له، وهو يجنّب من عذاب القبر، وهو يتزوّج ٧٢ حوريّة. ويكون شفيعا لـ٧٠ من أقاربه.

وهذا المفهوم وُجد في الفتنة الأولى حيث بايع رجال من المقاتلة بالشّام معاوية على الموت في صفّين: «وبايع رجال من أهل الشّام على الموت، فعقّلوا أنفسهم بالعمائم، فكان المعقّلون خمسة صفوف»[١]. «وبايعه عظم الناس من أهل الشّام على الموت»[٢].

المهمّ أنّ هناك نواة صلبة تكوّنت حول مسلم بن عقيل بن أبي طالب، وهذه النّواة أسّست ما يعرف بشيعة الحسين.

وهي ستقف إلى جانب مسلم ثمّ تموت مستشهدة مع الحسين في كربلاء.

جدليّة العلاقة بين السّلطة والمعارضة في حركة مسلم بن عقيل

تمثّلت هذه الجدليّة في الصّراع الذي حدث بقدوم الوالي الجديد عبيد الله بن زياد للكوفة. وابتدأ بذلك فترة جديدة قِوامُها التصدّي لحركة مسلم بن عقيل بالكوفة كحركة سياسيّة ـ دينيّة خارجة عن سلطة الدّولة الأموية ومعارضة لها. وفي نفس الوقت، تحرّكت هذه الحركة بمقتضى انضمام أهل الكوفة وأساسا الشّيعة لها و لى أساس شرعيّة تاريخيّة مستمدّة من أهل البيت. وكانت هذه الحركة تمهيديّة لقدوم الحسين، فكان على السّلطة أن تضع في حسابها هذه «الثنائيّة الثوريّة» إن صحّ التّعبير في الحركة.

بعد أن تسلّم عبيد الله بن زياد مقاليد الحكم، تشدّد مع العُرفاء والنّاس تشدّدا كبيرا[٣]. فطلب منهم أن يكتبوا له الغرباءَ، وطِلبة[٤] أمير المؤمنين أي كلّ عناصر

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص١٢.
(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص١٥.
(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٥٩.
(٤) ابن منظور، معجم مذكور، ج٢، ص٦٠١: الطِّلبة: ما كان لك عند آخر من حقّ تطالبه به.

المعارضة من الخوارج و «أهل الريب» أي المشكوك في انتمائهم السّياسي و«الدّيني» الذين يتّبعون الخلاف والشّقاق.

فمن كتب أسماءهم وخبّر الوالي برئ أي نجى من العقاب. ومن لم يكتب أحدا يضمن العريف للوالي، أن لا يخالف أحد من عرافته سلطة الدّولة. ومن لم يفعل برئت منه الذمّة أي يفتكّ الوالي ماله ويسفك دمه.

ويظهر في هذا الإطار مفهوم الحلال[١] الذي ذكره الوالي أي مال ودم العاصي لأوامره حلال. فهو يعطي لنفسه سلطة مستمدّة من الله.

وهذا ليس بالغريب عن السّلطة الأمويّة التي سيتبوّأ فيها الخليفة منزلة خليفة الله على الأرض. وما الوالي إلاّ منفّذ لأوامر الخليفة. وهذا التوجّه هو توجّه إيديولوجي وسياسي جديد.

جعل عبيد الله بن زياد العريف مسؤولا على عرافته وهو يؤاخذ بتجاوزات و«أخطاء» أبناء العشيرة فهو يسيّر أو ينفى إلى مكان بعُمان الزّارة[٢]. بينما يصلب المعارض على باب داره وتلغى العرافة من العطاء.

بنى الوالي خطابه على العنف ـ عنف الدّولة ـ وهو عنف شبيه بعنف أبيه زياد. فالعقاب يتصدّر مكانة هامّة في هذه السّلطة الجديدة التي تواجه حركة معارضة من طراز خاصّ (معارضة أهل البيت للأمويّين).

يدخل الصّلب في إطار تقاليد جديدة للسّلطة يتحوّل فيها جسد المعارض إلى أداة طيّعة بيد عامل الدّولة [٣].

لم يستثن الوالي العريف ـ وهو موظّف لدى الدّولة ـ من العقاب. وقد كان العقاب المخصّص لأفراد العرافة وللعريف أعنف وأقوى في صورة عدم الاستجابة لأوامر الوالي.

---

(١) يونس ١٠/ ٥٩ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾.

(٢) ياقوت، معجم مذكور، ج٤، ص١٥٠: بلدة يُقال لها عُمان على شاطئ البحر؛ ياقوت، معجم مذكور، ج٣، ص١٢٦: الزّارةُ عين الزّارة بالبحرين، والزّارة، قرية كبيرة بها.

(3) Michel Foucault, *Idem*, p.162.

ويعتبر هذا العنف جديد فهو عنف مسلّط على عمّال الدّولة إذا لم يستجيبوا لأوامرها. وهو عنف يُهلك العشيرة بما أنّه يقطع عنها المورد الأساسي لعيش أفرادها وهو العطاء. و في هذا بلغ خطاب عبيد الله السّياسي أعلى درجات العنف السّياسي. ويبدو لنا هذا العنف في نفس مرتبة الصّلب أي تعريض جسد ـ جثّة المعارض إلى التّمثيل لأنّ ألم التّجويع والتّهميش في الحياة أمرّ وأدهى.

وقد عاقب الخليفة عثمان بن عفّان عقابا يشبه عقاب عبيد الله بن زياد (إلغاء العرافة من العطاء)، عاقب أحد القرّاء الكوفييّن الذين انتقدوا سياسته، فنقل ديوانه من الكوفة إلى الريّ[1] عقابا له[2]. وفي هذا طرد من الكوفة ونفي منها ومن عرافتها. لكنّ هذا العقاب يخصّ شخصا واحدا وليس مجموعة بأكملها، وهنا يظهر الطّابع الجديد لعقاب عبيد الله بن زياد الذي أصبح يعاقب مجموعة كاملة، كما أنّ نوعيّة العقاب أكثر صرامة، والتّهديد باصطفاء مال العاصي جديد. وهو بذلك يهدّد العشيرة في مصالحها الاقتصاديّة. ويُضاف النّفي إلى قائمة العنف السّياسي. فالفرد يطرد من العشيرة ويهجّر منها وبالتّالي ينتفي وجوده. ففي هذا المجتمع القبلي الكوفي، كان الإحساس بالجماعة والمجموعة هامّ. ويعتبر العقاب بالنّفي الذي تهدّد به الوالي قطع لعضو من أعضائها وفي هذا ألم إنساني كبير[3]. ولم تؤسّس الدّولة الأمويّة التّسيير أو النّفي بل بدأ الخليفة عثمان هذه السّياسة في العقاب بتسيير قرّاء أهل الكوفة الذين انتقدوا سياسته إلى الشّام[4]، وسيّر أحد القرّاء الكوفييّن إلى جبل الدّخان[5]. ولم نجد في المصادر تعريفا للمكان الذي هدّد عبيد الله أن يَنفي فيه كما ركّز الوالي على مركزيّة السّلطة، فذكر

---

(١) ياقوت، *معجم مذكور*، ج٣، ص١١٦: الرَّيّ مدينة مشهورة من أمّهات البلاد وأعلام المدن، كثيرة الفواكه والخيرات، وهي محطّ الحاجّ على طريق السّابلة وقصبة بلاد الجبال.

(٢) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٦، ص١٥٤.

(٣) هشام جعيط، *تاريخية الدعوة المحمديّة في مكّة*، ص٢٩٥.

(٤) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٦، ص١٥٥.

(٥) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٦، ص١٥٤.

المعارضة من الخوارج و «أهل الريب» أي المشكوك في انتمائهم السّياسي و«الدّيني» الذين يتّبعون الخلاف والشّقاق.

فمن كتب أسماءهم وخبّر الوالي برئ أي نجى من العقاب. ومن لم يكتب أحدا يضمن العريف للوالي، أن لا يخالف أحد من عرافته سلطة الدّولة. ومن لم يفعل برئت منه الذمّة أي يفتكّ الوالي ماله ويسفك دمه.

ويظهر في هذا الإطار مفهوم الحلال[١] الذي ذكره الوالي أي مال ودم العاصي لأوامره حلال. فهو يعطي لنفسه سلطة مستمدّة من الله.

وهذا ليس بالغريب عن السّلطة الأمويّة التي سيتبوّأ فيها الخليفة منزلة خليفة الله على الأرض. وما الوالي إلاّ منفّذ لأوامر الخليفة. وهذا التوجّه هو توجّه إيديولوجي وسياسي جديد.

جعل عبيد الله بن زياد العريف مسؤولا على عرافته وهو يؤاخذ بتجاوزات و«أخطاء» أبناء العشيرة فهو يسيّر أو ينفى إلى مكان بعُمان الزّارة[٢]. بينما يصلب المعارض على باب داره وتلغى العرافة من العطاء.

بنى الوالي خطابه على العنف ـ عنف الدّولة ـ وهو عنف شبيه بعنف أبيه زياد. فالعقاب يتصدّر مكانة هامّة في هذه السّلطة الجديدة التي تواجه حركة معارضة من طراز خاصّ (معارضة أهل البيت للأمويّين).

يدخل الصّلب في إطار تقاليد جديدة للسّلطة يتحوّل فيها جسد المعارض إلى أداة طيّعة بيد عامل الدّولة [٣].

لم يستثن الوالي العريف ـ وهو موظّف لدى الدّولة ـ من العقاب. وقد كان العقاب المخصّص لأفراد العرافة وللعريف أعنف وأقوى في صورة عدم الاستجابة لأوامر الوالي.

---

(١) يونس ١٠/ ٥٩ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾.

(٢) ياقوت، معجم مذكور، ج٤، ص١٥٠: بلدة يُقال لها عُمان على شاطئ البحر؛ ياقوت، معجم مذكور، ج٣، ص١٢٦: الزّارةُ عين الزّارة بالبحرين، والزّارة، قرية كبيرة بها.

(3) Michel Foucault, *Idem*, p.162.

ويعتبر هذا العنف جديد فهو عنف مسلّط على عمّال الدّولة إذا لم يستجيبوا لأوامرها. وهو عنف يُهلك العشيرة بما أنّه يقطع عنها المورد الأساسي لعيش أفرادها وهو العطاء. و في هذا بلغ خطاب عبيد الله السّياسي أعلى درجات العنف السّياسي. ويبدو لنا هذا العنف في نفس مرتبة الصّلب أي تعريض جسد ـ جثّة المعارض إلى التّمثيل لأنّ ألم التّجويع والتّهميش في الحياة أمرّ وأدهى.

وقد عاقب الخليفة عثمان بن عفّان عقابا يشبه عقاب عبيد الله بن زياد (إلغاء العرافة من العطاء)، عاقب أحد القرّاء الكوفيّين الذين انتقدوا سياسته، فنقل ديوانه من الكوفة إلى الريّ[1] عقابا له[2]. وفي هذا طرد من الكوفة ونفي منها ومن عرافتها. لكنّ هذا العقاب يخصّ شخصا واحدا وليس مجموعة بأكملها، وهنا يظهر الطّابع الجديد لعقاب عبيد الله بن زياد الذي أصبح يعاقب مجموعة كاملة، كما أنّ نوعيّة العقاب أكثر صرامة، والتّهديد باصطفاء مال العاصي جديد. وهو بذلك يهدّد العشيرة في مصالحها الاقتصاديّة. ويُضاف النّفي إلى قائمة العنف السّياسي. فالفرد يطرد من العشيرة ويهجّر منها وبالتّالي ينتفي وجوده. ففي هذا المجتمع القبلي الكوفي، كان الإحساس بالجماعة والمجموعة هامّ. ويعتبر العقاب بالنّفي الذي تهدّد به الوالي قطع لعضو من أعضائها وفي هذا ألم إنساني كبير[3]. ولم تؤسّس الدّولة الأمويّة التّسيير أو النّفي بل بدأ الخليفة عثمان هذه السّياسة في العقاب بتسيير قرّاء أهل الكوفة الذين انتقدوا سياسته إلى الشّام[4]، وسيّر أحد القرّاء الكوفيّين إلى جبل الدّخان[5]. ولم نجد في المصادر تعريفا للمكان الذي هدّد عبيد الله أن يَنفي فيه كما ركّز الوالي على مركزيّة السّلطة، فذكر

---

(١) ياقوت، معجم *مذكور*، ج٣، ص١١٦: الرّيّ مدينة مشهورة من أمّهات البلاد وأعلام المدن، كثيرة الفواكه والخيرات، وهي محطّ الحاجّ على طريق السّابلة وقصبة بلاد الجبال.

(٢) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٦، ص١٥٤.

(٣) هشام جعيط، *تاريخيّة الدعوة المحمديّة في مكّة*، ص٢٩٥.

(٤) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٦، ص١٥٥.

(٥) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٦، ص١٥٤.

مرّتين في خطابه المعارضين «لأمير المؤمنين» أي الخليفة يزيد بن معاوية. فمفهوم الخليفة هو مفهوم محوري في الأمّة لأنّ الخليفة ـ الإمام يحفظها من الفرقة والتشتّت. وهو يفترض ويوجب الطّاعة والحفاظ على وحدة الجماعة. وبالتّالي فهو يُحذّر من الوقوع في متاهات الفتنة.

وهذا أساسيّ وهامّ لأنّه يعبّر على قوّة الخطاب الإيديولوجي الأموي وحرص الخليفة والوالي على الحفاظ على وحدة الأمّة. وسيكون هذا الهاجس المحرّك الأساسي للخليفة يزيد بن معاوية في قمعه لكلّ الثّورات التي اندلعت في فترة حكمه.

حمّل الوالي العرفاء مسؤولية الحفاظ على الانضباط السّياسي والإيديولوجي لعشائرهم أي فرض الطّاعة والجماعة كمبادئ إيديولوجية أساسيّة للدّولة الأمويّة.

كانت وظيفة العرافة وظيفة إداريّة وعسكريّة وسياسيّة وإيديولوجيّة أي التّعبئة للقتال، وتوزيع العطاء وقد أسّسها زياد بن أبي سفيان. فأصبحت بذلك العشيرة وحدة الأساس في التّنظيم الإداري[1]. ومكّن هذا التّنظيم من فرض سلطة الدّولة الأمويّة وتركيز إيديولوجيّتها والحفاظ على الأمن والقضاء على الثّورات.

كان هذا التّنظيم إيجابيًا إلى أبعد درجة لأنّه يمكّن الدّولة من الدّخول والتّغلغل داخل التّنظيم العشائري. وكان تهديد العريف وتحميله المسؤوليّة أي مسؤوليّة محافظة العشيرة على التزامها الإيديولوجي والسّياسي، وسيلة ناجعة اعتمدها الوالي للقضاء على حركة مسلم بن عقيل.

وفي ما بعد سيحمّل عبيد الله بن زياد الأشراف مسؤوليّة القضاء على حركة مسلم بن عقيل بتثبيط عشائرهم عنه. بما أنّهم كانوا يمثّلون دعامة النّظام الاجتماعي الأموي حيث عوّل عليهم الأمويّون في تأطير عشائرهم[2].

---

(١) هشام جعيط، *نشأة المدينة العربية الإسلامية*، ص٢٣٤.

(٢) بثينة بن حسين، *مرجع مذكور*، ص٣٦١.

ويخضع الاعتماد على الأشراف لإحدى مقوّمات الإيديولوجيا الأمويّة وهي إيديولوجيا الدّولة العربيّة الأرستقراطيّة [1].

إضافة لنجاعة هذا التّنظيم، كان الوالي يسيطر على مؤسّسة مركزيّة وهامّة في مؤسّسات المصر وهي بيت المال. فهي القلب النّابض للمؤسّسات الأمويّة. بما أنّها تموّل الحملات العسكريّة أو حركة الجهاد كما تموّل قمع الثّورات.

إضافة لبيت المال، كانت الدّواوين بيد الوالي بما أنّها موجودة بقصر الإمارة. ومن أهمّ هذه الدّواوين ديوان الخراج الذي يمكّن الدّولة من دفع الأعطيات للمقاتلة.

كما يسيطر الوالي على دار الرزق التي تقع بمنطقة تربط الكوفة بالسّواد[2] ـ وهو مجموع الأراضي الزّراعيّة للكوفة ـ أي «الرّئة التي منها يتنفّس المصر»[3]. وكانت الكوفة تستمدّ قوّتها من أهراء القمح هذه. ويعود تأسيسها لفترة زياد، وتتمثّل وظيفتها في توزيع الموّاد الغذائيّة الأساسيّة كالقمح على المقاتلة.

وتوجد دار الرّزق في موقع بعيد في اتّجاه الشّمال الشّرقي في الكوفة، أعلى بكثير من الجسر على شاطئ الفرات، مع بقائها داخل نطاق الكوفة بالذّات وفي محيطها[4].

وتذكر المصادر أنّ زيادا بني دار الرّزق وزاد فيها عبيد الله ابنه[5]. على هذا الأساس، كان عبيد الله مسيطرا على دواليب الحكم في الكوفة. وكان مدركا لأهميّة المؤسّسات الإداريّة والعسكريّة و «المعيشيّة» أي التي لها علاقة بالحياة اليوميّة للنّاس بالكوفة (العطاء والأرزاق). هذا إضافة للمجهود التّنظيمي الذي سيقوم به في ما بعد مُكملا المجهود الذي قام به زياد.

على هذا الأساس، تمكّنت الدّولة بفضل هذا التّنظيم الإداري والمالي

---

(١) بثينة بن حسين، مرجع *مذكور*، ص٣٣١.
(٢) ياقوت، معجم *مذكور*، ج٣، ص٢٧٢ ـ ٢٧٥.
(٣) هشام جعيط، *نشأة المدينة العربية الإسلامية*، ص٢٦٩.
(٤) هشام جعيط، *نشأة المدينة العربية الإسلامية*، ص٢٧١.
(٥) البلاذري، مصدر *مذكور*، ج٥، ص٢٢٣.

والإيديولوجي والاجتماعي من السّيطرة على مقاتلة المصر المدجّجين بالسّلاح والموالين «بقلوبهم»[1] للشّيعة. فتمكّن الوالي من قصر الإمارة بالكوفة، وبعد «انعزاله الوهمي» عند دخوله للكوفة في موكب بسيط أو بمفرده، لأنّ المصادر الشّيعيّة حاولت تضخيم الظّاهرة الشّيعيّة بالكوفة، تمكّن بفضل التّنظيم الذي ركّزه زياد من السّيطرة على الكوفة بكلّ قوّة. فهو لذلك يتمتّع بحضور البديهة والذّكاء وبمقدرة سياسيّة وعسكريّة مكّنته من السّيطرة على الأوضاع.

ولم تقف مؤسّسات الدّولة وإيديولوجيّتها من التطوّر في هذه الفترة لمواجهة هذه الحركة الشّيعيّة التي قادها الحسين بن عليّ حفيد الرسول.

مكّن الإصلاح الإداري الذي قام به زياد في فترة الخليفة معاوية بن أبي سفيان من إعطاء أُكله في فترة الخليفة يزيد بن معاوية وولاية عبيد الله بن زياد أي تنظيم العرافة. كما أنّ الاعتماد على الأشراف بالكوفة كان أساسيًا للمحافظة على التّوازن السّياسي والاجتماعي وعلى تماسك الإيديولوجيا الأمويّة.

وقد قضى زياد على ثورة حجر بن عديّ الكندي بواسطة تنظيم الأرباع بالكوفة[2]. فقد شهد رؤساء الأرباع على حجر وأصحابه بأنّهم «خلعوا الخليفة، وفارقوا الجماعة، ودعوا إلى الحرب، وكفروا بالله»[3]. وكان رؤساء الأرباع بالكوفة في عهد زياد بن أبي سفيان، عمرو بن حريث على رُبْع المدينة، وعلى ربْع تميم وهمْدان خالد بن عُرفُطة العُذْري حليف بني زُهْرة، وعلى ربع كندة وربيعة قيس بن الوليد بن عبد شمس بن المغيرة المخزومي، وعلى ربع مذحج وأسد أبو بردة بن أبي موسى الأشعري[4].

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٢٥٧: «يا أهل الكوفة، اتشجّون بيد وتأسون بأخرى! أبدانكم معي وأهواؤكم مع حُجر». قالها زياد بن أبي سفيان لأهل الكوفة وأشرافها عندما لم يساعدوه في مرحلة أولى في القضاء على ثورة حجر بن عديّ الكندي.

(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٢٦٣.

(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٢٦٣.

(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٢٦٨ ـ ٢٦٩؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٢٦٣.

كما كُتبت شهادة الشّهود من الأشراف[١] ضدّ حجر و أصحابه[٢].

يتمثّل تنظيم الأرباع[٣] في تقسيم قبائل الكوفة إلى أربعة أقسام كبرى للتّعبئة العسكريّة ودفع العطاء. وكانت مقسّمة إلى أسباع في عهد الخليفة عمر بن الخطّاب. لكنّ زياد أعاد تنظيمها حسب مقتضيات الفترة خاصّة التطوّر الديمغرافي بالكوفة وأساسا لأسباب سياسية.

فكان يُجاور بين مجموعة قبلية متشاحنة (تميم وهمدان وأيضا كندة وأسد مثلا) نظرا لما كان لها من ماض في شبه الجزيرة، بل بين عناصر يمكن أن تكون متجاورة أو متباعدة في الكوفة ذاتها[٤].

كما أعاد زياد بن أبي سفيان تنظيم وظيفة العريف والمنكب بالكوفة[٥]. ومكّن هذا التّنظيم عبيد الله بن زياد من تنفيذ سياسته الرّامية للقضاء على ثورة مسلم بن عقيل بالكوفة.

وقد كان هذا التّنظيم مرتبطا بالدّولة وبمصالحها أشدّ الارتباط. وستثبت لنا الأحداث نجاعة هذا التّنظيم.

وعلى هذا الأساس، ابتدأ عبيد الله بن زياد بهذا البرنامج الصّارم المرتكز على التشدّد مع العرفاء أساسا وتحميلهم مسؤوليّة القبض على العناصر المعارضة للدّولة من شيعة وخوارج. وبذلك ابتدأ الوالي عمليّة البحث عن مسلم بن عقيل حتّى يتسنّى له قمع حركته.

---

(١) البلاذري، مصدر *مذكور*، ج٥، ص٢٦٢: «شهد أنّ حجر بن عديّ خلع الطاعة وفارق الجماعة، ولعن الخليفة، ودعا إلى الحرب والفتنة، وجمع إليه جموعًا يدعوهم إلى نَكْث البيعة، وخلع أمير المؤمنين معاوية، فكفر بالله كفرةً صلْعاء، وأتى معصية شنعاء».

(٢) البلاذري، مصدر *مذكور*، ج٥، ص٢٦٢ ـ ٢٦٣ ـ ٢٦٤: شهادة ٤٣ شريف من أشراف الكوفة ضدّ حجر وأصحابه.

(٣) البلاذري، مصدر *مذكور*، ج٣، ص٣٢؛ بثينة بن حسين، مرجع *مذكور*، ص١٢٦ ـ ١٢٧.

(٤) هشام جعيط، *نشأة المدينة العربية الإسلاميّة*، ص٢٣٣ ـ ٢٣٤.

(٥) بثينة بن حسين، مرجع *مذكور*، ص١١٩: لم تتّفق المصادر حول وظيفة المنكب، فهو رئيس للعرفاء أو أنّه تابع للعريف وأقلّ منه.

وتميّزت هذه الفترة من تأريخ حركة مسلم بن عقيل بالكوفة وانتصاب سلطة عبيد الله بن زياد بتطوّر مزدوج لقوّة الدّولة الأمويّة تجاه هذه الحركة المعارضة لها. وفي نفس الوقت، تطوّرت هذه الحركة الشّيعيّة في اتّجاه معاكس ومضادّ للدّولة. فكانت الأحداث متشابكة في بعضها البعض ومتسارعة نظرًا لرغبة الدّولة التي يُمثّلها الوالي في القضاء قضاء سريعا على هذه الثّورة للتفرّغ للحسين بن عليّ (أي الوجه الثّاني من هذه الثّورة).

وكان ابن عقيل يريد أن يُحكم الأمور للحسين قبل التحاقه بالكوفة أي جمع الأنصار من الشّيعة وتنظيم الحركة تنظيما محكما.

فقد أُخبر الوالي الجديد أنّ مسلم بن عقيل قدم قبله بليلة، وأنّه بالكوفة. فدسّ عبيد الله مولى له[١] يقال له مَعْقِل[٢]، أو مولًى لبني تميم[٣]، حتّى يتعرّف أخبار مسلم بن عقيل وتنظيم الحركة. وقد تعدّدت الرّوايات التي ذكرت كيفيّة توصّل هذا الجاسوس لمعرفة قائد هذه الحركة، ومكان ابن عقيل، وتنظيم الحركة.

ففي رواية أولى للطّبري رواها عن عمّار الدُّهنيّ[٤]، أمر عبيد الله مولى له أن يتعرّف مكان ابن عقيل. كما أمره أن يذكر أنّه من أهل حمص ـ أي من أهل الشّام ـ و يبحث عن الرّجل الذي يتلقّى البيعة ويعطيه المال ليتقّوى به[٥].

ثمّ أعطاه عبيد الله بن زياد مالاً أو ثلاثة آلاف درهم[٦] ليستعين بها في هذه المهمّة أي أنّه يدفعه لقائد الحركة.

وفي رواية ثانية وهي لعمر بن شبّة، دعا مولًى لبني تميم[٧]، وأمره أن «ينتحل

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٨.
(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٨ ـ ٣٦٤؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٢، ص٣٣٦.
(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٠.
(٤) ابن حزم، مصدر مذكور، ص٣٨٩: بنو دُهن بن معاوية بن أسلم بن أحمس، بطن من بجيلة.
(٥) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٨.
(٦) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٨ ـ ٣٦٢.
(٧) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٠.

هذا الأمر»[1] أي يُوهِم الشّيعة أنّه على مذهبهم. وأعطاه مالا ليُعنهم به. و أمره أن يقصد دار هانئ بن عروة حيث يسكن مسلم بن عقيل. ودخل المولى على هانئ وخبّره أنّه من الشّيعة.

يبدو من هذه الرّواية أنّ الوالي لديه علم بتشيّع هانئ بن عروة ومساندته وإيوائه لابن عقيل. وهي الرّواية الوحيدة التي تذكر هذا الخبر أي انعدام الواسطة بين ابن عقيل والنّاس في أخذ البيعة. ويعتبر الجانب القريب من «الحقيقة التّاريخيّة» فيها هو تشيّع هانئ بن عروة، وسنرجع لهذه المسألة في ما بعد. بينما نشكّ في انعدام الوسائط بين ابن عقيل والنّاس، كما نشكّ في معرفة ابن زياد لمخبأ ابن عقيل.

وفي رواية ثالثة [2]، رواها الطّبري عن أبي مخنف، فذكر فيها أنّ ابن زياد دسّ مولى يقال له معقل، وأعطاه ثلاثة آلاف درهم. وأمره بالبحث عن ابن عقيل والتعرّف إلى مخبئه وكذلك التعرّف إلى أصحابه. وأمره أن يُعلمهم أنّه من الشّيعة وأن يسلّمهم الثلاثة آلاف على أساس أن يستعينوا بها على حرب عدوّهم (أي الأمويّين). كما أضاف الوالي أنّ المال هو وسيلة المولى ليطمئنّ إليه الشّيعة ويكسب ثقتهم. فلا يكتموا عنه أخبارهم. كما أمره أن يغدو عليهم ويروح.

ونفّذ المولى ما طلبه الوالي منه، وجاء في المسجد ـ الجامع ليقابل مسلم بن عوسجة الأسدي ـ وهو من بني سعد بن ثعلبة[3] ـ وقد ذكر له النّاس أنّه كان يأخذ البيعة للحسين، والمقصود بالنّاس الشّيعة.

وكان هذا الأخير يُصلّي، فجلس الجاسوس وانتظره حتّى أكمل صلاته. وقال له بأنّه شخص من الشّام، مولى لذي الكلاع[4]، «أنعم الله عليه بحبّ أهل البيت

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٠.
(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٤.
(٣) ابن حزم، مصدر مذكور، ص١٩٣.
(٤) ابن حزم، مصدر مذكور، ص٤٣٤: ذو الكلاع هو سُمَيفع بن ناكور بن عمرو بن يعفر بن يزيد، وهو ذو الكلاع الأكبر بن النعمان. وهو من حمير.

وحبّ من أحبّهم». وأخرج له الثلاثة آلاف درهم قائلا أنّه أراد أن يعطيها لرجل منهم ـ أي من أهل البيت ـ بلغه أنّه قدم الكوفة يبايع لابن بنت رسول الله.

وأعرب المولى على أنّه يحبّ لقاءه لكنّه لم يجد من يدلّه عليه ولا يعرف مكانه. وبينما هو جالس في المسجد إذ سمع نفرا من المسلمين يقولون بأنّ هذا رجل لديه علم بأهل البيت؛ ووضّح جاسوس عبيد الله لمسلم بن عوسجة بأنّه جاء ليقبّضه المال، ويُدخلَه على صاحبه ـ أي ابن عقيل ـ فيبايعه وإن شاء مسلم بن عوسجة أخذ بيعته قبل أن يدخل المولى لابن عقيل. وأجابه ابن عوسجة بأنّه يحمد الله للقائه، وتمنّى أن «ينصر الله به أهل بيت نبيّه به»، وبيّن له أنّ الحركة مازالت سريّة وفي أوّل تكوّنها «مخافة هذا الطّاغية وسطوته»[١]. والمقصود به عبيد الله بن زياد.

وتسلّم مسلم بن عوسجة البيعة من المولى، وأخذ منه المواثيق الغليظة ليكتمنّ سرّ بيعته وأمر الحركة. ثمّ حضر الاجتماعات بدار ابن عوسجة. وتريّث حتّى طلب من ابن عقيل الإذن فأدخله عليه[٢] بعد موت شريك بن الأعور[٣].

فأخبره بقصّته، وأخذ ابن عقيل منه البيعة. وكلّف أبا ثمامة الصّائدي بقبض الأموال.

وأصبح ذلك الرّجل يتردّد عليهم، «فهو أوّل داخل وآخر خارج، يسمع أخبارهم، ويعلم أسرارهم، ثمّ ينطلق بها حتّى يُقرّها في أذن ابن زياد»[٤].

لابدّ من الإشارة إلى دقّة أبي مخنف وطابعه الخاصّ في رواية الأخبار. فهو يعرف كيف يجذب انتباه القارئ، ويُشْركه في عالمه بكلّ رشاقة. فقد كان اعتزازه بالانتماء للكوفة و (ولليمن الأزد)، وتشيّعه حافزا كبيرا له ليستقي الأخبار التي

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٢.

(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٣.

(٣) هو شريف بصري وهو شديد التشيّع، وكان مرافقا لابن زياد عند انتقاله من البصرة إلى الكوفة. وقد نزل على هانئ بن عروة شريك بن الأعور ـ بعدما طلب منه ابن عقيل الإجارة ـ ومرض فعاده الوالي. وقد طلب شريك من هانئ أن يقتل عبيد الله بن زياد. لكنّ هذا الأخير رفض.

(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٤.

تنبض حياة وصورًا حيّة حتّى نتخيّل أنّنا نعيشها. فننساق معه، ونتحمّس لتحمّسه، ونتشوّق لمعرفة المزيد من الأخبار.

وفي رواية البلاذري، أرسل أو دسّ ابن زياد مولى يقال له اسمه معقل، وأمره أن يتظاهر أنّه من شيعة عليّ بن أبي طالب، ويتجسّس ليعرف مخبأ مسلم بن عقيل، وأعطاه مالا يستعين به على ذلك.

فالتقى معقل مولى ابن زياد مسلم بن عوسجة الأسدي فقال له بأنّه «رجل محبّ لأهل بيت رسول الله، وأنّ الحسين بعث برجل منهم إلى شيعته من أهل الكوفة. وأضاف بأنّ له مالا يريد أن يقدّمه إليه ليستعين به على أمره وأمرهم. فوثق ابن عوسجة فيه. وأسرّ إليه بأنّ الرّجل القادم من قبل الحسين مسلم بن عقيل وهو ابن عمّه. ووعده بأن يدخله عليه. وأصبح معقل مولى ابن زياد يتردّد على ابن عوسجة إلى أن أدخله على مسلم بن عقيل. وأخذ مسلم بيعته والمال الذي سلّمه له عبيد الله بن زياد، وذلك بعد موت شريك بن الأعور.

وأتى معقل ابن زياد فأخبره بكلّ التّفاصيل المتعلّقة بالبيعة لابن عقيل، وبقبضه المال بدار هانئ بن عروة المرادي. فقال عبيد الله: أفعلها هانئ؟!

تشبه هذه الرّواية رواية ذكرها الطّبري أي أنّها تذكر نفس العناصر (إرسال معقل مولى ابن زياد والدّور المحوري لابن عوسجة في أخذ البيعة وفي إيصال المولى لابن زياد).

كما تؤكّد هذه الرّواية على غضب الوالي لمساندة شريف من الأشراف لابن عقيل. كما يبدو أنّ ابن زياد كان متوقّعا لردّ فعل هانئ بن عروة بما أنّه ساند ابن عقيل نظرًا لتشيّعه.

تطرح كلّ هذه الرّوايات ـ رغم الاختلافات الطّفيفة بها ـ كيفيّة كشف عبيد الله بن زياد للحركة الشّيعية التي قادها مسلم بن عقيل. فتوفّر لنا معلومات حول جاسوس ابن زياد وتوصّله لخرق سريّة التّنظيم والتّغلغل داخله ومعرفة أسسه ورجاله القائمين عليه. ثمّ إعلامه ابن زياد بكلّ التّفاصيل التي مكّنته من القضاء على الحركة في أوّل تشكّلها.

تختلف الرّوايات في هويّة هذا الشّخص الذي أرسله عبيد الله بن زياد ليتعرّف على حقيقة التّنظيم الشّيعي. فمرّة يذكر أنّه مولى لعبيد الله بن زياد فقط، ومرّة أخرى يذكر أنّه يدعى معقل. وفي رواية أخرى، يذكر أنّه مولى لبني تميم.

ونرجّح أن يكون هذا الشّخص مولى لعبيد الله لأنّ مثل هذه المهمّات لا تُسند إلاّ لشخص من الثّقات والمقرّبين للوالي.

كما نلاحظ نشأة شبكة من العلاقات بين ولاة الدّولة الأمويّة ومواليهم (أي عبيد منحوهم ولائهم فأصبحوا مرتبطين بهم عشائريّا وسياسيّا، وهؤلاء العبيد ينتمون للمجال الفارسي أي لديهم تجربة في السياسة). فقد أصبح العمّال يعوّلون عليهم في المهمّات السريّة المتعلّقة بمصلحة الدّولة، بينما كانوا يحترزون من العمّال من العرب.

على كلّ حال، لم يكن من الممكن تكليف أحد رجال العشائر بالكوفة بهذه المهمّة لأنّ خطّة الوالي تنكشف. ويدخل هذا التطوّر في إطار تطوّر عامّ لبيروقراطيّة من الموالي في الدّواوين خاصّة منها ديوان الخراج سواء في مركز الخلافة أو في العراق. فقد كان على ديوان خراج زياد بن أبي سفيان ـ لم يذكر البلاذري بالكوفة أو البصرة ـ سُليم مولاه[1].

على هذا الأساس، كانت الجوسسة وسيلة عبيد الله بن زياد في التعرّف على تنظيم الحركة الشّيعيّة بالكوفة. كما تؤكّد هذه الأخبار على أنّ عبيد الله بن زياد كان على درجة كبيرة من الدّهاء، فعرف كيف يكشف أسرار هذا التّنظيم. وليس غريبا أن ينجح عبيد الله في ذلك فهو ابن زياد ويشبهه شبها كبيرا.

تطرح المصادر إشكاليّة الزّمنيّة فلا نستطيع أن نحدّد كم بقي هذا المولى يتودّد ويتلطّف ويرفق بالشّيعة حتّى كسب ثقتهم. كما أنّنا نتساءل كم بقيت هذه الحركة تجمع الأنصار في سريّة.

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٢٨٧.

تبرز في هذه الرّوايات كلمة «شيعة عليّ بن أبي طالب»[1]، وهذا دليل على أنّ كلّ من بايع ابن عقيل للحسين بن عليّ كان من أصحاب عليّ أو المتعاطفين مع عليّ بالكوفة وهو يفرض وجود القرّاء والأشراف. لكنّ هذا المفهوم يتطوّر وتظهر كلمة «شيعة الحسين بن عليّ من أهل الكوفة»[2].

ويظهر هذا التّنظيم تنظيما سريّا وتراتبيّاً حيث يتلقّى شيخ (لم يُحدّد انتماءه القبلي) أو مسلم بن عوسجة الأسديّ البيعة لمسلم بن عقيل، ثمّ يبايع في مرحلة ثانية قائد الحركة بالنّيابة عن الحسين بن عليّ أي مسلم بن عقيل. كما كان مسلم يتلقّى الأموال ليقوّي بها حركته.

لم تذكر المصادر هويّة الشّيخ الذي تلقّى البيعة وقاد المولى للموضع السرّي الذي اختبأ فيه مسلم بن عقيل (أي دار هانئ بن عروة).

أصبحت دار هانئ بن عروة مركزا لتلقّي البيعة ولقيادة الحركة الشّيعيّة[3].

من يأخذ البيعة للحسين بن عليّ؟ تمّ أخذ البيعة عن طريق الوسائط أو بواسطة حلقات.

تأخذ البيعة على مراحل: فالشيخ أو مسلم بن عوسجة الأسديّ هو الحلقة الأولى في شبكة الوسائط، ثمّ مسلم بن عقيل. كان المسجد ـ الجامع بالكوفة مكانا لتجمّع النّاس وتلقّيهم الأخبار وأساسا جمع حركة ابن عقيل للأنصار من الشّيعة[4]. لا بدّ من الإشارة إلى أنّ هذه البيعة لن تصل إلى الحسين بما أنّ النّاس انفضّوا عن مسلم!

نلاحظ أنّ تنظيم هذه الحركة الشّيعيّة يفرض وجود شبكة من العلاقات داخل هذه الحركة. وللدّخول والمساهمة أو الانخراط فيها، يجب الاتصال بعناصر

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٢، ص٣٣٦.
(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٢، ص٣٣٦.
(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٢، ص٣٣٧ ـ ٣٤٣؛ الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٤.
(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٢.

لديها أهميّة أو قرب من القائد (لا يمكننا الحديث عن إمام لأنّ الحسين بن عليّ هو إمام الحركة ومسلم بن عقيل هو عبارة عن الواسطة بين الإمام وأهل الكوفة.

وهذا التّنظيم يشبه إلى حدّ معيّن نشأة الدّولة الفاطميّة أو الدّعوة الشّيعية الفاطميّة بالمغرب. فقد قام الدّاعي بمهمّة الدّعوة السريّة ثمّ قاتل الأغالبة. وفي آخر مرحلة، قدم المهدي أي الإمام[1]. لا بدّ من التّأكيد من أنّ هذا الطّابع التّراتبي والسرّي سيصبح الطّابع المُميّز للحركات الشّيعيّة العلويّة والفاطميّة في صراعها السّياسي مع الشّيعة العبّاسيّة.

كانت هذه الحركة سريّة مخافة القمع والاضطهاد من قبل عبيد الله بن زياد.

كان المسجد ـ الجامع بالكوفة مكانا لتجمّع النّاس وتلقّيهم الأخبار وأساسا جمع حركة ابن عقيل للأنصار من الشّيعة[٢]. وفي هذا لا بدّ من التّأكيد على أهميّة المسجد «الأعظم»[٣]، أو المسجد ـ الجامع وهو مكان تجمّع النّاس[٤] وبالتّالي العصب السّياسي والدّيني للكوفة. وهو يوجد في مجال مركزي، يشمل المسجد، وقصر الوالي، والأسواق، وساحة كبرى خُصّصت للاجتماعات وعرفت بالميدان أو الرحبة[٥]. ولم تنقص قيمة هذا المسجد المركزي أو تتعارض مع مساجد العشائر[٦]، التي تكاثرت، بفضل ما بلغه التديّن الفردي من تطوّر سريع[٧].

لقد كان إسلام مقاتلة الكوفة إسلاما خاصّا. «فقد تشكّل ضمير الكوفة الإسلامي في الحرب وارتبط ارتباطا وثيقا بهويّتها العرقيّة العامّة، كما ارتبط بمركز القرار في المدينة. فتمخّض عن ذلك تأكيد الصلاة كمجموعة من الحركات التوحيديّة التي

---

(1) *E.I²*, article Fatimides.

(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٢.

(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٢.

(٤) هشام جعيط، *نشأة المدينة العربية الإسلامية*، ص٩٢.

(٥) هشام جعيط، مرجع مذكور، ص٩٤.

(٦) هشام جعيط، مرجع مذكور، ص٩٨.

(٧) هشام جعيط، مرجع مذكور، ص١١٩.

تتجمّع بفضلها أمّة المقاتلين. وترتب عن ذلك أيضا طابعها كفريضة مطلقة، لا لسبب ديني وحسب، بل كفعاليّة سياسيّة واجتماعيّة للإبقاء على لحمة شعب مشتّت في الأصل. كان المركز موطنيّا بفضل المسجد، لأنّ الدّين كان معاشًا كظاهرة جماعيّة أكثر منه كجملة من المضمّنات الماورائيّة. وبما أنّ المسجد هو ملك للجميع، فقد كان مركزًا أسمى، ومكانا للالتقاء»[1]. وسيلعب المسجد ـ الجامع دورا هامّا في كلّ الثّورات بالكوفة طيلة الفترة الأمويّة.

اتّفقت جميع الرّوايات أنّ مسلم بن عوسجة الأسديّ (وهو الذي سكن ربّما ابن عقيل في داره عندما وصل للكوفة)، اطمأنّ للمولى الذي أرسله ابن زياد، وقاده لمسلم بن عقيل، وهو بذلك شخصيّة محوريّة في كشف مخبأ ابن عقيل وإزاحة اللّثام عن حقيقة التّنظيم الشّيعي للوالي.

كان مسلم بن عوسجة الأسدي الشّيعي الذي أخرج الحركة الشّيعيّة من السريّة إلى العلنيّة حيث باح «لجاسوس» عبيد الله بحقيقة الحركة الشّيعيّة. ولم يتأخّر هذا الأخير على ضوء هذه المعلومات من ردّ الفعل والقضاء على الحركة. على هذا الأساس، نجح الوالي بفضل الجوسسة في التعرّف على حقيقة التّنظيم الشّيعي. وهذا دليل على حذق الوالي لفنّ الخداع في السّياسة[2]. فاتّخاذ الجاسوس يدخل في إطار استراتيجيا القضاء على ثورة مسلم بن عقيل، وهي استراتيجيا كان يستعملها الفرس ويلجأ إليها البيزنطيّون. وقد تأثّر الأمويّون بهذه الأساليب في السّياسة.

كان مسلم بن عوسجة حلقة أساسيّة في تنظيم هذه الحركة الشّيعيّة الأوليّة بالكوفة (أو حركة مسلم بن عقيل). فقد ذكره كلّ من الطبري والبلاذري.

فهل كان من النّواة الصّلبة للشّيعة؟ سكن ابن عقيل ربّما في داره قبل أن ينتقل إلى دار هانئ بن عروة المرادي.

---

(١) هشام جعيط، مرجع *مذكور*، ص٩٨.

(٢) ابن عبد ربّه، *العقد الفريد*، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٥، ج١، ص١٢٢: «وسُئل بعض أهل التمرّس بالحرب: أيّ المكايد فيها أحزم؟ قال: إذكاء العيون، وإفشاء الغلَبة، واستطلاع الأخبار».

كما يبدو أنّ هذا الشّخص ليس لديه حسّ سياسي بما أنّه انطلت عليه حيلة المولى الجاسوس. كما يظهر أنّ مسلم بن عوسجة لم يذكره الطّبري في الاجتماع «التّأسيسي» للحركة لكنّه لعب دورا هامّا في تكوّن وتطوّر الحركة.

لم يتفطّن مسلم بن عوسجة لمحاولات الوالي لكشف الحركة الشّيعيّة وأساسا التعرّف لقائدها ـ أي مسلم بن عقيل ـ بل كان لديه من حسن النيّة والاندفاع لنجاح الحركة ما جعله يكشف سرّ مسلم بن عقيل.

كان الشّخص يقبل في التّنظيم بعد البيعة. ويحضر الاجتماعات في دار ابن عوسجة ثمّ طلب له الإذن ليقابل ابن عقيل ويقدّم له البيعة.

هل كانت دار ابن عوسجة مرحلة أوليّة «للتّكوين الإيديولوجي الشّيعي» ثمّ تليها مرحلة الدّخول على ابن عقيل للبيعة؟

كما أخذ ابن عقيل المال من المولى في دار هانئ بن عروة المرادي[1]. وهذا دليل على الدّور الذي لعبه هذا الشريف المتشيّع في استضافة مسلم بن عقيل وبسط يد المساعدة له في ثورته ضدّ الحكم الأموي.

ذكرت المصادر وجود شخص مسؤول على جمع الأموال وبالتّالي وجود تنظيم مالي للحركة.

تكفّل أبو ثمامة الصّائدي[2] وهو من فرسان العرب ووجوه الشّيعة ـ أي كان في مرتبة هامّة في هذا السلّم التّراتبي للشّيعة ـ بقبض الأموال. أي كان مكلّفا بجمع المال فهو المسؤول عن الأموال التي تجمع لتقوّي الحركة. كما كان يقبض أشياء أخرى لإعانة الحركة لم يذكرها الطّبري. وهي ربّما خيرات عينيّة كالحبوب وكلّ ما يستحقّونه في حياتهم اليوميّة في صورة شنّ حرب ضدّ الأمويّين.

---

(١) الطّبري، مصدر *مذكور*، ج٥، ص٣٦٤؛ البلاذري، مصدر *مذكور*، ج٢، ص٣٣٧.

(٢) الطّبري، مصدر *مذكور*، ج٥، ص٣٦٤؛ابن حزم، مصدر *مذكور*، ص٣٩٥ بنو الصّائد من همدان، «ومنهم أبو ثمامة الصائدي، اسمه زياد ابن عمرو بن عريب بن حنظلة بن دارم بن عبد الله الصّائدي، قُتل مع الحسين»؛ هشام جعيط، *نشأة المدينة العربية الإسلاميّة*، ص٣٧٦: «الصائديون، وهم عشيرة ذات شأن أطلق اسمها على إحدى سكك المدينة».

كما كان بصيرا بالسّلاح ويشتريه لهم. وهذا المعطى هو أساسي وهامّ جدّا لأنّ هذه الحركة أصبحت حركة مسلّحة في مصر مدجّج بالمقاتلة تمرّسوا بالقتال في الفتوحات. فهي ثورة مسلّحة ولديها قاعدة أوسع من ثورة حجر بن عديّ.

إضافة لهذا التّنظيم السّياسي (أخذ البيعة) والمالي والعسكري فإنّ هذه الحركة كانت تستند على مشاعر عاطفيّة تجاه أهل البيت.

يبدو البرنامج الإيديولوجي غائبا ما عدا كلمة هداية الله[١] وهي تدخل في إطار الخطاب الدّيني لأهل البيت والشرعيّة الدّينيّة التي استندوا عليها. لكنّ هذه الشرعيّة هي شرعيّة قويّة تجاه الشرعيّة الأمويّة. كما تؤكّد المصادر أنّ هذه الحركة مازالت بصدد التكوّن[٢]، وهي تحاول جمع الأنصار والأموال.

ولنا أن نتساءل هل طمس الأمويّون معالم هذا التّنظيم الشّيعي الأوّلي المنتمي لأهل البيت وعتّموا عليه فلم يصلنا منه إلاّ القليل من الأخبار؟

المهمّ أنّ الوالي تمكّن بفضل الجوسسة من كشف أسرار هذا التّنظيم الشّيعي في بدايات تكوينه أي ممثّل أهل البيت وقائد الحركة بالنّيابة عن الحسين، والشخص السّاهر على البيعة أو الوسيط بين مسلم بن عقيل والنّاس، والشّخص المكلّف بجمع الأموال وبشراء السّلاح.

وقد واكب مجهود ابن زياد في التعرّف على التّنظيم السّياسي والعسكري الشّيعي تطوّر لحركة مسلم بن عقيل.

وعلينا أن نتتبّع هذا التطوّر لنتوصّل إلى الطّريقة التي توخّاها ابن زياد للقضاء على هذه الثورة.

فما هو ردّ فعل مسلم بن عقيل عندما قدم ابن زياد للكوفة؟

تحوّل مسلم من دار ابن عوسجة إلى دار هانئ بن عروة المرادي عندما بلغ إليه

---

(١) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٤٨.

(٢) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٤٨؛ الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٦٢.

قدوم عبيد الله بن زياد إلى الكوفة [1]. أو أنّه انتقل من دار المختار بن أبي عبيد إلى دار هانئ بن عروة بن نمران المرادي[2] بعد أن علم الجميع بمكانه[3].

كما بلغ مسلم ما تهدّد به الوالي العرفاء والنّاس[4]. فهل تخوّف ابن عقيل من بطش الوالي الجديد؟ لماذا لم يستقرّ مسلم بن عقيل منذ وصوله في منزل هذا الشّريف؟ هل كانت لديه أوامر من الحسين للنّزول على هذا الشريف في مرحلة ثانية؟ لماذا تحوّل مسلم إلى دار هذا الشّريف؟

تحوّل مسلم إلى دار هذا الشّريف لأنّه لم تكن لديه عشيرة بالكوفة، فكان مُجبرًا ربّما لإحساسه بالخطر بعد أن قدم الوالي من البحث عن شريف لحمايته. وهذا ما سيقوله في ما بعد عندما انفضّ عنه النّاس وجلس بباب امرأة. وقد طلبت منه هذه الأخيرة أن لا يجلس ببابها ويلتحق بأهله فأجابها بأنّه «ليس لديه في هذا المصر منزل أو عشيرة»[5]. وفي هذا دلالة على قوّة الرّوابط القبليّة والعشائريّة التي تحمي الفرد من تسلّط قبيلة أو عشيرة أخرى. كما تحميه نسبيًا من بطش الدّولة. لكنّ زياد تمكّن من اختراق «الحرمة» القبليّة في ثورة حجر بن عديّ الكندي بالقضاء على سلطة أشراف كندة أساسا (محمد بن الأشعث الكندي)[6]. وسيكمل عبيد الله عمل أبيه.

ربّما تحوّل مسلم لدى هانئ بن عروة لأنّه شريف لديه عشيرة بإمكانها أن تحميه من الوالي. بينما لم يكن لمسلم بن عوسجة الأسديّ عشيرة ذات شأن بالكوفة مثل العشائر اليمنيّة. كما أنّ المختار لم تكن لديه ربّما عشيرة بالكوفة، وهذا احتمال.

من هو هانئ بن عروة المرادي؟

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٢.
(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٢، ص٣٣٦ ـ ٣٤٣.
(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٥٥ ـ ٣٦٢.
(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٢.
(٥) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٧١.
(٦) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٢٦٣.

كان هانئ بن عروة بن نمران المرادي سيّدا لعشيرته (ناجية، من مراد، ومن مذحج[1]). هل كان سيّدا لعدّة عشائر؟ أو شريفا فقط لعشيرته؟ هذا ما لم تذكره المصادر، فقد كانت لديه «منزلة في المصر» وكان «بيته ذو مكانة في المصر أي بالكوفة»، كما أنّ قومه من مراد أي مذحج، «هم أَعزّ أهل المصر، وعُدَدُ أهل اليمن»[2]. كانت لهانئ بن عروة مكانة هامّة في الكوفة لشرفه وشرف عشيرته وكثرة رجالها.

وقد ذكر الأستاذ هشام جعيّط في مقاله «اليمنيّون في الكوفة في العهد الأموي»[3]، أنّ مذحج احتلّت المرتبة الثّانية على مستوى اليمن وعلى مستوى الكوفة. وهي مشبعة بروح البداوة. وشكّلت مراد عشيرة واضحة الهويّة لكنّ دراسة أسماء المواقع تبيّن وجود أقلّ أسماء لمذحج مقارنة بهمدان. ومع ذلك، فقد ذكرت المصادر جبانة مراد وضريحا لهانئ بن عروة شيّد له تعظيما وتخليدا له لدوره في ثورة مسلم بن عقيل [4]. لكنّ طريقة اتّصاله بهذا الأخير تبدو غريبة في المصادر، وتطرح عدّة إشكاليّات. فقد أورد أبو مخنف رواية عن إجارة هانئ بن عروة هذا نصّها: «. . انتهى إلى دار هانئ بن عُروة المراديّ، فدخل بابه، وأرسل إليه أن اخرج، فخرج إليه هانئ، فكره هانئ مكانه حين رآه، فقال له مسلم: أتيتك لتجيرَني وتُضِيفني؛ فقال: رحمك الله! لقد كلفْتَني شطَطا، ولولا دخولُك داري وثقتُك لأحببتُ ولسألتُك أن تخرج عني، غير أنه يأخذني من ذلك ذِمام، وليس مردود مثلي على مثلك عن جَهل؛ ادخل. فآواه»[5].

---

(١) ابن حزم، مصدر مذكور، ص٤٠٦ : «هانئ ابن عروة بن نِمران بن ناجية (من مراد)، قتله عُبيد الله بن زياد في أمر مسلم بن عقيل».

(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٧٨.

(٣) هشام جعيط، *نشأة المدينة العربيّة الإسلاميّة الكوفة*، ص٣٧٥: يحتلّ الثّنائي القبلي همدان/ حمير المرتبة الأولى في ترتيب القبائل اليمنيّة بالكوفة. وهو يمثّل الأصالة اليمنيّة.

(٤) هشام جعيط، *نشأة المدينة العربيّة الإسلاميّة الكوفة*، ص٣٧٧.

(٥) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٢.

تبدو هذه الرّواية محيّرة نوعا ما، فقد أبدى هانئ بن عروة امتعاضًا ورفضًا لقبول جوار مسلم بن عقيل عندما رآه واقفا على بابه. وأعرب هانئ لمسلم بأنّه حمّله ما لا طاقة له به، لكنّه مجبر بعد أن وثق به، وطرق بابه ودخل بيته، على إجارته.

ولا يتطابق هذا التصرّف مع التّقاليد والقيم القبليّة التي أرسيت منذ فترة الجاهليّة. فالجوار[1] ظاهرة انتروبولوجيّة هامّة في المجتمع القبلي العربي. كما لا يتوافق تصرّف هانئ بن عروة مع القيم التي يجب أن يتحلّى بها الشّريف من حفاوة الاستقبال (بَسْط الوجه، وحُسن البِشْر)[2]، والنجدة وتوفير للضّيافة. وهو بذلك يحمي الشّخص الذي يستجير به من أيّ عنف مسلّط عليه ويدافع عنه ويحفظه، أي يؤمّنه. فمن العار أن لا يجير رجل شخصا احتمى به، كما أنّه من العار عليه أن لا يدافع عنه ويسلّمه لأعدائه.

ولدينا مثال عن أهميّة الجوار في ثورة حجر بن عديّ الكندي، فقد هرب هذا الأخير من مطاردة مذحج وهمدان له، فالتجأ لمنزل رجل من بني حرب[3] يسمّى سليم بن يزيد. فأخذ الرّجل سيفه، عندما سمع بقدوم المطاردين لحجر. ثمّ ذهب ليخرج إليهم، فبكت بناته. فسأله حجر عمّ سيفعل، وأجابه الرّجل أنّه سيضربهم بالسّيف دفاعا عن حجر. فاستنكر هذا الأخير فعل الرّجل خاصّة أنّه لم يفكّر في مصير بناته. لكنّ الرّجل أجابه بكلّ ثقة وتصميم: «إنّي والله ما أُمُونُهنّ، ولا رزقُهنّ إلاّ على الحيّ الذي لا يموت؛ ولا أشتري العار بشيء أبدًا، ولا تخرج من داري أسيرًا أبدًا وأنا حيٌّ أملك قائم سيفي».

---

(١) ابن منظور، معجم *مذكور*، ج١، ص٥٣٠ ـ ٥٣١: جاور بني فلان وفيهم مُجاورةً وجِوارًا: تحرّمَ بجوارهم. أجار الرجل إجارةً وجارةً، خفرَهُ. والجارُ: الذي أجرته من أن يظلمه ظالم. وكان سيّد العشيرة إذا أجار عليها إنساناً لم يخفروه.
خفر الرجل وخَفَرَ به وعليه يَخْفِرُ خَفْرًا: أجاره ومنعه وأمّنهُ، وكان له خفيرًا يمنعه. خفير القوم مُجيرهم الذي يكونون في ضمانه ما داموا في بلاده. والخِفَارة: الذّمام.

(٢) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٢٦٢.

(٣) ابن حزم، *مصدر مذكور*، ص١٧٤ بنو حرب من بني خُزيمة بن لُؤَي؛ الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٢٦٢.

على هذا الأساس، لا نتوقّع أن تندثر هذه القيم في سنوات قليلة (أي من فترة زياد سنة ٥١هـ إلى فترة عبيدالله سنة ٦٠هـ).

أنكرت الرّواية وجود علاقة بين ابن عقيل وهانئ بن عروة أي نفت تشيّع هذا الأخير برفضه للجوار. وهذا غريب في ربّما يدخل هذا في إطار مجهود الشّيعة في ما بعد لتوجيه أصابع الاتّهام للأمويّين وتحميلهم مسؤوليّة قتل هانئ بن عروة بينما هو كان بريئا. فلم يُرِدْ هانئ إيجار مسلم بن عقيل بل فرض نفسه عليه كما فرضت عليه القيم العربيّة الجاهليّة أن يقبل جواره بما أنّه وقف ببابه ودخل إلى داره.

لم يشارك هانئ بن عروة حجرا بن عديّ ثورته ضدّ السّلطة، وكان من ضمن الأشراف الذين أرسل إليهم زياد بن أبي سفيان لكي يأتوا بحجر عندما توارى من الوالي[1]. وفي هذا دلالة على أهمّيته في المصر. كما نرجّح أنّه كان ضمن الأشراف الذين يتردّدون على مجلس الوالي ـ بما أنّه ناداه ـ للقضاء على هذه الثّورة الشّيعيّة الأولى. وكان على الأرجح كابتًا لمشاعره الحقيقيّة تجاه عليّ بن أبي طالب. لكنّ المصادر لم تذكر إن كان قد شارك في عمليّة البحث عن حجر لتسليمه للوالي. فهل تغاضى عنه الوالي وكلّف محمد بن الأشعث بصفته سيّد عشيرة كندة ـ أي نفس العشيرة التي ينتمي إليها حجر ـ كلّفه بهذه المهمّة؟ كما توصّل الوالي إلى تحريض مذحج (مع همدان) لتتبّع ومطاردة حجر[2]. فهل قاد هانئ بن عروة عشيرته؟ أم أنّ العشيرة تصرّفت بأمر من زياد ـ رمز السّلطة السّياسيّة والإداريّة والعسكريّة ـ بدون تدخّل سيّدها؟ كما أنّ هانئ بن عروة لم يكن في قائمة الشّهود من الأشراف الذين شهدوا ضدّ حجر[3]. فكيف أفلت من زياد؟ هل محت الرّواة من الشّيعة كأبي مخنف اسمه من القائمة؟ وفي ذلك مجهود أيضا في إبراز صورة هانئ بن عروة «الشّهيد» الذي وهب نفسه للقضيّة الشّيعيّة في بدايات

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٢٥٦.

(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٢٦١.

(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٢٦٢ ـ ٢٦٣؛ الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٢٦٩ ـ ٢٧٠.

تكوّنها. يحيط الغموض بموقف هانئ بن عروة من الثّورة الشّيعية الأولى التي قادها يمنيّ وهو حجر بن عديّ الكندي. وكان هانئ بن عروة المرادي شيعيًّا، وقد ذكر الطبري ذلك عندما لام عبيد الله بن زياد هانئا على إيوائه لابن عقيل. فقد ذكّر هانئا بحسن معاملة زياد لأبيه، وكان شيعيّا. كما «أحسن زياد صحبة» هانئ وأوصى عمرو بن حريث عامله على الكوفة عندما يذهب للبصرة بِحسن معاملة هانئ[1]. لكنّ عبيد الله بن زياد لم يذكر إن كان أب هانئ أي عروة بن نمران المرادي شيعيّا نشيطا. كما أنّ زياد كان حريصا على حسن معاملة الأب والابن.

فما هي دوافع زياد من ذلك؟ وهل يدخل هذا التصرّف في إطار سياسة إكرام الأشراف والحرص على دعمهم السّياسي للدولة؟

ويؤكّد الأستاذ هشام جعيّط[2] تشيّع هانئ بن عروة. وقد كان التشيّع عاطفيّا وموروثا في مذحج. ففي الجمل كان سبع مذحج مع عليّ[3]، كما كانت مذحج تقاتل في صفّ عليّ في صفّين[4]، وقاتل رجال مراد قتالا ضارياً مع عليّ وقتل أشرافهم في سبيل نصرته[5].

وكانوا من الشّيعة الذين يرون أنّ عليّا على حقّ، وأنّهم يقاتلون معه «المُحلّين» (أي معاوية وأهل الشّام) حتّى ينتصر عليهم.

---

(١) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٦١.

(٢) هشام جعيط، *نشأة المدينة العربيّة الإسلاميّة الكوفة*، ص٣٨٧؛ «ومن المؤكّد أنّ اليمنيّين خاضوا أقسى المعارك وتكبّدوا أكثر الخسائر، وأنّ قدرة عظيمة على الوفاء والإخلاص لأسرة النبي طبعت موقفهم، وتعدّت التقسيم الاجتماعي الهرمي، متجاوزة حدود التّضامن القبلي. فتمكّنت بذلك الأجيال الجديدة، في السنوات الستّنيّات للهجرة، من الاضطلاع بالمهمّة بكاملها. فحُجر بن عديّ في العام ٥١ الهجري، وهانئ بن عروة المرادي في العام ٦٠ الهجري، كانا يناضلان في العُزلة؛ تكوّنت هذه المرّة حركة استندت إلى قاعدة واسعة، وكانت هذه القاعدة ذات أكثريّة يمنيّة ساحقة. على أيّة حال، لم يكن هناك علاقة واضحة وواعية بين الانخراط في هذه الحركة وبين الانتماء اليمني».

(٣) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٣٢.

(٤) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٢٠.

(٥) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٦.

المهمّ أنّ هانئ بن عروة أجار ابن عقيل من زاوية تشيّعه وبالتّالي تجاوز فترة الحيرة والتخوّف من السّلطة إلى العمل السّياسي الفعلي. لم يكن تحوّل مسلم بن عقيل لمنزل هانئ بن عروة تحوّل عفويّ بل كان مبرمجا ومدروساً. وربّما كان هانئ من الأشراف المتشيّعين الذين كتبوا للحسين بن عليّ ولم تذكر المصادر اسمه مع الشّيعة الذين أرسلوا للحسين يحثّونه للقدوم عليهم للكوفة وتسلّم السّلطة.

كما أنّ الإجارة ـ أي إجارة هانئ لابن عقيل ـ تدخل في إطار هذا «البرنامج» الشّيعي المتكامل الذي يهدف للقيام بعمليّة انقلاب على السّلطة الأمويّة بالكوفة وافتكاك السّلطة من يزيد. فكان بيته مقرّا للاجتماعات الشيعيّة التي يترأسّها ابن عقيل [1] أي انّه وهب نفسه «للقضيّة الشّيعيّة» ماديّا (قدّم ماله لحركة ابن عقيل) ومعنويّا للحسين بن عليّ.

بدأ ابن عقيل بعد انتقاله واستقراره بدار هانئ بن عروة مرحلة جديدة من تاريخ الحركة الشّيعيّة حيث كتب إلى الحسين بن عليّ، وذلك قبل أن يُقتل بسبع وعشرين ليلة[2]، يُخبره ببيعة اثني عشر ألفًا[3] أو ثماني عشر ألفًا من أهل الكوفة[4]، ويأمره بالقدوم.

وتذكر الروايات في نصّ أوّل هذه الرّسالة[5]: «أما بعد، فإنّ الرائد لا يَكذِب أهلَه، إنّ جَمْع أهل الكوفة معك، فأقبل حين تقرأ كتابي». وقد أرسل ابن عقيل الكتاب مع قيس بن مُسهر الصّيداوي. ويؤكّد البلاذري هذه الرّسالة الأولى.

وتذكر الرواية الثّانية التي رواها أبو مخنف أنّ مسلم بن عقيل أرسل كتابا مع عابس بن أبي شبيب الشاكريّ: «أما بعد، فإن الرّائد لا يَكذِب أهلَه، وقد بايعني

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٢؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٢، ص٣٣٧.
(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٩٥؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٧٨.
(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٨.
(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٧٥.
(٥) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٩٥؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٧٨؛ ج٢، ص٣٤٢.

من أهل الكوفة ثمانية عشر ألفًا، فعَجّلِ الإقبالَ حين يأتيك كتابي، فإنّ الناس كلّهم معك؛ ليس لهم في آل معاوية رأي ولا هَوًى»[١].

كان مسلم بن عقيل يلعب دور الوسيط بين الحسين بن عليّ و «شيعته» بالكوفة. وقد أكّد في رسالته للحسين على أنّه الرّائد أي «أنّ الحسين قدّمه بين يديه»[٢]. كما بيّن أنّه صادق في ما يقوله للحسين بما أنّه من أهل البيت. إضافة إلى أنّ مهمّته تكمن أساسًا في التأكّد من صدق أهل الكوفة.

المهمّ أنّ مسلم بن عقيل كان على وعده للحسين بن عليّ. فأرسل إليه كتابًا ليصف له حالة الكوفة أي نجاحه في أخذ البيعة من ثمانية عشر ألفًا من النّاس. وحثّه على القدوم للكوفة سريعا. فيم يتمثّل قدوم الحسين للكوفة؟

هل هو سيقدم لأخذ البيعة من أهلها بعد أن تسلّمها مسلم بن عقيل بالنّيابة عنه؟

كما أنّ عدد أهل الكوفة الذين بايعوا ابن عقيل هو عدد هامّ، ثمانية عشر ألفا. فكم كان عدد مقاتلة الكوفة في تلك الفترة؟

يذكر البلاذري أنّ عدد المقاتلة بالكوفة بلغ في عهد زياد بن أبي سفيان سنة ٥٠هـ/ ٦٧٠م ٦٠٠٠٠ وبلغ عدد عيالهم ٨٠٠٠٠[٣] ونقل منهم زياد ١٠٠٠٠ مقاتل إلى خراسان للتّخفيف من حدّة الضّغط الدّيمغرافي[٤]. إذ بلغ عدد الرّجال ٦٠٠٠٠ وبلغ عدد النساء والأبناء ٨٠٠٠٠ أي ١٣٠٠٠٠.

إذا بلغ عدد المساندين للحسين بن عليّ ١٨٠٠٠ من جملة خمسين ألف مقاتل. أي تقريبا كان ثلث أهل الكوفة من الشّيعة أو مساندين للحسين بن عليّ.

ويؤكّد ابن عقيل للحسين أنّ النّاس كلّهم معه، وأنّهم ليس لديهم حبّ في آل معاوية أو «رأي» والمقصود بالرّأي التّعاطف الإيديولوجي مع الأمويّين.

---

(١) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٧٥.

(٢) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٢، ص٣٤٣.

(٣) البلاذري، *فتوح البلدان*، ص٤٨٨.

(٤) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٢٨٦؛ بثينة بن حسين، *مرجع مذكور*، ص١٢٣.

يبدو «هذا التّضخيم» من جانب ابن عقيل تضخيما أملته العاطفة وحسن الرّأي والنيّة. فهو لم يخبر خفايا المجتمع الكوفي وإشكاليّة علاقته بالسّلطة الأمويّة وبأهل البيت. وستثبت الأحداث عكس ما كان يتصوّره ابن عقيل.

كما أنّ الرّسول سواء كان قيس بن مُسهر الصّيداوي أو عابس بن أبي شبيب الشاكريّ يُعتبرون من الشّيعة النّشطين. فقد سبق لقيس بن مسهر أن كان رسول الشّيعة للحسين بن عليّ بعد موت معاوية بن أبي سفيان. وكان عابس بن أبي شبيب الشاكريّ من الحاضرين في «الاجتماع التّأسيسي» للحركة الشّيعيّة بالكوفة عندما حلّ مسلم بن عقيل بها. لكنّنا نرجّح أنّ مسلم بن عقيل أرسل للحسين قيس بن مُسهر الصّيداوي. ثمّ سيرسله الحسين بكتابه إلى أهل الكوفة[1]. وانطلاقا من انتقال ابن عقيل لمنزل هانئ بن عروة المرادي، ستبدأ عمليّة المواجهة بين السّلطة التي يمثّلها عبيد الله بن زياد، والثوّار من الشّيعة أي ابن عقيل وأهل الكوفة.

اندلاع الأزمة بين الوالي وهانئ بن عروة المرادي

دامت فترة التّحضير للثّورة قرابة الأربعة أشهر بما أنّ الحسين بقي بمكّة أربعة أشهر ثمّ انتقل إلى الكوفة بعد أن أرسل إليه ابن عقيل.

حدثت هذه الثّورة في الكوفة داخل المصر شارك فيها مقاتلة الكوفة من الشّيعة. و كانت أغلبيّة القبائل المشاركة في هذه الثّورة تنتمي لقبائل يمنيّة أساسا مذحج، قبيلة هانئ بن عروة المرادي.

ولم تكن هذه الثّورة الوحيدة التي حدثت داخل الكوفة بل ستحدث ثورات أخرى كثورة المختار بن أبي عبيد الثّقفي (٦٦ ـ ٦٧هـ/ ٦٨٥ ـ ٦٨٦م) وثورة زيد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب (١٢٢هـ/ ٧٣٩م). فالكوفة مصر ينضوي للدولة الأمويّة لديها مركز للحكم (القصر) ومؤسّسات (بيت المال

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٩٥.

والدّواوين). وتتمثّل القوّة البشريّة والعسكريّة في المقاتلة الذين يمثّلون عامّة سكّان المصر والذين يتلقّون العطاء مقابل قيامهم بالجهاد. على هذا الأساس، كانت هذه الثّورة خطيرة على الحكم الأموي بما أنّها هدّدته في مركزه (القصر).

ولم تبدأ هذه الثّورة مسلّحة منذ البداية بل سبقتها أزمة بين هانئ بن عروة والوالي. وتتمثّل هذه الأزمة في استدعاء عبيد الله هانئا للقصر ومعاتبته على مساعدة ابن عقيل. وتطوّرت المحادثة إلى تعنيف للشّريف من قبل الوالي وحبسه. وقد تعدّدت الرّوايات التي تخصّ اندلاع الأزمة بين الوالي عبيد الله بن زياد وهانئ بن عروة المرادي بعد أن كشف الوالي عن طريق الجاسوس اختباء ابن عقيل بمنزل هانئ.

ويبدو أنّ الأزمة ابتدأت بين الوالي والشريف اليمني انطلاقا من مرض هانئ بن عروة المرادي وشريك بن الأعور الحارثي. فمرض هذين الشريفين سيجعل الأحداث تتطوّر بسرعة بعلاقة بالثّورة الشيعيّة، فالسّلطة ستتصلّب كما أنّ حركة المعارضة ستجبر على المجاهرة بالحركة والخروج من السريّة إلى النّور.

مرض هانئ بن عروة المرادي و شريك بن الأعور الحارثي

ذكر هشام بن الكلبي عن أبي مخنف[1] أنّ شريك بن الأعور الحارثي ـ وهو من شيعة عليّ وشديد التشيّع حيث شارك في صفّين مع عمّار بن ياسر، ورافق عبيد الله بن زياد في انتقاله من البصرة إلى الكوفة مع أشراف البصرة الذين صحبوا الوالي ـ نزل ضيفا على هانئ بن عروة.

ومرض هذا الأخير، فزاره عبيد الله بن زياد، فأشار عليه أو على ابن عقيل، عُمارة بن عبد السَّلوليّ ـ وهو أحد الشّيعة ـ بقتل الطّاغية[2] أي عبيد الله بن زياد لأنّ مشكلة نجاح الثّورة الشّيعيّة مقتصر على قتل عبيد الله بن زياد.

---

(١) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٦٣؛ البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٢، ص٣٣٧.

(٢) ابن منظور، *مصدر مذكور*، ج٢، ص٥٩٦: طغي: الطّغيانُ طغى يطغى طغياً ويطغو طغيانا، جاوز القدر وارتفع وغلا في الكفر.

لكنّ هانئ بن عروة رفض أن يُقتل في داره. وزار الوالي هانئا وخرج بدون أن تحدث محاولة قتل لعبيد الله بن زياد.

ومرّ أسبوع فمرض شريك بن الأعور، فأرسل إليه عبيد الله بأنّه سيعوده في العشيّة. فطلب شريك بن الأعور من مسلم بن عقيل أن يقتل الفاجر - أي عبيد الله بن زياد - عندما يأتي ليزوره. فإذا جلس، يخرج إليه ابن عقيل فيقتله. ثمّ يفتكّ القصر فلن يعارضه أو يقف في وجهه أحد.

ووعده شريك إن برئ من مرضه بعد أيّام، يسير إلى البصرة فيكفيه إيّاها. لكنّ هانئ كان رافضا ومستقبحا فكرة أن يقتل الوالي في منزله.

وجاء عبيد الله بن زياد فدخل وجلس، وسأل شريكا عن مرضه ومتى مرض. فلمّا تأخّر مسلم عن الخروج، تخوّف شريك من إفلات الوالي من القتل فأخذ يقول: «

*ما تنتظرون بسَلَمى أن تُحيُّوها *

اِسقنيها وإن كانت فيها نفسي». فكرّر ذلك القول. فسأل الوالي هانئ عن حالة شريك إن كان يهذي. فأجابه هانئ بن عروة بأنّه يهذي يومه كلّه. وخرج الوالي فسأل شريك مسلما عن سبب عدوله عن قتل عبيد الله بن زياد، فأجاب مسلم بأنّه لم يُرد قتل الوالي لسببين، أوّلهما كره هانئ أن يقتل في منزله. وثانيهما، حديث حدّث عن الرّسول: «إنّ الإيمان قيّد الفتْك، ولا يفتَك مؤمن». كما أكّد هانئ بأنّه لو قتله لقتل فاسقًا وفاجرًا وكافرًا وغادرًا. لكنّه لم يُرد أن يقتل في داره. وتوفّي شريك بن الأعور بعد ثلاثة أيّام من هذه الزّيارة [1] (زيارة الوالي).

لكنّ هذه التفاصيل التي قدّمها أبو مخنف تختلف مع رواية أخرى قدّمها عمر بن شبّة وذكرها الطبري في تاريخه.

وتذكر رواية أخرى للطبري[2] أنّ شريك بن الأعور قدم مريضاً على هانئ بن

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٣ - ٣٦٤.
(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٠.

عروة. وطلب شريك من هانئ أن ينادي مسلما وسأله إن هو مكّنه من عبيد الله بن زياد أيضربه بالسّيف. فأجابه مسلم بأنّه يقتله. واتّفق شريك مع مسلم أن يقول له عند مقدم عبيد الله: «اسقوني ماء»، فإذا سمع ذلك يخرج ويقتل الوالي. وجاء هذا الأخير مصحوبا بمهران ـ صاحب حرسه ـ الذي كان قائما على رأسه. وجلس على فراش شريك، ونادى شريك بأن يسقوه ماء ثلاث مرّات. لكنّ مسلم لم يخرج، وتفطّن مهران فغمز عبيد الله بن زياد، فوثب الوالي ولم يرد البقاء لسماع وصيّة شريك (الذي كان يُماطله حتّى يخرج مسلم ويقتله).

وقال له مهران بأنّه أراد قتله. فتعجّب الوالي لهذا التصرّف من قبل شريك خاصّة أنّ زياد كان مكرما لشريك وهانئ. كما أنّ عبيد الله بن زياد أعظم تدبير شريك لقتله في بيت هانئ.

بيّنت هاتين الرّوايتين وجود علاقات صداقة وجوار بين شريفين متشيّعين يمنيين كوفيّ وبصريّ. وكانت هذه العلاقة أساس الخلاف الذي سيندلع بين هانئ بن عروة وشريك بن الحارث. ويبدو موقف شريك بن الأعور محيّرا وغريباً، فهو مقرّب من السّلطة الأمويّة، وكريما على الولاة. لكنّه في نفس الوقت كان متحمّسا لآل البيت وخطّط لانقلاب في صفّ آل البيت. وهو ربّما حافظ على هذا التشيّع مكبوتا في نفسه، وعندما سنحت الفرصة أصبح شيعيًّا نشيطاً. انقلب موقفه من مرافقة للوالي إلى التّخطيط للثورة الشيعيّة ـ بما أنّه متشيّع ومن صحابة عليّ ـ هل كان هناك برنامج مسبّق بين شريك وابن عقيل حتّى يلتحق بهم؟

ومثله في ذلك مثل هانئ بن عروة الذي كان «يغدو[1] ويروح[2] إلى عبيد الله»[3]. وهذا تعبير عن الأوقات التي يستقبل فيها الوالي الأشراف. فهو استقبال

---

(١) ابن منظور، معجم مذكور، ج٢، ص٩٦٢ ـ ٩٦٣: الغدوّ: غدا عليه غدوا واغتدى: بكّر أتى طلوع الشمس.

(٢) ابن منظور، معجم مذكور، ج١، ص١٢٥١: الرّواحُ: نقيض الصّباح، وهو اسم للوقت. وقيل الرّواح: العشيّ. وقيل الرّواح من لدُن زوال الشمس إلى اللّيل.

(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٤.

وتواصل يوميّ في الصّباح وفي المساء. على هذا الأساس، بيّنت لنا المصادر التطوّرات التي حدثت على مستوى التّشريفات أو البروتوكول الأموي في الكوفة. وهو بروتوكول يخصّ الأشراف في علاقتهم بالوالي. كما كان الوالي في أوّل عهده بالكوفة مكرما له ومتلطّفا معه(1). وذلك في إطار سياسة بدأها زياد بن أبي سفيان مع هانئ وأبيه(2).

لكنّ هذه العلاقة كانت علاقة نفاق من قبل الشّريف للوالي لأنّه كان مجبرا على إخفاء تشيّعه.

كما أنّ علاقة الوالي بالأشراف تتواصل عند موتهم حيث يُكرمهم بالصّلاة عليهم، وهذا ما فعله الوالي لمّا توفّي شريك بن الأعور(3).

خطّط الشّيعة، شريك بن الأعور أو عُمارة بن عُبيد السَّلوليّ(4) لقتل عبيد الله بن زياد غيلة. وعلى الأرجح أنّ شريك كان الشّخصيّة المحوريّة التي قامت بالتّخطيط للاغتيال. فما هي منزلة عمارة بن عبيد في هذا التّنظيم الشّيعي، هل كان من القادة؟ هذا ما لم تسعفنا به المصادر.

كما أنّ موقف مسلم بن عقيل محيّر، بما أنّه لم يخطّط لعمليّة الانقلاب في المصرين بل ترك حريّة التّخطيط للشّريف البصري.

أراد شريك بن الأعور أساسا القيام بعمليّة انقلاب ضدّ الحكم الأموي لفائدة أهل البيت أي مسلم بن عقيل والحسين بن عليّ وكان أوّل بند في برنامج هذا الانقلاب، هو قتل الوالي عبيد الله بن زياد الطّاغية والفاجر والفاسق والغادر والكافر(5). وهو رمز السّلطة. ويتنزّل هذا القتل في إطار القضاء على السّلطة

---

(1) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٥.

(2) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦١ ـ ٣٦٠: «وبد أبي (زياد) عنده يد» المقصود به فضائل زياد على هانئ بن عروة.

(3) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٤.

(4) كان من الرّسل الذين أرسلهم الشّيعة للحسين بن عليّ بمكّة يدعونه للقدوم عليهم. ثمّ رافق ابن عقيل في سفره للكوفة.

(5) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٣.

الأمويّة بالكوفة. وهنا تحيلنا كلّ هذه النّعوت التي وصف بها على الصّفات التي أُطلقت من «الشّيعة» وغيرهم على الخليفة يزيد بن معاوية.

لكنّ الشّيعة لم تأخذ بعين الاعتبار المؤسّسات والقاعدة الاجتماعيّة والإيديولوجيا التي يدافع عنها الوالي والتي ستحميه وتحمي السّلطة. فكأنّ الشّيعة يستهينون بعبيد الله بن زياد وبيزيد وبقوّة الدولة.

ويتمثّل البند الثّاني في الاستحواذ على القصر ـ مركز السّلطة السّياسيّة والإداريّة الأمويّة ـ أي مقرّ الحكم وبيت المال والدواوين.

ويتمثّل البند الثّالث في استحواذ شريك بن الأعور على البصرة، بعد شفائه من مرضه. لكنّ شريك سيموت سريعا من مرضه.

يبدو هذا البرنامج برنامجا شيعيّا من صحابة عليّ لاسترجاع السّلطة بالعراق لفائدة ابنه الحسين. لكنّ عمليّة الانقلاب تبدو عمليّة اعتباطيّة وارتجاليّة خُطّط لها عندما طلب الوالي زيارة الشّريفين هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى، كان الوالي رابطا لعلاقات بينه وبين الأشراف نظرًا لاعتماد الدّولة عنهم كقاعدة اجتماعيّة لها. وكانوا يؤطّرون عشائرهم لفائدة الدولة. على هذا الأساس، كان الوالي يزور الأشراف عندما يمرضوا أي زيارته لهانئ وشريك عندما مرضا.

لكنّ هذا المخطّط لم يكتب له التّنفيذ لأنّه لم يلق دعما من هانئ ومن مسلم. فقد رفض هانئ من زاوية أخلاقيّة وقبليّة (رفض أن يقتل في داره بما أنّ من يدخل إلى داره له الأمان والجوار والذّمام). يعتبر هذا المعطى الانتروبولوجي معطى هامّا، وهو يحدّد العلاقات بين النّاس. ورفض مسلم بن عقيل القتل من منطلق ديني، وهذه الرّواية لأبي مخنف أقرب للواقع أي لعقليّة مسلم كأحد أفراد أهل البيت. بينما تبدو رواية عمر بن شبّة بعيدة عن الواقع. فهذا الأخير لديه مرجعيّة مرتبطة بالرّسول. فقد اعتمد ابن عقيل ـ بما أنّه من أهل البيت أيضا ـ على حديث للرّسول يحرّم الغدر على المؤمنين. على هذا الأساس، تظهر أخلاقيّة أهل البيت دينيّة وليست لها علاقة بأخلاقيّة الأمويّين أو لاأخلاقيّتهم من منظار أعدائهم بما أنّهم سياسيّين. والسّياسة تفرض عدم وجود أخلاق.

كما يبدو أنّ شريك عاتب مسلما بقوله: «ما رأيت أحدا أمكنته فرصة فتركها إلاّ أعقبته ندما وحسرةً، وأنت أعلم، وما على هانئ في هذا إلاّ الحصر»[1].

كان شريك يريد من مسلم أن يقتل الوالي، ورأى في قدوم الوالي إلى بيت هانئ فرصة لا تعوّض للقضاء على السّلطة الأمويّة، لكنّ إحجامه عن ذلك كان خسارة عظمى للحركة الشيعيّة. وسيندم مسلم عن ذلك.

وتوفّي شريك بعد ذلك، ففشل المشروع ـ مشروع المؤامرة وقتل الوالي ـ وتبدو عمليّة التّحريض على القتل بحضور الوالي (زيارة عبيد الله لشريك في منزل هانئ ومناداة شريك لمسلم)، مسرحيّة وقصصيّة. وهي مبنيّة على رموز اتّفق عليها بين «القتلة» بحضور «المقتول» (قول الشّعر، أو طلب الماء للشّراب).

كما يبدو من خلال رواية عمر بن شبّة أنّ الوالي كان مصحوبا بصاحب حرسه مهران. وكان هذا الأخير مولى زياد واستعمله زياد على الخراج بالكوفة[2]. وقد قام مهران على رأسه في منزل هانئ بن عروة. المهمّ أنّ زياد و ابنه طوّرا البروتوكول أو التّشريفات في ولاية العراق كالتنقّل لعيادة شريف في الحرس. وربّما وقف بقيّة الحرس أو الشّرط على باب هانئ. ويبيّن هذا أيضا تخوّف الوالي من الاغتيالات لأنّ السّلطة الأمويّة معزولة في كلّ الحالات عن النّاس. وكان هذا سببا ربّما في عدم تجرّؤ مسلم على قتل الوالي عبيد الله بن زياد.

المهمّ أنّ مرض الشّريفين كان فرصة لإزاحة اللّثام عن الحركة الشّيعيّة السريّة، وعن النّوايا الحقيقيّة لبعض الأشراف المُتشَيِّعين. وقد سارع عبيد الله بن زياد بعد موت شريك بن الأعور إلى استدعاء هانئ بن عروة لقصر الإمارة. وكان هذا الاستدعاء وسيلة للوالي لاستنطاق هانئ ولتعجيل الأحداث بالقضاء على الثورة.

---

(١) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٢، ص٣٣٧.

(٢) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٢٥٦.

استدعاء هانئ بن عروة لقصر الإمارة و اندلاع الأزمة

مثّل هانئ بن عروة مثالا عاديًا لشريف من أشراف الكوفة في علاقته بالوالي - رغم تشيّعه - أي أنّه كان يحترم التّشريفات التي أخضعهم لها زياد بن أبي سفيان ثمّ ابنه. فكان على الأشراف أن يلعبوا دور المؤطّرين لعشائرهم لفائدة الدولة.

وتتمثّل التّشريفات في زيارة الوالي والتردّد على زيارته يوميّا وفي أوقات مختلفة من اليوم أي في الصّباح باكرا وفي العشيّ[١]. وكانت هذه الزّيارات توثّق صلة الوالي بالأشراف لأنّ الحكم معزول اجتماعيّا. فهذه السّلطة هي سلطة نخبويّة وغريبة عن الكوفة بمعنى ليس لها عشيرة بها، ما عدا القرشيّين المستقرّين بالكوفة كعمر بن سعد بن أبي وقّاص وعمارة بن عقبة بن أبي معيط وأنصار بني أميّة كعبد الله بن مسلم بن سعيد الحضرميّ حليف بني أميّة[٢].

وكان الأشراف يلعبون دور المستشارين[٣] للوالي فهو بدون شكّ يتباحث معهم في شؤون الحكم والمجتمع أي كلّ ما يشمل الشّؤون السّياسيّة والعسكريّة والاجتماعية للمصر.

المهمّ أنّ عمارة بن عقبة يضع نفسه في مرتبة القرشي الذي لديه قرابة من الرّسول ولديه مكانة في قريش، ولدى بني أميّة، على أساس أنّه ينتمي للعشيرة الحاكمة أي عشيرة الخليفة يزيد بن معاوية. كما كانت هذه المداعبات تحدث في خضمّ الأحداث السّياسيّة المتوتّرة - أي سجن هانئ بن عروة واندلاع ثورة مسلم بن عقيل.

أسّس معاوية في مركز الخلافة بروتوكولا يقضي زيارة الأشراف بصفة مستمرّة للخليفة والوالي. ويبدو حسب برنامج عمل لمعاوية [٤]، أنّ الأشراف يزورون معاوية كلّ يوم.

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٤.

(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٨.

(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٤.

(٤) المسعودي، *مروج الذّهب ومعادن الجوهر*، دار الأندلس، بيروت، د.ت، ج٣، ص٢٩ - ٣٠ - ٣١.

كانت علاقة الأشراف بالدّولة علاقة معقّدة من المصالح المشتركة: فكانوا يلعبون دور الوساطة بين الدّولة وبين عشائرهم، ولديهم علاقات مصاهرة تجمعهم بالوالي.

كان تهديد زياد بن أبي سفيان لمحمّد بن الأشعث ـ سيّد كندة ـ في ثورة حجر بن عديّ الكندي ما زال يرنّ في أسماعهم، ويبعث في نفوسهم الرّعب من قمع الوالي لهم، والخوف على مصالحهم وممتلكاتهم من الإتلاف. فقد تهدّد زياد محمّد بن الأشعث إذا لم يُحضر له حجرا ـ وهو أحد أفراد عشيرته ـ: «يا أبا مَيْثاء، أما والله لتأتينّي بحُجْر أو لا أدَع لك نخلةً إلاّ قطعتُها، ولا دارًا إلاّ هدمتها ثم لا تسلَم مني حتّى أقطّعك إرْبًا إرْبًا؛ قال: أمهِلني حتى أطلبه؛ قد أمهلتك ثلاثاً، فإن جئت به وإلاّ عُدّ نفسك مع الهَلْكَى».

وشُدّ ودُفع دفعًا للسّجن لولا تدخّل أحد أشراف كندة، الذي كان كريما على زياد[1]. فطلب من الوالي أن لا يسجنه حتّى يطلب حجر، كما ضمن هذا الشّريف محمّدا بن الأشعث.

ويدلّ هذا التطوّر على نشأة نمط جديد من العلاقات الاجتماعيّة بين الدّولة والفئات المرتبطة بها. وكذلك نوع جديد من بطش الدّولة التي تستند على مؤسّسات (بيت مال وشرطة).

وتجمّع الأشراف حول الوالي «كانت حماية نظام المصالح والدفاع عنها أقوى بكثير من العواطف الإيديولوجيّة»[2]. كما أنّ تشيّع الأشراف كان ضعيفا.

كانت علاقة الوالي بالأشراف ترتكز على إستراتيجيّة معيّنة وهي تتمثّل من جانب الوالي في الحفاظ على تماسك السّلطة الأمويّة بالكوفة. وكان الأشراف يسعون للحفاظ على مصالحهم الاقتصاديّة والسّياسيّة (تأطير عشائرهم لفائدة الدّولة).

---

(١) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٢٦٣: وهو حُجر بن يزيد الكندي.

(٢) هشام جعيط، *نشأة المدينة العربيّة الإسلاميّة الكوفة*، ص٣٨٧.

كان الوالي رابطًا لعلاقات تصاهر بالأشراف ليربط صلته بهم، وربّما «يُغطّي» النّقص الذي كان يُحسّ به (القرابة المزعومة من أبي سفيان بن حرب) فيكتسب شرفا بواسطة علاقة التّصاهر.

فقد تزوّج عبيد الله بن زياد قبل تولّيه الكوفة هند ابنة أسماء بن خارجة الفزاري[1].

وقد عاب عليه شريف آخر وهو محمد بن عطارد التّميمي، عاب عليه تزويجه لابنته من الوالي. كما عاب عليه شريف آخر وهو عمرو بن حريث المخزوميّ[2] تزويجه لابنته من عبيد الله وليس له سلطان عليه[3]. وفي هذا دلالة على أهميّة العلاقة بالسّلطة في استراتيجيّة التّصاهر.

كما تزوّج عبيد الله أمّ النّعمان ابنة محمد بن الأشعث الكنديّ [4]، وزوّج أخاه عثمان بن زياد ابنة محمد بن عُمير[5] (وهو محمد بن عطارد التّميمي). وزوّج أخاه عبد الله بن زياد ابنة عمرو بن حريث المخزوميّ. ممّا دفع بشاعر وهو ابن الزَّبير الأسَدي لهجائه لمصاهرته لعبد. و المقصود بالعبد هو عبيد الله بن زياد لاستلحاق معاوية زيادا بأبي سفيان بينما هو ابن عُبيد وسُميّة. كما يعتبر الشّاعر أنّ

---

(١) البلاذري، مصدر *مذكور*، ج٥، ص٤٠٨ - ٤٠٩؛ ج١٣، ص١٧٣: «أسماء بن خارجة بن حصن كان سيّد أهل زمانه، ومدحه الأخطل فقال: .

إذا مات ابن خارجة بن حصن. فلا مطرت على الأرض السماء.
ولا آب الغزيُّ بغنم خير. ولا ولدت على الطهر النساء».

كما اعترف له الخليفة عبد الملك بالسّؤدد.

(٢) ابن سعد، مصدر *مذكور*، ج٦، ص١٠٠: «نزل عمرو بن حريث الكوفة وابتنى بها دارا إلى جانب المسجد. وكان زياد إذا خرج إلى البصرة استخلف على الكوفة عمرو بن حريث. مات عمرو بن حُريث بالكوفة سنة خمس وثمانين في خلافة عبد الملك بن مروان»؛ هشام جعيط، *نشأة المدينة العربيّة الإسلاميّة الكوفة*، ص٢٢٨: «كان ابن حريث من أكبر أغنياء الكوفة، وكان قرشيا مقرّبا من السلطة، وكان بالفعل يساعد زياداً ثمّ ابنه عبيد الله».

(٣) البلاذري، مصدر *مذكور*، ج٥، ص٤٠٩.

(٤) ابن حزم، مصدر *مذكور*، ص٤٢٥: هو من بني معاوية بن الحارث بن معاوية (كندة).

(٥) البلاذري، مصدر *مذكور*، ج١٢، ص٢٦ محمد بن عمير من سراة أهل العراق.

هذا الشّريف أنكح عبيد الله بن زياد حتّى يضمن الثّروة والنّفوذ. بينما حدث العكس لأنّ صهر العبد يفقّر نفسه أي يحقّر من شأنه.

يدخل هذا الهجاء في إطار الإنقاص من الشرعيّة التّاريخيّة لعبيد الله بن زياد وأبيه زياد:

لقد أنكحت خوف الهزلِ عبدًا وصِهر العبدِ أدنى للهُزالِ[١]

بينما امتنع[٢] جرير بن عبد الله البجلي[٣] من تزويج ابنته لعبيد الله وزوّجها من عمرو بن حريث المخزومي[٤].

كما كان عمرو بن الحجّاج الزّبيدي[٥]، من أشراف الكوفة الذين شهدوا ضدّ حجر بن عديّ.

وفي خضمّ الثورة، تزوّج عبيد الله بن زياد أمّ نافع ابنة عمارة بن عقبة بن أبي معيط. وهذا دليل على دنيويّة الأمويّين وحبّهم للملذّات الدنيويّة أو لذّات الحكم[٦]. كما أنّ عبيد الله بن زياد كان حريصا على ربط علاقات نسب بقريش وبالأمويّين.

وهذا في إطار تركيز شرعيّة تاريخيّة منقوصة والتّأكيد على شرعيّة الانتماء للعشيرة الأمويّة الحاكمة.

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٠٨؛ ابن منظور، معجم مذكور، ج٣، ص٨٠٤: هزَل الرّجل يَهْزِلُ هزلاً: موّتت ماشيتهُ، وأهزَل يُهزِلُ إذا هُزِلت ماشيتُه. تُصب ماشيته العاهةُ.
وفي حديث مازن: فأذهبنا الأموالَ وأهزلنا الذّراري والعِيال أي أضعفناهم.

(٢) امتنع بدون أن يبيّن ذلك للوالي. فقد خطب هذا الأخير ابنة جرير بن عبد الله فأجابه بأنّه زوّجها من عمرو بن حريث. وعندما خرج ابن زياد زوّجها منه.

(٣) ابن سعد، مصدر مذكور، ج٦، ص٩٩: أسلم في السّنة التي توفّي فيها النبيّ ووجّه الرّسول إلى ذي الخلصة فهدمه. ونزل الكوفة فابتنى بها دارا في بجيلة، وتوفّي بالسّراة في ولاية الضحّاك بن قيس على الكوفة. وكانت ولاية الضحّاك سنتين ونصفًا بعد زياد بن أبي سفيان.

(٤) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٠٩.

(٥) ابن حزم، مصدر مذكور، ص٤١٢: زُبيد من مذحج، كان من أشراف الكوفة، شهد مقتل الحسين.

(٦) بثينة بن حسين، مرجع مذكور، ص٣٠٦ ـ ٣٠٧.

لاحظ الوالي تغيّب هانئ بن عروة عنه حيث لم يعد يزوره وذلك عندما استقرّ مسلم بداره. كما أنّه تمارض، ولم يعد يخرج من داره[1]. وتعدّدت الرّوايات التي تذكر هذا الحدث رواية أبو مخنف[2]، ورواية عمر بن شبّة[3]، ورواية عمّار الدّهنيّ[4].

لكنّ رواية أبي مخنف هي دائما الأشمل. واستدعى الوالي محمد بن الأشعث الكندي وأسماء بن خارجة الفزاري وسألهما عن هانئ بن عروة. فقالوا له بأنّه مريض. فقال بأنّه لو سمع بمرضه لعادَهُ. لكنّ الوالي ذكر لهم أنّه بلغه أنه قد برأ، وهو يجلس على باب داره.

وطلب عبيد الله بن زياد من الشّريفين أن يُبلّغا لهانئ بن عروة أن لا يدع الحقّ الذي عليه، لأنّ الوالي لا يُحبّ أن يُفسد عندهُ مثله من أشراف العرب.

يؤكّد عبيد الله بن زياد على عضويّة الارتباط بين الدّولة والأشراف، فهم الرّكيزة الاجتماعيّة للحكم الأموي. وعلى هذا الأساس، حرص الوالي أن تكون لديه علاقة وطيدة بهم.

وكلّف الوالي محمد بن الأشعث الكندي وأسماء بن خارجة الفزاري[5] بإحضار هانئ بن عروة[6]. بعد أن كشف له جواسيسه عن حقيقة التّنظيم. وربّما أرسل معهما عمرو بن الحجّاج الزبيدي[7] ـ حسب رواية لأحد أفراد مراد عشيرة هانئ ـ ويستبعد أن يُرسل الوالي هذا الشّريف لأنّه من نفس عشيرة هانئ أي مذحج. وفي

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٤.
(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦١ ـ ٣٦٢ ـ ٣٦٣ ـ ٣٦٤ ـ ٣٦٥.
(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٥٩ ـ ٣٦٠ ـ ٣٦١.
(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٧ ـ ٣٤٩.
(٥) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٢٧٠: كان من الشّهود على حجر بن عديّ الكندي. «وكان يعتذر من أمره». أي أنّه ندم ربّما على شهادته بعد أن تعرّض حجر وأصحابه للقتل.
(٦) البلاذري، مصدر مذكور، ج٢، ص٣٣٧؛ الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٨ ـ ٣٤٩.
(٧) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٤.

ذلك تسميم للعلاقات القبليّة والعشائريّة. كما أنّ رَوْعة أخت عمرو بن الحجّاج كانت زوجة هانئ بن عروة[1].

وأتى الشّريفان هانئ بن عروة في العشيّة، وهو جالس على باب داره. فسألاه عن السبب الذي يمنعه من زيارة الأمير الذي ذَكَره في مجلسه وقال بأنّه إن علم بمرضه لعاده.

فأجابهما بأنّه مازال مريضا. عندها صرّحوا له بأنّ الأمير وصلهُ خبر أنّه يجلس كلّ عشيّة بباب داره، و قد استبطأه، «والإبطاء والجفاء لا يحتمله السّلطان»[2].

فأقسما عليه أن يركبا معهما أو رفقا به الشريفان[3]. فدعا بثيابه فلبسها، ودعا ببغلة فركبها. حتّى إذا اقترب من القصر، توجّس شرّا. فقال لحسّان بن أسماء بن خارجة بأنّه خائف من عبيد الله بن زياد. فطمأنه هذا الأخير على أساس أنّه بريء.

عاتب الشّريفان هانئا لتصرّفه تجاه عبيد الله بن زياد (تغيّبه عن زيارته)، وذكّراه بواجبه نحو السّلطة أي أداء الزّيارة للوالي. وأقسما عليه للذّهاب معهما للوالي لأنّه على ما يبدو كان غير متحمّس لزيارته، و قبِل على مضض. كما أنّ هانئ كان مدركا في قرارة نفسه لمقرّرات الوالي، لكنّه لم يكن لديه الخيار.

ويبرّئ البعض ساحة أسماء بن خارجة أي أنّه لم يكن عالما بمقرّرات الوالي بينما كان محمد بن الأشعث على علم بهذه المخطّطات. وهذا مستبعد، فالأشراف كانوا من مستشاري الوالي، ويعلمهم ببرامجه.

سعى الشّريفان لتنفيذ حكم الوالي. وقد بيّن الخبر أنّ التّشريفات كانت تقتضي على الشّريف أن يلبس لباسا معيّنا لمقابلة الوالي. وهذا دليل على ثراء الأشراف وعلى تطوّر البروتوكول داخل الدّولة، وفي ولاية العراق.

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٤.

(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٥.

(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٢، ص٣٣٧.

وأتوا به الوالي، فقال له عبيد الله حين رآه: «أتتك بحائن رجلاه»[1]!

ولمّا اقترب هانئ من عبيد الله، وعنده شُريح القاضي[2] التفت نحوه، فقال:

أُريدُ حِباءَهُ[3] ويُريدُ قتلي   عذيرَكَ من خليلِك من مُرادِ[4]

يبدو أنّ الوالي قد عبّر لهانئ عن تفطّنه لمخطّطاته ضدّهُ (تدبير المؤامرة مع مسلم لقتله والتّخطيط لثورة شيعيّة). وكان المثل وبيت الشعر معبّران عن عقاب الوالي له. وكان الوالي جالسًا مع القاضي شريح الذي سيكون في ما بعد عونا لابن زياد ومُناصِرًا له ضدّ هانئ رغم انتمائه لليمن. وكان عبيد الله بن زياد في أوّل الأمر، «مُكْرِمًا ومُلْطِفاً»[5] له.

ثمّ ابتدأت «المحاكمة» التي دبّرها ابن زياد لهانئ بن عروة وهي عبارة عن مصارحة الوالي لهانئ بن عروة بكلّ ما تسقّط لديه من الأخبار عنه. فكانت هذه المحاكمة على درجة كبيرة من المَسْرَحة.

فسأله عن التّحضيرات السريّة في دُورِه ضدّ أمير المؤمنين وعامّة المسلمين. كما أضاف الوالي قائلا لمسلم بأنّه جاء بمسلم بن عَقيل فأدخله دارهُ، وجمع له السّلاح والرّجال في الدّور حوله. وظنّ أنّ ذلك يخفى على الوالي. وأنّبه الوالي على إيوائه مسلم بن عقيل وقال له: «إن أمر الناس مجتمع وكلمتهم متفقة أفتعين على تشتيت

---

(١) أتتْكَ بحائنٍ رجلاه»، يُضرب مثلا في أنّ الشرّ يعود على فاعله. والرجل يسعى إلى المكروه حتى يقع فيه. والحائن الذي حان أجلُهُ أي دنا.

(٢) ابن سعد، مصدر مذكور، ج٦، ص١٨٢: شريح بن الحارث من بني الرّائش من كندة. من أوائل وأهمّ القضاة الأمويّين. طوّر القضاء كمنصب إداري، وابتدع أحكاما جديدة.
بثينة بن حسين، «شريح بن الحارث الكندي: أنموذجا لتطوّر مؤسّسة القضاء بالكوفة في العهد الإسلامي الأوّل»، *القضاء والدولة والمجتمع في الفضاء المتوسّطي عبر العصور*، أعمال ندوة قسم التّاريخ (سوسة، ٦ ـ ٧ ـ ٨ ديسمبر ٢٠٠٤)، جمّع النّصوص وقدّم لها عدنان منصر، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة بسوسة، ٢٠٠٧، ص١٨١ ـ ١٩٣.

(٣) ابن منظور، معجم مذكور، ج١، ص٥٦١: الحباءُ: ما يحبو به الرجل صاحبه ويكرمه به.

(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٥.

(٥) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٥.

أمرهم بتفريق كلمتهم وألفتهم رجلاً قدم لذلك؟»[1].

فأنكر هانئ بن عروة أن يكون فعل ذلك، كما أنكر أنّه خبّأ مسلم بن عقيل. وأصرّ الوالي على موقفه بينما أصرّ هانئ بن عروة على الإنكار.

وعندما تصاعد التوتّر بين الطّرفين وتمسّك كلّ بموقفه، نادى عبيد الله بن زياد معقل، الجاسوس الذي أرسله ليستقي أخبارهم. ففهم هانئ أوراق اللّعبة، و«سُقط في خلَدَه ساعةً»[2]. بيّن الوالي لهانئ بن عروة أنّ جواسيسه المبثوثة في مراد نَقلت له جمع هانئ بن عروة للجموع وشقّه لعصا الطّاعة وتفريقه للجماعة. فهو قد آوى في داره قائد الفتنة مسلم بن عقيل. وكانت دور هانئ بن عروة مقرّا للانقلاب الشّيعي بما أنّها تحوي الرّجال والسّلاح. فهذا دليل على سلطة هذا الشّريف على العشيرة، فهو يمتلك عدّة دُور أو أنّه تصرّف في دور العشيرة (وضع فيه السّلاح والرّجال) نظرا لسلطته الأدبيّة والمعنويّة والاقتصاديّة. وأكّد الوالي على تركيزه لنظام بوليسي بالكوفة بفضل شبكة من الجواسيس مكّنوه من معرفة كلّ الأخبار المتعلّقة بتنظيم الحركة الشّيعيّة.

لكنّ هانئ بن عروة أنكر وأصرّ على الإنكار. ويعود هذا الإنكار لغرض أساسي وهو حماية ضيفه من بطش الوالي. ومنعته أخلاق الشّريف من فضح سرّ مسلم بن عقيل.

فالتجأ الوالي إلى حجّة دامغة تدحض قول هانئ وهي إحضار الجاسوس، فارتجّ هانئ. لجأ عبيد الله بن زياد للعنف النّفساني ضدّ هانئ بن عروة حتّى يُقرّ بالحقائق التي ذكرها الجاسوس. وكان إحضار هذا الأخير أحسن وسيلة لاستخراج الحقائق من فم هانئ.

وراجع هانئ نفسه، ثمّ أقسم للوالي بأنّه لا يكذب، وبأنّه لم يدعوه إلى منزله. وليس لديه علم بأمره حتّى جلس على بابه وطلب منه أن يجيره. فاستحى أن

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٢، ص٣٣٧.
(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٦.

يرفض طلبه. فأدخله داره، وآواه [1]. فكان مسلما يخطّط للثّورة الشّيعيّة. وطلب هانئ بن عروة من الوالي أن يحلف له بأنّه لاَ يتعرّض له بسوء، ويُعطيه رهينة حتّى يقدم. ويذهب لمسلم فيطلب منه أن يخرج من داره، فيخرج هانئ بذلك من ذمامه وجواره.

لكنّ الوالي رفض قبول مقترحه، وحلف أن لا يُفارقه أبدًا حتّى يأتيه به. فرفض هانئ من جديد أن يجيئه بضيفه ليقتله. وصمّم من جديد عبيد الله بن زياد أن يأتيه به[2].

يبدو أنّ قضيّة هانئ بن عروة فيها بعض الظلمات. فهو صديق الأمير ويبدو أنّه شيعي قديم. فكيف نفسّر أنّ مسلما فرض نفسه عليه وكأنّه مطارد؟

كان هانئ يفكّر حسب العادات القديمة التي تخصّ الجِوار والذّمام لكنّه لم يأخذ بعين الاعتبار أو لم يفهم بعد تطوّر سلطة الدّولة التي ألغت كلّ هذه القواعد الانتروبولوجيّة التي تحمي الفرد من العنف المسلّط عليه من قبل أفراد أو مجموعات (عشائر). اخترقت سلطة الدّولة هذه العادات التي تحدّ من نفوذها لتتحكّم في مصير النّاس أساسا المعارضة ولتسلّط عنفها على الأفراد أو الجماعات المعارضة.

ويعبّر إصرار هانئ بن عروة على حماية مسلم من ذمامه على قوّة هذه العلاقات الموجودة منذ الجاهليّة وعلى حرص هذه المبادئ على صورة السيّد أو الشريف. فهي صورة أخلاقيّة، ومثاليّة، لأنّها تفرض الوفاء والتمسّك بواجب الضّيافة. يبدو أنّ هانئا كانت له مكانة قبليّة قويّة إذ رفض أن يدفع ضيفه للوالي وأيضا لعلمه أنّ له ناصرين.

ثمّ تتصاعد الأزمة بين هانئ وعبيد الله بن زياد فذكر هانئ رفضه لإحضار ضيفه لأنّه كان متأكّدا من قتل الوالي له.

---

(١) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٢، ص٣٣٨؛ الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٦٦.
(٢) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٦٦.

وكثر بينهما الكلام دون الوصول إلى اتّفاق لإصرار كلّ واحد على موقفه. فالوالي مُصرّ على أن يأتيه هانئ بن عروة بمسلم بن عقيل، وهانئ يرى أنّه لا يمكنه تسليم ضيفه.

فتدخّل عندها أحد رجال الدّولة ـ وهو مسلم بن عمرو الباهلي ـ وهو مبعوث الخليفة إلى عبيد الله بن زياد. كما أنّه شأميّ وبصريّ[1] أي أنّه لا يمتّ للكوفة بصلة. فطلب مسلم بن عمرو من الوالي أن يسمح له بأن يكلّمه.

فانزوى به في مكان في مجلس الوالي يراهُمَا فيه عبيد الله بن زياد إذا رفعا أصواتهما، يسمعهما. فناشد مسلم بن عمرو هانئا بأن لا يقتل نفسه، ويُدخل البلاء على نفسه وعشيرته! وأعاد مسلم بن عمرو تخوّفه لهانئ بن عروة وهو أن يُقتل. كما بيّن له أنّ مسلم بن عقيل (أي ضيفه الذي لم يسلّمه للوالي) هو ابن عمّ الأمويّن، وهم لا يقتلوه ولا يضربوهُ.

ونصحه أن يدفعه لهم لأنّه يقوم بذلك بواجبه تجاه السّلطان. ولا يلحقه من هذا الفعل عار ولا منقصة.

فأجاب هانئ مسلما بأنّ هذا بالعكس خزي وعار له. فكيف يدفع جاره وضيفه وهو في صحّة جيّدة ولديه رجال كثيرون من عشيرته لحمايته. وفي صورة بقائه وحده بدون ناصر فهو يموت في سبيل حمايته.

فأخذ مسلم بن عمرو يناشده وهانئ يحلف بعدم تسليم ضيفه أبدا.

برز مفهوم القرابة كمفهوم الجوار أي قرابة مسلم بن عقيل من الأمويّن على لسان مسلم بن عمرو. ويحمي هذا الرّابط العشائري مسلم بن عقيل من القتل والضرب.

لكنّ هذه العقليّة هي عقليّة قديمة لأنّ عبيد الله بن زياد سيُطلق يدهُ في الحُرُمات العشائريّة ـ بتوصية من يزيد ـ ويقتل ليفرض الدّولة والإيديولوجيا الأمويّة.

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٦.

فهل كان مسلم بن عمرو على علم بمخطّطات الخليفة والوالي وسعى لتوريط هانئ بن عروة؟

نرجّح أنّه كان على علم بهذه المخطّطات بما أنّه كان مقرّبا من الخليفة وأرسله بعهد عبيد الله بن زياد على العراق.

وأراد أن يحلّ الأزمة التي اندلعت بين الوالي وعبيد الله بن زياد أي إحضار هانئا لمسلم بن عقيل في أقرب وقت ممكن. كما اعتبر مسلم بن عمرو تقديم هانئ للوالي، عمل ليس فيه منقصة أو عار لأنّ عبيد الله بن زياد هو السّلطان.

ويبرز هنا مفهوم السّلطة والسّلطان على لسان أحد رجال الدّولة الأمويّة. فقد تجاوز مسلم بن عمرو مفاهيم الجوار والذّمام ليؤكّد بطريقة غير مباشرة على وجوب الطّاعة للسّلطان. وهذه الطّاعة للسّلطة الأمويّة يمثّلها أهل الشّام أحسن تمثيل. بينما كان هانئ من موقع سيّد العشيرة يُؤمن إيمانا قويّا بشرف الجوار والذّمام والضّيافة. فهي مبادئ أخلاقيّة لكنّها تعني وقوف وانتصاب جسد السيّد بكلّ قوّته مع تدخّل رجاله أو أعوانه وهم كثيرون لكنّنا ليس لدينا فكرة واضحة عن عددهم. كما أنّ العلاقة التي تربط هانئا برجاله أو عشيرته كانت تحميه وتخلّصه من أيّ عنف يتعرّض له حتّى من تجبّر ابن زياد. ومن هنا استمدّ هانئ قوّته على رفض الاستجابة لمطلب الوالي. كما أنّ هانئًا مستعدٌّ بأن يُضحّي بنفسه ويموت ـ في صورة عدم وجود ناصر له ـ في سبيل الوفاء لهذا المبدأ، مبدأ الجوار.

وهنا يبدو البون الشّاسع بين الخطاب الانتروبولوجي القديم من جوار وذمام والذي سيستند على الأخلاقيّة الموجودة في القرآن والسنّة ليكوّن خطابا دينيّا. بينما تطوّر الخطاب السّياسي الأموي الذي يستند على القوّة المبرمة والعنف السّياسي.

وكان هذا النّقاش بين الطّرفين يذكّرنا بالنّقاشات التي كانت تدور بين الخليفة عثمان والثوّار والتي لم يصل فيه الطّرفين إلى حلّ أو اتّفاق. وعلى هذا الأساس، انتصبت الفتنة بين الشقّين كصراع بين خطابين متصارعين.

واحتدّ الصّراع والخلاف بين الوالي وهانئ بن عروة بعد أن أصرّ هذا الأخير على عدم تسليم ضيفه. فمرّ عبيد الله إلى التّهديد بالقمع والقتل المبرم. فتهدّده إن لم يأتِ به أن بأن يضرب عنقه.

فأجابه هانئ بأنّه إن ضرب عنقه، «لتكثرنّ البارقة [١]حول داره[٢] ـ وهو يظنّ أنّ عشيرته سيمنعونه فأجابه ابن زياد: وا لهفا عليك! أبالبارقة تخوّفني!»[٣].

انتقل عبيد الله بن زياد إلى تهديد هانئ بالقتل إذا لم يُحضر ضيفه لكنّ هانئ كان رافضا لذلك لأنّه كان معوّلا على إنجاد عشيرته له بالسّلاح والرّجال.

وكان هذا الخطاب «الأبيّ» مُثيرًا لغضب الوالي الذي يمثّل السّلطة السياسيّة والعسكريّة في كلّ مظاهرها وبالتّالي تُلغى العشيرة ونفوذها أمام نفوذ الدّولة. وإن تحدّث معارض عن عشيرته بهذا الشّكل فهو يتجاوز سلطة الدّولة ويتحدّاها. وقد دفع هانئ ثمن تحدّيه لعبيد الله بن زياد.

وانتقلت المواجهة الكلاميّة الحادّة بين الوالي والشريف إلى تعنيف جسدي لهانئ من قبل الوالي.

فأمر به فأُدني منه، فضرب وجهه بقضيب أو محجن[٤] كان معه[٥]، وكان هذا الضرب على درجة كبيرة من العنف «فاستعرض وجهه بالقضيب، فلم يزل يضرب أنفَه، وجبينه، وخدّه حتّى كسر أنفه وسيّل الدّماءَ على ثيابه، ونثر لحم خدّيه وجبينه على لحيته حتّى كسر القضيب»[٦].

قام هانئ بردّ فعل قويّ نتيجة هذا الضّرب الغير متوقّع من قبل الوالي. فحاول أن يدافع عن نفسه ويقتصّ لكرامته ولمقامه كشريف أهين و«اعتُدي» عليه. فأسرع

---

(١) ابن منظور، معجم مذكور، ج١، ص١٩٧ البارقة: السّيوف على التّشبيه بها لبياضها.
(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٢، ص٣٣٧؛ الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٧.
(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٧.
(٤) ابن منظور، معجم مذكور، ج١، ص٥٧٧: المحجن، عصا معقّفة كالصولجان.
(٥) البلاذري، مصدر مذكور، ج٢، ص٣٣٧: فكسر أنفه وشقّ حاجبه.
(٦) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٧.

وحاول افتكاك سيف شرطيّ واقف يحرس الوالي. لكنّ الشّرطيّ منعه من ذلك.

فقال له عبيد الله: «أحروريّ سائر اليوم! أحللتَ بنفسك، قد حلّ لنا قتلُك»[١].

كان هذا الردّ من قبل هانئ، ردّا يعبّر عن إحساس بالفشل واليأس تجاه السّلطة الحاضرة أمامه بكلّ قوّتها وجبروتها. لكنّ التعرّض لهيبة وسلطان الوالي من قبل هانئ، دفع بهذا الأخير أن يُثقّله بالتّهم حيث اعتبر ما فعله فِعْل من فِعْل الخوارج. وأحلّ دمه وبالتّالي صرّح بالحكم عليه بالقتل.

كما أنّ هانئ قد ورّط نفسه من جديد بمحاولته افتكاك سيف الشّرطي. وكان هذا العصيان وسيلة الوالي للانتقام منه وتلبيسه تهمة أخرى.

ثمّ أمر به «ليُلقى»[٢] في أحد بيوت القصر أي أنّه حُبس في أحد بيوت القصر[٣]. في انتظار أن ينفّذ فيه حكم القتل. وأغلقوا عليه الباب، وعيّنوا حرسا يحرس هذا السّجن[٤]. نلاحظ أنّ عبيد الله بن زياد قد طوّر السّجن كمؤسّسة قمعيّة للدّولة.

عنّف عبيد الله بن زياد هانئ بن عروة وأحلّ دمه وأمر بحبسه في انتظار أن يقتله (بعد أن يقضي على ثورة مسلم بن عقيل). فقد قام عبيد الله بالمحاكمة بنفسه، ثمّ لجأ لاستعمال عنف جديد على هذا المعارض، هو عنف سلّطه بنفسه وباستعمال القضيب (وهو عصا الملك) الذي كسره على وجه المعارض.

وفي هذا رمزيّة كبيرة فالوالي كان يُمثّل عظمة السّلطة في جبروتها (ورموز السّلطة كالقضيب استعملت للتّأكيد على هذه السّلطة). فلم يكن الخليفة وحده يستعمل رموز السّلطة بل كذلك والي العراق.

وهذا الجبروت يخوّل للدّولة أن تتصرّف في جسد المعارض تصرّفا تامّا بدون

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٧.
(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٧.
(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٢، ص٣٣٧؛ الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦١ ـ ٣٦٧.
(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٧.

قيود. وإذَا سوّلت له نفسه أن يتجاوز حدوده، يصبح سفك دمه حلالاً. وهو عنف جديد لأنّه مدمّر لجسد المعارض ومشوّهٌ له (كسر أنفه ونثر لحم خدّيه وجبينه على لحيته أي تشويه وجهه) فهو تعذيب لجسد المعارض الشيعي قبل قتله من قبل الوالي نفسه. فالجلاّد كما ذكر ميشال فوكو يتلذّذ برؤية عدوّه يتألّم تحت تعذيبه له[1].

كما أنّ منظر الدم كان ضروريًا في هذه المسرحيّة التي يلعب فيها الوالي دور البطل (سيّل الدماء على ثيابه).

على هذا الأساس، تصلّبت السّلطة الأمويّة في العراق في فترة عبيد الله بن زياد تصلّبا فاق فترة زياد بن أبي سفيان. فقد عنّف زياد أحد أصحاب حجر لكنّ هذا العنف لم يسلّطه الوالي بنفسه بل أمر الشّرط بتنفيذه [2].

أصبح العنف والسجن من علامات الدّولة البوليسيّة في العراق وأساسا الكوفة. كان القصر محصّنا وتتحوّل بيوته عند الحاجة إلى سجن للمعارضين.

وقد عنّف الأمير عنفا شديدا هانئ بن عروة حتّى يُرعِبَ الآخرين ـ أي الأشراف ـ لكي لا يثوروا على السّلطة. وفي هذا يبدي عبيد الله بن زياد ثقة كبيرة في نفسه.

وكان ردّ فعل أحد الأشراف سريعا حيث قام أسماء بن خارجة الفزاري وقال للوالي بأنّه بعثه هو ومحمّد بن الأشعث كرسل غدر حيث طلب منهما أن يأتيا بالرّجل، ولمّا أدخلاه عليه هشّم وجهه وسيّل دمه على لحيته وهدّد بقتله. فغضب الوالي وأمر به فلُهز[3] وتُعْتِع[4]، ثمّ حُبِس[5].

---

(1) Michel Foucault, *Idem*,p.18.

(٢) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٢٦٦ ـ ٢٦٧.

(٣) ابن منظور، معجم *مذكور*، ج٣، ص٤٠٣: لهزهُ يلْهزهُ لهزًا ولهّزهُ: ضربهُ بجُمْعِهِ في لهازمه ورقبته، وقيل: اللّهز: الدفع والضرب، واللّهزُ، الضرب بجُمع اليد في الصدر وفي الحنك مثل اللّكز.
اللّهازم: مضيغتان عليّتان في أصل الحَنكين في أسفل الشّدقين.

(٤) ابن منظور، معجم *مذكور*، ج١، ص٣٢٢: التّعْتعة: الحركة العنيفة.

(٥) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٦٧.

كان هذا العنف الجديد مثيرا لغضب أسماء بن خارجة الذي اعتبر أنّ الوالي استعملهما للغدر بهانئ بن عروة (أي محمّد بن الأشعث وهو نفسه) ليُسلّط عليه عنف من نوع خاصّ (عنف على الوجه). وهذه العقليّة عقليّة الغدر تتماشى مع السّلطة والدّولة.

وكان ردّ فعل عبيد الله بن زياد تجاه هذه المعارضة الكلاميّة من قبل شريف من أشراف الكوفة أن ضُرب وسُجن.

بينما حاول محمّد بن الأشعث أن يتدارك الوضع ويعبّر عن موالاته للسّلطة بقوله بأنّه رضي بأمر الأمير لهم أو عليهم، لأنّ الأمير مؤدّب. وهو دور قد اضطلع به زياد أيضا في فترة ولايته[1].

فقد بيّن محمّد بن الأشعث بموقفه أنّ الأشراف لديهم علاقة عضويّة بالسّلطة، وينفّذون أوامرها، ويحرصون على طاعتها وموالاتها إيديولوجيّاً.

وسمع النّاس الهيعة [2] أو الرجّة [3]، فبلغ عمرو بن الحجّاج أنّ هانئ قُتل فأطاف بالقصر في جموع مذحج.

ونادى حتّى يسمعه الوالي بأنّه جاء في فرسان مذحج وأشرافها وأنّه لم يخلع طاعة ولم يفارق جماعة، «وقد بلغهم أنّ صاحبهم يُقتل، فأعظَموا ذلك»[4].

وأُعلم عبيد الله بن زياد بأنّ مذحج محيطة بالقصر، فكلّف شريح القاضي بأن يدخل إلى هانئ بن عروة ثمّ يخرج لأصحابه فيُعلمهم أنّه حيّ لم يُقتل وبأنّه رآه.

فدخل عليه شريح وسأل هانئ شريحا عن عشيرته كيف تركوه ولم يخلّصوه من عسف عبيد الله بن زياد. وكانت الدّماء تسيل على لحيته.

---

(١) هشام جعيط، *نشأة المدينة العربيّة الإسلاميّة الكوفة*، ص٣٢٠.
(٢) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٦١.
(٣) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٦٨.
(٤) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٦٧.

وسمع أصوات مذحج على باب القصر، وخرج شريح فتبعه هانئ بنظره وقال له بأنّه يظنّ أنّها أصوات مذحج فإن دخل عليه منهم عشرة أشخاص أنقذوه.

وخرج شريح إلى مذحج، وكان مصحوبا بحُميد بن بُكير الأحمريّ - وهو من شرط ابن زياد وممّن يقوم على رأسه - وقد حاول شريح تبرئة ساحته بقوله أنّه لولا وجود الشّرطي معه لبلّغ أصحابه بحقيقة أمره.

وقال لهم شريح بأنّ الوالي لمّا سمع بأمرهم أمره بالدّخول على صاحبهم، فدخل إليه ورآه، وهو يُعلمهم أنّه حيّ. فانصرف عمرو بن الحجّاج هو ومذحج، بعد أن علموا بأنّ هانئ لم يُقتل.

وقعت محاصرة القصر من قبل عمرو بن الحجّاج وهي رواية غير صحيحة. بل حاصر الشّيعة مع مسلم بن عقيل القصر وفيهم عدد كبير من مراد. وهذا دليل على أنّ مذحج كانت بباب القصر تنتظر وتتربّص لترى ما هو مصير سيّد العشيرة. وقد تخوّف عبيد الله بن زياد من ردّ فعل مذحج التي كانت في صفوف مسلم بن عقيل، فأرسل إليهم شريح القاضي الذي كان مراقبا من الشّرطة. وهدّأ من روعهم حتّى يُطفئ نار القود ولا يُسعّر نار الحرب ضدّه. وهذا دليل على ضعف السّلطة عند الانتفاضات لأنّها ليست لديها جيش نظامي تقضي به على الثّورات.

لماذا كُلّف شريح بهذه المهمّة هل كانت لديه هيبة لدى أهل الكوفة وأساسا اليمنيّين؟ من المؤكّد أنّ شريح كانت لديه كاريسما فحرص عبيد الله على تهدئة الأوضاع بإرساله إلى مذحج.

كان شريح بن الحارث الكندي قاضي الكوفة في فترة زياد بن أبي سفيان ثمّ ابنه. واشترك هذا الموظّف في لعبة السّلطة لإثبات التّهمة على هانئ بن عروة وحبسه وقتله في النّهاية. ففصل شريح بين القضاء كخطّة في الأساس دينيّة، والسّياسي الذي يفرض عليه أن يُصانع أصحاب الدّولة التي يخدمها. كما أنّه موّه على مذحج في سبيل إرضاء عبيد الله بن زياد. إضافة إلى أنّه كان مصحوبا بالشّرطيّ الذي كان بمثابة الجاسوس الذي يمنعه من تقديم العون لهانئ بن عروة.

أو ربّما قدّم شريح هذه الحجّة ليبرّأ ساحته نظرا لتورّطه مع السّلطة الأمويّة. ولم تكن هذه المرّة الأولى التي خدم فيها شريح السّلطة الأمويّة بل كان في الشّهود ضدّ حجر بن عديّ(١).

سعى عبيد الله بن زياد إلى إبراز سلطة الدّولة، وكانت هذه «المحاكمة» مسرحيّة لإبراز مدى قوّة الدّولة البوليسيّة التي تستعمل العنف الجسدي أو عنف الدّولة لتعاقب المعارضين لسلطتها حتّى وإنْ انتمى هؤلاء الخارجين عن سلطة الدّولة للأشراف. فكلّما كانت التّهمة الموجّهة للمعارض كبيرة من قبل الدّولة، كلّما كان العقاب الجسدي الذي يسلّطه الحاكم على جسد المعارض عقابا «مدمّرًا».

فكان لا بدّ لهذه السّلطة أن تظهر في طابع مسرحي. فمنظر الدّم كان ضروريّا للتّعبير عن العقوبة الجسديّة أي جسد الملك يسلّطها على جسد المعارض. ومن هنا يحدث اتّحاد بين جسد الملك وجسد الدّولة كسلطة قمعيّة(٢).

جرّد عبيد الله بن زياد هذا الشّريف من الرّوابط العشائريّة التي تلعب زمن الأزمات درعا حاميا. فعزل هذا الشّريف وسلّط عليه عقوبة الدّولة، وعجزت العشيرة عن إنقاذه للتّعتيم الذي قامت به السّلطة بواسطة شريح القاضي.

ولم يتوقّف الوالي على هذه التّهدئة بل سعى لإلقاء خطبة من أعلى منبر المسجد ـ الجامع تخوّفا من ثورة النّاس. ونعتقد أنّ ذلك كان مخاطرة فبعد انصراف مذحج، سيعودون بقوّة في جيش بقيادة مسلم بن عقيل. المهمّ أنّ الوالي حرص على فرض سلطته بكلّ الوسائل. فصعد المنبر بالمسجد ـ الجامع بالكوفة. وكان مصحوباً بالأشراف والشّرط وحشمه وخطب في النّاس: «أمّا بعد فاعتصموا بطاعة الله وطاعة أئمتكم، ولا تختلفوا ولا تفرّقوا فتهلكوا وتذِلُّوا وتقتلوا وتُجْفَوْا وتحرموا، إنّ أخاك من صدَقك، وقد أعْذر مَنْ أنذر»(٣).

---

(١) بثينة بن حسين، مقال مذكور، ص١٩٢؛ الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٢٨٠.

(2) Alain Corbin, Jean-Jacques Courtine, Georges Vigarello, *Histoire du Corps, I De la Renaissance aux Lumières*, Editions du Seuil, Paris, 2005, p.406.

(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٨.

ركّز عبيد الله بن زياد في هذه الخطبة القويّة على إيديولوجيا الدّولة الأمويّة خاصّة إيديولوجيا الطّاعة (طاعة الله وطاعة الأئمة). فالخلفاء الأمويّون هم خلفاء الله منذ فترة معاوية[١].

كما حذّرهم الوالي من ويلات الفتنة وأخطارها، ولا شكّ أنّهم حسّاسون للفتنة بما أنّ جراح الفتنة الأولى لم تندمل بعد.

وتتمثّل أخطار الفتنة في الاختلاف والتفرّق والهلاك والذلّ والقتل وجفاء وحرمان السّلطان لهم.

ولم يحدّد الوالي ما هي نوعيّة العقاب أو الحرمان الذي ستبادر به السّلطة الأمويّة إذا عُصيت أوامرها. إذ توقّع عبيد الله بن زياد ردّ فعل الشّيعة على حبس هانئ بن عروة، فسارع لتحذير أهل الكوفة. المهمّ أنّ شبح الفتنة خيّم على الكوفة من جديد بوجود مسلم بن عقيل بها وجمعه الجموع للثّورة ضدّ السّلطة.

وتتّخذ الأخبار طابعا مسرحيّا حيث تتسارع الأحداث، فما نزل عبيد الله بن زياد من المنبر حتّى دخل النّاس الذين كانوا يُتابعون هجوم ابن عقيل على المسجد والقصر أو النظّارة [٢]، دخلوا المسجد من قبل بائعي التّمر بالسّوق[٣].

وكانوا ينادون بأعلى أصواتهم: «قد جاء ابن عقيل! قد جاء ابن عقيل!».

ذُعر عبيد الله بن زياد كأشدّ ما يكون الذّعر، فدخل مسرعا القصر (كان هناك باب يربط القصر بالمسجد ـ الجامع)، وأغلق الأبواب.

اندلاع الثورة الشيعيّة بقيادة مسلم بن عقيل

قبل الحديث عن هذه الثّورة، يجب التّأكيد على أنّ مصدرنا الأساسي فيها هو الطبري لكن استنادا على رواية أبي مخنف وفي ذلك يقول الطّبري: «وأمّا أبو مخنف فإنّه ذكر من قصّة مسلم بن عقيل وشخوصه إلى الكوفة ومقتله قصّةً هي

---

(١) الطّبري، مصدر *مذكور*، ج٥، ص١٦٩؛ بثينة بن حسين، مرجع *مذكور*، ص٣١٩ ـ ٣٢٠ ـ ٣٢١.

(٢) ابن منظور، معجم *مذكور*، ج٣، ص٦٦٤ النظّارة: القوم ينظرون إلى الشيء.

(٣) الطّبري، مصدر *مذكور*، ج٥، ص٣٦٨.

أشبع وأتمّ من خبر عمّار الدّهني»[1]. كما استند البلاذري على أبي مخنف[2] على الشّعبي[3].

لا يجب أن ننسى أنّ الرّواة خاصّة منهم أبو مخنف كوفي ويمنيّ ومتشيّع. فكانت الرّواية على درجة كبيرة من الحيويّة كأنّها تدور أمام عينيك في شكل فيلم سينمائي. وهي رواية موضوعيّة إلى حدّ معيّن لكنّها عاطفيّة في نقلها للأحداث.

اندلعت الثّورة الشّيعيّة عند تأكّد مسلم بن عقيل بحبس الوالي لمجيره هانئ بن عروة الذي يُعتبر أحد قادة الحركة الشّيعيّة (بما أنّ منزله كان مقرّا لاجتماعاتهم).

ويبدو أنّ مسلم أرسل رسولاً إلى القصر للتثبّت من ضرب وحبس الوالي لهانئ. وهذا الرّسول هو أحد الشّيعة من رجال مسلم وفرسانه[4]، وهو عبد الله بن خازم الكثيريّ من الأزد من بني كثير[5]. وقد اعتمده أبو مخنف في روايته لأحداث الثّورة[6] (اندلاعها ومراحلها وردّ فعل الوالي تجاهها خاصّة تكليف الأشراف بتثبيط عشائرهم عن المشاركة مع مسلم في الثّورة). وقد خرج الحسين من مكّة يوم التّروية في نفس يوم خروج مسلم بن عقيل بن أبي طالب، ويقال أيضًا إنّ

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٥١.

(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٢، ص٣٤٠.

(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٢، ص٣٣٩؛ ابن سعد، مصدر مذكور، ج٦، ص٢٥٩ ـ ٢٦٠ ـ ٢٦١ ـ ٢٦٢ : عامر بن شراحيل الشّعبي هو من حمير وعداده في همدان. من أهمّ القرّاء بالكوفة الذي وضع أسس ما سيعرف بالفقه في ما بعد أي في القرن الثّاني للهجرة. وكان الشّعبي يروي الرّواية التّاريخيّة عن تاريخ العراق. كما أنّه كان قاضيا لدى الأمويّين، ومؤدّبا لأبناء الخليفة عبد الملك بن مروان وجليسا ومحدّثا له. كان متشيّعا لكنّه انحاز عن الشّيعة في ثورة المختار الثّقفي. وساهم في ثورة ابن الأشعث مع القرّاء لكنّ الحجّاج بن يوسف عفا عنه.

(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٨: «أنا والله رسول ابن عَقيل إلى القصر لأنظر إلى ما صار أمرُ هانئ؛ قال: فلما ضُرب وحُبس ركبتُ فرسي وكنت أوّل أهل الدار دخل على مسلم بن عقيل بالخبر».

(٥) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٤.

(٦) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٤ ـ ٣٦٨.

مسلم خرج يوم الأربعاء لتسع خلون من ذي الحجة سنة ستينّ وهو يوم عرفة بعد خروج الحسين من مكّة متوجّها إلى الكوفة[1].

وقعت أحداث خروج الحسين ودخول مسلم بن عقيل للكوفة في فترة الحجّ أي في الشّهر الحرام وبالتّالي ارتبطت هذه الأحداث بزمنيّة ميتا ـ تاريخيّة أي محاطة بهالة من القدسيّة. و في هذا تأكيد على رمزيّة الحدث (أي مسير الحسين إلى الكوفة) وأبعاده الدّينيّة.

وقد بدت الثّورة في بدايتها كأنّها ثورة عشائريّة انطلقت من مراد ـ عشيرة هانئ بن عروة ـ ومن داره ـ أي دار هانئ ـ والتحق به آخرون.

وكان مسلم مجبرا أخلاقيّا بحكم الجِوار على إنقاذ هانئ بن عروة أي الشّريف الذي أخفره وآواه و أجاره. فانطلقت الثّورة مرتكزة على مراد ـ عشيرة هانئ ـ فكانت هذه الثّورة لديها طابع جاهلي وقبلي أي أنّ الثوّار من الشّيعة هبّوا في مراد ومذحج لنصرة هانئ وتخليصه من حبس الوالي. ويبدو أنّ مذحجا لعبت في كلّ هذا دورا مهمًّا[2].

ونادى مسلم بن عقيل في أصحابه[3] لكي يجتمعوا إليه، حيث كلّف عبد الله بن خازم أن ينادي: «يا منصورُ أمتْ»[4]، وتنادى أهل الكوفة بهذا النّداء، فاجتمع الشّيعة من أهل الكوفة لمسلم.

حضّر مسلم نفسه و شيعته للثّورة واتّفقوا على النّداء الذي يناديهم به عند التّعبئة العسكريّة لقتال الوالي عبيد الله بن زياد. وعندما حُبس هانئ من قبل الوالي، نادى مسلم بن عقيل بهذا النّداء المُتّفق عليه في أهل الكوفة. فبدا الشّعار لأوّل وهلة كأنّه شعار عشائري جاهلي لتخليص سيّد العشيرة من تعسّف الوالي. بينما هو شعار

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٧١.
(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٩.
(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٨؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٢، ص٣٣٨.
(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٨ ـ ٣٦٩.

مسلم[1] ـ حسب رواية عمّار الدّهني ـ وكانت عشيرة هانئ من مراد في حالة فزع وحزن شديد لحبس وضرب سيّدها. فقد اجتمعت نسوة من مراد و هنّ ينادين: «يا عَثْرتاه[2]! يا ثُكلاه[3]!»[4]. وهي ظاهرة انتروبولوجيّة هامّة، تبيّن مكانة هذا السيّد في العشيرة، فهو بمثابة الأب. كما أنّ هذا الفزع والخوف يبدو في محلّه لبطش وتجبّر عبيد الله بن زياد.

أصبحت ثورة مسلم ثورة مسلّحة انطلقت من الدّور المجاورة لدار هانئ بن عروة. ثمّ انضمّ إليه رجال الكوفة من الشّيعة مباشرة بعد التأكّد من حبس الوالي لهانئ بن عروة. ومنذ انطلاق الثّورة، كان عدد أنصار ابن عقيل متناقصا أو ضئيلاً.

فقد كان أصحابه في الدّور ٤٠٠٠ رجل ـ و كانوا على أتمّ الاستعداد للثّورة ـ، بينما بايعه ١٨٠٠٠[5].

فأين ذهب البقيّة؟ هل تخاذلوا عنه؟ ربّما كانت هذه الفرضيّة صحيحة. فقد تخوّف أهل الكوفة من الحرب والفتنة. المهمّ أنّه لم يبق معه من الرّجال إلاّ ٤٠٠٠[6].

عقد مسلم لعبيد الله بن عمرو بن عزير الكنديّ على رُبْع كندة وربيعة. وكان مكلّفا بقيادة المقاتلة على الخيل أمام مسلم. وعقد لمسلم بن عَوْسَجة الأسديّ على رُبْع مَذْحج وأسَد، وكلّفه بقيادة الرجّالة من المقاتلة. وعقد لأبي ثُمامة الصائديّ على رُبع تميم وهَمْدان، وعقد لعباس بن جعْدة الجدليّ[7] على رُبْع المدينة.

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٥٠.

(٢) ابن منظور، معجم مذكور، ج٢، ص٦٨٤ عثر: عثر يعثِر ويعْثُرُ عثْرًا وعثارًا وتعثّرَ: كَبا، عثِر في ثوبه. والعثرةُ: الزلّةُ، ويُقال: عثر به فرسُهُ فسقط. وأعْثرهُ الله: أتعسَهُ.

(٣) ابن منظور، معجم مذكور، ج١، ص٣٦٦ ثكل: الثّكْلُ: الموتُ والهلاكُ. والثُّكْلُ والثَّكَلُ، فِقْدان الحبيب وأكثر ما يستعمل في فُقدان المرأة زوجَها. وأكثر ما يستعمل في فُقدان الرجل و المرأة ولَدَهما. والثّكولُ التي ثَكِلت ولدها.

(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٨.

(٥) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٨؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٢، ص٣٣٨.

(٦) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٩؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٢، ص٣٣٨.

(٧) ابن حزم، مصدر مذكور، ص٤٧٦: جديلة، من قُطْرة من طيّء.

كوّن ابن عقيل جيشا من الشّيعة معتمدا أساسا على عناصر يمنيّة (ثلاثة عناصر يمنيّة من القوّاد)، وعلى الأرباع أي التّنظيم العسكري الذي اتّخذه زياد بن أبي سفيان. بينما يذكر عمّار الدّهنيّ أنّه اجتمع إلى ابن عقيل ٤٠٠٠ من الشّيعة، فقدّم مقدّمته، وعبّى ميمنته وميسرته، وسار في القلب إلى عبيد الله[١]. وبالتّالي أعطى عمّار الدّهنيّ تقسيما آخر للجيش اتّخذه ابن عقيل.

لا بدّ من التّذكير في هذا السّياق، بأنّ قائدين من القوّاد لعبا دورا هامّا في حركة مسلم بن عقيل منذ فترتها السريّة وهما مسلم بن عوسجة الأسدي وأبو ثمامة الصّائدي. فقد اهتمّ مسلم بن عوسجة بالبيعة السريّة لابن عقيل. وكان أبو ثمامة الصّائدي يشتري السّلاح للحركة. لكنّنا لا نجد ذكرا للثّلاثة عناصر من الشّيعة الذين راسلوا الحسين بن عليّ أي سليمان بن صرد والمسيّب بن نجبة ورفاعة بن شدّاد. فلماذا لم يشاركوا في الدّعوة السريّة لأهل البيت؟ ولماذا لم يلتحقوا بابن عقيل في الثّورة المسلّحة؟

ربّما تخوّف هذا الثّالوث من الأشراف أو من السّلطة الأمويّة المتجبّرة.

كما أنّنا لا بدّ أن نؤكّد على ظاهرة التشيّع التي ارتبطت باليمنيّة بالكوفة. وقد حلّل الأستاذ هشام جعيّط في مقاله «اليمنيّون في الكوفة في العهد الأموي»[٢]هذه الظّاهرة.

فقد اعتمد الأستاذ هشام جعيّط على ماسينيون ليبيّن أنّ اليمنيّين مؤيّدون للشّيعة، وربيعة أيضا. أما قيس مضر فقد كانت معادية للشّيعة. كما بيّن أنّ القبائل اليمنيّة كانت على درجة مختلفة من الولاء لقضيّة عليّ. فالعشائر التي تمثّل النّواة اليمنيّة كهمدان كانت «شيعيّة جامحة»، ومذحج شيعيّة بعشائرها، خاصّة عشيرة النّخع (منهم الأشتر النّخعيّ[٣])، الذي كان من أشدّ القرّاء الثّائرين على عثمان ثمّ كان من

---

(١) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٥٠.

(٢) هشام جعيط، *نشأة المدينة العربية الإسلامية الكوفة*، ص٣٦٦ ـ ٣٩٨.

(٣) ابن سعد، *مصدر مذكور*، ج٦، ص٢٣٩: «كان الأشتر من أصحاب عليّ بن أبي طالب وشهد معه الجمل وصفّين ومشاهده كلّها، وولاّه عليّ مصر».

شيعة عليّ). وكذلك عشيرة جعفي ومراد. أمّا قبائل الأطراف اليمنيّة، فموقفها هو موقف معتدل. فقد تشيّعت جميع عشائر كندة (ثورة حجر بن عديّ)، لكنّ تشيّعها كان شكليًا فقط. وكانت بجيلة منذ البداية ضدّ الشّيعة مع بعض الاستثناءات[1].

واعتبر الأستاذ هشام جعيّط أنّ يمنيّي الكوفة بسبب هامشيّتهم كانوا يدعمون طيلة القرن الهجري الأوّل حزب عليّ. فقد كان اليمنيّون مهمّشين ثقافيًا واجتماعيًا في المدينة العربيّة[2] من قبل السّلطة.

فقد ساند اليمنيّون عليًا في نضاله المسلّح ضدّ معاوية. ففي معركة صفّين، كان المتحمّسين للقتال إلى جانب عليّ هم من ربيعة؛ كما يذكر همدان ومذحج الذين قاتلوا إلى جانب الأشتر النّخعي. والتفّ الكوفيّون وأساسا اليمنيّون إلى جانب عليّ.

وكان التفافهم حوله تمليه ظروف سياسيّة واجتماعيّة واقتصاديّة «أكثر بكثير من مجرد موقف تحرّكه المشاعر العاطفيّة».[3] وأثبتت الأحداث في ما بعد مثلا في ثورة حجر بن عديّ، أنّ الأشراف الذين شهدوا ضدّه، كانوا أشرافا معروفين ينتمون للقبائل اليمنيّة الكبرى. وكانوا أكثر الذين طاردوا حجرًا وأصحابه من همدان ومذحج. لكن في هذه الفترة المبكّرة من التّاريخ الشّيعي لا يكن ممكنا التّطابق بين الشيعة والقبائل اليمنيّة[4].

لكن بالنّسبة لثورة ابن عقيل، يمكننا القول بالتّطابق بين الحضور اليمني والحركة الشّيعيّة لاستناد هذه الحركة على قاعدة عريضة. وبذلك التقى الوعي بالهامشيّة اليمنيّة بالالتحاق بالهامشيّة الأخرى ـ الشّيعيّة ـ وإلى التّواصل معها[5].

المهمّ أنّ ابن عقيل هاجم القصر في هؤلاء ٤٠٠٠ رجل. وهنا تتدخّل الأطراف

---

(١) هشام جعيط، *مرجع مذكور*، ص٣٨٤.
(٢) هشام جعيط، *مرجع مذكور*، ص٣٦٠ ـ ٣٩٨.
(٣) هشام جعيط، ، *مرجع مذكور*، ص٣٨٥.
(٤) هشام جعيط، *نشأة المدينة العربية الإسلامية الكوفة*، ص٣٨٥ ـ ٣٨٦.
(٥) هشام جعيط، *مرجع مذكور*، ص٣٨٨.

الشيعيّة المشاركة في الثّورة لرواية الأخبار كعبّاس بن جعدة الجَدليّ[1]، قائد ربع المدينة، الذي روى محاصرة ابن عقيل للقصر الذي تحصّن فيه عبيد الله بن زياد.

خرج هذا الجيش المتكوّن من الأرباع في أربعة آلاف شيعيّ لمحاصرة القصر، لكنّه عندما وصل إلى القصر لم يبق منه إلاّ ثلاثمائة متكوّنة أساسا من مراد ـ عشيرة هانئ ـ[2] على هذا الأساس، تبدو مذحج أهمّ تحالف قبلي مع «القضيّة الشّيعيّة».

ويبقى الغموض محيطا ببقيّة الرّجال الذين انفضّوا عن مسلم؟ ما هو سبب انفضاضهم عنه؟ هل تخوّفوا من الفتنة و هم ما زالوا حديثي عهد بها؟

لكنّ مسلم لم يحاصر القصر فقط بل احتلّ أيضا المسجد ـ الجامع[3]. فقد حدث عندئذ حدثٌ غريبٌ لأنّه مناقض لما ذُكر سابقا (أي انفضاض النّاس من حول مسلم). فيبدو بالعكس تدفّق للنّاس في المسجد إلى حدود المساء «وما زالوا يُثوِّبون[4] حتّى المساء»[5] لمناصرة مسلم بن عقيل، وامتلأ المسجد والسّوق بالنّاس.

كان السّوق عنصرا أساسيّا في المساحة المركزيّة، وهو عنصر من الحياة الجماعيّة وكانت محيطة بالمركّب الدّيني والسّياسي المتكوّن من القصر والمسجد[6].

أصبح مركز الكوفة محتلاّ من قبل مسلم بن عقيل بينما بقي الوالي محصورا في القصر. وفي هذا رمزيّة كبيرة مفادها أنّ العصب الدّيني للمصر (وهو المسجد ـ

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٩: روى عنه أبو مخنف.
(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٩.
(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٨ ـ ٣٦٩.
(٤) ابن منظور، معجم مذكور، ج١، ص٣٨٢ ـ ٣٨٣: وثاب النّاس: اجتمعوا وجاؤوا. وثاب القوم: أتوا مُتواترين.
(٥) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٩.
(٦) هشام جعيط، مرجع مذكور، ص١١٢.

الجامع) أصبح بيد الثوّار. كما أنّ الأسواق وهي عنصر مركزي وحيوي كانت محتلّة أيضا من قبل الثوّار.

لكنّنا نتساءل عن سبب تدفّق الناس على ابن عقيل بعد انفضاضهم عنه؟ فما هو سرّ تجمّعهم حوله بالمسجد ـ الجامع إلى حدود المساء؟

لذلك هدّدت الثّورة السّلطة في عقر دارها. بما أنّ الوالي كان في قلّة من رجاله محصورا في القصر.

وأثارت هذه الوضعيّة غضب عبيد الله ونفد صبره. وقد تخوّف من هجوم ابن عقيل على القصر[١].

وكان الثوّار متسلّحين بسلاح بسيط وهو الحجارة [٢]. ممّا أثار خوف «أهل القصر» من الشّرط والأشراف والحشم. فقد تخوّفوا أن يضربوهم.

فمن كان يحمل السّلاح من الثوّار؟ هل كان عامّة النّاس ـ الذين انضمّوا إلى مسلم عند وصوله إلى المسجد ـ يحملون الحجارة بينما كان السّلاح حكرا على الثلاثمائة مقاتل الذين صمدوا مع مسلم بن عقيل؟

كما كان الثوّار أيضا في حالة غليان كبير حيث لم ينفكّوا من شتم عبيد الله بن زياد وأبيه أي زياد بن أبي سفيان[٣] (أي والي العراق في عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان).

ولعلّ هذا الكره يرجع لسياسة البطش والتجبّر التي ركّزها زياد وابنه في العراق. إضافة للقمع والإرهاب الذي نظّمه زياد ضدّ حركة حجر بن عديّ الكندي ـ قائد أوّل حركة شيعيّة ـ فتبدو هذه العمليّة كحركة تنفيس وترويح عن النّفس وردّ فعل عن تجبّر السّلطة.

هل حدثت مواجهات عسكريّة بين الأشراف و جيش ابن عقيل؟

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٩.
(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٩.
(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٩.

كان ابن عقيل مرابطا هو ورجاله في المسجد الذي أصبح مقرّا مؤقتّا للثّورة. وكان المقاتلة يتوافدون عليه. ويبدو أنّه أرسل من المسجد عبد الرحمن بن شُريح الشّبامي[١] (الذي ينتمي لعشيرة قديمة التشيّع)، لمحمد بّن الأشعث الكنديّ الذي كان يجول في الكوفة يخذّل النّاس عن ابن عقيل. لكنّ المصادر لم تذكر عدد المقاتلة الذين كانوا مع عبد الرحمن بن شريح. فيبدو أنّ عدد هؤلاء المقاتلة هامّ ممّا أخاف محمّد بن الأشعث.

وقد هاجم القعقاع بن شوْر مقاتلة ابن عقيل فهزمهم و أرسل لمحمّد بن الأشعث يطمئنه بأنه قد ثأر له من هذه الهزيمة[٢].

فبدت هذه المواجهات العسكريّة بين الطّرفين كأنّها كرّ وفرّ أو مبارزات. وليست مواجهات عسكريّة حقيقيّة بين الوالي وابن عقيل.

وبقي النّاس في حالة استنفار وتجمّع في المسجد إلى جانب ابن عقيل إلى المساء، «وهم يكبّرون... وأمرهم شديد»[٣]. كان الشّيعة أنصار ابن عقيل يحسّون بأهميّة هذا الحدث وربّما برمزيّة أهل البيت في هذه الثّورة وبقدسيّة المسجد ـ الجامع كمكان يجتمع فيه النّاس. وبذلك كان الجوّ مفعما بالعاطفيّة والرمزيّة.

كانت التّعبئة العسكريّة متواصلة (رجال مسلّحون على أهبة للقتال) في العشائر اليمنيّة في الأزد، وفي بني فتيان[٤] لمساعدة ومآزرة ابن عقيل[٥]. لولا أنّ الأشراف أوقفوها. وتبرز في هذه الثّورة حركات جانبيّة وذات نزعة فرديّة كمساهمة المختار بن أبي عبيد الثّقفي ومساهمة عبد الله بن الحارث بن نوفل.

---

(١) ابن حزم، *مصدر مذكور*، ص٤٧٥: بطن من حاشد من همدان؛ هشام جعيط، *نشأة المدينة العربيّة الإسلاميّة الكوفة*، ص٣٧٦: قُتل منهم ١٨٠ رجلا في وقعة صفّين. وهي عشيرة مجالد بن سعيد.

(٢) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٧٠.

(٣) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٧٠.

(٤) ابن حزم، *مصدر مذكور*، ص٤٧٤: بنو فتيان، بطن من بجيلة.

(٥) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٧٠.

ساهم المختار الثّقفي في هذه الثورة ـ وهو يعتبر من الأشراف[١] ـ وقد خرج براية[٢] خضراء وركزها على باب عمرو بن حريث. وعندما قبض عليه عبيد الله بن زياد، قال بأنّه خرج ليمنع عمرا[٣].

كما ساهم عبد الله بن الحارث بن نوفل ـ وهو أيضا من الأشراف ـ في هذه الثّورة، فخرج في راية حمراء وعليه ثياب حمر[٤].

ما هي الرّمزيّة التي يهدف إليها هذا الخروج للشّريفين في رايات ملوّنة؟ ربّما ترمز هذه الرايات الملوّنة لإيجاد شعار للشّيعة مختلف عن الشّعار الأبيض للدّولة الأمويّة[٥].

وقد كان اللّون الأخضر اللّون الدّيني للإسلام، وسيتّخذه العبّاسيّون شعارا لهم. بينما اتّخذ الهاشميّون اللّون الأحمر كشعار لهم.

يبدو أنّ المختار كان متشيّعا ومتحمّسا لأهل البيت، فقد آوى ابن عقيل في مرحلة أولى. وسيقوم بثورة شيعيّة للثّأر للحسين بن عليّ. قدّم المختار سببا واهيا حتّى لا يقتله الوالي. وهذا يدخل في إطار شخصيّة المختار الذي يكذب ويدّعي أشياء غير صحيحة. وقد جعل فيهما الوالي جُعلا، فحبسهما، ولم يقتلهما، ربّما لانتمائهما لفئة الأشراف من ثقيف وقريش!

لنا أن نتساءل عن زمنيّة هذه الثّورة: كم دامت؟ هل دامت يوما واحدا ثمّ استوجب القمع أيّاما قبل قدوم الحسين؟

تتحدّث المصادر عن إمكانيّة حدوث الثّورة في يوم أو بعض السّاعات إلى حدود مغيب الشّمس. لكنّ السّؤال المطروح هل حدثت مواجهة عسكريّة بين الجيشين؟ لا نعتقد ذلك بل حرص عبيد الله بن زياد للتصدّي للثّورة بوسائل أخرى.

---

(١) هشام جعيط، *نشأة المدينة العربيّة الإسلاميّة الكوفة*، ص٣٥٩.

(٢) ابن منظور، معجم *مذكور*، ج١، ص١٢٧٠: الراية: العلمُ.

(٣) الطّبري، مصدر *مذكور*، ج٥، ص٣٨١.

(٤) الطّبري، مصدر *مذكور*، ج٥، ص٣٨١.

(5) Alain Pastoureau, *Unc histoire symbolique du Moyen Age occidental*, Editions du Seuil,Paris,2004,p.397.

تصدّي عبيد اللّه بن زياد لثورة مسلم بن عقيل بن أبي طالب

أصبحت السّلطة الأمويّة التي يمثّلها الوالي عبيد الله بن زياد في عزلة كبيرة، وأسَاسًا في حالة ضعف وحصار من قبل مسلم بن عقيل ورجاله من شيعة الكوفة. فقد أسرع الوالي وغلّق عليه وعلى رجاله أبواب القصر(١) عندما سمع ـ وهو يخطب بالمسجد بقدوم ابن عقيل(٢).

ولولا الطّابع المحصّن للقصر لأمكن للثوّار اقتحامه، وافتكاك السّلطة.

وكان الوالي محاطا في عزلته بأهل بيته ومواليه، وشرطه وعدد كبير من أشراف الكوفة لم تحدّده المصادر(٣).

و «حبس» عبيد الله معظم الأشراف عنده «استيحاشا» إليهم لقلّة من معه من النّاس(٤) وقد ناداهم عبيد الله ليلتحقوا به في القصر حتّى يكلّموا عشائرهم(٥). وتتّفق المصادر على أنّ عبيد الله بن زياد كان في القصر، في ٢٠ من الوجوه و ٣٠ من الشّرط فقط(٦).

وهذا يبيّن أنّ السّلطة الأمويّة هشّة ومكروهة. فهي سلطة ذات شرعيّة منقوصة بالمقارنة مع شرعيّة أهل البيت. كما أنّ نوعيّة التّنظيم العسكري الذي أسّسه الخليفة عمر بن الخطّاب تفرض انضواء كلّ العشائر في إطار الدّيوان يقومون بالجهاد مقابل تلقّيهم العطاء.

لكنّ هذه القوّة العسكريّة تُفلت من السّلطة عند الثّورات. ولا يجد الوالي في خدمته إلاّ قوّة عسكريّة محدودة وهي الشّرطة التي عدد مضبوط وبالتّالي لا تُعوّض الجيش أو المقاتلة.

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٩.
(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٨.
(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٧٠.
(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٩.
(٥) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٥٠.
(٦) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٩؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٢، ص٣٣٨.

كان التصدّي للثّورة منقسما إلى أسلوبين: الأسلوب الأوّل وهو الأسلوب «الدبلوماسي» الذي اتّبعه زياد بن أبي سفيان في ثورة حجر بن عديّ، وهو تكليف الأشراف بتثبيط عشائرهم عن المشاركة في هذه الثّورة.

والأسلوب الثّاني هو أسلوب عسكري وهو عقد لواء أي تسخير المقاتلة بقيادة شريف من الأشراف وهو شبث بن ربعي[1].

وشاءت الأقدار أن يكون شبث بن ربعي، من بين الأشراف الذين أرسلوا للحسين بن عليّ يدعونه للقدوم للكوفة. لكنّه غيّر موقفه من أهل البيت والحركة الشّيعيّة وانضمّ إلى الوالي في قمعه لهذه الحركة.

التفّ الأشراف حول الوالي للقضاء على هذه الثّورة. فعندما اجتمع النّاس لابن عقيل أمام القصر وبالمسجد وفي السّوق. فدخل الأشراف إلى القصر من باب لم يكن في الواجهة (أي لا يراه الثوّار)، وهو الباب الذي يلي دار الرّوميّين.

لكنّ هذا يطرح علينا تساؤلات حول مدى مراقبة الثوّار للقصر ومحاصرتهم له. وكان كلّ من بالقصر من أشراف وشرط وحشم وموالي ينظرون للثوّار من أعلى القصر ـ ربّما للتأكّد من حقيقة الثّورة وعدد الثوّار ـ وكانوا خائفين أن يُضربوا بالحجارة[2].

وعندما أحسّ الوالي بخطورة الوضع، كلّف الأشراف بمهمّة تخذيل عشائرهم عن ابن عقيل.

تثبيط الأشراف لعشائرهم

كان هذا العمل عملا أساسيّا وهامّا في إيقاف الثّورة والقضاء عليها لأنّه متعلّق بطبيعة علاقة الأشراف بعشائرهم.

فقد خرج الأشراف لتخذيل النّاس عن ابن عقيل، أسَاسًا كثير بن شهاب بن

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٧٠.
(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٩.

حصين الحارثي من مذحج[١]. فقد دعاه عبيد الله وأمره أن يخرج في من أطاعه من مذحج، فيسير بالكوفة، ويخذّل النّاس عن ابن عقيل، «ويُخوّفهم الحرب، ويُحذّرهم عقوبة السلطان».

وأمر محمد بن الأشعث الكندي أن يخرج فيمن أطاعه من كندة وحضرموت، فيرفع راية أمان لمن جاءه من النّاس[٢]. كما كلّف بقيّة الأشراف بتخذيل عشائرهم عن ابن عقيل وهم شبث بن ربعيّ التّميمي وشمر بن ذي الجوشن العامريّ[٣] وحجّار بن أبجر العجليّ والقعقاع بن شور الذهليّ[٤]. وكان هؤلاء الأشراف من أشراف الكوفة الذين شهدوا ضدّ حجر بن عديّ. لقد خصّ الوالي هذين الشّريفين اليمنيّين بهذه المهمّة ـ وأساساً كثير بن شهاب بن حصين الحارثي لأنّ معظم الثّائرين مع مسلم بن عقيل هم من عشيرة هانئ بن عروة، من مراد. فأراد الوالي أن يكسّر هذا التّحالف العشائري مع الشّيعة بواسطة سلطة شريف آخر من نفس العشيرة.

كما كان كثير بن حصين من الشّهود ضدّ حجر بن عديّ[٥]. وكان من رسل زياد الذين رافقوا الشيعة أي حجر وأصحابه ليرى فيهم معاوية رأيه[٦].

وكان أمر الوالي لهذا الشّريف يتمثّل في تخذيل النّاس عن ابن عقيل وتخويفهم

---

(١) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٦٩؛ ابن سعد، *مصدر مذكور*، ج٦، ص١٩٦: «كثير بن شهاب بن الحُصين ذي الغُصّة، سُمّي بذلك لغصّة كانت في حلقه. و كان كثير بن شهاب سيّد مذْحِج بالكوفة، و كان بخيلا وقد روى عن عمر بن الخطّاب وولي الرّيّ لمعاوية بن أبي سفيان».

(٢) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٢٦٩.

(٣) هشام جعيط، *نشأة المدينة العربيّة الإسلاميّة الكوفة*، ص٢٤٤: ينتمي لقيس وهي تحتلّ المرتبة الثّالثة في الكوفة بعد القبائل اليمنيّة ومضر (أي تميم وعبس وضبّة).
ابن حزم، *مصدر مذكور*، ص٢٨٧: «من بني الضّباب بن كلاب بن ربيعة (من بني عامر). ومنهم قاتل الحسين ـ رضي الله عنه ـ شمِر بن ذي الجوْشَن؛ ابن دريد، *مصدر مذكور*، ص٢٩٧.

(٤) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٢٦٩ ـ ٢٧٠؛ ابن حزم، *مصدر مذكور*، ص٣١٩: من شيبان؛ ابن دريد، *مصدر مذكور*، ص٣٥١: من أشراف شيبان.

(٥) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٢٦٩.

(٦) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٢٧٠.

بالحرب بصفة عامّة، وتحذيرهم من عقوبة السّلطة. لكنّ هذه العقوبة عامّة وغير دقيقة. كما شارك اليمنيّون من كندة في الثّورة، وعلى هذا الأساس، أرسل إليهم الوالي محمّد بن الأشعث الذي شهد على حجر بن عديّ لصالح الدولة رغم أنّه شريف من عشيرته[١]. كما كلّف الوالي محمّد بن الأشعث برفع راية أمان لمن جاءه من النّاس. فماذا تمثّل راية الأمان هل هي راية الأمان في الحرب أم أنّه الأمان بالمعنى العربي الانتروبولوجي؟

كانت سلطة عبيد الله بن زياد ـ رغم محاصرتها من قبل الثوّار ـ سلطة متحرّكة ونشطة بما أنّها لم تُشَلَّ عن الحركة، ولم تتوقّف عن إيجاد حلول إيجابيّة لإنقاذ السّلطة. كما أنّ أشراف النّاس أساسا مذحج وكندة (أي من اليمنيّن) كانوا موالين ولاء تامّا للدولة. وهو ما أعطى للسّلطة دفعا قويّا رغم الحصار. لكن رغم ذلك، أحسّ الوالي بوحشة كبيرة لقلّة من معه من النّاس، فأبقى بقيّة الأشراف معه في القصر.

المهمّ أنّ الأشراف امتثلوا لأمر عبيد الله بن زياد وساروا في الكوفة يخذّلون عشائرهم عن ابن عقيل وعن الحسين بن عليّ[٢]. لكنّ هذا الخروج للأشراف لم يُفد، ولم يأت أكله.

فأمرهم عبيد الله بن زياد من جديد بأن يشرفوا على النّاس من القصر حيث تحصنوا فمنّوا المطيعين للدّولة الزّيادة في العطاء، وخوّفوا العاصين للسّلطة الحرمان من العطاء، ومجيء أهل الشام أو جنود الخليفة يزيد والتّفريق في مغازي أهل الشام[٣].

وقد لعب كثير بن شهاب ـ سيّد مذحج ـ دورا هامّا في هذا التّخويف للنّاس حيث تكلّم أوّل شريف في قائمة الأشراف. ثمّ تلاه بقيّة الأشراف.

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٢٦٣.

(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٣٨.

(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٥٠ ـ ٣٧٠ ـ ٣٧١؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٣٨.

وقد نقل لنا هذا الخبر شاهد عيان وهو عبد الله بن خازم الكثيّري من الأزد[1] (أحد رجال الشّيعة أو رجال ابن عقيل).

ونجح هذا الخطاب الإيديولوجي نجاحا باهرا حيث انفضّ النّاس عن مسلم بن عقيل وخذلوه وتفرّقوا عنه، بعد سماع هذه الخطب من قبل الأشراف.

نلاحظ أهميّة الأشراف في عشائرهم، فهم لديهم تأثير أدبيّ ونفسانيّ كبير. فالتّخويف بالحرمان من العطاء والأرزاق، كان ناجعا إلى أبعد الحدود لأنّه يعني تجويع المقاتلة وذراريّهم.

كما أنّ التّخويف بقدوم جند الشّام كان عاملا هامّا وأساسيّا وهو يعني احتلال جند الشّام للكوفة. وهو يذكّرهم بشبح الفتنة الأولى في صراعهم إلى جانب عليّ، وضدّ معاوية.

وهذا يدخل في إطار إقليميّة الدولة الأمويّة وهذا عنصر من عناصر الإيديولوجيا الأمويّة[2]. فقد اعتمد الخليفة معاوية بن أبي سفيان على قبائل الشّام كقاعدة اجتماعيّة وعسكريّة لحكمه لتميّزهم بالطّاعة دون سائر المقاتلة. واعتمد عليهم الخليفة يزيد بن معاوية لإخماد الثورات في الحجاز، فقضوا على ثورة أهل المدينة. كما أرسل جند الشّام لابن الزّبير لمكّة في محاولة للقضاء على ثورته. وتطوّرت هذه الإقليميّة الشاميّة إلى حدّ الاحتلال العسكري لولايات أخرى. فقد أقرّ الحجّاج بن يوسف الثّقفي جند الشام بواسط التي أسّست بعد ثورة ابن الأشعث (أي بين سنة ٨٣ و ٨٤هـ/ ٧٠٢ ـ ٧٠٣م) لتجريد الكوفة والبصرة من القوّة العسكريّة ومراقبة أهل العراق بعد ثورة ابن الأشعث.

فهي «ثمرة لإرادة السّلطة الأموية في العراق في التخلّي عن البيئة العربيّة المحيطة به، وإنشاء مقرّ للحكم والاحتلال أو نحوه، في محيط معاد»[3].

---

(١) ابن حزم، *مصدر مذكور*، ص٣٧٧؛ الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٧٠.

(٢) بثينة بن حسين، *مرجع مذكور*، ص٣٣٢.

(٣) هشام جعيط، *نشأة المدينة العربية الإسلاميّة*، ص٣٣١.

كما استمرّ العمل النّفساني لإحباط الثّورة، إضافة لتهديد الأشراف. فقد هدّد الرّجال أبنائهم، وهدّدت الأمّهات أبنائهنّ، أو إخوتهنّ. وارتكز هذا التّهديد على التّخويف من قدوم أهل الشّام. ونجحت روابط القرابة والرّحم في تثبيط النّاس عن الحركة الشّيعيّة، وتفرّق النّاس عنها. وفشلت الثّورة بسبب هذه الإيديولوجيا المركزيّة للدّولة الأمويّة.

لكن هل اقتصر الوالي على المجهود الإيديولوجي والاجتماعي والاقتصادي للقضاء على الثّورة؟ أم أنّ السّلطة لجأت للعمل العسكري للقضاء على هذه الثّورة؟

محاربة الأشراف للثوّار من الشّيعة

أمر عبيد الله بن زياد الأشراف بتخذيل عشائرهم عن المشاركة مع ابن عقيل في ثورته. يتمثّل «المجهود العسكري» للأشراف في القضاء على محاولات الانضمام لجيش ابن عقيل داخل عشائرهم.

فقد وجد كثير بن شهاب رجلا من كلب[١]، يدعى عبد الأعلى بن يزيد. وقد كان لابسا سلاحه ويريد الالتحاق بابن عقيل في بني فتيان. فأدخله الشّريف على ابن زياد، فحبسه في القصر.

وقبض محمد بن الأشعث على عُمارة بن صلْخب الأزدي[٢]، وهو من بني عمارة بطن من الأزد، و كان لابسا سلاحه مستعدّا للالتحاق بابن عقيل. فقبض عليه وأرسله إلى ابن زياد.

منع الأشراف رجلين مسلّحين، أحدهما كان في جماعة، من الالتحاق بابن عقيل وتقوية ثورته وحُبسا عقابا لهما في القصر. ويبدو هذا العدد قليلا، لكنّه يبيّن مدى مساهمة الأشراف في القضاء على ثورة ابن عقيل.

يبدو أنّ السّلطة هي دائما ردعيّة وقمعيّة. وكان السجن محطّة ضروريّة لبعض «العصاة» في هذه الثّورة كهانئ بن عروة وذلك قبل قتلهم.

---

(١) ابن حزم، مصدر مذكور، ص٢٥١ ـ ٢٥٦.

(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٢٧٠؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٢، ص٣٤١.

ولم يستطع ابن الأشعث أن يقاتل عبد الرحمن بن شُريح الشّبامي الذي أرسله له ابن عقيل[1]. فقد كان ابن الأشعث في قلّة من رجاله. بينما كان عبد الرحمن بن شُريح الشّبامي في عدد هامّ من المقاتلة المتشيّعين. ممّا دفع بابن الأشعث للتّقهقر والتّراجع.

ذكر الطّبري أنّ العشائر اجتمعت بفضل مجهود أشرافها كثير بن شهاب ومحمد بن الأشعث والقعقاع بن شور (ولم يذكر بقيّة الأشراف وعشائرهم) إلى ابن زياد في القصر. لكنّ الرّواية لم تذكر كم تجمّع من أفراد العشائر لدى الوالي في القصر. وقد دخلوا من الباب الذي يلي دار الرّوميّين[2].

ونحن دائما نطرح التساؤل كيف كانوا يدخلون للقصر وهو محاصر من الثوّار؟ وكيف لم يتعرّضوا لهم؟ وقد نصح الأشراف الثّلاثة ـ وهم من مستشاري أو ناصحي ابن زياد[3] ـ الوالي أن يخرج لمحاربة ابن عقيل لتجمّع عدد كبير من النّاس معه في القصر (الأشراف والعشائر والشّرط وأهل بيت الوالي ومواليه). لكنّ عبيد الله رفض.

ما هو سبب هذا الرّفض؟ هل تخوّف عبيد الله من ويلات القتال في الكوفة؟ أم أنّه كان متخوّفا من الهزيمة لعدم معرفة حقيقيّة بهذا التّنظيم الشّيعي؟ لكنّه في نفس الوقت، عقد لواء لشبث بن ربعي. كم كان عدد رجال شبث بن ربعي؟ لم تذكر لنا المصادر ما هو عدد المقاتلة الذين كانوا مع شبث، هل كانت معه عشيرته من تميم؟ أم أنّه كان على رأس عدد كبير من المقاتلة؟

كما يبدو موقف عبيد الله بن زياد متناقضا. فمن ناحية، كان رافضا للقتال والتّعبئة العسكريّة. ومن ناحية أخرى، عقد لشبث بن ربعي. لكنّ المصادر لا تذكر إن قام شبث بن ربعي بمجهود عسكري.

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٧٠.

(٢) هشام جعيط، مرجع مذكور، ص٣٢٠: «أشار البلاذري إلى أنّ المكان الموجود بدار الروميّن في المركز، كان مصبا للزّبال»؛ البلاذري، فتوح، ص٣٩٥.

(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٧٠.

يبدو أنّ الأشراف خاصّة محمّد بن الأشعث وشبث بن ربعي والقعقاع بن شور، حاربوا مسلم بن عقيل وأصحابه عشيّة حصارهم للقصر؛ فاقتتلوا قتالا شديدًا[1]. لكنّ الأشراف لم يتمكّنوا من هزم ابن عقيل، فأشار شبث بن ربعي على أصحابه من الأشراف بانتظار اللّيل فسيتفرّقوا. بينما نادى القعقاع بن شَوْر مسلم قائلا: «إنّك سددت على النّاس وجه مصيرهم، فافرج لهم ينسربوا»[2]. أي أنّه طلب من مسلم أن يفكّ الحصار على القصر ويترك النّاس يتنقّلون بسهولة. كما ذكر راوية آخر هلال بن يساف[3] رواية أخرى مفادها أنّ القتال نشب بين الجيشين الغير متكافئين في العدد.

فقد بقي مسلم بن عقيل في المسجد ـ الجامع في ٥٠ من رجاله بعد أن انفضّ عنه معظم شيعته، وحاربه مقاتلة الوالي المنضوين في أرباع. فانهزم مسلم وجُرح جراحة ثقيلة، وقتل جماعة من أصحابه، وانهزموا، فخرج مسلم لوحده، وذهب إلى دور كندة[4].

تبدو لنا هاتين الرّوايتين ضعيفتين نوعا ما لأنّ عبيد الله بن زياد كان رافضا للقتال ليجنّب الكوفة مرارة ذكريات الفتنة التي ما زالت عالقة بالأذهان. وبالتّالي تبدو فكرة المواجهة العسكريّة بين الجيشين، شيعة ابن عقيل ومقاتلة ابن زياد، تبدو هذه الفكرة بعيدة عن الواقع.

فالقتال في المسجد مستبعد، لأنّ في تلك الفترة ما زالت هناك محافظة على حرمة الأمكنة. كما أنّ هروب مسلم أمام ناظري الوالي والأرباع غير مستساغة ومنطقيّة.

فالوالي قلب ميزان القوى لصالحه بسرعة كبيرة عن طريق التّأثير الأدبي

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٨١.

(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٨١.

(٣) ابن سعد، مصدر مذكور، ج٦، ص٣٠٠: هلال بن يساف الأشجعي «كان ثقة كثير الحديث».

(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٩١؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٢٢ ـ ٤٢٣.

والكارسمي للأشراف. ولم يلجأ للقوّة العسكريّة لأنّها كانت ستخلّف نتائج وخيمة وترجع بالوبال على المصر.

وسرعان ما انقلبت الوضعيّة السياسيّة في الكوفة لصالح الوالي والسّلطة الأمويّة. فيصبح الوالي الخائف والمعزول والمحاصر والأعزل بما أنّه ليس لديه قوّة سلاح ورجال يستند عليهم في محنته أو محنة السّلطة الأمويّة، تتحوّل وضعيّة الوالي من الخوف إلى الثّقة والحزم، ومن الانعزال إلى السّيطرة سيطرة تامّة على الأوضاع.

فشل الثورة الشيعيّة

كان الخطاب الإيديولوجي الذي يرتكز على التّخويف من قدوم أهل الشام خطابا ناجحا بما أنّه مسّ مشاعر ووجدان أهل الكوفة. وكان هذا الخطاب خطابا أبويّا ومؤثّرا بما أنّ الأشراف لعبوا دورا أساسيّا فيه، فتمكّنوا من تأطير عشائرهم. كما كان الوالي بمقدرته السياسيّة وحرصه على فرض سلطة الدولة الموحي بهذه الفكرة للأشراف.

وانقلبت الوضعيّة سريعا من حشد للصّفوف وتجمّع متواصل والتفاف حول مسلم بن عقيل والحسين بن عليّ، وتكبير وإصرار على محاصرة السّلطة الأمويّة إلى خوف من السّلطة وتخاذل عن أهل البيت وعزوف تامّ عن القضيّة الشيعيّة.

فتخلّى أصحاب ابن عقيل عن شعورهم العاطفي وقناعاتهم الإيديولوجيّة، وعوّضوا ذلك بالطّاعة للسّلطة الأمويّة والخوف على مصالحهم الحياتيّة من عطاء ورزق. كما أنّ كبرياءهم كان قويّا ووعيهم بتميّزهم عن غيرهم من الأمصار (كانت عاصمة الخلافة بالكوفة زمن عليّ)، دفعهم لتجنّب قدوم أهل الشّام إليهم. ودخل مسلم بن عقيل في فترة «مأسويّة» من تاريخه «الشّخصي» وتاريخ الحركة الشّيعيّة بالكوفة، ستؤدّي به إلى التشرّد ثمّ القتل من قبل السّلطة.

ماساة مسلم و تشرّده

وتبدأ الرّواية التي ذكرها أبو مخنف في ذكر «مأساة مسلم بن عقيل» بعد خذلان

شيعته له. فكانت هذه الرّواية يشوبها التّعاطف الكبير والأسف والحسرة التي ستؤدّي إلى القضاء المبرم عليه من قبل عبيد الله بن زياد أو استشهاده حسب الشّيعة.

وعلى هذا الأساس، يدخل تشرّد وتضلال مسلم وحده وتفرّق النّاس بهذه الصّفة، يدخل في إطار المأساة العلويّة التي استعملت أسلوبا قصصيّا في الحديث عن هزيمة مسلم وتشرّده. فهو إسقاط حدث في القرون الموالية في القرن الثّاني/ الثّامن الميلادي وأساسا في القرن الثالث/ التّاسع الميلادي حيث حدثت الثّورة الإسماعيليّة الكبرى التي تكثّفت بواسطتها الرمزيّة الدينيّة الشيعيّة[١].

وتفرّق أصحاب ابن عقيل وتصدّعوا[٢] وتسلّلوا عنه[٣]. وما جاءت صلاة المغرب، حتّى لم يجد ابن عقيل إلاّ ٣٠ نفرا معه[٤]. وتبدو رواية عمّار الدّهني غير قريبة من الواقع حيث ذكر أنّ ابن عقيل كان مصحوبا بـ ٥٠٠ شيعي بعد تخويف الأشراف لعشائرهم[٥].

وركّز أبو مخنف على الزمنيّة القصيرة. ففي خلال يوم، سيحسم مصير المسألة الشّيعيّة، فقد خذّل كثير بن شهاب ـ سيّد مذحج ـ المقاتلة أو أنصار ابن عقيل إلى حدود مغيب الشّمس[٦]. وعند صلاة المغرب[٧]، أي بعد مغيب الشمس لم يبق مع مسلم إلاّ ٣٠ نفرا.

ولنا أن نتساءل من هم ٣٠ نفرا الذين كانوا مع مسلم؟ هل هم من النّواة الصّلبة للشّيعة أو من رجال مسلم بن عقيل الذين ظهروا منذ بدء الحركة؟ أين ذهب رجال

---

(١) هشام جعيط، *نشأة المدينة العربيّة الإسلاميّة الكوفة*، ص٣٥٥.
(٢) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٧١؛ البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٢، ص٣٣٨.
(٣) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٥٠.
(٤) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٧١؛ البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٢، ص٣٣٨.
(٥) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٥٠.
(٦) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٧٠.
(٧) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٧١.

مسلم بن عقيل أي مسلم بن عوسجة الأسدي (تلقّى البيعة/ واسطة بين الإمام ابن عقيل والنّاس، وقائد ربع مذحج وأسد في الثّورة)، وأبو ثمامة الصيداوي (مسؤول عن المال وشراء السّلاح، وقائد ربع تميم وهمدان في الثّورة)، وعابس بن أبي شبيب الشاكري (المتكلّم في الاجتماع التّأسيسي للحركة)، وعبد الله بن عمرو بن عزير الكندي (قائد ربع كندة وربيعة في الثّورة)، وعمارة بن عُبيد السّلوليّ (من رسل الشيعة للحسين بن عليّ والمشير على مسلم بن عقيل بقتل عبيد الله بن زياد عند زيارته لشريك بن الأعور الحارثي).

كما ذكرت المصادر عبد الله بن خازم الكثيّري وهو رسول ابن عقيل للقصر للتثبّت من ضرب الوالي لهانئ بن عروة وحبسه له. وعبد الرحمن بن شُريح الشّبامي الذي أرسله ابن عقيل من المسجد لقتال محمد بن الأشعث خارج المسجد.

المهمّ أنّ مسلم بن عقيل وجد نفسه وحيدا في ٣٠ من رجاله، فخرج متوجّها نحو أبواب كندة[١]، وكانت قطيعة كندة قريبة من المركز نحو الجنوب أي قريبة من المسجد ـ الجامع.

لماذا قصد أبواب كندة؟ هل أراد طلب الجوار من محمد بن الأشعث ـ بينما ولاء هذا الشّريف تامّا للسّلطة ولا يمكن التّعويل على إجارته كما يعتبر تشيّع كندة شكليّاً[٢]؟ هل أثّر فيه هول المصيبة والمفاجأة المفجعة أي خذلان أهل الكوفة له فهام على وجهه؟ ربّما كانت هذه الفرضيّة أقرب للواقع.

وعندما بلغ أبواب كندة، وجد نفسه في ١٠ فقط من رجاله. وفي لحظة تفطّن مسلم بن عقيل أنّه وحيدا، فهام على وجهه «يتلدّد في أزقّة الكوفة»[٣]. ويزداد هذا التشرّد وحشة بحلول الظّلام[٤]. وحلّ بابن عقيل محلّ الإحساس بقوّة

---

(١) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٧١؛ البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٢، ص٣٣٩.
(٢) هشام جعيط، *نشأة المدينة العربية الإسلامية الكوفة*، ص٣٨٤.
(٣) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٧١؛ البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٢، ص٣٣٨.
(٤) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٥٠.

الجماعة والمجموعة الإحساس بالوحدة والضّياع. خاصّة أنّه يسهل قمع رجل أعزل وغريب ومنعدم السّند العشائري.

كان تفرّق النّاس عن ابن عقيل مأتاه ضعف التّأطير. فلم يكن هناك برنامج مضبوط للثّورة وخطّة عسكريّة واضحة، وكانوا مدفوعين بالعاطفة. كما أنّهم تعوّدوا على الخوف من الحرب الأهليّة. إضافة إلى ذلك لم يكن مع مسلم أحدا من أهل البيت بل كان وحيدا وربّما يعتبر هذا العامل من بين العوامل المتسبّبة في فشل الثورة الشّيعيّة.

ويرجع أبو مخنف إلى رواية قصّة ابن عقيل أي اختباؤه في بيت امرأة من كندة واكتشاف أمره والقبض عليه، وتبدو هذه الرّواية ذات طابع مسرحي. وتدخل هذه القصّة في إطار الخيال الشيعي الذي تَغذّى بالإحساس بالذّنب لعدم نصرة ابن عقيل والحسين بن عليّ.

فبعد تفرّق أصحابه عنه، انتهى مسلم إلى دور بني جبلة[١] من كندة، فانتهى إلى باب امرأة تدعى طوعة [٢]. وهي أمّ ولد للأشعث بن قيس، فأعتقها فتزوّجها أسيد الحضرميّ فولدت له بلالا، وكان بلال خرج مع النّاس وبقيت أمّه تنتظرهُ. فسلّم عليها ابن عقيل وطلب منها ماءً. فسقته، وطلبت منه الذّهاب إلى أهله، فسكت، فأعادت على مسامعه نفس الطّلب لكنّه سكت. فغضبت المرأة وقالت بأنّه لا يحلّ له الجلوس على بابها[٣]. عندها قال لها مسلم بن عقيل بأنّه ليس لديه منزل أو عشيرة بالمصر، وطلب منها أن تقوم بمعروف تجاهه. ولعلّه يكافئها على صنيعها. وصرّح لها بأنّه مسلم بن عقيل وأنّ أهل الكوفة كذبوه وغرّوه. فأدخلته بيتا آخر غير الذي تسكن فيه. وجاء ابنها ـ وهو كان سكّيرا كما تذكر الرّواية فلاحظ عليها كثرة الدّخول والخروج في البيت، وطلب منها إخباره بهذا الأمر

---

(١) ابن حزم، مصدر مذكور، ص٤٢٥.
(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٧١؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٢، ص٣٣٨.
(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٥٠ ـ ٣٧١.

المريب. فامتنعت في البداية، لكنّها اعترفت له بأنّها أجارت[1] ابن عقيل وحلّفته بأغلظ الأيمان أن لا يُذيع الخبر. لكنّ بلال بن أسيد ـ أي ابن العجوز التي أجارت ابن عقيل ـ أصبح، فقصد عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث فأخبره بمكان ابن عقيل. فأتى هذا الأخير أباه ـ وكان بمجلس ابن زياد ـ فأسرّ إليه بالخبر. فسأله ابن زياد عن محتوى المحادثة بينه وبين ابنه، فأخبره بأنّ ابن عقيل في دار من دور كندة [2]. «فنخس» الوالي جنب محمّد بن الأشعث بالقضيب[3]، وطلب منه إحضاره حالاً.

تطرح هذه الرواية عدّة إشكاليّات. فقد ذكر الابن من قبل الشّيعة على أساس أنّه فاسق وذلك لأنّه كشف سرّ اختباء ابن عقيل في بيت أمّه. كما أنّ هذا الخبر يؤكّد قوّة الرّوابط العشائريّة التي تربط بين أفراد العشيرة وسيّدها وفي هذه الحالة قوّة سلطة محمّد بن الأشعث، من النّاحية الانتروبولوجيّة، يبدو لنا مثالا جديدا في الثّقافة العربيّة وهو إيجار امرأة لمسلم بن عقيل.

ففي العرف، يجير الرجل وخاصّة سيّد العشيرة لكن وضعيّة خذل أهل الكوفة من الرّجال لابن عقيل وتشرّده (فقدان السّند والمنزل)، دفعته إلى طلب حماية امرأة! وقد تفرّد البلاذري بذكر كلمة إجارة.

كما يظهر من خلال هذه الرّواية علاقة الوالي بالأشراف، فقد أخضعهم له لخدمة مصالح الدّولة. فحقّر من شأنهم في بعض الحالات كمسّ ابن الأشعث بالقضيب. ويرمز القضيب هنا إلى عصا السلطة أو عصا الملك. فلم تقتصر رموز السّلطة على الخلفاء فقط بل شملت الولاة وأساسا والي العراق. وقد استعمل هذه الرّموز الملوك البيزنطيّون والفرس وملوك الحيرة والغساسنة [4].

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٧٠ ـ ٣٧١؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٢، ص٣٣٨.
(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٧٣؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٢، ص٣٣٩.
(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٧٣.
(٤) بثينة بن حسين، مرجع مذكور، ص٢٣٤.

فهل كان للوالي رموز أخرى للسّلطة كالخاتم والسّرير مثل الخلفاء في مركز الخلافة؟

المهمّ أنّ الوالي استرجع سلطته منذ انفضاض النّاس على ابن عقيل وبعثوره على مبعوث سيسيطر نهائيًا على الوضع. فكيف تمّ هذا الاسترجاع للسّلطة بالكوفة؟

استرجاع عبيد اللّه بن زياد السلطة بالكوفة

لمّا تفرق أصحاب مسلم بن عقيل عنه، ترقّب ابن زياد ولمّا ضجر من الانتظار، ولم يسمع أصوات أصحاب مسلم بن عقيل كما كان يسمعها. قال لأصحابه بأن يُشرفوا ويتثبّتوا إن بقي أحد منهم. لكنّ أصحاب الوالي أشرفوا فلم يروا أحدا. وأمر أصحابه من الأشراف ومواليه وأهل بيته والشّرط أن يُدلوا القناديل من أعلى القصر في المسجد ليتفقدوه ليلاً. وأمرهم أن يتيقّنوا إن كان الشّيعة كمنوا لهم في زوايا المسجد(١).

وعندما لم يروا شيئاً في الزّاوية التي فيها المنبر، أعلموا ابن زياد، ففتح باب السدّة التي في المسجد (٢). وهو الباب الذي يربط بين القصر وحجرة الصّلاة (٣).

بينما يورد البلاذري رواية أخرى، تبيّن أنّ عبيد الله بن زياد فتح باب القصر، وخرج إلى المجلس وجلس فيه (٤). ولا يذكر دخول عبيد الله بن زياد المسجد وقيامه بكلّ هذه الإجراءات. لكنّ هذا المجلس يبدو غير محدّد مكانه هل هو في القصر أو في المسجد. المهمّ أنّ الوالي ـ حسب رواية أبي مخنف ـ خرج مع أصحابه وصعد المنبر، وأمرهم أن يجلسوا حوله.

= Jean Chevalier, Alain Gheerbrant, *Dictionnaire des symboles*, Robert Laffont, Paris, 1982, p.50;.

Malek Chebel, *Dictionnaire des symboles musulmans*, Albin Michel, Paris, 1995, p.69.

(١) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٧٢؛ هشام جعيط، *نشأة المدينة العربية الإسلامية الكوفة*، ص٣١٩.

(٢) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٧٢.

(٣) هشام جعيط، *مرجع مذكور*، ص٢٢١.

(٤) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٢، ص٣٣٨.

كانت التّشريفات تشمل الجلوس حذو الوالي في المسجد فوق المنبر. وكان الوالي حريصا على تطبيق هذه التّشريفات حتّى في فترات الانتفاضات. كما يندرج إجلاس الوالي للأشراف وأهل بيته ومواليه لإحساسه بالوحشة من جرّاء هذه الانتفاضة.

وتمثّل الإجراء الأوّل الذي قام به الوالي في أمر عمرو بن نافع[1] ـ وهو كاتبه ـ أن ينادي في النّاس: «ألا برئت الذمّة من رجل من الشّرطة والعرفاء والمناكب أو المقاتلة صلّى العتمة إلاّ في المسجد»[2]. فما هي إلاّ ساعة، فامتلأ المسجد بالنّاس.

لماذا كلّف الوالي الكاتب بهذه المهمّة؟ هذا دليل أنّ كتّاب الدّواوين وخاصّة كاتبه الخاصّ كان مرافقا له في الحصار الذي تعرّض له بالقصر. كما أنّ تكليف كاتبه بهذه المهمّة دليل على تطوّر بيروقراطيّة لدى والي العراق لا تقلّ أهميّة عن مثيلتها في مركز الخلافة. ويعتبر هذا الإجراء الذي قام به عبيد الله إجراء هامّا، بما أنّه هدّد بالقتل كلّ من لم يُصلّ في المسجد من الموظّفين في الإدارة وهم العرفاء والمناكب الذين يقومون بدور هامّ على مستوى عشائرهم. أي يسهرون على التّعبئة العسكريّة وعلى توزيع العطاء وعلى التثبّت من الولاء السّياسي لأبناء العشائر.

كما شمل التّهديد الشرطة كجهاز يفرض الأمن في المصر. فقد أسّسها زياد بن أبي سفيان بالبصرة[3]، وبالكوفة أيضا. وكانت الشّرطة مرتبطة بالتّنظيم العسكري وتتمثّل مهمّتها في الحفاظ على الانضباط داخل الجيش[4]. وكانت مهمّتها تنفيذ أوامر الوالي بالمصر، ومطاردة اللّصوص وقطّاع الطّرق والمتمرّدين والثوّار[5].

وشمل التهديد والوعيد المقاتلة كطاقة بشريّة وعسكريّة تخضع في كلّ الحالات ـ

---

(١) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٧٢ ـ ٣٨٠: كان هذا الكاتب أوّل من أطال في الكتب. وقد أملى عليه عبيد الله بن زياد رسالته للخليفة يزيد بن معاوية عندما بعث إليه برأسي ابن عقيل وهانئ بن عروة.

(٢) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٧٢.

(٣) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٢٢٨.

(٤) بثينة بن حسين، *مرجع مذكور*، ص٥٨.

(٥) صالح أحمد العلي، *التنظيمات الاجتماعيّة والاقتصاديّة في البصرة في القرن الأوّل الهجري*، بغداد، ١٩٥٣، ص٩٦.

ورغم انحيازها العاطفي المؤقت لأهل البيت ـ للدّولة. فهم يتسلّمون الأعطيات والأرزاق. وبدونها لا يتسنّى لهم العيش هم وعائلاتهم.

كان هذا الإجراء بمثابة التّعبئة العسكريّة لأهل الكوفة، وإعادة تركيز للسّلطة الأمويّة بعد الثّورة الشّيعيّة الأولى أو الثّورة الأولى لأهل البيت.

كما حرص عبيد الله بن زياد أن يركّز سلطة الدولة في المسجد نفسه الذي حدثت فيه الثّورة. فقبل ساعات كان المقاتلة في صفّ ابن عقيل، فأصبحوا في المساء، عند صلاة العشاء في صفّ الدّولة. فكانت هذه الخطوة الأولى لاسترجاع سيطرة الوالي الكاملة على السّلطة السياسيّة والإداريّة والعسكريّة والثقة في رجوع الأمن من جديد للمصر.

كما كان لعبيد الله ثقة كبيرة في نفسه وشجاعة في مواجهة كلّ القوى الحيّة بالكوفة رغم مُضِيّ بعض ساعات على ثورة مسلم بن عقيل.

لكنّ عبيد الله بن زياد كان على درجة كبيرة من الذّكاء والحنكة السياسيّة والمقدرة وحضور البديهة، والاستبداد السّياسي ليخيف الطّاقات الحيّة في المصر، ويؤطّرها من جديد لصالح الدولة بعد فترة قصيرة جدّا من انتهاء الثّورة. وقد نجح في ذلك نجاحا باهرا حيث أعطى التهديد أكلهُ بسرعة فائقة.

ثمّ نادى مناديه فأقام الصّلاة، وتدخّل الحصين بن تميم التميمي(١) ـ وكان على شرطته ـ فاقترح على الوالي أن ينوبه شخص آخر في الصلاة، ويصلّي هو في القصر، وذلك خوفا من أن يغتاله أعداؤه. لكنّ عبيد الله بن زياد رفض الصّلاة في القصر، وطلب منه أن يأمر الحرّاس بالوقوف وراءه وأن يكون هو أي صاحب الشّرطة مشرفا عليهم(٢).

صلّى الوالي في المقصورة تحت الحراسة المشدّدة. والمقصورة تتمثّل في اتّخاذ

---

(١) ابن حزم، مصدر مذكور، ص٢٢٨: «من بني جُشيش بن مالك من تميم، حصين بن نُمير بن أُسامة. كان على شرطة عبيد الله بن زياد أيّام قتل الحسين.».

(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٧٢.

سياج على المحراب فيحاز وما يليه[1]. وتعتبر المقصورة من شارات الملك الإسلامي. وقد كان معاوية بن أبي سفيان أوّل من اتّخذ المقصورة ـ كعنصر معماري متعلّق بالتّشريفات ـ ليصلّي فيها بعد أن نجا من عمليّة اغتيال من طرف خارجي[2]. كما أسّس زياد بن أبي سفيان المقصورة في المسجد ـ الجامع بالكوفة بعد أن حصبه النّاس[3].

وقد طوّر الأمويّون بذلك ظاهرة الإبعاد بين الخليفة والنّاس في المسجد[4]، وهي ظاهرة جديدة تعبّر عن تطوّر مؤسّسة الخلافة إلى مؤسّسة ملكيّة.

تبدو مؤسّسة الشّرطة مؤسّسة قويّة وساهرة على حراسة خاصّة للوالي وعلى سلامته من الاغتيالات. فكان صاحب الشّرطة يشير على الوالي بالنّصائح الأمنيّة كعدم الصّلاة في المسجد والاقتصار على الصلاة في القصر. وهذا متعلّق بالظرفيّة المتوتّرة النّاجمة عن ثورة ابن عقيل. كما أنّ صاحب الشّرطة مكلّف بالإشراف على الحرس بالمقصورة عند حراستهم للوالي. على هذا الأساس، يبدو صاحب الشّرطة ساهرا على امتثال الحرّاس لأوامر الوالي وحسن قيامهم بمهمّتهم.

وقد كان الخليفة معاوية بن أبي سفيان أوّل من اتّخذ الحرس بعد محاولة اغتيال تعرّض لها من قبل خارجي سنة ٤٠هـ[5]. وتأثّر معاوية بمظاهر الملك البيزنطية من الحرس. وكان الحرس يحرسون الخليفة في القصر أو في تنقّلاته خارجه[6].

وأحدث زياد هذه المؤسّسة في الكوفة متأثّرا بالفرس[7]. فساهموا في خلق

(١) ابن خلدون، *المقدمة*، تونس، ١٩٨٤، ج١، ص٣٢٨.
(٢) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص١٤٩.
(٣) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٢٣٦ ـ ٢٥٦؛ هشام جعيط، *نشأة المدينة العربيّة الإسلاميّة الكوفة*، ص٢١٩؛ بثينة بن حسين، *مرجع مذكور*، ص٢٦٠ ـ ٢٦١.
(٤) بثينة بن حسين، *مرجع مذكور*، ص٢٣٦.
(٥) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٣٠.
(٦) بثينة بن حسين، *مرجع مذكور*، ص٨٨ ـ ٨٩.
(٧) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٢٢٤؛ أرثركريستنسن، *إيران في عهد الساسانيّين*، بيروت، د.ت، ص١٢١ ـ ٣٧٩.

تشريفات معيّنة لدى والي الكوفة[1].

طوّر عبيد الله بن زياد التّشريفات المتعلّقة بحراسته معتمدا على تجربة زياد. كما ساهم في تطوّر ظاهرة التشريفات والإبعاد بين الوالي والنّاس خاصّة بعد وقوع هذه الثّورة الشّيعيّة.

وبعد أن صلّى الوالي خطب خطبة بيّن فيها أنّ ابن عقيل سفيه[2] وجاهل[3]. وقد اتّبع الخلاف والشّقاق. وتهدّد عبيد الله بن زياد بالقتل من يأويه في داره. ومن جاء به للوالي فله ديّته. وأخيرًا، نصح عبيد الله بن زياد النّاس بتقوى الله ولزوم الطاعة والبيعة[4].

بدأ عبيد الله بن زياد في هذه الخطبة سياسة جديدة ترتكز على رفع الحُرمة على أهل البيت. فابن عقيل هو معارض خطير للدّولة، شقّ عصا الطّاعة لجهالته. وتهدّد من يأويه في داره بالقتل، كما أنّ من يُحضره للوالي له ديّته. وبالتّالي فإنّ ابن عقيل، ككلّ عاصٍ للدولة، سيُطبَّقُ عليه العقاب. ومن يساعده أيضا يعرّض نفسه لعقاب السّلطة. كما ابتدع عبيد الله بن زياد طريقة جديدة في العقاب وهي منح ديّة ابن عقيل لمن يُحضره.

فالديّة تُدفع بعد حصول جريمة قتل إلى أهل المقتول. لكنّ ابن عقيل عوقب قبل قتله بدفع الوالي ديّته لمن يقبض عليه. فهو مجرّد من الأواصر العشائريّة، ومقتول قبل حدوث عمليّة القتل. وهذا يعتبر إحياء للتّقاليد الجاهليّة، وتركيز لنوع جديد من العنف السّياسي ضدّ المعارضة. كما ركّز الوالي من جديد إيديولوجيا الطّاعة كعنصر أساسي في الإيديولوجيا الأمويّة. فقد أكّد الأمويّون على الطّاعة لضعف شرعيّتهم التّاريخيّة وانقسام الأمّة مع الفتنة ووجود بذور فتن[5].

---

(١) بثينة بن حسين، مرجع مذكور، ص٩٦.

(٢) ابن منظور، معجم مذكور، ج٢، ص١٦٠ : السفيه: الجاهل. سفِه فلان رأيه إذا جهله وكان رأيه مضطربا.

(٣) ابن منظور، معجم مذكور، ج١، ص٥٢٤ : الجهل ضدّ العقل.

(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٧٢.

(٥) بثينة بن حسين، مرجع مذكور، ص٣١٤.

كما أنّ تمسّك مقاتلة الكوفة بالبيعة للخليفة يزيد بن معاوية، كان شرطا ضروريّا لوحدة الأمّة.

إضافة إلى ذلك، اتّخذ الوالي إجراءات قمعيّة وأمنيّة للقبض على ابن عقيل. فأمر الحصين بن تميم ـ صاحب شرطته ـ بمراقبة السّكك[1]، ووضع الشّرط في أفواه السّكك (أي نقط الدخول للطرق الرئيسيّة) يرصدون ابن عقيل. وهذا دليل على أنّ التحكّم في أفواه السكك كان عنصرا أوليّا فعّالا للدّفاع. فقد ذكر الأستاذ هشام جعيّط أنّه لا يوجد أيّ جهاز تحصيني بهذه المداخل كالأبراج[2]. على هذا الأساس، كان على الشّرط أو المقاتلة أن يكمنوا بمداخل السكك. كما أنّه أطلق يدي صاحب الشّرطة للدّخول بقوّاته العسكريّة لبيوت الكوفيّين وتفتيشها حتّى يجدوا ابن عقيل.

تعتبر هذه الإجراءات على غاية كبيرة من العنف السّياسي الذي طُبّق لأوّل مرّة في تاريخ الدّولة الأمويّة. فقد فتح باب انتهاك حرمة البيوت أو الدّور، أي اخترق حرمة العائلات والأشخاص باستباحة دورهم. وهذا ما سيحدث في ما بعد في واقعة الحرّة عندما استبيحت دور أهل المدينة من قبل مسلم بن عقبة المرّي وأهل الشّام. لكنّنا لا ندري إن كان هذا العسف الذي اتّخذه الوالي يشمل إضافة لتفتيش بيوت أهل الكوفة تقتيلا لهم. فمن الممكن أنّ هؤلاء المقاتلة والشّرط استعملوا عنفا خفيفا ليعبّروا عن هيبة الدّولة. كما أنّ أبا مخنف لا يُوفّر لنا معلومات عن عدد هذه القوّة العسكريّة التي سخّرها لتفتيش بيوت الكوفيّن. ونرجّح أن يكونوا من المقاتلة والشّرط لأنّه لا يُعقل أن يقمعوا ابن عقيل، غداة انتفاضة الكوفيين، دون اللّجوء لقوّة عسكريّة تشمل المقاتلة والشّرط.

وكلّف الوالي عبيد الله بن زياد عمرو بن حريث المخزومي بمهمّة خلافته في الصّلاة. كما عقد له رايةً. فقد منح الوالي هذا الشّريف مهمّتين، مهمّة دينيّة إمامة

---

(١) ابن منظور، معجم *مذكور*، ج٢، ص١٧٣: السِّكّةُ: الطريق المستوي.

(٢) هشام جعيط، *نشأة المدينة العربيّة الإسلاميّة الكوفة*، ص٢٧٢.

النّاس في الصّلاة، ومهمّة عسكريّة، تتمثّل في مواجهة أيّ انتفاضة في الكوفة. وتبدو هذه المهمّة كأنّها مهمّة مرابطة في المسجد بما أنّ الوالي سيُرسل لعمرو بن حريث من الغد، وهو في المسجد ليُزوّد ابن الأشعث برجال من قيس للقبض على مسلم بن عقيل[1].

وتتمثّل مهمّة المرابطة أو الرّابطة[2] (وهم مجموعة من المقاتلة) في حراسة المسجد ـ الجامع حتّى لا يقوم أهل الكوفة بثورة فيه مثل ثورتهم مع مسلم بن عقيل. لكنّ هذا الإجراء لم يكن الأوّل في تاريخ الأمصار بل اتّخذه زياد بن أبي سفيان في المسجد ـ الجامع بالبصرة وفي هذا يقول الطّبري نقلا عن عمر بن شبّة: «واتّخذ (أي زياد) الحرس رابطة خمسمائة، واستعمل عليهم شَيْبان صاحب مقبرُة شيبان، من بني سعد، فكانوا لا يَبْرَحون المسجد»[3].

استند عبيد الله على تجربة أبيه في البصرة، وركّزها بالكوفة في هذه الظرفيّة حتّى يحمي العصب السّياسي والدّيني للمصر من الثوّار ويضمن سيطرة الدّولة عليه. وكان لعمرو بن حريث تجربة في هذه الوظيفة، بما أنّ زياد عيّنه نائبا له بالكوفة عندما كان يقصد البصرة [4].

كما كان هذا دليل على تخوّف عبيد الله بن زياد من الاغتيال في هذه الفترة الحسّاسة والعصيبة خاصّة أنّه لم يقع القبض بعد على مسلم بن عقيل. وبالتاّلي أصبحت الكوفة تعيش حالة طوارئ نتيجة هذه الثّورة. واشتدّت مركزة السّلطة بيد الوالي عبيد الله بن زياد مع ظهور لوظائف جديدة دينيّة وعسكريّة لمواجهة الثّورة.

نتبيّن من خلال هذه القرارات تصلّب السّلطة وبلوغ العنف السّياسي درجة كبيرة فاقت فترة زياد. فقد تجاوز واخترق الوالي عبيد الله بن زياد حرمة أهل البيت بما

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٧٣.

(٢) ابن منظور، معجم مذكور، ج١، ص١١٠٨: الرّباط والمرابطةُ: ملازمة ثغر العدوّ، وأصله أن يربط كلّ واحد من الفريقين خيله.

(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٢٢٤.

(٤) ابن سعد، مصدر مذكور، ج٦، ص١٠٠.

أنّه حلّل سفك دم ابن عقيل وبالتّالي سيطلق يداه بأمر من الخليفة يزيد بن معاوية في إذلال مسلم لأنّه شقّ عصا الطّاعة.

على هذا الأساس، دعّم عبيد الله بن زياد الإيديولوجيا الأمويّة وقوّى الشرعيّة التّاريخيّة الهشّة للأمويّين بالقضاء قضاء مبرما على ثورة ابن عقيل.

كما يظهر القمع والعنف السّياسي في هتك حرمة بيوت الكوفيّين للبحث عن مسلم بن عقيل. وهو إجراء يضرب على أيدي الكوفيّين الذين يتجرّؤون حماية الشّيعة أو الانضمام إليهم. فتطوّرت الدّولة البوليسيّة تطوّرا هامّا سنة ٦٠هـ بتطوير جهاز الشّرطة وأساليب القمع.

ومباشرة بعد إخماد نيران الانتفاضة الشيعيّة، انتصب عبيد الله بن زياد في الغد في قصره، وأذن للنّاس أساسا الأشراف. فأقبل محمد بن الأشعث الكندي، فاستقبله الوالي بكلّ حفاوة، وأجلسه معه في السرير. وقال له: «مرحباً بمن لا يُسْتَغَشّ ولا يُتّهمُ!»[1]. خصّ عبيد الله بن زياد محمد بن الأشعث بشرف المجلس حيث أجلسه معه في السرير لمكافأته على طاعته للسّلطة الأمويّة. فقد اقترن هذا المعطى المرتبط بالتّشريفات بتراتبيّة مدروسة من قبل الوالي. كما أنّ الشّرف يتطوّر بدرجة ولاء الشّريف والخدمات التي يقدّمها للدّولة، فتحسن منزلته ويرتقي في مرتبة التّشريفات إذا قدّم عربون الولاء للدّولة.

وعندها سيقدم عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بخبر مخبأ ابن عقيل. فكلّف الوالي محمد بن الأشعث بإحضاره. واتّخذ الوالي إجراء جديدًا، فأرسل لعمرو بن حريث خليفته على الصّلاة في المسجد والمكلّف بالقيادة العسكريّة للمقاتلة، فطلب منه أن يبعث مع ابن الأشعث ٦٠ أو ٧٠ رجلا كلّهم من قيس. ولم يُرد أن يُرسِل معه أحدا من قومه «لأنّه قد علم أنّ كلّ قوم يكرهون أن يُصادَفَ فيهم مثل ابن عَقيل»[2].

---

(١) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٧٣.

(٢) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٧٣.

أراد عبيد الله بن زياد أن يقبض على ابن عقيل بواسطة عشيرة أخرى لا تمتّ بصلة إلى كندة حتّى لا يمسّ العصبيّة القبليّة. فلم يكن من كندة إلاّ سيّد العشيرة فقط. كما أنّه كان مُدركا لكره كندة واستهجانها لفكرة وجود مسلم بن عقيل في صفوفها وهو مُعارض غير عادي بما أنّه من أهل البيت. وبعث الوالي مع ابن الأشعث عددا من الأشراف[١]، لم تذكر أسماؤهم ما عدا عمرو بن عبيد الله بن عبَّاس السُّلمي[٢]، أحد أشراف قيس. وبالتّالي واصل الأشراف الدّور الذين قاموا به في قمع هذه الثّورة الشّيعيّة التي تهدّد الأمن والاستقرار بالكوفة، وتضرّ بمصالحهم. وابتدأت بذلك عمليّة القبض على مسلم بن عقيل.

القبض على مسلم بن عقيل

تبدو رواية القبض على مسلم بن عقيل على جانب كبير من المسرحيّة. وهي تدخل في إطار المأساة العلويّة. أتى محمد بن الأشعث في عناصر من بني سليم لخطّة كندة، وعندما سمع وقع حوافر الخيل وأصوات الرجال عرف أنّه قد كُشِف مخباُه، فخرج إليهم بسيفه حتّى أخرجهم من الدّار. ثمّ هجموا عليه من جديد، فاشتبك هو وبُكير بن حمران الأحمريّ وقد كان بُكير «تبيعَ العمّال»[٣]، وأرسله زياد للقبض على أحد أصحاب حجر بن عديّ من الشّيعة.

وضرب بكير بن حمران مسلما على فمه فقطع شفته العليا وأشرع السيف في السفلى فنصلت ثنيّتاه [٤]. وضربه مسلم على رأسه وعلى عاتقه ضربة كادت تقتله. فلمّا لم يقدروا على القبض عليه، أشرفوا عليه من فوق سطح الدّار.

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٢، ص٣٣٩.

(٢) ابن حزم، مصدر مذكور، ص٢٦١.

(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٧؛ ينتمي هذا الشخص للشّرطة. وهو من الحمراء أي العجم الذين سكنوا الكوفة؛ البلاذري، فتوح، ص٣٩٤.

(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٧٣؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٢، ص٣٣٩.

وجعلوا يرمونه بالحجارة[1]، ويلهبون النّار في أطنان القصب، ثمّ يرمونها عليه[2].

فلمّا اشتدّ عليه الحصار، خرج شاهرا سيفه يُقاتلهم في السكّة، فكلّمه محمد بن الأشعث وطمأنه بالأمان. ونصحه بأن لا يقتل نفسه فهو لا يُكذبُ ولا يُخدعُ ولا يُغرُّ. كما أنّ الأمويّين أبناء عمّه فلن يضربوه أو يقتلوهُ.

ثمّ عجز عن القتال، بعد أن أُثْخِن بالحجارة، وأسند ظهره إلى حائط تلك الدّار. فأكّد عليه محمد بن الأشعث من جديد بأنّه آمنٌ، وأجمع بقيّة الأشراف على أنّه آمنٌ ما عدا عمرو بن عبيد الله بن العبّاس السّلمي فإنّه قال: «لا ناقة لي في هذا ولا جَمَل، وتنحّى»[3].

ويستمرّ أبو مخنف في رواية أحداث القبض على مسلم، فبعد أن أعطاه الأشراف الأمان، حُمل على بغلة وأحاطوا به وانتزعوا سيفه منه، وأحسّ ابن عقيل باليأس، ودمعت عيناه وقال: «هذا أوّل الغدر»، وبكى.

فقال له عمرو بن عُبيد الله بن عباس: «إنّ من يطلب مثل الذي تطلب إذا نزل به مثل الذي نزل بك لم يَبْكِ»[4].

فأجابه ابن عقيل بأنّه لا يبكي على نفسه، كما أنّه لا يخاف الموت. لكنّه يبكي لقدوم أهله أي الحسين وآله.

وكلّم ابن الأشعث، فقال له بأنّه سيعجز عن أمانه وطلب منه أن يرسل كتابا للحسين ـ الذي خرج هو و أهل بيته ـ مقبلا على الكوفة، يمنعه على لسانه من المجيء لأنّه سيقتل.

كما بيّن له أنّ أهل الكوفة أصحاب أبيه «الذي كان يتمنّى فراقهم بالموت أو

---

(1) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٢٦٧: استعمل الشّرط الذين أرسلهم زياد للقبض على عبد الله بن خليفة الطّائي الحجارة فشجّه ورموه بالحجارة حتّى سقط لأنّه امتنع عنهم وحاربهم.

(2) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٧٣.

(3) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٧٤.

(4) نفس المصدر.

القتل»[1]، غدروا به وكذبوا عليه. فأقسم محمد بن الأشعث أنّه سيرسل رسولا لهذا الغرض، وسيعلم ابن زياد بأنّه أمّنه. وبالفعل أرسل سيّد كندة رسولا من طيّء، كان شاعرا ويتردّد على ابن الأشعث. ومنحه زادا وجهازا وهدايا لأبنائه[2]!

تبدو هذه الرّواية غير صحيحة ومختلقة من الشّيعة حتّى تؤثّر على النّاس. فمن ناحية، كان مسلم يمثّل الشّجاعة والبأس والمقدرة على القتال وبالتّالي البطولة التي دفعته إلى أن يشهر سيفه في وجوه سبعين رجل مدجّجين بالسّلاح.

ومن ناحية أخرى، استعمل المقاتلة من سليم كلّ أنواع العنف ضدّ رجل واحد كقطع شفتي مسلم تكسير ثنيّتيه، كعنف مبدئي ثمّ الضّرب بالحجارة ورمي أطنان القصب الملتهب. وفي هذا دلالة على بروز عنف جديد أفرزته الفتنة الأولى، لكنّ هذا العنف قام به عمّال الدّولة في هذه الفتنة الثّانية لتركيز السّلطة وفرض الطّاعة وقمع المعارضة بدون اعتبار لحرمة أهل البيت.

لكنّ هذا القتال الذي كان فيه مسلم بن عقيل رجلا أعزل تجاه شرطة ومقاتلة الدّولة، هو تعبير أيضا عن المأساة العلويّة.

كما يبدو مبدأ الأمان كمبدأ أساسي في العلاقات بين النّاس، تُحفظ فيه العلاقات والرّوابط العشائريّة. وهو يدخل في إطار الأنتروبولوجيا التاريخيّة العربيّة.

لكنّ هذا المبدأ الذي يمثّل حرمة للشّخص ضدّ عنف الدّولة اخترقته الدّولة في فترة عبيد الله بن زياد بحرمان هانئ بن عروة من التمتّع به.

كما أنّ ابن الأشعث منح الأمان بينما لم يُنفّذ أمانه[3]. هل كان ابن الأشعث ينافق مسلما حتّى يسلّم نفسه، كما نافقه بقيّة الأشراف وهم يعلمون أنّ عبيد الله بن زياد سيسلّط عليه أقصى درجات العقوبة؟ بينما فهم عمرو بن عبيد الله السّلمي قانون اللّعبة وتطوّر الدّولة القمعيّة والسلطويّة التي أصبح الأمان من مشمولاتها.

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٧٥.

(٢) نفس المصدر.

(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٢، ص٣٣٩..

فهي تلغيه في سبيل فرض سيطرتها وتنفيذ عنف الدّولة. على هذا الأساس لم يُرد أن يُورِّط نفسه.

يبدو أنّ الأشراف اضطلعوا بدور محدّد وهو إحضار مسلم بن عقيل فحسب. ويطرح محمّد بن الأشعث إشكاليّة عدم ضرر الأمويين ـ أبناء عمّ ابن عقيل به ـ. فقد طمأن مسلم بمنحه الأمان وبحرمته نتيجة القرابة التي تربطه بيزيد. لكنّه تحدّث عن مفهوم تقليديّ سيتجاوزه عبيد الله بن زياد لفرض الدولة السلطويّة.

فعبيد الله بن زياد لم يكن ابن عمّ مسلم بن عقيل الحقيقي بما أنّ زياد من ثقيف، وقرابته من أبي سفيان مزعومة. وبالتّالي ليس هناك بين عبيد الله وابن عقيل مشاعر قرابة، فيسهل له إطلاق يده في العقوبة، لذلك استعمل يزيد عبيد الله بن زياد كحاجز بينه و بين ابن عقيل حتّى لا يتحمّل مسؤوليّة قطع الرّحم.

وتصوّر الرّواية مسلما وهو يستسلم لأعدائه وهو على يقين بأنّه غُدر به خاصّة أنّه جُرِّد من سيفه. وهو إجراء شبيه بما سيحدث في ما بعد في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان. فقد أمر الخليفة أن يُجرّد ابن عمّته عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق[١] من سيفه، وكان هذا التّجريد من السّيف بداية لحلقة من حلقات عنف الدّولة[٢] إلى حدّ القتل المبرم[٣]. فالغدر هنا هو مفهوم سياسي بيزنطي وفارسي يهدف لفرض سلطة الدّولة بدون اعتبار للأخلاق.

وفي «غدر» ابن الأشعث أنشد الشّاعر:

وقتلت وافد آل أحمد غيلة وسلبت أسيافًا له ودروعا[٤]

كما دمعت عيناه وبكى، ممّا عرّضه للنّقد اللاّذع لأحد الأشراف وهو عمرو بن

---

(١) الذي قام بعمليّة انقلاب عليه حوالي سنة ٦٩هـ و أمّنه الخليفة، لكنّه سينصب له كمينا في القصر و «يغدر» به و يذبحه ذبحا بنفسه.

(٢) جُمع في جامعة ثمّ كسر عبد الملك ثنيتيه.

(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٦، ص١٤٣.

(٤) البلاذري، مصدر مذكور، ج٢، ص٣٤٢.

عبيد الله بن العبّاس السّلميّ الذي ذكّره في أنّ من يطلب السّلطة ويعارض الدّولة - وفي ذلك قوّة ورباطة جأش - لم يبكِ إذا قُبض عليه.

تبدو هذه النّظرة نظرة تقليديّة للبكاء بما أنّ الرّجل ليس لديه الحقّ في إبراز مشاعره[1]. لكنّ هذا البكاء هو إسقاط لما سيحدث في ما بعد مع الشّيعة الذين كان البكاء وسيلتهم في التّعبير عن حبّهم لأهل البيت.

كما أنّ ابن عقيل كان متخوّفا أشدّ التخوّف من قدوم الحسين وآله لأنّه كان متأكّدا من المصير المؤلم الذي كان بانتظار أهل البيت.

ويظهر من خلال هذا الحوار بين المقتول، وهو ابن عقيل، وقتلتِه، أي الأشراف، ممثّلي الدولة، أنّ المقتول كان واثقا من مصيره أي عجز ابن الأشعث عن منحه الأمان وقتل الوالي له.

ومن جانب القتلة، حاول ابن الأشعث أن يلمّع صورته فنفّذ رجاء ابن عقيل بإرسال رسول للحسين يعلمه بفشل مهمّته وغدر أهل الكوفة به. ويستحثّه على عدم القدوم. كما تعهّد بأن يُخبر ابن زياد بأنّه أمّنه. لم يُرسل ابن الأشعث رسولا من كندة و في هذا حرص على عدم توريط نفسه مع الوالي.

المهمّ أنّ الأشراف نجحوا كما في كلّ مرّة على القضاء على «بذور الفتنة» بالقبض على ابن عقيل - قائد الحركة الشّيعيّة الأولى وممثّل أهل البيت -.

المواجهة مع الوالي والقتل

وتتواصل رواية أبو مخنف بنفس الطّابع المشحون بالمأساة للحديث عن وصول مسلم بن عقيل لباب القصر.

فترك ابن عقيل أمام الباب وطلب الإذن ودخل على الوالي. فأخبره أنّ بكير بن حمران ضرب ابن عقيل، وأنّه منحه الأمان. فأجابه الوالي بأنّه ليس من مشمولاته

---

(1) Anne Vincent-Buffault, *Idem*,p.47.

أن يمنحه الأمان، وأنّه لم يرسله ليؤمنه، إنّما أرسله ليأتيه به. فسكت محمّد بن الأشعث[1].

يبدو من خلال هذه المحادثة بين الوالي ومحمّد بن الأشعث ـ سيّد كندة ـ قبل إدخال ابن عقيل على الوالي، أنّ هذا الأخير حدّد صلوحيّات الوالي. وبالتآلي جرّد ابن الأشعث من حقّ منح الأمان ـ الذي كانت تخوّله مرتبته كسيّد. وأصبح النّفوذ السّياسي للوالي يخترق نفوذ الأشراف الذين أصبحوا مجرّد موظّفين لدى الدولة، ينفّذون الأوامر، ولا يُبادرون إلى اتّخاذ قرارات بمفردهم. كما أنّ سكوت السيّد علامة على امتثاله لقانون اللّعبة السياسيّة.

وقد وصل ابن عقيل لباب القصر وهو عطشان، وعلى الباب ناس جلوس ينتظرون الإذن. وهم ناس من الأشراف منهم عمارة بن عقبة بن أبي مُعيْط، وعمرو بن حُريث، ومسلم بن عمرو، وكثير بن شهاب. وقد وجد ابن عقيل قلّة باردة موضوعة على باب القصر. فطلب منهم أن يسقوه من ذلك الماء. فردّ عليه مسلم بن عمرو بأنّه لن يذوق من ذلك الماء البارد حتّى يذوق الحميم في نار جهنّم. فسأله ابن عقيل عن هويّته القبليّة، فأجابه مسلم بن عمرو بأنّه «ابن من عرف الحقّ إذا أنكرتَه، ونصح لإمامه إذ غششتَه، وسمع وأطاع إذ عصيتَه وخالفتَ، أنا مسلم بن عمرو الباهليّ». فدعا عليه ابن عقيل بالخلود في نار جهنّم لشدّة قسوته.

إنّ العطش وأساسا محاولة منع ابن عقيل من أن يشرب هو تذكير بإيديولوجيا القصاص لعثمان[2].

فقد حاول بعض الأشراف «الجفاة» كمسلم بن عمرو الباهليّ أن يمنعوه من

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٧٥.

(٢) بثينة بن حسين، مرجع مذكور، ص٢٨٨ ـ ٢٩٠؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٦، ص٢٠١: رؤيا عثمان قبل مقتله «رأيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في هذه االلّيلة فقال لي: «أعطشوك؟ قلت: نعم، قال: أعطشوك؟ قلت: نعم، قال: فأدلى لي دلوا فشربت منها حتّى رويت فإنّي لأجد برد الماء بين ثديّ وكتفيّ».

الشّراب كما مُنع عثمان من الماء. وقد اتّهم الأمويّون عليّا بذلك. ووجد مسلم بن عمرو الباهليّ الفرصة سانحة للقصاص من ابن أخ عليّ أي مسلم بن عقيل بن أبي طالب.

كما أنّ مسلم بن عمرو اعتبر ابن عقيل عاصيا وغاشّا ومخالفا لإمامه وناكرا للحقّ. بينما هو كان مطيعا لإمامه وسامعا له. على هذا الأساس، ركّز مسلم بن عمرو إيديولوجيا الطّاعة. وكان مسلم بن عمرو من قيس وهو يتميّز بنوع من الفظاظة. كما أنّه يعبّر عن فئة من الخاصّة المرتبطة ارتباطا عضويّا بالدّولة الأمويّة. ولعلّ هذا إسقاط للصّراع بين اليمنيّة والقيسيّة الذي سيحدث في فترة لاحقة ابتداء من فترة الخليفة سليمان بن عبد الملك[١].

بينما لم يهاجم بقيّة الأشراف لفظيّا ابن عقيل، وهذا دليل على احترامهم لأهل البيت واستحيائهم من تجريحه لفظيّا رغم أنّهم موالين موالاة تامّة للدّولة. وسارع أحدهم إمّا عمارة بن عقبة (من قريش وابن عمّ ابن عقيل) أو عمرو بن حريث المخزوميّ لمناداة غلام له جاء بماء في قلّة ومعها قدح.

وتزداد الرّواية مأسويّة، كلّما اقترب موعد التقاء مسلم بن عقيل بعبيد الله بن زياد، فقد قُدّم لمسلم بن عقيل القدح فيه ماء ليشرب، فكان كلّما شرب امتلأ القدح دماً. وفي المرّة الثّالثة، سقطت ثنيّتاه في الكأس عندما شرب[٢].

فكأنّ الدّم الذي كان يجري من فم مسلم المجروح، يوحي بالدّم المسفوح في ما بعد بضرب عنقه من قبل الوالي.

كانت المقابلة مع ابن زياد مقسّمة إلى قسمين: قسم أوّل هو عبارة عن «سبر» لأغوار الوالي إن صحّ التّعبير. أي ما هو القرار الذي حكم به الوالي في شأنه. وعندما تأكّد أنّه سيقتله، حرص على «ترك وصيّته». وفي القسم الثّاني من المقابلة، تمّت المواجهة بين الوالي وابن عقيل المعارض.

---

(١) بثينة بن حسين، مرجع مذكور، ص٣٣٣.
(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٧٦.

يبتدئ القسم الأوّل من المقابلة بدخول مسلم بن عقيل لمجلس الوالي. فلم يُسلّم عليه بالإمرة، فسأله الحارس أن يسلّم على الأمير. لكنّ ابن عقيل أجاب بأنّه إن كان الأمير يُريد قتله لن يسلّم عليه. وإن لم يُرد الأمير قتله سلّم عليه. فأكّد عليه عبيد الله بن زياد أنّه سيُقتل.

عندئذ طلب مسلم من الوالي «أن يوصِ إلى بعض قومه»[1]. فنظر إلى جلساء عبيد الله بن زياد فوجد في جلساء عبيد الله بن زياد، عمر بن سعد بن أبي وقّاص[2]، فقال له بأنّ بينهما قرابة، وأنّ له حاجة سيُبلّغها له لأنّه سرٌّ. لكنّ عمر بن سعد رفض أن يمكّنه من الإدلاء بها. وفي هذا دلالة على ارتباطه ارتباطا عضويّا بالدّولة الأمويّة، وتخوّفه من التورّط مع معارض لها. لكن تدخّل الوالي ليخفّف على الشّريف القرشي حيرته والمأزق الذي وُضع فيه، فطلب منه أن ينظر في حاجة ابن عمّه. فقام معه وجلس حيث ينظر إليهما الوالي. عندها أدلى مسلم بن عقيل بوصيّته وهي تتمثّل في قضاء دين استدانه عندما قدم الكوفة، سبعمائة درهم، ويستوهب جثّته من ابن زياد فيواريها. ويبعث للحسين من يردّه لأنّه كتب إليه أنّ النّاس معه، وهو بدون شكّ مقبل[3].

فأعاد عمر بن سعد على مسامع الوالي ما ذكره له ابن عقيل. فأجابه عبيد الله بن زياد بأنّ ماله حرّ فيه، وإنّ الحسين إن لم يُردْهم لم يريدوه، وأنّ جثّته «فإنّا لا نشفّعك فيها، إنّه ليس بأهل منّا لذلك، قد جاهَدَنا وخالفَنا، وجهَد على هلاكنا»[4]. ولم يُجب ابن عقيل الوالي!

نلاحظ من خلال هذا القسم الأوّل من المقابلة، أنّ مسلم لم يكن يعترف بالشرعيّة التّاريخيّة الأمويّة، على هذا الأساس لم يُسلّم على عبيد الله بن زياد بالإمرة.

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٧٦.

(٢) مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص٢٦٤ ـ ٢٦٥ وهو من بني زُهرة بن كلاب من قريش، وابن سعد بن أبي وقّاص الصّحابي.

(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٧٦ ـ ٣٧٧.

(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٧٧.

و ترك مسلم بن عقيل وصيّة[١] مثل كلّ شخص يحسّ بدنوّ أجله.

و كان الشّخص الذي تلقّى الوصيّة وطبّقها من عشيرة أو قبيلة ابن عقيل (وهو عمر بن سعد بن أبي وقّاص)، لكنّه من شيعة الدّولة الأمويّة، ومن أشراف الكوفة الحريصين على المحافظة على امتيازاتهم في كنف النّظام الأموي. كما تصدّعت العلاقات داخل قريش من جديد مثل ما حدث في الفتنة الأولى نتيجة التطوّر السّياسي (ومن هنا جاء رفض عمر بن سعد أن يكون القائم على وصيّة ابن عقيل). وظهرت فئة في قريش موالية للأمويّين على حساب أهل البيت أي بني هاشم من عشيرة الرّسول.

كما بيّنت وصيّة مسلم أنّه لم يكن على درجة من الثّراء فاستدان. وربّما يرجع ذلك أساسا لسرعة اتّخاذ الحسين بن عليّ لقرار رحيله للكوفة، فلم يكن لديه مال كثير. ويتمثّل الجزء الثّاني من الوصيّة في طلب جثّته من الوالي ـ بما أنّه ابن عمّه ـ ليواريها. وهذا المعطى هو معطى انتروبولوجي هامّ وأساسي في الموت لأنّ الميّت يُكرم بالدّفن منذ غابر العصور «فمن لا يدفن تبقى روحه هائمة لا تعرف طعم الرّاحة»[٢]. كما نصّ القرآن والسنّة [٣] على ضرورة الدّفن.

ويتمثّل الجزء الثّالث من الوصيّة في إرسال رسالة للحسين بن عليّ حتّى يرجع. وهنا يظهر تخوّف ابن عقيل من مقتل آل بيته.

وأجاب الوالي ابن عقيل فيما يخصّ الحسين بأنّه لن يبدأ بقتاله إذا هو لم يثُر على الدولة. لكنّ هذا القول غير صحيح وهو تمويه من قبل ابن زياد وإخفاء

---

(١) البخاري، مصدر مذكور، ج٤، ص٢: «قولُ النبيّ وصيّة الرجل مكتوبة عندَهُ»؛ البقرة ٢ / ١٨٠ ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾.

(2) Jean Anouilh, *Antigone*,la table ronde, Paris,2008,p.65-66.

(٣) عبس ٨٠/ ٢١ ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴿١٩﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾﴾.

مسلم، صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت، ص٦٦٥: «. أنّ سعد بن أبي وقّاص قال لي في مرضه الذي هلك فيه: الحدوا لي لحدا. وانصِبوا عليَّ اللّبن نصْبًا. كما صُنع برسول الله صلّى الله صلّى الله عليه وسلّم».

لمخطّطاته الحقيقيّة وهي القضاء قضاء مبرما على الحسين بن عليّ وآله.

وقد حطّم ابن زياد انتروبولوجيّة الموت والدّفن والعادات العربيّة القديمة (وهب الجثّة للقريب)، ليحُلّ محلّها عنف الدّولة في العقاب حتّى بعد موت المعارض. فهذا الأخير لا توهب جثّته لأهله لأنّه شقّ عصا الطّاعة، وخرج عن الجماعة. وعتّم عبيد الله بن زياد بذلك على القرآن والسنّة بتصميمه على عدم مواراة جثّة ابن عقيل بعد قتله.

ثمّ ابتدأ القسم الثّاني من المقابلة بين الوالي وابن عقيل وهو عبارة عن محاكمة ابن زياد لابن عقيل ـ المعارض للدّولة ـ ودفاع عن إيديولوجيا الدّولة الأمويّة.

وفي نفس الوقت، حرص ابن عقيل على الدّفاع عن المطالب الدينيّة والسياسيّة لأهل البيت التي تتعارض مع الملك الأموي. وهي عبارة عن محاورات بين الخصمين.

وابتدأ ابن زياد محاكمته لابن عقيل فقال له بأنّه أتى لتشتيت أمر النّاس وتفريق كلمتهم وحمل بعضهم على بعض، بعد أن كان أمرهم واحدا، وهم مجتمعون[1].

فأجابه ابن عقيل بأنّ أهل المصر «زعموا»[2] أنّ أباه (أي زياد) قتل خيارهم، وسفك دماءَهم، وعمل فيهم أعمال كسرى وقيصر، فأتيناهم لنأمُر بالعدل وندعو إلى حكم الكتاب. وقال ابن عقيل بأنّه جاء للأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر[3]. فأجابه ابن زياد: «ما أنت وذاك»[4].

كانت التّهمة الأولى الموجّهة لابن عقيل هي زرع بذور الفتنة بشقّ عصا الطّاعة وتفريق الجماعة. وهذا المفهوم هو مفهوم أساسي في إيديولوجيا الدّولة الأمويّة. فقد قضى معاوية على الفتنة بعد تمزّق للضّمير الإسلامي دام سنوات من مقتل عثمان سنة ٣٥هـ/ ٦٥٦م إلى سنة الجماعة ٤١هـ/ ٦٦١م.

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٢، ص٣٤٠؛ الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٧٧.
(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٧٧.
(٣) آل عمران ٣/ ١٠٤ ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾.
(٤) البلاذري، مصدر مذكور، ج٢، ص٣٣٩ ـ ٣٤٠.

وكانت إجابة ابن عقيل بأنّ أهل المصر زعموا، وفي هذا نقد لأهل المصر الذين خذلوه وفي نفس الوقت كانوا يعيبون سياسة زياد وبطشه، كما ذكّر الوالي أنّه جاء باستدعاء من أهل المصر. واتّبع زياد سياسة ملكيّة فارسيّة وبيزنطيّة في التعسّف والديكتاتوريّة. وفي هذا ينقص ابن عقيل من الشرعيّة التّاريخيّة لعبيد الله بن زياد بتذكيره بتعسّف زياد في القتل حيث قتل الشّيعة أي حجر بن عديّ وأصحابه. ومسّ ابن عقيل بذلك الشرعيّة التاريخيّة الأمويّة المنقوصة بالمقارنة مع شرعيّة أهل البيت. وهدّد الإيديولوجيا الأمويّة التي عتّمت على القرآن والسنّة بالتّداعي والسّقوط.

بينما أظهر بكلّ وضوح قوّة إيديولوجيا أهل البيت - الذي ينتمي إليهم ابن عقيل - المستندة على الكتاب أي القرآن، والسنّة التي ركّزها الرّسول - جدّ الحسين - فبدا هذا الصّراع صراعا بين شرعيّتين مختلفتين: شرعيّة الدّولة السياسيّة وشرعيّة أهل البيت الدينيّة. وأغضب هذا الخطاب ابن زياد الذي أدرك هذه المفارقة بين الشرعيّتين.

فأجاب ابن زياد ابن عقيل بنعته بالفاسق وبأنّ ذلك ليس شأنه. وأضاف بأنّهم (أي هو و أبوه) كانوا يعملون بذلك في أهل المصر (أي أعمال كسرى وقيصر) لمّا كان ابن عقيل يشرب الخمر في المدينة.

وتبدو هذه الإجابة استفزازيّة وتحقّر من أهل البيت ومن المدينة كعاصمة سياسيّة ودينيّة للرّسول. فربّما شعُر الوالي بالنّقص تجاه هذه الشرعيّة القويّة لأهل البيت والتي تهدّد السّلطة الأمويّة تهديدا خطيرا. فردّ عليه ابن عقيل بأنّه غير صادق وبأنّه ليس كما ذكر. وأنّ أحقّ من يشرب الخمر منه «من يلَغُ في دماء المسلمين ولَغًا، فيقتل النفس التي حرّم الله قتلَهَا[1]، ويقتُل النفس بغير النفس، ويسفك الدم الحرام، ويقتل على الغضب والعداوة وسوء الظنّ، وهو يلهو ويلعب كأن لم يصنع شيئا»[2].

---

(١) الأنعام ٦/ ١٥١ ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾.

(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٧٧.

وجد ابن عقيل حجّة على ابن زياد فلبّسه تهمة شرب الخمر التي كانت ملتصقة بيزيد وشنّع بها أعداؤه عليه. ولا تُفهم من أبناء الصّحابة على آنّها مظهر من مظاهر التلذّذ بالحكم بل على أساس أنّها فسق مثلها مثل التّقتيل وسفك الدّماء الذي أصبح أمرا عاديّا لدى زياد وابنه متحدّين في ذلك المبادئ القرآنيّة ومعتّمين عليها.

فقد طوّر زياد وابنه الدّولة البوليسيّة والديكتاتوريّة التي تقتل «المسلمين» في سبيل فرض سلطانها. بينما كان أهل البيت يرون في ذلك تحدّيا للقرآن والسنّة. ومن هنا نشأت الفتنة، في هذا الصّراع بين السّياسي والدّيني.

فشتم عبيد الله بن زياد من جديد ابن عقيل بأن قال له يا فاسق. كما ذكر له أنّ نفسه تمنّيه ما جعله الله لأهله (أي الخليفة يزيد بن معاوية)، وقال له: «كأنّك تظنّ أنّ لكم في الأمر شيئاً»[1]. فأجابه ابن عقيل بأنّ ذلك ليس ظنّا بل يقيناً.

رجع عبيد الله بن زياد من جديد لحقّ خليفة الله يزيد بن معاوية الذي أراد انتزاعه ابن عقيل ومن ورائه الحسين بن عليّ. فعاد من جديد لتركيز الإيديولوجيا الأمويّة أي إيديولوجيا المقدرة الإلهيّة. بينما وتّر ابن عقيل أعصاب ابن زياد بشرعيّة حقّ أهل البيت الذي ينحدر مباشرة من رسول الله (الذي لديه ميتا ـ تاريخيّة وشرعيّة تاريخيّة) تكسّر الإيديولوجيا الأمويّة.

واشتدّ التوتّر بين الطّرفين فغضب ابن زياد وتهدّد ابن زياد مسلما بأن يقتله قتلة لم يقتلها أحد في الإسلام [2]. فهذا تهديد لمسلم بالمصير الذي ينتظره بعد لحظات.

فأجابه ابن عقيل: «أما إنك أحقّ منْ أحدث في الإسلام ما لم يكن فيه، أما إنك لا تَدَعُ سوء القِتلة، وقُبح المُثلة، وخُبثَ السيرة، ولؤم الغلبة، ولا أحد من النّاس أحقّ بها منك»[3].

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٧٧.

(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٢، ص٣٤٠؛ الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٧٨.

(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٧٧.

شنّع ابن عقيل صورة الوالي ـ بما أنّه كان سيُقادُ لا محالة للموت ـ الذي بدا متعطّشا للدّماء، ومُمثّلا بالجُثث، ومنتصرا انتصارا ـ ليس له قيمة لدى ابن عقيل ـ لأنّه بُني على الظّلم[1] كمفهوم قرآني.

فشتم عبيد الله بن زياد مسلم بن عقيل فقال له: يا ابن حُلَيّة[2]. فأجابه ابن عقيل: «حُليّة خير من سُمَيّة وأعفّ»[3].

كما يبدو أنّ ابن زياد شتمه و شتم الحسين وعليّا وعقيلا.

يندرج شتم الأمّ في إطار تقليد عربيّ وفي إطار توجّه سياسي وهو تحقير الخصم. بينما يتنزّل شتم الحسين وعليّ وعقيل في إطار الإيديولوجيا الأمويّة التي جعلت من شتم عليّ بن أبي طالب عنصرا لتقوية شرعيّتها التّاريخيّة[4].

فقد حقّر عبيد الله من أمّ مسلم، فعايره مسلم بسميّة، أمّ زياد البغيّ بالمقارنة مع عفّة أمّه هو. وقد أصبحت هذه الشّتيمة العنصر الأساسي في الخطاب السّياسي المعادي للأمويّين، ولزياد وآله. وهي مرتبطة باستلحاق زياد بأبي سفيان أي النّسب المزعوم. وهذا ما دفع بابن زياد أن يكون أوّل وال «طلب المثالب وعُنِي بجمعها ليعارض الناس بمثل ما يقولون فيه»[5].

على هذا الأساس، كان ابن زياد يعاني من مشكلة شرعيّة تاريخيّة شخصيّة وعائليّة شأنه في ذلك شأن الخليفة يزيد بن معاوية. وكان على كلّ منهما أن يدافع عن شرعيّته التّاريخيّة.

وقد أخطأ أبو مخنف في ذكر اسم الوالي فعِوضَ ذكر اسم ابن مرجانة (أي عبيد الله بن زياد)، ذكر ابن سميّة (وهو زياد) [6]. ولعلّ هذا الخلط راجع لاستهجان

---

(١) النساء ٤/ ٣٠ ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾.

(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٢، ص٣٢٧؛ مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص٨٤: أمّ ولد يقال لها عَليَّة، اشتراها عقيل من الشّام.

(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٢، ص٣٤٣.

(٤) بثينة بن حسين، مرجع مذكور، ص٢٧٩.

(٥) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٠٦.

(٦) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٧٧.

وكُره أبو مخنف (وهو شيعيّ) لشتم عليّ والحسين وعقيل.

ثمّ انتهت المُشادّة الكلاميّة الحادّة اللّهجة بين ابن زياد وابن عقيل، والتي أظهرت تباينا إيديولوجيّا واضحا بين الشقّين المتعاديين. وانتقل عبيد الله بن زياد إلى الفصل الأخير من المسرحيّة وهو «إعلان الحكم» على ابن عقيل. ويتمثّل العقاب في الصّعود بابن عقيل فوق القصر وضرب عنقه ثمّ يتبع جسده رأسه. وفي هذا يقول ميشال فوكو إنّ العقاب بالقتل الشّنيع والتّمثيل بالجسد بعد القتل هو دلالة ورمز للسّلطة التي تعاقب[1].

وبذلك بدأ ابن زياد باستعمال العنف السّياسي ضدّ أهل البيت. وسيكون مثالا لعنف الدّولة وتأثّر به الحجّاج بن يوسف في واسط..

وطلب الوالي من الحاضرين (أساسا ابن الأشعث) أن يأتوه بالشّخص الذي ضربه ابن عقيل على عاتقه ورأسه بالسيف. فجاء بكير بن حمران الأحمري لينفّذ قَودَهُ من مسلم. لقد خطّط الوالي لكلّ شيء في سبيل تحقير مسلم وتعنيفه. وطبّق عليه القود[2] أو القصاص.

لكنّ هذا القود هو قود غير متكافئ لأنّ ضربة مسلم لبكير بن حمران لا يُقابِلها القتل الذي سيسلّطُهُ هذا المولى على مسلم.

على هذا الأساس، عتّم عبيد الله بن زياد على القرآن والسنّة[3] بعدم تطبيق القصاص أو القود كما نصّ عليه القرآن، ودعت إليه السنّة. وركّز على العكس من ذلك الإيديولوجيا الأمويّة. فكان المحكوم عليه بالموت يحاول في فرصة أخيرة وفاشلة أن يُقنع قتلته بتسريحه. فكلّم المشاركين في عمليّة القتل (كابن الأشعث) فلامه على منحه الأمان. فلولا أمانه لما استسلم. وبالتّالي غدره به بما أنّ عبيد

---

(1) Foucault, *Idem*, P.44.

(٢) ابن منظور، معجم *مذكور*، ج٣، ص١٨٥: القَوَدُ: قتل النفس بالنفس، القود: القصاص.
المائدة ٥/ ٤٥ ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾.

(٣) بثينة بن حسين، مرجع مذكور، ص٣٢٧.

الله بن زياد رفض منحه الأمان. وحرّضه أن يخفر ذمّته بأن يقوم بسيفه ويخلّصه من القتل. وكلّم القاتل أو المصرّح بالقتل (ابن زياد) فيلومه قائلا أنّه «لو كانت بيني وبينك قرابة لما قتلتني»[1].

فابن عقيل أراد إيقاظ مشاعر وروابط القرابة في نفس ابن زياد لكنّ هذه القرابة مزعومة. لذلك، انعدمت المشاعر لدى ابن زياد. وكان همّه الوحيد تنفيذ العقوبة في أسرع وقت، وتركيز سلطة الدّولة وإيديولوجيّتها.

ويذكّر ابن عقيل بمبادئ وقيم قديمة ومتغلغلة في نفوس العشائر والقبائل العربيّة كالقرابة. لكنّ الدولة الأمويّة اخترقت هذه التّقاليد التي تمنح حصانة للأفراد داخل العشيرة، لتصبح هي المقرّرة الوحيدة في أجساد ومصائر النّاس خاصّة منهم المعارضين لها.

لكن لا أحد كان يسمعه، لأنّ موكب القمع[2] أو موكب التّقتيل قد بدأ! وابتدأ الموكب، واصطفّ القتلة ـ المتفرّجون ليروا المشهد أو ينتظروا نهاية المسرحيّة. فقد اتّخذ ابن زياد عادة جديدة في القتل أو التّعنيف في القتل وهي تتمثّل في ضرب العنق، وإلقاء الرّأس من فوق القصر وإتباع الجسد الرأس. وأصبحت هذه الطريقة في القتل عادة اتّبعها ابن زياد مع كلّ من يُخالف رأيه. «كان ابن زياد إذا غضب على رجل ألقاه من فوق قصر الكوفة، وطَمار[3] كلّ مرتفع»[4]. وربّما كانت هذه العادة عادة فارسيّة في العقاب السّياسي.

وكان قبل أن يقطع رأسه يكبّر ويستغفر ويُصلّي على ملائكة الله ورسوله، وقال: «اللّهم احكم بيننا وبين قوم غرّونا وكذبونا وأذلّونا»[5].

اختلف موكب الموت لدى مسلم بن عقيل عن موكب الموت لدى الدّولة. فابن

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٧٨.

(2) Balandier, *Idem*,p.25.

(٣) ابن منظور، معجم مذكور، ج٢، ص٦١٣: طَمارِ: المكان العالي.

(٤) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤١٠.

(٥) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٧٨.

عقيل حرص على اتّباع طقوس دينيّة. فصلّى على نفسه صلاة الجنازة في غياب من يُصلّي عليه، لأنّه معارض من معارضي الدولة فلا يحقّ إكرامه عند الموت[١]. كما أنّ مسلم لم يغفر لأهل الكوفة تغريرهم بأهل البيت، وكذبهم عليهم، وتذليلهم لهم. المهمّ أنّ صوت مسلم قد خرس أي صوت الشرعيّة الدينيّة لأهل البيت. وانتصرت السّياسة والدّولة والعنف الذي يمثّله الأمويّون.

وبعد القضاء على ابن عقيل، نفّذ عبيد الله بن زياد حكم السّلطة في هانئ بن عروة المرادي. وكلّم محمد بن الأشعث الوالي عبيد الله بن زياد في هانئ بن عروة المرادي أي أنّه طلب منه أن يطلق سراحه ـ وذلك قبل أن يثور مسلم بن عقيل ـ ويندرج هذا الطلب في إطار مكانة هانئ بن عروة في المصر وبيته في العشيرة، كما أنّ قومه (من مراد) علموا بإحضار ابن الأشعث له مع صاحبه. ويقصد ابن الأشعث بصاحبه سيّد فزارة، أسماء بن خارجة الفزاري. ووعده الوالي أن يسرّحه لكنّه رفض أن يفي له بطلبه بعد أن ثار مسلم بن عقيل[٢].

طبّق عبيد الله بن زياد سياسة الخليفة معاوية بن أبي سفيان الذي رفض أن يهب حجر بن عديّ الكندي لابن عمّه وهو أحد أشراف السكّون[٣] بالشّام، مالك بن هبيرة السكّوني. وكانت حجّة معاوية لمالك بعد أن غضب هو وقومه لقتل الخليفة لحجر، بأنّ حجر إن بقي على قيد الحياة سيُعيد حربا ثانية ويُكلّف مالك وأصحابه من كندة البلاء الأكبر. فيجبروا على قتاله، ويُفتح باب الفتنة من جديد على مصراعيه[٤].

كما أنّ حجرا كان من أشراف كندة لكنّ تشيّعه دفع بمعاوية لقتله. وبالتّالي رُفعت «الحصانة» أو الحرمة عن الأشراف منذ قتل حجر. وكان محمّد بن

---

(١) رجاء بن سلامة، *الموت وطقوسه من خلال صحيح البخاري ومسلم*، دار الجنوب للنشر، تونس، ١٩٩٧، ص١١١.

(٢) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٧٨؛ البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٢، ص٣٤٠.

(٣) ابن حزم، *مصدر مذكور*، ص٤٣٠.

(٤) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٢٧٨.

الأشعث متخوّفا من ردّ فعل اليمنيّين وأساسا عشيرة هانئ بن عروة ـ مذحج ـ على تواطؤ سيّد كندة مع السّلطة. لكنّ الوالي لم يكن يهمّه إلاّ مصلحة الدّولة.

فهل تسمّمت العلاقات بين اليمنيّن بالكوفة أي بين كندة ومذحج لتواطؤ سيّد كندة مع الوالي الأموي؟ ربّما كانت هناك ضغائن في نفوس مذحج لكنّها خُزنت في نفوسهم ضدّ عبيد الله بن زياد ـ ممثّل السّلطة الأمويّة ـ وستظهر بعد انفلات الفتنة عند موت الخليفة يزيد بن معاوية. فالتوّابون كان هدفهم الأساسي القصاص للحسين من أهل الشّام وبالأساس عبيد الله بن زياد سنة ٦٤هـ[١]. لكنّهم انهزموا وقتلوا دون طلبهم[٢]. كما كان المختار الثّقفي في ثورته الشيعيّة، فقد أرسل إبراهيم بن الأشتر ليقتصّ للحسين بن عليّ وأهل البيت بالخازر سنة ٦٦هـ[٣].

واستأنف عبيد الله بن زياد سياسة التّصفية الجسديّة التي بدأها مع مسلم بن عقيل، فأمر بهانئ بن عروة فأخرجوه من الحبس. وأمر الوالي أن يُخرجوه إلى السّوق ويضربوا عنقه[٤]، وكان عاري الرأس[٥]. ووصل به قتلته إلى مكان بالسّوق يُباع فيه الغنم وهو مكتوف، فصاح: وامذْحجاه؛ وأين منّي مذْحج!

فأين توجد سوق الغنم؟

بيّن الأستاذ هشام جعيّط أنّه «قد غمض أمر سوق الغنم، عند تدوين الرّواية بخصوص مقتل هانئ بن عروة، علما أنّ ماسينيون حددها بأقصى خطة مذحج». ويرجّح أنّ المنطق الطوبغرافي للأسواق قد يحمله على وضعه خارج المركز لأنّ أسواق الأغنام تقع بأطراف المدينة، وهي بعيدة عن المساحة المركزيّة[٦].

وتستأنف الرّواية ذكر ظروف مقتل هانئ بن عروة. فلمّا رأى هذا الأخير أنّ لا

---

(١) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٥٥٢.
(٢) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٦، ص٦٠٥.
(٣) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٦، ص٤٢٦.
(٤) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٧٩.
(٥) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٢، ص٣٤٠.
(٦) هشام جعيط، *نشأة المدينة العربيّة الإسلاميّة الكوفة*، ص٢٨٩.

أحد من عشيرته ينصره، نزع يده من الكتاف باحثا عن حجر أو عصا أو سكّين يدافع بها عن نفسه. فهجموا عليه وشدّوه وثاقا وهو يتخبّط. وقيل له بأن يمدّ عنقه، فضرب عنقه رشيد ـ مولى لعبيد الله بن زياد ـ تركيّ الأصل.

تسعى الرّواية إلى إبراز سياسة التّحقير التي اتّبعها عبيد الله بن زياد تجاه هذا الشّريف من مذحج. فقد أُخرج إلى القتل عاري الرّأس. وفي هذا دلالة انتروبولوجيّة على أنّ تغطية الرّأس (أو العمامة) من مظاهر الشرف. وكُتّف كالحيوان. وعندما حاول الدّفاع عن نفسه أوثق بشدّة من قبل مجموعة من النّاس أو الموالي الذين يعملون ربّما في شرطة عبيد الله بن زياد. ثمّ ضُربت عنقه بكلّ برودة. ضُرب رأسه بسوق الغنم تحقيرا له وعبرة لغيره.

وفي هذا دلالة على تطوّر السّلطة القمعيّة للدّولة. فقد تطوّر العنف السّياسي في فترة عبيد الله بن زياد. ووكّل الوالي موظّفين بهذه المهمّة حيث استعمل مواليه كجلاّدين. فقد كلّف أحد مواليه بضرب عنق هانئ بن عروة، المعارض الشّيعي للدّولة.

كما ضُربت العشيرة في مقوّماتها الانتروبولوجيّة كالنّجدة أي نجدة ونصرة سيّد العشيرة لتتمكّن الدّولة من تركيز سلطتها وتنفيذ حكمها في المعارضين.

وضاع صياح هانئ بن عروة في السّوق سُدى. رغم أنّه كان يُريد أن يموت ميتة شريفة!

بعد قتل هانئ بن عروة، جيء بعبد الأعلى الكلبيّ الذي كان أخذه كثير بن شهاب في بني فتيان. فسأله الوالي أن يخبره بأمره. وأجابه الكلبيّ بأنّه خرج ليرى ما يصنع النّاس، فأخذه كثير بن شهاب. فطلب منه الوالي أن يحلف بالأيمان المغلّظة أنّه خرج لهذا الغرض. فرفض أن يحلف، وعندها أمر الوالي أن يضربوا عنقه في جبّانة السّبيع[1]. وأُتِي بعمارة بن صلخب الأزدي وكان ممّن يريد أن

---

(١) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٧٩؛ هشام جعيط، *نشأة المدينة العربية الإسلاميّة الكوفة*، ص٢٩٩ ـ ٣٠١ ـ ٣٠٦: كانت جبّانة السّبيع التي تقع في الشمال، ملكا لقبيلة همدان. وهي متعدّدة الوظائف، فهي=

يناصر مسلم فسأله عبيد الله بن زياد عن قبيلته. فأجابه أنّه من الأزد. فأمر أن يُقتل في قومه[1].

على عكس هانئ بن عروة، قُتل الشّخصين الآخرين في المجالات القبليّة. وربّما كانت هذه وسيلة الوالي لترهيب القبائل وتهديدهم حتّى لا يلتحقوا بالثّورات، وهو نوع من العنف السّياسي الجديد. كما نلاحظ أنّ الثّلاثة من الرّجال المقتولين من الشّيعة هم من اليمنيّين.

وتواصل موكب العنف الذي نظّمه ابن زياد بجرّ جثّتَي مسلم بن عقيل وهانئ بن عروة في السّوق[2]. ولا تذكر المصادر إن دُفنت جُثث المعارضين.

وسارع عبيد الله بن زياد لإخبار يزيد بهذه الأخبار في موكب بروتوكولي من نوع خاصّ.

تأكيد الملك ليزيد بن معاوية

كانت وسيلة عبيد الله بن زياد في تأكيد الملك ليزيد، أن بعث برأسي مسلم بن عقيل وهانئ بن عروة وابن صلخب[3] مع هانئ بن أبي حيّة الوادعيّ والزّبير بن أبي الأروح التّميمي[4].

ينتمي هانئ بن أبي حيّة[5] إلى همدان. وكان ضمن الأشراف الذين شاركوا في الشّهادة ضدّ حجر بن عديّ الكندي[6]. المهمّ أنّ هذين الشّريفين ينتميان «لأهل السّمع والطّاعة والنّصيحة»[7]. أي أنّهما من مستشاري الوالي. وهما مكلّفان بتوضيح ملابسات الثّورة للخليفة.

= مصلى لصلاة الجمعة، ومقبرة، ومقرًا للتجمّعات ومركز العصب للحياة الاجتماعيّة عند القبيلة. وكانت مركزا عسكريًا لحشد المقاتلة قبل الخروج للقتال. كما تقع فيها عمليّات القمع.

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٢، ص٣٤١؛ الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٧٩.
(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٧٩.
(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٢، ص٣٤٢.
(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٨٠؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٢، ص٣٤٢.
(٥) ابن سعد، مصدر مذكور، ج٦، ص٢٥٣: أبوه هو أبو حيّة الوادعي روى حديثا عن عليّ بن أبي طالب.
(٦) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٢٦٣؛ ابن حزم، مصدر مذكور، ص٣٩٢ ـ ٣٩٣.
(٧) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٨٠؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٢، ص٣٤٢.

وأرسل معهما كتابا، حرص الوالي أن يمليه بنفسه على كاتبه الخاصّ، ليكون معبّرا عن الوضعيّة، أي لجوء مسلم بن عقيل لبيت هانئ بن عروة المرادي، ومراقبة الوالي لنشاطهما السرّي عن طريق العيون والجواسيس. وكيف أنّه كمن لهما حتّى كشف مخطّطاتهما، فقدّمهما فضرب أعناقهما.

عبّر عبيد الله بن زياد عن إعانة الله له ليأخذ حقّ الخليفة بأن كفاه عدوّه. وفي هذا تأكيد على إيديولوجيا خليفة الله.

تدلّنا هذه الرّسالة على سرّ العلاقة بين الخليفة ووالي العراق. فقد كان الوالي شديد الارتباط بالخليفة. فهو يتلقّى منه الأوامر ويعلمه بكلّ ما يحدث في المصر. وكانت للوالي مقدرة في تسيير المؤسّسات وساهم في تطوّرها كمؤسّسة ديوان الرّسائل. خاصّة إذا كان الأمر يتعلّق بإرسال الرّسائل للخليفة. إضافة للمؤسّسات الردعيّة كالشّرطة، والسّهر على الأمن في المصر بواسطة الرّابطة في المسجد ـ الجامع.

كما يظهر من خلال هذه السّفارة للخليفة أنّ الأشراف أصبحوا منذ فترة زياد بن أبي سفيان رسل الوالي بالمعارضين أو رؤوسهم. وفي هذا دلالة سياسيّة وإيديولوجيّة أي طاعة الأشراف للدّولة ومساعدتها على تأطير عشائرهم. وهم جزء من مجلس الوالي وحاشيته بما أنّه طوّر التّشريفات أيضا.

كما أنّ هذين الشّريفين كانا وسيلة الوالي للتّعرّف على ملابسات القضاء على الثّورة وبالتّالي ردّ فعل الوالي تجاهها. وكان جواب الخليفة كالآتي[1]:

«أمّا بعد، فإنك لم تَعْدُ أن كنتَ كما أحبّ، عملتَ عملَ الحازم، وصُلت صوْلة الشجاع الرابط الجأش، فقد أغنيتَ وكفيتَ، وصدّقت ظنّي بكَ، ورأيي فيك، وقد دعوتُ رسوليك فسألتهما، وناجيتهما فوجدتهما في رأيهما وفضلهما كما ذكرت؛ فاستوص بهما خيراً، وإنّه قد بلغني أنّ الحسين بن عليّ قد توجّه نحو العراق؛

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٨٠ ـ ٣٨١.

فضع المناظر والمسالح، واحترس على الظنّ، وخذ على التّهمة، غير أن لا تقتل إلا من قاتلك، واكتب إليّ في كلّ ما يحدث من الخبر».

كان قتل مسلم وهانئ وسيلة لتقريب الصّلة بين الخليفة يزيد بن معاوية والوالي. فتوطّدت الصّلة بينه وبين والي العراق بعد أن كانت علاقتهما متوتّرة. وأصبح بينهما ارتباط عاطفيّ ومحبّة مثل التي كانت تربط معاوية «بأخيه» زياد.

فقد نجح عبيد الله بن زياد في أوّل امتحان له في فرض سلطة يزيد. على هذا الأساس، شكر الخليفة عبيد الله بن زياد على تصرّفه «كما يحبّ»[1] (القمع والقتل في القضاء على ثورة ابن عقيل). وفي هذا دلالة على المقدرة السياسيّة ليزيد وعلى تجبّره وحرصه على فرض سلطة الدّولة. وشكر الخليفة واليه على العراق على حزمه وشجاعته. فهو قد كان عند حسن ظنّ الخليفة، كما طبّق السّياسة التي يريد منه الخليفة أن يطبّقها. وفي هذا دلالة على سياسة القمع التي برمجها الخليفة للحسين بن عليّ. فالمرحلة الأولى لقمع ثورة مسلم بن عقيل تتبعها مرحلة ثانية وضروريّة هي قمع الحسين.

كما أنّ الخليفة يزيد بن معاوية خلافا لما رُوّج عنه للتّعتيم على شرعيّته التّاريخيّة، كان متابعا وساهرا على شؤون الدولة بكلّ تيقّظ. فقد سأل الرّسولين مطوّلا عن الثّورة، وأجاباه بكلّ دقّة. وهذا يؤكّد أنّه لا يقلّ عن معاوية في رجاحة عقله وحلمه. وكان ممركزا للسّلطة أشدّ التّمركز بما أنّه أمر عبيد الله بن زياد بإخباره بكلّ ما يحدث من الأخبار.

كما حرص يزيد على تذكير عبيد الله بن زياد بالمرحلة الثّانية في قمع الثّورة والأكثر رمزيّة بالنّسبة للدّولة لأنّها ستمكّن الأمويّين من تركيز إيديولوجيّتهم وشرعيّتهم التّاريخيّة المنقوصة: وهي القضاء على ثورة الحسين بن عليّ.

وأمر الخليفة عبيد الله بن زياد أن يضع المناظر والمسالح. وفي هذا دلالة على

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٨٠؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٢، ص٣٤٢.

تكثيفه من مراقبة الطرقات لحصر الحسين وآله.

ولم يكن الخليفة متسامحا كما تذكر الرّواية أي أمر عبيد الله بأن لا يقتل إلاّ من قتله بل كان حازما ومصمّما على اتّباع نفس سياسة القمع. واختلقت هذه الرّواية لتبرئته.

كوّن هذا الثّنائي (الخليفة يزيد بن معاوية وعبيد الله بن زياد والي العراق)، الدّولة البوليسيّة، القمعيّة التي ركّزت نمطا جديدا من العنف السّياسي الذي ينتمي للمحيط السّياسي الفارسي والبيزنطي. فهتكت المبادئ العشائريّة من أمان ورحِم وقرابة لتعوّضها بالسّياسي في كلّ مظاهره: «الغدر» أو الاغتيال والتّمثيل بالجثّة. وقد خلّدت الذّاكرة عن طريق الشّعراء، ذكرى مسلم بن عقيل وهانئ بن عروة وعنف الدّولة تجاههما.

تخليد ذكرى مسلم بن عقيل وهانئ بن عروة في الذّاكرة

لعب الشّعراء دورا هامّا في الفترة الأمويّة في التّعبير عن الأحداث السياسيّة: قتل الوالي لمسلم بن عقيل فالشعر مادّة انتروبولوجيّة هامّة تصوّر التحوّلات الاجتماعية والقبليّة وتطوّرات الدولة وتصلّب السّلطة. فالشاعر يحرّض العشيرة على الأخذ بثأر هانئ بن عروة لأنّها إن لم تأخذ بثأره فهي بمنزلة البغيّ. ويقول عبد الله بن الزُّبير الأسدي(١) أو الفرزدق(٢) في موت مسلم(٣):

وإنْ كُنتِ لا تدرين ما الموتُ فانظُري
إلى هانِئٍ في السّوق وابْنِ عَقيلِ
إلى بطَلٍ قد هشّم السيفُ وجهَهُ
وآخر يهوي من طمار قتيلِ

---

(١) ابن دريد، مصدر مذكور، ص٤٨.

(٢) ابن حزم، مصدر مذكور، ص٢٣٠.

(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٥٠ ـ ٣٥١ ـ ٣٧٩ ـ ٣٨٠؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٢، ص٣٤١؛ مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص ٨٤.

أصابهما أمرُ الأميرِ فأصبحا
أحاديثَ من يسري بكلِّ سبيلِ
ترى جسدًا قد غيّر الموت لونَهُ
ونَضحَ دَمٍ قد سال كلَّ مسيلِ
فتىً هو أحيا من فتاةٍ حيِيةٍ
وأقطعُ من ذي شفرتين صقيل
أيَركَبُ أسماءُ الهمالِيج آمناً
وقد طلبته مذحِجٌ بِذُحول!
تُطِيفُ حواليه مُرادٌ وكلُهم
على رِقْبة من سائل ومسُول
فإنْ أنتمُ لم تَثأروا بأخيكُمُ
فكونوا بغايا أرْضِيَتْ بقليل

وقد ثأر عبد الرحمن بن الحصين المرادي لهانئ بن عروة يوم الخازر[1]، من قاتله وهو رُشيد مولى تركي لعبيد الله بن زياد[2].

خاتمة

كان قتل مسلم وهانئ انتصار تامّ للسّلطة الأمويّة وللأمير. وكان الخليفة يزيد بن معاوية حازما ومصمّما على الحفاظ على سلطة الدّولة في الكوفة.

لعب عبيد الله بن زياد دورا هامّا في تركيز سلطة الدّولة وإيديولوجيّتها، وربّما كان هذا الدّور أهمّ من الدّور الذي لعبه زياد بن أبي سفيان لأنّ حركة الحسين بن عليّ كانت أهمّ من حركة حجر بن عديّ الكندي للمكانة «المقدّسة» لحفيد

---

(١) معركة بالموصل بين ابراهيم بن الأشتر ـ قائد المختارالثقفي ـ الذي أراد الثّار للحسين من قتلته خاصّة عبيد الله بن زياد.

(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٢، ص٣٤٠ ـ ٣٤١؛ الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٧٩.

الرّسول في الضّمير الإسلامي. فهي عبارة عن حركتين: حركة مسلم بن عقيل في الكوفة، ثمّ المواجهة العسكريّة بين جيش الدولة وجيش الحسين في الطّفّ.

وقد واجه عبيد الله أوّل ثورة شيعيّة من قبل أهل البيت، وفي هذا رمزيّة كبيرة. كانت هذه الثّورة فرصة للوالي ليطوّر قمع الدّولة والعنف السّياسي وكذلك إيديولوجيا الدّولة وشرعيّتها التّاريخيّة. وبالتّالي سيخوض ثورة الحسين وهو على أتمّ استعداد أي سيتقوّى هذا العنف الأوّلي في الكوفة (الذي لم يكن عنفا عسكريّا بل عنفا أدبيّا واجتماعيّا بتأطير الأشراف لعشائرهم) إلى عنف عسكري ومواجهة عسكريّة وفي هذا تأكيد على وجود الدولة ككيان سياسي وعسكري وسياسي وقوّة اجتماعيّة وأرستقراطيّة أساسا.

وكان مسلم بن عقيل القربان الأوّل الذي ضحّى به عبيد الله بن زياد في سبيل فرض سلطة وضرب حركة الحسين في المهد. وظهرت نواة صلبة من الشّيعة فهل ستصمد مع الحسين في قتال الدّولة؟

وبالفعل ضربت الدّولة أوّل حركة شيعيّة في خطواتها الأولى. وهي أيضا أوّل حركة سياسيّة ـ دينيّة لأهل البيت كما كان قتل مسلم بن عقيل بن أبي طالب وهانئ بن عروة المرادي «هديّته» للخليفة يزيد بن معاوية حيث تحسّنت العلاقة بينهما واعترف به الخليفة.

وأطلق الخليفة يزيد بن معاوية يده بصفة غير مباشرة للقضاء قضاء مبرمًا على الحسين بن عليّ حفيد الرّسول وتواصلت التّقاليد الملكيّة التي ركّزها زياد في العراق مع تولّي ابنه ونشأ نوع من التّرابط أو التّوافق بين الخليفة والوالي يذكّر بالتّواصل الموجود بين معاوية وزياد (القضاء المبرم على حجر بن عديّ والشّيعة الأوائل) في سبيل فرض سلطة الدّولة وإيديولوجيّتها. وسيؤدّي هذا التّرابط إلى قتل الحسين. فكان على عبيد الله أن يحافظ على الأمن في مصر من أهمّ الأمصار في الدّولة، ويقلب موازين القوى لصالح الدّولة بعدما أصبحت السّلطة معزولة ومنهزمة ظاهريًّا.

وفي ذلك، كان عبيد الله سياسيّا على درجة كبيرة من الذّكاء والدّهاء والتّفاني في خدمة الدولة مثلما تفانى زياد.

كما ظهر تمزّق الضّمير الإسلامي وظهرت الفتنة كحدث يشقّ الأمّة إلى نصفين (الدّولة من ناحية و المعارضة الشّيعيّة من ناحية أخرى). وبلغ صراع السّياسي والدّيني أوجه، لأنّ عمليّة البناء لا تتمّ دائما في أمن وسلام واستقرار بل تحدث في حالات أخرى بسفك الدّماء. فكان قتل مسلم وهانئ بن عروة قربانا أوّلا ثمّ قتل الحسين وآله قربانا ثانيا للدّولة.

كما اتّخذ مقتل هانئ بن عروة رمزيّة كبيرة لدى الشّيعة الذين شيّدوا له ضريحا بالكوفة[1].

وخلّدت ذكرى هانئ بن عروة كمدافع عن أهل البيت إلى حدّ الاستشهاد.

---

(١) هشام جعيط، *نشأة المدينة العربيّة الإسلاميّة الكوفة*، ص٣٧٧.

الفصل الخامس
مسير الحسين بن عليّ إلى الكوفة

خرج الحسين بن عليّ من مكّة إلى الكوفة في أهل بيته من بني هاشم. وكان هذا الخروج تعبيرا عن الرفض لسلطة الخليفة يزيد بن معاوية وتأكيدا لشرعيّة أهل البيت.

وقد حقّق الحسين مطلبا كان موجودا بنفسه منذ صلح الحسن مع معاوية. واستند الحسين على شيعة أبيه الذين ألحّوا عليه في القدوم عليهم. فترك الحسين مجال الحجاز خاليا لابن الزّبير ليؤكّد فيه في ما بعد أمره.

وكانت هذه الرّحلة مفعمة بالعاطفيّة والرمزيّة وتتالت فيها الأحداث التي كشفت عن حقيقة التّنظيم الشّيعي. لكنّها بيّنت مقدرة الدّولة على تتبّع الثوّار والعاصين لسلطتها.

وانتهت به هذه الرّحلة إلى الطفّ في مواجهة عسكريّة بجيش عبيد الله بن زياد.

الرّحلة إلى الكوفة[١]

تبدو هذه الرّحلة أو المسير إلى الكوفة محمّلة بالمعاني ومليئة بالأحداث. فهي عبارة عن ملحمة تتبّعت هذا المسير الذي حفظته الذّاكرة خاصّة منها الشّيعيّة وروته لنا في أدقّ تفاصيله.

---

(١) لن نذكر في هذا العنصر إرسال عمرو بن سعيد الأشدق أخوه يحيى بعد خروجه من مكّة ليمنع الحسين من الرحيل إلى الكوفة لأنّنا ذكرناها آنفا في الفصل الأوّل.

خرج الحسين من مكّة يوم التروية في نفس يوم خروج مسلم بن عقيل بن أبي طالب، ويقال أيضًا إنّ مسلم خرج يوم الأربعاء وهو يوم عرفة(١).

يبدو هذا التّوافق في التّأريخ بين خروج الحسين من مكّة وخروج مسلم بن عقيل في الكوفة أي إعلان ولادة أوّل حركة شيعيّة مشحون برمزيّة كبيرة.

ربّما يكون هذا التّوافق من فعل خيال الرّواة لبعد المسافة بين مكّة والكوفة.

تحاط الأحداث والأماكن بقداسة وحرمة فالحسين يخرج من الحرم المكّي في زمن الحجّ ويسير إلى الكوفة التي تعتبر مصرا من أهمّ الأمصار الإسلاميّة التي صنعت التّاريخ الإسلامي عن طريق الفتوحات(٢)، لكنّها ليست لها حرمة مكّة أو المدينة (مدينة الرّسول التي آوته بعد تهجير قومه له من مكّة. وأصبحت قاعدة لدولته).

وفي طريقه بالتّنعيم(٣)، أخذ عيرًا أرسلها والي اليمن بَحِير بن رَيْسان الحميريّ إلى الخليفة يزيد بن معاوية، وعلى العِير الوَرْسُ(٤) والحُلَل(٥). أي أنّ الحسين تزوّد بثياب. وهذا يُعتبرُ مسّا من السّلطة الأمويّة، بما أنّه افتكّ متاع الخليفة.

وخيّر أصحاب الإبل أن يمضوا معه أو يذهبوا لشأنهم.

ولقي الحسين بن عليّ الفرزدق بن غالب الشاعر في الصِّفاح (٦). فدعا له الشّاعر أن «يعطيه الله» ما يُحبّ.

---

(١) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٣٧١.

(٢) هشام جعيط، *نشأة المدينة العربيّة الإسلاميّة الكوفة*، ص٧٤ ـ ٧٥.

(٣) ياقوت، *معجم مذكور*، ج٢، ص٤٩: التّنعيمُ، موضع بمكّة في الحل، وهو بين مكّة وسرِفَ، على فرسخين من مكّة وقيل على أربعة، وسمي بذلك لأنّ جبلاً على يمينه يقال له نعيم وآخر يقال له ناعم، والوادي نعمان، منه يحرم المكيّون بالعمرة.

(٤) ابن منظور، *معجم مذكور*، ج٣، ص٩٠٩: الوَرْسُ: شيء أصفر مثل اللّطخ يخرج على الرّمث بين آخر الصيف وأوّل الشتاء إذا أصاب الثوب لوّنه. وورّست الثوب توريسًا.

(٥) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٨٥ ـ ٣٨٦؛ البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٣٧٥ ـ ٣٧٦؛ ابن منظور، *معجم مذكور*، ج١، ص٧٠٦: الحلّة رداء وقميص وتمامها العمامة، قال: ولا يزال الثوب الجيّد يقال له في الثّياب حُلّة. والحلل الوشي والحبرة والخزُّ والقزُّ والقوهيُّ والمَرْويّ والحرير.

(٦) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٨٦؛ ياقوت، *معجم مذكور*، ج٣، ص٤١٢: «موضع بين حُنين وأنصاب الحرم على يسرة الداخل إلى مكّة من مُشاش، وهناك لقي الفرزدق الحسين بن عليّ، رضي الله عنه، لما عزم على قصد العراق».

وسأله الحسين عن النّاس بالكوفة فأجابه الفرزدق بأنّ قلوب النّاس معه، وسُيوفُهم مع بني أميّة، والقضاء ينزل من السماء[1].

و يذكر البلاذري موضعا آخر التقى فيه الحسين بالفرزدق، وهو ذات عرق[2]. ويعطي الفرزدق ملحوظة في خصوص لباس الحسين بن عليّ وأهل بيته، فقد كانت عليهم «يلامق[3] الديباج»[4].

قد أنشد الفرزدق:

لقيت الحسين بأرض الصفاح … عليه اليلامقُ والدرق[5]

وهو معطى انتروبولوجي هامّ يدلّ على ثراء لباس أهل البيت. كما أنّهم لا يشبهون الخليفة عمر بن الخطّاب في تقشّفه في اللّباس.

المهمّ أنّ الفرزدق أعطى للحسين فكرة عن الأوضاع بالعراق فالنّاس متعاطفين مع الشّيعة عاطفيّا لكنّهم كانوا يمثّلون قوّة عسكريّة بأيدي الأمويّين.

وأسرع الحسين بن عليّ حتّى وصل إلى ذات عرق[6]. لماذا هذا الإسراع؟ هل تخوّف من حدوث مكروه لمسلم بن عقيل؟

ولحق الحسين بذات عرق عون بن عبد الله بن جعدة بن هبيرة[7] برسالة من

---

(١) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٨٦؛ البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٣٧٦.

(٢) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٣٧٧؛ ياقوت، *معجم مذكور*، ج٤، ص١٠٧: ذاتُ عرق: مُهَلّ أهل العراق وهو الحدّ بين نجد تهامة.

(٣) ابن منظور، *معجم مذكور*، ج٣، ص١٠١٦ اليلامقُ، اليلْمقُ: القباء، فارسي معرب.

(٤) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٣٧٦.

(٥) ياقوت، *معجم مذكور*، ج٣، ص٤١٢؛ ابن منظور، *معجم مذكور*، ج١، ص٩٧١: الدّرقُ، ضرب من التّرَسةِ، الواحدة درَقة تتخذ من الجلود.

(٦) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٨٧.

(٧) مصعب الزّبيري، *مصدر مذكور*، ص٣٤٤ ـ ٣٤٥: «ولد أبو وَهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم: هُبيرةَ، وكان من فرسان قريش وشعرائهم، ومات كافرا هاربًا بنجران؛ وكانت عنده أمّ هانئ ابنة أبي طالب، فأسلمت عام الفتح؛ وهرب هُبيرةُ من الإسلام إلى نجران، حتّى مات بها كافرًا. ووَلدت أمّ هانئ لهُ: عمر؛ وهانئا؛ ويوسف؛ وجعدةَ، بني هُبيرة؛ وكان جعدة على خراسان، ولاّه عليّ بن أبي =

أبيه[1]. وهو ابن عمّته أمّ هانئ ـ أخت عليّ بن أبي طالب ـ وقد طلب منه أن يرجع وبيّن له تخوّفه عليه من المسير إلى الكوفة. لكنّ الحسين لم يعجبه هذا القول وأكمل مساره.

والتقى الحسين بعبد الله بن مطيع العدوي وهو نازل في ماء من مياه العرب[2] (ولم يذكر أبو مخنف المكان بالتّحديد) فسأله مناديًا إيّاه «يا ابن رسول الله»، وسأله عن سبب مقدمه. فأجابه الحسين بأنّ معاوية توفّي، وكتب إليه أهل العراق «يدعونه إلى أنفسهم». فذكّره عبد الله بن مطيع في حرمات الإسلام وفي حرمة الرّسول وفي حرمة العرب أن تنتهك. كما قال له بأنّه «إن طلب ما في أيدي بني أميّة» أي إن طلب السّلطة والحكم فسيقتلوه. وإن قتلوه «لا يهابون بعدك أحدًا أبدًا». وأعاد عبد الله بن مطيع على مسامع الحسين نفس التخوّف.

وألحّ عبد الله بن مطيع على الحسين أن لا يأتي إلى الكوفة، ـ مقرّ سلطان الأمويّين في العراق ـ ولا يقف حائلا بين الأمويّين وسلطتهم. لكنّ الحسين رفض وأصرّ على المضيّ. وواصل سيره إلى أن وصل إلى الماء بزرود[3].

اتّخذ الحسين بن علي رمزيّة كبيرة لدى قريش، فقد ناداه عبد الله بن مطيع بابن الرّسول. وهذه التّسمية سمّاه بها شيعته من أهل الكوفة. فهو ابن للرّسول عوضا عن حفيده.

كما تخوّف عبد الله بن مطيع من أن تنتهك حرمة الإسلام أي أنّه بقتال ابن الرّسول تنتهك حرمة الإسلام وحرمة الرّسول وحرمة العرب أي انتهاك حرمة قُريش. فمسير الحسين إلى الكوفة يمثّل حركة معارضة للسّلطة، وهذه المعارضة

= طالب على خراسان. ومن ولد جعْدة: عبد الله بن جعدة.

(1) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٣٧٧.

(2) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٩٥؛ البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٣٧٦.

(3) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٩٦؛ ياقوت، *معجم مذكور*، ج٣، ص١٣٩: زرود: الزّرد البلع، ولعلّها سميت بذلك لابتلاعها المياه التي تمطرها السحائب لأنّها رمال بين الثعلبيّة والخُزيميّة بطريق الحاج من الكوفة.

سيقمعها الأمويّون بالقتل المبرم للحسين ولآله. وانطلاقا من هذا التّاريخ سيُطلقون أيديهم في انتهاك كلّ الحرمات (أي مهاجمة مدينة الرّسول وتقتيل أهلها، ومهاجمة الحرم المكّي بأهل الشام وضرب الكعبة بالمنجنيق).

وفي رواية أخرى لابن سعد، كان عبد الله بن مطيع يحفر بئرًا، وأخرج لأوّل مرّة ماء، فطلب من الحسين أن يدعو له بالبركة فيها. فشرب الحسين من مائها ثمّ مضمض ثمّ ردّه في البئر، فصار عذبًا(1).

يبدو أنّ الحسين من خلال هذا الخبر لديه كرامة(2) لأنّه حفيد الرّسول وهو يؤثّر في الطبيعة (حلاوة البئر).

كما أنّ هذا الخبر يؤكّد على أهميّة الماء في منطقة صحراويّة وكذلك على الطّابع الانتروبولوجي التي تكتسيه المكانة الميتا ـ تاريخيّة للرّسول، وقد اكتسب الحسين قداسة مكّنته من القيام بأفعال تشبه أفعال الأنبياء.

كما ذكرت المصادر انضمام زهير بن القين البجليّ(3) ـ وهو كوفيّ ـ للحسين بن عليّ(4). وكانت رواية انضمامه للحسين تعبّر عن إيمان كبير وحبّ لذكرى الرّسول وتعظيم لأهل البيت.

كان زهير بن القَيْن في مكّة ـ ربّما كان يقوم بفريضة الحجّ ـ كما أنّه كان عثمانيّا(5). وغادر هذا الكوفيّ مكّة مُتعجّلاً لكنّ البلاذري لا يذكر ما هو سبب هذا التعجّل.

---

(1) ابن سعد، *مصدر مذكور*، ج٥، ص١١٠.

(2) ابن منظور، معجم *مذكور*، ج٣، ص٢٤٩: الكُرم الكَرامة، يقال كرُمت أرض فلان العامَ، وذلك إذا سَرْقَنَها فزكا نبتها.

E.I², article Karâma.

(3) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٩٦ هو من بني عمرو بن يشكر من بجيلة، كان بيته في التمّارين بمركز الكوفة، وكان يختبأ فيه أصحابه من بطش الحجّاج بن يوسف ـ بعد أن قُتل هو مع الحسين – لم يذكر الطّبري سبب اختبائهم؛ ابن حزم، *مصدر مذكور*، ص٣٨٨: «زهير بن القين بن الحارث قُتل مع الحسين».

(4) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٩٢ ـ ٣٩٦ ـ ٣٩٧؛ البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٣٧٨ ـ ٣٧٩.

(5) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٣٧٨؛ الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤١٧ أي مساندا لقضيّة عثمان بن عفّان.

روى هذه الرّواية شاهد عيان هو أحد أصحاب زهير بن القين الذي حجّ معه. وهو رجل من بني فزارة[1] (من المتوقّع أنّه لم ينضمّ للحسين، وبقي على قيد الحياة إلى فترة الحجّاج بن يوسف حيث روى هذا الخبر).

وقد جمعه الطّريق هو وأصحابه بالحسين عند مسيره للكوفة. فكانوا يبغضون مسايرته في منزل، «فإذا سار الحسين تخلّف زهير بن القَيْن، وإذا نزل الحسين تقدّم زهير»[2].

فوصلوا إلى مكان كانوا فيه مجبرين على النّزول معهم. فاتّخذ كلّ واحد منهم جانبًا ونزل فيه.

وبينما كان زهير بن القين وأصحابه يتغدّون، جاء رسول الحسين وسلّم ودخل على زهير بن القين. وقال له بأنّه رسول الحسين بن عليّ، وهو يطلب منه أن يأتيه. فاعترى الحاضرون الوجوم والدّهشة وفي هذا يقول الرّاوي: «فطرح كلّ إنسان ما في يده حتّى كأنّنا على رؤوسنا الطير»[3].

ثمّ تُواصل شاهدة على الأحداث هذه الرّواية، وهي دلهم بنت عمرو امرأة زهير بن القَيْن[4].

يبدو أنّ زهير بن القين لم يُسرع لملاقاة الحسين ولم يستجب لاستدعائه له، فلامته زوجته على ذلك، أي استدعاء ابن الرّسول له. ونصحته أن يكلّمه ثمّ ينصرف.

وبعد أن قابل زهير بن القين الحسين رجع مستبشرا ومُشرق الوجه. فأمر بفسطاطه ومتاعه فنُقل إلى الحسين.

وقال لزوجته بأنّها طالق لأنّه لا يُريد أن يُصيبها بسببه إلاّ خير[5]. وقال لأصحابه

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٩٦.

(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٩٦.

(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٩٦.

(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٩٦؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٧٨ ـ ٣٧٩: ذكر البلاذري أنّ زوجة زهير بن القين هي ديلم بن عمرو.

(٥) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٩٦؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٧٩.

بأنّ من أراد أن يتبعه وإلاّ فإنّه آخر عهده بهم. وحدّثهم بأنّه غزا بلنجر[1]، ففتحوها وتحصّلوا على غنائم هامّة فقال لهم قائدهم سلمان الباهليّ[2] «إذا أدركتم شباب آل محمد فكونوا أشدّ فرَحًا بقتالكم معهم منكم بما أصبتم من الغنائم».

هل كان سلمان بن ربيعة محبّا لأهل البيت بينما هو لم يسمع من عليّ؟ أم أنّ هذا الكلام إسقاط من قبل الشّيعة لفترة لاحقة.

يبدو انضمام زهير بن القين للحسين على جانب كبير من الإيمان بحقّ أهل البيت. فقد كان عثمانيّا لكنّ الطريق جمعته بالحسين في رحلته إلى الكوفة. فكان هو ورجاله يتحاشى الاحتكاك به، لكنّ الصّدفة شاءت أن ينزلا بنفس المكان. فأرسل إليه الحسين طالبا التحدّث معه.

فبيّنت الرّواية أنّه لم يستجب في البداية لطلب الحسين. فلماذا هذا التردّد والتّململ؟ هل هو نتيجة تمسّكه بقناعات إيديولوجيّة أخرى أي عثمانيّته؟ هل كان متخوّفا من هذا اللّقاء لأنّه كان يعيش حالة تفكير ومخاض منذ خروجه من مكّة مسرعا؟ أي أنّه كان عازما على الالتحاق بالحسين منذ سماعه برحيل الحسين للكوفة؟

نلاحظ أنّ الحسين يُسمَّى في بعض الحالات بابن الرّسول عوضا عن ابن ابنة الرّسول (أو حفيد الرّسول). يكتسي هذا اللّقب رمزيّة كبيرة. فالحسين أصبح في ذهنيّة النّاس مُمَثّلاً للرّسول. وفي هذا جانب كبير من الورع والإيمان.

كما يبرز دور المرأة في الرّواية التّاريخيّة حيث استند أبو مخنف على روايتها.

---

(١) ياقوت، معجم *مذكور*، ج١، ص٤٨٩: بَلَنْجَرُ: مدينة ببلاد الخزَرِ خلف باب الأبواب، قالوا فتحها عبد الرحمن بن ربيعة، وقال البلاذري سلمان بن ربيعة الباهلي، وتجاوزها ولقيه خاقان في جيشه خلف بلنجر فاستشهد هو وأصحابه، وكانوا أربعة آلاف»؛ البلاذري، *فتوح*، ص٢٨٦ ـ ٢٨٧: فتحها سلمان بن ربيعة الباهليّ في عهد عثمان. وكان سلمان بن ربيعة أوّل من استقضي بالكوفة.

(٢) ابن سعد، *مصدر مذكور*، ج٦، ص١٨١ ـ ١٨٢: سلمان بن ربيعة الباهلي. روى عن عمر بن الخطّاب وولاّه قضاء الكوفة، فبقي أربعين يوما لم يتقدّم فيه اثنان. «غزا سلمان بن ربيعة بلنجر في خلافة عثمان بن عفّان فقُتِل بها شهيدًا وذلك في ولاية سعيد بن العاص، وكان ثقة قليل الحديث».

ويظهر دورها أيضا في إقناع زوجها بالذّهاب لملاقاة الحسين عندما رأته متردّدا. وقد بيّن زُهير بن القين سبب انضمامه للحسين بن عليّ لأحد أشراف الكوفة ـ وهو عزْرة بن قيس الأحمسي ـ عند بداية القتال بين الجيش الأموي والحسين. فذكر أنّه لم يكتب إليه كتابًا، ولم يُرسل إليه رسولاً، ولم يَعِدْهُ نصرته. لكنّه عندما جمعه به الطّريق، ذكّره بالرّسول وقرابته منه، وعرف ما سيجابهه من أعدائه (أي السّلطة الأمويّة والأشراف). فقرّر أن ينصره ويجعل نفسه فداء له ولحفظ ما ضيّعه الأشراف وأهل الكوفة من حقّ الله وحقّ الرّسول[1].

كما أنّ زهير بن القين كان من مقاتلة الكوفة الذين شاركوا في الجهاد (فتح بلنجر) وتأثّر بكلام سلمان الباهلي قائدهم الذي شجّعهم على الدّفاع على شباب آل محمد والقتال معهم.

كان انضمام زُهير بن القين للحسين بدافع روحيّ كبير، فالإيمان بالله وبرسوله دفعه إلى التخلّي عن قناعاته الإيديولوجيّة القديمة أي عثمانيّته وبالتّالي كان ربّما من أنصار الأمويّين. كما أنّ إحساسه بخذلان وتنكّر أهل الكوفة للحسين (فهو كوفيّ وخبير بأحوال مصره)، دفعهُ للدّفاع عنه والموت في سبيله. على هذا الأساس، كان زهير بن القين من الأصحاب الذين وهبوا أنفسهم لنصرة الحسين والاستشهاد في سبيله.

وتبرز تضحية زهير بن القين في سبيل قضيّة الحسين في طلاقه لزوجته، وترك أصحابه، وتخلّيه عن النّسق العادي لحياته، وانضمامه لحفيد الرّسول. وقد قاتل إلى جانبه إلى أن قُتل[2]. فكان الرّمز الدّيني حاضرا وحيّا ونابضا بالحياة والصّور في ذهن زهير بن القين.

كان الحسين يكمل مساره للكوفة بينما استعدّ عبيد الله بن زياد لمواجهته، فوضع الحراسة على الطّرقات بالعراق أي بالبصرة وبالكوفة.

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤١٧.

(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٩٧.

سمع ابن زياد بقدوم الحسين، فكتب إلى عامله بالبصرة «أن يضع المناظر[1] ويأخذ بالطّريق»[2].

واستعدّ عبيد الله بن زياد أتمّ الاستعداد للتصدّي للحسين ـ لأنّنا إلى حدّ تلك الفترة لا يمكننا الحديث عن قتال بين مقاتلة الدّولة الأمويّة والحسين بن عليّ ـ فأرسل إليه الحصين بن تميم بن أسامة التميمي، ثمّ أحد بني جُشَيْش بن مالك بن حنظلة، صاحب شُرطهِ، فنزل بالقادسيّة ونظّم الخيل بينها وبين خفان[3]، وبينه وبين القَطْقَطانة[4] إلى لَعْلع[5].

تبوّأ صاحب الشّرطة مهمّة عسكريّة، فهو لا تقتصر مهمّته على الكوفة بل أرسله الوالي في هذه المهمّة وهي وضع محارس في البريّة القريبة من الكوفة. وكانت القادسيّة تبعد ١٥ ميلا عن الكوفة[6]. واستعمل الخيل للحراسة (فالمنطقة بها ماء يمكن الاستسقاء بها). وتبدو هذه الاستعدادات العسكريّة لقطع طريق الرّجعة على الحسين وكذلك قطع طريق الشّام.

في الطريق، في الحاجر[7] من بطن الرُّمَّة[8]، جاءه كتاب ابن عقيل الذي ذكر له فيه أنّ أهل الكوفة مساندين له، وطلب منه المجيء حين يقرأ كتابهُ. وبعث كتابا

---

(١) ابن منظور، معجم *مذكور*، ج٣، ص٦٦٥: المنظرةُ: موضع برأس جبل فيه رقيب ينظر العدوّ يحرُسُهُ. والمنظرة: المرقبةُ.

(٢) الطّبري، مصدر *مذكور*، ج٥، ص٣٥٣.

(٣) ياقوت، معجم *مذكور*، ج٢، ص٣٧٩: موضع قرب الكوفة يسلكه الحاج أحيانًا، وهو مأسدة، قيل هو فوق القادسيّة.

(٤) ياقوت، معجم *مذكور*، ج٤، ص٣٧٤: القُطقُطانة، القِطْقطُ: أصغَرُ المطر وتَقَطْقطت الدّلوُ في البئر إذا انحدرت: موضع قرب الكوفة من جهة البريّة بالطّفّ به كان سجن النعمان بن المنذر.

(٥) البلاذري، مصدر *مذكور*، ج٣، ص٣٧٧ ـ ٣٧٨؛ الطّبري، مصدر *مذكور*، ج٥، ص٣٩٤؛ ياقوت، معجم *مذكور*، ج٥، ص١٨: لعْلعٌ، واللّعلع في لغتهم: السراب، لعلع منزل بين البصرة والكوفة.

(٦) ابن رسته، الأعلاق النفيسة، دارإحياء التّراث العربي، بيروت، ١٩٨٨، ص١٥٩.

(٧) ياقوت، معجم *مذكور*، ج٢، ص٢٠٤: الحاجرُ: في لغة العرب ما يُسك الماء من شَفة الوادي.

(٨) الطّبري، مصدر *مذكور*، ج٥، ص٣٩٥؛ ياقوت، معجم *مذكور*، ج١، ص٤٤٩: بطنُ الرُّمَّةُ، وهو واد معروف بعالية نجد.

إلى أهل الكوفة مع قيس بن مُسهر الصّيداوي وكتب الحسين حين بلغ الحاجر[1] مع قيس بن مُسهر الصيداوي (من بني أسد) إلى أهل الكوفة: «أما بعد فإن كتاب مسلم بن عَقيل جاءني يخبرني فيه بحسن رأيكم، واجتماع ملأكم على نصرنا، والطلب بحقنا فأثابكم الله على ذلك أعظم الأجر، فاكمشوا أمركم[2]، وجدوا فيه فإني قادم عليكم في أيامي إن شاء الله، والسلام»[3].

يتضمّن هذا الكتاب إعلام الحسين أهل الكوفة بوصول كتاب مسلم بن عقيل يعلمه باجتماع كلمتهم حولهُ لنصرته، والطّلب بحقّ أهل البيت. كما أمرهم بالجدّ في أمرهم حتّى يأتيهم في الأيّام القادمة. لم يذكر الحسين في هذا الكتاب نوعيّة التّحضير هل هو تحضير أهل الكوفة لمواجهة عسكرية؟ أم ماذا؟

فالكتاب غير واضح وليس فيه برنامج سياسي أو عسكري واضح.

قتل قيس بن مُسهر الصّيداوي[4] الذي أقبل إلى الكوفة بكتاب الحسين بعد مقتل مسلم بن عقيل وهانئ بن عروة. فعند وصوله إلى القادسيّة، اعترضه الحصين بن تميم وبعث به إلى عبيد الله بن زياد. فقال له عبيد الله بأن يصعد إلى القصر فيسبّ الكذّاب ابن الكذّاب، لكنّ قيس بن مسهر عندما صعد إلى القصر ذكر أنّ «الحسين بن عليّ خير خلق الله، ابن فاطمة بنت رسول الله»[5] بالحاجر، وهو رسوله إليهم. وطلب منهم أن يجيبوه.

ولعن عبيد الله بن زياد وأباه واستغفر لعليّ. فأمر الوالي برميه من فوق القصر فتقطّع ومات.

---

(١) الحاجر: منزل للحاج بالبادية.
الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٩٥؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٧٨.

(٢) ابن منظور، معجم مذكور، ج٣، ص٢٩٥: كمش رجل كَمْشٌ وكميشٌ: عَزومٌ ماضٍ سريعٌ في أموره. وفي كتاب عبد الملك إلى الحجّاج: فاخرج إليهما كميشَ الإزار أي مُشمّرًا جادًّا.

(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٧٨.

(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٩٥؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٧٨.

(٥) المصدر نفسه.

أراد عبيد الله بن زياد أن يسبّ قيس بن مسهر ـ رسول الحسين ـ، الحسين بن عليّ وعليّ بن أبي طالب. ويندرج شتم عليّ في إطار تقوية الشرعيّة الأمويّة.

لكنّ قيس بن مسهر هدّد الشرعيّة والإيديولوجيا الأمويّة بما أنّه تجرّأ علنيًا ومن فوق القصر على إبراز الشرعيّة التاريخيّة لأهل البيت (الرّسول وفاطمة وعليّ) ويذكر اسم فاطمة ابنة الرّسول لأوّل مرّة في الخطاب السّياسي للشّيعة. وهذا يعتبر تجديد في الخطاب بما أنّه يعطي فاطمة شرعيّة تاريخيّة إضافة لشرعيّة الرّسول (أبوها) وعليّ (زوجها). وهي ستكون الشرعيّة الأساسيّة للفاطميّين في ما بعد[١]. فالمكانة الميتا ـ تاريخيّة لأهل البيت وللحسين بن عليّ أساسا بما أنّه قادم للكوفة، كانت كافية لتهديم الشرعيّة والإيديولوجيا الأمويّة [٢].

كما أنّ رسول الحسين، لعن عبيد الله بن زياد وأبيه زياد بن أبي سفيان، وفي هذا تحطيم للإيديولوجيا الأمويّة وتهديد للشّرعيّة التّاريخيّة لزياد وابنه. وفي هذا إشارة غير مباشرة وتذكير بادّعاء معاوية بن أبي سفيان لزياد بينما هو ابن عبد. كما أنّ هذا الشّتم لعبيد الله بن زياد ولأبيه يتنزّل في إطار ضرب العنصر الإيديولوجي الأموي الذي يتمثّل في شتم عليّ على المنابر.

ويرمز القصر ـ قصر الكوفة ـ إلى السّلطة، كما أنّه سيكون مكانا لتنفيذ العقاب السّياسي على رسول الحسين، مثل العقاب الذي حلّ بمسلم بن عقيل. لكنّ الفرق في أنّ هذا الرّسول لم يضرب عنقه بل رُمي حيّا من أعلى القصر فتقطّع.

كما أنّ هذا العقاب يهدف لتخويف أهل الكوفة ـ خاصّة بعد القضاء على الثّورة الشّيعيّة وقتل مسلم بن عقيل وهانئ بن عروة ـ كما كان مطلب قيس بن مسهر لأهل الكوفة لم يكن مطلبا واضحا عندما قال لهم بأن يجيبوا الحسين بن عليّ. فما معنى أن يجيبوه؟ هل هذا يعني أن يقوموا بمجهود عسكري لصالح الحركة الشّيعيّة؟ يبدو أنّ هذا الرّسول كان متشيّعا ومؤمنا بحقّ أهل البيت، واستشهد في سبيل ذلك.

(1) *E.I²*, article Fatimides.

(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٧٩: بينما يذكر البلاذري أن الحسين وآله التقوا رجلا يقال له بكر بن المعنقة بن رُود فأخبرهم بمقتل مسلم بن عقيل وهانئ، حيث رآهما يُجرّان في السّوق.

كما قام صاحب الشّرطة بأوّل عمليّة في القضاء على تحرّك الحسين بن عليّ بالقبض على قيس بن مسهر.

وعلم عبيد الله بن زياد بالمكان الذي وصل إليه الحسين وبالتّالي أمكن له الاستعداد.

قدم الحسين إلى الكوفة بعد وصول الكتاب (كتاب مسلم بن عقيل) إليه بالنّساء والصّبيان «لا يلوي على شيء». يبدو الحسين في حالة إسراع دائم للوصول إلى الكوفة.

وروى أبو مخنف أنّ عبد الله بن سُليم والمذري بن المشمعل الأسديّن ـ وهما شاهدا عيان ـ قضيا حجّهما ولحقا بالحسين فتوصّلا إليه في زرود. فلمّا قربا منه برز لهما رجل من أهل الكوفة، كان يريد الحسين أن يسأله لكنّه تردّد ومضى.

هل تخوّف الحسين من سؤال الرّجل وتوقّع حدوث مكروه فعدل عن سؤاله؟ ربّما كان هذا الاحتمال قريبا من الواقع.

فتبعه الأسديّان وسألاه عن أحوال الكوفة، فأخبرهما بأنّه يسمّى بكير بن المثعلبة[1] ـ من أسد ـ لم يترك الكوفة إلاّ و قد قُتل مسلم بن عقيل وهانئ بن عروة ورآهما يُجرّان بأرجلهما في السّوق.

والتحق به الأسديّان ـ وهما من الشّيعة ـ في الثّعلبيّة[2]، فأخبراه بأنّهما استخبرا الرّجل الذي رآه الحسين بالأمس. وهو رجل من أسد معروف برأيه وصدقه وفضله وعقله، وأعادا على مسامعه ما ذكره الرّجل من مقتل مسلم بن عقيل وهانئ بن عروة.

وتأثّر الحسين تأثّرا كبيرا، وناشده الثعلبيّان الله في نفسه وفي أهل بيته بأن يرجع عن قراره لأنّه ليس لديه شيعة ومناصرين بالكوفة. كما أنّهم تخوّفوا أن تكون

---

(١) ياقوت، معجم مذكور، ج٢، ص٧٨: الثعلبيّة: من منازل طريق مكّة من الكوفة بعد الشُّقوق وقبل الخزيميّة، وهي ثلثا الطريق.

(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٩٧؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٧٩.

الأمور عليه. عندئذٍ «وثب بنو عقيل بن أبي طالب وقالوا: والله لا نبرح حتى ندرك ثأرَنا، أو نذوق ما ذاق أخونا»[١].

فنظر الحسين إلى الأسديّان وقال: «لا خير في العيش بعد هؤلاء»[٢]. أي أنّ الحسين قرّر المضيّ إلى الكوفة. وقد سانده بعد أن عزم على المسير إلى الكوفة عبد الله بن سُليم والمذري بن المشمعل الأسديّان[٣] ـ رغم خطورة هذه الرّحلة في هذه الفترة ـ فهما من الشّيعة الذين سيصمدون معه ويدافعون عنه.

وقال له بعض أصحابه: «إنّك والله ما أنت مثل مسلم بن عَقيل، ولو قدمت الكوفة لكان النّاسُ إليك أسرع»[٤].

وسكت الحسين ولم يعلّق على هذه الملاحظة.

المهمّ أنّ مقتل مسلم بن عقيل أحدث تحوّلا هامّا في مسار الحسين إلى الكوفة. فهو تعبير عن فشل مهمّة مسلم والحسين وتخاذل الشّيعة بالكوفة عنهما. وهي صدمة عنيفة لأنّها تُعلِمُنا بفشل مهمّة الحسين قبل أن يصل إلى الكوفة.

كما برزت حركة الحسين في هذه الفترة كأنّها حركة ثأر اضطلع بها بنو عقيل بن أبي طالب. ثمّ ساندهم فيها الحسين.

ويبدو الحديث عن الثّأر في الفترة الإسلاميّة ومن قبل آل البيت غريبا. فهل كانت كلمة ثأر تعني القصاص القرآني؟ كما أنّ آل عقيل بن أبي طالب كانوا متوقّعين فشل مهمّتهم وهي أن يُقتلوا ويذوقوا نفس ما ذاق مسلم أي الموت والاستشهاد.

يظهر الحسين كأنّه ساند آل عقيل بن أبي طالب وأجبر على ذلك بدافع القرابة والتكتّل العائلي داخل أهل البيت خاصّة أنّهم رافقوه وساندوه في رحلته إلى الكوفة. كما أنّه كان في قرارة نفسه مُدركا ومتوقّعًا للفشل. بالإضافة إلى ذلك،

---

(١) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٩٨.
(٢) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٣٧٩؛ الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٩٨.
(٣) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٩٨.
(٤) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٩٨.

يبدو الحسين كأنّه ليس مدركا للواقع أي الواقع السّياسي والعسكري الأموي مقارنة بوضعيّته هو.

كما يبدو الرّحيل إلى الكوفة كعمليّة استشهاديّة قادها آل أبي عقيل. ويبدو أنّ أصحاب الحسين لم يكن لديهم علم بأوضاع الكوفة السياسيّة والعسكريّة، فشجّعوه على المضيّ إليها لأنّه سيلقى حظًّا فيها أحسن من مسلم بن عقيل.

وفي السّحر، أمر الحسين غلمانه وفتيانه بالاستِسْقَاء فأكثروا من الماء. وكان الحسين كلّما مرّ بماء للاستسقاء تبعه قوم إلى أن وصل إلى زبالة[١].

نلاحظ أنّ التزوّد بالماء كان أساسيّا بالنّسبة للحسين لمواصلة «رحلته» للكوفة. كما أنّه كان يتحصّل على دعم أنصار يتبعونه كلّ مرّة. لكنّ البلاذري لم يذكر عدد هؤلاء النّاس ومن هم. نعتقد أنّهم من الأعراب المتحمّسين لأهل البيت.

ثمّ سار الحسين إلى واقصة[٢] وأرسل أخاه من الرّضاعة عبد الله بن بقطر[٣].

ما هي حقيقة علاقته بالحسين؟ أرسل الحسين أخاه من الرّضاعة ـ وهو لا ينتمي لأهل البيت ـ فلماذا لم يُرسل أحد من أهل البيت؟ هل تخوّف عليهم من القتل؟

بينما يذكر الطبري أنّ الحسين بن عليّ عندما وصل إلى زُبالة وصله خبر مقتل عبد الله بن بقطر[٤]. فقد أرسله الحسين إلى مسلم بن عقيل وهو لا يعرف أنّه قُتل. فاعترضه في طريقه خيلُ الحصين بن تميم بالقادسيّة[٥]، فأرسل به إلى عبيد

---

(١) ياقوت، *معجم مذكور*، ج٣، ص١٢٩: منزل معروف بطريق مكّة من الكوفة، وهي قرية عامرة بها أسواق بين واقصة والثعلبيّة، وقال أبو عُبيد السَّكُوني: زُبالة بعد القاع من الكوفة وقبل الشقوق، فيها حصن لبني غاضرة من بني أسد.

ياقوت، *معجم مذكور*، ج٥، ص٣٥٤: واقصة: منزل بطريق مكّة بعد القرعاء نحو مكّة وقبل العقبة لبني شهاب من طيّء ويقال لها واقصة الحزون وهي دون زبالة بمرحلتين وإنما قيل لها واقصة الحزون لأن الحزون أحاطت بها من كلّ جانب والمصعد إلى مكّة ينهض في أوّل الحزن من العُذَيب في أرض يقال لها البيضة حتى يبلغ مرحلة العقبة في أرض يقال لها البسيطة ثم يقع في القاع وهو سهل.

(٢) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٣٧٩.

(٣) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٩٨.

(٤) ياقوت، *معجم مذكور*، ج٢، ص٢٠٤: القادسيّةُ، بينها وبين الكوفة خمسة عشر فرسخاً، وبينه وبين العُذيب أربعة أميال؛ ياقوت، *معجم مذكور*، ج٢، ص٢٠٤: العُذيب: «تصغير العذب، وهو الماء =

الله بن زياد، فأمره أن يصعد إلى القصر فيلعن الكذّاب ابن الكذّاب، ثمّ ينزل فيُقرّر الوالي أمره فيه.

فصعد فلمّا أشرف على النّاس قال: «أيّها النّاس، إنّي رسول الحسين ابن فاطمةَ بنت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لتنصروه وتوازِروه على ابن مَرْجَانة ابن سميّة الدعيّ»[1]. فأمر عبيد الله أن يُلقى من فوق القصر، فكُسرت عظامه، وبقي حيّا، فجاءه رجل، أو عبد الملك بن عُمَير اللّخميّ[2]، أو رجل يشبهه»[3]. فذبحه، وعندما عيب عليه قتله أجاب بأنّه أراد أن يُريحه.

أُعيد نفس السّيناريو الذي طُبّق على قيس بن مسهر الصيداوي بالنّسبة لعبد الله بن بقطر. فقد قبض عليه الحصين تميم وسرّحه لعبيد الله بن زياد. فطلب منه الوالي أن يصعد فوق القصر واستغلّ رسول الحسين الفرصة ليُقوّض الشّرعيّة الأمويّة وأساسا شرعيّة عبيد الله بن زياد لانتمائه لجدّة بغيّ وهي سميّة أمّ زياد. كما مسّ شرعيّة زياد الذي ادّعاه معاوية. وقوّض شرعيّة مرجانة أمّ الوالي.

وذكرت للمرّة الثّانية شرعيّة الحسين المستمدّة من فاطمة ابنة الرّسول، وهي شرعيّة تقضي بدون شكّ على الإيديولوجيا والشّرعيّة الأمويّة.

وطلب الوالي أن ينفّذ نفس الحكم على عبد الله بن بقطر برميه من القصر فتكسرت عظامه. فهذا العنف السّياسي في العقاب هو عنف جديد لأنّه يعذّب المعارض ثمّ يقتله. وقد ابتدع ابن زياد ذلك ليُعاقب أشدّ عقاب الشّيعة، ويقمع هذه الثّورة. ويعجّل بفشل حركة الحسين.

= الطيب: وهو ماء بين القادسيّة والمغيثة، بينه وبين القادسية أربعة أميال وإلى المغيثة اثنان وثلاثون ميلاً، وقيل هو واد لبني تميم، وهو من منازل حاج الكوفة، وقيل هو حدّ السّواد، وقال أبو عبد الله السّكوني: العذيب يخرج من قادسيّة الكوفة إليه وكانت مسلحة للفرس، بينها وبين القادسيّة حائطان متّصلان بينهما نخل وهي ستّة أميال فإذا خرجت منه دخلت البادية ثمّ المغيثة».

(١) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٩٨؛ البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٣٧٩.

(٢) وكيع، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٣: هو من القرّاء الذين يُتوقّع أنّه قضى بعد الشّعبي؛ ابن سعد، *مصدر مذكور*، ج٦، ص٣١٣: هو حليف لبني عديّ بن كعب من قريش. روى الحديث.

(٣) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٩٨؛ البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٣٧٩.

فأصبح الصّراع بين شرعيّة شخصين متعاديين، من ناحية الحسين بن عليّ المُطالب بحقّ أهل البيت. ومن ناحية أخرى، شرعيّة عبيد الله بن زياد ممثّل السّلطة الأمويّة، وابن عمّ الخليفة الذي يجب أن يدافع عن شرعيّته الشّخصيّة إضافة لشرعيّة الدّولة.

وفشلت حركة الحسين بن عليّ قبل حلوله بالكوفة لقوّة السّلطة الأمويّة المشخّصة في عبيد الله بن زياد، والتي جعلت من العقاب السّياسي والقتل المبرم وسيلة للقضاء على الثوّار من الشّيعة.

كما كانت وسيلة الوالي لترهيب الكوفيّين ومعرفة مكان الحسين حتّى يتمكّن من الاستعداد إليه استعدادا تامّاً.

يبدو من خلال هذه الرّواية تصاعد العنف والإجرام بالكوفة بعد القضاء على ثورة مسلم بن عقيل. فذبح عبد الله بن بقطر لم يأمر به الوالي بل أحد «المتفرّجين» على موكب القتل الذي نظّمه عبيد الله بن زياد.

ويمكننا الاعتماد على ما ذكره الأستاذ هشام جعيّط لتفسير هذه الظّاهرة. فقد ظهر هذا العنف بداية الانتفاض على عثمان أو الاضطراب الذي يتبع الحقّ العام وهو مرتبط بالاضطراب السّياسي. كما ظهرت نزعة مخيفة إلى الإجرام.

وكان ذلك عبارة عن نوائب من الحمّى، واهتزازات من الضيق لكنّه كان كذلك انخرام طرأ على تكيّف الروح العربيّة بالمحيط. إضافة لضياع الفرد في المدينة التي عمّتها البلبلة، وأخيرًا فهو عنف عادي يفرزه كلّ تواجد حضري في كلّ عصر ويحتار منه النّاس فتستغلّه السّلطة أو المشوّشون في اتّجاهات مختلفة[1].

من الغريب أنّ القاتل ـ قاتل عبد الله بن بقطر ـ ذكر على أساس أنّه أحد القرّاء

---

(١) هشام جعيط، *نشأة المدينة العربيّة الإسلاميّة الكوفة*، ص٣٢٠.

في الكوفة وهو عبد الملك بن عُمير اللّخمي. ثمّ تدارك الرّاوي الخطأ، وذكر أنّ القاتل القاتل يشبهه. المهمّ أنّ قتل عبيد الله بن زياد للرّسول الثّاني للحسين هو ضرب جديد للحركة الشّيعيّة وإفشال لمشروع الحسين.

وبعد أربع ليال وفي زبالة، وصل رسول ابن الأشعث (على لسان مسلم بن عقيل) إلى الحسين وهو إياس بن العثل الطائيّ من بني مالك بن عمرو بن ثمامة (وهو شاعر و زوّار لابن الأشعث)[1].

وهذه الرّسالة تتمثّل في: «إنّ ابن عَقيل بعثني إليك، وهو في أيدي القوم أسير لا يَرَى أن تمشيَ حتّى تُقتل، وهو يقول: ارجعْ بأهل بيتك، ولا يغرّك أهل الكوفة فإنّهم أصحاب أبيك الذي كان يتمنّى فراقَهم بالموت أو القتل؛ إنّ أهل الكوفة قد كذَبوك و كذَبوني، وليس لمكذّب رأي»[2].

كانت هذه الرّسالة عن فشل مهمّة ابن عقيل ووقوعه في أيدي الوالي عبيد الله بن زياد. كما أنّه بيّن له خذلان أهل الكوفة له وللحسين وكذبهم عليهما.

فقال الحسين للرّسول: «كلُّ ما حُمَّ[3] نازل، وعند الله نحتسب أنفسَنا وفساد[4] أمَّتنا».

يبدو هذا الجواب من قبل الحسين جوابا مرتبطا بالأخلاقيّة الدّينيّة أي أنّ كلّ شيء مقدّر من الله. كما أنّه يشكو الله فساد الأمّة. فربّما قصد الحسين بفساد الأمّة الفتنة وقطع الأرحام من قبل ابن زياد. لكنّه لم يذكر إن سيُكمل مسيرته. المهمّ أنّ الحسين شعر بألم عميق وحزن على فقدان ابن عمّه، وفقدان دعم أهل الكوفة وتراجعهم عن مساندته بعد وعود كثيرة وإلحاح كبير.

إذ وصلت للحسين كلّ الأخبار المتعلّقة بمقتل ابن عمّه وأخيه من الرّضاعة في

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٧٥.

(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٧٥.

(٣) ابن منظور، معجم مذكور، ج١، ص٧٢٥: حُمّ هذا الأمرُ حُمًّا إذا قُضيَ. وحُمّ له ذلك: قُدّر.

(٤) ابن منظور، معجم مذكور، ج٢، ص١٠٩٥: تفاسد القوم: تدابروا وقطعوا الأرحام؛ الأنفال ٨/ ٧٣ ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾.

زبالة. وهي تبعد ١٨٨ ميلاً أي ٣٩٦ كلم عن الكوفة. وهي تُقدّرُ بـ ٧ أو ٨ أيّام. بينما الثّعلبيّة أبعد بثلاث مراحل، وهي على ثلث الطريق من بغداد إلى مكّة أي أقلّ من المسافة من الكوفة إلى مكّة.

وأخرج الحسين للنّاس كتابا وقرأهُ عليهم. وهو يتضمّن نعي مسلم بن عقيل وهانئ بن عروة وعبد الله بن بقطر وخذلان شيعته له. وخيّرهم أن يبقوا معه أو ينصرفوا فليس عليهم حرج.

لماذا كتب كتابا وقرأه على النّاس؟ هل هذا معناه أنّه كان شديد التأثّر ولا يستطيع أن يرتجل خطابًا فكتب هذا الكتاب؟ أم أنّ هذا الكتاب هو عبارة عن بلاغ رسميّ لا يرتجل؟

بعد قراءته للكتاب تفرّق عنه النّاس، ولم يبق معه إلاّ أصحابه الذين جاؤوا معه من الحجاز[١].

ويرجع هذا الإعلان ـ حسب رواية أبي مخنف ـ إلى أنّه أراد أن يُعلم الأعراب الذين ظنّوا أنّه يأتي بلدا استقامت له طاعة أهله، فأراد يُوضّح لهم حتّى لن يبقى معه «إلاّ من يُريدُ مواساته أو الموتَ معه»[٢].

كانت الأخبار التي وصلت الحسين بن عليّ من الكوفة أخبار سيّئة. فقد فشلت مهمّة مسلم بن عقيل بالكوفة فشلا ذريعاً. وخذل الشّيعة مسلم والحسين. وسيطر والي العراق على الأوضاع بكلّ قوّة.

كما انفضّ عن الحسين النّاس أو الأعراب الذين رافقوه ولم يبق إلاّ في أهل بيته بعد أن أعلمهم بفشل مهمّة مسلم بن عقيل. لكنّ هذا الفشل لم يثنه عن عزمه رغم أنّه مقبل على عمليّة انتحاريّة.

وكانت للحسين إمكانيّة الرّجوع إلى الحجاز بما أنّه لم يصل بعد «للمنطقة العسكريّة» التي هيّأها الأمويّون لمواجهته. كما أنّه لم يكن لديه علم بهذه

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٨٠؛ الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٩٨ ـ ٣٩٩.

(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٩٩.

الاستعدادات العسكريّة. فهل كان الحسين يتصوّر المجهود العسكري الأموي؟

وظهر مفهوم الأصحاب الذين يقاتلون معه ويُواسونه ويموتون معه.

فهل كان الحسين واثقا من مقتله ومع ذلك أصرّ على موقفه؟ فماذا يعني هذا هل كانت رؤيا الرّسول التي تحدّث عنها قبل خروجه إلى الكوفة دافعا على المسير؟

صمّم الحسين على المسير نحو الكوفة بضغط من إخوة مسلم بن عقيل الذين صمّموا على الثّأر لأخيهم أو الموت في سبيل ذلك. إذ كانوا مصمّمين على الاستقتال. فهل كانت الرّحلة فاشلة وخاسرة الأهداف ومأسويّة منذ زبالة؟ تبدو هذه الرّحلة كأنّها رحلة بطل إغريقي ورجاله (عشيرته) نحو قدر محتوم مآله الموت والإبادة.

بعد التوقّف بزُبالة، أمر الحسين فتيانه بالاستسقاء، فأكثروا من الماء وانتقل الحسين حتّى مرّ ببطن العقبة[1]، فنزل بها. واعترض الحسين أحد بني عكرمة[2] الذي سأله إلى أين يذهب. فقال له بأنّه ذاهب إلى الكوفة، فنصحه بأن لا يذهب لأنّه سيقدم على الأسنّة والسّيوف. كما نبّهه بأنّ أهل الكوفة الذين بعثوا إليه إن كانوا قاتلوا عوضا عنه وسهّلوا له الأمور، فهو أفضل له. لكنّ ذهابه بهذه الطّريقة ليس مجديا. لكنّ الحسين أجاب بأنّ هذا الأمر لا يخفى عليه، «لكنّ الله لا يُغلب على أمره»[3].

كان الحسين مصمّما على الرّحيل إلى الكوفة، رغم كلّ العراقيل أوّلهما أنّه ليس لديه جيش. كما أنّه خسر دعم أهل الكوفة. وكانت حجّته في التمسّك بالرّحيل إلى الكوفة، بأنّ الله كلّفه بهذه المهمّة. فهو مدفوع بدوافع روحيّة قويّة. ثمّ ارتحل الحسين من هذا المكان.

ويبدو أنّه رغم مقتل مسلم بن عقيل وقمع حركته في الكوفة، فقد نشأت حركة

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٩٩؛ ياقوت، معجم مذكور، ج٤، ص١٣٤: منزل في طريق مكّة وقبل القاع لمن يريد مكّة، وهو ماء لبني عكرمة من بكر بن وائل؛ ياقوت، معجم مذكور، ج٤، ص٢٩٨: القاعُ: منزل بطريق مكّة بعد العقبة لمن يتوجّه إلى مكّة تدّعيه أسدٌ وطيء ومنه يُرحلُ إلى زُبالة.

(٢) ابن حزم، مصدر مذكور، ص٢٦٠: عكْرمة بن خصفة من قيس.

(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٩٩.

موالاة للحسين بن عليّ. وهبّ شخص يدعى عبد الله بن يسار إلى تشجيع النّاس على نصرة الحسين والقتال معه [(١)] وهو عبد الله بن يسار ـ ويسار هو أبو عقب ـ.

وتزوّج امرأة من مراد (المعروفين بتشيّعهم فهم يمثّلون عشيرة هانئ بن عروة).

فتتبّعه عبيد الله بن زياد يريد قتله لكنّه توارى منه. ولا توفّر المصادر معلومات ضافية عن تكتّل النّاس بالكوفة نتيجة هذا النّداء. فهل هي حركة فرديّة لمناصرة أهل البيت؟

تبدو هذه الحركة محدودة فهي تعبر عن حبّ لأهل البيت لكنّ النّاس كانوا متخوّفين من قمع عبيد الله بن زياد لهم.

كانت مسيرة الحسين إلى الكوفة تتخلّلها عدة أحداث: حذّره أشخاص التقاهم من مغبّة الذّهاب للكوفة، وانضمّ إلى صفّه آخرون، وورد إليه رسول مسلم بن عقيل بمناصرة أهل الكوفة له، وأرسل الحسين عبد الله بن بقطر لمسلم بن عقيل.

ثمّ وصلته أخبار مقتل مسلم بن عقيل وهانئ بن عروة وعبد الله بن بقطر وانفضّ عنه النّاس.

ويبدو أنّ قرار المضيّ للكوفة اتّخذه الحسين بتأثير من إخوة ابن عقيل الذين صمّموا على الثّأر لأخيهم. وهي مسيرة مفعمة بالرمزيّة (ابن الرّسول) والعاطفيّة.

مقتل الحسين

قدوم الحرّ بن يزيد التّميمي

واصل الحسين بن عليّ مسيره إلى الكوفة، فبلغ شراف[(٢)] في محرّم سنة ٦١هـ/

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٧٧.

(٢) ياقوت، معجم مذكور، ج٣، ص٣٣١: «شَرَافٌ، من الشرف وهو العلوّ. ماء بنجد له ذكر كثير في آثار الصّحابة ابن مسعود وغيره. وقال أبو عبيد السكّوني: شراف بين واقصة والقرعاء على ثمانية أميال من الأحساء التي لبني وهب»؛ ياقوت، معجم مذكور، ج٤، ص٣٢٥: «القرعاء: تأنيث الأقرع، كأنّها سُمّيت بذلك لقلّة نباتها: وهو منزل في طريق مكّة من الكوفة بعد المغيثة وقبل واقصة إذا كنت متوجّها إلى مكّة. و بين القرعاء وواقصة ثمانية فراسخ»؛ الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٠٠؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٨٠.

٦٨٠م. واستمرّت الرّواية على لسان عبد الله بن سليم والمذري بن المشمعلّ الأسديَّين.

فلمّا كان في السّحر أمر فتيانه فاستقوا وأكثروا من التزوّد بالماء، ثمّ ارتحلوا منها حتّى منتصف النّهار، فكبّر رجل من رجال الحسين معتقدا أنّه رأى نخْلاً. لكنّ الأسديّان أجابا بأنّه لا يوجَدُ نخلٌ بهذا المكان، إنّما رأى أوائل الخيل.

فسأل الحسين الأسديّان عن ملجأ يلجأون إليه، فيجعلونه في ظهورهم ويستقبلون القوم من وجه واحد. إذ عدل عن طريق الكوفة واتّجه نحو الشّمال، فأجاباه بأنّ أقرب موضع هو ذو حسُم[1]، يميل إليه عن يساره. وأشارا عليه بأن يسبق القوم إليه فسبقوهم وضربوا خيامهم فيه[2].

يبدو أنّ الحسين ورجاله ـ ما عدا الأسديّان وهما من أهل الكوفة ـ لم يكونوا لديهم علم بالطّريق ولا بالمواقع وبالتّالي لم يكن لديهم استراتيجيا عسكريّة أو مخطّطات عسكريّة واضحة. وبالتّالي كانت هذه الرّحلة غير واضحة الأهداف السياسيّة والعسكريّة خاصّة بعد خذلان أهل الكوفة له ومقتل مسلم بن عقيل وعبد الله بن بُقطر. على هذا الأساس، سأل الأسديّان عن مكان يحتمي به ورجاله عندما رأى طلائع الخيل. وهنا نتبيّن بعض الغموض والالتباس: فهل كان الحسين متأكّدًا من إرسال عبيد الله بن زياد جيشًا لمحاربته فاستعدّ بصفة ارتجاليّة لذلك؟ ربّما أحسّ الحسين بهذا الخطر، لكنّ الأمور لم تزل غير واضحة في هذه الفترة.

وواصلَ الأسديّان روايتهما فذكرا قدوم ١٠٠٠ فارس مع الحرّ بن يزيد التّميميّ اليربوعيّ[3] سلاحهم الرّماح،

---

(١) ياقوت، معجم مذكور، ج٢، ص٢٥٨: «حُسَمُ كأنّه معدول عن حاسم وهو المانع، ويُرْوى حُسُمٌ، وهو اسم موضع في شعر النّابغة».

(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٠٠.

(٣) ابن حزم، مصدر مذكور، ص٢٢٧: «الحرّ بن يزيد بن ناجية بن قعْنب بن عتّاب الرذف بن هرْميّ بن رياح بن يربوع، الذي بعثه عُبيد الله بن زياد لِيَشْغَل الحسين بن عليّ ـ رضي الله عنهما ـ فمال إلى الحسين، فقتل معه رحمة الله عليه». (رياح بن يربوع من تميم).

وحاملين الرّايات «كأنّ أسنّتهم[1] اليعاسيب[2]، وكأنّ راياتهم أجنحة الطير»[3].

يبدو هذا الجيش على استعداد للقتال، فهو يتركّب من الخيّالة من المقاتلة. وقد أرسلهم الحصين بن تميم التّميمي ـ صاحب شرطة عبيد الله بن زياد ـ من القادسيّة بعد أن أمره الوالي بوضع المسالح فينظّم ما بين القُطقطانة إلى خَفّان.

وكانت الرّسالة لصاحب الشّرطة تدلّ على مخطّط أوسع. فقد كانت المحطّات تتمثّل في:

- من الكوفة إلى القادسيّة: ١٥ ميلاً
- من القادسيّة إلى العُذيب: ٦ أميال (وهي مسلحة)
- وبعد العُذيب الدّخول في البريّة.
- من القادسيّة إلى المُغِيثَة[4]: ٣٠ ميلاً
- ومن المُغيثة إلى القرعاء: ٣٢ ميلاً
- ومن القرعاء إلى واقصة: ٢٤ ميلاً
- ومن واقصة إلى العقبة: ٢٩ ميلاً
- ومن العقبة إلى القاع[5]: ٢٤ ميلاً
- ومن القاع إلى زبالة: ٣٤ ميلاً

---

(١) ابن منظور، معجم مذكور، ج٢، ص٢٢١: السّنان: سنان الرّمح.

(٢) ابن منظور، معجم مذكور، ج٢، ص٧٧٢: اليَعْسوبُ: أمير النّحلِ وذكرُها.

(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٠٠.

(٤) ياقوت، معجم مذكور، ج٥، ص١٦٢: المُغِيثَةُ: «غاث الله البلاد إذا أنزل بها الغيث: منزل في طريق مكّة بعد العُذَيب نحو مكّة وكانت أوّلا مدينة خربت، شرب أهلها من ماء المطر، وهي لبني نبهان، وبين المغيثة والقرعاء الزُّبيديّة. بينه وبين القرعاء اثنان وثلاثون ميلاً، وبينها وبين القادسيّة أربعة وعشرون ميلاً».

(٥) ياقوت، معجم مذكور، ج٤، ص٢٩٨: «القاعُ: هو ما انبسط من الأرض الحرّة السّهلة الطّين التي لا يُخالطها رملٌ فيشرب ماءها، وهي مستوية ليس فيها تطَامُنٌ ولا ارتفاعٌ. وقاعٌ ك منزل بطريق مكّة بعد العقبة لمن يتوجّه إلى مكّة تدّعيه أسدٌ وطيّء ومنهُ يُرحل إلى زُبالة».

كان هذا الجيش الذي أرسله صاحب الشّرطة يمثّل قسما من الجيش أو فرقة متركّبة من ١٠٠٠ فارس، أُرسِل «ليستقبل الحسين». ومفهوم الاستقبال هنا هو محاصرة الحسين ومراقبته ومنعه من دخول الكوفة.

ووقف الحرّ بن يزيد هو ورجاله مقابلا للحسين بن عليّ في «حرّ الظّهيرة»[1]. كما كان حفيد الرّسول ورجاله متقلّدو السّيوف.

فكلّ الدّلائل تشير إلى أنّ مواجهة عسكريّة ستحدث بين الفريقين، لكنّ ردّ فعل الحسين يفاجئنا حيث يأمر فتيانه أن يسقوا الفرسان الماء حتّى يرووهم. ويرشّفوا الخيل ترشيفًا[2].

وهو كرم يذكّرنا بالجاهليّة، فقد قدّم الحسين الماء للفرسان والخيول رغم أنّه هو وأصحابه يحتاج للماء في بيئة صحراويّة يحتلّ فيها الماء مكانة هامّة. فلنتصوّر مشهدا كهذا، ففي حرّ الظّهيرة قدّم فتيان الحسين الماء لهذا الجيش المعادي فسقوا ألف فارس وألف حصان.

فهل أراد الحسين بذلك أن يبدأ هذا الجيش بالفعل الحسن والمعروف حتّى لا ينشب القتال بينهما؟

كما تصرّف الحسين انطلاقًا من أخلاقيّة تقليديّة (سيّد القبيلة أو العشيرة)، وأخلاقيّة إسلاميّة تتنافى مع ما سيقوم به الأمويّون ضدّه (منعه من الشّراب في إطار إيديولوجيا القصاص لعثمان).

فلزم الحرّ بن يزيد الحسين لكنّه لم يذكر سبب قدومه. وحضرت صلاة الظهر،

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٠٠؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٨٠.

(٢) ابن منظور، معجم مذكور، ج١، ص١١٧٠: رشف الماء: المصُّ. والرَّشَفُ والرُّشْفُ: بقيّة الماء في الحوضِ، وهو وجه الماء الذي ارتشفته الإبل.

فأمر الحسين أحد شيعته الحجّاج بن مسروق الجعفي[1]، أن يؤذّن، فخطب الحسين مبيّنا أنّه لم يأتهم إلاّ بعد أن أتته كتبهم، وأرسلوا له رسلهم بأن يقدم عليهم لأنّهم بدون إمام. وطلب منهم أن يعطوه العهود والمواثيق لكي يقدم مصرهم. وإن كانوا كارهين لذلك، يعود إلى الحجاز[2]. لكنّهم لم يجيبوه وسكتوا[3].

يُحدّث الحسين بن عليّ أصحاب الحرّ بن يزيد ويبيّن لهم مشروعه. وهو يتكلّم عن الكتب كأنّهم شيعته بينما هم أناس مخلصون للأمير وللسّلطة.

لماذا سكتوا؟

وسأل الحسين الحرّ إن كان يريد أن يُصلّي بأصحابه، فأجابه بأنّهم يُصلون بصلاته. فصلّى بهم الحسين[4].

وهذه الوضعيّة هي وضعيّة غريبة لأنّ الحرّ بن يزيد ـ رغم أنّه يمثّل الدولة الأمويّة ـ صلّى بصلاة الحسين أي أنّه إلى حدّ الآن لم يحدث انشقاق على مستوى الصّلاة. على عكس ابن الزّبير الذي كان في الحجّ يصلّي وحده، ويفيض بإفاضته.

وكان والي المدينة عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق يُصلّي وحده ويُفيض بإفاضته.

وبعد الصّلاة، انصرف الحسين واجتمع إليه أصحابه. ودخل الحرّ لخيمته واجتمع إليه بعض أصحابه. ورجع أصحابه إلى الصفّ الذين كانوا فيه، وجلس كلّ فارس في ظلّ دابّته[5].

---

(١) ابن حزم، مصدر مذكور، ص٤٠٩ جُعفي بن سَعْد العشيرة من اليمن.

(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٨٠.

(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٠١.

(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٠١ ـ ٤٠٢.

(٥) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٠٢.

وهنا لا بدّ من الإشارة إلى دقّة الوصف فكأنّها صور من فيلم سينمائيّ.

وتتواصل الرّواية فتذكر أنّه لـمّا جاءت صلاة العصر، أمر الحسين أصحابه أن يستعدّوا للرّحيل.

ونادى المؤذّن بالعصر، فصلّى الحسين بالنّاس. ثمّ خطب مرّة ثانية في أصحاب الحرّ فدعاهم أن يتّقوا الله ويعترفوا بحقّ أهل البيت، فهم أولى بولاية «هذا الأمر» من هؤلاء المدّعين ما ليس لهم، والمتّبعين الظلم والعدوان.

وأضاف الحسين إن هم كرهوهم، وجهلوا حقّهم، وكان رأيهم مخالفًا لما ورد في كتبهم، فهو يرحل عنهم[١].

لكنّ الحرّ أجابه: «إنّا والله ما ندري ما هذه الكُتُب التي تذكر!»

فأمر الحسين بأن يأتيه أحد رجاله بالخرجين وهما مملوءين كتباً، ونشرها بين أيديهم.

فأجابه الحرّ بن يزيد بأنّهم ليسوا من هؤلاء الذين كتبوا إليه، وقد أُمروا بأن لا يُفارقوه حتّى يأتون به إلى عبيد الله بن زياد.

يبدو أنّ خطاب الحسين (حقّ أهل البيت) لم يكن مسموعا ومفهوما من الحرّ بن يزيد وأصحابه.

ونشأ نوع من سوء التّفاهم بين الطّرفين. فالحسين خلط بين الشّيعة الذين أرسلوا إليه الكتب وجنود الوالي. وحرص أن يُبرّر موقفه بإظهار الكتب على أساس أنّه لم يخرج في عصيان.

عندها صرّح الحرّ بن يزيد بحقيقة هويّته وهويّة أصحابه والغرض من مأموريّته.

يطرح هذا الخبر إشكالا، لماذا عندما سمع الحسين بهذا وهو خارج منطقة والي العراق، لم يرجع.

كان هناك ضغط إخوان مسلم بن عقيل. فهو كما سبق أن قلنا يُقدم على عمليّة

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٠٢؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٨٠.

انتحاريّة أو هو يعتقد أنّ مجيئه سيغيّر الأمور، ولو بعد مقتل مسلم. فهو غير عالم بالموقع الحالي للأمور ولا بمجرى المصر وتغيّره وتنظيمه. فكانت نظرته خاطئة تماما على صعيدين.

كما أنّ الحسين بن عليّ كان يخاطبُ مقاتلة من جيل جديد تربّوا على شتم عليّ واستنقاصه. لهذا لم يكونوا حسّاسين لخطاب الحسين.

كما تغيّرت مواقف الجيل القديم من الأشراف. وقد وقع هذا بعد ٢٠ سنة من حكم معاوية.

المهمّ أنّ الجوّ تعكّر بين الحسين والحرّ بن يزيد، وأجابه الحسين بأنّ الموت أدنى إليه من ذلك. وأمر أصحابه أن يركبوا، وركبوا وانتظروا حتّى ركبت نساؤهم[١].

وأمر أصحابه بالرّحيل لكنّ الحرّ بن يزيد منعهم من ذلك، وقال للحسين بأنّه يريد أن يأخذهم إلى ابن زياد. لكنّ الحسين رفض أن يتبعه.

«وترادّا القول ثلاثَ مرّات»[٢]، فقال الحرّ بن يزيد للحسين بأنّه لم يُأمر بقتاله كما أنّه كان يحترمه ـ وهذا يفسّر عدم إقدامه هو ورجاله على القتال، فبدوا مسالمين رغم أنّهم مسلّحين ـ ووصل الحرّ إلى اتّفاق حيث قال للحسين بأن يتّخذ طريقا لا تُدخلهُ إلى الكوفة، ولا تردّه إلى المدينة، تكون بينهما حتّى يكتب الحرّ إلى ابن زياد ويكتب الحسين إلى الخليفة يزيد بن معاوية [٣].

وكان الحرّ يخشى أن يُبتُلي بشيء من أمر الحسين أي أنّه حرص على أن لا يمسّه بسوء. كما أنّه أراد أن ينقذه إلى حدّ ما. فقال له «فخذ هاهنا فتياسرْ عن طريق العُذَيب والقادسيّة، وبينه وبين العُذيب ثمانية وثلاثون ميلاً.

وسار الحسين في أصحاب والحرُّ يسايره»[٤].

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٨١؛ الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٠٢.
(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٨١؛ الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٠٢.
(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٨١؛ الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٠٣.
(٤) نفس المصدر.

نُسبت إلى الحسين خطبة ثالثة موجّهة إلى أصحاب الحرّ ألقاها بالبِيضة[١]. وقد ذكر فيها الحسين حديثًا للرّسول: «من رأى سُلطانًا جائِرًا مستحلاً لِحُرَم الله، ناكثًا لعهْدِ الله، مخالفًا لسنّة رسول الله، يعملُ في عباد الله بالإثم والعُدوان، فلم يُغيّر عليه بفعل ولا قول، كان حقًا أن يُدخله مُدخلَه»[٢].

حاول الحسين أن يُحطّم الإيديولوجيا والشرعيّة الأمويّة[٣] بالرّجوع للسنّة النبويّة بما أنّه أحسن ممثّل للرّسول. لكنّ هذا الخطاب بدا ضعيفًا وباهتًا ومنعدم التّأثير. فقد كان السّياسي أي الدّولة الأمويّة بقوّتها وجبروتها إيديولوجيًا (التّعتيم على القرآن والسنّة) ومؤسّساتيًا (هنا الجيش) أقوى تأثير من الخطاب الدّيني أو شرعيّة أهل البيت.

كما أنّه انتقد بشدّة الأمويّين سياستهم: لزموا طاعة الشّيطان، وتركوا طاعة الرّحمن، وأظهروا الفساد، وأحلّوا حرام الله، وحرّموا حلاله، وعطّلوا الحدود. فقد اعتبر الحسين الأمويّين خارجين عن الأخلاقيّة القرآنيّة بما أنّهم قاموا بالعديد من التّجاوزات على حساب القرآن والسنّة.

وتصرّف الأمويّون كالملوك الفرس والبيزنطيّين، فاستأثروا بالفيء. وهذا يدخل في إطار مظاهر الملك[٤].

يبدو خطاب الحسين بن عليّ غير مواكب لتطوّرات الفترة (تطوّرات الدّولة الأمويّة التي أخذت طابعا ملكيًا وقمعيًا، وقوّة الارتباط الإيديولوجي بين أشراف الكوفة والدّولة). كما أنّه أدان الأمويّين على إتّباعهم عدّة مظاهر من مظاهر الملك. وهي كلّها ترجع لمجهود الخليفة معاوية بن أبي سفيان لمدّة عشرين سنة. وقد ابتدأ معاوية بتركيز مظاهر الملك منذ ولايته على الشّام في عهد الخليفة عمر بن الخطّاب والخليفة عثمان بن عفّان.

---

(١) ياقوت، معجم مذكور، ج١، ص٥٣٢: البِيضة: «ماءٌ بين واقصة والعُذَيب متّصلة بالحزْن لبني يربوع».
(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٠٣.
(٣) انتماء الأمويّين للطلقاء.
(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٠٣؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٨١.

وكان الحسين يرى أنّ له حقّ في السّلطة لقرابته من الرّسول أو لانتمائه لأهل البيت. ويبدو خطابه أكثر وضوحا من المرّات السّابقة حيث يركّز على البيعة التي أعطاها له أهل الكوفة عن طريق الرّسل. فهي بيعة من نوع خاصّ لأنّه لم يكن هناك موكب لتقديم البيعة بل هي بيعة بالوساطة.

ويرى الحسين أنّ بيعته في أعناقهم فإن خلعوها فهم متعوّدون على ذلك فقد فعلوا ذلك مع أبيه وأخيه وابن عمّه مسلم بن عقيل.

كان الحسين متوتّرا وذكّر بتاريخيّة العلاقة (علاقة خذلان) بين عليّ بن أبي طالب وأهل الكوفة، ثمّ في علاقتهم بالحسن فاضطرّ لإبرام الصّلح مع معاوية. لكنّ هذه العلاقة بلغت درجة كبيرة من التّخاذل في ثورة مسلم بن عقيل.

يبدو أنّ الحسين كان يتكلّم خطابا غير مؤثّرٍ وغير مفهومٍ من أصحاب الحرّ بن يزيد لأنّهم يمثّلون جيلا جديدا.

كان الحسين يذكر لهم أشياء يجهلوها بما أنّهم من الأجيال الجديدة التي تربّت على التّعتيم على القرآن والسنّة. كما أنّها نشأت في بيئة من البطش والجبروت أنشأها زياد للقضاء على العنف القبلي والفوضى التي أعقبت الفتنة الأولى. ويبدو أنّه وصل إلى مرحلة أحسّ فيها بالفشل.

ونُسبت للحسين خطبة رابعة[1] ألقاها على أصحاب الحرّ بن يزيد ألقاها في ذي حُسُم يذكر فيه الحسين تنكّر الدّنيا وتغيّرها. فأصبح «الحقّ» متروكًا، واتُّبع الباطل. وأصبح الحسين يتمنّى الاستشهاد بالموت على العيش مع الظّالمين.

تحتوي هذه الخطبة على نفس روحيّ ودينيّ عميق. كما أنّ الحسين يستند دائما على شرعيّة دينيّة وعلى شرعيّة الانتماء لأهل البيت. بينما كان يهاجم الشرعيّة التّاريخية الأمويّة. لكنّه بدا يحسّ بمرارة جديدة لعلّها تولّدت من تأثّره بعدم تفاعل مقاتلة الكوفة مع خطابه.

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٠٣ ـ ٤٠٤.

وكان ردّ الفعل على هذه الخطبة في الدّائرة الضيّقة لأصحابه، فتكلّم زهير بن القين البجليّ وعبّر لابن رسول الله بأنّ الدّنيا لو كانت مخلّدة لهم، فهم يختارون الاستشهاد في سبيل نصرته ومواساته[1].

يبدو أنّ ظهور مفهوم الاستشهاد أو مواساة الحسين والموت في سبيل نصرته ظهر بقوّة بين صفوف أصحاب الحسين لتشجيعه لأنّه بدأ يُحسّ بالفشل.

وجاء الحرّ وهو يساير الحسين وقال له بأنّه إن قاتل فإنّه سيُقتل ويُهلكُ. فأجابه الحسين مستنكرا تخويفه بالموت وأضاف: «وهل يعدو بكم الخَطْب أن تقتلوني»[2].

لكنّ الحسين أجابه بأنّه إن مات في سبيل نصرة الحقّ فهو لا يأبه بموته وأنشده شعر أحد الأوس الذي هبّ لنصرة الرّسول. وقد قال هذا الشّعر ردّا على ابن عمّه الذي قال له أين تذهب؟ فإنّك مقتول:

سأمضِي وما بالموتِ عارٌ على الفتى إذا ما نَوَى حقًّا و جاهدَ مسلمَا

وآسى الرجالَ الصالحينَ بنفسِه وفارق مثبورًا يَغُشُّ و يُرْغما[3]

يذكّر الحسين دائمًا بشرعيّته التّاريخيّة أي شرعيّة أهل البيت. من الممكن أنّ الحسين كان يرى أنّ أهل الكوفة لن يجرؤوا على قتله لمكانة أبيه، ولكونه يعتقد أنّ شيعته كثيرة. لكنّنا نتساءل أين هم الشّيعة؟ ويمكن أيضا لمكانته من الرّسول. كما أنّه مازال يعتقد أنّ أهل الكوفة سيأتونه ناصرين له.

ولأوّل مرّة منذ أن جاء الحرّ بن يزيد ورجاله تظهر كلمة القتل، قتل الحسين إذا قاتل مقاتلة الدّولة الأمويّة.

فالحرّ يتكلّم من موقع شخص يعمل داخل دولاب الدّولة ويعرف قدرات عبيد الله بن زياد وإلى أيّ حدّ يبلغ به القمع والعنف. كما يحاول الحرّ دائمًا أن يُساعد

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٠٤؛ ابن منظور، معجم مذكور، ج١، ص٦٤: آسيني: عزّني وصبّرني.

(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٠٤؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٨٢.

(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٠٤؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٨٢.

الحسين وربّما أراد أن يُفهمه حقيقة الأوضاع، لكنّ الحسين لم يفهم ربّما إلى تلك اللّحظة الجدليّة التّاريخيّة للسّلطة الأمويّة.

تنحّى عنه الحرّ بن يزيد عندما أنشده هذا الشّعر، وكان يُساير الحسين هو وأصحابه كلّ في ناحيته، إلى أن بلغا عُذَيب الهِجانات[1]. وعندها قدم الشّيعة من أهل الكوفة، أربعة أشخاص ومعهم دليلهم أي خمسة أشخاص في الجملة.

وهُم نافع بن هلال المُرادي، وعمرو بن خالد الصيداوي، وسعد مولاه ومجمع بن عبد الله العائذي من مذحج[2]. ودليلُهم الطِّرمّاح بن عديّ[3] الطّائي.

نلاحظ أنّ هؤلاء الرّجال ينتمون لقبائل يمنيّة أساسا مذحج (نافع بن هلال المُرادي ومجمع بن عبد الله العائذي من مذحج)

و ينتمي الشّخص الآخر (أي عمرو بن خالد الصيداوي) إلى همدان و له مولى وطيّء (الطِّرمّاح بن عديّ). وهذه العشائر عرفت بتشيّعها أساسا مراد عشيرة هانئ بن عروة. وكان هؤلاء الرّجال مسرعين لملاقاة الحسين. وأنشدوا شعرا يمدحونه فيه[4]:

يا ناقتي لا تُذعَري من زَجْري ... وشمّري قبلَ طلوعِ الفَجرِ
بخيرِ رُكبانٍ و خيرِ سفرِ ... حتَّى تَجلّي بكريمِ النَّجْرِ
الماجِدِ الحرّ رَحيبِ الصدرِ ... أتى به الله لِخَيرِ أَمْرِ
ثُمّتْ أبقاهُ بقاءَ الدَّهرِ

---

(١) ياقوت، معجم مذكور، ج٤، ص٩٢: عُذيب الهِجانات: «وكتب عمر بن الخطّاب، .إلى سعد بن أبي وقّاص: إذا كان يوم كذا فارتحل بالنّاس حتّى تنزل فيما بين عُذيب الهِجانات وعذيب القوادس وشرّق بالنّاس وغرّب بهم، وهذا دليل على أنّ هناك عذيبين».
الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٠٤؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٨٢: كانت بها هجائن النّعمان ترعى هنالك.

(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٨٢.

(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٠٤؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٨٢.

(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٠٤ ـ ٤٠٥؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٨٣.

يبدو من خلال هذا الشّعر تحمّس أنصار الحسين له وقوّة إيمانهم وتعلّقهم بأهل البيت. ولنا أن نتساءل كيف تمكّنوا من الوصول إليه رغم الحراسة المُشدّدة للطّرق من قبل المقاتلة والشّرطة.

وجاء الحرّ بن يزيد للحسين وذكر له أنّ هؤلاء الرّجال ليسوا ممّن جاءوا معه من الحجاز، فهو سيحبسهم أو يردّهم.

فأجابه الحسين بأنّه سيحميهم كما يحمي نفسه، فهم أنصاره وأعوانه. كما ذكّر الحسين الحرّ بأنّه وعده بأن لا يتعرّض له حتّى يأتيه كتاب عبيد الله بن زياد. فأجابه بنعم لكنّهم لم يأتوا معه. لكنّ الحسين ردّ عليه بأنّهم أصحابه، وهم بمنزلة من جاءوا معه.

وتهدّده بأن يُتمّ العهد الذي قُطع بينهما وإلاّ يُحاربه. وكفّ عنه الحرّ بن يزيد.

يذكر الحسين لأوّل مرّة كلمة قتال للحرّ بن يزيد. لكنّ الغريب أنّه يهدّد الحرّ (وهو قائد لـ ١٠٠٠ فارس) يهدّده بأن يُقاتله وهو في قلّة من النّاس (١٠٠ رجل فيهم ٥ من صلب عليّ بن أبي طالب و ١٦من بني هاشم ٣٠ فارسا و٤٠ راجلا[١]).

ربّما كان الحسين متأكّدا من احترام الحرّ بن يزيد له وكراهته إيذائه لقرابته من الرّسول. فكان هذا التّهديد وسيلة لمنع الحرّ من إيذاء أصحابه.

أحسّ الحسين بالدّعم المعنوي لهؤلاء الشّيعة رغم قلّة عددهم، ودافع عنهم حيث منع الحرّ من تسليط سلطة الدّولة عليهم.

تصرّف الحرّ بن يزيد من منطلق وظيفته كممثّل عسكري لابن زياد، يراقب الطّرق ويمنع الشّيعة من مناصرة الحسين. لكنّه كان مرِنًا مع الحسين. فهو لم يلجأ إلى العنف في تعامله معه.

وسأل الحسين شيعته أن يخبروه خبر النّاس بالكوفة فأجابه مجمّع بن عبد الله العائذيّ[٢] وهو أحد الأربعة الذين جاؤوه: «أمّا أشراف النّاس فقد أعظِمتْ

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٢٢؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٩٥.

(٢) ابن حزم، مصدر مذكور، ص٤٠٨ عائذ الله بن سعد العشيرة بطن من مذحج.

رِشوَتُهم[1]، ومُلئت غرائرُهم[2]، يُستمال ودّهم، ويستخلص به نصيحتهم، فهم ألْبٌ[3] واحدٌ عليك، وأمّا سائر الناس بعد، فإنّ أفئدتهم تهوي إليك، وسيوفَهم غدًا مشهورةٌ عليك»[4].

ويضيف البلاذري عن الأشراف «وما كتبوا إليك إلاّ ليجعلوك سوقًا وكسبًا»[5]. ونعتقد أنّ هذه الكتب المُرسَلة من قبل الأشراف مشكوك فيها لأنّهم غير متشيّعون. كما أنّهم (أي الأشراف) كانوا يمثّلون ركيزة النّظام الاجتماعي الأموي، فكانوا حريصين على الدّفاع على مصالحهم (نفوذهم الاجتماعي وثرواتهم) تحت ظلّ الدّولة الأمويّة.

فكان دورهم هامّ وأساسيّ في تأطير عشائرهم وبالتّالي في ترهيب الكوفيّين من الالتحاق بثورة مسلم بن عقيل. وكانوا يدا واحدة مع الوالي عبيد الله بن زياد ضدّ الحسين بن عليّ.

وعلى هذا الأساس، تهمّشت الحركة الشيّعيّة لقلّة عدد أنصارها نتيجة سيطرة الأشراف على رجال العشائر وتأطيرهم إيديولوجيًا لفائدة الدولة أي أنّهم سيكونون في المقاتلة المكلّفين بقتال الحسين حتّى وإن كانوا عاطفيًا موالين له.

وسألهم الحسين عن رسوله إليهم وهو قيس بن مسهر الصّيداوي فذكروا له أنّه قُتل، فبكى الحسين تأثّرا عليه، وعبّر عن قوّة إيمانه بالله مستندا على القرآن فقال ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾[6]. ودعـــا لـــهـــم

---

(1) ابن منظور، معجم مذكور، ج1، ص1171 ـ 1172: رشا: الرّشْوُ: فعلُ الرّشوةِ، يقال رشوته وراشاه يرشوه رشوا، أعطاهُ الرّشوةَ وهي الرُصلة إلى الحاجة بالمصانعة.

(2) ابن منظور، معجم مذكور، ج2، ص973: غرائرهم غارّت الناقة غرارًا إذا درّت. الغرارةُ: واحدة الغرائر التي للتّبن.

(3) ابن منظور، معجم مذكور، ج1، ص81: الألْبُ: الجمع الكثير من النّاس.

(4) البلاذري، مصدر مذكور، ج3، ص382؛ الطّبري، مصدر مذكور، ج5، ص405.

(5) البلاذري، مصدر مذكور، ج3، ص382.

(6) الأحزاب 33 / 23.

بالجنّة[1]، والمقصود بهُمْ، مسلم بن عقيل وهانئ بن عروة وعبد الله بن بقطر وقيس بن مسهر الصّيداوي أي كلّ الذين قُتِلوا في سبيل حركة الحسين.

يبدو الحسين متأثّرا شديد التأثّر إلى حدّ البكاء على «شهداء» الحركة الشّيعيّة. وربّما أحسّ الحسين في تلك اللّحظة بقوّة السّلطة الأمويّة والقمع الذي سُلّط على أصحابه وسيُسلّطُ عليه.

وواصل شاهد عيان رواية تفاصيل انضمام الكوفيّين الأربعة للحسين وتزويده بأخبار الكوفة.

وتمثّل هذا الشّاهد العيان في دليل هؤلاء الرّجال وهو الطّرمّاح بن عديّ الذي ذكر للحسين بأنّه في قلّة من الرّجال، وإن حارب أصحاب الحرّ بن يزيد أي ١٠٠٠ فارس لربّما انتصر عليهم.

وأردف أنّه رأى قبل خروجه من الكوفة وقدومه على الحسين جَمْعًا لم ير مثلهُ. فسأل عنه فقيل له بأنّ المقاتلة اجتمعوا ليعرضوا[2] ويُسرّحوا للحسين[3].

عبّأ عبيد الله بن زياد المقاتلة بالكوفة. ويظهر من خلال هذا الخبر قوّة تنظيم المقاتلة الذين كانوا يُرسلون للقيام بالجهاد. لكنّ ابن زياد سيحوّل وجهتهم للحسين!

كما يبدو أنّ إعداد المقاتلة للخروج للقتال، كان يتمّ في موكب عسكريّ (عرض الجند). وهذا يدلّ على تطوّر البروتوكول أو التشريفات العسكريّة المرتبطة بالتّقاليد الملكيّة السّاسانيّة والبيزنطيّة.

استعدّ الأمويّون أي الوالي عبيد الله بن زياد لقتال الحسين بن عليّ. فالاستقتال سيرجع بعد ٢٠ سنة من التّوازن الهشّ الذي ركّزه معاوية. وبالتّالي سترجع الفتنة من جديد بما أنّ جدليّة السّياسي فرضت مواجهة إيديولوجيا أهل البيت.

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٠٥.

(٢) ابن منظور، معجم مذكور، ج٢، ص٧٣٦: وعرضْتُ الجندَ عرْضَ العَيْنِ إذا أمْرَرتَهم عليك ونظَرْتَ ما حالُهم، وقد عَرَضَ العارضُ الجُنْدَ واعْتَرَضُوهم.

(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٠٦؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٨٢.

يبدو الصّراع الذي حدث بين عليّ ومعاوية لم يتمّ بموتهما وبصُلح الحسن لمعاوية. بل تجدّد الصّراع بين الخليفة يزيد بن معاوية والحسين بن عليّ!

ويبدو الحسين مصمّما على المُضيّ إلى الغرض الذي قدم من أجله وانتظار نتيجة المفاوضات. رغم أنّه تلقّى الحسين أخبارا سيّئة عن أحوال الكوفة: موالاة الأشراف للسّلطة الأمويّة وتغيير ميزان القوى في الكوفة لصالح الدّولة. وقتل عبيد الله بن زياد لرسول الحسين إلى الكوفيّين، وإعداده لجيش ضخم لقتال الحسين! فهل كان على دراية بأنّه سيُقتل أم أنّه لم يُصدّق بعدُ؟ كما أنّنا نتساءل عن سبب كلّ هذه الحراسة والتّدابير الأمنيّة (المحارس والمناظر التي أقامها صاحب الشّرطة)، وإرسال الحرّ بن يزيد في ١٠٠٠ من الفرسان وإعداد جيش ضخم لإرساله للحسين بينما كان هو في جماعة ضئيلة؟

هل تخوّف عبيد الله بن زياد من تحصّل الحسين على دعم قبلي أو عشائري ما، فأخرج كلّ مظاهر القوّة العسكريّة للدولة بالعراق حتّى يقضي على هذا التحرّك؟ أم أنّه كان متخوّفا من الشّرعيّة التّاريخيّة للحسين، ويُريد التقرّب من يزيد وتأكيد الملك له.

لا ننسى أنّ عبيد الله بن زياد كان كأبيه متفانيا في خدمة مصالح الدولة مثلما سيكون الحجّاج بن يوسف الثّقفي في ما بعد[1].

بالإضافة إلى أنّ زياد وعبيد الله كانا يعتبران الدّولة الأمويّة ملكا عائليّا لآل أبي سفيان يجب المحافظة عليه والدّفاع عنه تجاه كلّ الأعداء.

طُرح الطّرمّاح مبدأ القتال على الحسين كردّ فعل على استعداد الوالي عبيد الله بن زياد لقتال حفيد الرّسول. لكنّه كان يُريد من الحسين تجنّب القتال.

وواصل الطّرمّاح بن عديّ الطّائي حديثه مع الحسين، فناشده الله ألاّ يقدم عليهم شبرًا إن قدر. وأشار عليه بأن ينزل بلدًا حتّى يرى رأيهُ، واقترح عليه أن ينزل أحد

---

(١) انتمى الولاة الثّلاثة لثقيف التي عُرفت بدهائها.

جبلي طيّء أجأ أو سلمَى[1] ـ وهي جبال منيعة تحصّنت فيها طيّء من ملوك غسّان وحمير ومن النّعمان بن المنذر[2] ـ حتّى يتوضّح له ما يُريدُ فعلهُ.

واقترح عليه أن ينزله في القُريّة[3]، ويُرسلُ الطّرمّاح بن عديّ ممّن بأجأ وسَلمَى من طيّء، فلا تمضي عشرة أيّام حتّى يأتيه منهم رجال طيّء راجلين وفرسان. وبإمكانه أن يُقيم المدّة التي يُريدها. وإذا أراد أن يُقاتل، فالطّرمّاح يكفل له مساندة ٢٠٠٠٠ طائيّ فيحمونه بأسيافهم[4].

لكنّ الحسين شكره وقال له بأنّ بينه وبين القوم أي الأمويّين قول فلا يستطيع الانصراف. كما أنّه لا يعرف إلى أين ستُفضي بهم الأمور.

ما معنى هذا هل كان الحسين محترما للعهد بينه وبين الحرّ بن يزيد وهو ينتظر قرار عبيد الله بن زياد؟ هل كان يمشي نحو حتفه أو ينتظر قدوم جيش عرمرم لإبادته ورجاله وأهله؟ كما أنّنا نتعجّب نوعا ما من قوله بأنّه لا يعرف إلى ماذا ستفضي الأمور بينه وبين الأمويّين.

كما أنّنا نتساءل لماذا لم تقدّم طيء مساعدتها للحسين من قبل هذا التّاريخ؟ من المؤكّد أنّ حركة الحسين بن عليّ هي حركة دينيّة لكنّها لم تستند على تنظيم محكم عسكري وسياسي. على هذا الأساس فشلت فشلا ذريعا، كما أنّ العرض الذي قدّمه الطّائي جاء متأخّرا.

---

(١) ياقوت، معجم *مذكور*، ج١، ص٩٤ ـ ٩٥ ـ ٩٦: أجأ وسَلمى جبلان عن يسار سُميراء، وقد رأيتُهما، شاهقان؛ وقال أبو عبيد السكّوني: أجأ أحد جبلي طيّء وهو غربي فيد، وبينهما مسير ليلتين وفيه قُرًى كثيرة؛ ومنازل طيّ في الجبلين عشر ليال من دون فيد إلى أقصى أجإ، إلى القُريّات من ناحية الشّام، وبين المدينة والجلين، على غير الجادّة ثلاث مراحل. وبين الجبلين وتَيماء جبال ذُكرت، منها دبْر وغريّان وغَسَل. وبين كلّ جبلين يوم. وبين الجبلين وفدك ليلة. وبينهما وبين خيبرَ خمس ليال. وذكر العلماء بأخبار العرب أنّ أجأ سُمّي سَلْمى باسم امرأة؛ البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٣٨٣.

(٢) النعمان الثالث ابن المنذر (٥٨٠ ـ ٦٨٠) آخر ملوك اللّخميّين في الحيرة. اعتنق النصرانيّة، خلعه كسرى٢ (٥٩٠ ـ ٦٢٧) وسجنه في المدائن.

(٣) ياقوت، معجم *مذكور*، ج٤، ص٣٣٥: القُريَّة أو القُريّاتُ جمع تصغير القرية: من منازل طيّء، قال أبو عبيد السكّوني: من وادي القرى إلى تيماء أربع ليال ومن تيماء إلى القريات ثلاث أو أربع، قال: والقريات دُومة وسُكاكة والقارة.

(٤) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٠٦.

لم يُشر الطّرمّاح لدعم طيّء في الكوفة، وهذا راجع لسيطرة الأشراف على العشائر.

لا بدّ من الإشارة إلى أنّ عشائر طيّء في الكوفة ـ وهي صنّفها الأستاذ هشام جعيّط في عشائر الأطراف اليمنيّة ـ تتمثّل في عشائر جديلة ونبْهان وسَلْمان بن ثُعل، وبخاصّة عشيرة بني الأخزم التي ينتمي إليها سيّد طيّء في الكوفة عديّ بن حاتم[1].

كما أنّنا نتساءل ما هي منزلة هذا الطّائي في عشيرته حتّى يطرح هذه العروض على الحسين. وعبّر هذا الرّجل عن إيمان عميق وحبّ وتحمّس لأهل البيت.

ثمّ ودّعه الطّرمّاح ووعده بأنّه سيجلب الميرة[2] والنّفقة لأهله بالكوفة، ثمّ يلتحق بالحسين ليكون من أنصاره.

فأجابه الحسين بأن يُعجّل في القدوم عليه إذا قرّر أن ينضمّ إليه. فعلّق الطّرمّاح على ذلك بأنّ الحسين كان «مستوحشا إلى الرّجال حتّى يسأله التّعجيل»[3].

بدأ الحسين يحسّ بالوحشة وبقلّة عدد رجاله، لذلك طلب من الرّجل أن يلتحق به بسرعة. كما أنّه بدأ يحسّ بقرب أجله، واقتراب ساعة مقتله.

يبدو أنّ هذا الطّائي كان حريصًا على قضاء شؤون أهله رغم حبّه لأهل البيت. ويواصل الطّائِي روايته فيذكر أنّه التحق بأهله في الكوفة، وقضى لهم شؤونهم وأوصى. وعندما رجع للانضمام للحسين، وجد شخصا في عُذيب الهجانات فنعاه له، فرجع إلى الكوفة وبالتّالي لم يتسنّ له مساعدة الحسين.

لا بدّ من الإشارة إلى أنّ الحرّ بن يزيد ترك الحسين يتحاور بكلّ حُريّة مع الطّرمّاح بن عديّ. كما لم يعترض هذا الأخير عندما قرّر الرّجوع للكوفة.

---

(١) هشام جعيط، *نشأة المدينة العربيّة الإسلاميّة الكوفة*، ص٣٧٩ ـ ٣٨٠.

(٢) ابن منظور، معجم *مذكور*، ج٣، ص٥٥٤: مير: الميرةُ: الطّعام يمْتارُهُ الإنسان. المِيرةُ جَلْبُ الطّعام. وقد مار عيالهُ وأهلَهُ يَميرُهُم ميرًا وامْتارَ لهُم.

(٣) الطّبري، مصدر *مذكور*، ج٥، ص٤٠٦.

وعند الوصول إلى قصر بني مقاتل[1]، رأى الحسين فسطاطا مضروبا فسأل عن صاحبه[2]، فقيل له إنّه لعبيد الله بن الحرّ الجُعفي[3]. وكان هذا الأخير قد خرج من الكوفة عندما قُتل مسلم بن عقيل وقدم الحسين من المدينة إلى قصر بني مُقاتل حتّى «لا يتلطّخ بشيء من أمر الحسين أو يشرك في دمه»[4]. فأرسل إليه الحسين رسوله وهو الحجّاج بن مسروق الجُعفي يدعوه إلى نصرته [5]. لكنّ عبيد الله بن الحرّ بيّن للرّسول أنّه خرج من الكوفة حتّى لا يتورّط في مقتل الحسين. كما أنّه تحاشى أن يراه الحسين. لكنّ حفيد الرّسول جاء لعبيد الله بن الحرّ وطلب منه نصرته فرفض عبيد الله بن الحرّ، وقدّم له نفس الأسباب التي ذكرها لرسوله.

فطلب منه الحسين أن لا يُقاتل ضدّه لأنّه إن فعل فهو يهلك. فوعده عبيد الله بن الحرّ بعدم قتاله.

ويبدو أنّ عبيد الله بن الحرّ قدّم للحسين فرسًا كهديّة لأنّه عجز عن مساندته والقتال معه[6]. قدّم الحسين سببا ميتا - تاريخي وهو متعلّق بقداسة أهل البيت. فكلّ من يقاتلهم تصيبه اللّعنة الإلهيّة فيهلك.

فمن هو هذا الشّخص أي عبيد الله بن الحرّ؟

شهد عبيد الله بن الحرّ القادسيّة، وكان من خيار قومه صلاحا وفضلا وصلاةً[7].

---

(1) ياقوت، معجم مذكور، ج٤، ص٣٦٤: قصر مُقاتِل: قصر كان بين عين التمر والشام، وقال السّكوني: هو قرب القُطْقُطانة وسُلام ثمّ القُرَيّات، وهو منسوب إلى مقاتل بن حسّان بن ثعلبة بن أوس بن إبراهيم بن أيوب (من تميم).

(2) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٠٧: روى هذا الخبر الشّعبيّ. لذا نلاحظ دور الكوفيّين من القرّاء في القضاء وما سيعرف في ما بعد بالفقه، وكذلك في الرّواية التّاريخيّة.

(3) ابن حزم، مصدر مذكور، ص٤١٠: «عبيد الله بن الحرّ بن عمرو ابن خالد بن المجمع بن مالك بن كعب بن عوف بن حَريم بن جُعْفيّ (من مذحج)، الشاعر الفاتك، وكان عثمانيًا، خرج عن الكوفة إلى معاوية، وشهد معه صِفّين. وأولاد عبيد الله المذكور: صدقة، وبرّة، والأشعرَ مع ابن الأشعَث».

(4) البلاذري، مصدر مذكور، ج٧، ص٣٠.

(5) البلاذري، مصدر مذكور، ج٧، ص٣٠.

(6) البلاذري، مصدر مذكور، ج٧، ص٣٠.

(7) الطّبري، مصدر مذكور، ج٦، ص١٢٨.

ولمّا قُتل عثمان واندلعت الفتنة الأولى، وابتدأ الصّراع بين عليّ ومعاوية. قرّر عبيد الله بن الحرّ أن ينصر الخليفة المظلوم، فالتحق بمعاوية في الشّام. وشهد صفّين معه. وكان معاوية يُكرمه فبلغه أنّه يجتمع إليه جماعة من أصحابه. فسأله معاوية عن سرّ هذا الاجتماع، فأجابه عبيد الله بن الحرّ بأنّهم أصحابه يحتمي بهم من أمير ظالم. عندها قال له معاوية بأنّه ربّما يُريدُ أن يلتحق بعليّ بن أبي طالب. فأجاب ابن الحرّ بأنّ عليّ على حقّ. مما عرّضه لغضب عمرو بن العاص الذي وصفه بالكذب[1]. فخرج غاضبا في خمسين رجلا إلى الكوفة. وأغار على مسلحة من مسالح معاوية، وقتل هو وأصحابه عددا منهم. وأخذوا أسلحتهم. وكان هو وأصحابه يُغِيرون كلّ قرية من قرى الشّام يمرّون بها.

وكانت له زوجة بالكوفة، فلمّا غاب عنها زوّجها أهلها. فقاضاهم إلى عليّ فردّ إليه امرأته. لكنّه بقي منقبضا على كلّ شؤون عليّ [2].

ولمّا قُتل عليّ، قدم الكوفة فالتقى بإخوانه ربّما من نفس عشيرته ونصحهم بعدم الاعتزال وبأن يملكوا أمرهم أي يستقلّوا عن السّلطة الأمويّة. وكانوا يجتمعون على أساس هذا المذهب.

ولمّا مات معاوية واندلعت فتنة ابن الزّبير قال عبيد الله بن الحرّ لأصحابه بأنّ قريشا لن تنصفهم. وأتاه خليعٌ[3] كلّ قبيلة، فكان معه ٧٠٠ فارس وقالوا له: «مُرْنا بأمرِك»[4].

كما يُضيف البلاذري بأنّ عبيد الله بن الحرّ «لا يُقاتل لديانة، وإنّما همّه الفتك والتّصعلُك و الغارات»[5]. على هذا الأساس، أصبح لعبيد الله بن الحرّ جيشا

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٧، ص٢٩.
(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٧، ص٣٠.
(٣) ابن منظور، معجم مذكور، ج١، ص٨٨١: رجل خليعٌ مستهترٌ بالشّرب واللّهو، هو من الخليع الشاطر الخبيثِ الذي خلعته عشيرته، وتبرّؤوا منه. والخليع الملازمُ للقمار.
(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٦، ص١٢٨.
(٥) البلاذري، مصدر مذكور، ج٧، ص٣١.

خاصّا به هو عبارة عن ميليشيا. وتعتبر هذه الظّاهرة ظاهرة انتروبولوجيّة واجتماعيّة وسياسيّة أفرزها موت معاوية وتولّي يزيد. وهي منجرّة عن الفتنة الأولى، كما أنّها عبارة عن حركة رفض لحكم قريش. وأصبح عبيد الله بن الحرّ مؤطّرا وحاميا لهؤلاء الخلعاء، كما أنّه أعطاهم فرصة للبرهنة على قدراتهم العسكريّة بعد أن خلعتهم عشائرهم. وكان النّهب وسيلة من الوسائل التي يعيش بها هو وأصحابه. وهو يُقاتل لحماية نفسه وأصحابه.

وبالتّالي أصبح عبيد الله بن الحرّ يمثّل قوّة عسكريّة مستقلّة: «وكان شجاعا فاتكا لا يُعطي الأمراء طاعةً»[١]. وسيكون عبيد الله بن الحرّ الجعفي وجها هامّا - من وجوه الفتنة الثّانية إلى حين مقتله على يد رجال مصعب بن الزّبير سنة ٦٨هـ.

حاول الحسين أن يكسب عبيد الله بن الحرّ كقوّة قتاليّة هو ورجاله. لكنّه عندما رفض طلب منه أن لا يُقاتله مع الأمويّين. فما معنى هذا؟ هل كان الحسين متخوّفًا من عبيد الله بن الحرّ لشجاعته وقدرته القتاليّة وكثرة الرّجال الذين معه؟ هل بدأ الحسين يتخوّف من قتال الأمويّين؟

يبدو مثال هذا الشّخص غريبا فهو منفلت من سيطرة الدّولة وتمكّن من الهرب من مراقبة ابن زياد. واستقلّ برأيه، فلم ينحاز للدّولة ليقتل الحسين حفيد الرّسول، فيرتكب عظيما لذلك فهو لم يُطع السّلطة الأمويّة. ولم يُرِد أن يساند الحسين لأنّه لا يُريد أن يقتل نفسهُ بلا فائدة. وهو موقف شخصيّ ومتأرجح بين احترام أهل البيت لكنّ هذا الاحترام لا يتعدّى الرّأي. فربّما يمثّل موقف ابن الحرّ موقف بدويّ لديه استقلاليّة في موقفه. كما أنّ الإحساس بقيمة أهل البيت والاستشهاد في سبيلهم لم تكن موجودة لديه وبالتّالي كان تحمّسه لقضيّتهم ضعيفًا. ويبدو أنّه ندم بعد مقتل الحسين عن تركه نصرته[٢].

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٧، ص٢٩.
(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٨٤.

وسمع أنس بن الحارث الكاهلي[١]، بما قاله الحسين لابن الحرّ. وكان قد هرب من الكوفة لنفس السّبب الذي غادرها عليه عبيد الله بن الحرّ وهو كراهة قتال الحسين وارتكاب ذنب عظيم من جرّاء هذا القتل[٢].

كما تخوّف من أن يُقتل معه. ولكنّ «الله قذف في قلبي نصرتك وشجّعني على المسير معك»[٣]. فأمره الحسين أن يخرج معهم.

ما معنى الخروج معهم؟ هل يعني هذا الانضمام لشيعته والقتال معه؟

المهمّ أنّ في الجانب الدّيني والرّوحي والإيمان بشرعيّة أهل البيت وبحقّهم كان حاضرًا بقوّة في مسيرة الحسين نحو الكوفة. فقد انضمّ إلى حركته أناسٌ عن عاطفة متدفّقة لأهل البيت، وكانوا مستميتين في سبيله، وسيُقدّمون حياتهم فداء له.

ولمّا كان في آخر اللّيل، أمر الحسين أصحابهُ بالاستسقاء من الماء، ثمّ الرّحيل. وهنا يقصّ الخبر شاهد عيان من أصحاب الحسين وهو عقبة بن سِمْعان (هو من كلّفه الحسين بإحضار خُرجي الكتب التي أرسلها أهل الكوفة له حتّى يُقدّمها كشهادة على صدقه[٤] للحرّ بن يزيد التّميمي).

وبعد ساعة من الرّحيل عن قصر بني مقاتل، خفق[٥] الحسين برأسه خفقة، ثمّ أفاق فأعاد ثلاث مرّات: «إنّا لله وإنّا إليه راجعون، والحمد لله ربّ العالمين»[٦].

فيهُبّ إليه ابنه عليّ ليواسيه ويخفّف من شعوره بالوحشة.

عندئذ ذكر له الحسين أنّه رأى في منامه فارس على فرس فقال له: «القوم يسيرون والمنايا تسري إليهم»[٧].

---

(١) ابن حزم، مصدر مذكور، ص٤٧٩ بنو كاهل بن عُذرة من قضاعة.

(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٨٤.

(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٨٤.

(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٠٢.

(٥) ابن منظور، معجم مذكور، ج١، ص٨٦٧: خفق الفؤادُ والبرقُ والسّيف والرّايةُ والريح ونحوها، اضطرب. وخفق برأسه من النُّعاس: أمالهُ، وقيل: هو إذا نعس نعسة ثمّ تنبّه.

(٦) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٠٧؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٨٤.

(٧) المصدر نفسه.

فعلم أنّه يعلمه بمقتل أهل البيت. فذكّره ابنه بأنّهم على حقّ، وأنّهم إن ماتوا فلا بأس عليهم. فدعا له الحسين.

يبدو أنّ الحسين بدأ يحسّ بقرب مقتله. كما أنّه كان متعبا وبلغ به التّعب مأخذه فأغفى إغفاءةً، رأى فيها حلما أو رؤيا نعت إليه نفسه وأصحابهُ. واعتراه إحساس بالوحشة والخوف من هذا المصير. كما أنّ هذا الوعي بمقتل أهل البيت كان أمرا مقبولا من قبل أبناء الحسين.

إذ تبرز فكرة مقتل أهل البيت كاستشهاد في سبيل الحقّ. ويعود الجانب الرّوحي والدّيني والرّمزي للظّهور من جديد في مسيرة الحسين.

لماذا خرج الحسين برجاله في اللّيل؟ هل كانت لديه نيّة الإفلات من الحرّ بن يزيد؟ يبدو أنّ الحسين كانت لديه خطّة معيّنة. فقد كان يفرّق أصحابه، وكانوا يريدون أن يأخذوا طريق الكوفة. لكنّ الحرّ بن يزيد كان يردّهم ردّا شديدًا[١]. فلماذا هذا الإصرار على الذّهاب إلى الكوفة رغم كلّ الأخبار السيّئة التي وصلته عن فشل الحركة الشيعيّة ومقتل أصحابه؟

هل أراد الدّخول للكوفة رغم كلّ شيء؟ يبدو هذا التصرّف غير مستند إلى عقلانيّة بل ربما أوحاه له الخوف من الموت.

وبقوا يتسايرون مع الحرّ بن يزيد إلى أن بلغوا نِينَوى[٢]، فجاء راكب على نجيب من الكوفة حاملا سلاحه، فلمّا وصل إليهم سلّم على الحرّ بن يزيد وأصحابه، ولم يسلّم على الحسين وأصحابه.

يبدو هذا التصرّف نابع من عقليّة جديدة ركّزتها الدّولة الأمويّة وهي التّعتيم على عليّ بن أبي طالب وضعف الإيمان بأهل البيت.

---

(١) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٠٨.

(٢) ياقوت، *معجم مذكور*، ج٥، ص٣٣٩: نِينَوى: «بسواد الكوفة ناحية يقال لها نِينَوَى منها كربلاء التي قتل بها الحسين».

وقدّم الرّسول كتابا للحرّ من عبيد الله بن زياد: «فجَعْجِعْ[1] بالحسين حين يبلغُك كتابي، ويَقدمُ عليك رسولي، فلا تُنزله إلاّ بالعَراء في غير حصن وعلى غير ماء، وقد أمرتُ رسولي أن يَلزمكَ ولا يُفارقك حتى يأتيَني بإنفاذك أمري»[2].

فقرأها الحرّ بن يزيد عليهم ـ أي على الحسين وأصحابه ـ وتصاعد التوتّر بين الفريقين حيث كلّم أحد رجال الحسين وهو يزيدُ بن زياد بن المهاصِر أبو الشعثاء الكِنْديّ ثمّ البهدليّ، رسول عبيد الله بن زياد وقد عرفه ـ وهو مالك بن النُّسير البَدّيّ ـ من كندة ـ. وقال له مستنكرًا بهول الخبر الذي جاء به.

لكنّ رسول الوالي أكّد أنّه وفَى ببَيْعته وأطاع إمامه. لكنّ صاحب الحسين رأى أنّ في طاعة إمامه ـ أي الخليفة يزيد بن معاوية ـ كسب الرّجل العار والنّار (عار التعرّض لآل البيت) والنّار (العقاب الإلهي يوم القيامة). وكانت حجّته من القرآن: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾[3]. وبالتّالي فإنّ يزيد هو إمام ضلالة، وفي هذا انشقاق للضّمائر. فالأمّة لم تعد ملتفّة حول إمام واحد لأنّ بروز الحسين سيقضي بطريقة أو أخرى على شرعيّة يزيد.

هكذا، كان القرآن حاضرًا بكلّ رمزيّته المتعلّقة بأهل البيت في هذه الفتنة. مثلما كان حاضرا لدى القرّاء في الفتنة الأولى. وهو يعبّر لدى أصحاب الحسين عن درجة كبيرة من الإيمان بكلّ ما حواه الكتاب. كما أنّه يُكسب الحسين في ضمائرهم شرعيّة مطلقة.

تعتبر هذه الرّسالة من عبيد الله بن زياد نقطة تحوّل هامّة لأنّها عبرت عن سياسة الوالي وهي حصر الحسين وحبسه وتركه بدون حماية أو ماء كحصر الخليفة المظلوم عثمان[4] بما أنّ الأمويّين يعتبرون عليّا مشاركا في قتله. فقد اتّخذ

---

(١) ابن منظور، معجم مذكور، ج١، ص٤٢٨: جعْجَعَ به: أزعجه وأخرجهُ، احبسه وضيّق عليه.

(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٨٥؛ الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٠٨.

(٣) القصص٢٨ / ٤١.

(٤) البلاذري، مصدر مذكور، ج٦، ص١٩٣: حوصر عثمان في الدّار.

القصاص للخليفة المظلوم كمبدأ إيديولوجي أساسي للدّولة، أولى العمليّات الانتقامية ضدّ الحسين.

المهمّ أنّ هذه السّياسة التي اتّبعها عبيد الله بن زياد ضدّ الحسين حفيد الرّسول هي تصعيد لعنف الدّولة وتكسير لحرمة أهل البيت وإعلان غير مباشر عن السّياسة المستقبليّة لعبيد الله بن زياد. كما كان عبيد الله بن زياد الذي يتّسم ببطش وبإرادة قويّة لتركيز الدّولة والإيديولوجيا الأمويّة.

اندلعت الفتنة بهذا القرار، ودبّ الانشقاق بين الفئتين تحضيرا للقتال. فالفئة الموالية ليزيد ترى أنّها تطيع الإمام وتفي بالبيعة، وأصحاب الحسين يرون أنّ هؤلاء ـ أي أنصار الأمويّين ـ هم عصاة لله، وامتثلوا لأئمة ظالمين وخارجين عن مبادئ الدّين. وبالتّالي فإنّ الإمام الوحيد والشّرعيّ هو الحسين بن عليّ حفيد الرّسول.

وأجبر الحرّ بن يزيد الحسين وأصحابه على النّزول في ذلك المكان على غير ماء ولا في قرية [1]، بعد أن حاولوا التّفاوض معه (وهو قد برهن على مرونته واحترامه للحسين قبل قدوم هذا الرّسول). فقد قالوا له بأن يتركهم ينزلون في نِينَوى أو الغاضريّة[2] أو شُفيّة[3] وهي كلّها قرى. لكنّه رفض[4] لأنّ أمر الوالي صريح كما أنّه بعث ذلك الرّسول عينا عليه حتّى ينفّذ أمرهُ. واقترح زهير بن القين على الحسين أن ينزلوا بقرية حصينة على الفرات ويقاتلوهم لأنّهم أهون ممّن يقدم بعدهم[5]. وأجابه الحسين بأنّه ما كان ليبدأهم بالقتال.

وسأل الحسين عن هذه القرية فأجابه زهير بن القين أنّها تسمّى العقر[6]. فتطيّر

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٨٥؛ الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٠٩.

(٢) ياقوت، معجم مذكور، ج٤، ص١٨٣: الغاضريّةُ: «منسوبة إلى غاضرة من بني أسد: وهي قرية من نواحي الكوفة قريبة من كربلاء.».

(٣) ياقوت، معجم مذكور، ج٣، ص٣٥٣ شُفيّة: «وحفرت بنوأسد شُفيّة.».

(٤) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٨٥؛ الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٠٩.

(٥) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٨٥؛ الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٠٩.

(٦) ياقوت، معجم مذكور، ج٤، ص١٣٦: «العقر: عَقَرُ بابل قرب كربلاء من الكوفة، وقد روي أن =

منها الحسين واستعاذ بالله منها[1].

لكنّ الحسين نزل على حكم الحرّ بن يزيد أي على حكم ابن زياد.

تبدو المأساة الشيعيّة في كلّ مرحلة من مراحل رحلة الحسين. وهنا يوحي اسم القرية بمقتل الحسين وآل البيت شرّ مقتلة.

كما أنّ الحسين وأصحابه لم يُبدوا مقاومة كبيرة لقرار الوالي ما عدا زهير بن القين الذي اقترح على الحسين قتال الحرّ وأصحابه خوفا من الجيش الآتي في الطريق إليهم. وحُوصر الحسين حصارا كحصار الخليفة المظلوم (حوصر من الثوّار ٤٠ ليلة)[2]. فكان هذا الحصار بداية لمشروع القصاص للخليفة المظلوم.

أنزل الحرّ بن يزيد الحسين بهذا المكان في يوم الخميس ٢ من المحرّم سنة ٦١هـ. ولم يذكر الطبري أو البلاذري اسم هذا المكان أي أنّ اسم كربلاء لم يظهر في هذه الفترة قبل بداية القتال بين الطّرفين.

وقُتل الحسين في يوم ١٠ من المحرّم سنة ٦١هـ. أي أنّ القتال حدث في شهر حرام وفي ذلك رمزيّة كبيرة سنعود إلى ذكرها وتحليلها عند تعرّضنا للقتال.

ففي ثمانية أيّام، كان هناك زخم من الأحداث ومن التطوّرات السّريعة للفتنة الثّانية. وبرزت عدّة مفاهيم وعقليّات متناحرة أفرزتها هذه الفتنة الجديدة.

لماذا هذا اللّجوء لكلّ هذا العنف؟ هل هو في إطار القصاص؟ هل وصلت الدّولة إلى درجة من التطوّر (تطوّر الملك) فأصبحت على غرار الفرس والبيزنطيّين تتلذّذ بتعنيف أعدائها؟

دخلت الدّولة الأمويّة في جدليّة من الفتنة تفرض عليها فرض الطّاعة ووحدة

= الحسين رضي الله عنه، لما انتهى إلى كربلاء وأحاطت به خيل عبيد الله بن زياد قال: ما اسم تلك القرية؟ وأشار إلى العقر، فقيل له: اسمها العقر، فقال: نعوذ بالله من العقر!.

فما اسم هذه الأرض التي نحن فيها؟ قالوا: كربلاء، قال: أرض كرب و بلاء، وأراد الخروج منها فمنع حتّى كان ما كان قُتل عنده يزيد بن المهلّب بن أبي صفرة في سنة ١٠٢».

(١) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٠٩.

(٢) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٤، ص٣٧١.

الجماعة لكنّها استخدمت القوّة والعنف للقضاء على الحسين لأنّه هدّد شرعيّتها التّاريخيّة الهشّة.

لكنّ تعرّضها له فتح باب الفتنة من جديد: قتال فئتين من المسلمين ومن قريش (أي من عبد مناف ـ بنو أميّة وبنو هاشم) إحداهما تنتمي للرّسول، وهذا أمر جديد ومذهلٌ لم يحدث في الفتنة الأولى. وسيُميّزُ ويَطبعُ الفتنة الثّانية.

وهو يبدو كأنّه رجوع لفترة الجاهليّة حيث كان بنو أميّة بيت الشّرف في قريش. وهم يحاولون في خلافة يزيد الحفاظ على هذه السّيادة في إطار الملك والخلافة.

وتذكر رواية ثانية أنّ عبيد الله بن زياد أمر أن تحرس وتغلق الطرق ما بين واقصة إلى طريق الشام. «وأقبل الحسين وهو لا يشعر بشيء حتى لقي الأعراب فسألهم فقالوا: والله ما ندري غير أنّنا لا نقدر أن نخرج أو نلج»[1].

لكنّ هذه الرّواية مستبعدة، فالحرّ بن يزيد تلقّى الحسين بن عليّ في شراف. ولم يتفطّن الحسين إلى التّحضيرات العسكريّة لمواجهته قبل قدوم الحرّ بن يزيد.

كما تذكر رواية ثالثة أنّ الحسين قصد الشّام ليذهب ليزيد فاعترضته الخيول بكربلاء، (وقد أرسل له عبيد الله بن زياد عمر بن سعد، وشمر بن ذي الجوشن، وحصين بن نمير)، فناشدهم الله أن يسيروه إلى يزيد فيضع يده في يده، فأبوا إلاّ على حكم ابن زياد[2]. تبدو هذه الرّواية بعيدة عن الواقع أيضا.

المهمّ أنّ الحسين أُنزل بمكان ليس فيه ماء وغير محصّن ليكون عرضة للانتقام الأموي ـ انتقام السّلطة ـ من معارض غير عاديّ بما أنّه الحسين حفيد الرّسول.

حلول عمر بن سعد بن أبي وقّاص

في اليوم الثّالث من المحرّم سنة ٦١هـ، قدم عُمر بن سعد بن أبي وقّاص من الكوفة في ٤٠٠٠ من مقاتلة الكوفة [3]!

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٢٣.
(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٢٣.
(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٨٥؛ الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٠٩.

لقد حدث تحوّل هامّ وجذري في طبيعة السّلطة الأمويّة بالكوفة (أي سلطة عبيد الله بن زياد) التي تصلّبت وأرسلت جيشا للحسين بن عليّ ـ حفيد الرّسول ـ فإرسال جيش يعني اقتتال. وتعمّد عبيد الله بن زياد أن يُعيّن قائدا لهذا الجيش من قريش. وهو ابن أحد الصّحابة البدريّين، سعد بن أبي وقّاص[1].

يبدو أنّ عبيد الله بن زياد انتدب ٤٠٠٠ من مقاتلة الكوفة على رأسهم عُمر بن سعد بن أبي وقّاص، لقتال الدّيلم[2] الذين ثاروا وغلبوا عليها. فأرسله الوالي لقمعهم بدَسْتَبَيْ[3]. كما عيّنه واليا على الريّ[4]. فعسكر في حمّام أعين[5]، وهو بين رافدي الفرات على طريق المدائن وخراسان. وكانت الحمّامات بالكوفة أماكن استراتيجيّة من المقام الأوّل، حيث عسكرت فيها عدّة جيوش، وأقيمت فيها المرافق بحيث تحوّلت تلك الأماكن إلى منشآت مدنيّة أو شبه مدنيّة[6].

ولمّا ظهر أمر الحسين بن عليّ أمره بالمسير إليه بنفس الجيش، ثمّ تولّي ولاية الريّ بعد أن يفرغ منه[7].

---

(١) ابن سعد، مصدر *مذكور*، ج٣، ص١٠٣ ـ ١٠٥: «شهد سعد بدرًا وأحدا وثبت يومَ أُحُد مع رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، حين ولّى النّاس، وشهد الخندق والحديبيّة وخيبر وفتح مكّة، وكانت معه يومئذٍ إحدى رايات المهاجرين الثلاث، وشهد المشاهد كلّها مع رسول الله، . وكان من الرماة المذكورين من أصحاب رسول الله.».

(٢) ياقوت، معجم *مذكور*، ج٢، ص٥٤٤: الدّيلم: «الموت؛ والديلم: الأعداء، والديلم: جيل سمّوا بأرضهم في قول بعض أهل الأثر وليس باسم لأب لهم».

(٣) ياقوت، معجم *مذكور*، ج٢، ص٤٥٤: دسْتبَيْ: «كورة كبيرة كانت مقسومة بين الري وهمذان، فقسم منها يُسمّى دستبي الرازي وهو يقارب التسعين قرية، وقسم منها يسمى دستبي همذان وهو عدة قرى، وربما أضيف إلى قزوين في بعض الأوقات لاتّصاله بعملها».

(٤) البلاذري، مصدر *مذكور*، ج٣، ص٣٨٥؛ الطّبري، مصدر *مذكور*، ج٥، ص٤٠٩؛ ياقوت، معجم *مذكور*، ج٣، ص١١٦: الرَّيّ: «مدينة مشهورة من أمّهات البلاد وأعلام المُدن كثيرة الفواكه والخيرات، وهي محطّ الحاجّ على طريق السّابلة وقصبة بلاد الجبال، بينها وبين نيسابور مائة وستّون فرسخاً وإلى قزوين سبعة وعشرون فرسخا ومن قزوين إلى أبهر اثنا عشر فرسخًا ومن أبهر إلى زنجان خمسة عشر فرسخًا».

(٥) ياقوت، معجم *مذكور*، ج٢، ص٢٩٩: حمّام أَعْيَنَ: «بالكوفة، ذكره في الأخبار مشهور، منسوب إلى أعين مولى سعد بن أبي وقّاص».

(٦) هشام جعيط، *نشأة المدينة العربيّة الإسلاميّة الكوفة*، ص٢٩٥ ـ ٢٩٦.

(٧) الطّبري، مصدر *مذكور*، ج٥، ص٤٠٩؛ البلاذري، مصدر *مذكور*، ج٣، ص٣٨٥.

ما المقصود بيَفْرَغَ منه؟ هل المقصود القضاء عليه قضاء مبرمًا؟ بالتّأكيد كانت هذه الغاية من إرسال جيش للحسين. وقد غُيّر اتّجاهُ هذا الجيش من قتال للدّيلم (الكفّار) إلى قتال للحسين. وفي هذا رمزيّة كبيرة تُحيلنا على جدليّة الفتنة التي أصبحت فيها الدولة تقاتل أهل البيت مثل قتال الكفّر.

لماذا أرسل عبيد الله بن زياد هذا العدد الضّخم من الجند لجماعة قليلة هم الحسين وأصحابه؟ ولماذا وقع اختيار عمر بن سعد بن أبي وقّاص ـ أي قرشي ـ لمحاربة الحسين بن عليّ؟ لماذا لم يختر أيّ شريف من عشائر الكوفة؟ لماذا ورّط عبيد الله بن زياد عمر بن سعد بن أبي وقّاص في مثل هذه الورطة؟

مع العلم أنّ عمرو بن سعيد الأشدق ـ والي المدينة من قبل الخليفة يزيد بن معاوية ـ كان أوّل من ابتدأ هذه السّياسة بإرسال جيش بقيادة عمرو بن الزّبير لأخيه عبد الله بن الزّبير في الحرم المكّي.

كان عمر بن سعد يجمع صفتين أساسيّتين، فهو قرشي من شيعة بني أميّة. وهو من أشراف الكوفة بما أنّه مستقرّ بها. كما كان من بين الشّهود من الأشراف الذين شهدوا ضدّ حجر بن عديّ الكندي[١]. كما أنّه لم يُرد تقديم المساعدة لمسلم بن عقيل في مجلس الوالي رغم أنّه ابن عمّه.

كانت السّياسة الأرستقراطيّة للدّولة تفرض الاستعانة بالأشراف لقمع الثورات الشّيعيّة لكنّ هذه الثّورة كانت من نوع خاصّ لأنّ الحسين هو حفيد الرّسول إضافة إلى أنّه من بني هاشم.

على هذا الأساس، طلب عمر بن سعد من الوالي أن يعفيه بعد أن أعلمه بخبر تعيينه على نفس هذا الجيش لقمع ثورة الحسين. فقد أعظم عمر بن سعد محاربة حفيد الرّسول وابن عمّه الحسين.

فلجأ عبيد الله بن زياد للتهديد والترغيب مع عمر بن سعد حيث طلب منه أن يرُدّ إليه عهده. فلمّا قال له ذلك، طلب منه أن يُمهله اليوم حتّى يُفكّر[٢].

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٢٦٩.

(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٠٩؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٨٥.

واستشار عمر بن سعد نُصَحاءه، فنهوه عن ذلك. وقد ذكر لنا عوانة بن الحكم أحد هؤلاء النّصحاء وهو عبد الله بن يسار الجُهني[1] الذي كان شاهدا عيانا على هذه الحادثة. ولم يذكر عوانة إن كان هذا الشّخص من الأشراف.

وأشار عليه ابن أخته حمزة بن المغيرة بن شعبة أن لا يسير للحسين فيرتكب إثمًا تجاه الله ويقطع رحمه. كما أضاف أنّه إن خسر دنياه وماله وسلطان الأرض كلّها خيرٌ له من أن يلقى الله بدم الحسين[2]! فوعده عمر بن سعد بأنّه سيستجيب لنصيحته.

تظهر من خلال نصيحة حمزة بن المغيرة بن شعبة لخاله رمزيّة أهل البيت ومكانتهم المقدّسة في ضمير الأمّة. لذلك فدم الحسين يصبح دما مقدّسا (بما أنّه بضعة من النبيّ) وله حرمة كبيرة. ومن يتجرّأ على سفكه يعرّض للغضب الإلهي. كما أنّ حرمة الرّحم هامّة. وهي تتعارض مع السّلطة والثّروة والجاه لكنّ الغلبة ستكون للسّياسي على حساب الدّيني والحرمات.

ألحّ عمر بن سعد على عبيد الله بن زياد أن يُرسله في مهمّته الأصليّة أي إلى الريّ، بما أنّ النّاس سمعوا به ويختار أحد أشراف الكوفة ليرسله للحسين، وسمّى له ناسا منهم. لكنّ الوالي أجابه بأن لا يُعلمه بأشراف الكوفة. كما أنّه ذكّره بأنّه لا يستشيره فيمن يريد أن يبعث. وهنا نلاحظ أنّ الوالي عبيد الله بن زياد كان يمركز السّلطة بيده وينفّذ أوامره ربّما باستشارة الخليفة. فليس على الأشراف أن يتدخّلوا لتغيير قراراته. فهي سلطة شديدة التجبّر والبطش.

وألحّ عمر بن سعد في إعفائه من هذه المهمّة، بينما أصرّ عبيد الله بن زياد على أن يقود ذلك الجيش عمر بن سعد، وإلاّ يسلّم له عهده.

وعندما رأى عمر بن سعد الوالي قد لجّ، قبل المسير في الجيش. ويبدو أنّ

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤١٠؛ ابن حزم، مصدر مذكور، ص٤٤٤: جُهينة بن زيد بن ليث بن سود بن أسْلُم من قضاعة.

(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٠٩؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٨٥.

عمر بن سعد استحيا وأعرض بوجهه من أحد نصحائه عندما دخل عليه وهو يتجهّز للمضيّ لقتال الحسين(١).

يبدو أنّ عمر بن سعد أُجبر من قبل الوالي رغم كلّ التّحذيرات من أصحابه وابن أخته بعدم قيادة مقاتلة الكوفة ضدّ الحسين. فقد عرف عبيد الله كيف يضغط على عمر بن سعد حيث تهدّده بعزله عن ولاية الريّ إذا لم يقاتل الحسين. فكان هذا التّهديد بالحرمان من منصب هامّ كافيا لقبوله هذه المهمّة التي تُعتبرُ هديّة مسمومة. كانت العقليّة الدّنيويّة للأشراف تفرض عليهم خدمة الدّولة والحفاظ على مصالحها.

فقد ضعفت مكانة أهل البيت لدى أشراف الكوفة وأساسا لدى ابن صحابي أي عمر بن سعد في علاقته بحفيد الرّسول. وبرز جيل جديد يمثّله عمر بن سعد يدافع عن مصالحه الخاصّة بارتباط بمصالح الدولة.

كما أنّه من النّاحية الانتروبولوجيّة، ستظهر قيم جديدة سياسيّة بحتة في إطار الفتنة الثّانية، وهي قطع الرّحم وسفك دماء أهل البيت في سبيل تركيز الدّولة والإيديولوجيا الأمويّة.

سار عمر بن سعد من الغد في ٤٠٠٠ من مقاتلة الكوفة إلى حيث نزل الحسين. لكن المصادر لم تذكر ماهية الرّسالة التي حمّلها الوالي لقائده العسكري.

وبعد أن أرسل الوالي عبيد الله بن زياد عمر بن سعد إلى الحسين، أمر النّاس فعسكروا بالنّخيلة(٢). وأمر أن يجتمع أهل الكوفة ولا يتخلّف منهم أحد.

ثمّ صعد المنبر ونوّه بمعاوية وكرمه في بذل الأعطيات للمقاتلة، واهتمامه بالثّغور(٣)،

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤١٠؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٨٦.

(٢) ياقوت، معجم مذكور، ج٥، ص٢٧٨: النُّخيلةُ: «تصغير نخلة: موضع قرب الكوفة على سمت الشام وهو الموضع الذي خرج إليه عليّ . ، لمّا بلغهُ ما فعل بالأنبار من قتل عامله عليها وخطب خطبة مشهورة ذمّ فيها أهل الكوفة وقال: اللهمّ إنّي قد مللتُهم وملّوني فأرحني منهم! فقُتل بعد ذلك بأيّام، وبه قُتلت الخوارج لما ورد معاوية إلى الكوفة».

(٣) ابن منظور، معجم مذكور، ج١، ص٣٦٠: الثّغر: موضع المخافة من فُروج البلدان. والثّغر الموضع الذي يكون حدّا فاصلا بين بلاد المسلمين والكفار.

وجمعه لكلمة الأمّة. كما أنّ ابنه يزيد خليفته في الملك، والمتّبع نفس سياسته ومناهجه في السّلطة.

وقد أعلم عبيد الله بن زياد أهل الكوفة أنّ الخليفة يزيد بن معاوية زادهم مائة مائة في أعطياتهم[1] أي مائة درهم.

وأمر عبيد الله بن زياد من العرفاء والمناكب والتجّار والسكّان بالكوفة أن يخرجوا إلى النّخيلة ويعسكروا معه. وتهدّدهم بالقتل إذا تخلّفوا عن هذا الجيش[2].

تكتسي الخطبة دائما لدى عبيد الله بن زياد طابعا سياسيّا وإيديولوجيّا هامّا. فقد كانت هذه الخطبة في ظرفيّة خاصّة هي ثورة الحسين بن عليّ.

فاستغلّ الوالي هذه الفرصة ليركّز شرعيّة الخلفاء الأمويّين معاوية وأساسًا يزيد. كما يبدو في هذه الخطبة تنويه بالألفة أي اجتماع الأمّة و توحّدها على يد معاوية في الفتنة الأولى بعد الصّلح مع الحسن. ونجح معاوية إلى حدّ ما في توحيد الأمّة في خلافته. فشبح هذه الفتنة كان مخيفًا وعالقًا بالأذهان.

وركّز عبيد الله بن زياد على اتّباع يزيد لنفس أسلوب أبيه في الحكم. وهو في اعتقادنا اشتراء الضّمائر للمحافظة على نوع من التّوازن الاجتماعي والسّياسي.

فقد زاد أهل الكوفة في أعطياتهم حتّى لا ينضمّوا لثورة الحسين وبالتّالي ليكسبهم لصفّ الدّولة. كما يبدو هذا الإجراء نابعًا عن خوف من قيام ثورة، فكانت وسيلة من الوسائل النّاجعة للدّولة ـ بما أنّها تسيطر على الدّواوين وبيوت الأموال ـ في جلب أهل الكوفة إلى صفّها.

بينما تهدّدهم عبيد الله بن زياد في ثورة مسلم بن عقيل بحذف عرافاتهم من العطاء إذا انضمّوا لهذه الثّورة. وكانت هذه السّياسة تعطي أُكلها في تلك الفترة لأنّ أهل الكوفة منضوين كلّهم في ديوان الجند منذ فترة الخليفة عمر بن الخطّاب وبالتّالي ليس لديهم موارد ماليّة وعينيّة إلاّ التي توزّعها عليهم الدّولة أي الأعطيات

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٨٨ ـ ٤٢٠.

(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٨٦ ـ ٣٨٧.

والأرزاق. فكان هذا التّنظيم يمكّن الدّولة من وسيلة ضغط هامّة على أهل الأمصار وأساسا أهل الكوفة.

كما أنّ الاستقرار السّياسي والاجتماعي في الكوفة كان الوسيلة المُثلى للحفاظ على المناطق المفتوحة التّابعة للكوفة.

كما عوّل ابن زياد على كلّ المقاتلة بالكوفة كالعرفاء والمناكب وكذلك التجّار، وهذا جديد لأنّ التجّار لم يقوموا بالجهاد من قبل. كما أنّه لجأ للتّهديد فمن لم يلتحق بالمعسكر، يقتل. فالتحق كلّ محتلمٍ بالعسكر بالنّخيلة [1].

قام الوالي بتعبئة عامّة فسخّر كلّ مقاتلة الكوفة لقتال الحسين بن عليّ بما فيهم العرفاء والمناكب المسؤولين على التّعبئة داخل عشائرهم، وتوزيع الأعطيات على المقاتلة، ومراقبة الولاء السّياسي لأبناء العشيرة و كذلك رفع أسماء الخوارج داخل العشيرة. واستعمل نفس أسلوب التّهديد الذي استعمله في ثورة مسلم بن عقيل.

ونجح الوالي بفضل هذه السّياسة من تسخير كل المقاتلة لقتال الحسين وللعسكرة بالنّخيلة.

كما أنّ سياسة التّعبئة العسكريّة في النّخيلة نجحت بفضل المجهود الذي بذله الأشراف في تأطير عشائرهم.

فقد كلّف الوالي أشراف الكوفة[2]، وهم كثير بن شهاب الحارثي، ومحمد بن الأشعث بن قيس، والقعقاع بن سويد بن عبد الرحمن المنقري[3]، وأسماء بن خارجة الفزاري بأن يطوفوا بالكوفة ويأمروا النّاس بالطّاعة والاستقامة ويخوّفوهم عواقب الفتنة والمعصية[4]. وحثّوهم على العسكرة.

ولعب كثير بن شهاب دورا أهمّ من بقيّة الأشراف حيث بذل مجهودا كبيرا في

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٨٧.
(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٨٧.
(٣) ابن حزم، مصدر مذكور، ص٣٨٧: بنو منقر بن عُبيد بن مقاعس (من تميم).
(٤) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٨٧.

دعوة الكوفيّين للحفاظ على الجماعة وتحذيرهم من الفتنة وتخذيلهم عن الحسين.

ربّما تخوّف الوالي من مساندة مذحج للحسين لأنّهم أبناء عشيرة هانئ بن عروة، الشّريف الذي ساند مسلم بن عقيل في ثورته وآواه في منزله. وكان هذا الدّور الذي لعبه الأشراف دورًا أساسيًّا في تعبئة النّاس للقتال ضدّ الحسين. كما أنّهم خذلوه خوفا من الفتنة وحفاظا على الطّاعة. فقد قام الأشراف بنفس الدّور الذين لعبوه في ثورة مسلم بن عقيل.

وقد نجح الأشراف في مهمّتهم نظرا لعدم شعبيّة الحركة الشّيعيّة في صفوفهم.

وأسند عبيد الله بن زياد مهمّة عسكريّة شبيهة بمهمّة صاحب الشّرطة، لأحد أشراف الكوفة وهو القعقاع بن سويد بن عبد الرحمن بن بجير المنقري[١]. وتتمثّل هذه المهمّة العسكرية في القيام بحملة تفقديّة بالكوفة على الخيل للتثبّت من التحاق الكوفيّين بالمعسكر بالنّخيلة. فوجد القعقاع بن سويد رجلا من همدان، جاء يطلب ميراثا له بالكوفة. فجاء به إلى ابن زياد فقتله.

اتّبع الوالي الصّرامة والقمع والقتل المبرم في هذه الظّرفيّة الصعبة على مستقبل السّلطة الإيديولوجيا الأمويّة. كما أنّ هذا القمع كان وسيلته في القضاء على كلّ تحرّك شيعي.

وزّع الوالي الأدوار العسكريّة على الأشراف، وعوّل عليهم لإنجاح عمليّة التّعبئة العسكريّة في النّخيلة.

وعسكر الوالي بنفسه في النخيلة، والتفّ حوله الأشراف. وعيّن خليفة له بالكوفة وهو عمرو بن حريث المخزومي[٢].

و أرسل الوالي للحصين بن تميم في القادسيّة، فأتاه إلى النّخيلة في ٤٠٠٠ من المقاتلة. ثمّ أرسل عبيد الله الحصين بن تميم في ٤٠٠٠ مقاتل بعد يوم أو يومين من إرسال عمر بن سعد.

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٨٧.

(٢) المصدر نفسه.

كما أرسل ابن زياد حجار بن أبجر العجلي ـ وهو أحد أشراف الكوفة الذين شهدوا ضدّ حجر بن عديّ الكندي[1] ـ في ١٠٠٠

و أرسل شبث بن ربعي بعد تمارضه في ١٠٠٠. هل كان شبث بن ربعي من الرّافضين لقتال الحسين على أساس أنّه أرسل للحسين كتابًا من جملة الأشراف الذين طلبوا منه القدوم عليهم؟

من المستبعد أن يكون الأشراف قد أرسلوا كتبا للحسين. كما أنّ شبث بن ربعي لم يتأخّر في الاستجابة لأوامر الوالي وأرسل يزيد بن الحارث بن يزيد بن رويم في ١٠٠٠ أو أقلّ.

وكان الأشراف يُرسلون في ١٠٠٠ من المقاتلة، فلا يصل منهم إلاّ ٣٠٠ أو ٤٠٠ أو أقلّ من ذلك لكرههم محاربة الحسين[2].

لا نعتقد أنّ ذلك كان ممكنا لأنّ الأشراف كان لديهم دور تأطير عشائرهم. كما أنّ الأشراف وعشائرهم لم يكونوا متشيّعين.

فقد أصبح عدد المقاتلة لدى عمر بن سعد ١٠٠٠٠ مقاتل (٥٠٠٠ مع عمر بن سعد و ١٠٠٠ مع الحرّ بن يزيد و٤٠٠٠ مع الحصين بن تميم)، وهو عدد ضخم.

ولو أضفنا إليه عدد المقاتلة الذين أرسلوا مع الأشراف، يصبح عدد المقاتلة الجملي حوالي ١٣٠٠٠.

ثمّ جعل عبيد الله بن زياد يُرسلُ الـ ٢٠ و الـ ٥٠ و الـ ١٠٠ من المقاتلة[3]، في كلّ أوقات اليوم غدوة[4]، وضحوة[5]، ونصف النهار، وعشية، من النّخيلة إلى عمر بن سعد. وربّما فاق عدد الجند ١٣٠٠٠ نتيجة هذه الموجات المتتالية من الجنود. كما وضع ابن زياد المناظر على الكوفة حتّى لا يتلقّى الحسين إغاثة وعونا. ورتّب

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٢٦٣.

(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٨٧.

(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٨٨.

(٤) ابن منظور، معجم مذكور، ج٢، ص٩٦٢: الغُدوة: البُكرة ما بين صلاة الغداة وطلوع الشمس.

(٥) ابن منظور، معجم مذكور، ج٢، ص٥١٥: الضّحوةُ: ارتفاعُ النّهار.

المسالح حولها، وعيّن على حرس الكوفة والعسكر زحر بن قيس الجعفي.

عُرف هذا الشّريف بولائه للدّولة الأمويّة حيث شارك في الشّهادة ضدّ حجر بن عديّ[1]. أي أنّ الأشراف تبوّأوا مسؤوليّات عسكريّة وأمنيّة عند القضاء على ثورة الحسين.

ورتّب بينه وبين عمر بن سعد خيولا سريعة تأتي له بالأخبار في كلّ وقت[2]. فهذا الخبر يؤكّد على مركزيّة السّلطة بيد عبيد الله بن زياد الذي كان يمثّل ملكا ثانيا إلى جانب الخليفة يزيد بن معاوية بالشّام. وطوّر البريد لمتابعة تطوّرات الوضع ثمّ أخبار المعركة مع الحسين.

وكاد الوالي أن يتعرّض لعمليّة اغتيال في معسكره بالنخيلة من قبل أحد المقاتلة وهو عمّار بن أبي سلامة الدّالاني[3].

أي أنّ هذا الشّخص كان ينتمي لعشيرة يمنيّة، وهذا دليل على تشيّع بعض العشائر اليمنيّة بالكوفة وتعاطفها مع قضيّة الحسين بن عليّ. لكنّ هذا التشيّع كان مهمّشًا. لكنّ هذا الشّخص فشل ونجح في الفرار للحسين ـ رغم الحراسة المشدّدة التي وضعها عبيد الله بن زياد ـ وقُتل هذا الرّجل مع الحسين. ولعلّ هذا الشّخص كان متحمّسًا للحسين ولحركته الشّيعيّة.

وهذا المثال هو مثال معزول وفرديّ لأنّ الوالي نجح في تأطير المقاتلة حتّى لا تساند الحسين.

لماذا هذه التّعبئة الخارقة للعادة؟ هل كانت هذه التّعبئة وسيلة لمراقبة أهل الكوفة ومنعهم من مساندة الحسين؟ لماذا كلّ هذه التّحضيرات لفئة قليلة من النّاس أي الحسين وأصحابه؟

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٢٦٣.

(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٨٨.

(٣) ابن دريد، مصدر مذكور، ص٤٢٦: بنو دألان بطن من زيد بن مالك بن كهلان بن سبأ؛ ابن حزم، مصدر مذكور، ص٣٣٠ ـ ٣٩٢.

هل كان عبيد الله بن زياد متخوّفاً من ثورة عارمة في المصر لصالح الحسين بن عليّ؟

من المؤكّد أنّ عبيد الله بن زياد كان متخوّفًا من تحطيم الشّرعيّة التّاريخيّة للحسين بن عليّ للشّرعيّة التّاريخيّة للدّولة الأمويّة.

كما أنّنا نتساءل عن سبب التّحصين والموجات المتتالية من الجنود الواحدة تلو الأخرى لفئة قليلة من النّاس أي الحسين وأصحابه؟

كما أنّنا هنا لا بد أن نذكر تفرّد البلاذري بذكر كلّ هذه المعلومات المتعلّقة بالتّعبئة العسكريّة، بينما لم يُشر الطّبري إلاّ لإرسال جيش بقيادة عمر بن سعد.

برهن الوالي على استعداد ضخم وغير عادي لمواجهة حركة الحسين، كما أنّه عسكر بالنّخيلة ليتابع العمليّات العسكريّة لعمر بن سعد. ولعلّه تلقّى درسا قاسيا في ثورة مسلم بن عقيل التي تمّت بالكوفة ووقع احتلال المسجد ـ الجامع من الشّيعة، وبقي الوالي محصورا بقصره مع أهل بيته ومواليه والشّرط والأشراف.

فصمّم هذه المرّة أن يُفرغ الكوفة من طاقاتها القتاليّة، ونصب عليها الحراسة المشدّدة حتّى لا تُعاد تجربة مسلم بن عقيل. كما خرج هو نفسه إلى المعسكر في نواحي الكوفة.

على هذا الأساس، تظهر جدليّة العلاقة بين السّلطة الأمويّة والكوفة كمصر متشيّع وسريع للثّورة.

كما أنّ الدّولة أو والي العراق ليس لديه جيش نظاميّ ـ بما أنّ المقاتلة لديهم تنظيم خاصّ ـ يُعوّل عليه. كما أنّه ليس لديه جيش كجيش الشّام معروف بطاعته للأمويّين. وهذه هي إحدى المشاكل الهامّة في علاقة الدّولة الأمويّة بولاية العراق، أي أنّ المقاتلة كانوا ينضمّون للثّائرين أو يثورون هم بأنفسهم كثورة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث التي كادت أن تقضي على السّلطة الأمويّة بالعراق والثّغور.

وأجبر الثوّار الخليفة لإرسال جند الشّام لمساعدة الحجّاج للقضاء على الثّورة. كما دفعت بهذا الأخير لبناء واسط و «احتلال» جنود الشّام للعراق. فكان على

الوالي أن يلجأ لهذا المجهود العسكري الضّخم ليقمع ثورة الحسين. وتعود كلّ هذه التعبئة في اعتقادنا لشعور بالخوف والرّعب من قبل الوالي لإفلات السّلطة من يديه وانتصار فكرة أهل البيت على حساب السّلطة والإيديولوجيا الأمويّة.

سارع قائد المقاتلة عمر بن سعد منذ حلوله إلى إرسال رسل للحسين لسؤاله عن سبب قدومه، وماذا يُريدُ. فكلّف أحد الأشراف وهو عزْرة بن قيس الأحْمسي لكنّه استحيا أن يأتيه لأنّه كان ممّن كتب إلى الحسين. وعرض على الرّؤساء الذين كاتبوه فرفضوا كلّهم أن يأتوه.

لقد سبق أن ذكرنا أنّه من المستبعد أن يكون الأشراف كتبوا للحسين لأنّهم غير متشيّعون، وسبق أن انضمّوا للوالي زياد بن أبي سفيان للقضاء على ثورة حجر بن عديّ.

فمن أين تأتّى الاستحياء؟ هل أصيبوا في تلك اللّحظة بأزمة ضمير؟ ربّما أحسّوا للحظة بهول ما هم صانعون. المهمّ أنّ أحد الحاضرين وهو كثير بن عبد الله الشّعبيّ[1] «وكان فارسًا شُجاعًا ليسَ يُردّ وجهَه شيءٌ»[2]. فتقدّم وطلب أن يذهب إليه هو، وإن شاء الأمير يفتك به.

فأجابه عمر بن سعد بأنّه لا يُريد أن يفتك به بل يسأله عن الأمر الذي من أجله أتى؟

كان هذا الجيش مُعدًّا لجهاد الديلم، فاحتوى على عناصر تمرّست بالقتال. لكنّها عناصر غير حسّاسة لمكانة الحسين وأهل البيت، كما أُنشئت على الطّاعة للدّولة الأمويّة.

قصد كثير بن الله الشّعبيّ الحسين، فقال أبو ثمامة الصّائدي للحسين لمّا رآه: «قد جاءك شرُّ أهل الأرض وأجرأهُ على دم وأفتَكه»[3]. وقام إليه أبو ثمامة

---

(١) ابن حزم، مصدر مذكور، ص٤٣٣: «بنو شعبان بن عمرو وهو بطنٌ ضخم: منهم كان الفقيه أبو عمرو عامر ابن شرا حيل بن عبد ذي كبار الكوفيّ، وعداده في همدان».

(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤١٠.

(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤١٠.

الصّائديّ وقال له بأن يضع سيفه تخوّفا منه على الحسين. لكنّ كثير بن الله الشّعبيّ رفض أن ينصاع لأبي ثمامة، وذكر أنّه رسول فإن سمعوا منه ما أرسل به إليهم، وإن أبوا انصرف عنهم.

فقال له أبو ثمامة الصّائدي بأنّه سيأخذ بقائم سيفه ويتركه يتكلّم ويبلّغ رسالته، لأنّه كان في قرارة نفسه متخوّفا من غدر هذا الشّخص للحسين وفتكه به.

فرفض كثير بن الله الشّعبيّ أن يمسّه أبا ثمامة من باب الإباء والأنفة. فطلب منه صاحب الحسين أن يخبره بما جاء به وهو يبلغه عنه، ولا يتركه يقترب من الحسين لأنّه فاجر. فاستبّا ورجع كثير لعمر بن سعد دون أن يقوم بمهمّته.

عبّر صاحب الحسين عن رأيه صراحة لهذا الفارس من الجيش الأموي. فهو فاجر[1] بمعنى أنّه لا يحترم الدّين ولا يراعي حرمة الحسين حفيد الرّسول. وبالتّالي فقد استند هذا الشّيعي على المعجم القرآني ليبرّر موقفه من رسول عمر بن سعد.

لقد بدأت الفتنة تظهر في هذه المناوشات الكلاميّة بين الفريقين المتعادين أي مقاتلة الكوفة الذين كانوا يدافعون عن مصلحة الدّولة، وأصحاب الحسين المدافعين عن حقّ أهل البيت.

يظهر إلى جانب الحسين أحد أبرز رجال مسلم بن عقيل في ثورته على ابن زياد وهو أبو ثمامة الصّائدي (كان مكلّفا بجمع الأموال وشراء السّلاح ـ وكان به بصيرًا ـ لفائدة الحركة الشيعيّة بالكوفة في فترتها السريّة). وهو من فرسان العرب ووجوه الشّيعة[2].

كيف هرب من الكوفة والتحق بالحسين بدون أن يتفطّن إليه الوالي؟ هذا ما لم تذكره لنا المصادر.

لعب هذا الشّيعيّ دور الحزام لحماية الحسين من أحد المقاتلة الكوفيّين. وستظهر هذه المهمّة أكثر فأكثر في ما بعد عند القتال. أصبحت هناك مواجهة بين

---

(١) الانفطار ٨٢/ ١٤ ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝١٤﴾.
(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٤.

رجال الكوفة: جماعة عمر بن سعد وجماعة الحسين. وتظهر من جديد قوّة الرّمز الدّيني: فرجال الحسين كانوا كالدّرع الحامي له، وكانوا على درجة كبيرة من الإيمان بالله وبالرّسول. بينما كان رجال عمر بن سعد يمثّلون الجيل الجديد الذي تربّى على استنقاص عليّ وشتمه ولا يمثّل لهم الحسين شيئا. ما عدا أنّه معارض للسّلطة ويجب القضاء على ثورته.

ثمّ أرسل عمر بن سعد قرّة بن قيس الحنظليّ(١)، وكان على ما يبدو أكثر اعتدالا وهو من المقاتلة.

وسأل الحسين رجاله عنه، فعرفهُ حبيب بن مظاهر الفقعسيّ(٢)، وهو أحد رجال الشّيعة الذين كتبوا للحسين كسليمان بن صرد ورفاعة بن شدّاد والمسيّب بن نجبة. لكنّه لم يبق إلاّ هو محافظا على عهده مع الحسين حيث ذُكر في اجتماع الشّيعة مع مسلم بن عقيل بن أبي طالب. أي أنّه كان من النّواة الصلبة للشّيعة التي حافظت على التزامها تجاه قضيّة أهل البيت.

كيف التحق حبيب بن مظاهر بالحسين دون أن يتفطّن إليه شرط ومقاتلة الوالي؟

يبدو أنّ الحسين كان غير عالم بالواقع القبلي والعشائري بالكوفة، وكان يستند لأصحابه من الكوفيّين في معرفة أنصار ومقاتلة الكوفة المُمثّلين لجيش عمر بن سعد. المهمّ أنّ حبيب بن مظاهر عرّف رسول عمر بن سعد للحسين، فذكر له أنّه رجل من حنظلة تميميّ، وهو ابن أختهم، وكان يعرفه بحسن الرّأي، واستنكر أن يشهد مثل هذا الموقف (٣). والمقصود بحسن الرأي أي أنّه كان متّزنا ويؤمن بالقيم الإسلاميّة كالإيمان بمكانة أهل البيت.

ويبدو حبيب بن مظاهر هنا غير مواكب لتطوّرات المصر، أي مقدرة السّلطة

---

(١) ابن حزم، مصدر مذكور، ص٢٢٢: بنوحنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم.
(٢) ابن حزم، مصدر مذكور، ص١٩٥: فقْعَس من أسد بن خزيمة.
(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤١١.

الأمويّة على فرض إيديولوجيا الدّولة وتأطير الأشراف لعشائرهم فأعرضوا عن المشاركة في هذه الانتفاضة الشّيعيّة.

وجاء قرّة بن قيس الحنظليّ فسلّم على الحسين، وأبلغه رسالة عمر بن سعد إليه. فأجابه الحسين: «كتب إليّ أهلُ مصركم هذا أنْ أقدَم، فأما إذ كَرِهوني فأنا أنصرف عنهم»[1]. يستند الحسين دائما على مراسلة أهل الكوفة له والإلحاح عليه بالقدوم كأساس لشرعيّة قدومه إلى الكوفة. نلاحظ أنّ الحسين بدأ يلين بعد أن كان مصمّما، فقد ذكر لرسول عمر بن سعد أنّه كتب إليه أهل مصركم بأنْ يقْدم، فإن كرهوه فهو ينصرف عنهم.

وكلّم حبيب بن مظاهر قرّة بن قيس الحنظليّ فقال له كيف يرجع للقوم الظّالمين[2]؟ وهنا يرجع حبيب بن مظهر للمعجم القرآني ليستمدّ خطابه الإيديولوجي (الظالمين الذين لا يُؤمنون بالكتاب).

ودعاه إلى نصرة الحسين الذي بآبائه أيّدهم الله بالكرامة. فأجابه قرّة أنّه سيرجع إلى عمر بن سعد بالجواب ثمّ يرى رأيه.

يبدو أنّ كلّ شقّ كان على اتّجاه إيديولوجي مخالف ومعادي للآخر. فقد أراد حبيب بن مظاهر أن يقنع هذا الرّسول بشرعيّة نصرة أهل البيت.

بينما كان قرّة بن قيس يرى رأي الدّولة الأمويّة، ومنضوٍ تحت إطار الطّاعة والجماعة. فلم يتأثّر بما قاله له حبيب بن مظاهر. أي أنّ شرعيّة أهل البيت كانت ضعيفة في نفسه.

ثمّ رجع الرّسول لعمر بن سعد، فأخبره برسالة الحسين. فقال عمر بن سعد: «إنّي لأرجو أن يُعافيني الله من حربه وقتاله»[3].

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤١١.

(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤١١؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٨٦؛ الأعراف ٧ / ٤٧ ﴿قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤١١.

كان عمر بن سعد مجبرا تحت ضغط ابن زياد على قبول مهمّة قيادة الجيش لكنّه كان كارها لقتال الحسين ابن عمّه وحفيد الرسول. وأرسل عمر بن سعد كتابا للوالي يُعلمه بموقف الحسين. ولدينا شاهد عيان على ذلك وهو حسّان بن فائد بن بكير العبسيّ الذي كان حاضرا بمجلس ابن زياد (هل هو من أشراف قيس بالكوفة؟) لمّا جاءت رسالة عمر بن سعد. ويبدو أنّ هذا الشّخص يريد ربّما أن يُبرّئ عمر بن سعد من مسؤوليّة قتل الحسين.

فقد كتب عمر بن سعد للوالي بما ذكره الحسين حرفيّا. وهُنا لدينا معلومة حول البروتوكول وسير المؤسّسات بولاية العراق في هذه الفترة (ديوان الرّسائل والبريد). فقد كانت الرّسائل تُقرأ للوالي. وكان ردّ فعل الوالي حين قُرئَ عليه الكتاب، بأن أنشد شعراً:

الآن إذ عِلقَتْ مخالبُنا به يرجو النجاةَ ولاتَ حينَ مناصِ[1]

كان الوالي يعرف بالضّبط ما الذي يجب عليه فعله أي أنّه كان مستعدّا أتمّ الاستعداد لاستعمال القوّة والعنف المبرم فأرسل لعمر بن سعد: «فقد بلغني كتابُك، وفهمتُ ما ذكرتَ، فاعرِض على الحسين أن يبايع ليزيدَ بن معاوية هو وجميع أصحابه، فإذا فعل ذلك رَأَيْناَ رأْيَنا»[2].

كانت البيعة والدّخول في الطّاعة (طاعة الخليفة يزيد بن معاوية) شرطًا أساسيّا لوحدة الأمّة. فإن لم يدخل الحسين في الطّاعة وهي أساس الإيديولوجيا الأمويّة فهو يعاقب كخارج عن الطّاعة. وربّما كان ابن زياد واثقا من رفض الحسين البيعة ليزيد.

ولم يتفطّن عمر بن سعد لمخطّطات ابن زياد حيث ظنّ عمر بن سعد أنّ ابن زياد كان لا يقبل العافية[3]. أي أنّه اعتبر هذا المطلب من ابن زياد طريقا للصّلح بينهم

---

(١) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤١١؛ البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٣٨٦.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤١٢.

وبين الحسين وبالتّالي حقن للدّماء. فقد كان عمر بن سعد متحاشيا للقتال. لكنّ الحسين لم يبايع ليزيد هو وأصحابه. وهنا لا بدّ من الإشارة أنّ الحسين هرب من المدينة ولم يقدّم بيعته للوليد بن عتبة بن أبي سفيان ـ والي المدينة من قبل الخليفة يزيد بن معاوية ـ فهو يعتقد أنّ الأمويّين افتكّوا السّلطة منه وهو أحقّ بالخلافة لانتمائه لأهل البيت. ولم يكن راضيا بالصّلح الذي أبرمه الحسن بن عليّ مع معاوية. وكان هو وشيعة أبيه من أهل الكوفة ينتظر موت معاوية، ليتولّى الخلافة.

فقد كان مؤمنا بوجاهة مطلبه لذلك لم يقدّم بيعته ليزيد.

ولم تذكر المصادر ما فعل عمر بن سعد في مفاوضاته مع الحسين في ما يخصّ هذه النّقطة أي طلب البيعة ليزيد من الحسين.

وفي الأثناء، أي قبل أن يُرسل الوالي عبيد الله بن زياد أمرا جديدا لعمر بن سعد بخصوص الحسين وأصحابه، ذكر البلاذري حدثا من الأحداث دار في معسكر الحسين.

فقد أشار حبيب بن مظاهر الفقعسيّ ـ وهو من أسد ـ على الحسين أي يأتي لجماعة من الأعراب من أسد، يُقيمون في مكان غير بعيد من معسكر الحسين. فطلب حبيب بن مظاهر من الحسين أن يُرسله إليهم ليدعوهم إلى مساندتهم والدّفاع عن الحسين. وسمح له الحسين بذلك، فأتاهم وقال لهم: «إنّي أدعوكم إلى شرف الآخرة وفضلها وجسيم ثوابها، أنا أدعوكم إلى نصرة ابن بنت نبيّكم فقد أصبح مظلومًا، دعاه أهل الكوفة لينصروه فلمّا أتاهم خذلوه وعدلوا عليه ليقتلوه»[1].

يظهر من خلال هذا الخطاب أنّ أصحاب الحسين يعتبرونه بمنزلة الإمام المظلوم، فحرّضوا النّاس لنصرة ابن بنت رسولهم الذي دعاه أهل الكوفة ثمّ خذلوه وقرّروا قتله.

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٨٨.

كما برز الخطاب الدّيني بقوّة في هذه المحاولة التي قام بها حبيب بن مظهر لجمع الأنصار لحفيد الرّسول (شرف الآخرة وثوابها). ويتعارض هذا الخطاب الدّيني مع الخطاب الدّنيوي الذي يُدافع عنه الأمويّون.

فالحسين لن يُقدّم أموالا لأنصاره أو ضياعا أو غيرها من الهدايا الماديّة، بل يُجازيهم الله على نصرتهم له في اليوم الآخر.

على هذا الأساس، وظّفت صورة الخليفة المظلوم عثمان بن عفّان لدى الفريقين المتصارعين لكن كلّ واحد وظّف الصّورة من منظاره الخاصّ.

وهذا يدخل في إطار هذه الفتنة الجديدة التي استوحت العديد من صورها من مرجعيّة الفتنة الأولى.

فسانده من هذا الحيّ من أسد سبعون شخصًا. لكنّ أحدهم، وهو جبلة بن عمرو، أخبر قائد المقاتلة الكوفيّين عمر بن سعد بهذا الخبر. فأرسل إليهم أزرق بن الحارث الصيداوي في خيل فمنعوهم من أن ينضمّوا للحسين[1]. وبذلك فشلت محاولة حبيب بن مظهر في جمع أنصار للحسين نظرا لقوّة التّنظيم العسكري وتأطير العشائر.

ثمّ تأتي الرّسالة أو الأمر المُوَالي الذي أرسله عبيد الله بن زياد لعمر بن سعد. وهو تصعيد فجئيٌّ لعقاب الدّولة للحسين. فقد منع هو وأصحابه من الماء.

«أمّا بعد، فَحُل بين الحسين وأصحابه وبين الماء، ولا يذوقوا منه قطرة، كما صُنع بالتقيّ الزكيّ المظلوم أمير المؤمنين عثمان بن عفّان»[2].

إذا تصاعد قمع عبيد الله بن زياد للحسين بن عليّ وأصحابه فطبّق عليهم القصاص من الخليفة المظلوم عثمان.

وابتدأ هذا القصاص بفرض العطش عليهم مثل ما فُرض على الخليفة عثمان[3].

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٨٨.

(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٨٩؛ الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤١٢.

(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٦، ص١٩٥ ـ ٢٠١ ـ ٢١١: كان طلحة بن عبيد الله والزّبير بن العوّام ـ =

وكان الأمويّون يُحمّلون عليًا بن أبي طالب هذه المسؤوليّة.

لذا وجب على الحسين وأهل بيته أن يدفعوا «ثمن انتقام عليّ من عثمان» حسب الإيديولوجيا الأمويّة.

ويعتبر القصاص لعثمان العنصر الأساسي في الإيديولوجيا الأموية[1].

وهنا تدخل الفتنة في فترة جديدة من تاريخها المأسوي وتعجّل سيرها نحو فترة دمويّة وسياسيّة لدى الجيش الأموي وروحيّة وأليمة للحسين وأصحابه وأهل بيته.

يُعيد عبيد الله بن زياد نفس السّيناريو الذي حدث مع الخليفة المظلوم عثمان. فيرجع شبح الخليفة المظلوم بقوّة كبيرة وهذه هي جدليّة الفتنة: الحصار، ومنع الماء عنه، وقلّة الرّجال الذين يُدافعون عنه (أي عثمان والحسين).

وكلّف عمر بن سعد أحد أشراف الكوفة وهو عمرو بن الحجّاج الزّبيدي من مذحج على ٥٠٠ فارس، أن ينزل على الشريعة. ومنعوا الحسين وأصحابه أن يسقوا من الماء قطرة وذلك قبل قتل الحسين بثلاثة أيّام[2]. ونازله[3] أو ناداه[4] عبد الله بن أبي حُصين الأزديّ ـ وعدادُهُ في بجيلة ـ: «يا حسين، ألا تنظر إلى

= متورّطين في منع الماء عن عثمان «وكان الزّبير وطلحة قد استَوليا على الأمر، ومنع طلحةُ عثمان مِن أن يدخل عليه الماء العذب، فأرسل عليٌّ إلى طلحة وهو في أرض له على ميل من المدينة أن دع هذا الرجل فليشرب من مائه ومن بئره ـ يعني بئر رُومة ـ ولا تقتلوه من العطش، فأبى، فقال عليّ: لولا أنّي قد آليت يوم ذي خُشب أنّه إن لم يُطِعْني لا أردّ عنه أحدًا لأدخلتُ عليه الماء».

«حُصر عثمان حتّى كان لا يشرب من فقير داره، فدخلتُ على عليّ فقلت: أَرَضيتَ بهذا أن يُحصَر ابن عمّتك حتى والله ما يشرب إلاّ من فقير داره؟ فقال: سبحان الله أوَقد بلغوا به هذه الحال؟ قلت: نعم، فعمد إلى روايا ماء فأدخلها إليه فسقاهُ».

(١) بثينة بن حسين، مرجع *مذكور*، ص٢٨٨.

(٢) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٣٨٩؛ الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤١٢؛ البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٨٢: كانت الشريعة محلّ قتال بين جيشي عليّ ومعاوية في صفّين. لكنّهما أي عليّ معاوية طلبا من رجالهما أن يخلّوا بين النّاس وماء الفرات.

(٣) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤١٢؛ ابن منظور، *معجم مذكور*، ج٣، ص٦١٩: «نازل: النِّزالُ في الحرب: أن يتنازل الفريقان، أن يَنْزل الفريقان عن إبلهما إلى خَيْلهما فيتضاربوا، وقد تنازلوا».

(٤) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٣٨٩.

الماء كأنّه كَبد السماء! والله لا تذوق منه قطرة حتّى تموت عطشًا»[1]. فدعا عليه الحسين أن يقتله الله عطشا، ولا يغفر له أبدًا.

ويذكر شاهد عيان أنّ الله استجاب للحسين، فمات هذا الرّجل من مقاتلة الدّولة الأمويّة عطشًا فكان يشرب ولا يروى إلى أن مات.

يبدو أنّ مقاتلة الكوفة كانوا شديدي الطّاعة للدّولة الأمويّة. ولم يمثّل الحسين سوى معارض من معارضي الدّولة يجب تطبيق سياسة الدّولة عليه. لكن الجديد أنّ حفيد الرّسول ليس لديه أيّ حرمة فهو يُعنّف لفظيّا وربّما وقع قتال بينه وبين هذا الرّجل الجافي. وإن حدث قتال أو مبارزة بينه وبين الحسين، فهذا أمر عظيم لأنّه سيفتح باب الاقتتال أو قتل الحسين كمعارض للدّولة من قبل الجيش الأموي. ومسّ خطير لحرمة الرّسول وأهل البيت في صفّ الحسين.

كان الأمويّون يقمعون الحسين وأصحابه، وكان ردّه عليهم بالدّعاء عليهم. وهنا يتصارع في هذه الفتنة السّياسي والدّيني.

كما يبدو أنّ عمرو بن الحجّاج قال للحسين: «يا حسين. إن هذا الفرات تلغ فيه الكلاب وتشرب منه الحمير والخنازير، والله لا تذوق منه جرعة حتى تذوق الحميم في نار جهنم»[2].

يدخل تهديد عمرو بن الحجّاج للحسين في إطار مساهمة الأشراف بالكوفة في القضاء على ثورة الحسين.

كما أنّ الإيمان بحرمة أهل البيت أصبح منعدما لديهم. بما أنّ الحيوانات كانت لديها أهميّة أكثر من الحسين لدى عمرو بن الحجّاج.

كما يبدو الحسين لحرمته وقرابته من الرّسول ذو كرامة كبيرة. فمن يتعرّض له أو يتهدّده فيدعو عليه، فينهالُ العقاب الإلهي عليه. لكنّ الإشكال المطروح لماذا

---

(١) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٣٨٩؛ الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤١٢.

(٢) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٣٩٠.

أرسل عمر بن سعد هذا العدد الضّخم من المقاتلة ٥٠٠ شخص لـ ١٠٠ شخص هم الحسين وأصحابه؟

هل حرص الوالي وقائده على بثّ الذّعر في نفوسهم قبل قتلهم؟ لا شكّ أنّ الهدف من إرسال هذا العدد الضّخم من الجند هو أحسن وسيلة لفرض إيديولوجيا القصاص لعثمان أي منع الحسين وأصحابه من الماء.

وعندما اشتدّ العطش على الحسين وأصحابه، أرسل العبّاس بن عليّ بن أبي طالب[١] أخاهُ في ٣٠ فارسًا و ٢٠ راجلاً، وأرسل معهم ب٢٠ قربة. وكان خروجهم ليلاً، وكان أمامهم باللّواء نافع بن هلال المرادي ثمّ الجمليّ[٢]. وسأل عمرو بن الحجّاج ـ وهو مسؤول عن منع الماء ـ عن نسبة الرّجل وعن سبب قدومه. فانتسب وذكر له أنّهم جاؤوا ليشربوا من الماء الذي منعوهم منه. فأجابه بأن يشرب هنيئًا وذلك راجع لكونه ينتسب لعشيرته أي مذحج. لكنّ نافع بن هلال رفض أن يشرب وحسين عطشان هو وأصحابه.

فذكر له عمرو بن الحجّاج بأنّهم مكلّفون بمنع الماء على الحسين وأصحابه. لكنّ نافع بن هلال مكّن الرجّالة من أصحابه من ملأ قربهم. وحدثت بينهم وبين عمرو بن الحجّاج ورجاله مناوشات حاول فيها نافع بن هلال والعبّاس بن عليّ الذبّ عن أصحابهم، وطعن نافع بن هلال رجلا من أصحاب عمرو بن الحجّاج، وهو رجل من صُداء[٣]، فمات من آثار الطّعنة بعد ذلك. وحمل أصحاب الحسين القرب بالماء لحفيد الرّسول وأصحابه.

المهمّ أنّه لم يكن قتال كبير بين الطّرفين. ووقع كسر حصار الماء.

ابتدأ التّقاتل بين الفئتين بخصوص الماء. فهي عبارة عن مناوشات بين المقاتلة الذين يحرسون الشّريعة وأصحاب الحسين.

---

(١) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٣٨٩: وأمّه أمّ البنين بنت حزام من بني كلاب.

(٢) ابن حزم، *مصدر مذكور*، ص٤٧٦ ـ ٤٧٧: بنو جمل ابن كِنانة بن ناجية بن مُراد.

(٣) ابن حزم، *مصدر مذكور*، ص٤١٣ صُداء: بطنٌ ضخم من ولد يزيد بن حرب بن عُلة (من مذحج).

ويبدو أنّ نافع بن هلال والعبّاس بن عليّ تمكّنوا من ملأ قربهم ودافعوا عن أصحابهم ضدّ رجال عمرو بن الحجّاج.

لكن هناك إشكال فكيف تمكّن هذا العدد الضّئيل ٥٠ شخص من أصحاب الحسين من هزم ٥٠٠ مقاتل من أصحاب عمرو بن الحجّاج؟

هل نام أصحاب عمرو بن الحجّاج ـ بما أنّ هذا الحدث وقع في اللّيل ـ فوجد نفسه في قلّة من رجاله؟

كانت العصبيّة القبليّة أو الانتماء لنفس عشيرة نافع بن هلال دافعاً ربّما لتغاضي عمرو بن الحجّاج عن قتال حقيقيّ لأصحاب الحسين شارك أشراف الكوفة في مقتل الحسين إلى جانب مقاتلة الكوفة. وقد عُيّن عمرو بن الحجّاج على منع الماء على الحسين ورجاله. وهذا دليل على ولاء أشراف الكوفة للسّلطة الأمويّة وتفانيهم في تركيز الإيديولوجيا الأمويّة.

ونقل لنا شاهد عيان هو هانئ بن ثُبَيْت الحضْرميّ[١] أنّ الحسين بن عليّ أرسل لعمر بن سعد عمرو بن قَرَظَة بن كعب الأنصاريّ[٢] بأن يلقاه في منطقة وسطى بين العسكرين. وجاء كلّ منهما في ٢٠ فارساً، وتنحّى عنهما أصحابهما.

وكان هانئ بن ثُبَيْت الحضْرميّ من رجال عمر بن سعد، فذكر أنّهم ابتعدوا عنهما فلم يسمعوا حديثهما أو أصواتهما.

وبقيا يتكلّمان حتّى مرّ جزء من اللّيل، وانصرف كلّ منهما إلى عسكره. ويُضيف هانئ بن ثُبَيْت الحضْرميّ أنّ النّاس تحدّثوا عن هذه المقابلة، فتصوّروا مادار من حديث بين الحسين وعمر بن سعد.

فذكروا أنّ الحسين قال لعمر بن سعد بأن يخرجا إلى يزيد بن معاوية ويدعا العسكرين.

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٩٠؛ الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤١٣.

(٢) ابن سعد، مصدر مذكور، ج٦، ص٩٥: هو ابن قرظة بن كعب الأنصاري أحد بني الحارث بن الخزرج حليف لبني عبد الأشهل من الأوس، وهو أحد العشرة من الأنصار الذين وجّههم عمر بن الخطّاب إلى الكوفة فنزلها وابتنى بها دارًا في الأنصار، ومات في خلافة عليّ بن أبي طالب.

فقال عمر بأن داره ستهدم وضياعه ستفتكّ لكنّ الحسين تعهّد ببناء داره وإعطائه أمواله بالحجاز. وقد كره ذلك عمر بن سعد.

لكنّ هذه الرّواية مستبعدة ومختلقة، لكنّ ذكر تخوّف عمر بن سعد من هدم داره وافتكاك ضياعه تُعبّر عن وضعيّة يعيشها كلّ الأشراف بالكوفة في علاقتهم بالسّلطة منذ ولاية زياد. فهم حريصون على الدّفاع عن السّلطة الأمويّة. وفي مقابل ذلك، تحمي السّلطة امتيازاتهم الاقتصاديّة.

كما يُؤكّد الطبري[1] أنّ الحسين وعمر بن سعد التقيا ثلاث أو أربع مرّات[2].

هل أراد الحسين أن يفكّ عنه وعن أصحابه الحصار ويتفاوض؟ هل فهم أنّه مقتول لا محالة وأراد أن يجد سبيلا للصّلح مع الأمويّين خاصّة أنّ عمر بن سعد هو ابن عمّه؟

كما ذكر المحدّثون ثلاثة حلول قدّمها الحسين لابن زياد: إمّا أن يرجع إلى المكان الذي أقبل منه، وإمّا أن يضع يده في يد يزيد بن معاوية فيجد حلاًّ في هذه المسألة التي بينهما (بما أنّ الحسين لم يعط البيعة ليزيد وثوّر المصر وتسبّب في فتنة من منطق السّلطة الأمويّة). ويتمثّل الحلّ الثّالث في أن يسيّروه لأيّ ثغر من ثغور المسلمين، فيكون رجلا منهم لديه نفس حقوقهم[3].

لكنّ هذا كله من وحي المحدّثين. كما يُضيف شاهد عيان وهو عقبة بن سِمْعان[4]، صحب الحسين فخرج معه من المدينة إلى مكّة، ومن مكّة إلى العراق إلى أن قُتل. ففنّد ما ذكره المحدّثون من أن الحسين طلب أن يضع يده في يد يزيد أو يسيّروه إلى ثغر من الثّغور. بل قال «دعوني فلأذْهَبْ في هذه الأرض العريضة حتّى ننظر ما يصير أمرُ النّاس»[5].

---

(١) ابن حزم، مصدر مذكور، ص٣٩٣: «صاحب الشّعبيّ، ضعيف».
(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤١٤.
(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤١٣؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٩٠.
(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤١٣ ـ ٤١٤.
(٥) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤١٤.

المهمّ أنّ الحسين كان يبحث من خلال المفاوضات بينه وبين عمر بن سعد إلى فكّ الحصار الذي فُرض عليه. بينما يبدو تسليمه بالبيعة ليزيد مستبعدا لأنّه يرى أنه على حقّ، وأنّ شرعيّة انتمائه لأهل البيت أقوى من شرعيّة يزيد. كما أنّ طلبه في تسييره إلى ثغر من الثّغور مستبعد.

على هذا الأساس، كتب عمر بن سعد إلى عبيد الله بن زياد[1] «بأنّ الله قد أطفأ النّائرة، وجَمَعَ الكلمة، وأصلح أمر الأمّة»، وذكر له الثّلاثة حلول التي قدّمها الحسين.

فقال عبيد الله بن زياد بعد أن قرأ كتاب عمر بن سعد بأنّ هذا كتاب رجل ناصح لأمِيره ومشفِق على قومه. وقبل أن يتفاوض مع الحسين.

لكنّ شمر بن ذي الجوشن الكلابي ثمّ الضّبابي ـ وهو أحد أشراف الكوفة ـ[2] ويمثّل القيسيّة الطائعة، والجافية، والقاسية، أشار على عبيد الله بن زياد أن لا يقبل هذا من الحسين وقد نزل بأرضه إلى جنبه. كما أنّه أضاف إن رحل الحسين ولم يضع يده في يد ابن زياد فإنّه سيُقوّي سلطانه على حساب سلطة ابن زياد التي ستنحلّ. ونصحه بأن لا يُعطِه هذه المنزلة لأنّها من الوهن بل ينزل الحسين على حكم ابن زياد هو وأصحابه.

كما أشار عليه بأن يكون هو صاحب العقوبة، ونقل له خبر تحدّث الحسين وعمر بن سعد طيلة اللّيل في معسكرهما. وأجابه الوالي بأنّ رأي شمر صائبٌ[3].

كان عمر بن سعد الواسطة بين عبيد الله بن زياد والحسين، وأراد أن يُهدّئ الأمور ويجد حلاًّ لإطفاء نار الفتنة وحقن الدّماء حتّى لا ينشب القتال وتسفك دماء أهل البيت. وكاد عبيد الله بن زياد أن يُجيبه لولا تدخّل شمر بن ذي الجوشن الكلابي ثمّ الضّبابي، فتصلّب موقف ابن زياد.

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤١٤؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٩٠.
(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٢٦٣: كان من الأشراف الذين شاركوا في الشّهادة ضدّ حجر بن عديّ الكندي.
(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤١٤؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٩٠.

نعتقد أنّ تدخّل شمر بن الجوشن كان موجودا لكنّ الوالي كان شديد التجبّر والصّرامة للحفاظ على سلطة الدّولة، ولتدعيم إيديولوجيّتها.

تصلّب موقف الوالي عبيد الله بن زياد فوجّه شمر بن ذي الجوشن بكتاب إلى عمر بن سعد بأن يعرض على الحسين وأصحابه النّزول على حكمه، فإن قبلوا يبعث بهم سالمين إلى ابن زياد. و إن رفضوا يُقاتلهم، كما أنّه ضبط مسألة القيادة العسكريّة للجيش الذي سيُقاتل الحسين.

فقد أمر شمر بن الجوشن أن يُطيع عمر بن سعد إن هو نفّذ أوامر الوالي، وإن رفض عمر بن سعد الاستجابة لأوامر الوالي فإنّ شمر يصبح قائِدًا لهذا الجيش. كما أمره بضرب عنق عمر بن سعد ويُرسل إليه برأسه.

انتهج عبيد الله بن زياد سياسة جديدة من العنف السّياسي حتّى يركّز إيديولوجيا الدّولة وسلطتها. كما كان الوالي يريد أن يضرب حرمة قريش بقتل عمر بن سعد (ضرب عنقه من قبل شمر بن ذي الجوشن وإرسال الرّأس لابن زياد) إن لم يمتثل لأمر الوالي.

وكانت رسالة الوالي لعمر بن سعد تتمثّل في لومه لومًا شديدًا على تلطّفه للحسين وعلى مطاولته له بينما لم يطلب منه ابن زياد ذلك.

وفي هذا يحدّد هذا الأخير سلطته وسلطة قائده على الجند. فسلطة القرار بيد عبيد الله بن زياد، وعلى هذا الأساس أمر ابن زياد عمر بن سعد أن ينظر مع الحسين وأصحابه، فإن قبِلوا حكم الوالي واستسلموا، يُرسل بهم إليه، وإن رفضوا يُقاتلهم حتى يقتُلهم ويمثّل بهم[1].

ويبرّر عبيد الله بن زياد موقفه هذا بأنّهم مستحقّون لذلك. فمعارضتهم للسّلطة تعطي الحقّ للدّولة في التصرّف في أجسادهم تصرّفاً كاملاً.

---

(١) ابن منظور، معجم *مذكور*، ج٣، ص٤٣٨: العرب تقول للعقوبة مُثلة ومثْلة. يقول يستعجلونك بالعذاب أيِ يطلُبون العذاب في قولهم: فأمطر علينا حجارةً من السّماء؛ وقد تقدم من العذاب ما هو مُثْلة وما فيه نَكَالٌ لهم لو اتّعظوا، وكانّ المثْل مأخوذ من المَثَل لأنّه إذا شنّع في عقوبته جَعَلَهُ مثَلاً وعلمًا.

وبالتّالي يُعتّم عبيد الله بن زياد على القرآن والسنّة برفع حرمة الجسد عن هؤلاء المعارضين للسّلطة. كما رفع عنهم حرمة أهل البيت. وهذا جديد لأنّ السّياسي انتصر على الدّيني. وهو ما سيُحرّك جدليّة الفتنة.

وهو يخصّ الحسين «بمنزلة» خاصّة في العقوبة بعد الموت أو التّمثيل بالجثّة حيث أمر عمر بن سعد أن يقتل الحسين ويُوطِئ الخيلَ صدرَه وظهرَهُ «لأنه عاقٌّ[1] مشاقّ، قاطع ظلوم»[2].

وتدخل هذه العقوبة في إطار نذر نذره وقول قاله[3]. وهي وضعيّة شبيهة بقسم الخليفة يزيد بن معاوية في علاقته بعبد الله بن الزّبير. فقد أقسم أن يأتي به في جامعة إلى دمشق ليبايع له حتّى يبرّ قسمه[4].

فقتل الحسين والتّمثيل بجثّته هو تركيز للإيديولوجيا الأمويّة، إيديولوجيا الطّاعة والحفاظ على وحدة الجماعة. كما أنّه عقاب له لأنّه قطع الرّحم أي صلة القرابة بينه و بين يزيد بن معاوية، بما أنّهما أبناء عمّ.

يتحوّل الرّحم كظاهرة انتروبولوجيّة هامّة تربط بين العشائر وتُقوّي الألفة بينهم، إلى ظاهرة سياسيّة وإيديولوجيّة.

المهمّ أنّ عبيد الله بن زياد أطلق يد عمر بن سعد في قتل الحسين والتمثيل بجثّته. وهذا تحوّل هامّ في عنف وعقاب الدّولة لمعارض من صنف خاصّ، وضرب لحرمة أهل البيت واستئصال لهم. كما ضُربت حرمة قريش.

وواصل الوالي رسالته قائلا لعمر بن سعد بأنّه إن نفّذ أوامرهُ، فهو يجزيه على سمعه وطاعته، وإذا رفض يعتزل القيادة العسكريّة ويترك المهمّة لشمر بن ذي الجوشن.

---

(١) ابن منظور، معجم مذكور، ج٢، ص٨٤٣: عقّ والده يعُقُّه عقّا: شقّ عصا طاعته. وعقّ والديه: قطعهما ولم يصل رحمه منهما، وقد يُعمّ بلفظ العقوق جميع الرّحم.

(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤١٥.

(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤١٥؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٩١.

(٤) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٢٠: «أرسل يزيد إلى عبد الله بن الزّبير إنّي قد جعلت عليّ نذرًا أن يُؤتى بك في سلسلة».

اتّبع عبيد الله بن زياد سياسة التّرغيب والتّرهيب مع عمر بن سعد حتّى يُقنعه ويحمله على تنفيذ أوامره بقتل الحسين بن عليّ وأهل بيته.

وأتى شمر بن ذي الجوشن بكتاب ابن زياد قرأه على عمر بن سعد فعنّفه، وأعظم ما قدم به عليه. وحمّله مسؤوليّة التّأثير على ابن زياد حتّى يغيّر رأيه بعد أن توصّل هو أي عمر بن سعد إلى اتّفاق وحقن للدّماء.

كما بيّن عمر بن سعد لشمر بن ذي الجوشَن أنّ الحسين ذو أنفة ولن يقبل الإذلال. وطلب منه شمر إن كان سيمتثل لأمر الأمير ويقتل عدوّه أو يسلّم له قيادة الجيش(١). فرفض عمر بن سعد الامتثال لأمر شمر بن ذي الجوشن، فحافظ على قيادة الجيش، وعيّن شمر على الرّجال.

امتثل عمر بن سعد لأمر الوالي، فقبل أن يقتل حفيد الرّسول وابن عمّه ـ بما أنّه ينتمي لقريش ـ ويبدأ القتال بعد ٢٠ سنة من توحّد الأمّة على يد الخليفة معاوية بن أبي سفيان.

ورفض عمر بن سعد أن يتأمّر عليه هذا الشريف القيسي، وقَبِل أن يكون القائد والشّريف القرشي ـ الكوفي الذي يقمع ثورة الحسين ـ حفيد الرّسول ـ.

وهذا أمر جديد على المستوى السّياسي لأنّ عنف الدّولة قطع الرّحم وكسر أواصر القرابة في سبيل فرض السّلطة والإيديولوجيا الأمويّة. كما أنّ كسر أنفة الحسين من موقعه كقرشي وكحفيد الرّسول، بإرادة إجباره على النّزول على حكم ابن زياد هو أمر جديد في هذه الفتنة الثّانية. فبدأت مرحلة جديدة من الفتنة في وجه جديد.

وطلب شمر بن ذي الجوشَن وعبد الله بن أبي المحلّ بن حزام بن خالد بن ربيعة بن الوحيد بن كعب بن عامر بن كلاب(٢) ـ من عبيد الله بن زياد أن يُؤَمِّن

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤١٦؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٩١.

(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤١٥: وكانت عمّته أمّ البنين ابنة حزام عند عليّ بن أبي طالب فولدت له العبّاس وعبد الله وجعفرًا وعثمان.

بني أختهم ـ وهم كانوا مع الحسين ـ فقَبِل الوالي وكتب لهم كاتبه أمَانًا، فأرسله عبد الله بن أبي المحلّ مع مولًى له. فلمّا أتاهم دعاهم، وأبلغهم بالأمان الذي أرسله لهم خالهم. فأجابوه أن يسلّم على خالهم، وأن يُعلمه بأنّهم ليسوا في حاجة إلى أمان ابن سميّة لأنّ أمان الله خير منه.

ويذكر البلاذري أنّ شمر قال لهم إنّ لديهم الأمان عندما ابتدأ القتال. فلعنوه ولعنوا أمانه لأنّه قدّم لهم أمانًا بينما لم يقدّم لابن رسول الله أماناً[1].

تبدو أهميّة الأمان كعنصر انتروبولوجي هامّ في حماية الفرد من عنف الدّولة. لكن في ثورة الحسين برزت ظاهرة جديدة تتمثّل في رفض إخوة الحسين الأمان الذي أخذه خالهم من عبيد الله بن زياد.

كما تكتّل أهل البيت حول الحسين أي أنّ كلّ إخوته كانوا مساندين لقضيّته (ما عدا محمد بن الحنفيّة الذي بقي بالمدينة).

كما يبدو أنّ أهل البيت لم يعترفوا بشرعيّة عبيد الله بن زياد الذي كان يلقّب بابن سميّة (بينما هو ابن مرجانة).

وكانت سميّة جدّته. وهي شتيمة لعبيد الله بن زياد وتذكير بادّعاء زياد من قبل معاوية. وبرز الخطاب الدّيني لدى إخوة الحسين الذين التفّوا حوله ليُدافعوا عنه ضدّ الدّولة التي يمثّلها ابن زياد. كما أنّهم رفضوا أمان الوالي لهم بينما حفيد الرّسول ليس لديه أمان.

وبرز الأمان كحالة خاصّة ونادرة لا يُقدّمها الوالي للمعارضة كالحسين. فالأمان يحرّم القتل وهذا يتعارض مع سياسة وإيديولوجيا الدّولة.

دخلت الفتنة الثّانية في مرحلة جديدة من تاريخها بما أنّ الوالي لم يقبل شروط الحسين وأمر قائد الجيش الموجّه ضدّ الحسين ببداية الاقتتال واستعمال العنف ضدّ أهل البيت.

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤١٦؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٩١.

بعد ٢٠ سنة من انطفاء نيران الفتنة الأولى واقتتال المسلمين من الصّحابة، اندلعت الفتنة الثّانية. ففي واقعة الجمل، وقفت عائشة زوجة الرّسول إلى جانب طلحة بن عبيد الله والزّبير بن العوّام ضدّ الخليفة الغير مجمع عليه عليّ بن أبي طالب.

وقد كان الثّالوث يدعو إلى الطلب بدم عثمان من عليّ الذي آوى قتلته. وانتهت الحرب بمقتلة عظيمة، إلى جانب طلحة بن عبيد الله والزّبير بن العوّام.

ثمّ استمرّ الصّراع بين عليّ ومعاوية، وليّ الخليفة المظلوم. فنشبت بينهما صفّين، واستمرّت المعارك ثلاثة أيّام بين مقاتلة الشّام ومقاتلة العراق المتمرّسين بالقتال في الفتوحات. وكادوا يشرفون على الاستئصال لولا تدخّل عمرو بن العاص وعرض القرآن حكما بين الفئتين المتنازعتين من المسلمين[١].

واندلعت الحرب من جديد في فترة الخليفة يزيد بن معاوية بين الأمويّن وأهل البيت في إطار الفتنة الثّانية. فكان جوّ هذه الحرب جوّا غير عاديّ لأنّه كان مفعما بالرّوحانيّات والرّموز الدّينيّة والانشقاق والقطيعة التي ستطبع الأمّة والضّمير الإسلامي إلى يومنا الحاضر.

زحف عمر بن سعد على الحسين وأصحابه عشيّة الخميس بعد صلاة العصر في ٩ من المحرّم سنة ٦١هـ[٢]. أي أنّ الزّحف على الحسين وأهل البيت كان في شهر حُرّم فيه القتال. يبدو أنّ القتال أو هجوم الجيش الأموي على الحسين وأصحابه كان بعد القيام بفريضة الصّلاة.

وكان الحسين جالسا أمام بيته متقلّدا سيفه، فخفق برأسه على ركبتيه أي أغفى إغفاءة حلُم فيها. وهبّت إليه أخته زينب[٣] عندما سمعت صيحة عمر بن سعد

---

(١) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٩٨.

(٢) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٣٩١؛ الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤١٤.

(٣) مصعب الزّبيري، *مصدر مذكور*، ص٤١: «وزينب ابنة عليّ الكُبرى، ولدت لعبد الله بن جعفر بن أبي طالب. وأمّها فاطمة بنت النبيّ»؛ ابن سعد، *مصدر مذكور*، ج٨، ص٣٤٠.

ببداية القتال. فسألته إن سمع الأصوات قد اقتربت. فذكر لها أنّه رأى رسول الله في المنام، وقال له إنّه يروح إليه[1]. فلطمت زينب وجهها تألّمًا. لكنّ الحسين هدّأ من روعها.

يبدو الحسين وأصحابه غير مستعدّين للقتال. فلم يُعبّئ أصحابه للقتال ما عدا أنّه كان متقلّدا سيفه.

وعادت الرّؤيا رؤيا الرّسول في المنام لدى الحسين بكلّ رمزيّتها وقوّتها الروحيّة والدينيّة. كما أنّ هذه الرّؤيا تمنح الحسين شرعيّة تاريخيّة لمقتله (فهو مظلوم واعتُدي عليه حسب منظار الشّيعة) مثل الشرعيّة التّاريخيّة لمقتل عثمان.

فقد عرف عثمان أنّه مقتول لأنّه رأى في منامه قبل ليلة من مقتله، وقد أصبح صائما أنّ الرّسول أتاه هو وأبا بكر وعمر وقال له بأن يفطر عندهم من الغد. فقبِل عثمان الدّعوة، وقُتل ذلك اليوم[2].

فقد كان شبح الفتنة الأولى برموزها وصورها حاضرا في الفتنة الثّانية. وربّما كانت الرّموز أقوى في مقتل الحسين لأنّه لديه قرابة قريبة من الرّسول.

واتّخذت زينب ـ أخت الحسين ـ رمزيّة كبيرة في القتال نظرا لأنّها الصّلة الوحيدة التي تربط الحسين بذكرى الرّسول. فهي أخته من فاطمة ابنة الرّسول وبالتّالي شقيقته من عليّ وفاطمة. وكانت أواصر القرابة بينهما تجعل زينب أكثر عاطفيّة وتألّما من بقيّة إخوته لنعي أخيها الحسين من جدّها النبيّ. ثمّ أتاه أخاه العبّاس بن عليّ فأعلمه بقدوم الجيش الأموي لقتاله[3].

كلّف الحسين العبّاس بن عليّ أن يأتي الأمويّن ويسألهم عمّا يريدون منهم وماذا جاء بهم؟ وكان العبّاس على ما يبدو مقرّبا من الحسين.

واتّجه العبّاس نحوهم في ٢٠ من الرّجال ومعه حبيب بن مظاهر وزهير بن

---

(١) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤١٦.
(٢) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٦، ص٢٠١.
(٣) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤١٦؛ البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٣٩٢.

القين. فأجابوه بأنّ أمر الأمير جاء بأن يعرضوا عليهم أن ينزلوا على حكمه أو يقاتلوهم. فأجابهم بأن يتمهّلوا حتّى يعود للحسين ويُخبره بالخبر.

فاتّفقوا مع العبّاس أن ينتظروه حتّى يُعلم الحسين. ووقف أصحابه يكلّمون عناصر جيش عمر بن سعد.

هل كان الحسين غير مصدّق أو غير متحضّر لمقاتلة الأمويين له ولرجاله؟ هل كان متوقّعا أنّ يزيد لن يقاتله لأنّه حفيد الرّسول ولأنّه ابن عمّه؟

هل كان شنّ القتال وإعلان الحرب عليه صدمة له؟ المهمّ أنّ نتيجة القتال كانت معروفة من البداية لأنّ ميزان القوى كان لصالح جيش الوالي.

واتّفق زهير بن القين وحبيب بن مظاهر أن يبدأهم هذا الأخير بالكلام. فأعظم حبيب بن مظاهر إقدام أهل الكوفة على ارتكاب «جريمة عظيمة» في حقّ أهل البيت وهي قتل ذريّة الرّسول وعترته وأهل بيته وعبّاد المصر الذّاكرين الله[1].

فأجابه عزرة بن قيس الأحمسيّ ـ وهو أحد أشراف الكوفة ـ بأنّه يطهّر نفسه ويمدحها. فهبّ إليه زهير بن القين يسأله ناصحا على عدم إعانة الضّالين[2] على قتل النّفوس الزكيّة[3] أي أهل البيت.

لكنّ عزرة أجابه بأنّه (أي زهير بن القين) لم يكن من شيعة أهل البيت بالكوفة. فأجابه زهير بن القين بأنّه لم يكن بالفعل من شيعته التي كتبت له وأرسلت إليه الرّسل. وهنا يُعرّض زهير بن القين بالأشراف الذين كتبوا للحسين يشجّعوه على القدوم للكوفة، ويعتبر عزرة بن قيس منهم.

وقد سبق أن ذكرنا أنّ الأشراف من الصّعب أن يُرسلوا للحسين كتبا لأنّهم كانوا غير متشيّعين، وكانوا حريصين على الوقوف إلى جانب الدّولة لخدمة مصالحهم وقمع ثورات الشّيعة.

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤١٦؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٩٢.

(٢) الأحزاب ٣٣/ ٣٦ ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾.

(٣) الكهف ١٨/ ٧٤ ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾.

كما أضاف زهير بن القين بأنّه رأى الحسين بالطّريق (عند رجوعه من الحجّ)، فذكّره بالرّسول وقرابته منه، وعرف أنّه سيُقدم على أمر عظيم من «حزب» الأشراف وعدوّه أي السّلطة الأمويّة.

فقرّر نصرته، وأن يكون من حزبه وأن يقدّم نفسه لحمايته ولحفظ حقّه الذي ضيّعه أهل الكوفة.

ظهر في خطاب زهير بن القين مفهوم الحزب حزب أهل الكوفة المساند للسّلطة، وحزب الحسين بن عليّ أي شيعته. ويؤكّد هذا الظّهور للحزب الانشقاق في الأمّة إلى فريقين متنازعين ولديهما إيديولوجيا مختلفة.

كان صاحبا الحسين من أهل الكوفة (حبيب بن مظاهر وزهير بن القين) يحاولان إقناع أبناء مصرهم بالعدول عن قتل ذريّة الرّسول، وكان خطابهم دينيًا (الخوف من العقاب الإلهي في اليوم الآخر) وروحيًا (احترام النّفوس الزكيّة والحفاظ عليها من القتل) وإيديولوجيًا الدّفاع عن حقّ أهل البيت ورمزيًا (حفظ الرّسول في حفيده). بينما تكلّم عزرة بن قيس الأحمسيّ على لسان أشراف الكوفة. ولم يكن حديثه طويلا بل عاب على حبيب بن مظهر تزكية نفسه. ولام على زهير بن القين انقلابه من العثمانيّة إلى التشيّع لأهل البيت.

وربّما كان عزرة بن قيس متحرّجا من هذه المواجهة بينه وبين أهل المصر المساندين للحسين.

وجاء العبّاس بن عليّ يركض وأعلمهم أنّ الحسين يطلب منهم أن ينصرفوا عنه تلك العشيّة لينظر في الأمر، ثمّ يلتقوا في الغد. فيعلموهم إن رضوا بالأمر أي النّزول على حكم ابن زياد أو أنّهم كرهوه فيكون القتال[1]. وقد كان الحسين يريد أن يوصي أهله.

كما أنّه كان يُريد أن يُصلّي لله في اللّيل هو وأصحابه، ويدعونه ويستغفرون له.

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤١٧؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٩٢.

فالله يعلم أنّه كان يُحبّ الصّلاة وتلاوة الكتاب وكثرة الدّعاء والاستغفار[١].

هل كان الحسين يريد أن يحضّرهم لهذا الاقتتال الذي سيُؤدّي لا محالة إلى مقتله؟ المهمّ أنّ الحسين لم يكن قابلاً لقبول فكرة النّزول على حكم ابن زياد. بل أراد أن يقوم بتحضيرات نفسيّة للقتال، لأنّ التحضيرات العسكريّة لم تكن ذات شأن. فعدد أصحابه قليلون بالمقارنة مع جيش الدّولة.

ويبدو أنّ التّحضيرات التي سيقوم بها الحسين مع أصحابه هي تحضيرات ذات طابع دينيّ و ترمز إلى مكانته من الرّسول وتمسّكه بالإسلام دينًا.

فالصّلاة وتلاوة القرآن والدّعاء والاستغفار كلّها تتنزّل في أخلاقيّة وشرعيّة دينيّة يُمثّلها الحسين ـ الرّمز. كما أنّ كلّ هذه الطّقوس إضافة لوجود القرآن ككتاب موحّد للمسلمين يُحيلنا على الفتنة الأولى الذي كانت فيها هذه الرّموز حاضرة بقوّة في الضّمير الإسلامي.

كما يبدو هذا القتال من منظار الحسين جهادا مثل جهاد الكافرين. فهو مضطهد مثلما اضطهد الرّسول من قومه. فصورة الرّسول كانت حاضرة بقوّة وأكثر من الفتنة الأولى.

واستشار عمر بن سعد شمر في ما جاء به العبّاس بن عليّ. فأجابه شمر بأنّه هو الأمير والرّأي رأيه.

أصبح عمر بن سعد يستشير شمر (وهو من الشقّ القيسي الجافي والغليظ)، ربّما لتخوّفه من سطوته لدى ابن زياد.

كما أنّ عمر بن سعد ربّما كانت لديه تخوّفات في أخذ القرار لأنّه بدون شكّ كان معظما لهذا الموقف الصّعب (محاربة ابن بنت الرّسول)، وهذا هو معنى جوابه لشمر: «قد أردت ألاّ أكون»[٢]. فهو قد امتنع عن تولّي منصب قائد الجيش المحارب للحسين لكي لا يعيش هذا الموقف. لكنّ ابن زياد أجبره على ذلك.

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤١٧.
(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤١٧.

ولم يكتف عمر بن سعد بهذا الجواب من شمر بل سأل أشراف الكوفة عن موقفهم، فأجابه عمرو بن الحجّاج بن سلمة الزُّبيديّ: «لو كانوا من الدّيلم ثم سألوك هذه المنزلة لكان ينبغي لك أن تجيبهم إليها». كما أجابه قيس بن الأشعث بن قيس أن يُجيبهم إلى ما سألوا لأنّهم سيُعلنون القتال من الغد[١].

يبدو أنّ أشراف الكوفة عبّروا عن موقف مرن نوعا ما تجاه الحسين وأصحابه. وضغطوا على عمر بن سعد حتّى يُمهل الحسين وأصحابه إلى الغد. وكانت حجّة عمرو بن الحجّاج أنّهم لو كانوا من الكفّار لأجابهم.

إنّ الحديث عن الدّيلم أي الكفّار هو نتاج للفتنة التي يقتتل فيه فريقين من المسلمين. فجيش الدولة يعتبر أصحاب الحسين أعداء لهم وبمثابة الكفّار.

وتعتبر هذه العقليّة نتاجا أيضا للإيديولوجيا الأمويّة التي تقتضي قتال الخارجين عن الطّاعة كالكفّار أي أنّها تُحلّ دماءهم. وهذا دليل على تطوّر سياسي.

واستنادا على نصائح أشراف الكوفة، اتّخذ عمر بن سعد قراره في إمهال الحسين وأصحابه إلى الغد.

ويروي الرّواية شاهد عيان هو عليّ بن الحسين ـ الذي سيُستثنى من القتل من قبل عبيد الله بن زياد ـ فقد ذكر أنّ رسول عمر بن سعد أعلمهم أنّ الأمير أجّلهم إلى الغد، إن استسلموا سرّح بهم لابن زياد. وإن رفضوا فسيُعلنون عليهم الحرب وما تبعها (من تقتيل وتمثيل بالجثث).

ويُكمل عليّ بن الحسين الرّواية[٢]، فيذكر أنّه كان مريضا واقترب من أبيه ليسمع الحديث الذي دار بين أبيه وأصحابه. فقد جمع الحسين أصحابه بعدما رجع عمر بن سعد إلى معسكره، فقال لهم بأنّ الله أكرمهم بالنبوّة، وهو يقصد أهل البيت وأصحابه.

كما أنّه نوّه بفضل أصحابه ومساندتهم له، وبفضل أهل البيت وبرّهم له. وأعلن

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤١٧؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٩٢ ـ ٣٩٣.

(٢) حفظ عليّ بن الحسين ذاكرة أهل البيت بما أنّه الوريث الوحيد لهم.

الحسين قراره فقد سمح لهم بالهرب جميعا في جنح الظّلام[1].

فقد طلب من أصحابه أن يأخذ كلّ رجل منهم بيد رجل من أهل بيته، ويتفرّقوا في سواد الكوفة وفي مدائنهم[2] حتّى «يُفرّج الله»[3].

فما المقصود بهذا؟ نعتقد أنّ الحسين قد تفطّن إلى حقيقة الوضعيّة التي هو فيها أي الاستئصال الذي سيعرّض له هو وأهل بيته وأصحابه.

كما أضاف الحسين بأنّ الأمويّين يريدون القبض عليه هو فقط. وإن قبضوا عليه تلهّوا عن طلب غيره. أراد الحسين أن يتحمّل المسؤوليّة لوحده حتّى يُنقذ أصحابه وأهل بيته.

بلغ الحسين مرحلة التأكّد من فشل حركته، وتعرّضه من الغد للقتل من قبل جيش الوالي الأموي.

ركّز الحسين خطابه على الشرعيّة التّاريخيّة لحركته التي تستند على القرآن والسنّة والدّفاع عن مبادئ الدّين تجاه الأعداء الذين هم بمثابة المشركين.

فقد فرّقت الفتنة بين أبناء العمّ الأمويّين والحسين. فكان الأمويّون يعتّمون على القرآن والسنّة من باب ضعف شرعيّتهم التّاريخيّة، وهم أعداء الحسين وأصحابه بما أنّهم حصروهم وأجبروهم على النّزول على حكمهم والاقتتال. كما أنّهم يُمثّلون السّياسي.

وكان الحسين وأصحابه يُمثّلون الدّيني، والشرعيّة التّاريخيّة لأهل البيت؛ فخطابهم هو خطاب دينيّ وعاطفي.

وكانت ردود الفعل لدى أصحابه وأهل بيته مفعمة بروح الاستشهاد والتّضامن والتّآزر مع الحسين والدّفاع عن حقّه.

---

(1) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤١٨؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٩٢.

(2) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤١٩: ماذا يقصد الحسين «بمدائنكم»أهل المقصود بهذا الكوفة؟ (بيد عبيد الله بن زياد الذي قمع مسلم بن عقيل ويقمعه هو) أم المقصود بهذا المدائن بفارس؟.

(3) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤١٩.

فبدأ أهل بيته في الكلام وهم إخوته وأبناؤه وبنو أخيه وابنا عبد الله بن جعفر.

وابتدأ بالكلام العبّاس بن عليّ قائلاً: «لمَ نَفعَلُ لِنبقَى بعدكَ، لا أرانا الله ذلك أبدًا»[1]. وتكلّموا كلّهم بنفس كلامه.

فقال الحسين لبني عقيل بن أبي طالب بأن يذهبوا فهم في حلّ من القتال معه نظرا لقتل مسلم. لكنّهم رفضوا التخلّي عنه في القتال وهو شيخهم وسيّدهم وخير بني عمومتهم (بما أنّ الحسن قد تُوفّي).

ووعدوه بفدائه بأنفسهم وأموالهم وأهاليهم، ووعدوه بالقتال في سبيل الدّفاع عنه إلى آخر لحظة. وأضافوا «فقبّح الله العيش بعدك»[2].

يبدو أنّ مفهوم أهل البيت قد أصبح يعني مفهوما ضيّقا في هذه الفترة قبل الاقتتال، وهو مفهوم الاستشهاد في سبيل الحسين رئيس وسيّد أهل البيت. فالاستشهاد أصبح ضرورة وشرطا أساسيّا في الاقتتال نظرا لعدم تكافؤ ميزان القوى.

كما أنّه أصبح الخطاب الإيديولوجي الأساسي لدى أهل البيت لأنّه يُعبّر عن فشل في الحركة الشّيعيّة (فشل سياسي وعسكري). لكنّ هذا الفشل تحوّل إلى سلاح دينيّ وروحيّ ورمزيّ على أعلى درجة من الرّمزيّة. وكان ردّ فعل أصحاب الحسين مطابقا لردّ فعل أهل البيت.

فقد تكلّم مسلم بن عوسجة الأسدي فتمسّك بفكرة الدّفاع عن الحسين وأداء حقّه أمام الله.

ووعده أن يكسر رمحه في صدورهم، ويضربهم بسيفه، وإن لم يكن معه سلاح لِيُقاتلهم به، يقذفهم بالحجارة حتّى يموت معه.

كما تكلّم سعيد بن عبد الله الحنفي قائلاً بأنّه لا يُخلّيه حتّى يحفظ غيبة[3] رسول

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤١٩.

(٢) الطبي، مصدر مذكور، ج٥، ص٤١٩؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٩٣.

(٣) ابن منظور، معجم مذكور، ج٢، ص١٠٣٣: الغَيْبُ: كلّ من غاب عنك. الغيبُ أيضاً كلّ من غاب عن العُيونِ، وإن كان محصّلاً في القلوبِ. غيّبه غيابةُ أي دُفن في قبره.

الله فيه أي في الحسين. وتشبه هذه الرّمزيّة في الفتنة الثّانية أي رمزيّة غيبة الرّسول في الطّفّ، تشبه رمزيّة ثقل رسول الله في واقعة الجمل. أي النّاس كانوا يقاتلون لحماية الجمل الذي ركبته عائشة زوجة الرّسول، وقُطعت عليه سبعون يدًا[١].

كما وعده سعيد بن عبد الله الحنفي أنّه لو قُتل في سبيل الحُسين، ثمّ يحيا ثمّ يُحرق حيًّا، ثمّ يُذرُّ، ثمّ يُفعلُ ذلك به ٧٠ مرّة، لا يُفارقه أبدًا. فالاستشهاد في سبيل الحسين يُكسبه الكرامة[٢].

وتكلّم زهير بن القين فقال بأنّه يودّ أن يُقتل ثمّ يُنشر ثمّ يُقتل ١٠٠٠ قتلة في سبيل الحسين وأهل بيته.

وتكلّم بقيّة أصحابه بكلام يشبه بعضه وهو يتمحور حول الاستشهاد في سبيل الحسين.

اكتست فكرة قتال أعداء الحسين لدى أصحابه مكانة هامّة. فهم من المقاتلة الذين جاهدوا الكفّار وتمرّسوا بالقتال.

وكان لديهم من قوّة الإيمان والتّعاطف مع الحسين ما يدفعهم إلى تعويض هذا النّقص في جيش الحسين (قلّة عدد رجاله بالمقارنة مع جيش الدّولة).

لا بدّ من التّذكير أنّ هؤلاء الأصحاب (ماعدا زهير بن القين الذي كان عثمانيًا ثمّ انضمّ في الطّريق للحسين، وكان ارتباطه ودفاعه عن قضيّته قويًا) كانوا من الشّيعة المتحمّسين للحسين، وشاركوا في ثورة مسلم بن عقيل في الكوفة. ثمّ التحقوا بالحسين. ولم يتخاذلوا عنه إيمانا بحقّه ودفاعا عن أهل البيت.

وأصبح الاستشهاد في الحسين الهدف الأساسي لأهل البيت ولأصحاب الحسين.

وقد اتّخذ الشّهداء في القرآن مكانة هامّة تضاهي منزلة الأنبياء ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾[٣].

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٨.

(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤١٩؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٩٣.

(٣) النساء ٤/ ٦٩.

=

وكان للاستشهاد أهميّة في مغازي الرّسول حيث استشهد حمزة ـ عمّ الرسول ـ في أحد. فقد اكتسب حمزة مكانة ميتا ـ تاريخيّة باستشهاده لأنّه ينتمي لأهل البيت، ولأنّ الرّسول صلّى عليه. كما أنّ الرّسول ذكر أنّ الملائكة غسلته، وبالتّالي تبوّأ الشّهيد منزلة قريبة من منزلة النبيّ.

فحمزة لم يمت موتة عاديّة ليحظى بطقوس التّكفين، فمتّعه الله بما هو أفضل بما أنّ الملائكة غسلته.

ويعتبر الشّهيد من الحالات الخاصّة التي لا يغسل فيها الميّت. فقد أمر الرّسول بدفن شهداء أحد ولم يأمر بغسلهم. فالشّهيد لا يغسل لأنّ الله يبعثه في دمائه. فكأنّ للشّهيد طهارة تتبعها الشّهادة وتكفي لإبعاد نجاسة الموت عنه. والشّهيد لا يغسل البتّة، وقد يعود ذلك لخروج مصادر النّجاسة في الجسم وفي الجثّة أي الدم. فالشّهيد يخرج منه هذا العنصر الحيوي فيصبح طاهرا ولعلّ شأنه في ذلك شأن الحيوان الذي يذبح فيصبح حلالا على المسلمين أكله(١).

«وكان حمزة أوّل من صلّى عليه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم من الشهداء يومئذ ثمّ جعل يؤتى بشهيد بعد شهيد فيوضع إلى جنب حمزة فيصلّي عليه النبيّ صلّى الله

= الطّبري، *جامع البيان في تأويل القرآن*، ج٤، ص١٩١ ـ ١٩٣: «(الصدّيقين) وهم جمع صدّيق. الصدّيقون: تباع الأنبياء الذين صدقوهم واتبعوا منهاجهم بعدهم حتى لحقوا بهم. (الشهداء) وهم جمع شهيد: وهو المقتول في سبيل الله، سمي بذلك لقيامه بشهادة الحقّ في جنب الله حتّى قُتل.
(والصّالحين) هم جمع صالح: وهو كلّ من صلحت سريرته وعلانيته. (وحسن أولئك رفيقًا) فإنّه يعني: وحسن هؤلاء الذين نعتهم ووصفهم رفقاء في الجنّة.
وقد ذكر أن هذه الآية نزلت لأنّ قوما حزنوا على فقد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حذرًا أن لا يروه في الجنّة. جاء رجل من الأنصار إلى النبيّ صلّى الله عليه وهو محزون، فقال له النبيّ صلّى الله عليه و سلّم: «يا فلان ما لي أراك محزونا»؟ قال: نحن نغدو عليك و نروح، ننظر في وجهك و نجالسك، غدا ترفع مع النبيّين فلا نصل إليك! فلم يرد النبيّ صلّى الله عليه و سلّم شيئا. فأتاه جبريل عليه السّلام بهذه الآية (و من يطع الله و الرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيّن و الصديقيّن و الشهداء والصّالحين وحسن أولئك رفيقا) قال: فبعث إليه النبي صلّى الله عليه و سلّم فبشّره».

(١) رجاء بن سلامة، مرجع *مذكور*، ص٩٨؛ ابن سعد، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٩: «أنا شهيد على هؤلاء، لُفّوهم في دمائهم فإنّه ليس من جريح يُجرحُ في الله إلاّ جاء جرحه يوم القيامة يَدْمي، لونه لون الدّم، وريحُهُ ريح المسك».

عليه وسلّم، وعلى الشّهيد حتى صلّى على حمزة سبعين مرّة، ونزل في قبره: أبو بكر، وعمر، وعلي، والزبير، وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على شفير القبر وقال: لقد رأيت الملائكة غسلت حمزة»[1].

كما استشهد جعفر بن أبي طالب في أحد، فكانت له نفس المكانة لانتمائه لأهل البيت. قد كافأه الله بالجنّة على استشهاده في سبيله. «. . . استُشهِد فصلّى عليه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ودعا له ثمّ قال رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم: «استغفروا لأخيكم جعفر فإنّه شهيد وقد دخل الجنّة وهو يطير فيها بجناحَين من ياقوت حيثُ شاء من الجنّة»[2].

على هذا الأساس، أصبح الاستشهاد فضيلة من الفضائل المرتبطة بأهل البيت، ويجني منها النّاس الثّواب والأجر في علاقتهم بأهل البيت وفي دفاعهم عنهم، وجهادهم في سبيلهم.

كما أنّ حمزة وجعفر أصبحا مثالا لصورة الشّهيد القريبة من صورة الأنبياء والصدّيقين. وقد عادت هذه الصّورة ـ الرّمز لتظهر بقوّة في كربلاء أو في الطّفّ لحتميّة استشهاد الحسين وأهل بيته وأصحابه.

كما ارتبط الاستشهاد بالدّفاع عن الدّين والرّسول في المغازي. ورجعت هذه الصّورة بعلاقة بالحسين كرمز لغيبة الرّسول ويجب الدّفاع عن هذه الغيبة.

وفي خضمّ هذه «التّعبئة» النفسيّة لأهل بيته وأصحابه، جاء رجلين من أهل الكوفة وهما الضحّاك بن عبد الله المِشرقيّ[3]، ومالك بن النضر الأرحبيّ[4] لمقابلة الحسين.

فأعلماه أنّ الوالي عبيد الله بن زياد قد قرّر قتاله، وطلبوا منه الرّجوع للكوفة

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٤، ص٣٨٩.
(٢) ابن سعد، مصدر مذكور، ج٤، ص٢٨.
(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٠٤: من همدان.
(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤١٨.

ودعوا الله له. فسألهما عن السّبب الذي يمنعهما من نصرته.

فأجاباه بأنّ عليهما دينا، وأضاف مالك بن النّضر بأنّ لديه عيالاً. وألحّ عليه الضحّاك بن عبد الله المشرقيّ أن يجعله في حلّ من الانصراف، فإذا لم يجد مقاتلا قاتل معه ما دام ذلك نافعاً. فأجابه الحسين بأنّه في حلٍّ.

يبدو من خلال هذه الرّواية أنّ أهل الكوفة كانوا دائما يجدون فجوة للهرب من حراسة السّلطة الأمويّة للطّرق، والالتحاق بالحسين، وتبليغه الأخبار. لكنّهم كانوا فاتري التشيّع ولديهم نظرة واقعيّة للأمور.

فهم يريدون الالتحاق بأهلهم وأطفالهم، أو قضاء ديونهم. ولم يشبهوا في تضامنهم معه أصحابهُ.

وتعود الرّواية على لسان عليّ بن الحسين فذكر أنّه كان جالسا في العشيّة التي قُتل فيها أبيه صبيحتها، وعمّته زينب تُمرّضه.

وقد كان الحسين معتزلا مع أصحابه، وكان حُوَيّ مولى أبي ذرّ الغفاري(١)، يُصلحُ سيفه استعدادا للقتال من الغد.

وهنا نلاحظ تواجد عناصر مرتبطة بالصّحابة (مولى الصّحابي أبي ذرّ الغفاري). وكان الحُسين يردّد أبياتا من الشّعر مرّتين أو ثلاثا:

يا دهرُ أُفٍّ لكَ من خليلِ ... كم لك بالإشراقِ والأصيلِ
مِن صاحبٍ أو طالبٍ قتيلِ ... والدّهرُ لاَ يقنعُ بالبديلِ
وإنما الأمرُ إلى الجليلِ ... وكلُّ حيٍّ سالكُ السّبيلِ

كانت فكرة القتل والاستشهاد تظهر دائما في رحلة الحسين إلى الكوفة ثمّ في مقتله. وهي عبارة عن تنبّؤ بمصيره.

كما أنّها ربّما تحضير نفساني لأهل البيت حتّى يقبلوا هذه الفاجعة.

---

(١) ابن سعد، مصدر مذكور، ج٤، ص١٦٥ ـ ١٦٩: «أبو ذرّ واسمه جُندب بن جُنادة بن كُعيب. كان إسلام أبي ذرّ رابعًا أو خامسًا».

وسمع عليّ بن الحسين أباه يُردّد هذه الأبيات، ففهم أنّ الحسين ينعى نفسهُ وأنّهم سيُقتلون من قبل الجيش الأموي. واختنق عليّ بن الحسين بعبرته، فردَّ دمعه. وهذا دليل على وجود قواعد ثقافيّة محدّدة للقيم الرجاليّة. وهذه القيم تُضعف من قيمة الرّجل الذي يُظهر مشاعره بذرف دموعه زمن الشّدائد[١].

وسمعت زينب ـ أخت الحسين ـ أخاها يردّد هذا الشّعر، ففهمت ما يقصد. ويُعلّق عليّ بن الحسين على ذلك بقوله: «وهي امرأة، وفي النّساء الرقّة والجزعُ»[٢]. فهبّت زينب إلى أخيها وهي تجرّ ثوبها ألما وحسرة عليه.

وقالت له بأنّها فقدت أمّها فاطمة، وأباها عليّا وأخاها حسنا[٣]، وهي ستفقده الآن. وقد حزّ في نفسها أنّه لا يموت موتة طبيعيّة بل يُقتل تقتيلاً. كما أنّها تمنّت أن تفديهُ بنفسها.

فردّ الحسين غُصَّتَهُ، وترقرقت عيناهُ، وحاول أن يصبّرها، لكنّها لطمت وجهها وشقّت جيبها وخرّت مغشيًّا عليها، فصبّ الحسين على وجهها الماء.

وحاول الحسين أن يُقنع أخته ويُعزّيها باتّباع خطاب دينيّ يرتكز على الإيمان باليوم الآخر وبالالتقاء في الجنّة، وبالمقدرة الإلهية والبعث بعد الموت[٤]. كما ذكّرها بشرعيّة أهل البيت وبأنّ الموت حقّ[٥]: موت الرّسول، وعليّ وفاطمة والحسن. كما أوصاها باتّباع أخلاقيّة إسلاميّة في موته، وأوصاها أن تبرّ قسمه: فلا تشقّ عليه جيبا، ولا تخمش عليه وجها. ولا تدعو عليه بالويل والثّبور[٦].

يتخلّل رواية مقتل الحسين العديد من المواقف المؤثّرة. فقد عادت صورة زينب ـ الرّمز لأنّها تمثّل الصّلة التي تربط الحسين بعليّ وفاطمة والحسن. فقد تحضّرت

---

(1) Anne Vincent-Buffault, *Idem*, p.185.

(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٢٠.
(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٢٠؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٤، ص٣٩٣.
(٤) المؤمنون ٢٣ / ١٦ ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾.
(٥) العنكبوت ٢٩ / ٥٧ ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾﴾.
(٦) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٢٠ ـ ٤٢١.

زينب من جديد للحداد على أخيها الحسين. وكان هذا التحضّر للحداد مؤلما لأهل البيت (الحسين وزينب وعليّ بن الحسين) لأنّ الموت والقتل كان مسلّطا عليهم ومفروضا بالقوّة.

وقدعبّرت زينب عن لوعة الحداد وفقدان الحسين واستشهاده قبل وقوع الحدث نفسه. وهذا أمر جديد مرتبط بطبيعة السّلطة الأمويّة في علاقتها بأهل البيت.

فقد ترك الوالي عبيد الله بن زياد الوقت للحسين وأهل البيت للتحضّر لموتهم، وهي ظاهرة سياسيّة وإيديولوجيّة أفرزتها الفتنة الثّانية.

ويبدو الحسين رقيق القلب وشديد الحزن تجاه لوعة أخته، وكذلك تجاه هذا المصير الذي سُلّط عليهم (خذلان أهل الكوفة له وتقتيل وقمع السّلطة لمسلم بن عقيل ولعبد الله بن بقطر، وحصارهم للحسين وأصحابه وأهل بيته قبل تقتيلهم).

لكنّ الحسين كان مجبرا بدافع الانتماء لأهل البيت، وبدافع أخلاقيّة دينيّة على تعزية زينب وإقناعها بقبول القضاء المسلّط عليهم.

وبدأت الاستعدادات للقتال في صفّ الحسين، فأمر أصحابه أن يقرّبوا بيوتهم من بعضهم البعض، ويُدخلوا الأطناب بعضها في بعض، ويكونوا هم بين البيوت. ويستقبلوا عدوّهم من وجه واحد[(١)].

لقد اتّبع الحسين إستراتيجية عسكريّة أملتها عليه ظروف الحصار. لكنّه توجّه أساسا هو وأصحابه إلى الصلاة والدّعاء وتلاوة القرآن.

كان للقرآن رمزيّة كبيرة، فهو يُكسب الحسين شرعيّة تاريخيّة بانتمائه لأهل البيت. كما أنّه يُعبّر عن تديّن الحسين ورجاله. كما كان القرآن حاضرا في الفتنة الأولى.

وكان هذا الاستعداد الدّيني بمثابة الاستعداد للجهاد في سبيل الله[(٢)]. فلمّا جُنَّ

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٩٣ ـ ٣٩٤؛ الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٢١.

(٢) الصفّ ٦١ / ١١ ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

اللّيل، قام الحسين وأصحابه اللّيل كلّه يصلّون ويسبّحون ويستغفرون ويدعون ويتضرّعون[1].

كما كانت الصّلاة من العناصر الدينيّة التي اعتمد عليها عليّ بن أبي طالب لتشجيع رجاله على القتال في صفّين[2]. فهي دافع قويّ للصّبر في الجهاد[3].

وقرأ الحسين ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ﴾[4].

وسمع رجل من الحرّاس (من أهل الكوفة بجيش عمر بن سعد) المكلّفين بحراسة الحسين ورجاله في اللّيل، سمع هذه الآية عندما كان الحسين يقرأها، فهبّ قائلاً بأنّهم هم الطيّبون[5]، وقد ميّزه الله عليهم[6].

يبدو من هذا الكلام أنّ الجيل الجديد من أهل الكوفة تربّى على مجهود السّلطة الأمويّة في عهد زياد بن أبي سفيان ثمّ في عهد ابنه عبيد الله بن زياد في تركيز الإيديولوجيا الأمويّة.

وقد عتّمت هذه الأخيرة على أهل البيت (شتم عليّ على المنابر). كما عتّمت على القرآن والسنّة.

فقال الضحّاك بن عبد الله المشرقيّ لبُرير بن حُضَيْر الهمدانيّ (وهما من أصحاب الحسين) بأنّ المتكلّم هو أبو حرب السّبيعيّ[7] عبد الله بن شهر. كان رجال الكوفة يعرفون بعضهم البعض في اللّيل بنبرة الصّوت أي رجال الحسين يعرفون عناصر جيش عمر بن سعد.

---

(١) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٣٩٤؛ الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٢١.
(٢) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص١٤.
(٣) البقرة ٢ / ٤٥ ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾.
(٤) آل عمران٣/ ١٧٨، ١٧٩؛ الطّبري، *جامع البيان في تأويل القرآن*، ج٤، ص١٩١.
(٥) ابن منظور، *معجم مذكور*، ج٢، ص٦٣٣: الطيّبُ: الطّاهرُ.
(٦) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٢١.
(٧) ابن حزم، *مصدر مذكور*، ص٤٧٥ بطن من همدان.

كان هذا الشّخص شريفًا وشجاعاً وفاتكاً وبطّالاً[1]. وقد حبسه سيّد عشيرة همدان سعيد بن قيس ربّما في جناية. يبدو أيضا أنّهم ينتمون لنفس العشيرة.
المهمّ أنّه نشبت بينهم أي بين الفريقين مشادّة كلاميّة بوّأ كلّ واحد منهم نفسه بمنزلة الطيّبين ونزّل الآخرين ـ أي الأعداء ـ منزلة الخبيثين.

المهمّ أنّ الصّراع كان بين مقاتلة الكوفة من نفس العشائر في بعض الحالات. وهو صراع إيديولوجي لأنّ كلّ واحد منهم كان يُمثّل توجها مختلفا (شقّ مع الحسين وشقّ مع الدّولة).

وبدأ الصّراع الإيديولوجي بين الجيشين يظهر حول القرآن قبل اندلاع القتال. فالقرآن كان رمز وحدة المسلمين والتفاف الأمّة حول كتاب واحد. فأصبح في الفتنة الأولى ثمّ في الفتنة الثّانية مصدر انشقاق وانشطار في الضّمير الإسلامي.

فقد ذكر الطّبري أنّ عبد الله بن بُديل[2] وهو في صفّ عليّ نادى أصحابه بقتال جيش الشام ومعاوية معتمدا على كتاب الله واستشهد بالقرآن ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٣ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۝١٤﴾[3].

وكان عزرة بن قيس الأحمسيّ على الخيل يحرس الحسين وأصحابه باللّيل[4] مخافة أن يهربوا. وهذا دليل على أنّ عمر بن سعد كان حريصا على مراقبة الحسين وأصحابه إلى حدّ وصول موعد القتال.

ولم تذكر المصادر حدوث مشادّات أو صراعات كلاميّة بين الفريقين إلى حين اندلاع القتال من الغد.

---

(١) ابن منظور، معجم *مذكور*، ج١، ص٢٢٧: رجل بطّال ذو باطل.
(٢) البلاذري، مصدر *مذكور*، ج٦، ص٢٢٠: من القرّاء المتشدّدين الذين قتلوا عثمان.
(٣) التّوبة ٩/ ١٣ ـ ١٤؛ الطّبري، جامع *البيان في تأويل القرآن*، ج٤، ص١٩١؛ الطّبري، مصدر *مذكور*، ج٥، ص١٦.
(٤) الطّبري، مصدر *مذكور*، ج٥، ص٤٢٢.

وابتدأ القتال من الغد، فقد صلى كلّ من عمر بن سعد والحسين برجاله صلاة الغداة يوم السبت أو يوم الجمعة، وكان ذلك يوم عاشوراء[1] (يوم صوم في ١٠ من المحرّم).

وكانت الرّوايات في المصادر على درجة كبيرة من العاطفيّة والإيمان العميق برسالة الحسين وأهل البيت. كما بدا الجانب الملحميّ في وصف المعركة.

وقد كان الحسين بن عليّ في ٣٢ فارسا و٤٠ راجلاً، وجعل على ميمنته زهير بن القين، وعلى ميسرته حبيب بن مظاهر. وأعطى رايته للعبّاس بن عليّ أخاهُ.

وأمر الحسين أصحابه بحفر خندق، ووضعوا فيه القصب والحطب من وراء البيوت، وأمر الحسين أن يُحرق بالنّار إذا هاجمهم جيش عمر بن سعد، مخافة أن يأتوهم من خلف[2]. وقد كانت هذه الطّريقة مفيدة لهم.

وخرج عمر بن سعد في النّاس، فكان على رُبع أهل المدينة عبد الله بن زهير بن سُليم الأزديّ، وعلى رُبع مذحج وأسد عبد الرحمن بن بن أبي سبْرة الجعفيّ، وعلى رُبْع ربيعة وكِنْدة قيس بن الأشعث بن قيس، وعلى ربع تميم وهمدان الحرّ بن يزيد الرّياحيّ.

وشارك كلّ هؤلاء في قتل الحسين ما عدا الحرّ بن يزيد الذي انتقل إلى صفّ الحسين وقُتل معه[3].

وجعل عمر بن سعد على ميمنته عمرو بن الحجّاج الزّبيدي، وعلى ميسرته شمر بن ذي الجوشن الكلابي، وعلى الخيل عزْرة بن قيس الأحْمسيّ، وعلى الرّجال شبث بن ربعي الرّياحيّ، وعلى الرّاية ذُويْدًا مولاه[4].

يبدو أنّ الجيشين لم يكونا متكافئين في العدد وفي السّلاح وفي التّنظيم. فجيش

---

(1) *E.I²*, article Âshûrâ.

(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٢٢؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٩٥.

(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٢٢.

(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٢٢؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٩٥.

أو مقاتلة الكوفة كانوا يمثّلون جيشا امبراطوريّا ضخما. بينما كان «جيش» الحسين عبارة عن فرقة صغيرة.

وهذا أساسيّ لأنّه يدعّم مخطّط عبيد الله بن زياد في تقتيل الحسين وأهل بيته واستئصالهم.

كان أشراف الكوفة رؤساء على الأرباع وقوّادًا على الجيش مع عمر بن سعد. وهذا يؤكّد التفاف الأشراف حول عبيد الله بن زياد بالنّخيلة، وحول عمر بن سعد في الطّفّ أو كربلاء.

وقام الحسين بتحضيرات أخرى استعدادا للمعركة، فقد أمر بفسطاط فضُرب[1]. ثمّ أمر بمسك فوُضع في جفنة كبيرة، ودخل الحسين الفسطاط فتطلّى بالنّورة[2].

فالمصادر ذكرت جانبا انتروبولوجيّاً هامّا وهو التحضّر للقتال بالتحنّط، وهو يمثّل إحدى عناصر التّكفين[3]. فربّما كان الحسين يتطيّب للشّهادة بما أنّه يعرف أنّه مُقدم على القتل من قبل جيش عبيد الله بن زياد.

واكتست هذه العمليّة طابعا مقدّسا حيث تزاحم أصحاب الحسين، أساسا عبد الرّحمن بن عبد ربّه الأنصاري وبُرير ابن حُضير الهمْدانيّ ليتحنّطوا بعده وهم يبحثون في ذلك عن البركة التي ستنالهم من وراء الحسين ـ حفيد الرّسول ـ وكان عبد الرحمن بن عبد ربّه متشوّقا للقتال والاستشهاد في سبيل الحسين.

وكان يطمح من وراء ذلك إلى رؤية الحور العين[4] في الجنّة. فالجانب الدينّي والرّوحي كان قويّا لدى أصحاب الحسين وكان لهم دافعا قويّا للقتال. كما يظهر

---

(١) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٢٣؛ البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٣٩٥.

(٢) ابن منظور، *معجم مذكور*، ج٣، ص٧٤٠: النّورةُ: من الحجر الذي يُحرقُ ويُسوّى منه الكلسُ ويحلق به شعر العانة. يقال انتَورَ الرجلُ وانتار من النورة. انتار الرجل تطلّى بالنّورة.

(٣) رجاء بن سلامة، *مرجع مذكور*، ص٩٥.

(٤) الطور ٥٢/ ٢٠ ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾﴾.
الطّبري، *جامع البيان في تأويل القرآن*، ج٤، ص١٩١.

هذا الجانب في الفتنة الأولى حيث بايعت جماعة من قرّاء الشّام معاوية في صفّين على الموت[1].

وكانوا يتدافعون لحماية قبّة[2] معاوية، وليّ الإمام المظلوم والطّالب بدمه من عليّ. ويعتبر هذا الأخير قاتل خليفتهم والذي آوى ثأرهم وقتلة خليفتهم المظلوم.

كما يبدو من خلال هذا الخبر وجود عناصر من الأنصار في أصحاب الحسين، إضافة للكوفيّين، ولأهل بيته.

ولمّا فرغ أصحاب الحسين من ذلك، ركب الحسين دابّته ودعا بمصحف فوضعه أمامه[3]. وفي هذا يشبه الحسين الخليفة عثمان قبل مقتله، فهو كان بين يديه مصحفا[4].

وفي هذا رمزيّة كبيرة للقرآن في خضمّ الفتنة الأولى والفتنة الثّانية. وهو بالنّسبة للحسين سلاح روحيّ وأهمّ وسيلة للصّلح ربّما بين الفريقين.

ثمّ دعا الحسين الله ـ عندما رأى جيش الأمويّين ـ بصوت عال سمعه أحد أصحابه (وهو شاهد عيان روى هذا الخبر فوصل إلى مسامع أبي مخنف، واسمه أبو خالد الكاهلي)، فطلب منه العون في كربه وعند ضعفه، ولمّا يشمت فيه العدوّ ويخذله الصّديق[5].

يبدو الحسين على درجة كبيرة من الإيمان بالله الذي كان دعما نفسيّا له. كما كان سلاحا له في حرب سيُقتل فيها، وهو في قلّة من رجاله.

كما أنّ الحسين كان في وضعيّة انكسار وضعف لتخاذل أهل الكوفة عنه واستعداد الجيش الأموي لقتله وقتل أصحابه وأهل بيته.

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص١٨.

(٢) أي فسطاطه.

(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٢٣.

(٤) البلاذري، مصدر مذكور، ج٦، ص٢٢٠: «فوجدوا (قتلة عثمان) عثمان عند امرأته نائلة وهو يقرأ سورة البقرة في المصحف». وقد قتل عثمان وسال الدم على لحيته وعلى المصحف.

(٥) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٢٣.

وبدأت الاستعدادات في صفّ الحسين حيث أضرم أصحابه النّار في القصب والحطب من ورائهم حتّى لا يأتي جيش عمر بن سعد من خلفهم[١].

لكنّنا قبل الحديث عن بداية المعركة يجب أن نذكر إشكاليّة موقع المعركة وموقع مقتل الحسين. ففي المصادر لم يرد ذكر كربلاء إلاّ بعد مقتل الحسين[٢]. فهل أعطى الشّيعة تسمية للمكان بعد مقتل الحسين؟

كما أنّ التّسمية التي وردت في الطبري (رواية هلال بن يساف) التي تذكر التقاء خيول الوالي ابن زياد بالحسين في كربلاء ـ وهو متّجه إلى الشّام لِلقاء الخليفة يزيد بن معاوية، هي تتحدّث عن فترة لاحقة. كما أنّ نفس هذه الملاحظة تخصّ رواية البلاذري «وأقبل الحسين حتى نزل نهر كربلا، وقد بلغه خبر الكوفة»[٣]. بينما تحدّثت المصادر عن اسم آخر للموقع بعد المقتل أيضا وهو مُعترك الطّفّ[٤]. فهل كان اسم الموقع الطّفّ فغُيّر إلى كربلاء؟

وذُكر اسم الطّفّ في الأشعار التي رثت الحسين وأهل بيته، فقد قال الهيثم بن عديّ[٥]، قال سليمان بن قتّه[٦]:

إنّ قتيل الطّفّ من آل هاشمِ أذلّ رِقابًا من قريشٍ فذَلّتِ

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٢٣؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٩٦.

(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٩٣ ـ ٤٧٠؛ ياقوت، معجم مذكور، ج٤، ص٤٤٥: كَرْبلاءُ: «وهو الموضع الذي قُتل فيه الحسين ابن عليّ. في طرف البريّة عند الكوفة، فأما اشتقاقه فالكربلة رخاوة في القدمين، يقال جاء يمشي مُكربِلاً، فيجوز على هذا أن تكون أرض هذا الموضع رخْوة فسُمّيت بذلك».

(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٢، ص٣٤٣ ـ ٤٠١.

(٤) ابن منظور، مصدر مذكور، ج١، ص٥١٠: ومعترك الطّفّ: هو الموضع الذي قتل الحسين بن عليّ، رضي الله عنهما؛ ياقوت، معجم مذكور، ج٤، ص٣٥ ـ ٣٦: الطَّفُّ: وإنّما سُمّي طفًا لأنّه دانٍ من الريف، والطف: أرض من ضاحية الكوفة في طريق البريّة فيها كان مقتل الحسين ابن عليّ، رضي الله عنه، وهي أرض بادية قريبة من الريف فيها عدة عيون ماء جارية، منها: الصيد والقُطقُطانة والرُّهَيمة وعين جمل وذواتها.

(٥) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٢٠؛ ابن سعد، مصدر مذكور، ج٧، ص٣٣٢: الهيثم بن عديّ الطّائي وهو من المحدّثين.

(٦) ابن سعد، مصدر مذكور، ج٥، ص١٤٤: سليمان بن قتّة الخُزاعي هو من المحدّثين.

وقال أبو دهبل الجُمحي[١]:

يبيت السكارى من أمية نُوَّمَا   وبالطَّفِّ قتلى ما ينام قتيلها

وقال المغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب[٢].

على أناس قُتِلوا تسعة   بالطَّفِّ أمسوا رهن أكفان

وقال عبد الرحمن بن الحكم[٣] أخو مروان بن الحكم بن أبي العاص:

لهام بجنب الطّفّ أدنى قرابة   من ابن زياد العبد ذي الحسب الوغلِ
سُميةُ أمسى نسلها عدد الحصا   وبنتُ رسول الله ليس لها نسل[٤]

المهمّ أنّ مدينة كربلاء ستصبح مركزا للذّاكرة[٥] الشّيعيّة، وقد بقي سليمان بن صرد والتوّابون سنة ٦٥هـ/ ٦٨٤ ـ ٥م يوما وليلة على قبر الحسين قبل الانتقال لقتال قتلة الحسين، ومقرّا للاحتفالات في عاشوراء لذكرى «استشهاد» الحسين. كما أنّه يحوي ضريح الحسين الذي أصبح مزارا للشّيعة إلى يومنا الحاضر. بينما كانت عند المقتل موقعا في البريّة حُصر فيه الحسين.

وقد ابتدأت المواجهة بين الجيشين عندما هبّ إليهم رجل كامل الأداة، أي مسلّحا ـ وهو شمر بن ذي الجوشن ـ ونادى الحسين بقوله إنّه استعجل النّار في الدّنيا قبل يوم القيامة. فأجابه الحسين: «يا ابن راعية المعزَى، أنت أولى بها صليّاً».

ردّ الحسين الشّتيمة لشمر بن ذي الجوشن على غرار عادات العرب في الشّتم وهي تستهدف أمّ شمر البدويّة.

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٢٠؛ مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص٣٩٣: هو أبو دهبل بن زمعة بن أُسيد بن أحَيْحة من جمح. وهم من هصيص بن كعب بقريش.

(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٢٠.

(٣) مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص١٥٩.

(٤) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٢١.

(5) *E.I*², article Karbalâ.

وطلب مسلم بن عوسجة من الحسين مناديا إيّاه بابن رسول الله أن يكون فداهُ ويرميه بسهم «لأنّ الفاسق من أعظم الجبّارين»[1]. فقد كانت صورة شمر بن ذي الجوشن لدى رجال الكوفة من أصحاب الحسين صورة سلبيّة بما أنّه منعدم الإيمان بمكانة أهل البيت وطاعته المطلقة لعبيد الله بن زياد.

لكنّ الحسين رفض أن يبدأهم هو بالقتال. وكان هذا الموقف تُمليه أخلاقيّة دينيّة.

بدأ الجيش الأموي وبالتّحديد شمر بن ذي الجوشن، القائد الذي عيّنه عمر بن سعد على ميسرة جيشه في استفزاز مباشر للحسين. ويدلّ هذا الاستفزاز على ضعف الشّعور الدّيني ولدى الأشراف بعد ٢٠ سنة من تركيز وتدعيم للإيديولوجيا الأمويّة أي التّعتيم على القرآن والسنّة وتغييب صورة الرّسول.

وارتبط تغييب صورة الرّسول بشتم عليّ على المنابر. فالرّسول وعليّ يُمثّلان أهل البيت وشرعيّتهما تهدّد الشرعيّة الأمويّة بالسّقوط والتّداعي.

على هذا الأساس، لم يكن الحسين رمزا دينيّا بالنّسبة لأشراف الكوفة بل هو مجرّد معارض يجب القضاء عليه.

كما ذكر البلاذري أنّ الحسين قال عن شمر بن ذي الجوشن، «قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «إنّي رأيت كلبًا أبقع يَلِغُ في دماء أهل بيتي»[2].

كان شمر به برص، وقد قتّل في كربلاء الحسين وأهله. فهل هذا الحديث صحيح أم وضعه الشّيعة للتّعتيم على قتلة الحسين وأهل البيت خاصّة منهم شمر بن ذي الجوشن الذي كان جافيا وغليظا ومطبّقا لسياسة عبيد الله بن زياد؟

استمدّ الحسين شرعيّته التّاريخيّة من قرابته للرّسول ومن انتمائه لأهل البيت. بينما اكتسب القتلةُ ـ قتلة الحسين ـ وضعيّة مُميّزة في العقاب الإلهي لاعتدائهم على الحسين. فهم بدون شكّ معرّضون لأعلى درجات العقاب الإلهي.

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٢٤.
(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٠١.

وهذا يدخل في إطار ضعف الشّعور الدّيني لديه وكذلك فرضه لإيديولوجيا الدّولة الأمويّة التي تتمثّل في التّعتيم على ذكرى الرّسول وعلى عليّ وأهل البيت.

ثمّ إنّ الحسين أعطى فرسه لاحقا الذي أهداه له عبيد الله بن الحرّ لابنه عليّ بن الحسين، وعندما اقترب منه مقاتلة الكوفة أي مقاتلة الدّولة الأمويّة ركب راحلته.

وكلّم الحسين أهل الكوفة، وطلب منهم أن يعظهم لحقّ لهم عليه، ويعتذر إليهم من مقدمه عليهم. فإن قبلوا عذره وصدّقوا قوله. وإن لم يقبلوا منه العذر ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾[1] ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾[2].

مازال الحسين يحاول أن يجلب أهل الكوفة له ليعترفوا بحقّه، وكان خطابه مرتكزا على الكتاب الذي يعتبر الأساس الإيديولوجي له. وكذلك أساس شرعيّته التّاريخيّة.

ولمّا سمعت أخواته كلامه صحن وبكين، وبكى بناته فارتفعت أصواتهنّ. فأرسل إليهنّ أخاه العبّاس بن عليّ وابنه عليّاً ليسكتاهنّ.

وأعطى الحسين الحقّ لابن عبّاس الذي نصحه بأن لا يُخرج نساءه معه. كما قال الحسين: «فلعمري ليكثرنّ بكاؤهنّ»[3].

أحسّ نساء أهل البيت بلوعة كبيرة سببها إحساس الحسين بقرب أجله ومقتله من قبل أهل الكوفة أو جيش الوالي ابن زياد.

كان بكاؤهنّ وحزنهنّ تعبيرا عن هذا الموت المفروض والتقتيل المسلّط على أهل البيت من قبل السّلطة الأمويّة.

وهو كذلك تعبير عن حداد قبل الأوان. وهو أمر جديد أفرزته هذه الفتنة الثّانية. وخطب الحسين في مقاتلة الكوفة[4] بعد أن هدأت نساؤه عن البكاء، فطلب منهم

---

(١) يونس١٠/ ٨١.
(٢) الأعراف ٧/ ١٩٢.
(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٢٤؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٩٧.
(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٢٤.

أن يُراجعوا أنفسهم، وينظروا هل يحقّ ويحلّ لهم قتل ابن بنت نبيّهم وانتهاك حرمته. وقد بيّن لهم فضائل أهل البيت[1] ودورهم في بناء الإسلام.

فذكّرهم بأنّه ابن بنت نبيّهم وابن وصيّه عليّ، أوّل المؤمنين بالله والمصدّق لرسوله.

برهن الحسين على شرعيّته التّاريخيّة أو شرعيّة أهل البيت. وهي منزلة ميتا ـ تاريخيّة مرتبطة بمحمد كنبيّ أي القرابة من الرّسول.

كما أنّها مرتبطة بالسّابقة القدمة في الإسلام، فعليّ أوّل من أسلم مع الرّسول، وأوّل من صلّى وله عشر سنين[2].

وشارك عليّ في كلّ مشاهد الرّسول ابتداء من بدر[3].

وبنيت شرعيّة أهل البيت على الاستشهاد في سبيل الله، فكان حمزة بن عبد المطلّب سيّد الشّهداء عمّ عليّ[4]، وجعفر الشّهيد الطيّار ذو الجناحين عمّ الحسين[5].

ويبرهن الحسين على شرعيّته التّاريخيّة المرتبطة بالرّسول، فقد قال له ولأخيه: «هذان سيّدا شباب أهل الجنّة»[6].

وسألهم إن كانوا يصدّقوه. وفي صورة تكذيبهم له، طلب منهم الحسين أن يسألوا الصّحابة ـ أي الفئة الميتا ـ تاريخيّة المرتبطة بالرّسول ـ كجابر بن عبد الله الأنصاري[7]،

---

(١) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٣٩٦.
(٢) ابن سعد، *مصدر مذكور*، ج٣، ص١٥.
(٣) ابن سعد، *مصدر مذكور*، ج٣، ص١٦.
(٤) ابن سعد، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٨.
(٥) مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص١٨: قال الرّسول لأسماء بنت عُميس -زوجة جعفر - عندما استشهد: «إنّ الله جعل لجعفر جناحين يطير بهما في الجنّة».
(٦) مسلم، *مصدر مذكور*، ج٤، ص١٨٨٢ ـ ١٨٨٣.
(٧) ابن سعد، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٤٣١: «يجعل جابر في السّتّة نفر الذين أسلموا من الأنصار أوّل من أسلم منهم بمكّة. وشهد جابر بدرًا وأُحُدًا والخندق والمشاهد كلّها مع رسول الله، وقد روى عن رسول الله أحاديث».

وأبي سعيد الخُدْريّ[١]، وسهل بن سعد الساعديّ[٢]، وزيد بن أرقم[٣]، وأنس بن مالك[٤]، ليُؤكّدوا هذه الشرعيّة التّاريخيّة للحسين. وسألهم من جديد إن كان هذا يمثّل حاجزًا لعدم سفك دمه. لكنّ شمر بن ذي الجوشن استهزأ بالحسين. فهبّ حبيب بن مظاهر مصدّقا له.

وأعاد الحسين سؤاله لأهل الكوفة إن كانوا ما يزالوا يشكّون في أنّه ابن بنت نبيّهم. وحلف بأنّه لا يوجد ابن بنت نبيّ غيره في المشرق والمغرب.

يبدو أنّ الحسين كان على درجة كبيرة من التأثّر، فهو قد صدّق أخيرا أنّ أهل الكوفة مُقدِمون على قتله لا محالة. كما أنّ محاولة إقناعهم بخطابه، تبدو محاولة يائسة لإبراز صورته، صورة حفيد الرّسول التي لم تكن لديها أهميّة لدى أهل الكوفة. فقد طغت على حسابها إيديولوجيا الدّولة الأمويّة والدنيويّة والسّلطة والمصالح السياسيّة والاقتصاديّة.

فقد نجح معاوية وزياد، كما نجح يزيد وعبيد الله بن زياد في التّعتيم على الكتاب والسنّة، وفي تغييب صورة الرّسول وفي التّعتيم على عليّ في الكوفة التي كانت عاصمة حكم عليّ!

ومثّل شمر بن ذي الجوشن أحسن صورة لنجاح سياسة الدّولة بالكوفة. كما أنّ المكانة الميتا ـ تاريخيّة للصّحابة لم تبق كما هي في هذه الفترة من التّاريخ الأموي بل عُتّم عليهم و هُمّشوا مثلهم مثل الرّسول. وبالتّالي نُزعت الحرمة عن الحسين من قبل السّلطة الأمويّة وجيش الكوفة (حرمة انتمائه لأهل البيت وحرمة القرابة

---

(١) ابن سعد، مصدر *مذكور*، ج١، ص٣٠٣ ـ ٣٥٦؛ ج٢، ص١٧١؛ ج٣، ص١٩١؛ ابن حزم، مصدر مذكور، ص٣٦٢: ولد عوف بن الحارث بن الخَزرج، ومن بني خُدرة «مالك بن سنان بن عُبيد بن الأبجر، وهو خُدرة، من شهداء أُحُد، وابنه سعد بن مالك، وهو أبو سعيد الخُدْري».

(٢) ابن سعد، مصدر *مذكور*، ج١، ص٣١٢؛ ج٢، ٣٧؛ ج٤، ١٦٠؛ ابن حزم، مصدر *مذكور*، ص٣٦٦: من الخزرج «وهو آخر من مات في المدينة من الصحابة».

(٣) ابن سعد، مصدر *مذكور*، ج٦، ص٩٦: زيد بن أرقم الأنصاري «أحد بني الحارث بن الخزرج. وأوّل مشاهده مع النبيّ، المُريسيع، ونزل الكوفة وابتنى بها دارًا في كندة وتوفّي بها في أيّام المختار سنة ٦٨».

(٤) ابن سعد، مصدر *مذكور*، ج٧، ص١٢ ـ ١٩: أنس بن مالك بن النّضر (من بني النجّار).

التي تربطه بيزيد و حرمة انتمائه لقريش).

فسألهم الحسين إن كانوا يطلبونه بقتيل منهم قتله. وهنا يُحِيل الحسين على القصاص أو القود، أو مال افتكّه لهم، أو قصاص من جراحة. فكلّ هذه الأسباب هي أسباب مقنعة في اعتقاد الحسين لاستعدادهم لقتله.

ففي الفتنة الأولى، قتل القرّاء الخليفة عثمان على أساس أنّه لم يُطبّق كتاب الله[1]، فهو اتّخذ أموال الدولة لنفسه، وأعطى الأموال لأقاربه، واستعملهم في المناصب الهّامة[2]، وعاقب بعض الصّحابة كعمّار بن ياسر العنسي، بالضّرب لنقدهم لسياسته[3]، وسيّر أبو ذرّ الغفاري[4].

فقتل القرّاء عثمان لأنّه لم يُرد أن يخلع نفسه من الخلافة لأنّه سربال سربله الله له[5]. بينما لم تحدث في علاقة الحسين بأهل الكوفة أشياء من هذا القبيل حسب رأيه ليستحقّ القتل.

وكان بينه وبين الأشراف مواجهة فنادى شبث بن ربعي وحجّار بن أبجر وقيس بن الأشعث ويزيد بن الحارث وقال لهم بأنّهم كتبوا إليه: «أنْ قد أينعت الثّمار، واخضرّ الجَناب، وطمّت الجمام، وإنما تقدُم على جند لك مجنَّد فأقبلْ!»[6]. فأجابوه بأنّهم لم يُرسلوا له، فأجابهم بأنّهم فعلوا.

يطرح هذا الخبر إشكالا بما أنّنا سبق أن قلنا إنّه من المستبعد أن يرسل الأشراف للحسين يستقدمونه إليهم، فهم غير متشيّعون، كما أنّهم حريصون دائما على القضاء على الثّورات الشيعيّة إلى جانب الدّولة، وهم يعتبرون الدّعامة الاجتماعيّة للسّلطة الأمويّة.

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٦، ص١٨٨.
(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٦، ص١٣٣.
(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٦، ص١٦١ ـ ١٦٢ ـ ١٦٣.
(٤) البلاذري، مصدر مذكور، ج٦، ص١٦٨ ـ ١٦٩.
(٥) البلاذري، مصدر مذكور، ج٦، ص١٨٨.
(٦) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٩٦؛ الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٢٥.

وطلب الحسين من أهل الكوفة إذا كرهوه أن يتركوه يذهب إلى مأمنه من الأرض[1].

فقال له قيس بن الأشعث: «أوَلا تنزل على حكم بني عمّك، فإنّهم لن يُروك إلاّ ما تُحبّ، ولن يَصِلَ إليك منهم مكروه»[2].

لكنّ الحسين أجاب قيس بن الأشعث بأنّه أخو أخيه، وسأله أيُريدُ أن يطلبه بنو هاشم بأكثر من دم مسلم بن عقيل الذي غرّه أخوه.

وهو يعرّض بمنح محمّد بن الأشعث الأمان لمسلم بن عقيل على أساس أنّ عبيد الله بن زياد لن يقتله، وهو ابن عمّ القوم. لكنّ الوالي استخفّ بأمان محمّد بن الأشعث وقتل مسلم.

يبدو أنّ قيس بن الأشعث حاول أن يقنع الحسين من منطلق قديم وتقليدي أنّ يزيد وعبيد الله بن زياد سيحترمان القرابة والرّحم في تعاملهما معه. لكنّ فهم اللّعبة السياسيّة للدّولة بعد مقتل مسلم بن عقيل. وصرّح في النّهاية بعد أن استفزّه قيس بن الأشعث بأنّه لا يُعطيهم بيده إعطاء الذّليل، ولا يُقرّ إقرار العبيد[3].

ثمّ يُضيف الحسين: «عباد الله، إنّي عُذْتُ بربّي وربّكم أن ترجُمونَ، أعوذُ بربّي وربّكم مِن كلّ متكبّرٍ لا يُؤمن بيوم الحِسابِ ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾﴾[4].

---

(١) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٣٩٦؛ الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٢٥.

(٢) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٣٩٧؛ الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٢٥.

(٣) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٣٩٦ ـ ٣٩٧؛ الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٢٥.

(٤) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٣٩٦ ـ ٣٩٧؛ الدخان ٤٤/ ٢٠ ـ ٢١؛ الطّبري، *جامع البيان في تأويل القرآن*، ج١٤، ص١٢٣: «الرجم: بالقول، أن تقولوا هو ساحر. (أن ترجمون) أي ترجمون بالحجارة.

استعاذ موسى بالله أن يرجمه فرعون وقومه، والرجم قد يكون قولا باللّسان، وفعلا باليد. استعاذ موسى بربه من كلّ معاني رجمهم الذي يصل منه إلى المرجوم أذى ومكروه، شتما كان ذلك باللّسان، أو رجما بالحجارة باليد. (وإن لم تؤمنوا فاعتزلون) يقول الله تعالى مخبرا عن قيل نبيه موسى لفرعون وقومه: إن أنتم أيها القوم لم تصدقوني على ما جئتكم به من عند ربي، فاعتزلون: يقول: فخلّوا سبيلي غير مرجوم باللّسان ولا باليد.

كما كان خطاب الحسين خطابا دينيّا مرتبطا بتطبيق مبادئ الكتاب كالإيمان بالحساب في اليوم الآخر.

وطلب الحسين منهم أن يتركوه يذهب سالما إذا لم يصدّقوا ما قاله لهم أو يعترفوا بشرعيّته التّاريخيّة.

يبدو الحسين دائما مستندا على الكتاب كمصدر لشرعيّته التّاريخيّة. على هذا الأساس، كان القرآن ـ الرمز حاضرا بقوّة في كربلاء قبل بداية القتال.

لكنّ مقاتلة الكوفة لم يكونوا حسّاسين للقرآن والسنّة، وكان شعورهم الدّيني ضعيف، فلم يتأثّروا بخطاب الحسين.

وبعد أن خطب فيهم، أناخ راحلته وأقبلوا يزحفون نحوهُ[١]. لماذا ترجّل الحسين؟ هل كان مستعدّا للقتال في هذه الوضعيّة؟

كان هذا التّصريح من الحسين (عدم قبول الإذلال) إعلانا لعدم قبول النّزول على حكم ابن زياد وبالتّالي كان هذا الإعلان «استدعاء» للجيش الأموي ليبدأ القتال والتّقتيل الذي أمر به عبيد الله بن زياد في حالة عدم قبول الحسين لشروط ابن زياد.

كما أنّ هذا الإعلان هو تكريس لقيم قرشيّة أرستقراطيّة من إباء وأنفة واستقلاليّة للذّات. إضافة للحرمة التي كانت تحيط بأفراد أهل البيت. وقد داس عبيد الله بن زياد على كلّ هذه القيم ليركّز سلطة الدّولة وإيديولوجيّتها.

ثمّ تكلّم زهير بن القين[٢]، فكان كلامه مؤثّرا ومعبّرا على التمزّق الذي سيفرضه القتال بين فئتين من المسلمين.

وقد روى هذا الخبر شاهد عيان وهو أحد فرسان الكوفة من جيش عمر بن سعد، كثير بن عبد الله الشّعبيّ.

فذكر أنّه لمّا زحفوا من جانب الحسين، خرج لهم زهير بن القين في فرس،

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٢٦.

(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٩٧؛ الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٢٦.

وعليه سلاحه، فقال لهم بأنّه يتخوّف على أهل الكوفة من عذاب الله[1].

يبدو خطاب زهير بن القين خطابا دينيّا يستقي شرعيّته من مناصرة أهل البيت ومن المعجم القرآني. وهو خطاب يرتكز على الإيمان باليوم الآخر أو يوم الحساب.

كما اعتبر زهير بن القين أنّه من الواجب على المسلم أن ينصح أخاه المسلم معتمدا على القرآن و السنّة.

و يضيف زهير بن القين بأنّهم الآن إخوة[2]، و على دين واحد و ملّة واحدة[3]، ما لم يحل بينهما السيف أي لم يبدأ بينهما القتال.

وإذا انتصب السّيف بينهما ونشب الاقتتال، أصبح كلّ واحد منهم يمثّل أمّة مختلفة عن الأخرى.

يبدو هذا المفهوم مفهوما مركزيّا في الفتنة الثّانية، كما كان له نفس الأهميّة في الفتنة الأولى: وهو مفهوم الانتماء لدين واحد، و ملّة واحدة (الإسلام والمسلمين). لكن عندما يبدأ القتال تنقسم الأمّة إلى أمّتين (أمّة كافرة يمثّلها الأمويّن، وأمّة مسلمة يمثّلها الحسين وأهله وأصحابه).

فقد ذكر طلحة بن عبيد الله ـ الصحابيّ وأحد العناصر المُكوّنة للثّالوث في واقعة الجمل (عائشة والزّبير بن العوّام) ـ قبل اندلاع الواقعة: «بينا نحن يدٌ واحدة على مَن سوانا، إذ صرنا جبلين من حديد يطلُبُ بعضنا بعضًا»[4].

كما أُعيد ذكر هذا الخطاب من قبل أحد شيعة عليّ بن أبي طالب في صفّين، وهو يزيد بن قيس الأرحبيّ[5]: «إنّ المسلم السّليم من سَلِمَ دينُه ورأيه، وإنّ

---

(١) التوبة ٩/ ٩٠ ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ الطّبري، جامع *البيان في تأويل القرآن*، ج٦، ص٢١٩.

(٢) الحجرات ٤٩ / ١٠ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾.

(٣) العنكبوت ٢٩ / ٤٦ ﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾؛ الطّبري، جامع *البيان في تأويل القرآن*، ج١٢، ص٥: «ومعبودنا ومعبودكم واحد، ونحن له خاضعون متذلّلون بالطّاعة فيما أمرنا و نهانا.

(٤) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٤، ص٤٧٦.

(٥) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص١٧ ـ ١٨؛ ابن حزم، *مصدر مذكور*، ص٣٩٦: أرحب بطن من همدان، وكان يزيد بن قيس صاحب شرطة عليّ بن أبي طالب.

هؤلاء القوم و الله إن يقاتلوننا على إقامة دين، ورأونا ضيّعناه، وإحياء حقٍّ رأونا أمتناهُ، وإن يُقاتلوننا إلاّ على هذه الدنيا ليكونوا جبابرةً فيها ملوكًا. . . فقاتلوا عباد الله القوم الظالمين، الحاكمين بغير ما أنزل الله».

برزت النّزعة الدنيويّة الأمويّة في الفتنة الأولى في تناقض مع النّزعة الدّينيّة لعليّ بن أبي طالب. كما تنازعت شرعيّتان في هذه الفتنة: شرعيّة عليّ كأحد أفراد أهل البيت، و شرعيّة معاوية المطالب بدم الخليفة المظلوم.

مثّل زهير بن القين نفس هذا الخطاب سنة ٦١هـ/ ٦٨٠م أي الخطاب الدّيني في صراع مع الخطاب الدّنيوي والسّياسي للأمويّن.

وأضاف زهير بن القين في مخاطبته لجيش عمر بن سعد، فذكر لهم أنّ الله أراد اختبارهم ليرى كيف سيصرّفون في ذريّة النبيّ، ودعاهم إلى نصرتهم على حساب الطّاغية ابن زياد الذي يسمل أعينهم، ويُقطّع أيديهم وأرجلهم، ويُمثّل بهم، ويرفعهم على جذوع النّخل. كما قتّل ابن زياد قرّاء أهل المصر كحجر بن عديّ وأصحابه، وهانئ بن عروة المرادي وغيره.

يعرّض زهير بن القين بالسّياسة المتجبّرة التي كان يتّبعها ابن زياد واستعمال العنف والقتل المبرم في العقاب السّياسي. فقد قمع عبيد الله بن زياد الشّيعة والقرّاء.

لكنّ جيش الكوفة الموالي إيديولوجيّا وسياسيّا للدولة الأمويّة ولسلطة عبيد الله بن زياد سبّ زهير بن القين وشكر ابن زياد ودعا لهُ.

كما أنّهم أكّدوا على إصرارهم على قتل الحسين وأصحابه وأهل بيته. ويبدو الشّعور الدّيني ضعيفا لدى مقاتلة الكوفة، أو أنّهم يُرسلون به وبأصحابه إلى عبيد الله بن زياد سالمين.

وهنا يبدو أنّ المقاتلة مازالوا يؤمنون بوجود حلّين. بينما تحدّث الحسين عن عدم التّسليم بالحلّ الثّاني.

كما أضاف زهير بن القين أنّ ولد فاطمة ابنة الرّسول أحقّ بالنّصرة من ابن سميّة. وإن لم ينصروهم فإنّهم يتجنّبون قتلهم، ويتركون الحسين يتفاهم مع ابن عمّه

يزيد بن معاوية. فالخليفة يرضى بطاعتهم بدون قتل الحسين[1].

تعود شرعيّة أمّ الحسين، فاطمة ابنة الرّسول لتظهر من جديد وبقوّة على حساب أمّ زياد سُميّة، وجدّة عبيد الله بن زياد والي العراق من قبل الخليفة يزيد بن معاوية. كما دافع زهير بن القين عن فكرة الإبقاء على ذريّة الرّسول من القتل، والحرص على علاقة القرابة والرّحم بين يزيد والحسين.

كما أنّه تكلّم على لسان يزيد مبيّنا أنّ مفهوم الطّاعة، وهو مفهوم أساسي في الإيديولوجيا الأمويّة وفي الحفاظ على البيعة، ويستطيع أهل الكوفة أن يركّزوا الطّاعة ويحافظوا عليها في علاقتهم بالخليفة يزيد بن معاوية. فرماه شمر بن ذي الجوشن بسهم وطلب منه أن يسكت بكلّ غلظة. فأجابه زهير بن القين بأن يبشّر بالحرق يوم القيامة.

فقال له شمر بن ذي الجوشن بأنّ الله قاتله وقاتل أصحابه بعد ساعة[2]. لكنّ زهير بن القين أجابه بأنّه لا يخاف من الموت. وخاطب مقاتلة الكوفة قائلا إنّه لا يغُرّهم في دينهم هذا الأعرابي الجلف الجافي (وهو يقصد شمر بن ذي الجوشن) لأنّ الرّسول لن يشفع[3] فيهم يوم القيامة إذا قتلوا عترته، وقتلوا من نصرهم، ودافع عن نسائهم.

ويبدو هذا الخطاب معظّما لأهل البيت كما أنّه خطاب دينيّ متعلّق باليوم الآخر والحساب. بينما كان خطاب شمر ومقاتلة الكوفة دنيويّ وسياسيّ. فلا يمكن للفريقين أن يتفاهما أو يجدا سبيلا لحلّ الأزمة.

ويبدو أنّ الحسين أرسل ينادي زهير بن القين ويطلب منه أن يكفّ عن النّصح، وشبّهه بمؤمن آل فرعون[4] الذي قام بقصارى جهده لينصح قومه، إذ قد أتمّ مهمّته معهم.

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٢٦؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٩٧.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) البقرة ٢ / ٢٥٥ ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾.

(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٢٧؛ الأنفال ٨/ ٥٢ ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ ذكر فرعون٧٤ مرّة في القرآن.

ويبرز التّعريض بفرعون لأقصى درجات الظلم والاضطهاد في المعجم القرآني. وبالتّالي كان الكتاب حاضرا في كلّ لحظات كربلاء. كما يبدو أنّ بقيّة أصحاب الحسين كبُرير بن حضير وغيره وعظوا أهل الكوفة على إغرارهم الحسين بكتبهم[1].

كان أصحاب الحسين يتخوّفون القتال على الحسين وذريّته ذريّة الرّسول. فقد أعظموا تجرّؤ أهل الكوفة عليهم، فأرادوا إقناع جيش مطيع للدّولة يتلقّى العطاء ويركّز إيديولوجيا الدّولة. هذا ما جعل الهوّة بين الفريقين عميقة لأنّ نوعيّة خطاب وإيديولوجيا كلّ منهما مختلفة اختلافا كبيرا.

لكنّ هذا الخطاب الدّيني والعاطفي والمفعم بالإيمان الذي حاول تبليغه أصحاب الحسين لأهل الكوفة، سيُعطي أكلهُ، ولو بقدر ضئيل.

فلمّا زحف عمر بن سعد على الحسين، سأله الحرّ بن يزيد الرّياحي الذي كان على ربع تميم وهمْدان، إن كان سيُقاتل الحسين. فأجاب عمر بن سعد بأنّه سيُقاتله قتالا «تسقط فيه الرّؤوس وتطيح الأيدي»[2].

فطلب منه أن يُجيبه إلى أحد الشّروط التي طلبها الحسين من الأمويّين. لكنّ عمر بن سعد ذكر بأنّ هذا الأمر لم يكن متعلّقا به، لكنّ ابن زياد رفض ذلك.

وسأل الحرّ بن يزيد إن سقى فرسه، فذكر له الرّجل وهو قرّة بن قيس (وهو من عشيرة الحرّ) أنّه سيتولّى ذلك. وكان قرّة يظنّ أنّ الحرّ يريد أن يعتزل القتال. وعبّرقرّة أيضا على رغبته في الالتحاق بالحسين إن صارحه الحرّ بنيّته.

يبدو أنّ خطاب الحسين وزهير بن القين أثّر على الحرّ بن يزيد الرّياحي، فاقترب من الحسين. وسأله أحد الرّجال من قومه إن كان يُريدُ أن يحمل؟ فسكت وأخذته رعدة من الحمّى. فخاطبه الرّجل وهو المهاجر بن أوس بأنّه يرى أنّ أمره مُريبٌ، كما أنّه تعجّب من موقفه هذا وهو يعرف أنّه من أشجع رجال الكوفة. فأجاب

---

(١) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٣٩٧.

(٢) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٢٧.

الحرّ بن يزيد بأنّه خيّر نفسه بين الجنّة والنّار، فاختار الجنّة حتّى ولو قُطّع وحُرّق. ثمّ ضرب فرسهُ والتحق بالحسين وقُتِلَ معهُ[1].

عبّر الحرّ بن يزيد عن صحوة ضمير تجاه الحسين، وشعور بوجاهة مطلبه، وبشرعيّته التّاريخيّة كحفيد الرّسول وأحد أفراد أهل البيت.

فعاش حالة نفسيّة صعبة عند استعداد عمر بن سعد لقتال الحسين فغيّر اتّجاهه العسكري والسّياسي، بأن أصبح حليفا وصاحبا للحسين بن عليّ. وانسلخ عن مهامّه كرئيس لِرُبع من أرباع الكوفة وعبّر عن إيمان عميق (فالجنّة[2] تعني الاستشهاد مع الحسين والجهاد معه، وهي تحتلّ مكانة هامّة في القرآن وفي المخيال الإسلامي) وحبّ لأهل البيت أملته الظّروف رغم أنّه ليس متشيّعا.

وعندما وصل للحسين، قال له الحرّ بأنّه جُعل فداء ابن رسول الله (أي الحسين)، واعترف له بأنّه صاحبه الذي حبسه عن الرّجوع، وسايره في الطّريق، وحصره في ذلك المكان. وأقسم أنّه لم يتوقّع أن يتصرّف معه الأمويّون هذا التصرّف. وقد أطاع الحرّ الوالي عبيد الله بن زياد على أساس أنّهم سيقبلون شروط الحسين، وأقسم أنّه لو علم أنّهم لن يقبلوا منه لماَ نفّذ فيه.

وأضاف بأنّه جاء تائبا إلى ربّه من إيذائه للحسين، وعاهده على أن يموت بين يديه مثل أصحابه. وسأله إن كان يتوب الله عنه. فأجابه الحسين بأنّ الله يتوب عليه. وسأله الحسين عن اسمه فأجابه بأنّه الحرّ. فقال له الحسين بأنه الحرّ في الدّنيا والآخرة [3]. وكانت هذه التّسمية بمثابة المباركة من الحسين للحرّ على نصرته له واعتذاره عمّا بدا منه.

وطلب منه الحسين أن ينزل عن فرسه لكنّه طلب منه أن يقاتلهم على فرسه أحسن من أن يكون راجلاً.

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٢٧؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٩٧.

(٢) النساء ٤/ ١٢٤ ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾. الحشر ٥٩ / ٢٠ ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾.

(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٢٨؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٩٧.

لماذا طلب الحسين من الحرّ أن ينزل عن فرسه؟ هل كان الحسين يريد أن يتمّ القتال بدون خيول؟ تتخلّل كربلاء مواقف مؤثّرة من الإيمان ومن التّعبير عن الإيمان بشرعيّة الحسين تتدفّق فيها العواطف والمحبّة.

يعود رمز الرسول دائما في المعركة أو في كربلاء، فهو رمز حاضر بقوّة لدى أصحاب الحسين. وهذا الرّمز الذي يجسّده الحسين كان يدفعهم لفدائه بأرواحهم.

وعبّر الحرّ بن يزيد عن شعور بالتّوبة(١)، وهذا المفهوم هو مفهوم محوري في القرآن. فالتّوبة هي توبة لله من إيذاء الحسين حفيد الرّسول.

كما أنّه سيكون حجر الأساس في إيديولوجيا التوّابين أي الشّيعة من أهل الكوفة الذين لم يناصروا الحسين كسليمان بن صرد ورفاعة بن شدّاد والمسيّب بن نجبة. فالتّوبة من الذّنب الأعظم كانت همّهم الأساسي(٢).

وسيُعلنون ثورتهم بعد موت الخليفة يزيد بن معاوية، ويُقاتلون قاتلي الحسين بن عليّ من أهل الشّام أساسا عبيد الله بن زياد.

وهبّ الحرّ بن يزيد ليُكلّم جيش عمر بن سعد الذي كان قائدا فيه. فحاول أن يقوم بنفس المجهود الذي قام به الحسين وزهير بن القين مع جيش عمر بن سعد تجنّبا لإراقة دماء آل البيت. فسألهم أن يقبلوا مطلب من المطالب التي عرضها عليهم الحسين حتّى يعافيهم الله من حربه وقتاله؟

فأشاروا عليه بأن يكلّم الأمير عمر بن سعد. فكلّمه وأجابهُ عمر بن سعد بنفس الجواب الذي أجابه بِهِ من قبل. فقد قال له بأنّه حرص لكنّه لم يجد حلاً.

عندها كلّم الحرّ بن يزيد الرّياحي أهل الكوفة فدعا عليهم بالجنون والبكاء المرّ لأنّهم دعوا الحسين وزعموا أنّهم سيقتلون أنفسهم في سبيله لكنّهم عندما أتاهم خذلوه، وحصروه وضيّقوا عليه الخناق ومنعوه من التوجّه حيث شاء حتّى لا

---

(١) الفرقان ٢٥ / ٧٠ ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾.
التوبة ٩ / ١١٢ ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾.

(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٦، ص٣٦٤.

يُصيبه بلاء هو وأهل بيته. ومنعوه الماء هو ونساءه وصبيانه وأصحابه بينما يشرب من ماء الفرات اليهوديّ والمجوسيّ والنصرانيّ ويتمرّغ فيه خنازير وكلاب السّواد. وقد أخذ منهم العطش كلّ مأخذ. ودعا عليهم بالعطش يوم الظّمأ أي في يوم القيامة لعدوانهم على أهل البيت، وطلب منهم التّوبة من ذنبهم في ساعتهم تلك.

كان خطاب الحرّ بن يزيد خطابا مفعما بالإيمان برسالة أهل البيت وبمكانتهم في الضّمير الإسلامي. وكذلك بضرورة حفظ ذكرى الرّسول المتجسّدة فيهم.

لكنّ ردّ أهل الكوفة كان رميه بالنّبل[1] من قبل الرجّالة أي أنّ خطابه لم يلق آذانا صاغية أو تأثيرًا عليهم بل بالعكس كان القتال والتّقتيل هدفهم. وانتصب الحرّ بن يزيد أمام الحسين ليدافع عنه.

وبعد هذه السّلسلة من المحاولات «اليائسة» من جانب «جيش» الحسين لإقناع جيش عمر بن سعد بالعدول عن قتال ابن الرّسول وإراقة دماء أهل البيت، زحف عمر بن سعد نحوهم، وأمر مولاهُ عندها بإدناء الرّاية، ثمّ وضع سهمه في كبد قوسه وأشهد النّاس أو مقاتلة الكوفة أنّه أوّل من رمى[2]. وبذلك ابتدأ القتال. فارتمى النّاس للقتال، لكنّ هذا القتال كان مبارزات بين الفريقين تذكّرنا بصفّين. فقد تبارز رجال عليّ ومعاوية قبل الاقتتال العنيف[3].

وخرج يسار مولى زياد بن أبي سُفيان وسالم مولى عُبيد الله بن زياد، وطلبا المبارزة. فوثب حبيب بن مظاهرالفقعسيّ وبُرير بن حُضير الهمْدانيّ للمبارزة لكنّ الحسين منعهما، ربّما خوفا عليهما من القتل.

لا بدّ من أن نشير لمساهمة موالي زياد وعبيد الله بن زياد في غياب الوالي. ولعلّهما كانا عيونا على قائد الجيش عمر بن سعد.

وطلب رجل من كلب وهو عبد الله بن عمير الكلبيّ من الحسين أن يُبارزهم.

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٢٨ ـ ٤٢٩؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٩٧ ـ ٣٩٨.
(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٢٩؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٩٨.
(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص١٢ ـ ١٣.

وكان هذا الرّجل قد نزل بالكوفة (وهو ربّما أتى من الشّام)، واتّخذ دارا بهمدان. وكانت معه امرأته من النّمر بن قاسط[١]. ولمّا رأى النّاس بالنّخيلة يُعرضون ليرسلوا للحسين، قرّر أن يجاهد من يغزون ابن بنت نبيّهم ليكون لديه ثوابا أكثر من جهاد المشركين. والتحق بالحسين هو وزوجته[٢].

انضمّ هذا الرّجل بدافع نصرة أهل البيت وابن بنت الرّسول. كما برزت فكرة جهاد الجيش الأموي كجهاد الكفّار لدى أصحاب الحسين وهي فكرة موجودة لدى القرّاء في الفتنة الأولى حيث اعتبروا عثمان كافرا لأنّه لم يُطبّق تعاليم القرآن[٣]. وقد أخرجت هذه الفكرة من المعجم القرآني[٤]، وهي إفراز للفتنة.

وكان هذا الرّجل يتمتّع بقدرات جسميّة كبيرة، فتركه الحسين يتقدّم. وعندما انتسب ليسار مولى زياد بن أبي سُفيان وسالم مولى عُبيد الله بن زياد لم يريدا مبارزته لأنّهما لا يعرفاه وطلبا مبارزة زهير بن القين أو حبيب بن مظاهر أو بُرير بن حُضير.

لكنّ الكلبيّ هجم على يسار فأتاه سالم وتمكّن الكلبي من قتلهم جميعا، بعد أن طارت أصابع كفّه اليسرى[٥]!

وبرز الطّابع الملحمي في القتال، وكان الكلبي يرتجز افتخارًا بقتله رجال عمر بن سعد. وعندما سمعته زوجته، هبّت بعمود لتقاتل معه في سبيل ذريّة محمّد. وجاء زوجها ليردّها نحو النّساء لكنّها كانت تجذبه من ثوبه وتقول له بأنّها تريد الموت معه. وكلّمها الحسين شاكرا إيّاها على جهادها هي وزوجها لكنّه طلب منها الرّجوع إلى النّساء لأنّه ليس على النّساء قتال.

لعبت هذه المرأة دورا في الجهاد في سبيل نصرة أهل البيت. وهذا يعتبر من الظّواهر الجديدة التي أفرزتها الفتنة الثّانية.

---

(١) ابن حزم، مصدر مذكور، ص٣٠٠ ـ ٣٠٢.
(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٢٩.
(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٦، ص ٢٠٤.
(٤) التوبة ٩ / ١٢٣ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾.
(٥) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٣٠.

ويبدو أنّ النّساء قاتلن في اليرموك سنة ١٣هـ، فخرجت جويريّة ابنة أبي سُفيان[١]، وكانت مع زوجها وأُصيبت بعد قتال شديد[٢].

وحمل عمرو بن الحجّاج وهو على ميمنة الجيش، على الحسين وأصحابه، جثَوْا له على الرُّكَب، وأشرعوا الرّماح نحوهم. فلم يستطع خيلهم شقّ هذا الحاجز من الرّماح. وذهبت الخيل ثمّ رجعت، فرشقهم أصحاب الحسين بالنّبل. فقتل منهم رجالاً، وجرح منهم آخرون[٣].

بدأ الجيش الأموي أو الجيش المتركّب من أهل الكوفة في الزّحف على الحسين. وكان هذا الجيش يزحف في جزء فقط من الجيش أي الميمنة في هذه الحالة. ويبدو أصحاب الحسين في وضعيّة دفاع عن الحسين إلى حدّ الاستماتة. كما أنّهم نجحوا في هذا الزّحف الموجّه ضدّهم إلى الانتصار على جيش أهل الكوفة.

وذكرت المصادر كرامات الحسين، فقد هبّ رجل من جيش عمر بن سعد يسمّى عبد الله بن حَوْزة من تميم إلى الحسين وقال له: «أبشرْ بالنّار»[٤].

فدعا عليه الحسين أن يحوزه الله إلى النّار. فمات شرّ ميتة في لحظته تلك حيث اضطرب به فرسهُ في جدول فوقع فيه. وتعلّقت رجله اليسرى بالرّكاب، وضربه مسلم بن عوسجة فضرب رجله اليمنى فطارت[٥]، وجرى به فرسه يضرب رأسهُ كلّ حَجر وأصل شجرة حتّى مات وقد تحدّث شاهد عيان عن ذلك وهو مسروق بن وائل الحضرمي الذي هاله ما رأى من كرامة الحسين، واستجابة الله

---

(١) مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص١٢٥: تزوّجها السائب بن أبي حُبيش بن المطلّب ابن أسد بن عبد العُزّى بن قُصيّ؛ ثمّ خلف عليها عبدُ الرحمن بن الحارث بن أميّة الأصغر بن عبد شمس. وأمّها هند بنت عتبة.

(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٠١.

(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٣٠؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٩٨.

(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٣٠ ـ ٤٣١؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٩٩.

(٥) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٩٩.

لدعائه عمّن يُسيء له. وقطع الرّجل عهدا مع نفسه أن لا يُقاتل أهل البيت أبدا لكرامتهم ومنزلتهم الميتا ـ تاريخيّة.

وقد كان في أوائل الخيل ممّن سار للحسين حيث أراد أن يُصيب رأس الحسين، فيُصيب به منزلة عند عبيد الله بن زياد.

كان هذا المشهد عبارة عن تصديق بكرامة الحسين بعد أن كان هذا الرّجل مخطّطا لقتل الحسين وحزّ رأسه.

وهذا يدخل في إطار عقليّة جديدة ركّزتها الدّولة بالكوفة في التّعتيم على الرّسول وعلى آل البيت. وتعدّدت المبارزات بين الفريقين، فخرج يزيد بن معقل من بني عَميرة بن ربيعة وهو حليف لبني سَليمة من عبد القيس فكلّم بُرير بن حُضير[1]، وقال له ماذا صنع الله به؟ فأجابه بُرير بأنّ الله صنع به خيرا، وصنع بيزيد بن معقل شرّا. فأجابه هذا الأخير بأنّه يكذب، وذكّره برأيه (أي رأي برير في عثمان)، فأكّد له بُرير محافظته على هذا التوجّه (أي ضدّ عثمان ومعاوية وبقي في صفّ عليّ ثمّ ساند ابنه).

يبدو الصّراع الإيديولوجي الذي أفرزته الفتنة الأولى في هذه المبارزات. فقد كان يزيد بن معقل من المؤمنين بأنّ الخليفة عثمان قُتل مظلوما، وأنّ معاوية وليّه، وأنّ عليّ على باطل. وهو في هذه الحرب يساند ابنه يزيد ضدّ الحسين.

بينما كان بُرير من القُرّاء الحافظين للقرآن والملازمين للمسجد، يرى أنّ عثمان كان على خطأ، وأنّ معاوية ضالّ مضلّ. بينما كان عليّ حسب رأيه إمام الهدى والحقّ.

وكان كلّ فارس منهما يرى أنّه على حقّ وعدوّه على باطل. فتبارزا وقتل بُرير يزيد بن معقل وهجم عليه رضيّ بن منقذ العبديّ واعتنقا واعتركا ساعة فقتل بُريرا رضيّا، لكنّ كعب بن جابر بن عمرو الأزديّ قتل بُرير[2].

---

(١) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٣١.

(٢) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٣٢؛ البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٣٩٩.

وكان المقاتلة في جيش عمر بن سعد يقولون عندما هبّ كعب بن جابر لقتل بُرير بأنّ «هذا بُرير بن حُضير القارئ الذي كان يُقرئنا القرآن في المسجد»[1].

فالفتنة أفرزت نوعا غريبا من الطّاعة والحرص على الجماعة لدى جيش الكوفة. وكانت القوّة الإيديولوجيّة للدولة تفرض نفسها عليهم. كما أفرزت حبّ المكافأة والطمع في هدايا الوالي، والخوف منه فانعدمت حرمة القرّاء وأهل البيت.

وتذكر المصادر أنّ زوجة أو أخت كعب بن جابر، النوّار بنت جابر حلفت أن لا تكلّمه أبدًا لأنّه أعان على ابن فاطمة ابنة الرّسول، وقتل سيّد القرّاء[2].

أحدث قتل الحسين شروخا داخل العشائر، وهذا المثال لهو أهمّ دليل على معاداة الأخت لأخيها على مساعدته لقتل الحسين وأصحابه من رجال المصر المتعبّدين.

كما أنّ بذور الفتنة الأولى ونتائجها مازالت مؤثّرة على الكوفة. وساهم مقتل الحسين في تفجير واستفحال الفتنة الثّانية.

وذكرت المصادر مثالا آخر عن الانشقاق داخل العشيرة الواحدة، فقد كان عمرو بن قرظة الأنصاري يُقاتل دفاعا عن الحسين، وقُتل في سبيل نصرته. بينما كان أخوه عليّ بن قرظة مع عمر بن سعد فنادى الحسين: «يا كذّاب ابن الكذّاب»[3]، وقال له بأنّه غرّر بأخيه وأضلّه حتّى قُتل. فأجابه الحسين بأنّ الله هدى أخاه وأضلّه. وحاول هذه الأنصاريّ قتل الحسين، فهجم عليه نافع بن هلال المراديّ فطعنه.

تبدو صورة الحسين لدى رجال عمر بن سعد صورة سلبيّة، فهو كذّاب وعاص للدّولة. وهذا الانشقاق أفرزته الفتنة الثّانية.

وتواصلت المبارزات بين الفريقين، فيبدو أنّ نافع بن هلال المراديّ كان يُقاتل

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٣٢.

(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٣٢ ـ ٤٣٣؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٩٩.

(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٣٤؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٠٠.

وهو يقول: «أنا الجَملي، أنا على دين عليّ»[١]. فخرج إليه رجل من جيش عمر بن سعد، فقال له بأنّه على دين عثمان. فأجابه نافع بن هلال بأنّه على دين شيطان[٢].

كان الصّراع الإيديولوجي بين الفريقين صراعا حادّا يشبه للصراع الذي وجد في صفّين بين جيش عليّ وجيش معاوية.

فجيش عمر بن سعد كان يركّز إيديولوجيا القصاص لعثمان. وكان أصحاب الحسين يقاتلون باسم عليّ، فهم من شيعة عليّ، وأصبحوا في صفّ الحسين.

ويذكر البلاذري أنّ الحرّ بن يزيد بارز رجلين هما مزاحم بن حريث من بني زبيد ثمّ من بني قطيعة ويزيد بن سفيان من شقرة من تميم[٣]. فصاح عمرو بن الحجّاج في النّاس: «يا حمقى، أتدرون من تقاتلون! فرسان المصر، قوما مستميتين، لا يبرزنَّ لهم منكم أحد، فإنّهم قليل، وقلّما يبقون، والله لو ترموهم بالحجارة لقتلتموهم»[٤]. وقد وافقه عمر بن سعد، وأمر مقاتلته أن لا يبارزوهم.

يُعبّر هذا الخبر عن تخوّف كبير من جانب عمرو بن الحجاّج، وهو أحد أشراف الكوفة، من فرسان الحسين من أهل الكوفة. فهم مستميتون في القتال وشاركوا في الفتوحات وعاهدوا الحسين على الموت. وكان هذا التخوّف عليهم من الاستئصال. وهو جانب غريب من الفتنة الثّانية، لأنّ الاستقتال شمل مقاتلة الكوفة في كربلاء. فمن ناحية، كان الفريقين متعاديين، ومن ناحية أخرى كان هناك تخوّف من استئصال الفرسان من القرّاء في «جيش» الحسين.

وذكر شاهد عيان وهو الحسين بن عقبة المرادي[٥] (وهو من مذحج نفس عشيرة عمرو بن الحجّاج الزّبيدي) أنّ عمرو بن الحجّاج الزّبيدي اقترب من أصحاب

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٠٠.
(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٣٥.
(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٠٠.
(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٣٥؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٠٠.
(٥) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٣٥.

الحسين ونادى أهل الكوفة بأن يلزموا طاعتهم وجماعتهم، ولا يرتابوا في قتل من مرق عن الدّين، وخالف الإمام.

حرّض أشراف الكوفة خاصّة منهم عمرو بن الحجّاج أهل الكوفة على تطبيق أحد العناصر الهامّة من عناصر الإيديولوجيا الأمويّة وهي إيديولوجيا الطّاعة والحفاظ على وحدة الجماعة. كما حرّضهم على قتال الحسين كقتال الخارجين عن الدّين، والمخالفين للإمام أي الخليفة يزيد بن معاوية.

فقد كان الأشراف يطبّقون أوامر الوالي ابن زياد في قمع ثورة الحسين، وقد سبق أن قمعوا ثورة مسلم بن عقيل. فكلّمه الحسين وقال له أعليه يحرّض النّاس؟ وأضاف بأنّه سيعلم يوم الحساب من مرق عن الدّين، ومن هو أولى بصلي النّار أي بالعقاب في جهنّم.

لقد كان الحسين دائما يتّخذ المرجعيّة القرآنيّة والدّينيّة في خطابه مع رجال عمر بن سعد. لكنّ هذا الخطاب الدّيني لحفيد الرّسول، وشرعيّة الحسين كحفيد للرّسول، لم تكن لتؤثّر على عمرو بن الحجّاج بل بالعكس واصل هجومه. فحمل على الحسين في ميمنة عمر بن سعد من نحو الفرات، فاضطربوا ساعة، فقتل مسلم بن عوسجة الأسديّ أوّل أصحاب الحسين[1]، وبقي به رمق.

ويروي الطبري مشهدا مؤثّرا لموت مسلم بن عوسجة أحد أصحاب الحسين الذين بايعوه على الاستشهاد في سبيله. فقد هبّ نحوه الحسين وترحّم عليه مستندا على القرآن ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾[2].

تظهر رمزيّة الكتاب بعلاقة بالرّسول قويّة في كربلاء لدى حفيد الرّسول. فالحسين مثله مثل الرّسول يجاهد قومه من الكافرين، واستشهد أصحابه في سبيل

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٣٥؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٠٠.

(٢) الأحزاب ٣٣ / ٢٣؛ الطّبري، *جامع البيان في تأويل القرآن*، ج١٢، ص١٧٩ ـ ١٨٠ ـ ١٨١: «﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ أي فرغ من عمله، ورجع إلى ربّه، كمن استشهد يوم بدر ويوم أحد أي مات على العهد. ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ ما وعد الله من نصره أو الشهادة على ما مضى عليه أصحابه.

إعلاء كلمة الله والدّفاع عن شرعيّة الرّسول في بدر أو أحد أو شرعيّة أهل البيت في كربلاء. وخاطبه حبيب بن مظاهر بأنّه يعزّ عليه موته، وبشّره بالجنّة.

وأوصاه مسلم بن عوسجة بالاستشهاد في سبيل الحسين. فوعده حبيب بن مظاهر بذلك، وما لبث أن مات مسلم[1].

تقوّى مبدأ الاستشهاد في سبيل الحسين بين أصحابه، وكان مقتل أوّل واحد منهم دافعا لهم على الصّمود بوجه جيش الدولة.

وذكر الطّبري أنّ مسلم قُتل من قبل رجلين. وهذا دليل على المقدرة العسكريّة لمسلم. وفرح مقاتلة الكوفة بقتلهم لمسلم بن عوسجة، لكنّ شبث بن ربعي، وكان على الرّجال في جيش عمر بن سعد، انتهرهم وقال لهم بأنّهم يقتلون أنفسهم بأيديهم، ويذلّلون أنفسهم لغيرهم. والمقصود بغيرهم الكفّار والمشركين لأنّ مسلم بن عوسجة، هو أحد مقاتلة الكوفة الذي لعب دورا هاماً في الجهاد. فقد قتل في سلق آذربيجان[2] ستّة من المشركين.

فالفتنة الثّانية أفرزت هذا التّقاتل الذي قضى فيه أهل الكوفة على بعضهم البعض وخاصّة قضوا فيه على طاقاتهم العسكريّة والبشريّة الهائلة التي استخدمت في الجهاد.

وكانت الفتنة سيفا قاطعا للرّوابط العشائريّة والقبليّة، ونزيفا يُضعف الأمّة تجاه المشركين. بما أنّ الكوفة كانت مصرا من أهمّ الأمصار في حركة الجهاد.

كما قُتل الكلبيّ بعد أن قاتل قتالا شديدا[3]، وكان القتيل الثّاني من أصحاب الحسين. قتله رجلان، كمسلم بن عوسجة لمقدرته العسكريّة.

---

(١) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٣٦.

(٢) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٣٦؛ البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٤٠١.

ياقوت، معجم *مذكور*، ج١، ص١٢٨ ـ ١٢٩: أذربيجان «معناه بيت النّار، وحدّ أذربيجان من برذعة مشرقًا إلى أرزنجان مغرباً، ويتّصل حدّها من جهة الشّمال ببلاد الديلم. ومن مشهور مدائنها: تبريز.

وقد فُتحت أوّلا في أيام عمر بن الخطّاب، وغزا المغيرة بن شعبة أذربيجان في سنة ٢٠هـ ففتحها ثمّ إنّهم كفروا، فغزاهم الأشعث بن قيس الكندي، وصالحهم على صلح المغيرة».

ياقوت، معجم *مذكور*، ج٣، ص٢٣٨: السَّلَقُ: جبل عال مشرف على الزاب من أعمال الموصل متّصل بأعمال شهرزور يُعرف بسلق بني الحسن بن الصّباح بن عبّاد الهمداني.

(٣) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٣٦؛ البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٤٠١.

ويبدو أنّ زوجته بقيت تبكي عند رأسه، فأمر شمر بن ذي الجوشن غلاما له بأن يضرب رأسها بعمود. فماتت من هذه الضّربة[1].

أفرزت الفتنة الثّانية ظاهرة جديدة وهي قتل النّساء. وهذا ليس غريبا عن شمر بن ذي الجوشن الذي تميّز بقسوته وتجبّره.

واشتدّ القتال بين الفريقين، فقاتل أصحاب الحسين قتالا شديدا، وهم لا يُمثّلون إلاّ ٣٢ فارساً!

لقد كان أصحاب الحسين مدفوعين بالشّهادة والاستشهاد في سبيل الحسين. فرغم قلّة عددهم فإنّهم كانوا مستميتين في القتال حتّى أنّهم كانوا يكشفون خيل أهل الكوفة.

ولمّا رأى عزرة بن قيس الأحمسيّ ـ وكان على الخيل ـ أنّ الفرسان من أصحاب الحسين كانوا يكشفون خيله، أرسل لعمر بن سعد حتّى يعزّز الخيل بالرّجال والرّماة. فأمر عمر بن سعد شبث بن ربعي أن يقاتلهم في الرّماة. لكنّ هذا الأخير رفض الذّهاب على أساس أنّه شيخ مضر وأهل المصر ولا يجوز أن يقاتل لشرفه في الرّماة. لكنّ الطّبري رأى في رفض شبث بن ربعي كراهيّة لقتال الحسين. وقد عبّر شبث بن ربعي عن ندمه في إمارة مصعب بن الزّبير.

وهذا النّدم مرتبط بخاصيّة الكوفة (مناصرة عليّ في صفّين ثمّ خذلان الحسين). فقد ذكر قتال الأشراف أو أهل الكوفة مع عليّ في صفّين ضدّ معاوية. وقتالهم في صفّ الحسن آل أبي سفيان. ثمّ انتهى بهم المطاف بقتال ابنه «خير أهل الأرض» مع يزيد بن معاوية وابن سميّة الزّانية. ورأى أنّهم كانوا على ضلال[2].

كان شبث بن ربعي ربّما كارها لقتال الحسين لكنّه كان مجبرا من موقعه كأحد أشراف الدولة على الامتثال لأوامر الوالي رغم كرهه له وعدم اعترافه بشرعيّته التّاريخيّة (جدّته زانية وادّعاء معاوية لزياد).

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٠١؛ الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٣٨.

(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٣٦ ـ ٤٣٧.

أصبح القتال يعبّر عن وجه الدّولة الأمويّة الإمبراطوري والعسكري، فعِوض قتال الكفّار فإنّ السّلطة الأمويّة تُقاتل أهل البيت (وهم في عدد قليل)، واتّخذت ضدّهم كلّ الأساليب. ابتدأ القتل أو العقر بالخيول (خيول الحسين ورجاله) ثمّ سيليه «عقر» الرّجال. وفي هذا رمزيّة كبيرة، كما يبدو أنّ الحسين ركب دابّته، ووضع المصحف في حجره بين يديه. فاستفزّت هذه الوضعيّة جيش عمر بن سعد الذي زاد في هجومه عليه[1].

تعود رمزيّة الكتاب بقوّة في الفتنة الثّانية مثل رمزيّته في الفتنة الأولى. فالحسين يمثّل غيبة الرّسول ووضعه الكتاب بين يديه، يشجّع أصحابه وأهل بيته على الاستماتة في القتال. فهو الممثّل الشرعيّ لتعليم الكتاب والمطبّق لها. كما أنّه يُحطّم الإيديولوجيا الأمويّة التي تعتّم على الكتاب والسنّة.

وكان القتال إلى حدّ ذلك الوقت، عبارة عن مبارزات تذكّرنا بمبارزات الجاهليّة. ولم يهجم عمر بن سعد هجمة كبيرة إلاّ عندما أمر الحصين بن تميم بإخراج المجفّفة[2] و٥٠٠ من المرامية. فرموهم بالنّبل فعقروا خُيولهم، وصاروا كلّهم رجّالة! وذكر شاهد عيان وهو أيّوب بن مِشْرح الخيْوانيّ[3] ـ من مقاتلة الكوفة في جيش عمر بن سعد ـ أنّه رمى فرس الحُرّ بن يزيد في بطنه فاضطرب وكبا. فوثب منه الحرّ كأنّه أسد وهو يقول:

إنْ تـعـقِـروا بـي فـأنـا ابـن الـحـرّ   أشـجـعُ مـن ذي لـبـدٍ هِـزبـر[4]

كانت أجواء معركة كربلاء أجواء ملحميّة. وقاتل الجيش الأموي «جيش الحسين» أشدّ قتال إلى أن انتصف النّهار، وكانوا لا يقدرون أن يقاتلوهم إلاّ من وجه واحد لاجتماع منازلهم، وبسبب النّار التي أشعلوها وراءهم[5].

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٠١.
(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٣٧؛ بثينة بن حسين، مرجع مذكور، ص١٢٨.
(٣) ابن حزم، مصدر مذكور، ص٤٣٨: خيوان من حمير.
(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٣٧.
(٥) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٠٢؛ الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٣٨.

فأمر عمر بن سعد بتخريق أبنيتهم وبيوتهم، وحمل عليهم أصحاب الحسين يقتلونهم ويعقرونهم[1]. وعندما رأى عمر بن سعد ذلك، طلب من جنوده أن يحرّقوا البيوت بالنّار. فتركهم الحسين يحرقوها على أساس لم يستطيعوا أن يدخلوا إليهم.

وقد حدث ذلك بالفعل، وكان مقاتلة عمر بن سعد يقاتلون رجال الحسين من وجه واحد. وحمل شمر بن ذي الجوشن حتّى ضرب برمحه فسطاط الحسين. ونادى بأن يحضر له النّار حتّى يُحرّق البيت على أهله.

فصاح النّساء وخرجن من الفسطاط؛ وصاح به الحسين أن يُحرّقه الله بالنّار مثلما أراد يُحرّق بيته على أهله[2].

وكلّم حُميد بن مسلم الأزديّ[3] (وهو شاهد عيان بجيش عمر بن سعد) شمر فقال له أيريد أن يجمع على نفسه التّعذيب بعذاب الله، وقتل النّساء والصبيان، ونصحه بقتل الرّجال فقط ليُرضي أميره أي ابن زياد.

وعندما سأله شمر عن هويّته القبليّة لم يُرد أن يعلمه بها حتّى لا يضرّه عند السّلطان أي ابن زياد[4].

كان مقاتلة الكوفة في جيش عمر بن سعد غير مقتنعين في قرارة أنفسهم بقتل الحسين ويُدركون شرعيّته التّاريخيّة، لكنّ الخوف من سلطة ابن زياد وطاعة الدّولة فرضت عليهم الامتثال لأوامر الوالي.

كما أنّ هذا الخوف من أن يُعلم شمر بن ذي الجوشن ابن زياد باسم هذا الرّجل من المقاتلة، هو دلالة على أنّ أسماء المقاتلة كانت مسجّلة في الدّيوان. وكان العرفاء على مستوى العرافة ساهرين على القضاء على كلّ محاولات المعارضة للسّلطة حتّى بالقول، ورفع الأسماء المشبوه فيها للوالي.

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٣٨.
(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٣٨؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٠٢.
(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٤٦.
(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٣٨.

كما كانت لهؤلاء المقاتلة أخلاقيّة تدخل في إطار أخلاقيّة القتال والحرب منذ الجاهليّة. وهي عنصر من عناصر الأنتروبولوجيا العربيّة وتفرض عدم التعرّض للنّساء والصّبيان. وهبّ لشمر شبث بن ربعي التّميمي ـ وهو شيخ مضر أي تميم وعبس وضبّة، وكان شمر أطوع له من الرّجل (أي حميد بن مسلم). فقبّح شبث بن ربعي فعل شمر قائلا له بأنّ موقفه هذا هو موقف سوء وقبح بما آنه أصبح مرعبا للنّساء. فاستحيا شريف قيس منه، وانصرف[1].

يبدو أنّ شمر بن ذي الجوشن كان أكثر رجال عمر بن سعد غلظة وشدّة في التّعامل مع الحسين وأهل بيته.

كما أنّ تمسّكه بالطّاعة كعنصر أساسيّ من عناصر الإيديولوجيا الأمويّة دفعه إلى تحريق نساء الحسين في بيته، وأرعبهنّ. ويعتبر هذا الوجه وجها جديدا من العنف الذي أفرزته الفتنة الثّانية وظهر في معركة كربلاء.

كما يبدو أنّ الأشراف بالكوفة، كانت بينهم تراتبيّة. فشبث بن ربعي كان أكثر شرفا من شمر بن ذي الجوشن. لذلك تمكّن من التّأثير عليه. كما أنّ قيس التي ينتمي إليها شمر بالكوفة لم تكن لديها أهميّة مثل اليمنيّين.

وحمل زهير بن القين في عشرة من أصحابه على شمر بن ذي الجوشن وأصحابه[2]، فأزاحهم عن البيوت التي اقتربوا منها، وقتلوا أحد رجال شمر، فهجم عليهم أصحاب شمر وقتّلوهم. وبدأ عددهم يتناقص، بينما لم يكن يظهر ذلك في رجال شمر.

ولمّا رأى ذلك أبو ثمامة عمرو بن عبد الله الصّائدي، قال للحسين بأنّه سيفديه بنفسه، وهو يرى أنّ أعداءهم اقتربوا، وهو لا يُريد أن يُقتل الحسين حتّى يُقتل دونهُ. وطلب من الحسين أن يمكّنه من الصّلاة التي دنا وقتها حتّى يلقى ربّه[3].

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٣٨؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٠٢.
(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٣٩؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٠٢.
(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٣٩.

يبدو أنّ القتال قد اشتدّ بين الفريقين، وتمحور حذو بيوت الحسين وأصحابه. كما يظهر أصحاب الحسين على درجة كبيرة من الإيمان بالله وبشرعيّة أهل البيت.

وقد عبّر أبو ثمامة الصّائدي عن هذا الإيمان بالله بحبّ للصّلاة قبل الاستشهاد. وتسارع أصحاب الحسين للاستشهاد والموت دون الحسين خاصّة أنّ أعدادهم كانت ضئيلة بالمقارنة مع جيش عمر بن سعد.

فأجابه الحسين بأنّ الله جعله من المُصلّين، الذّاكرين. كما أضاف الحسين بأنّ هذا أوّل وقت الصّلاة. وطلب من أصحابه أن يُكلّموا جيش عمر بن سعد ليكُفّوا عنهم حتّى يُؤدّوا صلاتهم. لكنّ الحصين بن تميم، أجاب الحسين بأنّ صلاتهم لن تقبل. فشتمه حبيب بن مظاهر بأنّ الصّلاة لا تقبل من آل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وتُقبل منه هو الحمار.

ولّدت الفتنة انشقاقا في الضّمير الإسلامي، فقد فقدت عترة الرّسول رمزيّتها وشرعيّتها لدى رجال الدّولة الأمويّة (صاحب شرطة عبيد الله بن زياد وقائد المجفّفة). كما أنّ القتال وصل إلى درجة ربّما بدا فيها عامل الدّولة متوتّرا لإنهاء القتال وتقتيل الحسين وآله وأصحابه. بينما استمات أصحاب الحسين في الدّفاع عن شرعيّة حفيد الرّسول بألسنتهم وجهادهم.

كما ذكر شاهد عيان وهو فُضيل بن خُديج الكندي أنّ يزيد بن زياد، وهو أبو الشعثاء الكنديّ من بني بَهْدَلة، جثا على ركبتيه بين يدي الحسين، وكان راميا، فرمى بـ ١٠٠ سهم ما سقط منها إلاّ خمسة[١]. وكان الحسين يدعو عليه بالثّواب في الجنّة. وكان يرتجز:

يارِبّ إنّي للحسين ناصر ولابن سعد تاركٌ وهاجر

وكان يزيد ممّن خرج مع عمر بن سعد من مقاتلة الكوفة، فلمّا رفضوا شروط الحسين التحق بالحسين، وقاتل حتّى قُتل. وهذا المثال يُضاف لمثال الحرّ بن

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٤٥.

يزيد التّميميّ الذي انضمّ للحسين في كربلاء بعدما كان في صفّ عمر بن سعد[1]. كما أنّ الصّيداوي عمر بن خالد وجابر بن الحارث السلمانيّ، وسعد مولى عمر بن خالد، ومجمّع بن عبد الله العائذيّ، قاتلوا أوّل القتال، وقاتلوا بأسيافهم مقاتلة عمر بن سعد. فتوغّلوا فقطعهم مقاتلة الكوفة عن أصحابهم، فحمل عليهم العبّاس بن عليّ فأنقذهم. وكانوا قد جُرحوا فقاتلوا إلى أن قُتلوا[2].

وحمل الحصين بن تميم على أصحاب الحسين وأهل بيته، وخرج إليه حبيب بن مظاهر، فضرب وجه فرسه بالسّيف، فوقع عنه الحصين واستنقذه أصحابه. وكان حبيب بن مظاهر ينشد شعرا، وهو بذلك كبقيّة أصحاب الحسين كان يُعبّر عن أجواء ملحميّة من أجواء الجاهليّة.

وعدّد ابن مظاهر في شعره خصاله في القتال، وفضائل جماعة الحسين. وهجا جيش عمر بن سعد:

أنا حبيبٌ و أبِي مظاهرُ ... فَارسُ هيجاء و حرب تُسعَرُ
أنتمْ أعدُّ عُدَّة و أكثرُ ... ونحنُ أوفى منكُمُ و أَصبرُ
ونحن أعلى حُجَّةً وأظهرُ ... حقًّا و أتقى منكم و أعذرُ[3]

وقتل حبيب بن مظاهر ثلاثة رجال من تميم، ضربه أحدهم بالسيف على رأسه، وطعنه آخر، فذهب ليقوم، فضربه الحصين بن تميم فوقع، ونزل إليه التميميّ فاحتزّ رأسه.

فقال له الحصين بأنّه شريك في قتله، وطلب منه أن يعطيه الرّأس يعلّقه في عنق فرسه حتّى يراه النّاس ويعلموا أنّه شارك في قتله. لكنّ التّميمي رفض أن يُسلّمه له. فتدخّل قومه (أي عشيرة التّميمي) بينهما، فأعطاه رأس حبيب بن مظاهر. فدار به في المعسكر وهو معلّق في عنق فرسه، ثمّ أعطاه له[4].

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٤٦.
(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٤٦.
(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٣٩؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٠٢ ـ ٤٠٣.
(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٤٠؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٠٢ ـ ٤٠٣.

دخلت المعركة في فترة حسّاسة حيث أصبح القتل والتّمثيل بجثث أصحاب الحسين (حزّ الرّؤوس) مثلما أمر بذلك الوالي عبيد الله بن زياد.

بيّنت معركة كربلاء تطوّر عقاب الدّولة للمعارضة الشّيعيّة. فقد بدأ هذه السّياسة عبيد الله بن زياد في قتله وتمثيله بجثّة مسلم بن عقيل وهانئ بن عروة المرادي. وتواصلت هذه السّياسة من قبل القوّاد العسكريّين في كربلاء.

رجعت الصّراعات الجاهليّة في هذه الفتنة للظّهور في العشائر، فقد دبّ الخصام بين الحصين بن تميم والتّميمي القاتل لحبيب بن مظاهر في ما يخصّ رأس هذا الصّاحب للحسين. فكلّ منهما يدّعي قتله لوحده ويريد أن ينفرد، وولّدت هذه الصّراعات الجاهليّة نوعا جديدا من التّنافس العسكري داخل العشائر في سبيل الارتقاء في السلّم الاجتماعي. كما أنّ هذا الصّراع تولّد من حبّ إبراز الطّاعة للسّلطة الأمويّة كعنصر أساسي من عناصر الإيديولوجيا الأمويّة.

وظهرت عقليّة جديدة أفرزتها الفتنة الثّانية، فمقاتلة الكوفة أصبحوا يتنافسون لفكّ رأس المعارض وصاحب الحسين نظرا لأهميّة القضاء قضاء مبرما على هذا المعارض بالنّسبة للدّولة.

أصبحت مسرحة العنف هامّة وأساسيّة بالنّسبة للمقاتلة ولقوّادهم لأنّها تلمّع صورتهم لدى النّاس أي أصحابهم من المقاتلة (تعليق رأس حبيب بن مظاهر في عنق فرس الحصين بن تميم ثمّ في عنق فرس التميمي لينال الجائزة من ابن زياد!) في مرحلة أولى. ثمّ يتحصّلون على المكافأة من قبل ابن زياد في مرحلة ثانية. لقد أصبح الرّبح والتقرّب من السّلطة، الهدف الأساسي للمقاتلة وللقوّاد أو موظّفي الدولة على حساب أصحاب الحسين.

وتواصلت رحلة رأس حبيب بن مظاهر من كربلاء إلى الكوفة بعد القضاء على الحسين وأهله وأصحابه. فحمل التّميميّ الرّأس وعلّقه في صدر فرسه. ثمّ جاء به إلى عبيد الله بن زياد في القصر، فرآه ابنه القاسم بن حبيب ـ وهو مراهق ـ فلازم الفارس، كلّما دخل القصر دخل معه. وإذا خرج خرج معه، فشكّ فيه وسألهُ عن

سبب تتبّعه له. فأجابهُ بأنّ هذا الرّأس الذي معه هو رأس أبيه، وطلب منه أن يُسلّمه لهُ حتّى يدفنه. لكنّ التميمي رفض تسليمه له لأنّ الوالي لا يرضى بأن يدفن، كما أنّه يريد أن يكافئه الأمير على قتله. فأجابه القاسم بن حبيب بأنّ الله يثيبه على ذلك أسوأ ثواب.

وأدرك الغلام فتتبّع قاتل أبيه، فلمّا كانت فترة مصعب بن الزّبير، وغزا هذا الأخير باجُميرا[1]، وجد قاتل أبيه في معسكر مصعب فتتبّعه وقتله.

خلّف مقتل الحسين وأصحابه تمزّقا في العشائر بالكوفة، حيث بقيت الحزازات إلى فترة مصعب بن الزّبير.

وغذّت هذه الحزازات الفترة الثّانية من الفتنة بعد موت يزيد بن معاوية. وكان القصاص أو القود أو الثأر خاصّا بالأفراد. وأصبح حزّ الرّؤوس عادة دعّمها عبيد الله بن زياد للتّمثيل بأعداء الدولة.

أثّر موت حبيب بن مظاهر في الحسين تأثيرا كبيرًا، وذكر أبو مخنف أنّه «لمّا قتل حبيب بن مظاهر هدّ[2] ذلك حسينًا»[3]. فقد تبيّن له أنّ عدد أصحابه قد تناقص، فهاله ذلك. وقاتل الحرّ بن يزيد وزهير بن القين قتالا شديدا، وكانا يتعاونان في القتال. وكان الحرّ بن يزيد كان يُنشد قول عنترة وهو يهاجم جيش عمر بن سعد:

ما زلتُ أرميهم بِثُغرة نَحْرِهِ ... وَلَبانِه حتّى تَسَربَلَ بالدّمِ[4]

أعيدت أجواء المعارك في الجاهليّة في واقعة كربلاء، وكانت عبارة عن ملحمة.

---

(١) ياقوت، معجم مذكور، ج١، ص٣١٤: باجُميرا: «موضع دون تكريت، ذكر الأخباريّون أن عبد الملك بن مروان كان إذا همّ بقصد مُصعب بن الزّبير بالعراق، يخرج كلّ سنة إلى بُطنان حبيب، وهي من أدنى قنّسرين إلى الجزيرة، فيعسكر بها؛ يخرج مصعب بن الزّبير إلى مسكن فيعسكر بباجُميرى من أرض الموصل، كلّ واحد منهما يرى صاحبه أنه يقصده، ولا يتمّ كلّ واحد منهما قصده، فإذا اشتدّ الشّتاء وارتجّ الثلج، انصرف عبد الملك إلى دمشق ومصعب إلى الكوفة.

(٢) ابن منظور، معجم مذكور، ج٣، ص٧٨١: الهدُّ: الهدمُ الشّديد والكسر كحائط يُهَدُّ بمرّة فَيَنْهدِمُ.

(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٤٠.

(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٣٤.

وكانت الدّماء تسيل من فرس الحرّ بن يزيد، فناداه رجل للمبارزة. وهو يزيد بن سفيان من بني تميم من بني شَقرة وهم بنو الحارث بن تميم، وكان قد عزم على قتله منذ خروجه عن جيش عمر بن سعد إلى جيش الحسين. فبعثه الحصين بن تميم للمبارزة وقتل الحرّ بن يزيد. وتمكّن يزيد بن سفيان من قتله[1].

بينما يذكر الطبري في موضع آخر أنّ الحرّ بن يزيد قُتل من قبل رجّالة عمر بن سعد[2]. يبدو هذا الاختلاف في الرّوايات عنصرا مُميّزا لواقعة كربلاء.

وقد نقل أبو مخنف النّقاشات داخل عشيرة أيّوب بن مِشْرح الخيْوانيّ، وهو الذي عقر فرس الحرّ بن يزيد. فقد اتّهم هذا الأخير بقتله من قبل رجال حيّه. لكنّه ذكر أنّه قتله غيره، وأنّه ما كان يجرأ على قتله لأنّه من الصّالحين. فأجابه شيخ من أهل الحيّ بأنّه شريك في دمهم جميعا[3].

أحدث مقتل الحسين وأهل بيته وأصحابه أزمة في الضّمائر بالكوفة، ستؤدّي لنشأة عدّة فرق من الشّيعة تندّما وتوبة من عدم نصرة الحسين وأهل بيته ابتداء من التوّابين ثمّ حركة المختار بن أبي عبيد الثّقفي. وغذّت هذه الحركات الفترة الثّانية من الفتنة الثّانية بعد موت يزيد بن معاوية.

وقتل أبو ثمامة الصّائدي ابن عمّ له كان عدوّا له أي من جيش عمر بن سعد[4]. وتعتبر هذه الظّاهرة ظاهرة جديدة من ظواهر الفتنة. فالاختلاف الإيديولوجي داخل العشائر حرّضهم على قتل بعضهم البعض. وهذا تطوّر طبيعي بما أنّ الخليفة يزيد بن معاوية أرسل ليقتل ابن عمّه الحسين.

وصلّوا صلاة الظهر، فصلّى بهم الحسين صلاة الخوف، واشتدّ القتال بعد الظهر إلى أن وصل إلى الحسين.

---

(١) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٣٤ ـ ٤٣٥.
(٢) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٤١.
(٣) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٣٧.
(٤) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٤١.

فنادى سعيد بن عبد الله الحنفي فوقف أمامه، ورموه بالنبل إلى أن مات[1].

وقاتل زهير بن القين قتالا شديدا، وكان يرتجز:

أنــا زهــيــر وأنــا ابْــنُ الــقــيــنِ　　أَذُودُهــمْ بــالــسـيـفِ عـن حـسـيـن

وقال: وكان يضرب على منكب حسين ويقول:

أقْــدِمِ هُــدِيــتَ هــاديًــا مــهــدِيــا　　فــالــيــومَ تَــلْــقَــى جــدكَ الــنــبِــيَّــا

وحــســنــاً والــمــرتــضَــى عــلــيّــاَ　　وذا الــجــنــاحَــيــنِ الــفــتــىَ الــكــمــيّــاَ

* و أســدَ الله الــشــهــيــدَ الــحــيّــا *

كانت واقعة كربلاء مزيجا من الملاحم الجاهليّة وإيمانا قويّا بشرعيّة أهل بيت الرّسول وعليّ والحسن والشّهداء حمزة عمّ الرسول وجعفر الطيّار عمّ الحسين.

وكان أصحاب الحسين يتسابقون كي يُقتلوا بين يديه. كما كان الشّعور الدّيني قويّا وهو يتمثّل في إقامة الصّلاة قبل الاستشهاد.

وتتابع استشهاد أصحاب الحسين، فقتل زهير بن القين[2]، ثمّ تبعه نافع بن هلال الجمليّ الذي قَتل ١٢ من أصحاب عمر بن سعد، فضُرب حتّى كُسرت عضداه، وأُخذ أسيرًا، فقادهُ شمر بن ذي الجوشن إلى عمر بن سعد الذي لامه على فعله. وأجابه نافع بأنّه إن لم يكسروا عضده لما أُسروه. وطلب شمر من القائد أن يقتله. لكنّ عمر بن سعد قال له بأنّه هو جاء به، فإن شاء قتلهُ.

يبدو أنّ القائد العسكري لم يُرد أن يقتل بصفة مباشرة، فكان يتحاشى المسؤوليّة. فضرب شمر عنقه[3]. وكان شمر يرتجز:

خَـلّـوا عُـداة الله خـلّـوا عـن شَـمِـرْ　　يَـضْـربُـهُـمْ بـسـيـفـه ولا يَـفـرّ

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٤١؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٠٣.
(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٠٣؛ الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٤١.
(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٠٤؛ الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٤٢.

كان شمر كرجال الحسين يُعيد أجواء حروب الجاهليّة الملحميّة. ويبرز النفس الإيديولوجي في هذه الأشعار.

فالحسين وأصحابه هم «أعداء الله». وهذا يُبيّن ضعف الشّعور الدّيني والإيمان بشرعيّة أهل البيت لدى شمر. كما قاتل حُويّ مولى أبي ذرّ بين يدي الحسين وهو يقول[1]:

كيف تَرَى الفُجّارُ ضربَ الأَسْودِ ... بالسيف صلتا عن بني محمد

أذُبُّ عنهم باللّسان واليد ... أرجو به الجنّة يوم المَوْرِدِ

وقاتل حتّى قُتل. كما قاتل زياد بن عمرو بن عريب الصائدي من همدان أو أبا ثمامة، وقُتل[2].

وترجّز عبد الرحمن بن عبد الله بن الكَدَن:

إنّي لمن ينكرني ابن الكدن ... إني على دين حسين وحسن

وقاتل حتّى قُتل[3]. أفرزت الفتنة الثّانية اختلافا وانشقاقا في الضّمير الإسلامي أدّى إلى وجود «دينين»، دين الدّولة الأمويّة ودين شيعة الحسين وأهل البيت. وكانت كلّ فرقة تحارب في سبيل هذا التوجّه الإيديولوجي.

والتفّ أصحاب الحسين به، وتنافسوا أن يُقتلوا بين يديه بعد أن رأوا أنّهم لا يقدروا أن يحموا أنفسهم والحسين. فجاءه عبد الله وعبد الرحمن ابنا عزْرة الغفاريّان، فطلبا منه أن يقاتلا بين يديه، ويقتلا في سبيله[4]. وقدم عليه سيف بن الحارث بن سُريع، ومالك بن عبد بن سريع الجابريّان[5]، فبكيا بين يديه لأنّهما لا يستطيعا أن يُدافعا عنه، بعد أن أحاط جند عمر بن سعد به. سلّما على الحسين وقاتلا حتّى قُتلا.

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٠٣ ـ ٤٠٤.
(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٠٥.
(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٠٤.
(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٤٢.
(٥) ابن حزم، مصدر مذكور، ص٣٢٩: جابر من قحطان.

يبدو أصحاب الحسين على درجة كبيرة من الإيمان بشرعيّة أهل البيت. كما أنّهم عاطفيّين، وكانوا لا يتحرّجون من البكاء بين يديه تأثّرًا عليه وعلى بيته من التّقتيل الذي تعرّضوا له.

وفي خضمّ القتال، كان الأشياخ من أهل الكوفة واقفين على التلّ يبكون ويقولون: «اللّهم أنزل عليه نصرك[(١)]»، فقال لهم الرّاوي (وهو سعد بن عبيدة): يا أعداء الله، ألا تنزلون فتنصرونه!

فمن هم هؤلاء الأشياخ هل هم سليمان بن صرد ورفاعة بن شدّاد والمسيّب بن نجبة؟ كان هؤلاء الأشياخ كثيري الشكّ والوقوف فهل تجرأوا على الخروج من الكوفة، وقد وضع عبيد الله بن زياد المحارس والمناظر بين الكوفة وكربلاء؟

هل هذا الخبر هو خبر سبق الأحداث ويتنزّل في إطار الفترة اللاّحقة حيث تندّم التوّابون من عدم مناصرتهم للحسين؟

في اعتقادنا، أنّ هذا الخبر متأخّر وهو يُبرّئ شيوخ الشّيعة الذين لم يساندوا الحسين. لكن من الصعب أن يخرج شيوخ الشّيعة ويقفوا على التلّ عند الاقتتال. وجاء حنظلة بن أسعد الشّبامي[(٢)]، ووقف بين يدي الحسين، وأخذ ينادي ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾[(٣)].

لقد استشهد بالقرآن ليُخوّف مقاتلة الكوفة من قتلهم للحسين ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾[(٤)].

لكنّ الحسين نبّهه بأنّ مقاتلة الكوفة قد استوجبوا العذاب لأنّهم استباحوا سفك

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٢٤؛ الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٩٢.
(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٤٣؛ ابن حزم، مصدر مذكور، ص٣٧٣: شبام من همدان.
(٣) غافر ٤٠/ ٣٠ ـ ٣٣.
(٤) طه ٢٠ / ٦١.

دمه ودم أصحابه. كما أنّهم في تلك اللّحظة دخلوا في طور جديد من العنف والتّقتيل واستباحة الحرمات بعد أن قتّلوا معظم أصحاب الحسين أو إخوانه الصّالحين[1].

كان الكتاب حاضرا بقوّة كرمز في معركة كربلاء. لكنّ هذا الرّمز لم يكن يجد آذانا صاغية من قبل جيش عمر بن سعد. فقد غيّبت الإيديولوجيا الأمويّة القرآن والسنّة وبالتّالي لم يعد هناك تأثير للقرآن على مقاتلة الكوفة من جيش عمر بن سعد. كما أنّ القرآن ككتاب موحّد للأمّة لم يعد لديه تأثير في الفتنة الثّانية مثلما حدث في الفتنة الأولى (قُتل عثمان من الثوّار وبيده المصحف).

وتعود الرّواية لذكر عزم حنظلة بن أسعد على الالتحاق بإخوانه الصّالحين في الآخرة، فدعا عليه الحسين إلى أن يروح إلى خير من الدنيا، وإلى مُلك لا يبلى. وسلّم حنظلة بن أسعد على الحسين بقوله: «السّلام عليك أبا عبد الله، صلّى الله عليك وعلى أهل بيتك، وعرّف بيننا وبينك في جنّته»[2].

يعود الخطاب الدّيني على لسان الحسين وأصحابه وهو خطاب مرتبط بالاستشهاد. فوراء الاستشهاد الثّواب والجنّة والالتقاء بالأصحاب الصّالحين المطيعين لله ورسوله وأهل بيته.

كما أنّ الحسين سيقف شفيعا لأصحابه في الجنّة، ولا يخذلهم كما لم يخذلوه هم. وتبدو الصّلاة على الحسين وعلى أهل بيته لدى الشّيعة مثل الصّلاة على الرّسول.

لقد كان الألم في نفوس هؤلاء الأصحاب وفي نفس الحسين شديدا للتّقتيل الذي تعرّضوا له. لكنّ حرارة الإيمان و قوّة حضور الرّمز حفظ غيبة الرّسول، كانت عاملا أساسيّا في واقعة كربلاء وفي تطوّر الفتنة الثّانية.

وجاء عابس بن أبي شبيب الشاكري ومعه شوذب مولى شاكر. فطلب عابس من

---

(١) كان أصحاب الحسين من مقاتلة الكوفة من العبّاد والقرّاء.

(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٤٥.

المولى ما يريد. فأجابه بأنّه يريد أن يُقاتل في سبيل ابن بنت الرّسول. فطلب منه أن يقدّم نفسه للحسين ليحتسبه. كما أنّه يحتسبه هو (فهو مولى شاكر، وعلى هذا الأساس ينال عابس بن شبيب من ورائه ثواباً).

ويدخل الاحتساب في إطار مراسم أو «تشريفات الاستشهاد». فكلّ صاحب من أصحاب الحسين يتقدّم ويسلّم على ابن الرّسول، فيدعو له الحسين؛ ثمّ يتقدّم للقتال والاستشهاد. يتّخذ هذا التّسليم نوعا من الشّفاعة أي شفاعة الحسين في أصحابه لاستشهادهم في سبيله وفي سبيل أهل بيته. وهو يلعب دور الرّسول.

كما أضاف عابس بن أبي شبيب الشاكري لمولاه بأنّ هذا يوم يجب أن يطلبوا فيه الأجر بكلّ ما أوتوا من قوّة. فلا عمل بعد ذلك اليوم لأنّهم سيقدمون على الحساب[1].

كان الخطاب الدّيني والإيمان حاضرا بقوّة لدى أصحاب الحسين يوم مقتله. وكان الاستشهاد مرتبطا بالثّواب في اليوم الآخر أو يوم الحساب. وتقدّم عابس بن أبي شبيب فاعترف للحسين بحبّه له، فلا أحد أعزّ عليه منه. كما أنّه اعترف له أنّه إن كان يملك شيئا أعزّ من نفسه ودمه لكي يدفع عنه الظلم والقتل لفعل. وسلّم عابس على الحسين وأشهد الله أنّه «على هديه وهدي أبيه». ومشى نحوهم بالسيف[2].

برهن عابس بن أبي شبيب على تشيّعه، وحبّه الكبير لأهل البيت. ودفعه هذا الالتزام العاطفي والدّيني والإيديولوجي إلى التّضحية بنفسه في سبيله وفي سبيل قضيّته. كما يعبّر هذا التصرّف، على ولاء أصحاب الحسين له، ولاء كبيرا إلى حدّ الاستشهاد في سبيله. فكلّ الحركات التي بنيت في التّاريخ، بُنيت على أساس عاطفي وإيديولوجي. فالالتفاف حول قائد أو شخص ذو كاريسما دينيّة أو سياسيّة حرّك النّاس ودفعهم للدّفاع عنه وللتّضحية بأنفسهم في سبيله.

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٤٤.
(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٤٤.

شارك في القتال مع الحسين بعض العناصر من الموالي (حويّ مولى أبا ذرّ الغفاري، وشوذب مولى شاكر). وكان عابس بن أبي شبيب، حسب شاهد عيان وهو رجل من بني عبد من همدان يقال له ربيع بن تميم، كان شاهده في المغازي، من المقاتلة الأشدّاء. وعُرف بأنّه أشجع النّاس. ونادى منادٍ في جيش عمر بن سعد أن لا يقاتله أحد لأنّه «أسد الأسوَد» والمقصود بذلك مقدرته العسكريّة، أمر عمر بن سعد أن يضرب بالحجارة.

وكانت هذه عادة الأمويّين في إضعاف المقدرة القتاليّة لمعارض ما، إذا لم يتمكّنوا من القبض عليه.

فقد ضُرب أحد أصحاب حجر بن عديّ الكندي ـ وهو عبد الله بن خليفة الطّائي ـ من قبل شرط زياد بن أبي سفيان لامتناعه عنهم وقتاله لهم، ضُرب بالحجارة إلى أن سقط [١].

وضُرب مسلم بن عقيل بالحجارة عند محاصرته في بيت من بيوت كندة[٢] من قبل الشرط. ووضع عابس بن أبي شبيب الشاكري درعه ومغفره، وهاجم النّاس فطرد قرابة ٢٠٠ شخص. فهجموا عليه من كلّ جانب فقتلوه، وتخاصموا حول رأسه. فكلّ شخص يقول أنا قتلته. وفرّق بينهم عمر بن سعد بقوله إنّه قتله عدد هامّ من النّاس[٣].

قُضي في كربلاء على طاقات عسكريّة هامّة من مقاتلة الكوفة، كانت في صفّ الحسين. كما وظّفت هذه الطّاقات العسكريّة في الفتنة. واستخدم مقاتلة الكوفة في جيش عمر بن سعد أساليب تقليديّة كالضّرب بالحجارة للقضاء على أصحاب الحسين. ويلعب الجانب الملحمي دورا هامًّا في رواية أحداث معركة كربلاء. كما أنّ التّمثيل بجثث أصحاب الحسين كان قاعدة أساسيّة في جيش عمر بن سعد.

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٢٦٧.
(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٧٣.
(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٤٤؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٠٤.

ويذكر البلاذري قدوم الضحّاك بن عبد الله المشرقي على الحسين بعد أن قُتل أصحابه وتوصّل مقاتلة عمر بن سعد إلى أهل بيته. ولم يبق معه إلاّ سُويد بن عمرو بن أبي المطاع الخثعميّ وبُشير بن عمرو الحضرميّ.

عندئذ، طلب الضحّاك من الحسين، ابن رسول الله، السّماح له بالذّهاب لأنّه لا يستطيع الدّفاع عنه ولا على نفسه[1].

فقاتل بين يدي الحسين، فقتل رجلين، وقطع يد آخر. ودعا عليه الحسين بأن لا تُشلل يده لأنّه دافع على أهل البيت.

ولمّا أذن له الحسين، خرج من ساحة القتال. وهرب من مقاتلة عمر بن سعد وشفع فيه رجال من همدان في هذا الجيش لأنّه ابن عمّهم وهم كثير بن عبد الله الشعبيّ وأيّوب بن مِشْرح الخيوانيّ وقيس بن عبد الله الصّائديّ، فنجا من القتل[2].

يعتبر هذا المثال مثالا فريدا بما أنّ هذا الرجل لم يُرد أن يُقتل في سبيل الحسين وأهل البيت أي أنّه لم يُرد الاستشهاد. وقاتل معه وتلقّى دعواته لكنّه فضّل الحياة لأنّ لديه دين وعيال.

كما لعبت العلاقات العشائريّة دورا هامّا في إنقاذ هذا الرّجل من القتل (بما أنّه يعتبر من أصحاب الحسين، لكنّه ليس من أصحابه المقرّبين).

وقاتل بشير بن عمرو الحضرميّ دفاعا عن الحسين إلى أن قُتل[3]. وكان آخر من بقي من أصحاب الحسين سُويد بن عَمرو بن أبي المُطاع الخثعميّ[4].

بعد استشهاد أصحاب الحسين حوله، استهدف التّقتيل والاستئصال أهل البيت أي أبناء الحسين وأبناء الحسن، وأبناء عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وأبناء عقيل بن أبي طالب. فكان أوّل قتيل من بني أبي طالب عليّ الأكبر بن الحسين بن

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٠٤ ـ ٤٠٥.
(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٤٤.
(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٠٤؛ الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٤٦.
(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٤٦.

عليّ[1]. وتدخل الفتنة في واقعة كربلاء في مرحلة هامّة وجديدة من تاريخها، وهي استئصال أهل البيت وخاصّة منهم الذّكور حتّى لا يثور أحدهم على الدّولة الأمويّة. يبدو أنّ عمليّة الاستئصال التي تعرّض إليها أهل البيت كانت قاسية على الحسين لأنّه قُتل عنه أصحابه، فكان يُقاتل بمفرده. كما أنّ زوال أهل بيته أمام عينيه كان من أكبر الفواجع لديه.

وكان أوّل قتيل من بني أبي طالب عليّ الأكبر بن عليّ بن الحسين. وكان يُقاتلُ وهو يرتجز:

أنا عليُّ بنُ حسينِ بن عَلي ... نحنُ و ربِّ البيت أولىَ بالنَّبي

*** تالله لا يَحْكُمُ فينا ابنُ الدَّعيّ ***

فرآهُ مرّة بن منقذ العبديّ يقاتل ويرتجزُ، فعزم أن يثكل أباه فيه، فطعنه وقطّعه المقاتلة بأسيافهم.

واصل عليّ بن الحسين القتال في نفس الجوّ الملحمي الذي كان يقاتل فيه أصحاب الحسين. وكان شِعره تعبيرا عن الشرعيّة التّاريخيّة لأهل البيت والمرتبطة بالرّسول. بينما تبدو الشرعيّة التّاريخيّة الأمويّة ضعيفة لأنّ ابن زياد هو ابن الدعيّ. فقد بُنيت شرعيّة ولاة العراق زياد وابنه عبيد الله على شرعيّة كاذبة. فكان تقتيله من قبل أحد مقاتلة عمر بن سعد عمليّة انتقام لفائدة الوالي. يبدو أنّ عنف القتل ازداد عند قتال أهل البيت من قبل مقاتلة الكوفة. فكان مقاتلة الكوفة ضعيفو الإحساس الدّيني بأهل البيت لسيطرة الإيديولوجيا الأمويّة عليهم.

وتأثّر الحسين بالغ التأثّر من فقدان ابنه بهذه الصّورة الدمويّة، ونقل لنا حميد بن مسلم الأزديّ (وهو شاهد عيان محوري في مقتل الحسين) قال بعد مقتل ابنه: «قتل الله قوماً قتلوك يا بنيّ! ما أجرأهم على الرحمن، وعلى انتهاك حرمة

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٤٦؛ مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص٥٧؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٠٦.

الرّسول! على الدنيا بعدَك العَفَاء»[1].

لا شكّ أنّ الحسين لم يعد له متمسّك بالحياة بعد أن قُتل أصحابه، وقد ازداد تأثّره بعد أن قُتل ابنه. لكنّه لم يكن يجد إلاّ الدّعاء ضدّ انتهاك الأمويّين لحرمة آل بيت الرّسول، وعدم احترامهم للمبادئ القرآنيّة.

كما خرجت زينب، وشبّهها الرّاوي بالشّمس الطّالعة ـ لجمالها ولقرابتها من الرّسول ـ تندب عليّ بن الحسين. وأكبّت على الميّت لكنّ الحسين أرجعها إلى الفسطاط.

تبدو زينب حاضرة حضور الرّمز في كلّ مرّة في كربلاء. فهي رأت انطفاء أهل بيتها أمام عينيها لكنّها لم تكن قادرة على فعل شيء لإيقاف هذا النّزيف الدّموي أو استئصال أهل البيت.

وأمر الحسين فتيانه بحمل أخاهم إلى الفسطاط الذين كانوا يقاتلون أمامه[2].

وهنا نلاحظ أهميّة حفظ جثّة الميّت، لكنّ الحسين لم يكن ربّما يتوقّع التّمثيل بجثّته وبجثث أهل بيته.

ثمّ اتّخذت عمليّة التّقتيل والاستئصال سرعة كبيرة وعنفا متزايدا فَرمى عمرو بن صُبيح الصّدائيّ، عبد الله بن مسلم بن عقيل بسهم، فوضع كفّه على جبهته[3]. فأخذ لا يستطيع أن يُحرّك كفّيه. ثمّ رماه بسهم ففلق قلبهُ. وأحاط مقاتلة الكوفة بأهل البيت من كلّ جانب فهجم عبد الله بن قَطْبة الطائيُّ ثمّ النبهانيّ على عون بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب. وهاجم عامر بن نهْشل التّيمي محمد بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ففلق قلبه[4].

وقتل مقاتلان من أهل الكوفة بجيش عمر بن سعد، وهما عثمان بن خالد بن

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٤٦؛ مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص٥٧.
(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٤٧.
(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٠٦.
(٤) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٠٦.

أسيْر الجُهنيّ، وبشر بن حوط الهمدانيّ ثمّ القابضيّ على عبد الرحمن بن عقيل بن أبي طالب.

ورمى عبد الله بن عزرة الخثعميّ جعفر بن عقيل بن أبي طالب فقتلهُ أو فلق قلبه[1]. ويُواصل حُميد بن مسلم رواية لأخبار مقتل أهل البيت، فيذكر أنّه رأى غلام ذو وجه مستنير، خرج وفي يده سيف فهبّ عمرو بن نُفيل الأزديّ لقتله رغم أنّ الرّاوي منعه من ذلك.

فضرب هذا الأخير الغلام (القاسم بن الحسن بن أبي طالب) على رأسه بالسّيف، ونادى الغلام الحسين «يا عمّاهُ»، فجاءه الحسين وانقضّ على قاتله وقطع يده بالسّيف. وأراد مقاتلة الكوفة أن ينقذوا صاحبهم لكنّها وطأته بالخيول.

ورأى الرّاوي الغلام يتخبّط في احتضاره ثمّ حمله الحسين بين يديه ميتاً. وكان الحسين يُردّد بأنّ قتلته سيكون خصمهم جدّه أي الرّسول. كما أنّه كان متحسّرا من عدم الاستجابة لمطلب ابن أخيه وضعفه وقلّة سنده[2]. ووضع الحسين صدره على صدره ثمّ جاء فألقاه مع ابنه عليّ بن الحسين وقتلى آخرين من أهل بيته[3]. أصبح الحسين وحيدا فلم يستطع أن يدفع الموت عن صبيته وصبية أخيه. وبالتّالي بلغت المعركة درجة كبيرة من المأسويّة بالنّسبة للحسين وهو يعيش عمليّة الاستئصال التي تعرّض إليها هو وأهل بيته وأصحابه.

وبقي الحسين يُقاتل طويلا، وكان مقاتلة الكوفة يتحاشون قتله حتّى لا يرتكبون إثما عظيما[4]. وقد أتاه رجل من كندة وهو مالك بن النُّسير من بني بدّاء[5]، «وكان فاتكا لا يُبالي على ما أقدم»[6] فضربه على رأسه بالسيف، وعليه برنس.

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٤٧؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٠٦.
(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٤٧؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٠٦.
(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٤٨.
(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٤٨.
(٥) ابن حزم، مصدر مذكور، ص٤٢٥: من بطون كندة بَداء.
(٦) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٠٨.

فقطع البرنس، وأصاب السّيف رأسه. فخرج الدّم منه. فامتلأ البرنس دمًا. لكنّه رغم جراحاته، لبس قلنسوة واعتمّ وقد أخذ منه التّعب كلّ مأخذ.

ابتدأت عمليّة القضاء على الحسين من قبل العناصر الأكثر تطرّفا في جيش عمر بن سعد. كما تغرقنا الرّواية في بحر من الدّماء.

وبعد أن ضرب الحسين على رأسه، دعا بصبيّ فأجلسه في حجره.

ويذكر أبو مخنف روايته عن أبي جعفر محمد بن عليّ بن الحسين الذي كان يتحدّث مع عقْبة بن بشير الأسديّ فقال له بأنّ لهم دما في بني أسد. فذكر الأسديّ أنّ ليس لديه ذنب في ذلك. فقد أُتي بصبيّ للحسين، فكان في حجره فرماه أحد بني أسد بسهم فذبحهُ، فتلقّى الحسين دمه. فلمّا ملأ كفّيه صبّه في الأرض.

ثمّ قال: «ربّ إن تك حبستَ عنا النصر من السماء فاجعل ذلك لما هو خير، وانتقم لنا من هؤلاء الظالمين»[1].

وهذا الصبيّ هو أبا بكر بن الحسين بن عليّ. ورماهُ عبد الله بن عقبة الغنويّ[2].

يبدو الحسين في هذه الفترة الأليمة والحاسمة في تاريخ أهل البيت قد استوحش من استشهاد أبنائه. ولعلّ هذا الاستشهاد لهذا الصبيّ في حجر الحسين كان أهمّ استشهاد وأعنفه في صفّ أهل البيت. لماذا أجلس الحسين هذا الصبيّ في حجره؟ هل أحسّ الحسين بعمليّة الاستئصال التي استهدفت أهل بيته وأصحابه وهو نفسه؟

كان الموقف مأسويًا إلى أبعد درجة حيث كان الحسين يحمل بين يديه القتلى من غلمان أهل بيته وهو متألّم. وكان هؤلاء القتلى من أهل البيت من الصبيان. وفي هذا تعبير عن مأسويّة القتل والتّقتيل أو الاستئصال الذي استهدف له أهل البيت.

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٤٨.

(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٤٨؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٠٦.

ويبدو أنّ العبّاس بن عليّ بن أبي طالب قتله حرملة بن كاهل الأسدي ثمّ الوالبي[١] مع جماعة وتعاونوا عليه بالضّرب واحدا بعد آخر[٢].

وسلب ثيابه حكيم بن طفيل الطّائيّ[٣]. يبدو أنّ العبّاس تعرّض نسبيّا لنفس المصير الذي تعرّض له الحسين أي القتل والسّلب.

ومن الصّعب القبول برواية مفادها أنّ العبّاس بن عليّ قال لإخوته من أمّهِ: عبد الله، وجعفر، وعثمان بأن يتقدّموا للقتال حتّى يرثهم لأنّه ليس لديهم ولد[٤].

فأهل البيت لم يكن لديهم من همّ إلاّ الدّفاع على الحسين، كرمز وكذكرى تربطهم بالرّسول. وكان العامل الرّوحيّ هو الطّاغي.

كما أنّنا نلاحظ وحشيّة القتل الذي شنّه مقاتلة الكوفة في جيش عمر بن سعد على أهل البيت. فكان يقتل الغلامَ والرّجل منهم رجلان أو أكثر. كما تميّز القتل بوحشيّة كقطع اليد وفلق القلب.

وهو تطوّر جديد في هذه الفتنة الثّانية سيتطوّر إلى عنف أقوى في المرحلة التي سنتناولها بالدّرس في حكم الخليفة يزيد بن معاوية.

وتواصل تقتيل الصبيان من أهل البيت على نحو كبير من العنف. فذكرت المصادر قتل واحتزاز رؤوس أفراد أهل البيت. وهو كذلك تطوّر للعنف في هذه المرحلة الأخيرة من واقعة كربلاء.

فقد ذكر شاهد عيان وهو القاتل نفسه هانئ بن ثُبيت الحضرميّ الذي لم يُرد أن يُدليَ بهويّته كقاتل لأحد غلمان أهل البيت. ثمّ عيب عليه فصرّح بأنّه هو القاتل. وكان يجلس بمجلس الحضرميّين في ولاية خالد بن عبد الله القسري، وهو شيخ كبير[٥].

---

(١) ابن حزم، مصدر مذكور، ص١٩٤.
البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٠٧.

(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٤٨؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٠٦.

(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٠٦ ـ ٤٠٧.

(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٤٨ ـ ٤٤٩.

(٥) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٤٩.

وقد كان واقفا هو و١٠ من أصحابه من الفرسان من جيش عمر بن سعد، إذ خرج غلامٌ (وهوعبد الله بن عليّ بن أبي طالب) يتلفّت يمينا وشمالا وهو مذعور. وكان في أذنيه دُرَّتين كلّما التفت تذبذبان. فهبّ إليه هذا الفارس وقطعه بالسّيف. يبدو هذا الرّاوي ـ القاتل لأحد غلمان أهل البيت مؤمنا بمكانة أهل البيت، حيث رأى هالة ميتا ـ تاريخيّة محيطة بالصبيّ الذي قتله. لكنّه لم يتورّع عن قتله. كما قتل هانئ بن ثُبيت الحضرميّ جعفر بن عليّ، واحتزّ رأسه[١].

ورمى خَوَليُّ بن يزيد الأصبحيّ[٢] عثمان بن عليّ بن أبي طالب بسهم، فهاجمه رجل من بني أبان بن دارم فقتله واحتزّ رأسه. ورمى رجلٌ من بني أبان بن دارم محمد بن عليّ بن أبي طالب فقتله و احتزّ رأسهُ [٣].

تواصلت عمليّات تقتيل أهل البيت بشكل سريع. وكان مقاتلة الكوفة يتميّزون بعنفهم في التّقتيل.

لا بدّ من الإشارة أنّ مقتل الحسين نُقل لنا من قبل قتلة الحسين وأصحابه وأهل بيته في جيش عمر بن سعد. فالقتلة رووا روايات عن ضحاياهم أو قتلاهم.

فالشّخص الوحيد من صفّ الحسين الذي نقل لنا بعض الأخبار لكنّها لا تخصّ المقتل هو عقبة بن سمعان مولى الرّباب بنت امرئ القيس الكلبيّة زوجة الحسين وأمّ سكينة. وهو قد بقي على قيد الحياة. لكنّه لم يترك لنا روايات عن المقتل. فإلى أيّ مدى يمكن تصديق هذه الرّوايات؟

كما أنّ هذه الرّوايات تميّزت بطابع سينمائي، فهي دقيقة في وصفها لعمليّة القضاء على أهل البيت.

وعندما مات أصحابه، أراد أن يذهب إلى الفرات فصاح رجل من بني أبان بن

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٤٩؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٠٧.

(٢) مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص٤٠: من حمير.

(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٠٧.

دارم[1] أن يحولوا بينه وبين الماء مخافة أن تأتيه شيعته[2] وضرب فرسه، وتبعه مقاتلة الكوفة في جيش عمر بن سعد حتّى حالوا بينه وبين الفرات.

فدعا الحسين على الأبانيّ أن يُظمأه الله، فرماه الأبانيّ بسهم في حنكه. فقال الحسين: «اللّهم إنّي أشكو إليك ما يُفعل بابن بنت نبيِّكَ».

فأصاب الرّجل الظّمأ، فجعل لا يروى. ومات شرّ ميتة حيث انقدّ بطنه كانقداد بطن البعير!

وتعتبر هذه الصّفة من كرامات الحسين. فالله يُصيب كلّ من يسيء للحسين بشرّ.

كما تذكر المصادر أنّ الحسين عطش واشتدّ عليه العطش، فاقترب من الماء ليشرب فرماه حصين بن تميم بسهم، فجاء في فمه. فكان الحسين يجمع الدم في فمه ويلقي به إلى السّماء ثمّ دعا الله قائلاً: «اللّهم أحصهم عدداً، واقتلهم بددًا، ولا تَذَرْ على الأرض منهم أحدًا»[3].

كان هذا العنف المسلّط على الحسين سابقا للقتل. كما الدّماء التي نزفت من الحسين قبل قتله، دماء تعبّر عن دماء الحسين الشّهيد الذي سيُقاضي قتلته من مقاتلة الكوفة والأمويّن يوم الحساب لدى الشّيعة.

لقد مات الحسين موتا فيه تعذيب: إراقة دمائه ضرب فمه إلخ، وسُلّطت عليه كلّ أنواع العنف.

وجاء شمر بن ذي الجوشن في عشرة من رجّالة أهل الكوفة حذو منزل الحسين الذي فيه نساءه وعياله.

فمشى نحوه لكنّهم منعوه من ذلك. (من هم الذين منعوه؟ هل هم ما تبقّى من أفراد أهل البيت؟).

---

(١) ابن حزم، مصدر مذكور، ص٢٢٩: من بني تميم.

(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٤٩ ـ ٤٥٠؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٠٧.

(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٤٩؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٠٧.

فكلّمهم الحسين قائلاً إن لم يكن لهم دين، ولا يُؤمنون باليوم الآخر، فهم يحافظون على الأقلّ على أحسابهم أي على احترام لبعض المبادئ الأخلاقيّة.

كما طلب منهم أن يمنعوا طغامهم [١] وجهّالهم من التعرّض لنسائه وأهله. فأجابه شمر بأنّه له ذلك وناداه بابن فاطمة. لكنّ شمر لم يكن يقصد احترام قرابته من الرّسول؛ بل كان ذلك مجرّد استهزاء.

كان شمر عنيفا وقاسيا وكان محاطا بجماعة ربّما من البدو أو المقاتلة الذين لم يكن لديهم إحساس بشرعيّة أهل البيت. فهم ينتمون إلى أجيال جديدة تربّت على استنقاص عليّ وشتمه، وعلى التّعتيم على ذكرى الرّسول.

كما أنّهم تركوا العنان بعد قتلهم لأصحاب الحسين وجلّ أهل بيته من الذّكور إلى عنف غير واعي وفوضوي بما أنّهم لم يحترموا فيه تقاليد الحرب منذ الجاهليّة والتي تنصّ على عدم هتك الأعراض. فهتك حرمة أهل البيت تبعته محاولة لهتك حرمة النّساء نساء أهل البيت.

تعتبر هذه الظّاهرة من الظّواهر الجديدة التي برزت بمبادرة من شمر بن ذي الجوشن وهي التهدّد باستباحة ثقل الحسين أي التعرّض للنّساء.

يجب أن نشير إلى معطى هامّ وهو أنّ عمر بن سعد تحاشى أن يُقابل الحسين، وأن يقف وجها لوجه معه. وكان يُعطي أوامره عن بُعد. ولم يقف عليه إلاّ بعد أن قتّله مقاتلة الكوفة. فحصلت له مواجهة مع زينب ابنة فاطمة أخته.

وهذا يرجع لاستحياء عمر بن سعد من مواجهة حفيد الرّسول. لنا أن نتساءل هل أطلق قائد المقاتلة أي عمر بن سعد يد شمر بن ذي الجوشن في القتل والاعتداء؟

وحوّل شمر بن ذي الجوشن اتّجاهه حيث أقدم على الحسين في الرجّالة. فكلّم شمر الرجّالة ومنهم أبو الجَنوب واسمه عبد الرحمن بن زياد بن زهير الجُعفي والقشعم بن عمرو بن يزيد الجعفيّ أو القاسم بن عمرو بن نذير الجُعفيّ، وكان

---

(١) ابن منظور، معجم مذكور، ج٢، ص٥٩٦: الطّغامُ: أرذال النّاس وأوغادهم.

فيمن اعتزل عليّا[1]؛ وصالح بن وهب اليَزنيّ، وسَنان بن أنس النخعيّ، وخوليّ بن يزيد الأصبحيّ[2].

وكان شمر يحرّضهم، فمرّ بأبي الجنوب وكان حاملا سلاحه. فقال له بأن يقدم على الحسين، فأجابه أبو الجنوب، وكان يتميّز بشجاعته، ما الذي يمنعه أن يقدم عليه هو؟ فأجابه شمر أله يقول هذا الكلام؟ فاستبّا. وقال له أبو الجنوب: «والله لهممتُ أن أخضخضَ السنان في عينك»[3]. وتهدّده شمر بقوله إن كان يستطيع أن يضرّه فسيفعلُ.

كان هناك تخوّف من قبل مقاتلة الكوفة لمهاجمة الحسين وقتله. كما أنّ بعض المقاتلة كان لديهم استقلاليّة تجاه السّلطة أي تجاه شمر بن ذي الجوشن. وكان هذا الاختلاف في وجهات النّظر بخصوص قتل الحسين، سببا لظهور صراعات وتوتّرات داخل فئة مقاتلة الكوفة.

المهمّ أنّ شمر بن ذي الجوشن هاجم الحسين في ٥٠ من الرجّالة[4]. هل بالغت المصادر في عدد الرجّالة؟ ربّما كان هذا العدد صحيحا. لنا أن نتساءل لماذا لم يقع الهجوم في الفرسان؟

وحاربهم الحسين فكانوا ينكشفون عنه، ثمّ أحاطوا به. فأقبل إلى الحسين غلام من أهل بيته، فأخذته أخت الحسين زينب ابنة عليّ وفاطمة. قال لها الحسين أن تحبسه.

لكنّ الغلام رفض أن ينصاع لهما، وأسرع للحسين ووقف إلى جانبه. وهاجم بحر بن كعب بن عبيد الله ـ من بني تيْم الله بن ثعلبة بن عكابة [5] ـ فهبّ إليه الغلام قائلاً: «يا ابن الخبيثة، أتقتل عمّي!» فضربه بالسّيف. فقدّم الغلام يده

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٠٧.
(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٠٧؛ الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٥٠.
(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٠٧ ـ ٤٠٨؛ الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٥٠.
(٤) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٠٨.
(٥) ابن حزم، مصدر مذكور، ص٣١٥: تيْم الله بن ثعلبة بن عكابة من بكر بن وائل.

فقطعها بحر بن كعب. وأخذه الحسين وضمّه إلى صدره، وطلب من ابن أخيه الصّبر على القضاء الذي نزل به حتّى يلتحق بآبائه الصّالحين رسول الله وعليّ بن أبي طالب وحمزة وجعفر والحسن بن عليّ[1].

وصلت معركة كربلاء إلى فترة شديدة المأسويّة حيث أصبح التّقتيل يخصّ غلمان أهل البيت. فقد كان صبيان أهل البيت مدفوعين نحو مصير محتوم بركضهم دائما وراء إغاثة الحسين ـ رئيس أهل البيت ـ والاستشهاد في سبيله.

بينما كان الحسين وزينب يحاولان حمايتهم حتّى لايتعرّضا لهذا المصير المحتوم.

وتبدو زينب أخت الحسين دائما حاضرة على عمليّة استئصال أهل بيتها. وهي تمثّل رمزيّة أهل البيت وشرعيّة القرابة من الرّسول.

دعا الحسين بسراويل محكمة النّسج، يمنية. فنقض نسجها، ولبسها حتّى لا يسلب. لكن لمّا قُتل سلبه بحر بن كعب فتركه مجرّدًا[2]. أفرزت الفتنة الثّانية مظاهر جديدة من النّهب والسّلب، فقد تعرّض الحسين وأهله لعمليّات سلب عديدة لم يُراع فيها قرابة الحسين من الرّسول. فبرز النّهب كظاهرة من ظواهر الفوضى في الحروب، أو ظاهرة من ظواهر الجاهليّة. كما يبدو ستر الجسم لكي لا تتعرّى الجثّة أمر هامّ في الأنتروبولوجيا العربيّة.

وظهرت كرامة الحسين في العقاب الإلهي لهذا الشّخص الذي سلب الحسين وتركه مجرّدا، أي أنّه لم يُراعِ حُرمة الجثّة، جثّة الحسين وتركها مجرّدة. «فكانت يداه في الشتاء تنضحان الماء، وفي الصيف تَيْبسان كأنّهما عود»[3].

وكانت نهاية مسرحيّة العنف وعقاب الدّولة للحسين أن تركته يُقتل في نهاية هذه المسرحيّة المأسويّة.

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٥١؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٠٨.
(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٥١.
(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٥١.

فكأنّ قتلته أرادوا تعذيبه بالنّظر والقلب والمشاعر ولمّا بلغ هذا الإحساس ذروته قُتل هو.

يذكر شاهد عيان وهو عبد الله بن عمّار بأنّ الرجّالة هاجموا الحسين من يمينه ومن شماله. وكان الحسين يحمل عنهم مرّة من اليمين، ومرّة من الشّمال حتّى فرّقهم. وكان شجاعا ورابط الجأش رغم قتل أهل بيته وأصحابه(١). وبينما هو كذلك يُقاتل لوحده، خرجت أخته زينب ابنة فاطمة، ولمحت عمر بن سعد قد اقترب من الحسين: «ليت السّماء تطابقت على الأرض! ياعمر بن سعد، أيُقتل أبو عبد الله وأنت تنظر إليه»(٢). فسالت دموع عمر بن سعد على خدّيه ولحيته، وأشاح بوجهه عنها ولم يُجبها.

يبدو أنّ عمر بن سعد كان مشرفا على عمليّة القتل، وهتك حرمة أهل البيت وقريش والقرابة والرّحم - رغم قرابته للحسين ورغم المكانة الميتا - تاريخيّة لأبيه والمرتبطة بالرّسول - لكنّه لم يتراجع عن موقفه بل واصل الإشراف على عمليّة الإبادة لأهل البيت، وقتل الحسين. وقد تأثّر بالغ التأثّر من لوم زينب لكنّه كان مجبرا على إتمام عمليّة القتل والتّمثيل بالجثّة - جثّة حفيد الرّسول وابن عمّه - وتلعب زينب دورا هامّا كرمز لأهل البيت وبعلاقة وثيقة بالحسين بما أنّها شقيقته.

كان عمر بن سعد من الأشراف المرتبطين بالدّولة ارتباطا عضويّا. وكان خاصة حريصا على مصالحه الاقتصاديّة والسّياسيّة. وقد فسّر في وقت لاحق موقفه من قتله لابن عمّه الحسين وفي ولاية عبد الله بن مطيع للكوفة في فتنة ابن الزّبير، فسّر موقفه بسبب إيديولوجي. فقتل الحسين اختاره الله ولم يختره الأمويّون.

كما أنّ الحسين لم يُرد أن يقبل شروط الوالي. وقد قتل عمر بن سعد شرّ قتلة هو وابنه من قبل المختار قصاصا للحسين(٣).

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٥٢؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٠٨.

(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٥٢؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٠٩.

(٣) ابن سعد، مصدر مذكور، ج٥، ص١١٣ «قال ابن مطيع لعمر بن سعد بن أبي وقّاص: اخترتَ هَمَذان =

وواصل شاهد عيان وهو حُميد بن مسلم الأزديّ رواية أخبار مقتل الحسين.

فذكر أنّ الحسين كان يُقاتل وهو لابس جبّة من خزّ ومعتم، وكان مخضوباً بالوَسِمة[1]، وقال لقتلته وهو يقاتلهم بأنّهم يتنافسون لقتله، ووعدهم بالعذاب الإلهي في يوم الحساب وباقتصاص الله منهم[2].

كان الخطاب الدّيني حاضرا في قتال الحسين لقتله. وكان بينه وبينهم نوع من المحاكمة التي لا يعترف بها قتلته لأنّهم يمثّلون أحسن تمثيل الخطاب الدنيوي السّياسي الذي يتصادم ويتعارض مع خطاب الحسين. وقد لعبت الفتنة الثّانية دورا هامّا في احتداد التّناقضات بين الخطابين.

وذكر حُميد بن مسلم الأزديّ أنّ الحسين بقي مدّة طويلة في النّهار، وكان النّاس يتحاشون قتلهُ، ويلقون المسؤوليّة على الآخرين حتّى صاح فيهم شمر وطلب منهم أن يقتلوه.

فحُمل عليه من كلّ جانب فضُربت كفُّه اليسرى ضربةً ضربها زُرْعة بن شريك التميميّ. وضُرب على عاتقه. فكان ينوء ويكبو. وكان سنان بن أنس لا يترك أحدا يقرب من الحسين حتّى يتفرّد بحزّ رأسه هو.

وحمل عليه سنان بن أنس بن عمرو النَّخَعيّ فطعنه بالرّمح فوقع. وقال لخَوليّ بن يزيد الأصبحيّ بأن يحتزّ رأسه، فضعف وأرعِد. فدعا عليه سنان بن أنس بكسر عضديه ويديه. ونزل إليه فذبحه واحتزّ رأسه، وقد ضرب قبل ذلك بالسّيوف[3].

قتل الحسين ومثّلت بجثّته العناصر الأكثر طاعة للدّولة الأمويّة أي لشمر بن ذي

= والرّيّ على قتل ابن عمّك، فقال عمر: كانت أمورًا قُضيت من السّماء وقد أعذرتُ إلى ابن عمّي قبل الوقعة فأبى إلاّ ما أبى. فلمّا خرج ابن مطيع وهرب من المختار سار المختار بأصحابه إلى منزل عمر بن سعد فقتله في داره وقتل ابنه أسوأ قِتلة».

(1) ابن منظور، معجم مذكور، ج٣، ص٩٢٨: الوسْمُ والوسْمةُ شجرةٌ ورقها خضابٌ. وفي حديث الحسن والحسين، عليهما السّلام: أنّهما كانا يخضبان بالوسمة، وقيل هي نبت، وقيل هي شجر باليمن يُختضب بورقه الشعرُ أسود.

(2) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٥٢.

(3) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٥٣.

الجوشن الذي يتميّز هو أيضا بقسوته.

ووجُد على الحسين حين قُتل ٣٣ طعنة و٣٤ ضربة. يشبه هذا العنف في التّقتيل العنف الذي سُلّط على عثمان: «ودخلوا عليه؛ فمنهم من يَجَؤُهُ بنعل سيفه، وآخر يلكزه فكان مقتل الحسين قصاص للخليفة المظلوم أي تركيز لأهمّ عنصر من عناصر الإيديولوجيا الأمويّة، وبالتّالي عادت صور الفتنة الأولى للظّهور من جديد وبشكل أكثر ضراوة.

ثمّ سُلب الحسين ما كان عليه بعد حزّ رأسه، فأخذ سراويله بحر بن كعب التيمي، وأخذ قيس بن الأشعث بن قيس الكنديّ قطيفته ـ و كانت من خزّ ـ وسُمّي قيس قطيفة تحقيرا وسخريّة منه بعد كربلاء. وسلب مالك بن النسير البدّي الحسين برنسه (قبل أن يُقتل ويحتزّ رأسه). فدعا عليه الحسين: «لا أكلت ولا شربت وحشرك الله مع الظّالمين»[1]. وكان البرنس من حرير، وأقبل به في منزله يغسله من الدم فقالت له زوجته: «أسَلَبَ ابن بنت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم تدخِلُ بيتي! أخرجه عنّي»[2].

يبدو أنّ موقف الزّوجة كان يُعبّر عن حبّ واحترام لأهل البيت على عكس زوجها. وهذا موقف غريب في هذا المجتمع الكوفي الذي يحوي العديد من التّناقضات.

فبقي الكندي فقيرا في أشدّ حالات الفقر ما تبقى من حياته وشُلّت يداه. ويدخل هذا في إطار كرامات الحسين. وأخذ قميصه إسحاق بن حيْوةَ الحضرميّ فبرِصَ[3]. كما أنّه كان من بين الرّجال الذين وطأوا بخيولهم الحسين. وعوقب هذا الشّخص بأن تعرّض للعقاب الإلهي، فتشوّه جسده ببرص.

وأخذ نعليه رجل من بني أود يقال له الأسود. وأخذ سيفه رجل من بني

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٠٨؛ الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٤٨.
(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٤٨.
(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٥٤ ـ ٤٥٥؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤١٠.

نَهشَل بن دارم[1]. وانتهب النّاس الورس والحلل والإبل، وأخذ الرحيل بن زهير الجعفي، وجرير بن مسعود الحضرمي، وأسيد بن مالك الحضرمي أغلب تلك الحلل والورس. وأخذ أبو الجنوب الجعفي جملاً كان يستقي عليه الماء، وسماه حسينا[2].

لماذا أخذ قيس بن الأشعث قطيفة الحسين؟ هل كان هذا الشّريف من أشراف الكوفة في حاجة إلى تجريد الحسين من قطيفته؟

كما أنّ التّحقير من الحسين حفيد الرّسول بسلب جمله وتسميته باسمه (كان أبو الجنوب من العناصر المتميّزة بالغلظة) يدخل في إطار هذه الغلظة في رجال شمر بن ذي الجوشن والجهل بمكانة الحسين في الضّمير الإسلامي النّاتجة عن ٢٠ سنة من المجهود الإيديولوجي الذي قامت به الدولة الأمويّة بالكوفة على يد زياد بن أبي سفيان وعبيد الله بن زياد. كما أنّ هؤلاء الرّعاع مؤطّرين من قبل أشراف غير متشيّعين، وحريصين على فرض سلطة الدّولة وإيديولوجيّتها بالكوفة.

فهل كان هذا السّلب تعبيرا عن حالة من حالات الفوضى في كربلاء كواقعة عسكريّة؟ أم أنّه نوع من التبرّك بالحسين رغم أنّهم قتلوه؟ وقد انتهبت دار عثمان بعد مقتله فعبث القتلة ببيوت الأموال وبكلّ شيء[3].

هل يدخل هذا السّلب في إطار عنف يتولّد من القتال؟ يبدو أنّ العناصر التي قتلت الحسين، كانت من العناصر الأكثر فتكا في جيش عمر بن سعد، وربّما من رجال شمر الغليظ والجافي.

لماذا كلّ هذا العنف في قتل الحسين والتّمثيل به وسلبه؟ هل كان كلّ هذا العنف لمعاقبة الحسين لأنّه شقّ عصا الطّاعة وخرج عن الجماعة؟

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٥٣؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٠٩.
(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٥٣؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٠٩.
(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٤، ص٣٩٣.

واعتدي على نسائه: «فأن كانت المرأة لَتنازِع ثوبَها عن ظهرها حتى تُغلب عليه فيُذهب به منها»[1].

وهي صور تشبه صور الفتنة الأولى عندما ضُربت نائلة بنت الفرافصة زوجة عثمان على يدها فقطعت أصابع يدها من قبل قتلة عثمان عندما أرادت أن تحميه من ضربة السّيف كما غمز أحد القتلة أوراكها، وقال: «إنّها لكبيرة العجيزة»[2].

وسلب الثوّار ما على النّساء حتّى ملاءة نائلة[3]. فهل وقع القصاص للخليفة المظلوم في كلّ شيء تعرّض له؟

وقد تدخّل عمر بن سعد في هذه المرحلة، فمنع مقاتلة الكوفة من انتهاك حرمة نساء الحسين من ذلك فتوقّفوا[4].

كان سُويد بن عمرو بن أبي المطاع، وقع بين القتلى مثخنا بجراحه وعندما سمع مقاتلة الكوفة يقولون قُتل الحسين فاستفاق، وقد سُلب من سيفه. وبقي سكّينه فقاتلهم بسكّينه ثمّ قُتل فكان آخر قتيل بعد الحسين[5].

يبدو من خلال هذا الخبر هول التّقتيل الذي تعرّض إليه الحسين وأهله وأصحابه. كما يبدو أنّ عمليّات السّلب استهدفت الأسلحة: سيوف القتلى.

ويُواصل حميد بن مسلم رواية أحداث مقتل الحسين، فيذكر أنّه وصل إلى عليّ بن الحسين بن عليّ الأصغر وهو مريض.

فجاء شمر بن ذي الجوشن في رجّالة معه وكانوا يُريدون قتل عليّ بن الحسين بن عليّ الأصغر. فمنعهم حميد بن مسلم بحجّة أنّه صبيّ وأنّهم لا يقتلون الصّبيان، وبقي يدافعُ عنه حتّى جاء عمر بن سعد.

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٥٣؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤١٠.
(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٤، ص٣٩١.
(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٤، ص٣٩١.
(٤) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤١٠.
(٥) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٥٣؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٠٩ ـ ٤١٠.

فأمر أن لا يدخل بيت النّسوة أحد، وأن لا يتعرّض للغلام. كما يردّ إليهم متاعهم الذي افتكّ منهم.

لكنّ المقاتلة لم يردّوا لهم شيئًا. فشكره عليّ بن الحسين على دفاعه عنه[١].

لعب حميد بن مسلم دورا هامّا في حماية عليّ بن الحسين الأصغر. هل كان هذا الدّور حقيقيّ أمّ أنّه أراد أن يُبرّئ نفسه من قتل الحسين وأهل البيت فضخّم صورته؟ ويبدو أنّ عمر بن سعد لم يكن حاضرا على تقتيل أهل البيت بل جاء عندما قُتل الجميع ولم يبق إلاّ الحسين.

كما أنّ شمر كان مع الرجّالة الذين صحبوه في عمليّة السلب والنّهب التي تلت مقتل الحسين، كانوا من العناصر الأكثر عنفا وتطرّفا في جيش عمر بن سعد.

كما قال المقاتلة لسنان بن أنس بأنّه قتل أعظم العرب خطرا، فقد جاء للأمويّين يريد «أن يُزيلهم عن ملكهم». وحرّضوه أن يأتي أمراءه فيطلب منهم هديّة و «أنّه لو أعطوهُ بيوت أموالهم في قتل الحسين كان قليلاً»[٢].

وقصد عمر بن سعد، وكان سنان بن أنس شجاعا لكن كانت به لوثة[٣]. وذكر أحد الرّواة أنّه كان يُحدثُ في ثوبه. كما هرب من المختار بن أبي عُبيد الثّقفي إلى الجزيرة، ثمّ رجع إلى الكوفة[٤]. ووقف سنان بن أنس على باب فسطاط عمر بن سعد، وأنشد شعرا بأعلى صوته:

أوْقِــرْ ركــابــي فــضّــةً وذهــبَــا	أنــا قَــتــلــتُ الــمَــلِــكَ الــمــحــجَّــبــاَ
قَــتَــلْــتُ خــيــرَ الــنّــاس أُمّــا وأبَــا	وخَــيــرَهــم إذْ يُــنــسَــبــون نــسَــبــا

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٥٤.

(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٥٤.

(٣) ابن منظور، معجم مذكور، ج٣، ص٤٠٨: رجل ذو لوثة: بطيء مُتَمَكّثٌ ذو ضعف؛ ابن حزم، مصدر مذكور، ص٤١٥: «سنان بن أنس بن عمرو ابن مالك بن النّخع، قاتل الحسين»؛ مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص٤٠.

(٤) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤١٨: عاش سنان بن أنس إلى فترة الحجّاج بن يوسف الثّقفي، وذكر له أنّه طعن الحسين ودفعه بالرّمح وقطعه بالسّيف.

فصاح عمر بن سعد بأنّه مجنون، وما صحّ من جنونه وأمرهم أن يُدخلوه عليه.
ولمّا دخل عليه ضربه بالقضيب وقال له بأنّه مجنون. كما أنّ ابن زياد إن سمعه يضرب عنقه[1].

يبدو من خلال هذا الخبر أنّ سنان بن أنس قاتل الحسين لم يكن صاحب عقل فهل أصابته لعنة أهل البيت لقتله الحسين؟ أم أنّه كان فاتكا ودمويّا مثل بقيّة المقاتلة في صفّ شمر؟

كما كان سنان بن أنس مثل الجيل الجديد بالكوفة مواليا للنّظرة المصلحيّة أو الدنيويّة التي دعّمها الأمويّون. كما أنّه يؤمن بالإيديولوجيا الأمويّة التي غيّبت أهل البيت أساسا الرّسول وعليّ بن أبي طالب.

كما كان المقاتلة في جيش عمر بن سعد يطيعون الولاة طاعة عمياء فيقتلون ويمثّلون بالجثث في سبيل فرض ملك الأمويّين. وكانوا يطمعون في مكافآت الوالي الماديّة التي كانت في أعينهم ذات أهميّة قصوى. بينما لم يكن الحسين إلاّ معارض خطير للدّولة الأمويّة، أراد أن يسلب الأمويّين ملكهم.

وأدّب عمر بن سعد قاتل الحسين بالقضيب لقوله للشّعر طالبا مكافأة هامّة من الذّهب والفضّة لقتله الحسين خير النّاس أبًا وأمًّا.

فعمر بن سعد، قائد الجيش كان لديه قضيب وهو رمز للملك مثل الخليفة يزيد بن معاوية والوالي عبيد الله بن زياد.

وهذا جديد وهامّ لأنّ عمر بن سعد قائد غير عادي. فهو قرشي وكلّف بقتل الحسين.

فهل كان القضيب دلالة على تطوّر في سلطة قائد الجيش أو ترقية من نوع خاصّ لعمر بن سعد لأنّه قَبِل قتل الحسين وأهله؟

إذ تمّ القضاء على الحسين وأهل بيته وأصحابه ما عدا عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب الأصغر.

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٥٤؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤١٠.

ولم ينج من أصحاب الحسين إلاّ اثنين عُقبة بن سِمْعان ـ وكان مولًى للرَّباب بنت امرئ القيس الكلبيَّة، وهي أمّ الحسين الكلبيّة. وقد سرّحه عمر بن سعد[١].

وكان المرقّع بن ثمامة الأسديّ كان من الرماة، وقد جثا على ركبتيه وقاتل. فجاءه جماعة من قومه، فقالوا له بأنّه آمن.

ولمّا قدم به عمر بن سعد على ابن زياد أخبره خبره، فسيّره إلى الزّارة بالبحرين[٢].

يبدو هذين المثالين شاذّين بالنّسبة لبقيّة الأمثلة التي ذكرت فيها المصادر تقتيل أهل البيت وأصحاب الحسين.

ويذكر حميد بن مسلم الأزديّ أنّ عمر بن سعد نفّذ نذر عبيد الله بن زياد الذي يتمثّل في انتداب فرسان يطأون بخيولهم الحسين. فانتدب عشرة منهم إسحاق بن حيوة الحضرميّ وأحبش بن مرثد بن علقمة بن سلامة الحضرميّ وشمر بن ذي الجوشن[٣]، فداسوا الحسين بخيولهم حتّى رضّوا ظهره وصدره[٤].

بلغ التّمثيل بجثّة الحسين درجة غير معهودة من قبل. فالفتنة الثّانية كانت دمويّة جدّا، وكان تدخّل العنصر السّياسي أي حرص السّلطة على تصفية حساباتها من الحسين كشاقّ لعصا الطّاعة هو وأصحابه وأهل بيته، كان المحرّك الأساسي لتطوّر الأحداث.

وظهرت كرامة الحسين أيضا في إنزال العقاب بأحد المقاتلة الذي وطئه بفرسه وهو أحبش بن مرثد. فقد فلق قلبه سهم مجهول في إحدى المعارك[٥].

وذكر الطبري أنّه قتل من أصحاب الحسين ٧٢ رجلا، بينما قُتل من أصحاب عمر بن سعد ٨٨ رجلا إضافة للجرحى.

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٥٤؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤١٠.
(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٥٤؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤١١.
(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤١٩.
(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٥٥.
(٥) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٥٥.

فقد أباد مقاتلة الكوفة من جيش عمر بن سعد أهل البيت. بينما يعتبر قتلى الجيش الأموي قليلون بالمقارنة مع عددهم الجملي (قرابة ١٥٠٠٠ مقاتل).

جدول القتلى في الطّفّ

أهل البيت

اسم المقتول	اسم أمّه	اسم القاتل
الحسين بن عليّ	فاطمة ابنة الرّسول	سنان بن أنس النَّخعيّ ثمّ الأصبحيّ جاء برأسه خوليّ بن يزيد[١]
العبّاس بن عليّ بن أبي طالب	أمّ البنين ابنة حزام بن خالد ابن ربيعة بن الوحيد	زيد بن رقاد الجنبيّ حكيم ابن الطّفيل السّنبسيّ[٢]
عبد الله بن علي بن أبي طالب	أمّ البنين	؟
جعفر بن عليّ بن أبي طالب	أمّ البنين	؟
عثمان بن عليّ بن أبي طالب	أمّ البنين	رماه خوليّ بن يزيد بسهم فقتله[٣]
محمد بن عليّ بن أبي طالب	أمّه أمّ ولد	رجل من بني أبان بن دارم[٤]
أبو بكر بن عليّ بن أبي طالب	ليلى ابنة مسعود بن خالد بن مالك بن ربعيّ بن سُلمىَ بن جندل بن نَهْشل بن دارم	قد شُكّ في قتله[٥]
عليّ بن الحسين الأكبر	ليلى ابنة أبي مرّة بن عروة بن مسعود بن معتّب الثّقفي، وأمّها ميمونة ابنة أبي سفيان ابن حرب	مرّة بن منقذ بن النعمان العبديّ ثمّ اللّيثي[٦] (من عبد القيس)

(١)، (٢)، (٣)، (٤)، (٥) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٦٨.

(٦) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٤٦.

عبد الله بن الحسين بن عليّ	الرّباب ابنة امرئ القيس بن عديّ بن أوس بن جابر بن كعب بن عُليم من كلب	هانئ بن ثُبيت الحضرميّ[1]
أبو بكر بن الحسن بن عليّ ابن أبي طالب	أمّ ولد	عبدُ الله بن عقبة الغَنَويّ[2]
عبد الله بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب	أمّ ولد	حرملة بن الكاهن[3]
القاسم بن الحسن بن عليّ	أمّ ولد	سعد بن عمرو بن نُفيل الأزديّ
عون بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب	جمانة ابنة المسيّب بن نجبة ابن ربيعة بن رياح بن فزارة	عبد الله بن قُطبة الطّائي ثمّ النّبهانيّ[4]
محمد بن عبد الله بن جعفر ابن أبي طالب	الخوصاء ابنة خَصفة بن ثقيف بن ربيعة بن عائذ بن الحارث بن تيم الله بن ثعلبة من بكر بن وائل	عامر بن نهشل التّيميّ[5]
جعفر بن عقيل بن أبي طالب	أمّ البنين ابنة الشقر بن الهضاب	بشر بن حَوْط الهمدانيّ[6]
عبد الرحمن بن عقيل	أمّ ولد	عثمان بن خالد بن أسير الجُهنيّ[7]
عبد الله بن عقيل بن أبي طالب	أمّ ولد	عمرو بن صُبَيح الصدائيّ[8]
مسلم بن عقيل بن أبي طالب	أمّ ولد	قتل بالكوفة[9]

(١)، (٢)، (٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٦٨.
(٤)، (٥)، (٦)، (٧)، (٨)، (٩) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٦٩.

عبد الله بن مسلم بن عقيل بن أبي طالب	رقيّة ابنة عليّ بن أبي طالب وأمها أمّ ولد	عمرو بن صبيح الصدائيّ أو أسيد بن مالك الحضرميّ[1]
محمد بن أبي سعيد بن عقيل	أمّ ولد	لقيط بن ياسر الجهنيّ
سليمان مولى الحسين بن عليّ		سليمان بن عوف الحضرمي
منجح مولى الحسين بن عليّ		
عبد الله بن بقطر رضيع الحسين		

أسماء من لم يقتلوا من أهل البيت[2]

اسم من لم يقتل	اسم أمّه
عليّ بن الحسين بن عليّ	أمّ ولد[3]
عمر بن الحسن بن عليّ	أمّ ولد[4]
الحسن بن الحسن بن عليّ	خولة ابنة منظور بن زبّان بن سيار الفَزاريّ[5]

أصحاب الحسين

اسم المقتول	اسم القاتل
مسلم بن عوسجة الأسدي[6]	هانئ بن ثُبيت الحضرميّ بكير بن حَيّ التيميّ
عبد الله بن عُمير الكلبيّ[7] (من بني عُليم من الشّام)	مسلم بن عبد الله الضِّبابيّ عبد الرحمن بن أبي خُشكارة البجليّ

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٦٩.

(٢) استصغروا أي أنّ عناصر المقاتلة من الجيش الأموي اعتبروهم صغارا فجنّبوهم القتل.

(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٦٨؛ مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص٥٨.

(٤)،(٥) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٦٩.

(٦) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٣٦.

(٧) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٣٦؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٠٦.

بُرير بن حضير الهمدانيّ[1]	كعب بن جابر العبدي
عمرو بن قَرَظة الأنصاري[2]	؟
حبيب بن مظاهر الفقعسيّ[3]	بديل بن صُريْم من بني عُقْفان من بني تميم. تميمي الحصين بن تميم التّميمي
الحرّ بن يزيد الرّياحي[4]	يزيد بن سفيان من بني تميم من بني شقرة وهم بنو الحارث بن تميم
سعيد بن عبد الله الحنفي[5]	؟
زهير بن القين البجليّ[6]	كثير بن عبدالله الشّعبي مهاجر بن أوْس
نافع بن هلال الجمليّ[7]	شمر بن ذي الجوشن العامريّ
أبو ثمامة الصّائدي[8]	؟
حويّ مولى أبي ذرّ[9]	؟
عبد الله و عبد الرحمن ابنا عزْرة الغفاريّان[10]	؟
سيف بن مالك بن سُريع مالك بن عبد بن سُريع، وهما أبناء عمّ، و أخوه لأمّه (من همدان)[11]	؟

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص ٣٩٩؛ الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٣٢.
(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص ٣٩٩؛ الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٣٤.
(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٣٩ ـ ٤٤٠؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٠٢ ـ ٤٠٣.
(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٣٤ ـ ٤٣٥، ٤٤١.
(٥) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٤١.
(٦) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٤١؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٠٣.
(٧) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٤٢؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٠٤.
(٨) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٠٤.
(٩) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٠٤.
(١٠) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٤٢؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٠٦.
(١١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٤٢ ـ ٤٤٣؛ البلاذري، ، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٠٥.

عابس بن أبي شبيب الشاكري	عدّة رجال
شوذب مولى شاكر[1]	
حنظلة بن أسعد الشّبامي[2]	؟
يزيد بن زياد بن المهاصر (قتل في أوّل القتال)[3]	؟
الصّيداوي عمر بن خالد[4]	؟
جابر بن الحارث السلمانيّ[5] (من مراد)	؟
سعد مولى عمر بن خالد[6]	؟
مجمّع بن عبد الله العائذي	؟
عائذ الله بن سعد العشيرة[7] (قتلوا في أوّل القتال)	
بدر بن المغفل الجعفي[8]	؟
الحجّاج بن مسروق بن الكلاع الجعفي[9]	؟
عبد الرحمن بن عبد الله بن الكدن[10]	؟
بشير بن عمرو الحضرميّ[11]	؟

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٤٤.
(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٠٤.
(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٤٠.
(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٤٥ ـ ٤٤٦؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٠٥.
(٥) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٤٦.
(٦) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٤٦؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص ٤٠٥.
(٧) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٤٦.
(٨) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٤٦؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٠٦.
(٩) البلاذري، ، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٠٥.
(١٠)البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٠٥.
(١١)البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٠٤.

سويد بن عمرو بن أبي المطاع عروة بن بطار التّغلبي زيد بن رُقاد الجنبيّ الخثعميّ[1]

تواصل التّمثيل بجثث الحسين وأهل بيته وأصحابه بحرمانهم من الدّفن. فلم يكن لدى الحسين ورجاله الحقّ أن يكرموا بعد الموت بالدّفن.

فدُفنوا بعد يوم من مقتلهم من قبل أهل الغاضريّة[2] من بني أسد. بينما صلّى عمر بن سعد على رجاله و دفنهم.

وتعتبر هذه الظّاهرة ظاهرة جديدة من ظواهر الفتنة الثّانية، وهو يعتبر عنف جديد طوّره عبيد الله بن زياد للقضاء على حركة الحسين الشّيعيّة، وليُركّز إيديولوجيا الدّولة الأمويّة.

فبعد مقتل عثمان رفض الأنصار أن يدفن في البقيع أي في مقابر المسلمين، وبقي ثلاثة أيّام بدون دفن. ولمّا خرجوا به رجموا سريره لولا تدخّل عليّ بن أبي طالب لمنعهم[3].

وخرجوا به في اللّيل مخافة المصريّن (القرّاء الذين قتلوه) أن يحولوا بينهم وبين دفنه، ولم يُغسل عثمان، وكُفّن في ثيابه ودمائه [4].

ودُفن في حشّ كوكب في حائط، وهي مقبرة اليهود[5]. وعندما تولّى معاوية هدم ذلك الحائط حتّى وصل به إلى البقيع، فأمر النّاس أن يدفنوا موتاهم حول قبره[6].

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٤٤؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٠٤.

(٢) ياقوت، معجم مذكور، ج٤، ص١٨٣: الغاضريّةُ: «منسوبة إلى غاضرة من بني أسد: وهي قرية من نواحي الكوفة قريبة من كربلاء».

(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٤، ص٤١٣ ـ ٤١٤.

(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٤، ص٤١٥.

(٥) الطّبري، مصدر مذكور، ج٤، ص٤١٢ ـ ٤١٣؛ ياقوت، معجم مذكور، ج٢، ص٢٦٢: حشُّ كَوْكَب: «الحشُّ في اللّغة: البستان؛ وكوكب الذي أُضيف إليه اسم رجل من الأنصار: وهو عند بقيع الغرقد، اشتراه عثمان ابن عفان، وزاده في البقيع، ولمّا قُتل ألقي فيه ثمّ دفن في جنبه.

(٦) الطّبري، مصدر مذكور، ج٤، ص٤١٣.

واتّبع الخليفة معاوية بن أبي سفيان التّقليد الإسلامي في التّعامل مع جثث حجر بن عديّ الكندي وأصحابه.

فبعث معاوية بأكفان وحَنوط، وحُفرت قبورهم. وفي هذا قال حجر: «تكفوننا كأنّا مسلمون، وتقتلوننا كأنّا كافرون»[1]. وبعد قتلهم، كفّنوا ودفنوا.

بينما اتّخذ عبيد الله بن زياد طريقة جديدة في معاقبة جثّة المعارض ربّما استوحاها من المحيط السّياسي البيزنطي أو الفارسي.

كما أنّ الحسين تواصلت كراماته بعد موته حيث روى أحد قرّاء الكوفة، وهو الأعمش أنّ رجلاً أحدث على قبر الحسين فجذم وبرص وجنّ، فولده يتوارثون ذلك[2]. وأصبح قبر الحسين مزارا للشيعة ورمزا للإمام الشّهيد إلى يومنا هذا.

وأرسل عمر بن سعد إلى عبيد الله بن زياد برأس الحسين مع خَوليّ بن يزيد الأصبحيّ وحميد بن مسلم الأزديّ. فذهب خوليّ إلى القصر، فوجد الباب مغلقا أي أنّ السّاعة التي قدم فيها لم تكن ساعة إذن؛ فقد قدم ليلاً[3].

فأتى منزله، فوضعه تحت إجّانة[4]، وكانت له زوجتان، امرأة من بني أسد وأخرى من الحضرميّين اسمها النَّوار ابنة مالك بن عقرب. وكانت تلك اللّيلة ليلة الحضرميَّة.

وقد وصلنا هذا الخبر على لسان هذه الزّوجة الحضرميّة. فقد ذكرت لنا أنّ خَوَليّ قال لها بأنّه جاءها بثروة كبيرة، برأس الحسين معها في الدّار.

فأجابته بأنّ النّاس يأتون بالذّهب والفضّة وجاء هو برأس إبن رسول الله. وحلفت أن لا يجمعها ويجمعه بيت واحد، وخرجت إلى الدّار فرأت نورا يسطع من السّماء إلى الإجّانة، وطيرا بيضا ترفرف حولها[5].

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٢٦٦.
(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٢٦.
(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤١١.
(٤) ابن منظور، معجم مذكور، ج١، ص٢٦: الإجّانة: «المركنُ»؛ ج١، ص١٢١٩: المركنُ: «الإجّانة التي تُغسل فيها الثّياب و نحوها.».
(٥) الطّبري، مصدر مذكور، ج٤، ص٤٥٥؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤١١.

وحمل الزّوج الرّأس في الغد إلى عبيد الله بن زياد. يبدو رأس الحسين رمزا لانتصار مقاتلة الكوفة على أهل البيت وبالتّالي غلبة السّياسي على الدّيني في هذه الفتنة. فأهل البيت فقدوا مكانتهم لدى مقاتلة الكوفة وغُيّبوا وهُمّشوا من مسار التّاريخ. كما غُيّبت ذكرى الرّسول وعليّ بن أبي طالب. كما عتّم الأمويّون على القرآن بكلّ أخلاقيّته (قتل النفس التي حرّم الله إلخ).

كما ظهر الجانب الميتا ـ تاريخي للحسين كأحد أفراد أهل البيت حيث أحيط رأسه المحتزّ بهالة من القداسة. كما أنّ مكانة الحسين الشّهيد جعلته كحمزة عمّ الرّسول وجعفر الطيّار، عمّ الحسين نفسه، محاطا بنور الملائكة.

أصبح الحسين في الذّاكرة الشّعبيّة رمزا للشهيد المظلوم. وتبدو هذه الرّواية على درجة كبيرة من الإيمان والعاطفيّة.

فالمرأة برهنت على حبّ لأهل البيت على عكس زوجها. وتنازلت عن حياتها الزوجيّة لأنّ زوجها لم يراع حرمة أهل البيت. كما بيّنت هذه المرأة أنّ شرعيّة أهل البيت أصبحت في الفتنة شرعيّة إلهيّة وماورائيّة تقوّت مع الاستشهاد. لكنّ هذا يؤكّد أيضا تهميش الشيّعة العلويّة ابتداء من هذا التّاريخ.

قتل الحسين يوم عاشوراء يوم الجمعة في المحرّم سنة ٦١[١]، وبالتّالي ضربت كلّ المحرّمات والمقدّسات بقتله.

كما مثّل بجثّته فحزّ رأسه كعلامة لانتصار جيش الدولة لعبيد الله بن زياد. بينما استبيحت الجثّة وسلب من ثيابه وتُرك مجرّدا. وداسته الخيول حتّى كسّرت عظامه.

ويعتبر هذا التّأريخ تحوّلا هامّا في سياسة الدّولة التي تركّز سلطانها وملكها. كما أنّه تاريخ أساسي في الفتنة لأنّه مزّق الأمّة وأحدث بها شرخا وجرحا لن يندمل.

كما مثّلت دماء آل البيت المقتولين ظلما والشّهداء رمزيّة كبيرة في المخيال الشّعبي والشّيعي «لمّا قتلوا الحسين مكثوا شهرين أو ثلاثة وكأنّما تُلطّخُ الحيطان

(١) مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص٤٠.

بالدم من حين صلاة الغداة إلى طلوع الشمس»[1]. لكن لم يذكر مصدرنا أين كانت تلطّخ الحيطان. فهل كانت تلطّخ بالكوفة ليحسّوا بالذّنب تجاه الحسين وآله؟

وتواصلت مأساة نساء الحسين بعد عمليّة الاستئصال التي تعرّض إليها الحسين وأهل بيته من الرّجال والصّبيان وأصحابه وإرسال رأس الحسين لابن زياد حيث أقام عمر بن سعد يومه ذلك والغد، ثمّ أمر حميد بن بكير الأحمريّ ـ وهو من شرط ابن زياد وممّن يقوم على رأسه[2] ـ بأن يُنادي في النّاس بالرّحيل.

وهنا نلاحظ أنّ هذا الشرطيّ الذي كان مقرّبا من عبيد الله بن زياد، أرسله الوالي في جيش عمر بن سعد. فقد تخلّى بأمر من الوالي لمدّة قصيرة عن مهمّته كساهر على التّشريفات في القصر ليساهم في قتل الحسين.

ويبدو أنّ له مهمّة في البروتوكول العسكري، تتمثّل في إعلام المقاتلة بالرّحيل.

فهل أرسله عبيد الله بن زياد عينا على عمر بن سعد؟ ربّما كان هذا الاحتمال صحيحا لأنّ عبيد الله بن زياد طوّر نظاما بوليسيّا في الكوفة زمن القضاء على الثورة الشيعيّة لمسلم بن عقيل بالكوفة.

وحمل عمر بن سعد في رحيله من كربلاء للكوفة بنات الحسين وأخواته ومن كان معه من الصبيان، وعليّ بن الحسين مريضٌ[3].

لكنّ المصادر لا تذكر كم بلغ عدد هؤلاء الصّبيان الذين بقوا على قيد الحياة.

ويُواصلُ شاهد عيان وهو قرّة بن قيس التّميمي (من مقاتلة عمر بن سعد) الحديث عن رحلة نساء الحسين وبناته وصبيانه من كربلاء إلى الكوفة.

ولمّا مررن بحسين وأهله وولده صحن ولطمن وجوههنّ. ويذكر الرّاوي أنّه اعترضهنّ على فرسه، فانبهر بجمالهنّ وشبّههنّ بالمها[4].

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤١٣؛ الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٩١ ـ ٤٢٤.
(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٨ ـ ٤٥٥؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤١١.
(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٥٥.
(٤) ابن منظور، معجم مذكور، ج٣، ص٥٤٥: مهًا: يقال للكواكب مهًا.

ولعلّ هذا النّور السّاطع من نساء الحسين هو تأكيد على المكانة الميتا ـ تاريخيّة لأهل البيت.

كما يُضيف الرّاوي أنّه لا ينسى ما قالته زينب ابنة فاطمة حين مرّت بأخيها ميّتا: «يا محمّداه، يا محمّداه! صلّى عليك ملائكة السماء، هذا الحسينُ بالعَراء، مرمّل بالدّماء، مقطع الأعضاء، يا محمداه! وبناتك سبايا، وذريّتك مقتّلة، وتَسفِي عليها الصّبا»[1] فبكى كلّ من سمعها من مقاتلة الكوفة.

تتمثّل مأساة نساء الحسين في البقاء على قيد الحياة بعد تقتيل الحسين رئيس أهل البيت ورجاله وأهله من الرّجال والغلمان عدم التمكّن من القيام بحداد عاديّ لأنّ هذه الميتة هي ميتة من نوع خاصّ. فقد قتّل واستأصل مقاتلة الكوفة ومثّلوا بجثث الحسين وأهل بيته وأصحابه.

كما أنّ رمزيّة زينب، ابنة فاطمة وأخت الحسن والحسين، في كونها المُمثّلة الوحيدة لأهل البيت بعد أن قُتل رجال أهل بيتها.

وكان خطاب زينب خطابا مؤثّرا لأنّها استنجدت بجدّها الرّسول لتشكو له تقتيل أهل بيته، وأساسا التّمثيل بجثّة الحسين وبجثث أهل البيت. وتركهم بالعراء بدون دفن وبدون تكفين ملطّخين بدمائهم.

إنّ هذا المشهد المأسوي، وهذه الصيحة صيحة أخت الحسين حفيد الرّسول تشبه نوعا ما صيحة انتيغون التي أرادت أن تدفن جثّة أخيها المعارض لسلطة كريبون[2]. فالحسين وأهل البيت تعرّضوا لأقصى عقوبة يتعرّض لها معارضون للدّولة الأمويّة.

وأبكى خطاب زينب المقاتلة لأنّه عبّر عن لوعتها وألمها وفراقها لأحبّائها لكنّه لم يُغيّر شيئا من تمسّكهم بالإيديولوجيا الأمويّة أي التّعتيم على ذكرى الرّسول وشتم عليّ على المنابر كعنصر من عناصر تركيز الشرعيّة الأمويّة.

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٥٦؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤١١ ـ ٤١٢.

(2) Jean Anouilh, *Idem*,p.80.

كان هذا العنف جديدا: استئصال رجال أهل البيت والإبقاء على النّساء منهم، والمرور بهنّ بساحة المعركة حيث رأت النّساء من رؤية جثث أحبّائهنّ.

يبدو هذا الموقف من أقسى المواقف، فلا تنحصر مصيبة نساء آل البيت في ألم فراق الأحبّة في ظروف قاسية بل في رؤية جثثهم مشوّهة و تركهم أيضا بدون دفن. فإن لم يشارك نساء وبنات الحسين في القتال، فقد انتقم منهم الأمويّون بطريقة غير مباشرة بتسليط عذاب النّظر إليهنّ!

كما أنّ الوضعيّة القانونيّة لنساء أهل البيت بعد هزيمة الحسين وأصحابه وأهل بيته وتقتيلهم، هي وضعيّة السّبي، مثلما تسبى النّساء في الجهاد ضدّ المشركين. وبالتّالي ارتكب الأمويّون كلّ المحرّمات في حقّ أهل البيت رجالا و نساء.

وقُطفت بقيّة رؤوس أهل البيت وأصحاب الحسين وحُملت في «موكب احتفالي» لعبيد الله بن زياد. وكان هذا انتصارًا هامّا لابن زياد وللخليفة يزيد بن معاوية.

فقد أرسل ٧٢ رأسا، مع شمر بن ذي الجوشن (٢٠ رأسا حملتها هوازن)، وقيس بن الأشعث بن قيس الكندي (١٣ رأسا) وعمرو بن الحجاج الزبيدي (٧ رؤوس أتت بها مذحج) وجاءت بنو أسد ب١٦رأسا، وجاء سائر قيس بـ ٩ رؤوس[١]. كما كان عزرة بن قيس الأحمسي ضمن الأشراف الذين قدموا بالرّؤوس لعبيد الله بن زياد [٢].

كان الأشراف من القوّاد العسكريّين في جيش عمر بن سعد الذين ساهموا مساهمة فعّالة في القضاء قضاء مبرما على الحسين وأهل بيته وأصحابه. وعبّروا عن طاعتهم للسّلطة الأمويّة وولائهم لها في قمع كلّ الثّورات خاصّة منها الثّورات الشّيعيّة.

وذكر حُميد بن مسلم الأزديّ وهو الشّاهد العيان المحوريّ الذي اعتمد عليه أبو

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤١٢؛ الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٦٨.
(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٥٦.

مخنف في رواية أخبار مقتل الحسين. فقد دعاه قائد الجيش عمر بن سعد فأرسله لأهله «ليُبشّرهم بفتح الله عليه وبعافيته»[1].

أرسل عمر بن سعد رسولا لأهله ليفرحهم بانتصاره. فيبدو هذا الإحساس بلذّة الانتصار بتقتيل الحسين وأهل بيته وأصحابه، تعبيرا عمّا وصلته الدّولة من تطوّر ملكي وتصوّر سلطوي للحكم.

يبدو الخطاب الإيديولوجي في الرّسالة الشفويّة لعمر بن سعد إلى أهله. ويتمثّل هذا الخطاب الإيديولوجي في توظيف المقدرة الإلهيّة لفائدة الأمويّين ولفائدة عمر بن سعد خاصّة الذي نجح في مهمّته بإعانة إلهيّة.

بينما تذكر رواية أخرى[2]، أنّ عمر بن سعد عندما رجع للكوفة تحدّث عن ندمه لعودته بأعظم شرّ إلى أهله. فقد أطاع الفاجر الظّالم ابن زياد، وقطع القرابة الشّريفة.

ربّما ندم عمر بن سعد بعد فوات الأوان لهتكه حرمة القرابة وحرمة أهل البيت. لكنّه كان مجبرا على الطّاعة وحمّل المسؤوليّة ابن زياد.

فعمر بن سعد هو أحد أشراف الكوفة الحريص على حماية مصالحه في ظلّ الدّولة الأمويّة. وكان ابن زياد هو منفّذ سياسة الدّولة، فابتدع هذا النّوع الجديد من فرض سلطة الدولة على حساب الحرمات.

ويواصل الرّاوي حُميد بن مسلم الأزديّ ذكر بقيّة الأحداث المتعلّقة بالتئام مجلس ابن زياد بقصر الكوفة للاحتفال بهذه المناسبة الهامّة، وهذا الانتصار الهامّ لابن زياد وليزيد.

ردّ فعل عبيد الله بن زياد بالكوفة بعد مقتل الحسين بن عليّ

أذن عبيد الله بن زياد للنّاس، وقدم عليه الوفد بالرّؤوس. جيء برأس الحسين

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٥٦.
(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤١٤ ـ ٤١٥.

إلى ابن زياد فوُضع بين يديه وجعل ينكثه بقضيب[1].

كانت هذه المناسبة عبارة عن موكب للتّعبير عن الطّابع الملكي للدّولة الذي يظهر في القضاء على حركات المعارضة مهما كان نوعها.

يعتبر هذا النّكث بالقضيب مسرحة لعنف السّلطة أو أنّ عنف السّلطة يُبرزُ في إطار موكب. بما أنّ القضيب هو دلالة على السّلطة الملكيّة. كما أنّه دلالة على انتصار الملك.

وكان هذا الموكب العنيف بداية لعدّة مواكب أخرى أكثر عنفا. فقد كان قصر الكوفة مسرحا لعمليّات حزّ الرّؤوس انطلاقا من حزّ رأس الحسين. فكان هذا التّأريخ على درجة كبيرة من الرمزيّة، ومنطلقا لسلسلة من عمليّات العنف السّياسي الذي أفرزته الفتنة حيث يُروى عن عبد الملك بن عمير اللّخمي (وهو من قضاة الكوفة): «رأيت في هذا القصر عجبا، رأيت رأس الحسين على ترس موضوعاً بين يدي ابن زياد، ثمّ رأيت رأس ابن زياد بين يدي مصعب، ثمّ رأس المختار بين يدي مصعب ثمّ رأس مصعب بين يدي عبد الملك بن مروان»[2].

أبطأ ابن زياد في نكت ثنيّتي الحسين بالقضيب ولعلّه يتلذّذ بلذّة الانتصار على عدوّه، فأغضب هذا التصرّف الصحابيّ زيد بن أرقم الذي قال له بأن يكفّ عن نكت ثنيّتا الحسين. فقد رأى شفتي الرّسول على تلك الشّفتين يُقبّلهما. ولم يتمالك الشيخ نفسه فبكى. فأجابه ابن زياد بغلظة بأنّه لو لم يكن شيخا قد هرم وذهب عقله لضرب عنقه[3].

وخرج زيد بن أرقم وهو يقول بأنّ «ملّك عبدٌ عبدا، فاتّخذهم تُلُدًا؛ أنتم يا معشر العرب العبيد بعد اليوم، قتلتم ابن فاطمة، وأمّرتم ابن مُرجانة، فهو يقتل خياركم، ويستعبد شِراركم، فرضيتم بالذلّ، فبُعدًا لمن رضي بالذلّ»[4].

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٢٤؛ الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٥.

(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤١٥ ـ ٤٢٢.

(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٥٦؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤١٢.

(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٥٦؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤١٢ ـ ٤١٣.

يبدو أنّ فئة الصّحابة قد وقع تهميشها في الكوفة، كما هُمّشت ذكرى الرّسول وعُتّم على القرآن والسنّة في إطار تركيز الإيديولوجيا الأمويّة.

فقد قضى حبّ تركيز السّلطة والملك والإيديولوجيا الأمويّة من قبل زياد ثمّ أساسا من قبل عبيد الله بن زياد على المكانة الميتا ـ تاريخيّة للصّحابة ثمّ على أهل البيت. فرُفعت الحُرمة والقداسة عن هذه الفئات التي ترمز للإسلام.

وولّد هذا التطوّر للسّياسي غضبا وحقدا على الدّولة من قبل هذه الفئات التقليديّة. وسيكون هذا السّبب من بين أسباب سقوط الدّولة الأمويّة وانتصار الدّعوة العبّاسيّة.

كما أراد عبيد الله بن زياد أن يركّز الشرعيّة الأمويّة باستئصاله للحسين ولأهل بيته، لكنّه أضعف من هذه الشرعيّة لأنّه سلّط الأضواء على شرعيّته هو المنقوصة (ادّعاء معاوية لزياد العبد). فابن مرجانة أي عبيد الله أصبح ملكا بفضل قتله لابن فاطمة ابنة الرّسول. وقد أعظم القرّاء والصّحابة هذا الانقلاب في الموازين الذي أنشأه معاوية، كما أنشأ الفكرة الأسرويّة. إذ وُضع كلّ من يزيد (السكّير والعربيد بما أنّه قتل الحسين)، وعبيد الله بن زياد في قفص الاتّهام. وبالتّالي طوّرت هذه الشّرعيّة المنقوصة الفتنة الثّانية كأزمة وصراع بين شرعيّات تاريخيّة مختلفة.

وتفجّرت كلّ القوى المعارضة ضدّ الدّولة بعد مقتل الحسين ثمّ بعد موت يزيد لضعف هذه الشرعيّة.

كما أنّ فكرة سيادة العرب لدى الصّحابة هي فكرة سيادة أهل البيت من قريش أي الحسين وآله. فبمقتل الحسين، استعبد العرب بما أنّ عبيد الله بن زياد من أصل عبوديّ فأصبح ملكا للعرب.

فقد ركّز الأمويّون فئة أرستقراطيّة مطيعة لهم أي الأشراف (استعباد شرار النّاس حسب هذا الصحابيّ من أمثال شمر بن ذي الجوشن) وبالتّالي أحيت عادة جاهليّة على حساب أصحاب القدمة والسّابقة.

وتواصل الموكب الاحتفالي بقدوم رأس الحسين، فقد دخل صبيان الحسين وأخواته ونساؤه.

وكانت الرّوايات متناقضة بخصوص تصرّف ابن زياد مع آل الحسين. فروايات تذكر أنّه أساء إليهم، وروايات أخرى تبيّن أنّه أحسن معاملتهم.

فلبست زينب أخت الحسين وابنة فاطمة أسوأ ثيابها، وتنكّرت وأحاطت بها إماؤها[1].

تبدو هذه الرّواية متناقضة مع ما ذُكر في مقتل الحسين من تجريد لنساء وبنات الحسين من ثيابهنّ. كما أنّ التنكّر مأتاه ربّما الخوف من التعرّض للقتل على يد عبيد الله بن زياد.

وسأل الوالي عن هويّة الجالسة ثلاث مرّات لكنّها لم تُجبهُ. فقالت إحدى إمائها بأنّها زينب ابنة فاطمة. فحمد عبيد الله بن زياد الله الذي فضحهم وقتّلهم وكذّب مطالبهم.

فأجابته زينب بأن حمدت الله الذي أكرمهم بحمد وطهّرهم تطهيرا، إنّما يفتضح الفاسق ويكذّب الفاجر.

وسألها عبيد الله بن زياد باستفزاز كيف رأت صنع الله بأهل بيتها؟ وهو يقصد رؤيتها لجثث أهل بيتها المحرومة من الدّفن.

فأجابته زينب بجواب يبرهن على إيمان بالله الذي كتب لهم الموت، لكنّ الله سيحاسب ابن زياد على فعله يوم الحساب. فغضب ابن زياد غضبا شديدًا، وتدخّل أحد أشراف الكوفة ليُنقذ الموقف وهو عمرو بن حريث المخزوميّ.

فذكر له أنّها امرأة، ولا تُؤاخذ المرأة بقولها الفاسد والكثير والمضطرب والأحمق.

فقد أراد عمرو بن حريث أن يصرف الوالي نظره عن زينب بتحقير وضعيّتها كامرأة حتّى لا يقتلها عبيد الله بن زياد.

كما عبّر عمرو بن حريث عن إقصاء للمرأة من الحياة السّياسيّة وتحقير من قدراتها العقليّة.

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٥٧.

ولعلّ أهمّ مثال على إقصاء المرأة من الحياة العامّة، وتحميلها مسؤوليّة الخطأ والذّنب هو مثال عائشة زوجة الرّسول. فقد اعتبرت المسؤولة عن كلّ الانقسامات التي حدثت بعد موت عثمان خاصّة واقعة الجمل. بينما بيّنت الأحداث أنّ الرّجال هم المسؤولون عن التطوّر السّياسي. ونقصد بذلك الأمويّين الذين رشّحهم عثمان عن طريق سياسة الامتياز لاستخلافه في السّلطة [١].

وقال الوالي لزينب أخت الحسين بأنّ الله أشفى نفسه من طاغيتها، والعصاة المردة من أهل بيتها[٢]. أي أنّ الوالي كان منتشيا بانتصاره على الحسين، قائد حركة المعارضة الشّيعيّة والمنظّم لحركة العصيان ضدّ الدّولة.

فالحسين هو شاقّ لعصا الطّاعة، ومفرّق للجماعة.

فلم تتمالك زينب نفسها من البكاء تأثّرا على فقدان أخيها وأهل بيتها وقالت للوالي بأنّه قتل كهلها أي رئيس أهل البيت وهو الحسين، وقطع فرعها واجتثّ أصلها، فإن لم يشفه هذا فقد اشتفى.

ولم يجد الوالي بُدًّا من إكبار شجاعتها وفصاحتها الشّبيهة بشجاعة وفصاحة أبيها عليّ بن أبي طالب.

وهنا عبّر عبيد الله بن زياد عن إعجابه بجرأة زينب وعدم خوفها من عقابه. بينما رأت هي في كلامها نوع من التّرويح عن النّفس لأنّ المرأة ليس من مُميّزاتها الشّجاعة. فهي تكرّس بذلك النّظرة الرّجاليّة للمرأة المطرودة من المجال العامّ والسّياسي والمتميّزة بالضّعف والرقّة والجزع.

يتمثّل الخطاب الإيديولوجي الأموي في توظيف المقدرة الإلهيّة لمصلحة الدولة. فالله هو الذي قتل الحسين وأهل بيته وأصحابه وفضحهم، والفضح هنا يعني فضح المخطّطات. كما أنّ مطالبهم واهية بما أنّ النّاس خذلت الحسين ومسلم بن عقيل، وأعان الدّولة عليهما.

---

(١) لطيفة لخضر، *إمرأة الإجماع*، دار سراس للنشر، تونس، ٢٠٠١، ص٨٠ ـ ٨١.

(٢) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٥٧.

كما يتمثّل خطاب عبيد الله بن زياد في تركيز الطّاعة والحفاظ على وحدة الجماعة. فكان التّقتيل والاستئصال والحرمان من الدّفن جزاء كلّ عاقّ وعاص للدّولة. وقد استحقّ الحسين وأهله وأصحابه ذلك.

وكان عبيد الله بن زياد يتلذّذ بإيذاء زينب حيث ذكّرها بمشاهد جثث أهل بيتها الملقاة في العراء بدون دفن والمقطّعة الأوصال.

بينما أكّدت زينب على مكانة أهل البيت في الضّمير الإسلامي باختيار الله للنبيّ منهم وبتطهيرهم من الرجس.

كما أنّ الله اختار أن يموتوا، كما أعدّ العقاب والقصاص لعبيد الله بن زياد يوم القيامة أو يوم الحساب.

وعبّرت زينب عن تأثّر عميق وحزن كبير للمجهود الذي قام به الوالي لاجتثاث أصلها. فقد فهمت زينب اللّعبة السّياسيّة لعبيد الله بن زياد وهي استئصال أهل البيت، وتصفية حساب لصالح الأمويّين من أعدائهم التقليديّين.

إذ تعود صورة زينب ـ الرّمز بعد مقتل الحسين فتواجه الوالي كممُثّلة لأهل البيت الذي قتّلهم. فتتكلّم في غياب رجال أهل بيتها متحدّية السّلطة و مُمثّلها ابن زياد. وهنا تجدر الإشارة أنّ الوالي لم تحدث له مواجهة مع عدوّه الحسين.

فكانت هذه المواجهة لزينب تعويض عن هذه المواجهة التي لم تتمّ مع أخيها. واقتصّت زينب بلسانها لأهلها.

وتواصل هذا الموكب الاحتفالي في قصر الكوفة وبمجلس الوالي. فقد ذكر أبو مخنف[1] رواية مقتضبة نظر فيها عبيد الله بن زياد إلى عليّ بن الحسين فأمر شرطيّ أن يكشف عليه ويرى إن أدرك ما يُدركُ الرّجال. فنزع عنه الشرطيّ إزاره[2]، وقال نعم للوالي. فأمر بضرب عنقه، فقال له عليّ إن كان بينه وبين هؤلاء النّسوة قرابة أن يبعث معهنّ رجلا يحفظهنّ. فقال له ابن زياد بأنّه سيبعثه هو!

---

(١) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٥٧؛ البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٤١٣.

(٢) ابن منظور، معجم *مذكور*، ج١، ص٥٥: الإزار: «كلّ ما واراك و سترك».

بينما تبدو رواية حُميد بن مسلم أكثر تفصيلاً. فقد ذكر أنّ عبيد الله بن زياد لمّا عُرض عليه عليّ بن الحسين سأله ما اسمه؟ فأجابه بأنّه عليّ بن الحسين.

فقال له عبيد الله بن زياد بأنّ الله قتل عليّ بن الحسين. فسكت، وسأله ابن زياد لماذا لم يتكلّم؟ فأجابه بأنّه كان له أخ فقتله النّاس. فعلّق عبيد الله بن زياد على إجابته وأكّد له أنّ الله قتلهُ. اعتمد الوالي على إيديولوجيا توظيف المقدرة الإلهيّة في قتل عليّ بن الحسين بن عليّ الأكبر لإجابة عليّ بن الحسين الأصغر.

لكنّ هذا الأخير سكت وعندما طلب منه الوالي أن يتكلّم قال ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾[1]، ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[2]. استوحى عليّ بن الحسين خطابه من المعجم القرآني الذي يركّز على المشيئة الإلهيّة في اختيار ساعة الموت. فتعجّب الوالي من كلامه وقال بأنّه منهم أي أنّه من أهل البيت لأنّه يعتمد خطابا دينيّا يهدّم الإيديولوجيا الأمويّة. وطلب من مُرّى بن معاذ الأحمري ـ وهو أحد الشّرط على ما يبدو ـ أن يكشف عنه، ليرى إن أدرك، فوجده قد بلغ.

فأمر عبيد الله بن زياد الشّرطيّ بقتله. فسأله عليّ بن الحسين من يُوكل بتلك النّسوة؟

وشدّته عمّته زينب وقالت لابن زياد أن يتوقّف عن القتل وسألته أما روى من دمائهم وأبقى منهم أحدا على قيد الحياة؟ واعتنقته قائلة إن كان مؤمنا وقتله فليقتلها معه. وناداه عليّ إن كان بينه وبينهم قرابة أن يُرسل معهم رجلا تقيّا وورِعا يصحبُهنّ للخليفة يزيد بن معاوية.

فنظر إليها ابن زياد، والتفت إلى أشراف الكوفة وحاشيته قائلا بأنّ الرّحم عجيب، وأنّ زينب كانت مستعدّة للموت مع عليّ بن الحسين إن قتله هو أي الوالي. وأرسل عبيد الله بن زياد عليّ بن الحسين مع نسائه[3].

---

(١) الزمر٣٩ / ٤٢.

(٢) آل عمران٣ / ٤٥.

(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٥٨.

فقد كان البرنامج السّياسي والإيديولوجي للأمويّن هو استئصال آل الحسين بن علي حتّى لايعيدوا الثّورة وحتّى يقع القضاء على منافستهم الإيديولوجيّة والسّياسيّة. ولم يبق إلاّ عليّ بن الحسين الذي رقّ له ابن زياد بعد أن منعته زينب أخته. وبالتّالي لعبت زينب دورا كبيرا في بقاء آخر غلام ذكر من أهل البيت على قيد الحياة. وهو سيحافظ على شرعيّة أهل البيت، وسيخرج من سلالته زيد بن عليّ بن الحسين بن أبي طالب الذي سيعلن ثورة في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك بالكوفة[١] سنة ١٢٢هـ. وسيؤسّس فرقة تدعى الزّيديّة.

تمكّنت زينب من التّأثير على ابن زياد ومنعه من قتل عليّ بن الحسين. فهذا الأخير هو آخر ما تبقّى لها من ذريّة أخيها وخافت أن تفقده كما فقدت كافّة أهل بيتها.

كما أنّ تغيير ابن زياد لموقفه احتراما لمشيئة زينب بنت عليّ واحتراما للرّحم والقرابة التي تربطها بأخيها، يستدعي للتساؤل. فهل أصبح ابن زياد إنسانيّا بعد أن قتّل أهل البيت ومثّل بجثثهم؟

وتذكر رواية لعوانة بن الحكم الكلبيّ، بأنّ عبيد الله بن زياد حبس نساء وأخوات وصبيان الحسين بن عليّ[٢]. وقد نزل بالسّجن كتاب مربوط وفيه إبلاغ لآل الحسين بأنّه خرج بريد في شأنهم إلى يزيد بن معاوية. وذكر الكتاب أنّ البريد يصل في يوم كذا إلى دمشق، ويرجع في يوم كذا فإن سمعوا التّكبير فإنّهم سيُقتلون، وإن لم يسمعوا شيئًا فهو الأمان.

وقبل يومين أو ثلاث، نزل حجر في السّجن مع كتاب وموسى، ليعلمهم بقدوم البريد يوم كذا. فجاء البريد ولم يسمعوا التّكبير، فتأكّدوا أنّهم نجوا، وأرسلوا للخليفة يزيد بن معاوية.

من كتب هذا الكتاب وألقاهُ في السّجن؟ هل هو أحد الشّيعة الذي يعمل بدواوين

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٢٧ ـ ٤٥١.
(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٦٣.

الوالي؟ وما هي فائدة الموسى؟ هل كان الأسرى موثقين؟ وهل كان كاتب الرّسالة سيساعدهم على الهرب؟ يبرز هذا الخبر تطوّر ديوان البريد في العراق وأساسا بالكوفة.

كما يبدو أنّ الوالي أرسل يستشير الخليفة في أمر الأسرى أيقتلهم أم يسرّحهم له.

وذكرت رواية أخرى أنّ عبيد الله بن زياد عامل معاملة طيّبة نساء وصبيان الحسين «وكان أحسن شيء صنعَه أن أمر لهنّ بمنزل في مكان معتزل، وأجرى عليهنّ رزقًا، وأمر لهنّ بنفقة وكسوة»[1]. وهرب غلامان لعبد الله بن جعفر[2] أو ابن أبي جعفر فلجآ لرجل من طيّء فضرب عنقيهما، وجاء برأسيهما فوضعهما بين يدي ابن زياد. فكاد أن يضرب عنقه، وأمر بداره فهُدمت. ما هو سبب هذا العنف ضدّ أهل البيت من قبل أهل الكوفة؟ هل هو عنف مرتبط بالاضطراب السّياسي الذي أفرزته ثورة مسلم بن عقيل؟ المهمّ أنّ الرّوايات بخصوص معاملة ابن زياد لأهل البيت متناقضة.

وخطب عبيد الله بن زياد خطبته بالمسجد ـ الأعظم بالكوفة، والخطبة هي دائما عمل سياسي وإيديولوجي.

فذكر أنّ الله أظهر الحقّ وأهله، ونصر أمير المؤمنين يزيد بن معاوية وحزبه، وقتل الكذّاب ابن الكذّاب، الحسين بن عليّ وشيعته.

أكّد ابن زياد على إيديولوجيا توظيف المقدرة الإلهيّة بنصرة الخليفة في القضاء على أعدائه. وقوّى الله أيضا في إطار هذه الإيديولوجيا من حزب الخليفة. إنّ ظهور كلمة حزب هو دلالة على انقسام داخل الأمّة وظهور الفتنة حتّى وإن قضى عبيد الله بن زياد على الحسين، ونصره الله في ذلك.

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٩٣؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٢٤.
(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٢٤: أو ابنان.

وعتّم على عليّ الكذّاب والحسين ابنه الكذّاب في إطار شتم عليّ واستنقاصه.

وهبّ عبد الله بن عفيف الأزدي ثمّ الغامديّ ثمّ أحد بني والبة، وكان من شيعة عليّ بن أبي طالب. وقد فقد عينه اليسرى في الجمل وهو يقاتل مع عليّ. وضرب في صفّين على رأسه، ففقد عينه الثّانية. وكان يلازم الجلوس في المسجد الأعظم بالكوفة يصلّي فيه إلى اللّيل[1].

وهبّ عبد الله بن عفيف فنادى ابن زياد بابن مرجانة، وشتمه بأن قال له أنّ الكذّاب ابن الكذّاب هو وأبوه والذي ولاّه أي يزيد وأبوه. كما أنّه نسب إليه قتل أبناء الأنبياء والتكلّم بكلام الصدّيقين.

فأمر ابن زياد الجلاوزة أي الشّرط بالقبض عليه فأمسكوا به، لكنّه نادى بشعار الأزد: يا مبرور.

وكلّمه أحد أشراف الأزد وهو عبد الرحمن بن مخنف الأزديّ[2] الذي كان جالسا فقال له بأنّه أهلك نفسه وقومهُ[3]. ووثب إليه فتية من الأزد ـ وكان عدد الأزد من المقاتلة ٧٠٠ ـ فانتزعوه من الشرطة، وجاؤوا به إلى أهله.

فأمر ابن زياد الأشراف أساسا اليمن أن يأتوه بعبد الله بن عفيف، وطبّق سياسة أبيه في خصوص حجر بن عديّ الكندي عندما بعث أهل اليمن.

وأشار عليه عمرو بن الحجّاج الزّبيدي أن يحبس كلّ من في المسجد من الأزد. فحبسوا وفيهم أحد أشرافهم وهو عبد الرحمن بن مخنف الأزديّ.

لماذا حبس الوالي الأزد في المسجد؟ ربّما حبسهم حتّى لا ينقذوا عبد الله بن عفيف. واقتتل الأزد وأهل اليمن أشدّ قتال، واستبطأ ابن زياد أهل اليمن فأرسل رسولا. وخاطب أهل اليمن الرّسول فذكروا له أنّ الوالي أرسلهم إلى أسود مقاتلين أي الأزد.

---

(١) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٥٨؛ البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٤١٣.

(٢) ابن حزم، *مصدر مذكور*، ص٣٧٧: «عبد الرحمن بن مخنف بن غامد وهم بيت الأزد بالكوفة».

(٣) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٥٩.

وقُتل من الأزد عبيد الله بن حوزة الوالبي[1] ومحمد بن حبيب الكبري[2]. وكثر القتلى بينهم.

وتوجّه اليمنيّون لدار ابن عفيف واقتحموها. وقد حاول ابن عفيف الدّفاع عن نفسه بسيفه، لكنّهم حاصروه وأمسكوا به.

وخرج سفيان بن يزيد بن المغفل ليدافع عن ابن عفيف، فقبضوا عليه. وجاؤوا بهما للوالي الذي قتل ابن عفيف وصلبه بالسّبخة[3].

ووهب ابن زياد سفيان بن يزيد بن المغفل لابن عمّه سفيان بن عوف[4]. وتهدّد جندب بن عبد الله بالقتل[5].

لم يحصل في الكوفة ردّ فعل تجاه مقتل الحسين ما عدا هذه الوثبة لأحد أصحاب عليّ بن أبي طالب.

فكان ردّ الفعل الوحيد تجاه مقتل الحسين هو ردّ فعل عبد الله بن عفيف. فكذّب قول ابن زياد وعارضه واتّهمه بارتكاب جريمة قتل أبناء الأنبياء.

كما أنقص من الشّرعيّة التّاريخيّة للوالي وأبيه زياد. وهنا أصبحت شرعيّة ابن مرجانة تقارن بشرعيّة ابن فاطمة. وأنقص هذا المتشيّع من شرعيّة الخليفة يزيد بن معاوية وأبيه.

كانت هذه التّهم الموجّهة لابن زياد كفيلة باستحقاقه العقاب من قبل السّلطة. وكان الشّرط أو الجلاوزة موجودين بالمسجد الأعظم لتنفيذ عقوبة الوالي. لكنّ عبد الله بن عفيف حرّك العصبيّة القبليّة لعشيرته من الأزد. وقد أحدث ردّ فعل عبد الله بن عفيف مشكلة أو أزمة بين الأزد عشيرة الرّجل المتشيّع والوالي. فقد

---

(١) ابن حزم، مصدر مذكور، ص٣٧٧.

(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤١٤.

(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٥٩.

(٤) ابن حزم، مصدر مذكور، ص٣٧٨: «سفيان بن عوف بن المغفّل بن والبة بن غامد، صاحب الصّوائف إلى أرض الرّوم».

(٥) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤١٤؛ ابن حزم، مصدر مذكور، ص٣٧٨: هو من الشّيعة.

بقيت العصبيّة القبليّة قويّة بالكوفة (أي مناصرة رجل من العشيرة إذا داهمه خطر ما).

لكنّ الوالي تمكّن من التعويل على الأشراف من القبائل اليمنيّة للقضاء على العصبيّة القبليّة للأزد.

برهن عبيد الله بن زياد أنّ الأشراف هم القاعدة الاجتماعيّة لسلطة الدولة. كما أنّه يقضي على كلّ حركات التمرّد بفضل مساعدتهم. فهم يقضون على التّحالفات القبليّة القائمة ضدّ سلطة الدّولة. كما نشب قتال بين الأزد واليمن، قتلت فيه بعض العناصر من الأزد. وكان أهل اليمن يركّزون سلطة الوالي والدّولة.

ويعتبر هذا الصّراع صراعا جديدا أفرزته الفتنة الثّانية بالكوفة بعد القضاء على ثورة الحسين.

وهذا يؤكّد أنّ الكوفة كانت مسرحا للتّوترات السياسيّة طيلة فترة عبيد الله بن زياد. كما اتّبع ابن زياد صرامة العقاب ضدّ عبد الله بن عفيف فقتله ومثّل بجثّته حيث صلبها بالسّبخة[1] حتّى تكون عبرة لمقاتلة الكوفة.

ونصب عبيد الله بن زياد رأس الحسين على خشبة بالكوفة، وكان يُدار به فيها[2].

وكانت هذه المسرحة لعقاب السّلطة الأمويّة للمعارضين، تخويفا لكلّ من تحدّثه نفسه بالثّورة ضدّها. كما أنّ هذه العمليّة هي تركيز للإيديولوجيا الأمويّة.

وتعتبر هذه الظّاهرة ظاهرة جديدة ارتبطت بتطوّر الفتنة وبضرب ابن زياد للمقدّسات والمحرّمات.

فقد أصبح رأس حفيد الرّسول لعبة في يد السّلطة تستعرض به قدراتها على القضاء على حركات المعارضة.

---

(١) هشام جعيط، *نشأة المدينة العربيّة الإسلاميّة الكوفة*، ص٢٣٩ ـ ٢٤٠: السّبخة هي المنطقة الجافّة والمالحة. وهي منطقة قصب رديء يفيض فيه الفرات في شرق الكوفة. عسكر فيها المختار.

(٢) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٤١٥؛ الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٩٤.

ويبدو أنّ عبيد الله بن زياد بعد مقتل الحسين سأل عمر بن سعد عن الكتاب الذي أرسله له يأمره فيه بقتل الحسين[1].

فأجاب عمر بن سعد بأنّه ضاع. فأمره أن يُحضره لهُ، فأجاب عمر بن سعد مرّة أخرى بأنّه ضاع. وأعاد الوالي إلحاحه، فقال عمر بن سعد بأنّه تركها تقرأ على عجائز قريش اعتذارا إليهنّ في المدينة. ولام عمر بن سعد عبيد الله بن زياد على عدم سماعه لنصيحته. وأكّد كلامه عثمان بن زياد أخ عبيد الله الذي تمنّى أن تكون في أنف بني زياد خزامة[2] إلى يوم القيامة ولا يُقتل الحسين.

ولم يُعارض ابن زياد كلامه. وهذا دليل ربّما على ندمه على قتل الحسين.

لماذا طلب عبيد الله بن زياد كتابه الذي أمر فيه بقتل الحسين من عمر بن سعد؟ هل أراد أن يمحو آثار عمله على الأقلّ على مستوى الوثيقة ـ الحجّة المكتوبة؟ أين هو كتاب ابن زياد؟ هل بالفعل ضاع؟

المهمّ أنّ عبيد الله بن زياد ربّما ندم على قتله الحسين لكن بعد فوات الأوان.

وتفقّد عبيد الله بن زياد بعد مقتل الحسين أشراف الكوفة، فلم ير عبيد الله بن الحرّ. وجاءه بعد أيّام فسأله الوالي أين كان؟ فأجابه ابن الحرّ بأنّه كان مريضًا[3].

واتّهمه الوالي بالكذب ومعاونة عدوّه أي الحسين. لكنّ عبيد الله بن الحرّ أجابه بأنّه لو كان مع الحسين لرُئيَ مكانهُ. وغفل عنه ابن زياد فخرج وركب فرسه. فأرسل إليه الشّرط لإحضاره لكنّه قال لهم بأنّه لن يأتي الأمير طائعًا أبدًا.

واجتمع هو وأصحابه بمنزل أحمر بن زياد الطّائي، ثمّ خرج وتوقّف بكربلاء حيث قُتل الحسين وأصحابه. واستغفر لهم هو وأصحابه، ثمّ نزل المدائن.

وأنشد شعرا[4] يتندّم فيه على عدم نصرته للإمام الشّهيد ابن فاطمة ورثاه فيه.

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٦٧.

(٢) ابن منظور، معجم مذكور، ج١، ص٨٢٦: خزم: «خزم الشّيء يَخزمهُ خزما: شكّهُ. والخزامةُ: بُرَةٌ، حلقةٌ تجعل في أحد جانبيْ مَنخري البعير. كان بنو اسرائيل تَخْزم أنوفها ونحو ذلك من أنواع التّعذيب.

(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٦٩.

(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٧٠؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٧، ص٣١.

وهجا الأمير الغادر أي عبيد الله بن زياد.

تعتبر هذه الحركة حركة اجتماعيّة قادها عبيد الله بن الحرّ لكنّها ليست واضحة المعالم حتّى نؤكّد على أنّها حركة شيعيّة أو متعاطفة مع الحسين.

فهي حركة عصيان ضدّ السّلطة الأمويّة لقتل الوالي للحسين بن عليّ لكنّنا لا نستطيع أن نجزم بأنّ هذه الحركة هي حركة أرادت القصاص للحسين لأنّها لم تواجه السّلطة بل هرب ممثّلوها للمدائن.

وجهّز عبيد الله بن زياد نساء الحسين وصبيانه، وأمر بعليّ بن الحسين فغُلّ بغلّ إلى عنقه[1]. وهذا تعبير عن التّحقير وكذلك على وضعيّة آل الحسين، فهم أسرى الوالي والخليفة.

وأرسل معهم الوالي مُحفّز بن ثعلبة العائذيّ، عائذة قريش ومعه شمر بن ذي الجوشن[2].

بينما تذكر رواية أخرى، أنّ الوالي أرسل زحر بن قيس الجعفي (وهو أحد أشراف الكوفة) برأس الحسين وبرؤوس أصحابه وأهل بيته إلى يزيد بن معاوية. وكان مع زحر أبو بردة بن عوف الأزدي، وطارق بن أبي ظبيان الأزدي[3].

ولم يكلّم عليّ بن الحسين أحدا منهما في طريقهم لدمشق. أي أنّ عليّ بن الحسين كان يتحاشى أن يصطدم بقتلة أهل بيته.

المهمّ أنّ عبيد الله بن زياد حقّق انتصارا سياسيّا بقضائه على ثورة الحسين بن عليّ. واستعمل في ذلك القوّة العسكريّة أي قوّة مقاتلة الكوفة واعتمد على الأشراف كقاعدة اجتماعيّة للحكم الأموي.

كما أنّه زاد أهل الكوفة في أعطياتهم لتشجيعهم على قتال الحسين. ولعب الأشراف دور التّعبئة النفسيّة للمقاتلة بالتّرغيب والتّرهيب.

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٦٠؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤١٦.
(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٦٠ ـ ٤٦٣؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤١٦.
(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤١٥.

وأُرسل الرّأس للخليفة يزيد بن معاوية كتتويج لاحتفال سياسي وتأكيد للملك ثنائيّ ومشترك بين الخليفة وواليه على العراق عبيد الله بن زياد مثلما كان الخليفة معاوية بن أبي سفيان يؤكّد الملك هو وواليه على العراق زياد بن أبي سفيان.

ردّ فعل الخليفة يزيد بن معاوية تجاه مقتل الحسين بن عليّ

تبدو الرّوايات المتعلّقة بقدوم رأس الحسين بن عليّ وبناته ونسائه وصبيانه متضاربة.

ذكرت رواية لأبي مخنف أنّ وفد أهل الكوفة قدم دمشق برأس الحسين، فدخلوا المسجد ـ الجامع بدمشق. فسألهم مروان بن الحكم عمّا صنعوا؟ فأجابوه بأنّه قدم من أصحاب الحسين وأهله ١٨ شخصا، فقتلوهم جميعا. و «قدّم» له الرّؤوس والسّبايا.

وقد وثب مروان بن الحكم بعد سماعه لهذا الخبر وذهب بدون أن يعلّق على هذا الخبر. فهل كان مروان معارضا أو موافقا لسياسة الخليفة يزيد بن معاوية؟

وسألهم أخوه يحيى بن الحكم[1] ماذا فعلوا فأعادوا على مسامعه ما ذكروه لمروان. فغضب يحيى بن الحكم غضباً شديدًا وقال لهم «حُجبتم عن محمد يوم القيامة؛ لن أجامعكم على أمر أبدًا»[2].

عبّر يحيى بن الحكم ـ رغم انتمائه للأمويّين ـ على موقف دينيّ تجاه مقتل الحسين. فيزيد ورجاله لن يتلقوا شفاعة النبيّ محمد لقتلهم لحفيده.

كما اتّخذ يحيى بن الحكم موقف مقاطعة يزيد ورجاله لارتكابهم المحرّمات نظرا لاستئصالهم أهل البيت، تبدو هذه الرّواية مستبعدة نوعا ما لأنّ الوفد لا نعتقد أنّه يبدأ بالدّخول للمسجد ـ الجامع بدمشق بل يقصد مباشرة الخليفة يزيد بن معاوية بما أنّه مكلّف بتبليغ رسالة عبيد الله بن زياد للخليفة. فلا نعتقد أنّ هؤلاء

---

(١) مصعب الزّبيري، *مصدر مذكور*، ص١٥٩؛ ابن حزم، *مصدر مذكور*، ص١٠٩.

(٢) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٦٥.

الرّسل يذهبون للمسجد قبل القصر. كما أنّ وجود مروان بن الحكم بدمشق يبدو محيّرا بما أنّ المصادر تذكر أنّه كان بالمدينة عندما أرسل الخليفة رأس الحسين لعمرو بن سعيد بن العاص الأشدق. ويعتبر عدد أصحاب الحسين وأهل بيته غير مطابق للواقع ١٨ شخص.

كما ذكرت المصادر رواية شاميّة للأحداث التي رواها هشام عن عبد الله بن يزيد بن روح بن زنباع الجذامي(١)، أي أحد أشراف الشام بمجلس الخليفة يزيد بن معاوية. فقد ذكر الرّاوي أنّ زحر بن قيس دخل على الخليفة يزيد بن معاوية وقال بأن يبشر بفتح الله ونصره. فقد قدم عليهم الحسين بن عليّ في ١٨ من أهل بيته و٦٠ من شيعته. فتفاوض معهم مقاتلة الكوفة من جيش عمر بن سعد فطلبوا منهم أن يستسلموا وينزلوا على حكم ابن زياد أو القتال.

فاختاروا القتال على الاستسلام. وهاجم مقاتلة الكوفة الحسين ورجاله مع شروق الشمس، وأحاطوا بهم من كلّ جانب، وأعملوا فيهم السّيوف، ففرّوا منهم «كما تفرّ الحمائم من الصّقر».

فقد عبّر زحر بن قيس عن تفوّق عسكري أموي لمقاتلة الكوفة على حساب الحسين وجماعته. ثمّ أضاف أنّ المعركة لم تدم طويلا حيث شبّه قِصَر المعركة بـ«نومة قائل»، فأبادوهم. وتركوا أجسادهم مجرّدة وثيابهم ملطّخة بالدّماء عرضة للفح الشّمس وعمل الرّياح.

يقدّم زحر بن قيس الجعفي ـ رسول عبيد الله بن زياد للخليفة يزيد بن معاوية ـ «تقريرًا» شفويّا مفصّلا عن واقعة كربلاء. فذكر له نتائج المفاوضات بين جيش عمر بن سعد والحسين وأصحابه. ثمّ انتقل إلى ذكر تطوّرات معركة كربلاء ابتداء بتوقيت نشوب القتال مرورا بنتائج المعركة: أي الإبادة والتّمثيل بالجثث ومعاقبتها بتركها في العراء بدون دفن.

---

(١) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٥٩؛ ابن حزم، *مصدر مذكور*، ص٤٢٠: «من بني حرام بن جُذام: غَطفان، وأفصَى، بطنان ضخمان، فيهما بيت جذام وعدَدها. فمن بني أفْصَى: روح بن زنباع بن روح». وكان روح بن زنباع أحد أشراف الشّام، ومن المقرّبين للخليفة عبد الملك بن مروان.

بينما تذكر الرّواية الثّانية أنّ الرّسل أي ابن محفّز وشمر بن ذي الجوشن، لمّا وصلوا باب الخليفة نادى ابن محفّز بأعلى صوته، فعرّف بنفسه وقال بأنّه أتى الخليفة برؤوس «اللّئام الفجرة». فأجابه الخليفة بأنّ أمّ محفّز ما ولدت ألأم وأفجر وأحمق[1].

يبدو أنّ ابن محفّزعبّر عن نظرة أهل الكوفة لأهل البيت وللحسين. فهم معارضون للدّولة استحقّوا القتل، وكانت تسند إليهم صفات أخلاقيّة كاللّؤم والفجور.

وكان قدوم الرّأس ـ رأس الحسين ـ ورؤوس أهل البيت عبارة عن موكب احتفالي في الخضراء ببلاط الخليفة يزيد بن معاوية.

فاجتمع من كان بحضرته من أهل بيته وأصحابه[2] وأهل الشّام ـ أساسا الأشراف ـ ودخلوا عليه، وهنّأوه بالفتح، وجلسوا حوله[3]. يُعتبرُ أشراف الشّام القاعدة الاجتماعيّة والسياسيّة للدّولة الأمويّة بما أنّهم كانوا يدعّمون الخليفة في كلّ قراراته.

كما أنّ الوعي بمكانة أهل البيت لم يكن موجودا أو أنّ التّعتيم على عليّ بن أبي طالب وعلى ذكرى الرّسول كان متغلغلاً أكثر من الولايات الأخرى.

وضع الرّأس بين يدي الخليفة يزيد فتمثّل ببيت للحصين بن حمام المرّي[4]:

يـفـلـقـن هـامًـا مـن رجـالٍ أعـزّةٍ علينا وهـم كـانوا أعقَّ وأظلَماَ[5]

عبّر يزيد بن معاوية بهذا البيت عن صلة القرابة والرّحم التي قطعها الحسين بعقوقه وظلمه وعصيانه وشقّه لعصا الطّاعة.

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٦٠ ـ ٤٦٣؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤١٦.
(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٦٠.
(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٩٠ ـ ٤٦١.
(٤) ابن حزم، مصدر مذكور، ص٢٥٤ «هو الحُصَيْن بن الحُمام بن ربيعة بن مُساب بن حَرَام بن وائلة بن سَهم بن مُرّة».
(٥) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٦٣ ـ ٤٦٥؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤١٥ ـ ٤١٦.

كما أنّه ذكر سبب استحقاق الحسين لهذا المصير وهو تكبّره واعتدادهُ بانتمائه لأهل البيت. فهو (أي الحسين) يقول بأنّ أباه خير من أب يزيد. ويحاجج يزيد الرّأس (رأس الحسين المحتزّ) بأنّ النّاس علموا بأنّ معاوية انتصر على أبيه. ويردّ يزيد على قول الحسين بأنّ أمّه فاطمة خير من أمّه، فيقول يزيد بأنّ هذا صحيح ففاطمة ابنة رسول الله خير من أمّه. كما أنّ قول الحسين بأنّ جدّه أحسن من جدّه، فهذا صحيح.

ويرى يزيد بن معاوية أنّ من يؤمن بالله واليوم الآخر يعرف مكانة الرّسول لكنّ الحسين رغم فقهه لم يقرأ:

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾[١].

كان الحسين يفخر على يزيد بانتمائه لأهل البيت. ووراء هذا الاعتداد بالنّفس يختفي الطّموح السّياسي للحسين ورفضه البيعة ليزيد وبالتّالي تقويضه للإيديولوجيا والشرعيّة الأمويّة وأساسا شرعيّة يزيد التّاريخيّة.

فالمشكلة الأساسيّة التي أدّت لمقتل الحسين هي رفضه الاعتراف ليزيد بالبيعة[٢].

يقدّم يزيد بن معاوية قتل الحسين كنتيجة لمنافسته له على السّلطة والحكم، وتهديده لملكه. فقد أسّس معاوية الدولة الأمويّة، وهي دولة ملكيّة قائمة بمؤسّساتها وإيديولوجيّتها خاصّة إيديولوجيا توظيف المقدرة الإلهيّة.

اعتمد يزيد بن معاوية على توظيف المقدرة الإلهيّة كعنصر إيديولوجي هامّ ليعطي لنفسه شرعيّة تاريخيّة على حساب شرعيّة الحسين.

---

(١) آل عمران ٣/ ٢٦.

(٢) رضا بوقرّة، *الحركات الشّيعيّة في القرنين الأوّل والثّاني تحليل سياسي ـ ديني*، شهادة التعمّق في البحث تحت إشراف الدكتور هشام جعيط، جامعة تونس الأولى كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة والاجتماعية، تونس ١٩٩٢، ص٧٣.

كما أكّد يزيد بن معاوية هذا الخطاب الإيديولوجي عن مقتل الحسين بقوله: «قضى الله أمرا كان مفعولا»[1].

فقد اعتمد الخليفة يزيد بن معاوية على توظيف المقدرة الإلهيّة كعنصر هامّ من عناصر الإيديولوجيا الأمويّة.

وهو بذلك يتنصّل من مسؤوليّة قتل الحسين بما أنّ الله هو الذي اختار أن يقتل الحسين. وحدّث مولىً لمعاوية بن أبي سُفيان بأن يزيد لمّا أُتي له برأس الحسين، ووُضع بين يديه بكى[2].

كما قال أيضا: «لعن الله ابن سميّة، أما والله لو كنت أنا صاحبه لعفوت عنه، رحم الله الحسين فقد قتله رجل قطع الرّحم بينه وبينه قطعاً»[3].

وتبرز المصادر وجها آخر ليزيد وهو يزيد ـ الإنسان وابن عمّ الحسين. بينما كان ردّ فعله في البداية ردّ فعل رجل الدّولة والسّياسي والمَلِك الذي يتعامل مع الواقع التّاريخي والسّياسي بكلّ عقلانيّة وبرودة أعصاب وبالتّالي بدون عواطف.

إذ تأثّر يزيد بن معاوية بمقتل الحسين حيث سالت دموعه تأثّرا لرؤية الرّأس، وترحّم عليه. كما أنّه لعن عبيد الله بن زياد لقتله الحسين. كما أنّ ذكره لقطع عبيد الله الرّحم بينه وبين الحسين هو تأكيد غير مباشر على استلحاق زياد بنسب معاوية. فقرابة عبيد الله بالحسين اصطناعيّة، وعلى هذا الأساس تمكّن من قتله بكلّ برودة.

لكنّ عمر بن سعد كان ابن صحابيّ من أهمّ الصّحابة، وهو قرشي ومع ذلك قطع الرّحم بينه وبين الحسين للمحافظة على امتيازاته داخل الدّولة.

كما أنّ الخليفة يزيد بن معاوية تنصّل من مسؤوليّة قتل الحسين، ربّما لهول ما رآه أي رأس الحسين المحتزّ بكلّ ما يمثّله الحسين من رمزيّة. فقد حمّل عبيد الله بن زياد مسؤوليّة قتل الحسين بينما هو شريك له في القتل بما أنّه أعطاه إشارة

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤١٩.

(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٩٣.

(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤١٥؛ الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٦٠.

الانطلاق لاستعمال القوّة المبرمة. وتبدو إمكانيّة عفو الخليفة على الحسين مستبعدة. فكان تكليفه لعبيد الله بن زياد بالقتل وسيلة للتخلّص من مسؤوليّة القتل نظرا لحرمة الحسين (فهو حفيد الرّسول) ولقرابته من يزيد (فهو ابن عمّه).

فهل أحسّ الخليفة بتبكيت الضّمير، فأراد أن يخرج نفسه من اللّعبة السياسيّة؟ ولم يكافأ يزيد زحر بن قيس على قدومه برأس الحسين[١] إعظاما لهذا القتل!

وأضاف الخليفة يزيد بن معاوية بأنّه كان يرضى بطاعة مقاتلة الكوفة بدون قتل الحسين[٢]. ويبدو هذا القول غير صحيح وغير مطابقا للواقع السّياسي. فالدّولة لن تركّز إلاّ بفرض الطّاعة كعنصر أساسي من عناصر الإيديولوجيا الأمويّة.

وكان لا بدّ من قتل الحسين لتأكيد الملك ليزيد لأنّه رفض أن يبايع له أي أنّ بيعة يزيد بقيت منقوصة.

ونكث يزيد بن معاوية ثغر الحسين بن عليّ بالقضيب[٣]. فكلّمه أحد صحابة الرّسول وهو أبو برزة الأسلميّ[٤]، فأعظم أن يعبث يزيد بثغر الحسين ويُمثّل به بقضيبه، وقد رأى رسول الله يرشفه[٥]. كما أضاف الصحابيّ ليزيد بأنّ يوم القيامة يجيء يزيد وشفيعه ابن زياد، ويجيء الحسين وشفيعه محمد.

تكتسي هذه العمليّة طابعا ملكيّا بما أنّ القضيب هو رمز الملك الذي تغلّب على حفيد الرّسول وقتله لعدم مبايعته له. كما أنّه أعاد نفس العمليّة التي قام بها عبيد الله بن زياد في قصر الكوفة. وهذه الرّواية يطغى عليها جانب التّعتيم على الأمويّن الذي تكفّلت به الشّيعة في القرن الثّاني أساسا.

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٦٠.

(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٦٠؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤١٩.

(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤١٦؛ الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٦٥.

(٤) ابن سعد، مصدر مذكور، ج٧، ص٦: هو نضلة بن عبيد بن الحارث بن جيال بن ربيعة بن دِعبل بن أنس بن خزيمة بن مالك بن سلامان بن أسلم بن أفصى. وأسلم أبو برزة قديما و شهد معه غزو مكّة والمغازي الأخرى. وبعد أن قبض الرّسول، انتقل إلى البصرة عندما مصّرت واستقرّ بها. غزا خراسان فمات بمرو.

(٥) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٦٥؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤١٦.

كما أنّ يزيد كان يُمثّل نوعا ما برأس الحسين، وهو استخفاف بقيمة الحسين ودلالة على انتصار الخليفة عليه.

وأعيد على مسامعه نفس اللّوم الذي ذُكر لوالي العراق من قبل صحابيّ أي من فئة لديها طابع ميتا ـ تاريخي مرتبط بالرّسول. وتبدو هذه الفئة مغيّبة كما غُيّب الرّسول وعُتّم على ذكراهُ.

فقد بيّن هذا الصحابيّ ليزيد أنّه قتل واعتدى على حفيد الرّسول الذي سيقتصّ منه يوم القيامة الرّسول نفسه. فالنبيّ جدّ الحسين سيكون شفيعا له ضدّ يزيد وشفيعه ابن زياد. على هذا الأساس، يبدو يزيد خاسرا وضالاّ وخفيف الموازين حسب هذا الصّحابيّ لأنّه كان دنيويّا إلى أبعد حدّ. فهو لم ينشغل بالجانب الدّيني والماورائي بل كان يركّز الملك و الدّولة.

وحدث ردّ فعل على قتل الحسين في مجلس يزيد من قبل أحد الأمويّن وهو يحيى بن الحكم أخو مروان بن الحكم[١] الذي أنشد شعرا بخصوص قتل الحسين. كما ينسب الشّعر إلى عبد الرحمن بن الحكم أخو مروان بن الحكم[٢]:

لـهـامٌ بـجَـنْـبِ الـطَّـفِّ أدنـى قـرابـةً ... من ابن زيادِ العبْدِ ذي الحَسب الوغْل

سُميَّةُ أمسى نَسْلها عدد الحصى ... وبـنـتُ رسـولِ الله لـيْـسَ لـهـا نَـسْـل

وبعد أن أنشد يحيى بن الحكم أو عبد الرحمن بن الحكم هذا الشّعر ضربه يزيد على صدره وقال له بأن يسكت[٣].

فضح يحيى بن الحكم عمليّة الاستئصال التي قام بها ابن زياد على حساب أهل البيت.

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٦٠.
(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٢١.
(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٦١؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤١٩.

فأصبح نسل ابن سميّة كثير العدد بالمقارنة مع ابن بنت الرّسول. وهنا يُعرّض يحيى بن الحكم بانقلاب القيم فقد تغلّب السّياسي على الدّيني.

وكره الخليفة أن يفضح هذا الأموي سياسة الخليفة وواليه على العراق. كما كره الخليفة أن يشتم قريبه ابن زياد الذي استلحق معاوية أبوه زياد بالنّسب الأموي بينما أصله عبد.

ثمّ أدخل نساء الحسين وصبيانه على يزيد فأجلسوا بين يديه، «فرأى هيئة قبيحة»[1]. والمقصود بالهيئة القبيحة تجريد مقاتلة الكوفة لهم من لباسهم. فشتم ابن مرجانة الذي إن كان بينه وبينهم رحم أو قرابة لم يفعل بهم مثل هذا ولم يبعثهم في تلك الحالة.

وكلّم الخليفة يزيد بن معاوية عليّ بن الحسين بن عليّ الأصغر الذي استُصغر فلم يُقتل من قبل جيش عمر بن سعد.

فقال له بأنّ أباه قطع رحمه، وجهل حقّه، ونازعهُ سلطانه، فصنع به الله ما رأى. فالخليفة يبسط المشكلة على أساس سياسيّ فالحسين أراد افتكاك سلطة يزيد. كما أنّه يوظّف المقدرة الإلهيّة كعنصر من عناصر الإيديولوجيا الأمويّة.

فأجابهُ عليّ بن الحسين معتمدا القرآن ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾[2].

اعتمد عليّ مثل أبيه الحسين على القرآن ـ الكتاب ـ الرّمز ليعبّر عن روح دينيّة عالية وإيمان بالمشيئة الإلهيّة. كما بيّن ليزيد بأنّ الله لا يُحبّ الفخر والكبرياء. وهو بدون شكّ تعريض بملك يزيد وقتله للحسين في سبيل ذلك الملك. فطلب يزيد من ابنه خالد أن يُجيبه، لكنّه لم يعرف كيف يُجيبه.

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٦١.

(٢) الحديد٥٧/ ٢٢ ـ ٢٣؛ الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٦١ ـ ٤٦٤؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤١٩.

فردّ عليه يزيد: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾[1].

وظّف الخليفة يزيد بن معاوية المقدرة الإلهيّة والقرآن للردّ على عليّ بن الحسين ودحض أقواله. فالحسين وأهل البيت مسؤولون عمّا لحقهم من الاستئصال لتطاولهم على الخلافة الأمويّة وإرادة الحسين انتزاع السّلطة من يدي يزيد.

كما أنّ هذا الأخير حاول أن يضع ابنه خالد[2] في منافسة مع عليّ مثل ما حصل له مع الحسين. وبرهن عليّ بن الحسين على انتمائه لأهل البيت باعتماده على الكتاب كمصدر أساسي لشرعيّة أهل البيت إضافة لانحدارهم من الرّسول.

وتلطّف يزيد مع نساء الحسين وبناته حسب رواية شاهدة عيان وهي فاطمة بنت عليّ[3]. لكنّ رجلا من أهل الشّام طلب من يزيد أن يهب له فاطمة بنت الحسين. فخافت فاطمة وكانت تتصوّر لصغر سنّها، أنّ ذلك جائز لهم.

فهبّت زينب ـ أختها الكبرى ـ للدّفاع عنها، فأجابته زينب بأنّه كذب ولؤم لأنّ ذلك ليس للرّجل ولا للخليفة. فغضب يزيد وقال لها بأنّها كذبت لأنّ ذلك له وإن شاء لفعل.

فأجابته بأنّ الله لم يجعل له ذلك إلاّ أن يخرج من ملّتهم ويدين بغير دينهم. فغضب يزيد، وأجابها بأنّ من خرج عن الدّين أبوها أي عليّ بن أبي طالب وأخوها أي الحسين. فردّت عليه زينب بأنّه بدين أبيها وأخيها وجدّها اهتدى هو وأبوه وجدّه[4].

ولم يتمكّن يزيد من تمالك أعصابه فغضب وأجابها بأنّها كذبت ووصفها بعدوّة

---

(١) الشورى٤٢/ ٣٠.

(٢) مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص١٢٩: أمّ خالد ومعاوية هي أمّ هاشم بنت أبي هاشم بن عُتبة بن ربيعة.

(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٦١؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤١٦ ـ ٤١٧: بينما يذكر البلاذري رواية شاميّة لابن برد الأنطاكي عن أبيه الذي كان من حاشية يزيد.

(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٦٢.

الله. فأجابته زينب بأنّه أمير مسلّط، وظالم، ويقهر بسلطانه. فاستحيا يزيد وسكت.

وعندما طلب منه الشاميّ من جديد أن يهب له فاطمة ابنة عليّ نهره الخليفة بعنف.

تبدو نساء الحسين من خلال هذا الخبر في وضعيّة تحقير و «سبي»، بما أنّ أحد رجال الشّام من حاشية الخليفة يزيد بن معاوية، أراد أن يهبها له.

ويبدو أنّ أهل الشّام من رجال يزيد لا يحترمون عترة الرّسول، وحاولوا هتك حرمتهم مثل ما هتكها ابن زياد.

وتقف زينب بنت فاطمة بنت الرّسول وجها لوجه مع الخليفة يزيد بن معاوية، لتدافع عن حرمة أهل البيت، فتواجهه مواجهة فرد من أهل البيت في غياب الحسين المقتول. فتتحدّاه وتتحدّى سلطته، وتعتبر أنّ أهل البيت لديهم منزلة تُخرجهم من دائرة سلطانه. بينما تمسّك يزيد بحقّه في التصرّف والتحكّم فيهم أي ما تبقّى من عترة الرّسول (النّساء والصّبيان) بما أنّهم أفراد من الأمّة الخاضعة له كخليفة.

وبيّن يزيد بأنّه بإمكانه أن يسترقّ عترة الرّسول من باب البطش والملك على الطّراز البيزنطي والسّاساني. كما أنّ هذا التحكّم يدخل في إطار الطّاعة كعنصر من عناصر الإيديولوجيا الأمويّة.

وقد رأت زينب أنّ هذا البطش هو خروج عن ملّة الرّسول وبالتّالي تشبّه بأخلاق الكفّار. فهي بذلك تجعل الخليفة يزيد بن معاوية والأمويّن خارجين عن الإسلام وعن المبادئ الدّينيّة بينما يمثّل أهل البيت الإسلام لصلتهم بالرّسول.

وهذا الخطاب هو تكريس للفتنة التي تقسّم الأمّة إلى قسمين: قسم مؤمن وقسم كافر. وواجهها الخليفة يزيد بن معاوية بالخطاب الإيديولوجي الأموي الذي يعتّم على عليّ بن أبي طالب ويشتمه على المنابر ليُركّز الشرعيّة الأمويّة. كما عتّم يزيد على الحسين لتركيز هذه الشرعيّة الأمويّة.

واعتبر الخليفة يزيد بن معاوية عليّ والحسين خارجان عن الدّين. والدّين هنا هو الخضوع للأمويّين.

فقد قاوم معاوية عليّا بإيديولوجيا القصاص للخليفة المظلوم عثمان أنّه اعتبره قاتله. وحارب الخليفة يزيد بن معاوية الحسين بإيديولوجيا الطّاعة وفرض البيعة. وقُتل الحسين لأنّه مرق عن الدّين، فالدّين واحد والأمّة واحدة والحسين أراد أن يفرّقها حسب نظرة يزيد.

ضربت زينب الشرعيّة الأمويّة الهشّة، فذكّرت يزيد أنّ جدّه أبو سفيان بن حرب وأبوه معاوية دخلا الإسلام بفضل دين أبيها وأخيها وجدّها. على هذا الأساس، يعتبر الأمويّون من الطّلقاء. فتصبح مقارنتهم بأهل البيت غير ممكنة ومستحيلة لأنهم يبدون «خفيفي الموازين» بالمقارنة مع أهل البيت أي على مستوى السّابقة والقدمة والقرابة من الرّسول. لكنّ التطوّر السّياسي في الإسلام جعل من الأمويّين، زعماء المقاومة المكيّة للرّسول بالأمس، ملوكا اليوم.

وتمكّنت زينب من دفع يزيد للخروج عن حلمه في مواجهة امرأة أصبحت رمزا لأعدائه المقتولين. فقد «نفخوا من روحهم» فيها لتدافع عنهم وعن حقوقهم.

يظهر يزيد بمظهر الملك المتجبّر الذي يُدافع عن سلطانه بمواجهة زينب ابنة عليّ وأخت الحسين.

فكانت هذه المواجهة فرصة للانتقام لذكرى معاوية وتثبيت سلطانه تجاه أعدائه التّقليديّين. وقد انتصرت عليه زينب حين ذ كّرته بشرعيّته المنقوصة، وبتسلّطه على أهل البيت وظلمه لهم. فأجبر على السكوت وكظم غيظه على الطّريقة السّفيانيّة.

تبدو زينب رمزا لأهل البيت خاصّة بعد موت الحسين بما أنّها بنت فاطمة بنت الرّسول. فقد تسلّمت قيادة أهل البيت المعنويّة والسياسيّة بعد استئصال الرّجال. فكانت تُدافع عنهم تجاه السّلطة الأمويّة أي سلطة عبيد الله بن زياد وسلطة يزيد. فقد نجا عليّ بن الحسين من القتل بسبب تدخّلها لفائدته (فقد منعت ابن زياد من قتله).

ودافعت عن فاطمة أختها من تهجّم أحد رجال الشّام عليها ومن سلطة الخليفة.

ناقشت زينب الخليفة ـ رغم أنّها امرأة لكنّها امرأة من عترة الرّسول ـ فبيّنت أنّها بإمكانها أن تكسّر سلطة يزيد وتهدّدها بالكلمة.

كما قالت فاطمة بنت الحسين، وكانت أكبر من سكينة: «أبنات رسول الله سبايا يا يزيد!»، فأجابها يزيد بأنّه كان كارهًا لذلك. واشتكت فاطمة من سلبهنّ من قبل مقاتلة الكوفة، فلم يُترك لهنّ خُرصٌ. فوعد يزيد بن معاوية بتعويضهنّ تعويضًا هامًا[1].

تطرح فاطمة بنت الحسين إشكاليّة نساء أهل البيت. فقد تحوّلت وضعيّتهنّ بعد تقتيل الحسين إلى سبايا حرب وهذا المعطى هو معطى جديد دينيًا وانتروبولوجيًا وسياسيًا وعسكريًا واجتماعيًا. فالدّولة تقتل رجال أهل البيت المعارضين لسلطتها وتسبي النّساء تحقيرا لهنّ مثلما يُفعل بنساء الكفّار في الجهاد. كما أنّهنّ سلبن كما تسلب نساء الكفّار من متاعهنّ (لباس ومصوغ).

وقد تنصّل يزيد كالعادة من المسؤوليّة وحاول أن يتدارك الأمر أي يتجاوز الأخطاء التي ارتكبها جيش عمر بن سعد بإرجاع بعض الحقوق لنساء الحسين كإغداق الهدايا عليهنّ لتعويضهنّ ما سُلب منهُنّ.

لكنْ هل يكفي هذا لمسح ذكرى تقتيل رئيس أهل البيت أي الحسين وأهله من الرّجال الذّكور وأصحابه؟ وهل يكفي هذا لنسيان منظر جثث أحبّتهنّ مقطّعة ومحرومة من الدّفن في العراء؟

وكان يزيد طيلة المدّة التي بقي فيها آل الحسين بدمشق، لا يتغدّى أو يتعشّى إلاّ وعليّ بن الحسين معه[2]. فهل أراد يزيد أن يصل رحم الحسين لأنّه قطع رحم أباه الحسين وأهل بيته؟ وأقعد يزيد في حجره عمر بن الحسن بن عليّ وهو غلام صغير

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٦٤.

(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٦٢.

فقال له هل يقاتل ابنه خالد بن يزيد. فأجاب عمر بن الحسن بأن يعطيه سكّينا ويعطي لابنه سكّينا. ويدعهما يتخاصمان[1]. وضمّه يزيد وقال: «(شِنْشِنَةٌ أعْرفُها من أخْزَم[2]) هل تلد الحيّةُ إلاّ حيّة!».

لماذا حرص الخليفة يزيد بن معاوية على بثّ الشّقاق بين ابنه وابن الحسن بن عليّ بينما هما غلامين؟

كما أنّ المثل الذي ذكره الخليفة هو للتّذكير بأنّ الحسين كان عاقّا وظالما وعاصيا وترك بعد موته من هو مثله في عقوقه.

وكان الاستئصال الذي نظّمه عبيد الله بن زياد وسيلة للقضاء على خطر آل البيت. فتقتيلهم عن آخرهم يقضي على طموحاتهم السياسيّة التي تهدّد الدّولة الأمويّة. ورغم هذه الاحتياطات، فقد بقي عليّ بن الحسين الأصغر على قيد الحياة وهو الملقّب بزين العابدين[3].

وستكون ذريّته مسؤولة عن الثّورات الشيعيّة في فترة الخليفة هشام بن عبد الملك.

وأمر الخليفة يزيد بن معاوية النّعمان بن بشير الأنصاري[4] أن يُجهّزهم، ويبعث معهم رجلا من أهل الشام أمينا صالحا. ويكون معه خيل وأعوان إلى أن يوصلهم إلى المدينة.

يبدو أنّ الخليفة يزيد بن معاوية كلّف أحد الأنصار المعروفين بورعهم وتقواهم بل وكذلك بعثمانيّته أو ميوله العثمانيّة لتجهيز نساء وصبيان أهل البيت. كما أنّه حرص على اختيار رجل ذو أخلاق لمصاحبة هاته النّسوة.

---

(١) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص١٤٦٢ البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٤٠١.

(٢) القول لأبي أخزم الطّائيّ. وكان لهُ ابن يقال له أخزم وكان هذا عاقّا فمات وترك بنين. فوثبوا يَوْمًا على جدّهم أبي أخزم فأدموه. فتمثّل بهذا المثل. يعني أنّ هؤلاء أشبهوا أباهم في العقوق. الشّنشنة العادة والطّبيعة.

(٣) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٦١.

(٤) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٦٢.

كما يبدو أنّ النّعمان بن بشير كان مقيما بدمشق. وهذا الموقف من يزيد هو موقف ابن العمّ لبنات عمّه، ويتناقض مع القتل والاستئصال الذي اتّبعه عبيد الله بن زياد ومن ورائه يزيد مع الحسين وأهل بيته وأصحابه من الرّجال.

كما أمر أن تنزل النسوة في دار مستقلّة ومعهنّ أخوهنّ عليّ بن الحسين. ووفّر لهنّ ما تحتجن إليه.

وسمح الخليفة يزيد بن معاوية لنسائه بإقامة المأتم [1] على ابن عمّه الحسين الذي قتله عامله على العراق، والذي أمره هو أن يقتله. فقد أعطى إشارة الانطلاق لزوجته هند بنت عبد الله بن عامر بن كُريز[2]، وعلى الأرجح أمّ كلثوم بنت عبد الله بن عامر بن كريز لتنوح وتحدّ على الحسين ابن بنت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وصريحة قريش»[3].

فيظهر لأوّل مرّة في تاريخ العرب وفي تاريخ الإسلام حداد من نوع خاصّ لأنّ من أمر بالحداد هو القاتل نفسه!

فقد رجع الخليفة يزيد بن معاوية إلى احترام أهل البيت والرّحم وصلة القرابة.

فكانت لحظة القتل لحظة تأكيد للملك وكأنّ هذه اللّحظة خارجة عن نطاق الزّمن والتّأريخ. ثمّ يعود من جديد الاعتراف بالمقدّسات والحرمات (قرابة الحسين من الرّسول). ويعود كذلك العامل الانتروبولوجي (القرابة والرّحم) للظهور من جديد وبقوّة.

وتواصل المأتم والمناحة على الحسين ثلاثة أيّام[4] في الخضراء ـ قصر الملك الأموي ـ، على الطّراز الجاهلي لأنّ الإسلام حرّم البكاء على الميّت.

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤١٧.

(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٦٥؛ مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص١٢٨ ـ ١٢٩: هناك خلط في الطّبري بين هند ابنة معاوية التي تزوّجها عبد الله بن عامر بن كريز وأمّ كلثوم بنت عبد الله بن عامر التي تزوّجها يزيد بن معاوية؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٩، ص٣٦١؛ الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٥٠٠؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٠١.

(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٦٥؛ ابن منظور، معجم مذكور، ج٢، ص٤٢٥.

(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٦٢؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤١٧.

وقامت نساء آل معاوية أي نساء يزيد وبنات معاوية وأهله[1] بواجب الاحترام لعترة الرّسول بواجب القرابة والرّحم.

وأرسل يزيد برأس الحسين إلى نسائه، فأخذته عاتكة ابنته وهي أمّ يزيد بن عبد الملك[2]. فغسلته ودهنته وطيّبته. وعندما سألها يزيد عن سبب هذا التصرّف، أجابته بأنّه أرسل رأس ابن عمّها شعثا فلممته وطيبته.

فقد قامت عاتكة بنوع من التّكفين لرأس الحسين بينما حرمه منه عمر بن سعد وعبيد الله بن زياد. كما أنّها حفظت القرابة والرّحم بهذا التّكفين.

تلعب عاتكة ابنة يزيد دورا رمزيّا، فيزيد ذهب ملكه أساسا من جرّاء مقتل الحسين بن عليّ. واندثر كذلك حكم السفيانيّين. ويبدو أنّ عاتكة وهي الزّوجة المفضّلة لدى الخليفة عبد الملك بن مروان وابنة يزيد بن معاوية ستُجدّد ذكرى السفيانيّين بتولّي ابنها يزيد بن عبد الملك المُلك.

وأهدى يزيد كلّ امرأة ضعف ما أخذ منها[3] من مصوغ وغيره من الأشياء التي أُخذت منها كما كساهنّ[4]. وهذا ما دفع بسكينة ابنة الحسين للقول بأنّها «ما رأت رجلا كافرا بالله مثل يزيد بن معاوية»[5].

يبدو هذا التصرّف من قبل يزيد بن معاوية غريبا وجديدا من نوعه. فهو قد قطع الرّحم بقتله للحسين واستئصاله لأهل بيته من ناحية. ومن ناحية أخرى، وصل رحم نسائه وأكرمهن. على هذا الأساس، مثّل يزيد نمطا جديدا من «الكفر بالله» أي قتل الحسين وهو الجانب السّياسي الذي يؤكّد الملك. وفي نفس الوقت، حرص على صلة الرّحم تجاه نسائه، فأكّد مبدأ انتروبولوجيّا ضاربا في القدم.

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٦٢ ـ ٤٦٤؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤١٧ ـ ٤١٩.

(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤١٦؛ مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص١٢٩: وأمّها أمّ كلثوم بنت عبد الله بن عامر بن كريز؛ ابن سعد، مصدر مذكور، ج٥، ص١٧٣.

(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤١٦ ـ ٤١٧؛ الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٦٤.

(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٦٢.

(٥) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٦٤.

وعندما استعدّ آل الحسين للرّحيل إلى المدينة، دعا يزيد عليّا بن الحسين[١] ولعن ابن مرجانة، وقال له لو أنّه صاحبه لأجاب الحسين لكلّ ما يطلبه، ولدفع عنه الموت بكلّ ما استطاع ولو بهلاك أحد ولده. لكنّ الله قضى بذلك.

يبدو يزيد كأنّه يعتذر لعليّ بن الحسين من مقتل أبيه، وهو يدافع عن نفسه بتحميل المسؤوليّة لعبيد الله بن زياد.

فيظهر ابن زياد بمظهر المنفّذ لسياسة الدّولة أي الخليفة ثمّ يحمّل وحده المسؤوليّة (أي مسؤوليّة القتل). كما كان الخليفة يستند دائما على توظيف المقدرة الإلهيّة كإيديولوجيا.

لماذا حاول يزيد التنصّل من مسؤوليّة قتل الحسين أمام ابنه عليّ؟ لماذا كان يُبرّر موقفه بينما هو المسؤول الأساسي على القتل حتّى يتأكّد له الملك؟

وقد سأل الخليفة يزيد بن معاوية عليّ بن الحسين إن كان يُريد البقاء في دمشق، فهو سيبرّه ويصله. كما طلب منه أن يكاتبه ويطلب منه ما يشاء[٢].

لكنّه اختار أن يذهب للمدينة فأكرمه بمنحه مالاً وأرسله مع بنات الحسين ونسائه للمدينة[٣] وأرسل يزيد بن معاوية معهم رسول وأوصاه بهم. فكان يرفق بهم طوال مدّة السّفر إلى أن وصلوا إلى المدينة.

وعندما أرادت فاطمة وزينب ابنتا عليّ أن تكافئاه على صنيعه معهنّ (جمعت كلّ منهما مصوغها) وأعطته له. لكنّه رفض على أساس أنّه فعل كلّ ذلك لله ولقرابتهم من رسول الله[٤].

يؤكّد هذا الخبر على أنّ أهل الشّام كانوا يحترمون القرابة من الرّسول أو أهل البيت رغم تعتيم الأمويّين على الرّسول.

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٦٢.
(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٦٢.
(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤١٧؛ الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٦٤.
(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٦٢ ـ ٤٦٣.

يبدو أنّ رأس الحسين أرسل إلى المدينة، لكنّه ردّ إلى دمشق فدفن في حائط بها أي حديقة أو بستان قصر الخضراء. أو في دار الإمارة أي قصر الخضراء أو في المقبرة(١).

ماذا يعني هذا الدّفن في دمشق؟ يبدو أنّ دفن رأس الحسين بعاصمة الخلافة الأمويّة هو دلالة على إرادة سيطرة على رأس الحسين بعد الموت، وإخماد ذكراه في نفوس أهل الحجاز.

فقد بقي جسده بكربلاء، ودفن رأسه بدمشق ولا يعني دفن الرّأس بها إجلالا لذكرى الحسين أو الرّسول بل هو طمس للرّمز الذي يمكن أن يتّخذه الرّأس وتحكّم في مصير الحسين بعد القتل، وهو نوع من تأكيد الملك.

ردّ فعل أهل المدينة تجاه مقتل الحسين بن عليّ

عندما قتل الحسين بن عليّ وجيء برأسه إليه، أرسل عبيد الله بن زياد عبد الملك بن أبي الحارث السُّلمِيّ إلى عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق والي المدينة وقال له بشّره بقتل الحسين(٢).

وأراد هذا الرّجل أن يتعلّل بأسباب لكنّ عبيد الله زجره. وتضيف الرّواية أنّ عبيد الله لا يُصطلى بناره(٣). وأمره بالإسراع لإخبار عمرو بن سعيد.

تبدو هذه الرّواية محيّرة فلماذا أصرّ عبيد الله على إعلام عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق؟ هل كانت بينهما صداقة؟ هل كان لديهما تقارب سياسي ـ لا ننسى أنّ عمرو بن سعيد كان أوّل من مسّ الحرمات بإرساله لجيش لإخضاع عبد الله بن الزّبير. وكان على رأس هذا الجيش عمرو بن الزّبير ـ؟

وماذا تقصد الرّواية بأنّ عبيد الله بن زياد كان شُجاعًا؟ هل في قتل الحسين

---

(١) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٤١٦ ـ ٤١٩.

(٢) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٦٥.

(٣) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٦٦؛ ابن منظور، *معجم مذكور*، ج٢، ص٤٧٠: فلان لا يُصطلى بناره إذا كان شُجاعا لا يُطاق.

وانتهاك حرمة بيت الرّسول شجاعة؟ هل كان الوالي يبحث عن دعم سياسي من قبل والي المدينة الأموي؟

ولمّا قدم المدينة، أخبر عمرو بن سعيد بالخبر. فأمره بأن يُنادى بقتله، فندبته النوائح والصّوارخ خاصّة واعية - أي التي تصرخ على الميّت - بني هاشم في دورهنّ.

فبعد أن نظّم الخليفة المأتم في دمشق، نظّمت قريبات الحسين المأتم في المدينة. ويُعبّر هذا الحدث على مأتم حقيقيّ بما أنّ القائمات به هنّ من بني هاشم أي القريبات الحقيقيّات.

وضحك عمرو بن سعيد والي المدينة وقال:

عجّت نساءُ بني زياد عجّةً كعجيجِ نِسوتنا غداة الأرنب[1]

وقال عمرو بأنّ هذه القتلة هي قصاص للخليفة المظلوم. وصعد المنبر وأخبر النّاس بقتله[2]. وتمنّى عمرو بن سعيد لو أنّ الخليفة يزيد بن معاوية لم يرسل له رأس الحسين وأنّه بقي حيّا[3].

يبدو موقف عمرو بن سعيد متناقضا. فمن ناحية، فرح بالقصاص للخليفة المظلوم عثمان بن عفّان بقتل الحسين وتركيز عنصر أساسي من عناصر الإيديولوجيا الأمويّة.

ومن ناحية أخرى، تمنّى لو أنّ الحسين بقي رأسه على عنقه وروحه في جسده.

وكان مروان بن الحكم مستحسنا لهذا القتل و تمثّل بشعر[4]:

ضربت ذو شرّ فيهم ضربة أثبتْ أنْ كان ملْكٌ فاستقر

---

(١) الأرنب: وقعةٌ كانت لبني زُبيد على بني زياد من بني الحارث بن كعب، من رهط عبد المدان. وهذا البيت لعمرو بن معد يكرِب.

(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٦٦.

(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤١٨.

(٤) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤١٨.

فقد فهم مروان أنّ قتل الحسين كان ضروريّا لفرض وتأكيد الملك للخليفة يزيد بن معاوية. ويمثّل مروان مصلحة الدولة الأمويّة. كما أنّه كان كالمدافع عن ميراث معاوية الذي لا يكتب له الدّوام إلاّ بالقضاء على معارضة الحسين السياسيّة. وكان هذا موقف مروان منذ أن رفض الحسين البيعة ليزيد بالمدينة.

وقد أرسل يزيد بن معاوية برأس الحسين إلى المدينة فنصب على خشبة ثمّ ردّ إلى دمشق فدفن في حائط بها أو في دار الإمارة أو في المقبرة[1].

يعتبر نصب رأس الحسين بالمدينة ظاهرة سياسيّة جديدة لعنف الدّولة. فبعد مقتل الخليفة عثمان يعتبر إرسال الرّأس إلى المدينة ونصبه بها نوع من القصاص للخليفة المظلوم عثمان. فقد ركّز الأمويّون بذلك أحد العناصر الهّامة للإيديولوجيا الأمويّة.

لكنّ مخلّفات ذلك ستظهر في ما بعد حيث ستكون الانعكاسات سيّئة على الدّولة الأمويّة. فنصب رأس حفيد الرّسول في مدينة الرّسول أين استقرّ الصّحابة هو تحدٌّ كبير لكلّ القوى الإسلاميّة التقليديّة.

وكان ردّ الفعل في أوساط أهل البيت خاصّة عبد الله بن جعفر بن أبي طالب هو حبّ الاستشهاد معه عندما كان يتقبّل تعازي النّاس له بعد مقتل الحسين. كما استحسن عبد الله بن جعفر أنّ ابنيه قُتلا معه[2]. لكنّه لم يُبد معارضة للسّلطة الأمويّة أو تحريضا عليها. فهو صديق لمعاوية ثمّ لابنه يزيد، وكانا يغدقا عليه الأموال والهدايا. لكن هل أنست المصالح السياسيّة والاقتصاديّة التي تربطه بالأمويّين عبد الله بن جعفر بن أبي طالب المطالبة بدم الحسين؟

خرجت زينب ابنة عقيل بن أبي طالب[3] ومعها نساؤها وهي ترثي الحسين

---

(١) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٤١٦ ـ ٤١٩.
(٢) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٦٦.
(٣) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٤٢١: «كانت زينب زوجة لعليّ بن يزيد بن ركانة من بني المطلّب بن عبد مناف.».

وقتلى الطّفّ[1]:

ماذا تقولونَ إنْ قال النبيُّ لكمْ	ماذا فعلتمْ وأنتمْ آخرُ الأُممِ
بأهل بيتي وأنصاري أما لكم	عهدٌ كريمٌ أما توفون بالذمم
ذريّتي و بنو عمّي بِمَضيعةٍ	منهم أسارى وقتلى ضُرّجوا بدمِ
ما كان ذا جزائي إذا نصحتكُمُ	أنْ تخلِفُوني بسوءٍ في ذوي رحمي

كما خرجت تنوح بالبقيع[2]. يبدو هذا الخروج والنّواح بالبقيع، وهي مقبرة أهل المدينة، ذو رمزيّة كبيرة. فقد كانت أجساد أهل البيت مدفونة بالطّفّ أو كربلاء بينما كان النّواح بمقبرة المدينة.

فمأتم زينب لم يتمّ بوجود أجساد القتلى بل بغياب هذه الأجساد. وكان الذّهاب للمقبرة هو عبارة عن تعويض عن هذا الحداد الذي لم يتمّ لتقتيل أهل البيت وحرمانهم من دفن جدير بهم في مقبرة المدينة.

تبدو ابنة عقيل بن أبي طالب شديدة التحمّس للحسين وأهل البيت بما أنّها تُعتبر فردا منهم. فهي تحاكم الأمويّين على استئصالهم لأهل بيت الرّسول وعترته وأسرهم للبقيّة دون مراعاة لحرمة الرسول ولذكراه.

فقد عبّرت ابنة عقيل بن أبي طالب عن موقف معاداة للسّلطة وهو موقف صريح وواضح على عكس عبد الله بن جعفر.

المهمّ أنّ قتل الحسين وأهل البيت ستكون له تبعات هامّة في المدينة والحجاز بصفة عامّة. فسيفقد الحكم الأموي شرعيّته لدى أهل الحجاز الذين سيعملون جاهدين للخروج عن سلطة هذا الحكم.

خاتمة

كانت حركة الحسين بن عليّ حركة فاشلة رغم قوّة شرعيّة الحسين المرتبطة

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٦٦ ـ ٤٦٧؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٢٠.

(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٢٠.

بالرّسول. فقد فشلت هذه الحركة لخذلان أهل الكوفة له. كما أنّ الدّولة عزلته بدعم من الأشراف الذين أطّروا عشائرهم.

لكنّ قتل عبيد الله بن زياد للحسين بن عليّ كان عمليّة بناء ثانية للدّولة (بناء للمؤسّسات مؤسّسة الوالي ـ الشرطة؟ والإيديولوجيا: الطّاعة، الجهاد!).

وكان قتل الحسين بن عليّ وآله قربانا في سبيل تركيز الدّولة ومؤسّساتها وإيديولوجيّتها.

فشلت ثورة الحسين بن عليّ لقوّة النّظام الاجتماعي بالكوفة والمرتبط بعلاقة مصلحيّة بين الأشراف الذين يؤطّرون عشائرهم وبين الدّولة التي تغدق على الأشراف الامتيازات المّاديّة من مناصب وإقطاعات.

وكانت القبائل تخاف من قطع الأعطيات عنها ومن قدوم جيش الشّام.

لم يكن لهذه الحركة تنظيم عسكري ومالي وبرنامج واضح. فشل الحسين مأتاه أنّ الحركة الشيعيّة ما زالت في طور التكوّن، وهي حركة غير واعية بنفسها. فالعاطفة المتدفّقة للشيعة وحبّهم لأهل البيت لم تكن وحدها كافية لتقف في وجه الدولة، دولة قائمة الذّات.

مثّل قتل الحسين بن عليّ عنصرا هامّا في حصر الشّرف والسّيادة في البيت الأموي. فقد اندثر أهل البيت النّبوي من بني هاشم ليتركوا المجال فسيحا للأمويّن، وسيستغلّ المروانيّون هذا القتل لفائدتهم حيث ركّزوا الشرعيّة التّاريخيّة الأمويّة، وربطوا شرعيّتهم بالرّسول خاصّة بعد المجهود الذي قام به عبدالملك من بناء لقبّة الصّخرة بالقدس، وتعريب النّقود والدّواوين لفرض هويّة إسلاميّة للدّولة.

وقد «كتب عبد الملك إلى الحجّاج جنّبني دماء آل أبي طالب فإنّ بني حرب لمّا قتلوا حسيناً نزع الملك منهم»[1].

يعتبر هذا الحدث هامّا لأنّه ضرب سلطة الخليفة يزيد بن معاوية، كما هدّد

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٧، ص٢٣٣.

الشرعيّة التّاريخيّة الأمويّة. وعندما مات الخليفة يزيد بن معاوية سينهار الفرع السّفياني.

كانت مجزرة كربلاء التي قُتّل فيها أهل البيت وأصحاب الحسين والتّمثيل بالجثث خاصّة منها جثّة الحسين سبط الرّسول محمد. وترك أجسادهم مقطّعة ومكسوّة بالدّماء في العراء يرتادها العقبان، صدمة للضّمير الإسلامي. وستكون انعكاساتها وخيمة على شرعيّة يزيد وسلطته. وكذلك على شرعيّة عبيد الله بن زياد.

إنّ قتل الحسين بن عليّ ـ حفيد الرّسول ـ من قبل ابن عمّه الخليفة يزيد بن معاوية يعتبر ذروة تعنيف قرشي لقرشي من قرابته. فقد نُزِعَت عن الحسين بن علي هالة الحُرمة والقداسة التي كان محاطًا بها لانتمائه لفئة ميتا ـ تاريخيّة (أهل البيت النّبوي) أوّلا، وثانيا لانتمائه لقبيلة اختارها الله في الجاهليّة والإسلام، وثالثا لصلة القرابة والرّحم الذي كانت تربطه بالأمويّين.

أرّخ قتل الحسين لفترة جديدة في التّاريخ الأموي: التّابو وقع تجاوزه. فقتل الحسين فتح الباب واسعا أمام إحلال مدينة الرّسول وإحلال الحرم المكّي من قبل جيش الدّولة أي جيش الشّام.

ظهر جيش الشّام كقوّة عسكريّة شبه نظاميّة تقضي بها السّلطة الأمويّة على كلّ حركات العصيان.

كما مثّل هذا القتل تهديدا لشرعيّة يزيد التّاريخيّة، ونشأت دعاية ضدّ سلطته تولاّها قرشيّون وغيرهم. فقد قال أبو دهبل الجمحي[1]:

يبيت السّكارى من أميّة نُوّماً وبالطّفّ قتلى ما ينام قتيلها

فتدعّمت فكرة يزيد الخليفة الفاسق السّكران القاتل للحسين وأهل بيته، وستقضي هذه الصّورة على الشرعيّة التّاريخيّة ليزيد وللسّفيانيّين.

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٤٢٠.

كما أنّها ستُثوّر ضدّه أهل الحجاز أي ابن الزّبير وأهل المدينة. بمقتل الحسين في تلك الظّروف، نشأ مفهوم «الإمام الشّهيد» لدى الشّيعة. وسيغذّي مقتل الحسين الحركات المطلبية الشيعية خاصّة بعد غياب الدولة.

غذّت هذه الثّورة وخاصّة واقعة كربلاء (أي تقتيل الحسين وأهل بيته وأصحابه) المخيال الشّيعي لمدّة قرون واستمرّ هذا الحلم يغذّي الشّيعة إلى يومنا هذا.

واتّبع عبيد الله بن زياد سياسة قمعيّة مع الخوارج بالعراق، وهي نفس السّياسة القمعيّة التي اتّبعها مع الشّيعة.

الفصل السّادس
حركة الخوارج في عهد عبيد اللَّه بن زياد

كانت الفترة الأمويّة فترة هامّة في تطوّر الحركة الخارجيّة. فقد كان تركيز زياد بن أبي سفيان وابنه عبيد الله مؤسّسات الدّولة بالعراق كالمؤسّسات الإداريّة والعسكريّة أي تنظيم العرفاء والمناكب بداية لسيطرة الدّولة على حركات المعارضة وأساسا الحركة الخارجيّة التيّ تمركزت بالبصرة كمصر مرتبط بنشأة حركتهم.

فقد كان عمّال الدّولة من عرفاء ومناكب يوزّعون العطاء على عشائرهم، ويتثبّتون من الولاء السّياسي والإيديولوجي لرجال العشائر.

وأصبحت الدّولة تترصّد الخوارج بعقوبات لم يسبقها إليها أحد. على هذا الأساس، كانت فترة ولاية عبيد الله بن زياد فترة جديدة في علاقة الدّولة بالخوارج. فقد كانت سياسته القمعيّة دافعا لهم على تغيير طرق عملهم.

ثورات الخوارج: الحركات الرجاليّة

كانت سياسة عبيد الله بن زياد مع الخوارج مختلفة عن سياسة زياد بن أبي سفيان. فقد كان عبيد الله يحبسهم تارة ثم يقتلهم، وكان هذا القتل نتيجة إطلاق سراحهم من حبس زياد بعد توليته على العراق أي أنّه تساهل معهم، فخرجوا عليه[1].

---

(١) المبرّد، مصدر مذكور، ج٣، ص٢٦٠.

وقد تصلّبت سياسة عبيد الله مع الخوارج على أساس أنّه «يقمع النفاق قبل أن ينجم[1]، لكلام هؤلاء أسرعُ إلى القلوب من النار إلى اليراعِ[2]».

كان ابن زياد يخاف من العدوى الإيديولوجيّة، وانبهار النّاس بالخطاب الإيديولوجي الخارجيّ. على هذا الأساس، كان القتل هو أنجع وسيلة لعبيد الله بن زياد حتّى يقضي على تحرّكات الخوارج. وسعى الوالي لتركيز الإيديولوجيا الأمويّة ومؤسّسات الدّولة القمعيّة.

وحكّم أبو الوازع الراسبي بعد أن قُتل عروة بن أدية، وهو عروة بن حدير بن عمرو أحد بني ربيعة بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم. وهو أخو أبي بلال مرداس بن أديّة.

قتل عبيد الله بن زياد قتلا مبرما سنة ٥٨هـ في خلافة معاوية عروة بن أديّة، وكان هذا الأخير رجلا ورعا تقيّا.

وحضر يوما رهانا لابن زياد، فقال عروة بن أديّة للوالي: «خمس كنّ في الأمم قبلنا، فقد صرن فينا ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾[3]».

فبعث له ابن زياد ووقع القبض عليه وقُطعت رجلاه ويداه. وأحضر ابنته التي قتلت هي أيضا[4].

انتقد عروة بن أديّة تطوّر الملك لدى عبيد الله بن زياد الذي يفرض التجبّر والبطش كعنصر أساسيّ من عناصر سياسته.

وكان عروة بن أديّة مثالا لبقيّة الخوارج، فحكّم أبو الوازع الراسبي، ونادى بنو

---

(١) ينجم: يطلع.
(٢) اليراع: القصب الفارسي؛ المبرّد، مصدر مذكور، ج٣، ص٢٤٨.
(٣) الشعراء ٢٦/ ١٢٨ ـ ١٣٠.
(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣١٣؛
البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤١٥ ـ ٤١٦؛ المبرّد، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٠٠ ـ ٣٠١.

الماحوز[1] لترك مضاجعهم، وقيام اللّيل وقتال أهل البغي قبل أن يقتلوهم في مضاجعهم كالكلاب. ووعظ نافع بن الأزرق الحنفي صاحب الأزارقة متخوّفا أن يكون محبّا للدّنيا. وقد سمع أبو الوازع نافعا يعظ أصحابه فيذكر لهم بطش السّلطان ويشجّعهم على الجهاد.

وبيّن نافع موقفه فقال بأنّه ينتظر الفرصة للوثوب على السّلطان، وهو يجمّع أصحابهُ. واشترى أبو الوازع سيفا، وقتل به صيقلا كان يشتم الخوارج ويدلّ عليهم. وأخذ في بني يشكر وهو يحكّم. فصلب في بني يشكر، وتخوّف بنو يشكر «أن يتّخذ الخوارج مصلبه مهاجرا»[2].

يبدو أنّ هذا الخارجي قام بحركة فردية انتحاريّة غضبا لعروة بن أديّة. كما أنّه كانت لديه صلة بنافع بن الأزرق لكنّه لم يثر معه في جماعة. كما تبدو حركة نافع بن الأزرق في أوّل تكوّنها. وكان قمع السّلطة قمعا قويّا ومثّل بجثّة الخارجيّ. وكانت قبيلة بني يشكر تتخوّف من البعد الرّمزي لهذا القتل لدى الخوارج. فالمصلب يمكن أن يتحوّل إلى مكان ـ رمز للقيام بعمليّات انتحاريّة. وهذا يبيّن تخوّف النّاس من عنف الخوارج.

تبع هذه الحركة الفرديّة حركة أخرى أكثر أهميّة هي حركة مرْداس بن حُدير أبو بلال، وهو أحد بني ربيعة بن حنظلة «تعظّمه الخوارج، وكان مجتهدا كثير الصواب في لفظه»[3].

يبدو أنّ مرداس كان قد شهد صفّين مع عليّ بن أبي طالب، وأنكر التّحكيم، وشهد النّهر، فنجا فيمن نجا.

وقد حبسه ابن زياد، وكان السجّان معجبا بعبادته فكان يأذن له في الانصراف

---

(١) ابن حزم، مصدر مذكور، ص٢٢٥: بنو الحارث بن يربوع من تميم. وكان بنو الماحوز، كلّهم أمراء الخوارج من الأزارقة.

(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٢١ ـ ٤٢٢.

(٣) المبرّد، مصدر مذكور، ج٣، ص٢٤٧.

إلى أهله في اللّيل. ويرجع عند طلوع الفجر، وسمع صديق لمرداس بأنّ عبيد الله بن زياد، وكان يسامره سيقتل الخوارج.

وتخوّف السجّان أن لا يرجع مرداس للسّجن، لكنّه رجع في الفجر حتّى يبرّ عهده للسجّان.

وطلب هذا الأخير في ما بعد من عبيد الله بن زياد أن يمنحه مرداس، فوهبه له[1].

ولمّا خرج من الحبس ورأى حرص ابن زياد على القبض على الخوارج. قال لأصحابه بأنّه لا بقاء لهم مع الظّالمين. يتقبّلون أحكامهم. كما أنّ تجريد السّيف أي الاستعراض غير مقبول. وتعاهدوا على أن لا يُقاتلوا إلاّ من قاتلهم[2].

فاجتمع إليه قرابة ٣٠ رجلا من أصحابه، واعترضه عبد الله بن رباح الأنصاريّ، وكان صديقه فسأله إلى أين هو ذاهبٌ؟ فأجابه بأنّه هارب بدينه ودين أصحابه من الحكّام الجّائرين. ووعد مرداس صاحبه بأنّه لا يُقاتل إلاّ من قاتلهُ، ولا يُخف أحداً. وصرّح له صديقه بأنّه يخاف عليه من القتل.

ونزل هو وأصحابه بآسك[3] وهي بين رامهرمز وأرجّان فمرّ به عمّال يحملون مالا لعبيد الله بن زياد، فأخذ من ذلك المال أعطياته وأعطيات أصحابه، وردّ بقيّة المال.

فطلب منه أصحابه سبب ردّه بقيّة المال، فقال بأنّ الأمويّن يقسمون ذلك الفيء كما يُقيمون الصّلاة[4]. لكنّ عبيد الله بن زياد أرسل إليه جيشا بقيادة أسلم بن زرعة الكلابي متركّب من ٢٠٠٠ من المقاتلة.

فكلّمهم أبو بلال قائلا بأنّهم لا يريدون القتال، ولا حبس الفيء. لكنّ القائد

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣١٣.
(٢) المبرّد، مصدر مذكور، ج٣، ص٢٤٩ ـ ٢٥٠.
(٣) ياقوت، معجم مذكور، ج١، ص٥٣: آسك، كلمة فارسيّة، اسم الموضع الذي قرب أرجّان.
(٤) المبرّد، مصدر مذكور، ج٣، ص٢٥٠.

الأموي أصرّ على قتالهم، وعلى ردّهم لابن زياد. فهجم عليه الخوارج لأنّه «يُطيع الفجرة، ويقتل بالظنّة، ويخصّ بالفيء»[١]. وانهزم الجيش الأموي رغم عدده الهامّ، وغضب عبيد الله غضبا شديدا، وأرسل جيشا آخر بقيادة عبّاد بن علقمة المازنيّ أو عبّاد بن أخضر (وكان أخضر زوج أمّه). فلحقهم بدرابجرد[٢] من أرض فارس. وكان عبّاد بن أخضر في ٤٠٠٠ مقاتل من البصرة. والتقوا في يوم جمعة، فحاول أبو بلال أن يُحاور عبّاد الذي كان يريد أن يردّهم لابن زياد. فأعاد أبو مرداس نفس الخطاب الذي ذكره لأسلم بن زرعة الكلابيّ أي أنّهم لم يقدموا للحرب أو افتكاك الفيء. ونشبت الحرب بينهم، وجاء وقت الصّلاة، فدعا أبو بلال رجاله للصّلاة.

فهجم عليهم الجيش وقتّلوا كلّهم ما بين ساجد وراكع، وأتى القائد برؤوسهم للوالي الذي نصبها[٣]. وثأر الخوارج من عبّاد بن أخضر فقتلوه هو وابنه [٤].

يبدو من خلال حركة أبو بلال كأنّها حركة عائليّة، كما أنّها حركة من أهمّ الحركات التي شهدتها فترة عبيد الله بن زياد. وكان الجانب السّلمي موجودا فيها.

كانت لديه نظرة خاصّة للحكم الأموي فهو لا يريد قتلهم بل كان يرى أنّهم يقومون على الصّلاة والفيء. وهي نظرة معتدلة ومسالمة. لكنّ خروجه في الرّجال كان يعني المعارضة السياسيّة التيّ تستوجب القتل.

وقتل الخوارج وهم يصلّون، واحتزّت رؤوسهم عبرة لمن يعتبر. وبالتّالي كان قمع عبيد الله بن زياد يغذّي الثّأر لدى الخوارج.

وكان مالك النميري أحد الخوارج، فطلب ابن زياد من خاصّته من يعرفه؟ فذكروا له أنّ أبو عزّة الشُّرطيُّ يعرفه لأنّه من بني نمير. فطلب عبيد الله بن زياد من

---

(١) المبرّد، مصدر مذكور، ج٣، ص٢٥٢.
(٢) ياقوت، معجم مذكور، ج٢، ص٤٤٦: كورة بفارس نفيسة عمّرها دراب بن فارس.
(٣) المبرّد، مصدر مذكور، ج٣، ص٢٥٤؛ الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٧١.
(٤) المبرّد، مصدر مذكور، ج٣، ص٢٥٧.

الشرطيّ أن يقتله. لكنّ هذا الأخير رفض أن يقتله فحبسه ابن زياد ثمّ كلّموه فيه فسرّحه. وكلّف شخصا آخر بقتله[1].

يبدو أنّ الوالي أراد تكسير العلاقات العشائريّة لينفّذ أوامر الدّولة ويقتل الخوارج. وكان موظّفو الدّولة (الشّرط) في بعض الحالات، لديهم قرابة بالخوارج. وكان قتلهم يمثّل إشكاليّة ممّا جعل الوالي يتّخذ إجراءات أخرى.

ويذكر البلاذري أنّ مسلم بن عقبة الباهليّ (وهو شريف من أشراف البصرة، وصديق الخليفة يزيد بن معاوية) رأى عند مسجد بني قتيبة عقبة بن الورد الجآويّ من باهلة، وهو خارجي مجتهد، وكان معه سيف. وقدم حُجير الجآوي من عند عبيد الله بن زياد. وكان هذا الأخير قد قتل عددا هامّا من الخوارج، وشارك حجير في قتلهم ـ وربّما كان هذا الشّخص من الشّرط ـ ورآه عقبة فرحا وهو ذاهب إلى المسجد، فضربه في المسجد بسيفه فقتلهُ.

وضرب ربيعة بن عمرو (أخ مسلم بن عمرو)، وعندما أراد الخروج من المسجد قتله رجل من بني أود. فطالبت بنو جآوة بثأرهم وطالبت بنو أود بثأرهم، و جآوة وأود أخوان. فضربت عنقه وألقيت في بئر[2].

كانت سياسة عبيد الله بن زياد سياسة قمعيّة لكنّه لم يكن يستطيع إيقاف تيّار العنف الذي اتّخذه الخوارج كردّ فعل على هذه السّياسة.

وكانت العشائر بالبصرة تتقاتل وتصفّي حساباتها في المسجد الذي أصبح مركز صراع بين موظّفي الدولة والخوارج بعد أن كان مركز توحيد بين النّاس. كما يبدو أنّ الدّولة تُغيّب في بعض الحالات، وتقتصّ القبائل بنفسها من القاتل.

تبدو البصرة ذات خصوصيّة خارجيّة على خلاف الكوفة التي كانت شيعيّة.

وكان سُليم بن عبد اليشكري[3] وهو من العبيد يرى رأي الخوارج. ففسد على

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤١٧.

(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤١٩.

(٣) ابن حزم، مصدر مذكور، ص٣٠٨: بنو يشكر بن بكر بن وائل بن قاسط.

مولاه فحبسه ومنعه من أن يختلط بأصحابه من الخوارج. فجاء قوم من عنزة[1] إلى مولاه فسألوه أن يبيعهم إيّاه لكنّه رفض، ويبدو أنّهم من الخوارج. وبحثوا عن العبد، فوجدوا أنّ مولاه قتله. فعمدوا إلى إبل اليشكريّ ليلاً فعقروها. فكانت هذه الواقعة سببا في صراع قبلي بين يشكر وعنزة إلى أن دفع حُمران العنزي غرامة الإبل إلى اليشكري.

يبدو من خلال هذا الخبر أنّ العبيد كانوا يلتحقون بالخوارج، لكنّ السيّد كان يسلّط على عبده أحكامه بقطع النّظر عن تدخّل الدّولة. فهو يحصره ويقتله.

وحبس عبيد الله بن زياد خالد بن عَبّاد، و «كان من عُبّاد الخوارج ومجتهديهم»[2] ونسّاكهم[3]. وهو من بني عمرو بن سدوس بن شيبان بن ذُهل بن ثعلبة. فكُلّم فيه فخلّى سبيله، وقيل له إنّه قد كُذب عليه. وليس من هذا الرأي. وضمن فيه صهر له، فكان لا ينام اللّيل ليحرسه في بيته. فأتى ابن زياد خالدا فسأله أين بات، فقال له بأنّه كان مع إخوان له يذكر الله ويقرأ القرآن. فطلب منه ابن زياد أن يدلّه عليهم، لكنّ خالد رفض أن يعلم الوالي بمكانهم حتّى لا يقتلهم.

وأمر ابن زياد خالد بن عبّاد أن يلعن أهل النّهروان. وهم الحرورية الذين خرجوا عن عليّ للنّهروان بعد أن اشترطوا على عليّ أن يشهد على نفسه بالكفر، ليرجعوا إليه وإلاّ ينبذوه. كما اعتبروا خروجه في صفّين لقتال معاوية خروجا لتحقيق مصالحه. ولم يخرج غضبا لله[4]. وأدّى ذلك إلى قتال عليّ لهم في معركة النّهروان وقتلهم[5]. وأجاب خالد بن عبّاد إن كان أهل النّهروان أعداء الله فلعنهم الله. فسأله عن يزيد بن معاوية فقال خالد بن عبّاد إن كان يزيد مؤمنا بالله فهو وليّ له. وسأله عن أبي بكر وعمر فأجاب خيرا. وسأله عن معاوية وعثمان فأجاب إن

---

(١) ابن حزم، مصدر مذكور، ص٢٩٤: بنو عنزة بن أسد بن ربيعة بن نزار.
(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤١٨.
(٣) المبرّد، مصدر مذكور، ج٣، ص٢٤٨.
(٤) لطيفة البكّاي، مرجع مذكور، ص٣٩.
(٥) لطيفة البكّاي، مرجع مذكور، ص٤٦.

كانا وليّين لله فليس يعاديهما[1].

فأمر ابن زياد بقتله فأخرج إلى السّوق، وكان الشّرط يتحاشون قتله لهزاله من العبادة.

فقتله المُثلّم بن مسروح الباهليّ، وكان في الشّرط[2]. فاقتصّ منه الخوارج، ودفنوه بدار ووضعوا الدّراهم في بطنه.

واتّهم به بني سدوس، وطلبوا حقّهم من ابن زياد. وخرج قوم من باهلة إلى يزيد فحكم على بني سدوس بالقسامة فأقسموا أنّهم لم يقتلوه، فأخذ به ابن زياد أربع ديّات من أعطية بني سدوس[3]. وقال ابن زياد بأنّه كلّما قتل رجلا من الخوارج قُتل قاتله. كما ذكرت المصادر أنّهُ سُعي بالهثهاث بن ثور السدوسي إلى ابن زياد من قبل ابن عمّ له. فكلّمه فيه سُويد بن منجوف بن ثور وقال بأنّ عمّه بريء ممّا نُسب له. فشتمه ابن زياد وعيّره بأمّه. وتدخّل شقيق بن ثور أحد أشراف سدوس بالبصرة فقال للهثهاث بأنّه لا يدع هذا الانتماء للخوارج ونصحه بالخروج من البصرة. لكن يبدو أنّ الهثهاث نُفي أو غُرّب من قبل الوالي إلى أدم[4]. هكذا، كان الوالي ينفي بعض الخوارج عن المصر عوض قتلهم.

ويعتبر النّفي وسيلة من وسائل العقاب التي تبيّن حرص ابن زياد على تركيز سلطة الدّولة. كما أنّ النّفي يشرّد الشّخص عن عشيرته، ويمزّق روابطه بها، ويفصله عن أصحابه من الخوارج.

وخرج خارجيّ بالبصرة وهو أبو السّلول فحكّم في المسجد، فقام إليه عقبة بن وسّاج البُرْساني من الأزد فقتله بسيفه (أي سيف الخارجيّ)[5].

---

(١) المبرّد، مصدر مذكور، ج٣، ص٢٧٣.

(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤١٨؛ المبرّد، مصدر مذكور، ج٣، ص٢٧٣.

(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤١٩؛ المبرّد، مصدر مذكور، ج٣، ص٢٧٤.

(٤) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٢٠؛ ياقوت، معجم مذكور، ج٤، ص٢٩٣: أدم موضع قريب من ذي قار. وذو قار هو ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة بينها وبين واسط.

(٥) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٢٠.

حكّم هذا الخارجي منعزلا، وهو يبدو كأنّه يقوم بعمليّة انتحاريّة. كما كان المسجد مكانا لإعلان الثّورة. لكنّ هذه الثّورة تبدو فاشلة لأنّ صاحبها لا يستند على تنظيم جماعي. وهي حركة فرديّة وردّ فعل على قمع السّلطة لهم.

وخرج ثابت بن وعلة الرّاسبي، وكان من رؤساء الخوارج بعد أن سمع أحد الخوارج وهو الزبير بن عليّ، الذين يتذاكرون في بيته، يرثي الخوارج في مرثيّة. فبكى، وقرّر أن يثأر لإخوانه. فخرج يوم جمعة، فحكّم عند مسجد الحروريّة بالبصرة فقتل من قبل العديد من النّاس ثم صلب.

كما قتل ذلك اليوم مولى لبني الحارث بن كعب قتل ابن زياد ابن عمّ لهُ، اعترض النّاس بالسّيف.

يبدو هذا التصرّف من الخارجي نابعا من عاطفة قويّة ومن عمق الارتباط بذكرى الشّهداء من الخوارج. كما يبدو أنّ الخوارج يجتمعون لكنّهم ليسوا منظمّين في تنظيم عسكريّ. هل كان الخوارج يخافون من الوالي بعد القمع الذي ركّزه زياد؟ ربّما كان هذا الاحتمال صحيحا، فقد أقام زياد بن أبي سفيان إرهاب الدّولة، وأسّس الشّرطة والحرس. وحرم الحروريّة من العطاء، وقتّلهم لفرض سلطة الدّولة. لكنّ عبيد الله بن زياد طوّر هذا العنف.

ذكر البلاذري مثالا آخر لخارجيّ مؤمن بقضيّة الخوارج وهو عيسى الخطّي، عيسى بن حُدير أحد بني وديعة بن مالك بن تيم الله بن ثعلبة بن عكابة، الذي كان يقدح في الوالي ويذمّه ويعيبه. وكان أصحابه ينصحونه بالتكتّم وإلاّ فإنّهم سيقتلون بجريرته. وقد ترك بناته يبكين بدون عائل، وخرج لقتال الأمويّن وحماية الحرم. وأنشد في قصيدة يقول فيها:

أخـــافُ عـــقـــاب الله إن مـــتُّ راضـــيـــاً
بـحُـكـم عـبـيـد الله بـن زيـاد ذي الـجـور والـغـدرِ
وأخـــذرُ أنْ ألـــقـــى إلـــهـــي ولـــم أرُعْ
ذوي الـبَـغـي والإلـحـادِ فـي جـحـفـلٍ مَـجْـرِ

على هذا الأساس، كان الخوارج خائفين من قمع عبيد الله بن زياد، فلم يتحرّكوا في جماعات. كما أنّهم كانوا يخافون من تسرّب الأخبار للوالي. وكان جهاد الوالي الظّالم واجبا دينيّا لكنّهم كانوا متخوّفين من القمع. ولم يقتصر التحرّك الخارجي على الرّجال بل شمل النّساء.

الحركة الخارجيّة النّسائيّة

تغيّرت تركيبة الحركة الخارجيّة في بداية الحكم الأموي بدخول المرأة ميدان النّضال السّياسي والعسكري.

وقد كان أبو مريم مولى بني الحارث بن كعب هو أوّل من أخرج النّساء معه، ورغم انتقاد أبي بلال مرداس بن أديّة لإشراك المرأة في القتال، فقد واصلت نساء الخوارج نشاطهنّ داخل الحركة[1].

ولم تذكر المصادر إلاّ أسماء قليلة لنساء نشطن في الفترة الأولى من الخلافة الأمويّة، وهذا يرجع إلى الإجراء الذي اتّخذه زياد بن أبي سفيان تجاه أوّل امرأة خرجت عليه، فقد قتلها وصلبها وعرّاها، وقال أيّتها امرأة خرجت فعلتُ بها مثل هذه فكفّت النّساء عن الخروج خوفا من أن يعرّين[2].

وكانت من المجتهدات من الخوارج حسب رواية المبرّد[3]، وهي البلجاءُ، وهي امرأةٌ من بني حرام بن يَربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم، وكانت من رهط سجاح التي تنبّأت.

وكانت كما ذكر الله: ﴿وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ﴾[4].

وأخبر أحد الخوارج وهو غيلانُ بن خرشةَ الضَبّي، مرْداس بن حُدير أبو بلال فأخبره بأنّه سمع الوالي عبيد الله بن زياد يذكر البلجاء، و ذكر له أنّه سيقبض عليها.

---

(١) لطيفة البكّاي، مرجع مذكور، ص٧٨.

(٢) لطيفة البكّاي، مرجع مذكور، ص٧٨ ـ ٧٩.

(٣) المبرّد، مصدر مذكور، ج٣، ص٢٤٧.

(٤) التحريم ٦٦ / ١٢.

فذهب إليها مرداس بن حدير، وذكر لها أنّها يجب أن تتبع التقيّة أي تستتر من الوالي الذي وصفه «بالجبّار العنيد»، و «المسرف على نفسه» نظرا لتقتيله للخوارج. وأجابته البلجاء بأنّه إن يأخذها فهو أشقى بها. فقبض عليها عبيد الله بن زياد، وقطع يديها ورجليها، رمى بها في السّوق بالبصرة[1]. وعندما وجدها أبو بلال ملقاة في السّوق والنّاس مجتمعون حولها، قال بأنّها أطيب نفسا عن بقيّة الدنيا. استشهدت البلجاء في سبيل أفكارها الخارجيّة. كما أنّ الوالي كان لديه جهاز قمعيّ قويّ مبني على جواسيس، وشرطة.

وكان أسلوبه السّياسي هو نفسه الذي اتّبعه مع الشّيعة أي التمثيل بأجساد المعارضين بعد قتلهم. ولم يستثن ابن زياد النّساء من الخوارج.

وخرج رجل وامرأة يقال لها جزعة ومعهما سيفان فحكّما في مسجد البصرة[2]. فوقع القبض عليهما، وأُخذت المرأة إلى بني سُليم، أخذ الرّجل نحو رحبة بني تميم. وناداها زوجها عندما ابتعدت بأن تقترب منه، فقالت: ﴿إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[3]، وقتلهما النّاس. تبدو هذه العمليّة التي قامت بها جزعة وزوجها عبارة عن عمليّة انتحاريّة أو استشهاديّة. فالإعلان عن انتمائهما للخوارج في مسجد البصرة ـ وهو يمثّل العصب السّياسي والدّيني. وتولّى القتل النّاس أي أنّ الشّرطة لم تكن حاضرة في ذلك الوقت. فهل كان الوالي يُجيز ذلك؟

كما كان القرآن حاضرا في الخطاب الإيديولوجي للخوارج، وهو كتاب ـ رمز.

ذكر البلاذري أنّ أمّ الفضل بنت شقيق سُعي بها لابن زياد فحبسها، وكُلّم فيها فأخرجها. وكان الذي سعى بها رجل من ولد مَجْزأة بن ثور[4] يقال له فدكي. وقد دعت هذه الوشاية رجلا وهو لأيُ بن شقيق لهجاء فدكيّ:

---

(١) المبرّد، مصدر مذكور، ج٣، ص٢٤٨.

(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٢٠.

(٣) يونس ١٠/ ٦٢.

(٤) ابن حزم، مصدر مذكور، ص٣١٨ من شيبان؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٢٠.

لن تَجِدِي في بيوتِ النّاس صالحةً إلا لـهـا مـن بـيـوتِ الـسّـوء أعـداءُ

كان الشّعر في كلّ مرّة وسيلة للتّعبير عن واقع اجتماعي سياسي بالبصرة.

وقد حبس ابن زياد هذه المرأة وأخرجها من سجنها لأنّه لم يجد عليها حجّة أنّها من الخوارج.

بعد مقتل الحسين، ثار نجدة بن عامر باليمامة فحجّ فيمن حجّ[1]. كما ثار نافع بن الأزرق الحنفيّ باليمامة.

تبدو حركات الخوارج بالبصرة طيلة فترة عبيد الله بن زياد، حركات متفرّقة فرديّة أو في جماعات صغيرة. وكانت تمثّل ردّ فعل عنيف ضدّ تسلّط الوالي وقمعه للحركة الخارجيّة.

وكان أصحابها في أغلب الحالات من العبّاد والقارئين للقرآن الذين أرادوا تطبيق مبادئ القرآن. وكانوا يرون أنّ معاوية وابنه من الخائنين لكتاب الله.

كما أنّهم عتّموا مثل الشّيعة على الشّرعيّة التّاريخيّة لابن زياد الذي ادّعى أبوه معاوية. لكنّ هذه الحركة لم تكن منظّمة وهُمّشت تهميشا كبيرا من قبل عبيد الله بن زياد. فقد كانت حركة مكروهة من النّاس الذين كانوا حريصين على الطّاعة والجماعة، فكانوا يقتلوهم إذا حكموا بدون أن ينتظروا أمر الوالي.

يبدو أن السّلطة كانت تواجه مشكلة حقيقيّة من وراء تحرّك الخوارج. فقد كانت تتصلّب وتقمع وتقتل الخوارج وبالمقابل كانوا يتحركون بسرعة كبيرة ليقتصّوا من القتلة. فهم لديهم دربة عسكريّة تمكّنهم من التحرّك في مجموعات والقضاء على أعدائهم من الشّرطة الأمويّة. وكانت هذه الحركة من بين الحركات التي أفرزتها الفتنة الأولى. وستساهم بعد موت يزيد بن معاوية في الفتنة الثّانية بكلّ ثقلها لأنّها ستستغلّ فترة الفراغ السّياسي. كما أنّ انعدام سلطة ابن زياد سيفتح لها المجال لتؤكّد سلطتها بمنطقة البصرة وما والاها.

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٢٣٤.

وسيُواجهها الحكم الزّبيري في فترة الفتنة الثّانية لكنّ الحجّاج بن يوسف الثّقفي سيكلّف قائدا تعوّد على قتال الخوارج لتتبّعهم. وستكون فترة ولاية الحجّاج بالعراق فترة حاسمة في تاريخ الخوارج بالعراق وفارس.

فقد أصبحت حركاتهم أكثر عنفا وضراوة وتنظيما عسكريّا. وكان الحجّاج شديد العنف في قمعهم.

القسم الثّاني
الوجه الجديد للفتنة بعد مقتل الحسين بن عليّ

الفصل الأوّل
تطوّر حركة ابن الزّبير بعد مقتل الحسين بن عليّ

المقدّمة

لم يكن عبد الله بن الزّبير يستطيع منافسة الحسين بن عليّ الذي استندت شرعيّته على انتمائه لأهل البيت، فهو حفيد الرّسول. وقد بقي يتربّص حتّى غادر الحسين مكّة وقصد الكوفة، وقتل.

وعندما قُتل فرغ له المجال السّياسي للحجاز كمركز تقليدي للسّلطة الإسلاميّة بالمدينة مدينة الرّسول التي تحوّلت عنها الخلافة بعد مقتل عثمان إلى الكوفة. كما أنّه كان يرى أنّه أحقّ بالخلافة من يزيد بما أنّه من أبناء المهاجرين البدريّين والصّحابة.

فكانت سنة ٦١هـ بعد مجزرة كربلاء أي بعد استئصال أهل البيت تأريخا لإعلان ابن الزّبير لخلعه للخليفة يزيد بن معاوية.

وبذلك أسّس عبد الله بن الزّبير كيانا سياسيّا ودينيّا (هل يمكن إطلاق اسم دولة على هذا الكيان؟) مناهضا ومعارضا لسلطة الخليفة يزيد بن معاوية.

على هذا الأساس، واجه هذا الأخير حركة جديدة بعد القضاء على أخطر حركة على المستوى الإيديولوجي لأنّها تمسّ الشرعيّة التّاريخيّة للأمويّين، وهي حركة الحسين بن عليّ. فكانت هذه الحركة الضّربة الثّانية لسلطة يزيد، كما جعلت شرعيّته من جديد شرعيّة منقوصة بما أنّه لم يتحصّل على بيعة كاملة.

فكيف تطوّرت هذه الحركة؟ و ما هي آليّاتها؟ و كيف تطوّرت علاقتها بالسّلطة الأمويّة؟

محاولات الخليفة يزيد بن معاوية لأخذ البيعة من ابن الزّبير

لا بدّ من الإشارة إلى أنّ ابن الزّبير اختلفت منذ البداية حركته على حركة الحسين.

فقد بقي في الحرم المكّي منذ البداية عندما رفض أن يبايع ليزيد وبالتّالي كان لديه مجال ترابي ليقيم فيه سلطته وهو مجال الحرم المكّي. وهذا هامّ جدّا بالنّسبة لحركة معارضة ما. وكان للحرم المكّي شرعيّة تاريخيّة مرتبطة بقريش في الجاهليّة والإسلام. بينما لم يكن للحسين هذا المجال حيث غادر الحجاز إلى الكوفة ظانّا منه أنّه سيتولّى السّلطة بها. لكنّه قُتل خارجها بعد خذلان شيعته له.

فلمّا قُتل الحسين خطب ابن الزّبير في أهل مكّة وعظّم مقتله وعاب على أهل الكوفة خاصّة وعلى أهل العراق التغرير به. فقد دعوا الحسين لينصروه ويولّوه عليهم. فلمّا قدم عليهم نكّلوا به فقالوا له إمّا أن يضع يده في أيديهم، فيبعثون به إلى ابن زياد بن سميّة، فيُمضي فيه حكمه. وإمّا أن يُحارب رغم قلّة عدد أصحابه، فاختار الميتة الكريمة على الحياة الذّليلة[١]. وترحّم على الحسين ولعن قاتله.

اعتبر ابن الزّبير قتل الأمويّين للحسين سببا كافيا لعدم تصديق قولهم وقبول عهدهم وبالتّالي فهم ليسوا بأهل لتولّي الأمر أو السّلطة والخلافة.

وذكر ابن الزّبير أنّ الأمويّين قتلوا الحسين رغم أنّه كان طويل الصّلاة باللّيل تضرّعا إلى الله، وكثير الصّوم. فهو على هذا الأساس، أجدر وأحقّ بالخلافة من أعدائه وقتلته لكثرة قراءته للقرآن وبكائه من الخوف الله وصيامه وجلوسه في حلقات الذّكر. بينما كان يزيد يغنّي ويحدو ويشرب الخمر ويصطاد.

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٧٤؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣١٩.

واستند عبد الله بن الزّبير على القرآن لتأكيد خطابه الدّيني والسّياسي وضرب الشرعيّة الأمويّة ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾[1].

استغلّ عبد الله بن الزّبير قتل عبيد الله بن زياد للحسين لِيُضعف من الشرعيّة الدينيّة والتّاريخيّة الأمويّة.

حرص عبد الله بن الزّبير أوّلاً على الإنقاص من شرعيّة عبيد الله بن زياد بالتّذكير باستلحاق الخليفة معاوية بن أبي سفيان لزياد بنسبه. فالتّعريض بسميّة أمّ زياد هو تأكيد على أنّها كانت بغيّ بالطّائف وبالتّالي كانت هذه الشرعيّة ضعيفة بالمقارنة مع شرعيّة الحسين ابن فاطمة ابنة الرّسول أو مع شرعيّة عبد الله بن الزّبير ابن أسماء بنت أبي بكر الصدّيق. وفي مرحلة ثانية من خطابه السّياسي ـ الدّيني، سعى لاستغلال قتل الأمويّين للحسين لتوظيفه لصالحه ولصالح حركته كأحد أبناء المهاجرين البدريّين: ابن حواريّ الرّسول وابن أسماء ذات النّطاقين.

واستند عبد الله بن الزّبير على فكرة تديّن الحسين وورعه وانتمائه لأهل البيت وقتل الأمويّين له بالرّغم من ذلك، ليهدم الشرعيّة الدينيّة والسياسيّة ليزيد الفاسق، والسكّير، والماجن. كما استند ابن الزّبير على القرآن ككتاب رمز للأمّة ولفئة أبناء الصّحابة. بينما لا ينتمي يزيد للأمّة لقتله الحسين ولعدم جدارته بالخلافة نظرا لفسوقه.

وجد ابن الزّبير تعلّة وسببا مقنعا لجمهور المسلمين عند قتل الحسين من قبل الأمويّين ليهدم شرعيّة يزيد. فقد أبرز من جديد فكرة فسوق يزيد للتّعتيم عليه والخروج بصفة علنيّة على سلطته.

وبالفعل هبّ إليه أصحابه، وطلبوا منه أن يُظهر بيعته لأنّه لم يكن لديه منافس ينازعه السّلطة أو «الخلافة» بعد مقتل الحسين.

وقد كان ابن الزّبير يبايع النّاس سرًّا على الشّورى، ويُظهر أنّه عائذ بالبيت[2].

---

(١) مريم١٩/ ٥٩؛ الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٧٥.

(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٧٥؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٢٠.

فقد كان ابن الزّبير ينتظر تطوّرات حركة الحسين بعد خروجه إلى الكوفة. فرفض أن يُبايع ليزيد وكان النّاس يبايعونه في السرّ. بينما كان الخطاب الرّسمي الذي يُظهره للأمويّين هو أنّه يحتمي بالحرم المكّي. لكنّه أجاب أصحابه بعدم العجلة[1]. فلماذا طلب ابن الزّبير من أصحابه بعدم العجلة؟ هل كان لديه مخطّط معيّن؟ أم أنّه كان يُراوغُ السّلطة أي يزيد وعمرو بن سعيد؟

وكان عمرو بن سعيد بن العاص ـ والي مكّة من قبل يزيد ـ شديدا على ابن الزّبير وأصحابه وهو مع ذلك يُداري ويرفق[2].

أصبح ممثّل السّلطة الأمويّة في حيرة من أمره أمام هذه الظّاهرة السياسيّة الجديدة. فقد حاول عمرو بن سعيد أن يُخضع ابن الزّبير ويحمله على البيعة ولبس الجامعة بقوّة الجيش فأرسل له أعدى رجل له وهو أخوه عمرو بن الزّبير. فهتك عمرو بن سعيد حرمة مكّة وحرمة الأخوّة أو القرابة والرّحم وحرمة قريش لأوّل مرّة في تاريخ العرب في الجاهليّة والإسلام. وفشلت هذه الحملة العسكريّة فشلا ذريعا وقُتل عمرو بن الزّبير شرّ قتلة من قبل أخيه. ولم يعط ابن الزّبير بيعته للخليفة يزيد بن معاوية.

ولمّا تيقّن الخليفة يزيد بن معاوية من أنّ ابن الزّبير «جمع الجموع بمكّة»[3]، وإظهاره البيعة، أعطى الله عهدا ليوثقنّه في سلسلة أو جامعة. وكتب له بأنّه جعل على نفسه نذرا أن يُؤتى به في سلسلة[4].

يبدو أنّ جمع الجموع تعني بالنّسبة ليزيد شقّ عصا الطّاعة والخروج عن الجماعة من قبل ابن الزّبير بما أنّ النّاس بايعوه. فهذا يعني أنّ ابن الزّبير دعا لنفسه وأصبحت لديه قوّة بشريّة يعتمد عليها ضدّ يزيد. فقد ورد في القرآن، أنّ جمع

---

(١) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٧٥؛ البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٢٠.
(٢) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٧٥؛ البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٢٠.
(٣) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٧٥؛ البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٢٠.
(٤) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٢٠.

النّاس للحرب أو نحو ذلك لا يكون إلاّ بمشورة الرّسول ﴿وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾[1]. بينما أراد ابن الزّبير من وراء ذلك الخلاف والشّقاق على الخليفة يزيد بن معاوية وهذا من وجهة نظر الأمويّن.

وقد ظهرت من جديد فكرة الجامعة في هذه المرحلة بعد أن ذهب ضحيّتها عمرو بن الزّبير. وهي متعلّقة هذه المرّة بالنّذر الذي نذره يزيد بأن لا يقبل بيعة ابن الزّبير إلاّ في جامعة.

وقصّة النّذر تشبه النّذر الذي قطعه ابن زياد على نفسه إن أمسك بالحسين يمثّل بجثّته. وهي تعبّر عن إصرار السّلطة الأمويّة على فرض البيعة والقضاء على حركات العصيان الجديدة من نوعها لأنّها داخل فئة أبناء الصّحابة من قريش.

فالخليفة والوالي والي العراق يدافعان عن تماسك السّلطة والإيديولوجيا الأمويّة بكلّ ما أوتيا من جهد. وابتدع الخليفة يزيد بن معاوية طريقة جديدة في إذلال ابن الزّبير الذي رفض البيعة ثمّ دعا إلى البيعة إلى نفسه.

فقد جعل الخليفة الجامعة من ورق أي من ذهب[2] أو من فضّة[3]، وأضاف للجامعة البرنس من خزّ لإخفائها.

لقد أحدث يزيد بن معاوية تقليدا جديدا لفرض سلطته على ابن الزّبير. وكانت وسائل إذلال ابن الزّبير من موّاد نبيلة (الذّهب أو الفضّة والحرير).

وأرسل الخليفة يزيد بن معاوية النّعمان بن بشير الأنصاري وهمّام بن قبيصة النّميري[4] (وهو من أشراف الشام) حسب رواية للبلاذري[5] لابن الزّبير ليدعُواه للبيعة وأخذها منه وأن يُبرّ قسمهُ. وعندما وصلا إلى المدينة التقيا بعبد الله بن

---

(١) النور ٢٤ / ٦٢.

(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٧٦.

(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٢٠.

(٤) ابن حزم، مصدر مذكور، ص٢٧٩: بنو نُمير بن عامر بن صعصعة (من قيس) همّام بن قبيصة بن مسعود، قُتل يوم مرج راهط.

(٥) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٢٣.

مُطيع بن الأسود. فقال للنّعمان بن بشير بأنّه يدعو ابن الزّبير للبيعة ليزيد وهو أحقّ منه. فأجابه النّعمان: «مهْلاً فإنّ عواقب الفِتَنِ وبيلةٌ وخيمة، ولا طاقة لأهل هذا البلد بأهل الشّام»[1].

بيّن النّعمان بن بشير أنّ رفض البيعة من قبل ابن الزّبير وتعبير ابن مطيع عن عدم شرعيّة الخليفة يزيد بن معاوية هو إشارة لبداية الفتن. وحذّر من عواقب الفتن، كما خوّف ابن مطيع من إرسال الخليفة يزيد بن معاوية لجند الشّام. فهذا الجند هو عبارة عن جيش الدّولة التي تبعثه لإخضاع كلّ من يخرج عن سلطتها. وهو يعبّر عن إقليميّة الدّولة التي كانت ترتكز على أهل الشّام كقاعدة اجتماعيّة وعسكريّة لسلطتها.

هل بدأ الخليفة يتحدّث مع خاصّته عن إمكانيّة إرسال جيش لإخضاع ابن الزّبير؟ ربّما دار الحديث في البلاط الأموي بين الخليفة الأموي عن إرسال جند الشّام لإخضاع ومعاقبة ابن الزّبير على عدم مبايعته للخليفة.

ثمّ قصدا مكّة للتّفاوض مع ابن الزّبير فبلّغاه سلام يزيد، وطلبا منه أن يُبايع لهُ. فكان جواب عبد الله بن الزّبير أنّه «وقع في يزيد وذكره بالقبيح»[2].

وخلا بالنّعمان بن بشير وسأله من أفضل لديه هو أو يزيد؟ فأجابه النّعمان أنّه أفضل. وسأله ابن الزّبير من أفضل أبا وأمًّا؟ فأجابه النّعمان أنّه هو أفضل، وحذّره من الفتنة لأنّ النّاس بايعوا يزيد و اجتمعوا عليه.

يبدو أنّ ابن الزّبير طوّر خطابه السّياسي بما أنّه أصبح يُجاهِر بثلبه وشتمه واستنقاصه ليزيد وبالتّالي ينقص من شرعيّته التّاريخيّة.

بدأ ابن الزّبير يقارن بينه وبين يزيد على مستوى الشرعيّة التّاريخيّة فهو من أبناء الصّحابة: أبوه الزّبير بن العوّام، حواريّ الرّسول وأمّه أسماء بنت أبي بكر وخالته عائشة زوجة الرّسول. وبالتّالي فإنّ شرعيّة يزيد ضعيفة وهشّة بالمقارنة مع

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٢٣.

(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٢٣.

شرعيّته: فأبوه معاوية من الطّلقاء أسلم بعد فتح مكّة، وأمّه ميسون بنت بحدل الكلبيّة وهو فاسق وسكّير. وقد اعترف له النّعمان بن بشير الأنصاري بهذه الشرعيّة لكنّه اعتبر أنّ البيعة تمّت ليزيد، فهي جامعة. ولا يمكن الخروج عنها لأنّ ذلك يسبّب الفتنة. وبالتّالي فإنّ النّعمان بن بشير يمثّل الخليفة يزيد بن معاوية. وهو حريص على الجماعة، ووحدة الأمّة.

ولم يتمكّن النّعمان وهمّام من إقناع ابن الزّبير، فرجعا للشّام وأخبرا الخليفة يزيد بن معاوية. فغضب هذا الأخير غضبا شديدًا وتمسّك من جديد بيمينه في قبول بيعته إلاّ وفي عنقه جامعة يقدم به فيها[1].

فأشار عليه كلّ من عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ومعاوية بن يزيد بن معاوية بأن لا يُهيّج ابن الزّبير فيخلق له مشاكل لا حاجة للخليفة بها لأنّه رجل ذو أنفة وعنيدٍ.

هنا لا بدّ من الإشارة إلى أنّ عبد الله بن جعفر رغم مسؤوليّة الخليفة يزيد بن معاوية في قتل الحسين فإنّه حافظ على علاقة طيّبة به! وكان يُشيرُ على الخليفة بنصائحه.

كما كان وليّ العهد معاوية بن يزيد يمتاز برجاحة العقل والرّصانة في اتّخاذ القرارات. لكنّ الخليفة يزيد بن معاوية لم يسمع لهما وسارع لإذلال ابن الزّبير وحمله على البيعة. لكن إلى حدّ الآن لم يُرسل الخليفة جيشا لإخضاعه، بل هي مفاوضات لإقناع ابن الزّبير بتسليم بيعته للخليفة. وأصبح العنصر الأساسي في هذه البيعة وربّما أهمّ من البيعة هو إتيان ابن الزّبير للخليفة بدمشق في جامعة!

وهذا دليل أيضا على تطوّر الملك الأموي، فلا يقلّ يزيد بن معاوية أهميّة عن أبيه في تطوير الملك والدّولة ومظاهر الملك. فإخضاع أحد عناصر قريش وابن صحابيّ وفرض إلباس الجامعة له هو أكبر دليل على تطوّر الملك الأموي.

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٢٤.

دخل الخليفة في عمليّة تحدٍّ واستفزاز لابن الزبير للتحصّل على البيعة. فقد أحسّ يزيد أنّ ابن الزّبير تحدّى سلطته وأمعن في إنكار سلطانه، فقرّر أن يُرسل إليه وفدا ثانيا بعد فشل النّعمان بن بشير وهمّام بن قبيصة في مهمّتهما.

تركّب هذا الوفد الثّاني من ١٣ شريفا من أشراف الشّام، وهذا دليل على تواصل السّياسة التي ركّزها الخليفة معاوية بن أبي سفيان. فقد اعتمد منذ ولايته للشّام في عهد الخليفة عمر بن الخطّاب على أهل الشّام، وتزوّج معاوية ميسون بنت بحدل بن أنَيف بن حارثة بن جناب الكلبي(١)، لتكون لديه علاقات وطيدة بقبائل الشّام خاصّة منها كلب. وهبّ أهل الشّام بعد مقتل عثمان إلى جانب معاوية لنصرة وليّه المظلوم(٢). سانده أهل الشامّ في صراعه مع عليّ بن أبي طالب وأساسا في صفّين(٣). وقد لعبت كندة والأشاعرة وعكّ دورا هامّا في هذه المعركة(٤). وأصبح أشراف الشّام بعد تولّي معاوية الخلافة الدّعامة الاجتماعيّة للدّولة الأمويّة. وكان معاوية يغدق عليهم الهدايا والإقطاعات حتّى يضمن تحالفهم وخاصّة تأطيرهم لعشائرهم(٥).

وواصل يزيد بن معاوية اتّباع سياسة أبيه، فأرسل أشراف الشّام إلى ابن الزّبير وهم الحُصين بن نُمير السكوني، ومسلم بن عُقْبة المُرّي، وزُفر بن الحارث الكِلابي، وعبد الله بن عِضاه الأشعري، وروْح بن زنباع الجُذامي، ومالك بن هُبيرة السَكوني، ومالك بن حَمْزة الهَمْداني، وأبا كبْشة السَكْسكي، وزَمْل بن

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٢٩ أمّ وليّ العهد يزيد و سليلة قبيلة كلب.

(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٦، ص٢٢٢.

(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٧.

(٤) هشام جعيط، *نشأة المدينة العربيّة الإسلاميّة الكوفة*، ص٣٨٢.

(٥) بثينة بن حسين، مرجع مذكور، ص٣٥٧؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٦، ص٢٥٩: بقيت هذه النّواة الصلبة من الأشراف وفيّة للدّولة الأمويّة بعد موت الخليفة يزيد بن معاوية وابنه معاوية. وهي متركّبة من الحصين بن نمير السكّوني ومالك ابن هُبيرة السكّوني، وروح بن زنباع الجذامي وزَمْل بن عمرو العُذري وعبد الله بن مسعدة الفزاري، وعبد الله بن عضاه الأشعري، وأبو كبشة بن حيويل بن يسار السَكْسكي. وقد بايعت بالخلافة لمروان بن الحكم في الجابية في ٣ من ذي القعدة سنة ٦٤هـ/ ٦٨٤م.

عمرو العُذْري، وعبد الله بن مَسْعَدة الفَزاري، وناتل بن قيس الجُذامي، والضحّاك بن قيس الفهري.

ولم يذكر الطبري من هذا الوفد المتركّب من الأشراف إلاّ ابن عضاه الأشعريّ ومسْعدة وأضاف عبارة «أصحابهما»[1]. ما هي الرّسالة التي كلّفهم بها الخليفة يزيد بن معاوية؟

أمر يزيد هذا الوفد من الأشراف أن يعلموا ابن الزّبير بأنّه أرسلهم «احتجاجا عليه وإعذارا[2] إليه»[3]. كما كلّفهم أن يُحذّروه من الفتنة، ويُعلموه أنّ الخليفة يبرّه ويكرمه إذا أبرّ يمينه وأتاه في الجامعة التي بعث بها إليه معهم. اتّبع الخليفة يزيد بن معاوية سياسة مراحل ومداراة ورفق مع عبد الله بن الزّبير. فقد أرسل له النّعمان بن بشير وهمّام بن قبيصة في مرحلة أولى. ثمّ أرسل إليه هذا الوفد من الأشراف في مرحلة ثانية لإقناعه بلبس الجامعة ومبايعته في دمشق.

لقد كان الخليفة يزيد بن معاوية حريصا على وحدة الجماعة من موقعه كإمام، وعلى فرض البيعة على ابن الزّبير لتجنّب الفتنة و الانشقاق.

لماذا أرسل هذا العدد الهامّ من الأشراف لابن الزّبير؟ هل في إرسالهم دلالة على إقليميّة الدّولة وأرستقراطيّتها؟ هل في إرسالهم تأكيد على سلطة الخليفة وتعبير عن هيبة الدّولة؟

لو درسنا تركيبة هذا الوفد الذي يتكوّن من الحُصين بن نُمير السكوني[4]، ومسلم بن عُقْبة المُرّي[5]، وزُفر بن الحارث الكِلابي[6]، وعبد الله بن عِضاه

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٧٦.

(٢) ابن منظور، معجم مذكور، ج٢، ص٧٢٠: والإعذار هو كثرة الذّنوب والعيوب.

(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٢٤.

(٤) ابن حزم، مصدر مذكور، ص٤٢٩: السكّون من أشرس بن كندة «الحصين بن نمير بن ناتل بن لبيد بن جِعْثنة بن الحارث بن سلمة بن شُكامة بن شبيب بن السّكون، صاحب حصار مكّة»، وهو من أشراف الشّام.

(٥) ابن حزم، مصدر مذكور، ص٢٥٤ بنو مُرّة بن عوف بن ذُبيان من قيس.

(٦) ابن حزم، مصدر مذكور، ص٢٨٦: من بني عمرو بن كلاب (من قيس)، «زفر ابن الحارث بن عبد بن عمرو بن مُعاذ بن يزيد بن عمرو بن الصّعق، القائم بالجزيرة أيّام مروان»؛ البلاذري، مصدر مذكور، =

الأشعري[1]، وروْح بن زنباع الجُذامي[2]، ومالك بن هُبيرة السَكوني[3]، ومالك بن حَمْزة الهَمْداني[4]، وأبا كَبْشة حيول بن يسار السَكْسكي[5]، وزَمْل بن عمرو العُذْري[6]، وعبد الله بن مَسْعَدة الفَزاري[7]، وناتل بن قيس الجُذامي[8]، والضحّاك بن قيس الفهري[9].

تظهر التّركيبة القبليّة اليمنيّة طاغية على هذا الوفد ٨ أشراف من اليمن، بينما لا نجد إلاّ شريفين من قيس، مسلم بن عُقْبة المُرّي وزُفر بن الحارث الكلابي. كما أنّنا نجد قرشيّا واحدا وهو الضحّاك بن قيس الفهري. وقد لعب البعض من هؤلاء الأشراف دورا سياسيّا وعسكريّا هامّا في فترة الخليفة معاوية بن أبي سفيان كالضحّاك بن قيس الفهري وعبد الله بن مَسْعَدة الفَزاري. أو سيلعبون دورا في فترة الخليفة يزيد بن معاوية كمسلم بن عُقْبة المُرّي والحُصين بن نُمير السكّوني.

= ج٧، ص٤١ ـ ٥٢؛ البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٦، ص٢٠٧: كان زفر أوّل من قتل قتيلا بعثمان. وطبّق القصاص للخليفة المظلوم.

(١) ابن حزم، *مصدر مذكور*، ص٣٩٧ الأشعر هو نبت بن أُدد بن زيد بن يشجُب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ.

(٢) ابن حزم، *مصدر مذكور*، ص٤٢٠: كان روح بن زنباع أحد أشراف الشّام (من اليمن)؛ ابن سعد، *مصدر مذكور*، ج٥، ص١٨١ هو من أخصّ خاصّة الخليفة عبد الملك بن مروان «كان يبيت عند عبد الملك وسادهما واحد، وكان أحلى النّاس عند عبد الملك».

(٣) ابن حزم، *مصدر مذكور*، ص٤٣٠ السكّون هو ولد أشرس بن كندة: «كان شريفاً بالشأم».

(٤) ابن حزم، *مصدر مذكور*، ص٣٩٢ همدان من كهلان بن سبأ.

(٥) ابن حزم، *مصدر مذكور*، ص٤٣١: السّكاسك بن أشرس بن كندة: «لهم ثروة عظيمة بالشّام».

(٦) ابن حزم، *مصدر مذكور*، ص٤٤٩: زمل بن عمرو بن العنز بن خشّاف بن خديج بن واثلة بن عذرة، له صحبة وعقد له رسول الله لواء شهد به صفّين مع معاوية.

(٧) ابن سعد، *مصدر مذكور*، ج٧، ص٣٠١: ابن مسعدة، صاحب الجيوش؛ البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٢٠٩.

(٨) ابن حزم، *مصدر مذكور*، ص٤٢١: من أفصى بطن من بني حرام بن جُذام، «ناتل بن قيس، ولاّه ابن الزّبير فلسطين، وقتله مروان حين قيامه».

(٩) ابن سعد، *مصدر مذكور*، ج٧، ص٢٨٧ ـ ٢٨٨؛ البلاذري، *مصدر مذكور*، ج١١، ص٤٦: «كان على شرط معاوية وكان يثق به، ولاّه معاوية الكوفة سنة بعد موت زياد. وولاّه عبد الله بن الزّبير الشّام، وقتل يوم مرج راهط».

ولعب أشراف آخرون دورا هامّا في الفتنة الثّانية بانضمامهم لابن الزّبير كالضحّاك بن قيس الفهري وزُفر بن الحارث الكلابي وناتل بن قيس الجذامي. المهمّ أنّ يزيد بيّن لابن الزّبير أنّه يستند إلى فئة أرستقراطيّة ومن ورائها عشائرها، وكانت هذه الفئة بمثابة وسيلة ضغط على ابن الزّبير ليُبايع ليزيد.

فقد مرّ البريد بريد الخليفة والوفد المتركّب من الأشراف من المدينة قبل الذّهاب إلى ابن الزّبير في مكّة. فأرسل مروان بن الحكم ابنه عبد العزيز وابنا آخر له لم تذكر الرّواية إن كان عبد الملك بن مروان أم غيره، وقد تمثّل عبد العزيز بن مروان بالشّعر لابن الزّبير:

فخُذها فليست للعزيز بِخُطّةٍ ... وفيها مقالٌ لامرئٍ مُتذلّلِ
أَعَامِرَ إنّ القومَ سامُوك خُطَّةً ... وذلك في الجيران غَزْل بِمغزل
أَراك إذا ما كنتَ للقوم ناصحًا ... يُقالُ لهُ بالدَّلْو أدبِرْ وأَقبِل[1]

يبدو أنّ هذه الرّواية رواها الزّهري[2] عن عبد العزيز بن مروان بن الحكم وهو شاهد عيان أموي. ويعتبر الزّهري من أهمّ المؤسّسين للكتابة التّاريخيّة في الفترة الأموية، كما أنّه كان من كبار المحدّثين. إضافة لملازمته للخلفاء ابتداء من فترة الخليفة الوليد بن عبد الملك. وكان تأثيره كبيرا في فترة الخليفة هشام بن عبد الملك[3]. وقد هدف مروان بن الحكم من وراء هذا الشّعر إلى إبراز طابع الإذلال والخسف الذي ارتبط بالجامعة، أي الرّسالة التي أرسلها الخليفة يزيد بن معاوية. فكلّ هؤلاء الأشراف الذين أرسلهم الخليفة يزيد بن معاوية جاؤوا بجامعة هي عنوان السّلطة الأمويّة والملك. في نفس الوقت، كانت وسيلة إخضاع لابن الزّبير.

المهمّ أنّ عبد العزيز بن مروان تمثّل بالشّعر لابن الزّبير بعد أن بلّغته الرّسل (أي

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٧٦.
(٢) ابن سعد، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٨ ـ ٣٦٨: هو من الطبقة الرّابعة من التّابعين من أهل المدينة؛ ج٢، ص٢٩٦ ـ ٢٩٧؛ عبد العزيز الدوري، مرجع مذكور، ص٧٨ ـ ١٠٢.
(٣) ابن سعد، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٥٠.

الأشراف) رسالة الخليفة. لماذا عمد مروان بن الحكم وابنه عبد الملك لاستفزاز ابن الزّبير (إرسال عبد العزيز بن مروان لكي يتمثّل بالشعر أمام ابن الزّبير)؟

هل كان مروان وعبد الملك يمثّلان مصلحة السّلطة الأمويّة ومصلحة يزيد والخلافة، وأرادا الحفاظ على الطّاعة والجماعة؟ أم أنّهما صعّدا الأزمة بين الخليفة وابن الزّبير ليخلو لفرع العاص المجال وتنتقل الخلافة إلى فرع مروان بن الحكم؟ المهمّ أنّ مروان وعبد الملك لعبا دورا هامّا لصالح السّلطة الأمويّة.

قصد وفد الأشراف الشّاميّين ابن الزّبير، وابتدأ ابن عِضاه الأشعري بمخاطبة ابن الزّبير فذكر له نصرته للخليفة المظلوم عثمان يوم الدّار.

وقد كان عثمان أمّره على الدّار[1]. وذكر له غضب الخليفة يزيد بن معاوية من رفضه للمطلب الذي قدم به عليه النّعمان وهمّام. وأبلغ ابن عضاه ابن الزّبير بأنّ الخليفة حلف أن يأتيه في جامعة خفيفة لتحلّ يمينه، وأن يلبس عليها بُرنُسا فلا تُرى. وفي مقابل ذلك، فإنّ الخليفة سيُقرّبه ويمنحه الامتيازات التي يطلبها من ولاية ومالٍ. وقال له بقيّة الأشراف نفس الكلام.

يبدو أنّ ابن الزّبير كان مدافعا عن الإمام المظلوم أي أنّه اتّبع مسارا عثمانيّا متماشيا مع الإيديولوجيا الأمويّة. حاول الخليفة إقناعه بتخفيف الشّرط عليه: جامعة خفيفة من ذهب أو من فضّة وليست من حديد. كما أنّ البرنس كان وسيلة لإخفاء هذه «الإهانة» لقرشيّ يرى أنّه لديه فضل.

كما حاول الخليفة أن يشتري ضمير ابن الزّبير بالأموال والمناصب (الولاية).

وهنا يُعتبر يزيد سُفيانيّا بما أنّه اتّبع ما كان معاوية يفعل مع أعدائه. لكنّ ردّ فعل ابن الزّبير كان عدم الامتثال لأوامر الخليفة. فقد رفض قبول الإهانة والذلّ والخسف، وقال: «ما يحلّ لي أن أفعل ما تدعونني إليه»[2].

فماذا يقصد ابن الزّبير بلا يحلّ له لبس الجامعة والبرنس؟ هل المقصد بالحلال

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٦، ص١٩١ ـ ٢١١ ـ ٢١٥.

(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٢٤.

هو فضله وانتمائه لفئة أبناء الصّحابة؟ ربّما كان ابن الزّبير يرمز من وراء كلامه إلى هذه الشرعيّة التّاريخيّة والدّينيّة إضافة لشرف الانتماء لقريش.

صعّد ابن الزّبير معارضته لطلب يزيد حيث قال «فليجعل يزيد يمينه هذه في أيمانٍ قد حنث فيها»[1] ومعنى هذا أنّه رافض للبيعة بما أنّه رفض أن يلبس الجامعة والبرنس. كما أنّه رفض أن يبرّ يمين الخليفة. كما أنّه أكّد على عدم تديّن الخليفة بما أنّه يحلف ويحنث. و في هذا ضرب لشرعيّة يزيد التآريخيّة والدّينيّة.

وأكّد أحد الحاضرين من رجال ابن الزّبير وهو أيّوب بن زُهير بن أبي أميّة المَخزومي بأنّ يمين يزيد في ابن الزّبير ليست أوّل يمين ولا آخرها حنث فيها، ووجب عليه تكفيرها.

يبدو من خلال هذا الردّ أنّه بدأت تظهر حركة معارضة من قبل ابن الزّبير ليزيد، والتفّ حوله ناس من قريش لا يعترفون بشرعيّة يزيد بن معاوية.

وأضاف ابن الزّبير يشتم الخليفة يزيد بن معاوية ويستنقص منه قائلا بأنّه كان دائما في حالة سُكر ليلا ونهارا.

يُعتبر هذا الشّتم تصريحا بالمعارضة السياسيّة ليزيد من قبل ابن الزّبير، وفي نفس الوقت يضرب ابن الزّبير الشرعيّة الدّينيّة ليزيد. فشرب يزيد للخمر وسكره وعربدته، كانت العنصر الأساسي في الخطاب الدّيني والسّياسي لابن الزّبير لتقويض الشّرعيّة التّاريخيّة والدّينيّة ليزيد بن معاوية وللدّولة الأمويّة.

وكانت هذه الشّتيمة (أي شرب يزيد للخمر) سلاحا شُهر ضده منذ عهد معاوية له.

واستعمل هذا السّلاح من قبل الحسين بن عليّ، وبعد مقتل هذا الأخير أُشهر هذا السّلاح من جديد في وجه يزيد من قبل ابن الزّبير لتبرير رفضه البيعة ليزيد وخروجه عن طاعته. وكانت هذه الشرعيّة التّاريخيّة المنقوصة ليزيد ولعبيد الله بن

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٢٤.

زياد في اعتقادنا من أهمّ عوامل الثّورة ضدّ سلطة يزيد: ثورة ابن الزّبير ثورة أهل المدينة.

ويبدو أنّ ابن الزّبير تمثّل بهذا الشّعر أمام وفد الأشراف الشّاميّين حسب رواية البلاذري. بينما ذكر الطبري أنّ هذا الشّعر تمثّل به ابن الزّبير ردّا على الشّعر الذي تعمّد مروان بن الحكم أن يُبلّغه لابن الزّبير:

إنّي لَمِنْ نَبْعةٍ صُمٌّ مكاسِرُها ... إذا تَنَوحتِ القصباءُ و العُشَرُ
فلا أَلينُ لغير الحقّ أسألُهُ ... حتّى يَلين لِضِرس الماضِغ الحَجَرُ[1]

يبدو من خلال هذا الشّعر أنّ ابن الزّبير اعتبر مطلب يزيد بن معاوية ضربا لأنفته وعزّة نفسه. وبيّن بطريقة غير مباشرة أنّه يمثّل تيّارا سياسيّا جديدا أو مستقلاً عن الدّولة الأمويّة وهو تيّار «الحقّ». فهذا اللّفظ يعبّرعن مفهوم مثالي وضبابيّ، ولا يعبّر عن برنامج واضح. كما أنّ المرجعيّة السياسيّة والدّينيّة لهذه الكلمة هي فترة الخلفاء الأوائل بعد موت الرّسول أي فترة أبي بكر الصدّيق وعمر بن الخطّاب.

كما أنّ التمثّل بالشّعر دلالة على تواصل الثّقافة الجاهليّة في الفترة الأموية للتّعبير عن مواقف ذاتيّة أو سياسيّة.

ويذكر الطبري أنّ ابن الزّبير ردّ على البريد (أي بريد الخليفة) ردّا رقيقا وقال بأنّه لن يكون ذلك المتضعّف الذي ذكره له مروان بن الحكم في شعره[2].

وأضاف ابن الزّبير يُفسّر موقفه لابن عضاه الأشعري ولمجموعة الأشراف الذين أرسلهم يزيد لحمله على لبس الجامعة والبرنس، فقال أنّه بأنّه لا يخاف من النّاس ولا من السّلطة. وهو متأكّد من أنّه مُحقٌّ في أمره: «على بيّنة من ربّي وبصيرة من ديني»[3].

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٧٦؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٢٥.
(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٧٥.
(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٢٥.

وأكّد ابن الزّبير أنّه إن قُتل ـ وهنا يُعرّض ابن الزّبير ربّما بمقتل الحسين بن عليّ شهيدا في سبيل مبادئه الدّينيّة ـ فهو خير له. وإن قَتلوه فسيعرف الله أنّه لا يُحبّ «أن يُعمل في أرضه بالمعاصي»[١].

يبدو من خلال خطاب ابن الزّبير ظهور جدليّة الفتنة: فابن الزّبير متأكّد من أنّه على حقّ، وأنّ خطابه الدّيني نابع من ورعه وإيمانه بالله. فهو على هذا الأساس أفضل من يزيد. وبالتّالي فهو يُؤكّد على شرعيّته التّاريخيّة بانتمائه لفئة أبناء الصّحابة.

كما بيّن ابن الزّبير أنّه لا يخشى الموت، وهو بطبيعة الحال لا يخشى سلطة يزيد الذي سيُسلّط علية القوّة قوّة جيش الدّولة إن رفض البيعة.

وبيّن ابن الزّبير أنّ مبادئه الدّينيّة التي تتعارض مع سياسة يزيد العاصية لله تدفعه بصفة غير مباشرة إلى الامتناع عن مبايعة يزيد.

والمعاصي هي شرب يزيد للخمر وغيرها من الأشياء التي عيبت عليه كالصيد والغناء واللّعب بالكلاب والقردة واستعمال ابن زياد وقتل الحسين بن عليّ.

وضع ابن الزّبير في هذه الإجابة لأشراف الشّام عن عدم امتثاله لمطلب الخليفة يزيد بن معاوية أُسُسَ حركة معارضة سياسيّة ـ دينيّة. وهي ترتكز على ضرب الشرعيّة الدّينيّة ليزيد وعلى برنامج سياسي ديني ضبابي لأنّه لا يرتكز على برنامج واضح.

يطرح ابن الزّبير إشكاليّة قتله. فهو يعرف في قرارة نفسه أنّ معارضته لسلطة يزيد ستدفع بهذا الأخير أن يُرسل له جيشا ليقتله.

وهنا أثبتت تجربة الحسين أنّ عدم نزوله على حكم ابن زياد، دفعت بالوالي لقتله من باب قتل العصاة والمارقين على سلطة الخليفة. ورغم ذلك، كان ابن الزّبير مصمّما على معارضة يزيد ورفض مبايعته.

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٢٥.

وأعاد ابن الزّبير الحديث عن فكرة القتل أي قتل السّلطة الأمويّة له، فقال لابن عضاه بأنّه «حمامة من حمام هذا المسجد، أفكنتم قاتلي حمامةٍ من حمام المسجد؟»[1].

يبدو من خلال هذا الكلام لابن الزّبير أنّه يتعبّد بالمسجد الحرام، وعلى هذا الأساس لن يقتله الأمويّون. فقد خطّط ابن الزّبير لمعارضة يزيد سياسيًا، وكان وجوده بمكّة واحتمائه بها حيلة لكي يهرب من تتبّعات الأمويّين. وهو في ذلك متأكّد من عدم تجرّؤ الأمويّن على مهاجمة هذا المكان المقدّس.

على هذا الأساس، قيل عنه «زعم أنّه عائذ بالبيت»[2]. فقد كان اللّجوء للبيت تكتيكا سياسيًا من قبل ابن الزّبير.

وأجاب ابن عضاه ابن الزّبير بأن أَمَر غلامه بأن يأته بقوس وأسهم، ثمّ سدّد سهمه لحمامة من حمام المسجد وسألها إن يشرب يزيد الخمر فإن أجابت بنعم فسيقتلها. وسألها إن هي تخلع أمير المؤمنين يزيد وتُفارقُ الجماعة وتُقيم بالحرم ليُستحلّ بها، فإن هي قالت نعم سيقتلها.

فالسّؤال الأوّل المطروح على الحمامة هو متعلّق بالشّرعيّة الدّينيّة للخليفة يزيد بن معاوية أي شربه للخمر. وهي حجر الأساس في الخطاب الإيديولوجي لابن الزّبير أي تكسير شرعيّة يزيد حتّى يظهر هو أجدر بالخلافة منه لسابقته وقدمته. وتعلّق السّؤال الثّاني أو الخطأ الكبير لابن الزّبير في خلع الخليفة يزيد بن معاوية وشقّ عصا الطّاعة وتفريق الجماعة.

كما أنّه أقام بالحرم لاستحلاله. كان هذا الخطاب الإيديولوجي الأموي موجّها ضدّ ابن الزّبير. وأجاب ابن الزّبير ابن عضاه متعجّبا من مخاطبته الطّير فهو لا يتكلّم. فأجابه ابن عضاه بأنّه هو يتكلّم وتهدّده بأن يُبايع طائعا أم كارها أو أنّه يُقتل. كما أنّهم إن أمروا بقتاله، يدخلون الكعبة ويهدمونها ويحرقونها عليه. فسأله

---

(١) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٢٥.

(٢) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٣٤.

ابن الزّبير إن هو يُحلُّ الحرم والبيت؟ وأجابه ابن عضاه بأنّه يحُلّ الحرم من ألحد فيه.

ذكر البلاذري صورة رائعة لطاعة أشراف الشّام للخليفة يزيد بن معاوية وحرصهم على فرض سلطته. فقد تحاور ابن عضاه مع حمامة من حمام المسجد الحرام بحضور ابن الزّبير حتّى يُبلّغ هذا الأخير مدى مقدرة السّلطة الأمويّة على إخضاعه. فمعارضته لسلطة الخليفة تدفع هذا الأخير لتسليط كلّ العقوبات عليه.

بيّن ابن عضاه بهذه المحاورة مع ابن الزّبير مثالا جيّدا لهتك الحرمات في فترة الخليفة يزيد بن معاوية في سبيل تركيز سلطة الدّولة وإيديولوجيّتها.

برزت جدليّة الفتنة الثّانية التي أبرزت خطابين سياسيّين مختلفين ومتضادّين ومتصارعين. فيبدو ابن عضاه مُمثّلا لسلطة الخليفة يزيد بن معاوية ولسلطة أهل الشّام الذين يتميّزون بطاعتهم للخليفة يزيد بن معاوية (أي إقليميّة الدّولة الأمويّة التي ستتطوّر في فترة يزيد تطوّرا هامّا).

ويذهب أهل الشّام، وبالتّحديد أشرافهم، بالطّاعة للخليفة الأموي مذهبا بعيدا. فهم يضربون الكعبة ويهدمونها ويحرقونها إن لزم الأمر لإخضاع ابن الزّبير وإجباره على البيعة والطّاعة أو أنّه يُقتل. كما ظهر مفهوم إحلال البيت من قبل «المُلحد»[1] ابن الزّبير.

يظهر لأوّل مرّة في الخطاب الإيديولوجي الأموي مفهوم الإلحاد كمفهوم مرتبط بابن الزبير لخلعه الطّاعة وخروجه عن الجماعة واستحلاله البيت.

وهذا المفهوم هو الذي سيتّخذه الأمويّون أساسا إيديولوجيّاً لمهاجمة ابن الزّبير في مكّة وضرب الكعبة بالمنجنيق.

وفشل هذا الوفد الذي أرسله الخليفة في إقناع ابن الزّبير بلبس الجامعة والبرنس والقدوم على الخليفة في الشّام لتقديم بيعته. فقد رفض ابن الزّبير أن يخرج معهم

---

(١) ابن منظور، معجم *مذكور*، ج٣، ص٣٤٨: ألحدَ الرجل أي ظلم في الحَرَم. ومعنى الإلحاد في اللّغة: الميل عن القصد.

حسب رواية البلاذري، وقال لهم: «قولوا ليزيد يجعلْ يمينه هذه من أيْمانه التي يجب عليه أن يكفّرها»[١].

كان هذا الجواب طعنًا على الشرعيّة التّاريخيّة ليزيد، ورفضا للطّاعة ـ طاعة الخليفة ببرّ قسمه ـ والطّاعة بتقديم البيعة. وبقي مشكل ابن الزّبير قائما بما أنّه لم يُقدّم بيعته.

وعبّر شاعر من أنصار ابن الزّبير وهو دهبل الجُمحي، عن هذه الوضعيّة أي رفض ابن الزّبير للبس الجامعة:

لا يجعلنك في قيدٍ وسلسلةٍ كيما يقولَ أتانَا وهو مغلولُ
بين الحواريّ والصدّيقِ ذو نسبٍ صافٍ وسَيفٌ على الأعداءِ مسلولُ

يُركّز الشّاعر الشرعيّة التّاريخيّة لابن الزّبير التي تعتمد شرف الانتماء لحواريّ الرّسول وللصدّيق، فهو يرفض الذلّ من أعدائه الأمويّين الذين يريدون منه أن يأتي مغلولاً في جامعة أو سلسلةٍ.

وقد أجاب ابن الزّبير على مطلب الخليفة بأن دعا عليه بأن لا يبرّ الله قسمه ولا وفّق له في الوفاء بنذره[٢].

فقال له أخوه عروة بن الزّبير أو غيره، ولعلّ الرّواية تذكر عروة لأنّه كان في ما بعد صديقا للخليفة عبد الملك بن مروان[٣] أي أنّه كان ربّما يبحث عن حلّ لهذه الأزمة السياسيّة الدّينيّة.

قال له عروة أو غيره بأنّه ليس عليه بأس من برّ قسم ابن عمّه[٤]. لكنّ ابن الزّبير كان مصمّما على رفض هذه الطريقة لإذلاله. كما كان مصرّا على عدم بسط يده لمبايعة يزيد. كما يظهر من جديد هذا المعطى الانتروبولوجي الهامّ وهو مفهوم

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٢٧.
(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٢٠ ـ ٣٢١.
(٣) عبد العزيز الدوري، مرجع مذكور، ص٦٣.
(٤) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٢١.

ابن العمّ. فعبد الله بن الزّبير ويزيد أبناء عمّ مثل الحسين بن عليّ ويزيد. فقد أصبح الصّراع السّياسي قائما بين أبناء العمّ وهو نوع جديد من الصّراع أفرزته الفتنة الثّانية.

لم تذكر المصادر ردّ فعل يزيد على رفض ابن الزّبير لبس البرنس والجامعة والقدوم مع الوفد إلى الشّام لمبايعة يزيد بن معاوية في دمشق.

ولم يكن وفد الأشراف المحاولة الأمويّة الوحيدة لإقناع ابن الزّبير بالبيعة ليزيد. فيبدو أنّ مروان بن الحكم قدم على ابن الزّبير، وقال له بأنّ الأمويّين «لا يَدَعُون سلطانهم حتّى يَذُبُّوا عنه، وخوّفهُ أهل الشام» لكنّه لم يُجبه إلى شيء ممّا قاله له[1].

عَمِلَ مروان على محاولة إقناع ابن الزّبير بعزم الأمويّين على الدّفاع عن السّلطة الأمويّة. كما أنّهم سيعملون جاهدين لإخضاعه. كما برز لأوّل مرّة بالحجاز التّخويف بجند الشّام، وهذا يدلّ على إقليميّة الدّولة الأمويّة.

يشبه خطاب مروان بن الحكم خطاب أشراف الكوفة للمقاتلة في ثورة مسلم بن عقيل بن أبي طالب لتثبيطهم عن الالتحاق بالحركة الشّيعيّة. وقد أعطى هذا التّخويف أكله. بينما لم يُؤثّر هذا الخطاب في ابن الزّبير. ما هو سرّ الاختلاف بين خوف أهل الكوفة من احتلال جند الشّام للكوفة وعدم اكتراث ابن الزّبير لذلك؟ كان أهل الكوفة ذوي نرجسيّة كبيرة، وكان ذكر احتلال أهل الشّام لمصرهم يُحطّم نرجسيّتهم. كما أنّ خوفهم من الدّولة التي تمنعهم الأعطيات كان هاجسهم الأساسي. بينما كان ابن الزّبير مُطمئنّا لاحتمائه بالحرم المكّي وواثقا من شرعيّته التّاريخيّة بانتمائه لفئة أبناء الصّحابة. وربّما كان يستبعدُ مهاجمة الأمويّين للحرم المكّي.

فالخليفة سيلجأ لجند الشّام كحلّ نهائي وجذري بعد أن رفض ابن الزّبير البيعة له.

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٣٥.

تحوّل طبيعة سلطة عبد اللّه بن الزّبير

«وعلا أمر ابن الزّبير بمكّة وكاتبه أهل المدينة، وتحدّث النّاس بأنّه إذ قُتل الحسين فلا أحد يُنافس ابن الزّبير»[1].

سيطر ابن الزّبيرعلى مكّة، واتّصل به أهل المدينة عن طريق مكاتبات لكن لم تذكر المصادر بيعة أهل المدينة له. كما لم تذكر ما هو محتوى المكاتبات. هل كان أهل المدينة يريدون مبايعته؟

تبدو حركة ابن الزّبير حركة هامّة بما أنّها استقطبت أهل مكّة. كما أنّها استهوت أهل المدينة في هذه الفترة. فأظهر ابن الزّبير خلافه على يزيد، وخَلَعَهُ[2] وبويع لهُ. كما يُضيف البلاذري[3] حسب رواية للواقدي[4] أنّ عبد الله بن الزّبير خطب في النّاس فقال: «يزيد الخُمور، ويزيد الفجور، ويزيد الفُهود، ويزيد القرود، ويزيد الكلاب، ويزيد النَشَوات، ويزيد الفلوات». ودعا النّاس إلى إظهار خلعه وجهاده. وكتب إلى أهل المدينة بذلك. واجتمع أهل الحجاز على ابن الزّبير وعلى طاعته.

يُقدّم الواقدي تأريخ خلع ابن الزّبير ليزيد بعد قتل أخيه عمرو بن الزّبير لكنّنا نعتقد أنّ الخلع تمّ بعد مقتل الحسين وكذلك بعد قدوم وفد أشراف الشّام الذي أرسله الخليفة يزيد بن معاوية حتّى يحمل ابن الزّبير على قبول لبس الجامعة لبرّ يمين الخليفة. ثمّ القدوم لدمشق لتقديم بيعته ليزيد بن معاوية. كما سبق خلع ابن الزّبير ليزيد، ثورة أهل المدينة وكان مشجّعا لأشراف المدينة لخلعه هم أيضا.

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٧٥؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٢٠.

(٢) ابن منظور، معجم مذكور، ج١، ص٨٨١: خلع الشيء يخلعه خلعا واختلعه كنزعه إلاّ أنّ في الخلع مهلة، وسوّى بعضهم بين الخلع والنّزع. وخلع النّعل والثوبَ والرّداء يخلعه.

(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٣٧.

(٤) عبد العزيز الدّوري، مرجع مذكور، ص٣٠ ـ ٣١: محمد بن عمر الواقدي (١٣٠ ـ ٢٠٧هـ / ٧٤٨ ـ ٨٢٣م) كتب أساسا عن غزوات الرّسول في كتابه «المغازي». كما كتب عن تاريخ الخلفاء إلى سنة ١٧٩هـ / ٧٩٥م في كتابه «التاريخ الكبير».

يبدو حسب الواقدي أنّ ابن الزّبير ضرب الشرعيّة التّاريخيّة والدّينيّة ليزيد بن معاوية. فيزيد هو سكّير، وعربيد، ومتلهّي بالصّيد واللّعب بالحيوانات. وطلب ابن الزّبير من النّاس أن يعلنوا خلعه ويجاهدوه. إنّ الخلع هو خروج عن الطّاعة ورفضها، فبعد أن كان يبايع له سرّا أصبح ابن الزّبير صاحب سلطة مستقلّة وخارجة عن الأمويّين. كما ظهر مفهوم جديد وهو مفهوم مجاهدة يزيد بن معاوية. يصحّ الجهاد على الكفّار، وقد استحقّ يزيد أن يُجاهد هو وجماعته لأنّه ليس متديّنا وخارجا عن مبادئ الدّين حسب ابن الزّبير.

على هذا الأساس، ابتدأ ابن الزّبير بفكرة قتال يزيد بن معاوية، قبل أن يُرسل له الخليفة جيشاً.

هُدّدت سلطة الخليفة يزيد بن معاوية للمرّة الثّانية من قبل أحد أبناء الصّحابة وخاصّة بعد مقتل الحسين. وضُربت شرعيّته التّاريخيّة والدّينيّة بالتّداعي والسّقوط. كما أنّ سلطته كخليفة أصبحت تطرح إشكاليّة: فهو خليفة غير متّفق عليه من قبل جملة المسلمين بما أنّ ابن الزّبير خرج عن بيعته. وهي وضعيّة شبيهة بوضعيّة عليّ بن أبي طالب في الفتنة الأولى بعد مقتل عثمان. فهو خليفة ذو شرعيّة منقوصة بما أنّ الثّالوث عائشة زوجة الرّسول، والصحابيّان الزّبير بن العوّام وطلحة بن عبيد الله نصبوا له الحرب ورفضوا مبايعته.

كما رفض معاوية مبايعته لأنّه آوى قتلة عثمان الخليفة المظلوم. وهذا يعني أنّ باب الفتنة قد فتح من جديد على مصراعيه بتعدّد الأئمّة بينما يفرض المنطق الدّيني وجود إمام واحد ليلتئم شمل الجماعة.

دفعت هذه الوضعيّة أي عُلُوّ شأن ابن الزّبير، الوالي الأموي عمرو بن سعيد بن العاص إلى الشكّ في سلطة يزيد بن معاوية. فقد ذكر الطّبري أنّ عمرو بن سعيد لمّا رأى النّاس «اشرأبّوا إلى ابن الزُّبَير ومدّوا إليه أعناقَهم»[1]، ظنّ أنّ بإمكانه أن

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٧٦.

يتولّى الخلافة وبالتّالي يفتكّ السّلطة من الخليفة يزيد بن معاوية. فقد شكّ عمرو في تواصل السلطة بيد يزيد. لماذا شكّ عمرو في سلطة يزيد بينما هو أموي؟ هل كان يجهل طبيعة السّلطة الأمويّة من موقعه كوالٍ؟!

يعبّر هذا الشكّ عن حيرة انتابت عمرو بعد أن تولّى ابن الزّبير السّلطة. وهذه الحيرة ستدفعه لاستشارة عبد الله بن عمرو بن العاص[1].

فهذا الأخير هو صحابيّ، وكان مع أبيه في مصر. وكانت قريش تعدّه عالما. فسأله عمرو بن سعيد عن ابن الزّبير إن كان سيُحقّق ما يُطالبُ به. كما سأله عن الخليفة يزيد بن معاوية إلى ماذا سيتطوّر أمره.

فأجابه عبد الله بن عمرو بن العاص: «لا أرى صاحبَك إلاّ أحد الملوك الذين تتمُّ لهم أمورهم حتّى يَموتوا وهم ملوك». فازداد عمرو بن سعيد شدّة على ابن الزّبير وأصحابه، مع الرّفق بهم.

كان عبد الله بن عمرو بن العاص مُقرّبا من الخليفة يزيد بن معاوية، فيحجّ ويعتمر ويفد على الخليفة بالشّام[2].

وفي هذا رمزيّة كبيرة، فقد كان أبوه عمرو بن العاص شديد الارتباط بمعاوية. وناصره في صفّين. وكان في خلافة معاوية مستشارا لهُ. كما أنّه دافع عن الإيديولوجيا الأمويّة، وعن فكرة الملك التي ورثها يزيد عن أبيه وطوّرها. فهذا الأخير لا يقلّ أهميّة عن معاوية، ودافع بقوّة عن السّلطة الأمويّة.

يبدو عبد الله بن عمرو بن العاص رغم انتمائه لفئة الصّحابة، عارفا بطبيعة السّلطة الأمويّة وواثقا من المقدرة السياسيّة للخليفة يزيد بن معاوية ومن انتصاره على ابن الزّبير.

أدّت سياسة عمرو بن سعيد الحذرة مع ابن الزّبير إلى حدوث أزمة بين الأمويّين

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٧٦ ـ ٤٧٧؛ مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص٤١١؛
ابن سعد، مصدر مذكور، ج٧، ص٣٤٣: «أسلم عبد الله بن عمرو بن العاص قبل أبيه، وصحب النبيّ. وكان يقرأ السريانيّة».

(٢) ابن سعد، مصدر مذكور، ج٧، ص٣٤٣ ـ ٣٤٤.

أي السفيانيّين وبني العاص. فقد حرّض الوليد بن عتبة بن أبي سفيان ـ أي ابن عمّ يزيد ـ الخليفة وجماعة من بني أميّة[1] ضدّ عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق. فقد قالوا له لو شاء عمرو بن سعيد لأمسك بابن الزّبير وبعث به إليه. فعزل يزيد بن معاوية عمرا بن سعيد بن العاص الأشدق عن الحجاز، وأرسل الوليد بن عتبة واليا عليها. نزع يزيد عمرو بن سعيد بن العاص لهلال ذي الحجّة سنة ٦١، وولّى الوليد بن عُتبة فأقام الحجّة سنة ٦١[2].

وقصد عمرو الشّام فقابل الخليفة الذي رحّب به وقرّب مجلسه[3]، وهذا معطى يدخل في إطار البروتوكول والتّشريفات. وهو دليل على مكانته من الخليفة.

وعاتبهُ يزيد في أمور كان يأمره بها في شأن ابن الزّبير لكنّ عمرو لم يكن ينفّذها في مجملها أو ينفّذ منها ما يُريد. فبرّر عمرو بن سعيد الأشدق موقفه قائلا «الشّاهد يرى ما لا يرى الغائب»[4] أي أنّ عمرو هو الذي كان على عين المكان ويرى بطريقة مختلفة عن الخليفة الذي رووا له الأحداث.

وفسّر سياسته بميل أهل مكّة وأهل المدينة لابن الزّبير ومبايعتهم له سرّا وعلانيّة. كما أضاف بأنّه لو كان له جند لقاتله. والمقصود بالجند، جند الشّام. وكان ابن الزّبير يحذر منه. وكان عمرو بن سعيد يرفق به ويداريه، ليُجبره على البيعة. كما أنّه ضيّقَ عليه ومنعه من أشياء عديدة حيث جعل على مكّة وطرقها وشعابها رجالاً لا يتركون أحدا يدخلها حتّى يكتبوا للوالي باسمه واسم أبيه، ومن أيّ بلاد هو، وما الذي جاء به. فإن كان من أصحابه ردّهُ، وإن كان ممّن لا يُتّهم خلّى سبيلهُ. وذكر للخليفة بأنّه بعث الوليد لابن الزّبير وسيأتيه من عمله وأثره ما سيعرف به مجهوده في الدّفاع عن سلطته[5].

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٧٧؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٣٤.
(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٧٧.
(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٧٧.
(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٧٨.
(٥) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٧٩.

ولام عليه الخليفة عدم مكاتبته له يطلب منه أن يمُدّه بأهل الشام ليُقاتل ابن الزّبير[1]. لكنّه أكّد لـه أنّه يصدّق كلامه وهو ممّن يثق فيه ويُعوّل عليه في الأمور الهامّة. فعبّر له عمرو بن سعيد بأنّه ممّن يُؤكّد له سلطانه ويشتدّ على عدوّه.

أثبتت هذه المحاورة بين الخليفة وواليه الأموي السّابق على الحجاز أنّ هناك أزمة سياسيّة في الحجاز من جرّاء امتناع ابن الزّبير عن البيعة للخليفة يزيد بن معاوية وخلعه للخليفة ومبايعة النّاس له.

وظهرت هذه الأزمة السياسيّة والدينيّة أو الفتنة والانشقاق في الحجّ، فقد حجّ نجدة بن عامر الحنفي[2]. وكان قد ثار باليمامة بعد مقتل الحسين كما ثار ابن الزّبير.

وكان الوليد بن عتبة يُفيض من عرفة ويُفيض معه عامّة النّاس، وابن الزّبير واقف بأصحابه، ونجدة واقف بأصحابه، ثمّ يُفيض كلّ واحد فيهم بأصحابه على حدة[3].

حدث الانشقاق والفتنة بما أنّ الحجّ أصبح مقسّما إلى ثلاث فرق: الوالي الأموي وجماعته، وعبد الله بن الزّبير وجماعته، ونجدة بن عامر الحنفي وجماعته من الخوارج.

ما المقصود بعامّة النّاس؟ من هم الذين كانوا يفيضون مع الوالي الأموي؟ هل هم الأمويّون وعناصر من قريش؟

يُعتبر هذا الانشقاق انشقاقا هامّا في الضّمير الإسلامي بما أنّ الدّولة الأمويّة لم تعد تقوم لوحدها بالحجّ بل ظهر ابن الزّبير الرّافض للبيعة والذي يمثّل سلطة مستقلّة.

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٣٤.

(٢) ابن حزم، مصدر مذكور، ص٣٠٩ ـ ٣١٠: نجدة بن عُويمر بن عبد الله بن سيّار بن حنيفة الخارجيّ وهو من بني حنيفة بن لُجيم بن صعب. وهم أهل اليمامة.

(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٧٩؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٣٤.

كما ظهر الخوارج بقيادة نجدة بن عامر الحنفي الذي تحرّك في موطنه الأصلي اليمامة، ولم يذكر الرواة عنه معلومات لتحديد أسباب خروجه. لكنّ هذا التحرّك لم يشكّل خطرا على سلطة الخليفة يزيد بن معاوية لذلك لم يُوله اهتماما[١].

ولعلّ فشل نجدة في مضايقة الحكم الأموي وجلب انتباه الرأي العام هو الذي دفعه إلى الانتقال إلى مكّة للبروز على السّاحة السياسية، ولتتبّع الأحداث في هذه المنطقة (خاصّة بعد رفض ابن الزّبير البيعة ليزيد وإعلان البيعة له) والبحث عن استغلالها لصالحه. وكان موسم الحجّ فرصة سانحة للتّعبير عن هذه المعارضة للسّلطة الأمويّة، إذ قام بكلّ طقوس الحجّ منفصلا بأصحابه عن الأمويّن مثل ما فعل ابن الزّبير[٢].

«وكان نجدة يلقى ابن الزّبير فَيُكثِّرُ حتّى ظنَّ النّاس أنه سيبايعه»[٣]. التقى نجدة بعد انتهاء موسم الحجّ بابن الزّبير وعقد معه اجتماعات متعدّدة. ولم تذكر المصادر فحوى هذه الاجتماعات، لكن من الأرجح أنّهما كانا يريدان توحيد الصّفوف كرئيسين لحركتين معارضتين ضدّ الدّولة الأمويّة. لكنّ هذا الاتّفاق لم يُؤدّ إلى نتيجة، وعاد نجدة إلى اليمامة دون مبايعة ابن الزّبير الذي كان يجمع في الأنصار لمحاربة أهل الشام.

لم توفّر المصادر معلومات دقيقة عن تحرّكات نجدة الحنفي لكن يبدو أنّه كان رأسا من رؤوس الخوارج[٤]. لكن ليست لدينا معلومات تخصّ علاقته بالحركة الخارجيّة في هذه الفترة.

المهمّ أنّ هناك انشقاق حدث في الحجّ، وأنّه لم يعد هناك إجماع على الخليفة يزيد بن معاوية. لكنّنا يجب أن نحلّل طبيعة التّركيب السّياسي الذي أنشأه ابن

---

(١) لطيفة البكّاي، مرجع مذكور، ص٩٦.
(٢) لطيفة البكّاي، مرجع مذكور، ص٩٦.
(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٧٩.
(٤) المبرّد، مصدر مذكور، ج٣، ص١٨٤.

الزّبير. فهل يمكن الحديث عن دولة ابن الزّبير في هذه الفترة في صراع مع دولة يزيد؟

ارتكز الخطاب السياسي لابن الزّبير في هذه الفترة على الشّورى[١]. وهو خطاب ضبابي وغير واضح.

ترد معلومات متفرّقة عن بدايات تكوّن لسلطة ابن الزّبير لكنّها لا تؤكّد على نشأة دولة بأتمّ معنى الكلمة. فالدّولة الأمويّة مازالت قائمة بمؤسّساتها وجيشها، ولن يتمكّن ابن الزّبير من إرساء دولة بالحجاز إلاّ بعد موت الخليفة يزيد بن معاوية ودخول الفتنة مرحلتها العمياء[٢].

فقد ذكرت المصادر أن ابن الزّبير استعمل عاملا على وادي القرى[٣]، وهو الحارث بن الحُصين بن الحارث بن قيس الجُعفي. وكان بها تمر كثير من تمر الصّدقة، فكتب إليه ابن الزّبير أن يحتفظ به. لكنّ العامل فرّقه في من معه.

فلمّا قدم عليه ضربه بالدرّة وقال له: «أكلت تمري وعصيت أمري».

يبدو أنّ ابن الزّبير حاول التشبّه بعمر بن الخطّاب في حمله للدرّة واستعماله لها كوسيلة للتّأديب[٤]. لكنّه لم يأخذ إلاّ الشّكل الذي كان بمثابة الشّرعيّة التّاريخيّة له بالمقارنة مع الأمويّين أي الطّلقاء. لكنّ هذا التصرّف كان يُنسب للبُخل وضعف الرّأي حسب محمد بن المنتشر[٥]. فهذا الأخير هو من قرّاء الكوفة، وحجّ للبيت

---

(١) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٢٠.

(٢) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٥٣٠: «تكون فتنة عمياء صمّاء» هي عبارة للحصين بن نمير السكوني بعد موت يزيد بن معاوية، وتخوّفه من دخول ابن الزّبير للشّام.

(٣) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٣٤.

(٤) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج١٠، ص٣٢٢؛ ابن منظور، *معجم مذكور*، ج١، ص٩٦٧: الدرّة درّة السّلطان التي يضرب بها.

(٥) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٣٣؛ ابن سعد، *مصدر مذكور*، ج٦، ص٣٠٦: «محمد بن المنتشر بن الأجدع وهو عبد الرحمن بن مالك بن أميّة بن وادعة من همدان. وهو ابن أخ مسروق بن الأجدع. روى عن عمّه. وكان خليفة عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطّاب على واسط (في فترة الخليفة عمر بن عبد العزيز)، وكان ثقة وله أحاديث قليلة».

الحرام في فترة فتنة ابن الزّبير. فكان شاهدا عيان على سياسة ابن الزّبير. فهل عبّر محمد بن المنتشر عن نظرة عامّة لقرّاء الكوفة أو أهلها تجاه ابن الزّبير؟ وهي على ما يبدو نظرة عداء.

كما بيّن هذا الخبر أنّ ابن الزّبير ركّز تنظيما جبائيّا بما أنّه عيّن عاملا على الصدقات.

وجاءه جماعة من الأعراب[1] ليُحاربوا معه وينصروه فشتمهم حيث اعتبر سلاحهم باليا لا ينفع. كما عيّرهم بحديثهم الذي لا فائدة منه. كما أنّهم أعداء زمن الخصب بما أنّهم يُغيرون على المناطق الخصبة للتزوّد بالقوت. وهم في فترات الجدب حملا ثقيلا على ابن الزّبير بما أنّه مجبرا على إعالتهم.

تبدو نظرة ابن الزّبير نظرة أرستقراطيّة للأعراب، فهو يحتقرهم وينظر إليهم من عليائه. وهي نظرة تتنافى مع تعاليم الإسلام التي تفرض تساوي النّاس بالإيمان. كما طلب منه أعرابيّ أن يُثبته في ديوانه، فأثبته وطلب منه الأعرابي أن يُعطيه «العطاء» أو دراهم. لكنّ ابن الزّبير طلب منه أن يُقاتل أولاً. فاعتبر الأعرابي هذا التصرّف من ابن الزّبير غير معقول لأنّه يفرض عليه تقديم دمه قبل أن يتحصّل على نقود ابن الزّبير. يدلّ هذا الخبر على اتّخاذ ابن الزّبير لديوان للعطاء أو ربّما استعمل المؤسّسة الأمويّة التي كانت موجودة.

يظهر من خلال هذا التصرّف بخل ابن الزّبير وعدم مقدرته على التّعامل مع النّاس.

وذكرت المصادر مثالا آخر عن تحصّن سعد مولى عُتبة بن أبي سفيان[2] بالطّائف في ٥٠ رجلاً، فقبض عليهم ابن الزّبير وضرب أعناقهم بالحرم.

فقال عبد الله بن عمر بأنّ ابن الزبير أحمق لأنّ من يقتل أحدا في الحرم يقتل به.

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٣٤.

(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٣٥.

وهذا ما حدث لابن الزّبير في ما بعد عندما قتله الحجّاج بن يوسف الثّقفي وصلبه بالحرم[1] سنة ٧٢هـ.

كما أنّ ابن عبّاس عبّر عن معارضته لتصرّف ابن الزّبير بقوله لو لقي قاتل أبيه بالحرم لا يقتله[2].

لم يذكر البلاذري متى حدثت هذه التّصفية الجسديّة لموالي بني أميّة، هل كانت في فترة الخليفة يزيد بن معاوية وابن الزّبير عائذ بالحرم؟ أم بعد وفاة يزيد بن معاوية؟

يبدو أبناء الصّحابة معارضين لسياسة ابن الزّبير في إحلال الحرم. فهو على هذا الأساس لم يتحصّل على دعمهم حيث دخل عبد الله بن عمر في طاعة يزيد بمبايعته له. بينما رفض ابن عبّاس أن يبايع لابن الزّبير و ليزيد لأنّهما محلاّن[3].

لماذا اتّبع ابن الزّبير هذه السّياسة المتجبّرة ضدّ عناصر من بني أميّة؟ لماذا استعمل ابن الزّبير كلّ هذا العنف في التّعامل بينما هو يستند على شرعيّة دينيّة مستمدّة من الصّحابة؟ كما أنّ ابن الزّبير كان يتّهم اتّهاما شديدا الأمويّين على تقتيلهم للحسين بينما أحلّ هو الحرم. وهذه المسألة هي مسألة هامّة وأساسيّة أي إحلال الحرم. لا ننسى أنّ ابن الزّبير اتّبع هذه السّياسة ضدّ أخيه عمرو. وكان هذا التصرّف مُنفّرا للنّاس عنه. فقد وُجّهت أصابع الاتّهام للأمويّين وحدهم على إحلالهم للحرم بينما كان اختيار ابن الزّبير للبقاء في الحرم ثمّ إحداثه فيه أكبر دليل على إباحة الحرم. وهو حمّل الأمويّين مسؤوليّة مهاجمة الحرم وضرب الكعبة بينما دفعهم هو دفعا لذلك بعدم مبايعته ليزيد.

وكان ردّ الأمويّين على ابن الزّبير بأن استباحوا الحرم للدّفاع عن الطّاعة والجماعة بما أنّ ابن الزّبير ألحد بالحرم. وكان الهجوم العسكري الأموي على الحرم لقتل ابن الزّبير عقابا له على خروجه عن الطّاعة.

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٦، ص١٢٨ ـ ١٢٩.
(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٣٥.
(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٤، ص٥٤.

كما أنّنا لا يمكننا دراسة سلطة ابن الزّبير بدقّة في هذه الفترة لأنّ المصادر لا تمدّنا بمعلومات دقيقة عنها.

أصبح ابن الزّبير يتدخّل في شؤون السّلطة الأمويّة، فَيُشير على الخليفة بتغيير والي المدينة. فقد ذكر للخليفة أنّه عيّن رجلا لا عقل له وهو يقصد الوليد بن عتبة. وأشار عليه بأن يُرسل إليهم رجلا سهل التّعامل: «حتّى يسهل من الأمور ما استوعر منها، ويجتمع ما تفرّق، فانظر في ذلك فإنّ فيه صلاح خوّاصنا وعوامنا»[1].

فأرسل إليهم سنة ٦٢هـ حسب رواية شاهد عيان وهو حُميد بن حمزة وهو مولًى لبني أميّة، عثمان بن محمد بن أبي سفيان[2]، وهو شابّ صغير ليس لديه تجربة في أمور السّلطة والحكم[3]. كما أنّه لم يكن ينظر في شؤون السّلطة.

ويبدو أنّ ابن الزّبير كان يُراوغ الخليفة[4] ويُماطله ويُمنّيه بالبيعة، بما أنّ خطابه السّياسي كان فيه نوع من التّلاعب والمماطلة. وكان يزيد يحاول أن يُصلح الأمور بكلّ ما أوتي من قوّة أي يتحصّل على البيعة من ابن الزّبير.

وهذا دليل على أنّ يزيد كان صَبُورًا في تعامله مع ابن الزّبير، وكان يسعى لإيجاد حلّ لهذه الأزمة السياسيّة.

يبدو أنّ الخليفة كان يُعيّن عمّالا للحجاز من البيت الأموي حسب العادة التي سنّها الخليفة معاوية بن أبي سفيان. وكان هذا العامل من البيت السفياني. فلماذا هذا الإصرار من قبل الخليفة على تعيين أبناء عمّه بينما كان هناك رجال من فرع العاص ليهم تجربة سياسيّة وبإمكانه أن يُعيّنهم كمروان بن الحكم؟ لماذا أساء الخليفة يزيد بن معاوية الاختيار؟

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٧٩؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٣٥.

(٢) مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص١٢٦: محمّد بن أبي سفيان: أمّه صفيّة بنت أبي عمرو بن أُميّة ابن عبد شمس.

(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٧٩ ـ ٤٨٠؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٣٥.

(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٧٩.

كما عمل بعض رجال قريش لإيجاد حلّ للأزمة السياسيّة الدّينيّة التي نشأت بين ابن الزّبير والخليفة. وقدم عبد الرحمن بن زيد بن الخطّاب[1] على يزيد، ونصحه بأن يُعطي شيئا لابن عمّه أي ابن الزّبير ليطمئنّ إليه.

فولاّه مكّة وأمره بأن يتّبع سياسة تبعث الإطمئنان في نفس ابن الزّبير أي «تجلبه للأمويّين» حتّى يبايع ليزيد. فأصبح هذا العامل الأموي مساندا لابن الزّبير، وقال له «بأنّه أحبّ إليه من أولاد الطّلقاء». فعزله يزيد وعيّن عبد الله بن معين بن عبد الأسد المَخزومي أي أنّه عيّن عاملا من مخزوم من قريش.

أصبح الصّراع دائرا بين فروع قريش في خضمّ هذه الأزمة بين الخليفة يزيد بن معاوية وعبد الله بن الزّبير. كما عرّض هذا العامل الأموي بالشّرعيّة التّاريخيّة الأمويّة أي ضعف السابقة والقدمة لدى الأمويّين. المهمّ أنّ الخليفة يزيد بن معاوية اتّبع مراحل في مجابهته لثورة ابن الزّبير. فلم يصعّد معه اللّهجة لأوّل وهلة.

يبدو الخليفة حريصا على إيجاد حلّ لهذه الأزمة بينه وبين ابن الزّبير بالوسائل السلميّة. كما أنّه لم يلجأ إلى القوّة المُبرمة إلاّ في آخر مرحلة. وهذا ينفي في اعتقادنا نفيا باتّا ما يُقال عن يزيد بأنّه كان متهوّرا وغير مشرف على شؤون دولته للهوه ومجونه بل بالعكس كان حريصا على إيجاد حلّ بطرق سلميّة للأزمة التي نشبت بينه وبين ابن الزّبير وحقن دماء قومه من قريش وتجنّب هتك حرمة الحرم المكّي.

ومن بين هذه الحلول هي ترك ابن الزّبير التدخّل في شؤون الدّولة، وهو أمر جديد، حتّى يصل إلى تسوية للوضعيّة معه.

برزت ظاهرة جديدة في الحجاز بخلع ابن الزّبير ليزيد بن معاوية. أي سلطة ثانية بينما تفرض الخلافة وجود خليفة واحد للمسلمين. و بالتّالي دخلت الأمّة في فتنة.

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٣٥؛ مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص٣٦٣: وأمّه لُبابة بنت أبي لُبابة ابن عبد المُنذر الأنصاري؛ ابن سعد، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٧ ـ ٣٨.

ولم يكن ابن الزّبير وحده الذي لم يُبايع ليزيد بن معاوية في الحجاز بل أمسك عبد الله بن عبّاس عن البيعة أيضاً. كما تذكر المصادر أنّ ابن عبّاس لم يُبايع ابن الزّبير[1].

فذكرت المصادر أنّه بايعه بعد سنة، وذكرت أخرى أنّه لم يُبايعه، وهذا الخبر الثّاني هو الأصحّ[2]. ويعود رفض ابن عبّاس لبيعة ابن الزّبير لأنّه محلّ في الحرم رغم أنّ أباه حواريّ الرّسول وجدّه صاحب الغار، يعني أبا بكر، وأمّه ذات النطاقين، وخالته عائشة أمّ المؤمنين، وعمّته خديجة زوجة الرّسول، وعمّة الرّسول صفيّة جدّته. كما أنّ له سابقة في الإسلام، وهو قارئ للقرآن[3].

كما أنّ ابن عبّاس سينتقل للطّائف عندما نشب خلاف بينه وبين ابن الزّبير[4] وقد اتّبع ابن الزّبير سياسة معادية لبني هاشم، وترك ذكر الرّسول للتّعتيم عليهم[5] أي أنّه كان يخشى منافستهم له. وستتطوّر علاقته بهم بعد موت الخليفة يزيد بن معاوية حيث سيحبس محمد بن الحنفيّة في الشّعب[6].

وقد سمع يزيد برفض ابن عبّاس مبايعة ابن الزّبير، فظنّ أنّه متمسّك ببيعته، فأرسل إليه كتابا ذكر له فيها بأنّه بلغه أنّ الملحد ابن الزّبير دعاه إلى نفسه وعرض عليه الدّخول في طاعته ليكون له على الباطل ظهيرًا وفي المأثم شريكاً. وأنّه امتنع عن طاعته وفاء منه للخليفة يزيد بن معاوية وطاعة لله بتركيز حقّ الأمويّن.

كما أنّ الخليفة شكره على وصله لرحمه، وكلّفه أن يدعو النّاس لطاعته (في الحجاز ومن يأتون من الآفاق)، ويبيّن لهم تمسّكه ببيعته لأنّه مسموع الكلمة. فيدعوهم للحذر من الملحد ابن الزّبير ومن سحر كلامه وزخرف قوله.

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٢١.
(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٤، ص٧٠.
(٣) لبلاذري، مصدر مذكور، ج٤، ص٥٤.
(٤) البلاذري، مصدر مذكور، ج٤، ص٦٤.
(٥) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٣٣.
(٦) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٣٣.

وكان يزيد متأكّدا من سماعهم له على حساب المحلّ والحارب والملحد والمارق ابن الزّبير[١].

ظهر في الخطاب الإيديولوجي ليزيد نعت ابن الزّبير بالملحد لأنّه أحدث بالحرم. وبالتّالي ركّز يزيد شرعيّته التّاريخيّة على حساب ابن الزّبير الخارج عن الطّاعة والمفرّق للجماعة. كما ركّز الخليفة إيديولوجيا الطّاعة وإيديولوجيا توظيف المقدرة الإلهيّة (طاعة الله بطاعة الخليفة يزيد بن معاوية والاعتراف بحقّ الأمويّين المستمدّ من الله).

كما أنّ الخليفة كان حريصا على التحصّل على بيعة كلّ عناصر قريش، وتناسى قتله للحسين. فأثنى على ابن عبّاس لاحترامه لمبادئ الرّحم.

ففي أزمة ابن الزّبير، كان يزيد في حاجة لعلاقات الرّحم داخل قريش لمواجهته.

وكان الخليفة يزيد بن معاوية يتصوّر أنّ ابن عبّاس سيتولّى الدّعاية السّياسيّة ضدّ ابن الزّبير ولفائدته نظرا لعلاقته الخاصّة بالخليفة معاوية. فقد كان ابن عبّاس مقرّبا من معاوية الذي كان يستشيره في قراءة القرآن وكان يُفضّله على كعب الأحبار[٢]. لكنّ فترة معاوية ولّت لأنّ الظّروف تغيّرت في فترة يزيد خاصّة بعد قتله للحسين.

ووضع الخليفة يزيد بن معاوية أساسا إيديولوجيّا لوقوفه ضدّ ابن الزّبير. فهو قد خرج عن الدّين وأحلّ الحرم. وكانت إجابة ابن عبّاس على عكس تصوّر يزيد، حيث رفض ابن عبّاس نصرته ضدّ ابن الزّبير لأنّه قتل الحسين[٣]. وتعجّب ابن عبّاس من تناسي يزيد فعله مع الحسين، بينما هو أي ابن عبّاس لم ينس قتله للحسين ولقتله لفتيان بني عبد المطلب أفراد أهل البيت.

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٢١.

(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٤، ص٥٧ ـ ٥٨؛ ابن سعد، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٠٩: «كعب الأحبار بن ماتع هو من حمير من آل ذي رُعين، وكان على دين يهود فأسلم وقدم المدينة ثمّ خرج إلى الشأم فسكن حمص حتّى تُوفّي بها في خلافة عثمان سنة ٣٢».

(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٢١.

فقد تركهم جنوده قتلى وملطّخين بالدّماء في العراء بدون تكفين ودفن، زوّارهم الذّئاب والضّباع. وكفّنهم ودفنهم ناس لم يُشركوا في قتلهم. كما وجّه ابن عبّاس أصابع الاتهام ليزيد «لتسليطه عليهم ابن مرجانة الدعيّ ابن الدعيّ للعاهرة الفاجرة البعيد منهم رحما» الذي ادّعاه معاوية فاكتسب من وراء هذا الادّعاء «العار والخزي والمذلّة في الدّنيا والآخرة»[1].

وأضاف ابن عبّاس بأنّه يتعجّب من طلب يزيد نصرته وهو قاتل لبني أبيه، كما أنّه اقتصّ منهم.

بيّن ابن عبّاس ليزيد بأنّه قطع الرّحم بابتداعه للقتل المبرم تجاه أهل البيت وحرمانهم من التّكفين والدّفن. لكنّ أكبر «جريمة» ارتكبها يزيد في نظر ابن عبّاس هي تكليف عامله الذي ليس لديه رحم وقرابة بهم. كما أنّه ليس لديه شرعيّة تاريخيّة بما أنّه ابن دعيّ وزانية. وهنا تبدو الشرعيّة الدّينيّة لعبيد الله بن زياد الضّعيفة والهشّة إضافة لتقتيله الحسين وأهل البيت، أهمّ عامل لإضعاف شرعيّة الخليفة يزيد بن معاوية ومن ورائه شرعيّة الدّولة الأمويّة. ارتبطت دولة معاوية بمجهود زياد بن أبي سفيان الذي ركّز الملك لمعاوية. وربط يزيد مصير دولته بعبيد الله بن زياد الذي قتل الحسين لتركيز الملك ليزيد. لكنّ هذا المجهود في تركيز الملك أحدث مفعولا عكسيّا وهو ضرب الشرعيّة التّاريخيّة الأمويّة ضربة ستؤدي لانحلال الفرع السّفياني. وسيركّز المروانيّون شرعيّتهم على أسس جديدة بتركيز ذكرى الرّسول والسنّة حتّى يُجمّلون صورتهم مقارنة بالصّورة المشوّهة ليزيد[2]. وأصبح ابن عبّاس يُطالب بالقصاص من يزيد لقتله الحسين وآل البيت.

---

(١) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٢٢.

(٢) هشام جعيط، *تاريخيّة الدعوة المحمديّة في مكّة*، ص٥٩ «وليس من الصدفة أنّ أوّل بيت حاكم في الإسلام كان من بني أميّة. فقد كانت العرب تعترف بهم كبيت قريش في الجاهليّة فغدوا كذلك في الإسلام، وقام المروانيّون بدعاية كبيرة على أنّهم هم وحدهم بيت النبي، صاحب التّاريخية الجديدة والأهمّ، وأولوا قرابته، معتّمين على وجود بني هاشم جُملة حتّى بروز بني العبّاس».

وليس من الغريب أن تقوم الدّعوة العبّاسيّة في بيت العبّاس بن عبد المطلّب عمّ الرّسول أي أب عبد الله[1]. كما أنّ العبّاسيّين سيُقتّلون الأمويّين ويُعتّمون عليهم، كما قتّل يزيد الحسين وأهل البيت[2].

ولم يتوقّف الخليفة يزيد بن معاوية عند هذا الحدّ بل عمل على دفع ابن عبّاس لبيعته رغم ما قاله له من قتله للحسين وتأميره لابن مرجانة.

فقد أرسل إليه كتابا يدعوه فيه إلى الخروج إلى الوليد بن عتبة ومبايعته له، واتّهمه بقتل عثمان والتّحريض عليه[3].

ويدخل هذا الخطاب في إطار تركيز إيديولوجيا الخليفة المظلوم كرد فعل على رفض ابن عبّاس البيعة ليزيد وتوجيه أصابع الاتّهام له على قتله للحسين. فالخليفة يزيد بن معاوية يجعل من قتل الحسين قصاصا للخليفة المظلوم عثمان وبالتّالي لا يرى أنّه مخطئ في ذلك. وأجابه ابن عبّاس بأنّه لم تكن لديه علاقة بمقتل عثمان. بينما أبطأ معاوية عن نصرته، وتثاقل عن مدّه بالرّجال عندما طلب منه ذلك. ثمّ أرسل إليه الجيش عندما علم أنّه سيقتل.

أرسل معاوية جيشا بقيادة حبيب بن مسلمة الفهريّ. وكان على مقدمته يزيد بن أسد البجلي. لكنّ هذا الجيش لم يَصل إلى المدينة، وكان بوادي القرى عندما هبّ إليهم النّعمان بن بشير الأنصاري بقميص عثمان الملطّخ بالدّم[4] لينشروه بالشّام بمسجد دمشق. ويدعو معاوية للقصاص للخليفة المظلوم.

يبدو هذا الخطاب لابن عبّاس معاديا لمعاوية حتّى يُعتّم على إيديولوجيا الخليفة المظلوم. بينما تذكر المصادر أنّ معاوية أشار على الخليفة عثمان ـ عندما دعا عمّاله في بداية الفتنة ـ بأن يُرسل إليه جيشا يُقيم معه بالمدينة ليحميه. فرفض

---

(١) محمد عبد الحيّ شعبان، *الثورة العباسية*، أبو ظبي، ١٩٧٧، ص٢٣٩.
(٢) محمّد عبد الحيّ شعبان، *مرجع مذكور*، ص٢٦٢.
(٣) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٢٢.
(٤) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٦، ص٢٠٧.

عثمان على أساس أنّه «لا يكون أوّل من وطئ أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأنصاره بجيش»[1].

خاتمة

لم يتمكّن يزيد من الحصول على بيعة ابن عبّاس بل بالعكس كثرت الانتقادات والاتّهامات لسلطته بعد مقتل الحسين وأهل بيته.

كان يزيد يمثّل السّياسي الذي أفرزته الفتنة الأولى: سياسة عثمان ومعاوية في ما بعد بتأسيسه للدولة الأمويّة. وكان الحسين بن عليّ وعبد الله بن الزبير يمثّلان التيّار القديم لأبناء الصّحابة (الانتماء لأهل البيت، مفاهيم الصّحبة والقدمة والسّابقة). وهذه المفاهيم هي مفاهيم متناقضة ومتصارعة. فكان من الحتميّ أن تصطدم ببعضها البعض وتتصارع. وقد استغلّ ابن الزّبير قتل الحسين بن عليّ من قبل يزيد بن معاوية ليقبل بيعة الناس له بصفة علنيّة. كما أنّه استغلّ هذا الحدث لضرب الشّرعيّة التّاريخيّة ليزيد ولعامله على العراق والمنفّذ لقتل الحسين وهو عبيد الله بن زياد. وكان هذا الضّرب للشرعيّة التّاريخيّة أهمّ سلاح اتّخذه ابن الزّبير ضدّ يزيد بن معاوية. وعلى هذا الأساس، رفض مبايعته وقبول شروطه وهي أن يُؤكّد له الملك بأن يأتيه إلى دمشق في جامعة.

واتّبع يزيد بن معاوية سياسة قوامها حقن دماء قومه ما استطاع فغيّر عمّال الحجاز ليجد حلاً للصّراع بينه وبين ابن الزّبير. لكنّ هذا الأخير كان مصمّما على معارضة يزيد لإيمانه بقوّة شرعيّته التّاريخيّة المرتبطة أساسا بالانتماء لفئة أبناء الصّحابة. وتسارعت الأحداث على حساب الخليفة يزيد بن معاوية حيث أعلن أهل المدينة الثّورة على سلطته.

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٦، ص١٥٦.

الفصل الثّاني
ثورة أهل المدينة على الخليفة يزيد بن معاوية

واجه الخليفة يزيد بن معاوية ثورة ثانية بعد ثورة الحسين بن عليّ وهي ثورة أهل المدينة. وكانت هذه الثّورة نتيجة طبيعيّة لقتل الحسين بن عليّ. فقد ثوّر قتل حفيد الرّسول وآل بيته وأصحابه والتّمثيل بجثثهم وتركهم بدون دفن، ثوّر القوى الإسلاميّة بالحجاز، ابن الزّبير بمكّة وأهل المدينة.

أحدث قتل الحسين وآل بيته أزمة في الضّمير الإسلامي، وكانت المدينة جزء من هذا الضّمير الإسلامي والذّاكرة الإسلاميّة.

تتركّب المدينة من أبناء المهاجرين من قريش وأبناء الأنصار. وكانوا يعتبرون أنفسهم يمثّلون مرجعيّة إسلاميّة ودينيّة رغم انتقال الثّقل السّياسي بعد مقتل الخليفة عثمان للعراق (الكوفة أساسا) في عهد الخليفة عليّ بن أبي طالب. ثمّ للشّام حيث أصبحت دمشق عاصمة للخلافة الإسلاميّة. وقد قبلوا تولّي معاوية الخلافة على مضض، فهو من أبناء الطّلقاء، لكنّ حلمه وكرمه كان طيلة العشرين سنة من سلطته كابحا لجماح الفتنة. لكنّ تولّي يزيد وتكوّن الاحتجاجات ضدّه داخل فئة أبناء الصّحابة لضعف شرعيّته التّاريخيّة والدينيّة.

اتّخذت فتنة أهل المدينة أبعادا هامّة بما أنّها ستكون ثاني حركة ثوريّة ضدّ الخليفة يزيد بن معاوية. وسيجبر يزيد على إرسال قوّة عسكريّة مثل ما فعل مع الحسين بن عليّ للقضاء على الثّورة وفرض الطّاعة.

أوضاع المدينة في فترة الخليفة معاوية بن أبي سفيان

يبدو أنّ علاقة أهل المدينة بالخليفة معاوية بن أبي سفيان كانت متوتّرة. فقد كان معاوية يرى أنّهم شاركوا في قتل الخليفة المظلوم عثمان فأمر لمّا حجّ أن يُظلم على منازل أسلم بيوتهم أي يبني أمام دورهم[١]. ويدخل هذا الإجراء في إطار القصاص للخليفة المظلوم.

كما أنّ معاوية حفر بئرا في أُحد، فأرسل له مواليه أنّهم لا يستطيعون أن يجروها إلاّ على قبور الشهداء. فأمر معاوية بنبش قبورهم وتحويلهم إلى مكان آخر. وتقول الرّواية أنّ المسحاة أصابت طرف رجل حمزة بن عبد المطّلب فانبعثت دما[٢].

يبدو أنّ معاوية كان يستغلّ أراضي أهل المدينة بعدما استصفاهم لنفسه. وقد عُتّم عليه لذلك خاصّة أنّ الأراضي التي استصفاها كانت قبورا لشهداء أحد.

ويدخل هذا التّعتيم في إطار الإضعاف من الشرعيّة التّاريخيّة لمعاوية. فهو من الطّلقاء، أسلم بعد فتح مكّة. لذلك كانت هناك توتّرات في علاقة الخليفة معاوية بأهل المدينة نظرا لإثراء معاوية على حسابهم.

واحتدّ هذا التوتّر عندما عيّن الخليفة معاوية عاصم بن هاشم بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس على إمارة المدينة[٣].

وقد أمر الخليفة عاصما بإصلاح ديوان العطاء، وكان العرفاء يأخذون أعطيات النّاس أو عشائرهم. فيمنحون أموال الغائبين والموتى لرجال العشائر. ويتصرّفون في الأعطيات فيأخذوها لأنفسهم.

فحبس عاصم أعطيات النّاس، وأمر أن يأتيه النّاس فيعطيهم أعطياتهم في أيديهم وقد عرفهم.

وسبّبت هذه السّياسة تصاعد حركة معارضة ضدّه أي ضدّ تطبيق الدّولة لسياستها.

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٦، ص٢٠٦.
(٢) ابن سعد، مصدر مذكور، ج٣، ص٧.
(٣) مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص١٥٤.

ودخل يوما المسجد، فمرّ بحلقة فيها الحسين بن عليّ، وعبد الله بن الزّبير، وعمرو بن عثمان، فوقف وسلّم عليهم. وسأله أحدهم عن سبب حبسه للعطاء، فأجاب بأنّ الخليفة أمره «أن يدفع للحاضر دون الغائب، والحيّ دون الميّت، ولا يعطي أحدا إلا في يده»[1]. فسألوه ليعجّزوه ماذا سيفعل بالنّساء هل سيعطيهنّ في أيديهنّ؟ فأجاب بنعم. فغضبوا عليه وحصبوه من كلامه هذا، وحصبه النّاس إلى أن لجأ إلى أحد دور بني أميّة.

وكلّم عبد الله بن الزّبير أصحابه، فقال لهم بأنّ معاوية سيعاقبهم على إحداثهم لهذا الحدث، فقسم الحسين بن عليّ وعبد الله بن الزّبير وعمرو بن عثمان المال على النّاس. ماذا يعني هذا؟

أخرج الحسين بن عليّ وعبد الله بن الزّبير وعمرو بن عثمان المال من بيت مال الدّولة أو من ديوان العطاء وقسموه بين النّاس وهو تجاوز لسلطة الدّولة.

كما تبدو حركة معارضتهم حركة معارضة لتطبيق الدّولة لسلطتها. وهذا ما يُفسّر خروج الحسين بن عليّ وعبد الله بن الزّبير في ما بعد على سلطة يزيد. فهما يريدان أن يسيطرا على السّلطة في المدينة وعطّلا تطبيق الدّولة لسياستها.

ونحن نشكّ في مشاركة عمرو بن عثمان لهما في هذه الحركة الأوليّة للتمرّد على السّلطة.

أضعف كلّ من الحسين بن عليّ وعبد الله بن الزّبير سلطة الدّولة بمنع الوالي من إصلاح الدّيوان، وحصبه إلى حدّ أنّه أصبح محصورا في أحد دور بني أميّة. وهذا ما سيحدث لبني أميّة في ثورة أهل المدينة عندما حُصروا وأطردوا من المدينة. كما كان هذا الوالي قريب معاوية ممّا تسبّب أيضا في غضب الحسين بن عليّ وعبد الله بن الزّبير.

فقد بدأت حركة التّململ والغضب ضدّ الدولة الأمويّة من جرّاء تحريض هذا الثّنائي الذي سيمثّل حركات معارضة في ما بعد.

---

(١) مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص١٥٤.

وكان معاوية مجبرا على الحلم وعدم ردّ الفعل واحتمل ذلك منهما[1].

وذكرت المصادر أنّ المدينة بقيت بدون ديوان للعطاء بعد هذه الحادثة. وقد بدا ذلك في مطلب عبد الله بن صفوان الجُمحيّ، وهو أحد أشراف قريش.

فقد وفد على معاوية وطلب منه أن يخرج العطاء، ويفرض للمنقطعين، نظرا لانعدام الدّيوان في المدينة[2].

يبدو أنّ معاوية عاقب أهل المدينة بعد هذه الحادثة بأن حبس عنهم العطاء لأنّهم لم يمتثلوا لأوامر الدّولة. كما أنّ العديد من العناصر المدنيّة لم تعد تقوم بالجهاد وانقطعت عنه.

على هذا الأساس، كانت المدينة في علاقة شديدة التوتّر بالسّلطة لرفض أهلها الانصياع لأوامر الدّولة (عدم المشاركة في الجهاد وإرادة التحكّم في أموال الدّيوان بغير حقّ).

بينما حدث إصلاح الدّيوان بالعراق من قبل زياد بن أبي سفيان في أحسن الظّروف لمقدرة زياد السياسيّة والإداريّة[3].

المهمّ أنّ الخليفة معاوية كانت لديه صعوبات كبيرة في فرض سلطته أي سلطة الدّولة على أهل المدينة. وكانت المؤسّسات خاصّة منها مؤسّسة الدّيوان تلاقي صعوبات هامّة لتعطيل أهل المدينة لسير عملها. وكانت المدينة في فترة الخليفة معاوية تعيش في حالة من الفوضى. فقد هرجوا، وكان يقتل بعضهم البعض[4]. ورجعت التوتّرات الجاهليّة للظّهور من جديد.

فقد ظهرت الخلافات في بني عديّ بن كعب (وهي عشيرة الخليفة عمر بن الخطّاب).

كان التوتّر في البداية مشكلا ذاتيّا إلى أبعد درجة فتطوّر إلى مشكل عشائريّ.

---

(١) مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص١٥٥.

(٢) مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص٣٨٩.

(٣) بثينة بن حسين، مرجع مذكور، ص١١٩ ـ ١٢٣.

(٤) مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص٢٦٨.

فقد كان أبو الجهم بن حذيفة وأبوه كان من مشيخة قريش، عالما بالنّسب، وصحب النبيّ، وكان من معمّري قُريش وبنى في الكعبة مرّتين، مرّة في الجاهليّة ومرّة في الإسلام. حين بنتها قريش، وحين بناها ابن الزّبير. ودفن عثمان بن عفّان رابع أربعة، هو وحكيم بن حزام، وجبير بن مطعم، ونيار بن مكرم(١). كما كان أبو الجهم معروف بشراسته، وثلبه لنساء قريش مع عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل الزّهري. وفرّقهم الخليفة عمر بن الخطّاب عندما اشتكى له النّاس منهم(٢). وكان له بنون أشدّاء.

كما أنّه كان يُغلظ لمعاوية القول ويحلم عنه. فقد تهجّم أبو الجهم على هند بنت عتبة، أمّ معاوية وحذّر معاوية أبا الجهم من التّطاول على السّلطان(٣).

على هذا الأساس، كان رجال قريش ومن بينهم أبو الجهم يستخفّون بمعاوية، وبسلطته.

وكان لأبي الجهم زوجة هي خولة بنت القعقاع بن معبد بن زرارة بن عدس(٤)، كما كانت لديه سريّة أي جارية وهي زجاجة هي أمّ عبد الله بنت الحارث بن حُرّ بن النّعمان بن أخيذة، من غسّان(٥). وكان يحبّها وولدت له سليمان بن أبي الجهم وغيره. ومرضت زوجته خولة فجاءتها امرأة تتطبّب، فقالت لها بأنّها مسحورة. وأكّدت عليها أنّ زجاجة (ضرّتها) سحَرتْهَا. ونصحتها بالدّواء وهو ذبح زجاجة وطلي ساقيها بدمها، ومخّ ساقيها!

وذكرت ذلك لأبي الجهم فوافقها على فعلها. وسمع أبناء زجاجة بهذا القرار الذي اتّخذه أبوهم، فهبّوا إلى أبيهم أوّلا وكلّموه فأجابهم بأنّ أمّهم ليست مثل خولة.

وقصدوا محمّد بن أبي الجهم فذكروا له ذلك. فأجابهم أنّه لا يخالف أباه وأمّه.

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج١٠، ص٤٨٣ ـ ٤٨٤.
(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج١٠، ص٤٨٤.
(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج١٠، ص٤٨٥.
(٤) ابن حزم، مصدر مذكور، ص٢٣٣: القعقاع بن معبد بن زرارة، وكان سيّدا من تميم.
(٥) مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص٣٧٠.

فكلّموا عبد الله بن عمر بن الخطّاب الذي صرّح بأنّه لا يقبل هذا الأمر. ثمّ كلّموا المسور بن مخرمة الزّهري، وكان محترما في قريش لفضله وعلمه، فأشار عليهم بأن يقصدوا عبد الرحمن بن زيد بن الخطّاب لأنّ ابن عمر لن ينفعهم أو يعينهم في شيء. فأتوا عبد الرحمن بن زيد بن الخطّاب وأخبروه الخبر، فتعجّب من جفاء أبي الجهم وزوجته. وأرسل ابنا له إلى خولة يسألها عن مرضها وعن الدّواء الذي وُصف لها. فأجابته بأنّ زجاجة سحرتها ووصف لها دمها ومخّ ساقيها. فزاد تعجّب عبد الرحمن بن زيد، وطلب من أبناء زجاجة أن يحملوها له. فخبّأها في منزل عبيد بن حنين مولاه. ثمّ أتوا بنو عاصم بن عمر بن الخطّاب فطلبوا نصرهم، وكلّموا زيد بن عمر بن الخطّاب، وأمّه أمّ كلثوم بنت عليّ بن أبي طالب، فنصرهم. وكلّموا بني المؤمّل من بني عدي بن كعب فساندوهم[1].

وانضمّ إلى أبي الجهم آل عبد الله بن مطيع، وآل النعمان بن عديّ بن نضلة[2]، وانقسمت العشيرة إلى حزبين ونشب بينهما الخلاف والقتال بالعصيّ وأحيانا بالسّيوف.

ومرّ عبد الله بن مطيع على بغلة له فتبعه فتية من آل عمر منهم زيد بن عمر. وخرج بنو أبي الجهم من حوله، وبنو عبد الله بن مطيع يريدون الدّفاع عن أبيهم. فنشب القتال بينهم، وتراموا بالحجارة فأصيب زيد بن عمر الذي مات من رميته. وماتت أمّه كمدا عليه في نفس اليوم[3].

تبيّن هذه الرّواية عداوة بين ضرّتين غذّتها امرأة متطبّبة في عشيرة من عشائر قريش في المدينة وهي عديّ بن كعب. ويبيّن هذا الخبر بقاء الظّواهر الجاهليّة من إيمان بالسّحر وغيره في الأوساط النّسائيّة وحتّى لدى الرّجال.

فلم يمح الإسلام هذه الظّواهر، كما أنّه لم يقض على العنف داخل بعض

---

(١) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج١٠، ص٤٨٧.

(٢) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج١٠، ص٤٨٢.

(٣) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج١٠، ص٤٨٨.

العشائر في قريش. كما أنّ هذا العنف يعبّر عن استقلاليّة تجاه السّلطة الأمويّة التي لم تتمكّن من فرض سلطانها.

كما أنّ التّنافس بين النساء الحرائر والجواري كان موجودا داخل العشائر والأسر. وكانت العشيرة ترجع في أمورها الهامّة إلى أبناء عمر بن الخطّاب. كما أنّ الصّراع بين الإخوة[1] شقّ العشيرة إلى نصفين. وكانت مساندة زيد بن عمر بن الخطّاب[2] عاملا من عوامل اكتساب الشرعيّة لأبناء زجاجة على حساب أبناء خولة.

وهذه الشرعيّة هي شرعيّة مستمدّة من قرابة زيد للرّسول.

فقد كان أبناء زجاجة يسعون لفرض حقّ أمّهم[3] ضدّ إخوتهم (أبناء خولة) وأبيهم وزوجته، فتداخل العمل الإسلامي مع العامل الجاهلي. كما أنّهم أشعلوا نيران الصّراعات الجاهليّة داخل العشيرة.

كما يبيّن هذا الخبر أنّ هذا المجتمع القرشي كان يفضّل المرأة العربيّة الأصل ويضمن لها حقوقها. بل ويزكّي قراراتها حتّى وإن كانت على خطأ على حساب السريّة من أصل أعجمي.

كما انعكس ذلك على العلاقات بين الإخوة التي اكتست طابعا متوتّرا وعدائيّا. وانقسمت عشيرة عدي إلى تيّارين متقاتلين من جرّاء هذه المشكلة.

والأخطر من ذلك أنّ هذه الصراعات أدّت إلى مقتل زيد بن عمر بن الخطّاب. واعتبر آل أبي الجهم بن حذيفة من أعدى النّاس للأمويّين بالحجاز إلى فترة الخليفة عبد الملك بن مروان[4]. كما أنّهم كانوا لا يُريدون الامتثال لأوامر الدّولة في المدينة. ويتصرّفون بكلّ حريّة في إطار العشيرة التي بقيت أساس القرارات مثل ما كانت في الفترة الجاهليّة.

---

(١) أبناء خولة و أبناء زجاجة من أب واحد أي أبي الجهم.

(٢) أمّه أمّ كلثوم بنت عليّ بن أبي طالب.

(٣) أراد أبناء زجاجة استرجاع حقوق أمّهم ومنع ضرّتها من قتلها والتّمثيل بجسدها حتّى توفي بنذرها (رفع سحر زجاجة عنها).

(٤) البلاذري، مصدر مذكور، ج١٠، ص٤٨٨.

واضطرّ مروان بن الحكم لتعيين صاحب شرطة صارم وحازم وهو مصعب بن عبد الرّحمن بن عوف ابن الصحابيّ لمواجهة هذه الوضعيّة.

وكان مصعب شديدا عليهم، فعندما تولّى الشّرطة جلدهم وضيّق عليهم، وهدم دورهم. فخاف النّاس من ذلك فشكوه إلى مروان بن الحكم الذي كاد أن يعزله لولا تدخّل ابن أخت عبد الرحمن بن عوف وهو المسور بن مخرمة لصالحه[1]. وبقي على شرطة المدينة في عهد معاوية، ثمّ بقي على شرطة عمرو بن سعيد عندما تولّى الخليفة يزيد الحكم. لكنّه رفض الانصياع لأوامر الوالي الذي طلب منه أن يهدم دور بني هاشم ودور بني أسد بن عبد العُزّى بعد أن خرج الحسين بن عليّ وعبد الله بن الزّبير، وهرب ابن الزّبير. وعوّضه الوالي بعمرو بن الزّبير بن العوّام الذي تعسّف على أهل المدينة، وضربهم.

ويبدو أنّ صُخير بن أبي الجهم بن حذيفة بن عويج بن عديّ[2]، اعترض مصعب بن عبد الرحمن، وهو صاحب شرطة مروان بن الحكم، فضربه بقضيب على أنفه فكسرهُ[3]. فناصره بني عديّ، وهرب فلم يتمكّن مصعب من أن يمسك به. وتهدّد مصعب بقطع يد صُخير بن أبي الجهم. فأجابه عبد الله بن مطيع العدويّ (وهو من نفس عشيرة صخير) بأنّ الجذماء سيكثرون في قريش. وهو يقصد بذلك إن هو قطع يد صخير ستقطع به أيد من قريش[4].

وعندما قدم معاوية للحجّ، كلّمه بنو عديّ في صُخير حتّى يقتصّ منه مصعب بن عبد الرحمن بن عوف.

فكلّمه معاوية فرفض مصعب أن يقتصّ إلاّ في إطار سلطته كصاحب شرطة لأنّه ضربه وهو سلطان. ورفض مصعب أن يستجيب لمعاوية.

---

(١) مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص٢٦٨.

(٢) مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص٣٧٢: «لم يحضر صُخير الحرّة يبدو أنّه كان ببلاط يزيد ومنعه من إرسال جيش لأهل المدينة لأنّهم قومه وعشيرته. نزل صخير بالكوفة، وأطعم الطّعام، وكان له بها قدر، ودار، موالي.»؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج١٠، ص٤٨٤.

(٣) مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص٣٧١.

(٤) البلاذري، مصدر مذكور، ج١٠، ص٤٨٥.

فقيل لبني عديّ أن يقصدوا مروان بن الحكم والي المدينة لأنّ السّلطان سلطانه «وهو صنيعته»[١]. فكلّموا مروان فذكّرهم أنّ الخليفة كلّم مصعب فرفض. لكنّهم ألحّوا عليه، فكلّمه والي المدينة ـ وكان مصعب يشكر له تعيينه على شرطة المدينة ـ، فوهب مصعب حقّه لمروان وتنازل عن الحدّ. ممّا أغضب معاوية.

يبدو هذا الصّراع بين عشائر قريش كأنّه صراع في الفترة الجاهليّة. وكانت بعض عشائر قريش بالمدينة ترفض سلطة الدّولة، وتطبيق هذه السّلطة.

كما أنّ معاوية كان يتنازل ويحلم عن رجال قريش في سبيل المحافظة على توازن معيّن. كما أنّ معاوية وعماله كانوا في حرج كبير عند تطبيق الحدود والقوانين التي تفرضها الدّولة.

على هذا الأساس، كان رجال قريش يتصارعون صراعات شبيهة بصراعات الجاهليّة. كما أنّهم لم يحترموا السّلطة وتطبيقها لأوامر الخليفة.

فالمشكل الأساسي كان رفض أهل المدينة الانصياع لأوامر الدّولة، ولبني أميّة.

وكانت العشائر من قريش بتشجيع من الحسين بن عليّ وعبد الله بن الزّبير، في تمرّد دائم على معاوية.

لكنّ هذه السّياسة ستتغيّر في عهد يزيد الذي تعسّف عامله على المدينة عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق على أهل المدينة[٢]. وكان صاحب شرطته عمرو بن الزّبير، سببا للأزمة.

المهمّ أنّ كلّ هذه التّراكمات ستؤثّر على توتر العلاقات بين أهل المدينة والسّلطة الأمويّة أي الخليفة يزيد بن معاوية.

وسيسعى الخليفة إلى تطبيق أوامر الدّولة رغم أنف قريش وفي هذا تطوّر هامّ وتجاوز لسياسة الخليفة معاوية.

---

(١) مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص٣٧٢.

(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٤.

بداية الاضطرابات في عهد الخليفة يزيد بن معاوية

«بداية الاضطرابات تظهر بالمدينة بين الأمويّين أنفسهم، فقد قدم الوليد بن عتبة بن أبي سفيان والياً على الحجاز، وعزل الخليفة يزيد بن معاوية عمرو بن سعيد، وعمل الوليد على حبس غلمان وموالي له[١] يبلغ عددهم ٣٠٠».

يبدو لنا من خلال هذا الخبر ثراء عمرو فهو يتنقّل مع «جيش» خاصّ به. وثروته هذه ثروة مجموعة على حساب الدّولة، فقد استغلّ منصبه للإثراء على حساب أموال الدّولة[٢]. وكلّمه عمرو في إخلاء سبيلهم لكنّه رفض، وقال له بأن لا يجزع. فأجاب أخوه أبان بن سعيد بن العاص بأنّهم «إن قبضوا على الجمر وقبض عمرو عليه ما تركه حتّى يتركوه»[٣]، فعمرو شجاع ذو عزيمة قويّة.

وقد خرج عمرو فوصل المدينة وأرسل إلى غلمانه ومواليه إبلاً وكلّ ما يحتاجونه في سفرهم.وطلب منهم أن يكسروا باب السّجن إن أتاهم رسوله، ويركبوا الجمال المناخة بالسّوق ويلتحقوا به في دمشق. وقد نفّذ الغلمان والموالي ما أمرهم به سيدهم عمرو بن سعيد.

تدلّ هذه الحادثة على بداية ضعف السّلطة الأمويّة في المدينة والحجاز بصفة عامّة. فالسّجن هو مؤسسة للعقاب تمتلكها الدّولة لكنّ هذه المؤسسة أصبحت غير ناجعة بما أنّ الباب كُسر وخرج منه المسجونون. كما أنّ الوليد تسلّط على موالي وغلمان عمرو بدون ذنب ارتكبوه وحبسهم. ويندرج هذا الصّراع في إطار التّنافس بين السّفيانيّين وبني العاص داخل بني أميّة، وهو صراع كان موجوداً منذ فترة الخليفة معاوية بن أبي سفيان.

كما يندرج في طار إثراء الوالي السّابق على حساب الدّولة، وأراد الوالي الجديد افتكاك هذه الثّروة واسترجاعها لفائدة الدّولة.

---

(١) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٧٨.

(2) M.J. Kister, The battle of the Harra some socio - economic aspects" *Studies in memory of Gaston Wiet*, the Hebrew University of Jerusalem, 1977, p.46

(٣) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٧٨.

وصار هذا التّصرّف عادة يتبعها الولاة الجدد على حساب الولاة السّابقين تسمّى بالاستكشاف، وهي محاسبة العامل القديم لتجنّب إثرائه على حساب الدّولة وتجريده من الأموال وتعذيبه إن لزم الأمر. وقد دخلت هذه الصّراعات في إطار صراعات اليمنيّة والقيسيّة. ولعلّ أهمّ مثال على ذلك هو والي العراق وخراسان «خالد بن عبد الله القسري» اليمني النّزعة في فترة الخليفة هشام بن عبد الملك، فقد عذّبه في هذا الإطار الوالي القيسي يوسف بن عمر الثّقفي[1].

المهمّ أنّ ابن الزّبير طعن في سياسة الوليد بن عتبة تحيّلا على يزيد، فغيّره الخليفة أواخر سنة ٦٢هـ/ ٦٨٢م أو مطلع ٦٣هـ/ ٦٨٣م بعثمان بن محمد بن أبي سفيان الذي كان شاباً غير مجرّب. فساهم هذا الوالي في تأزّم الوضعيّة بين الدّولة الأمويّة من ناحية، وابن الزّبير وأهل المدينة من ناحية أخرى.

ويذكر الواقدي أنّ ابن الزّبير عندما خلع الخليفة يزيد بن معاوية، «اجتمع أهل الحجاز على طاعته وأخذ البيعة له على أهل المدينة عبد الله بن مُطيع العدوي»[2].

ويبدو هذا الدّمج بين ثورة ابن الزّبير وثورة أهل المدينة غير ممكن في هذه الفترة، فهناك علاقة غير واضحة بين الثّورتين رغم تعاطف أهل المدينة مع ابن الزّبير. كما أنّ البيعة لابن الزّبير في المدينة لم تتمّ بعد. وربّما يعود ذلك إلى خلط الواقدي بين هذه الفترة والفترة الموالية أي سنة ٦٤هـ، بعد موت يزيد بن معاوية ودخول الأمّة في مرحلتها الثّانية من الفتنة، وعندما دخل أهل المدينة في طاعة ابن الزّبير.

وقد أخبر ابن عضاه الأشعري وأصحابه الخليفة يزيد بن معاوية بميل أهل المدينة لابن الزّبير على حساب سلطته. كما أنّهم «كاشفوا بعداوته»[3]، وأعلن أهل المدينة أنّهم لا يُحبّون أن يتآمر عليهم الخليفة يزيد بن معاوية.

---

(١) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٢١٩.

(٢) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٣٧.

(٣) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٣٧.

وقد كان في مقتل الحسين فرصة لابن الزّبير للمجاهرة بعدائه للسّلطة الأمويّة، وإعلان البيعة له، كما أعلن أهل المدينة عداوتهم ليزيد ذاكرين شرعيّته التّاريخيّة الهشّة (شربه للخمر ولعبه بالكلاب والقردة). فكتب الخليفة لعامله على المدينة عثمان بن محمد بن أبي سفيان أن يُرسل إليه وفدًا «ليستمع مقالتهم ويستميل قلوبهم»[١]. بينما لا يذكر الطّبري السّبب الذي دفع بالوالي إلى إرسال وفد الأشراف إلى الخليفة يزيد بن معاوية.

يبدو أنّ الخليفة يزيد بن معاوية كان يحاول أن يجد حلاً لهذه المشكلة بأن يتحاور مع أشراف المدينة، خاصّةً والدّولة الأمويّة دولة أرستقراطية بما أنّها مستندة إلى الأشراف كأساس اجتماعيّ للحكم والأشراف هم الّذين يؤطّرون عشائرهم.

يظهر هنا حلم يزيد ومرونته في التّعامل فهو لا يُصعِّد الأمور بل يتدرّج في تعامله مع المعارضين، فأرسل الوالي للخليفة المنذر بن الزّبير بن العوّام وعبد الله بن أبي عمرو بن حفص بن المُغيرة المَخزومي[٢]، وعبد الله بن حنظلة الغَسيل بن أبي عامر الأنصاري[٣] وجماعة أخرى من أشراف أهل المدينة من قُريش والأنصار، وعندما قدموا على يزيد أكرمهم، وأغدق عليهم الأموال فمنح كلّ واحد منهم ٥٠ ألف درهم، ومنح المنذر بن الزّبير ١٠٠ ألف درهم[٤]. فلماذا أغدق الخليفة يزيد بن معاوية الأموال على المنذر بن الزّبير؟

ربّما أراد الخليفة أن يقضي على حركة المعارضة الزّبيريّة بالتأثير على المنذر حتّى يحدث ضغطًا على أخيه. كما أنّ إكرام أشراف المدينة يهدف إلى امتصاص

---

(١) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٣٧.

(٢) مصعب الزّبيري، *مصدر مذكور*، ص٣٣٢: «كان أوّل من خلع يزيد بن معاوية وفد إلى يزيد فأكرمه. فرجع للمدينة وقال في مسجد الرّسول بأنّ يزيدًا أكرمه وأحسن جائزته لكنّه يخلعه كما يخلع عمامته. فخلعوه بالمدينة. أهاج يوم الحرّة فقتل».

(٣) ابن حزم، *مصدر مذكور*، ص٣٣٣: من الأوس «رئيس الأنصار يوم الحرّة، قُتل هو وثمانية من ولده»؛ ابن سعد، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٨ ـ ٤٩ ـ ٥٠ ـ ٥١.

(٤) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٣٧ ـ ٣٣٨. الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٨٠.

غضب أهل المدينة نظرًا لما يلعبه الأشراف من دور في تأطير عشائرهم، وهي سياسة شبيهة بسياسة معاوية في شراء الضّمائر والحلم[١].

بينما ذكرت رواية أخرى لأشياخ أهل المدينة[٢] أنّه لمّا مات معاوية، وفد على يزيد وفد يرأسه عبد الله بن حنظلة بن أبي عامر، وكان سيّدًا معروفًا بفضله وعبادته، وكان معه ثمانية بنين له، فأعطاه يزيد ١٠٠ ألف درهم وأعطى كلّ واحد من بنيه ١٠ آلاف درهم وكسوتهم وإبلًا لتحملهم. وتؤكّد هذه الرّواية الّتي يرويها أهل المدينة إكرام الخليفة يزيد بن معاوية لعبد الله بن حنظلة لمكانته في الأنصار. وقد سلك الخليفة في ذلك نفس السّياسة التي اتّبعها معاوية، فبذل الأموال والهدايا لأهل المدينة. لكنّ الأشراف شهدوا عليه عندما رجعوا للمدينة ـ إلاّ المنذر بن الزّبير الّذي قصد عبيد الله بن زياد بالبصرة[٣] ـ، شهدوا عليه بأنّه «رجلٌ ليس له دين، يشرب الخمر، ويعزف بالطنابير، ويُضرب عنده القيان، ويلعب بالكلاب، ويسامر الخرّاب والفتيان»[٤].

أكّدت رواية أشياخ المدينة أنّ عبد الله بن حنظلة شهد على يزيد بأنّه رجلٌ يستحقّ أن يُجاهد، ولو أمكن الأمر لضحّى بأبنائه في جهاده. وعندما ذكر له النّاس أنّه أكرمه وأجاب بأنّه قد فعل، وما قَبِل منه إلاّ ليتقوّى به عليه. وحرّض النّاس عليه، فبايعوه[٥]. كما شهد عليه مسور بن مخرمة الّذي وفقد إلى يزيد قبل ولاية عثمان بن محمد بالفسق وشرب الخمر. وعندما أُعلِم يزيد بذلك أمر عامله أن يضربه الحدّ[٦]. ممّا دافع بشاعر وهو أبو حزّة أو أبو حرّة مولى خزاعة[٧] إلى

(1) Henri Lammens, *Le Califat de Yazid I^er^*, p. 34.

(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٨٩ ؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٥٢ ـ ٣٥٣.

(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٨٠.

(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٨٠ ؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٣٨.

(٥) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٨٩ ؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٥٢ ـ ٣٥٣.

(٦) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٣٨.

(٧) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٧٣.

هجاء الخليفة يزيد بن معاوية الّذي أحدث تغييرًا للتقاليد الدّينية والقرآنية بضربه الحدّ أحد أبناء المهاجرين من أصحاب السابقة، وعوّض أن يضرب الخليفة لشربه الخمر، ضُرِب هذا القرشيّ من أصحاب القدمة. ونتيجة ذلك، ساهم هذا التّجاوز من قِبَل الخليفة يزيد بن معاوية في تصاعد الغضب ضدّه:

أيشربها صهباء كالمسك ريحها أبو خالدٍ ويضرب الحدّ مسوّر؟

فساهم الشّعر كعنصر من عناصر التّعبير لدى العرب في تشويه صورة يزيد وتقوية حركة المعارضة ضدّه.

ولا بدّ من التّذكير بأنّ مسوّر بن مخرمة كان ابن أخت عبد الرحمن بن عوف، وكان يحفظ عن الخليفة عمر بن الخطّاب، «فهو من أهل الفضل والدّين»[1]. وكان من بين الرّجال الّذين ساعدوا على دفن عثمان[2]، لكن هذا المجهود في نصرة الخليفة المظلوم[3] لم يغفر له خروجه عن طاعة الخليفة (ثلبه له)، ممّا أدّى إلى عقابه.

على هذا الأساس، ضرب الخليفة يزيد بن معاوية الحدّ لرجلٍ من قُريش، وهو معروف بتديّنه. ويُعتبر هذا مسًّا من حرمة قريش. وكانت هذه السّياسة قد ابتدأت بقتل الحسين، فاعتدى يزيد بذلك على الحرمات، وبات التّعرّض لرجال قُريش وأصحاب القدمة والسّابقة منها عاديًا في سبيل فرض سلطته وتركيز إيديولوجيّته. ففشلت بذلك سياسة الكرم والحلم الّتي اتّبعها معاوية، وكانت تُعطي أكلها في عهده، وصارت في هذه الفترة من خلافة يزيد غير مجدية.

إنّ المشكلة الأساسيّة في ثورة أهل المدينة هي عدم تديّن يزيد وضعف شرعيّته

---

(١) مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص٢٦٣.

(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٦، ص٢٠٥.

(٣) نصرة الخليفة المظلوم بعد موته هي إحدى المظاهر الجديدة في الفتنة الأولى إذ منع الثّوّار والأنصار جُبير بن مطعِم وعبد الرحمن بن أبي ومِسوّر بن مخرمة الزُهري وأبا الجهم بن حُذيفة العَدَوي من الصّلاة على الخليفة المقتول وتكفينه. وعمل مسور على دفنه مع هذه الجماعة في كنف الظّلام لكي لا يُنبش.

الدّينية. فالمشكل إذن سياسيّ ودينيّ، لأنّ يزيد لم يكن محبّذًا منذ تولية معاوية له، إذ كانت طريقة توليته عن طريق العهد، فأسّس معاوية بذلك الحكم الأسروي مدخلاً على الأمّة عادات كسرويّة وقيصريّة مكروهة من قِبَل أبناء الصّحابة من المهاجرين والأنصار الذين يرون في السّابقة والقدمة أساس تولية خليفة المسلمين، إضافةً إلى فسق يزيد[١] فهو ذو أخلاقية منحلّة ودين ضعيف حسبهم نظرًا لتلّذذه بالسّلطة بشربه الخمر واتّخاذه مظاهر الملك كالصّيد والغناء والجواري.

ولم تكن أخلاق يزيد هي المشكلة الوحيدة الّتي أدّت إلى اندلاع ثورة أهل المدينة، بل كانت هناك مشكلة أخرى ذات طابع اقتصاديّ لم تذكرها مصادرنا التّقليدية (الطبري والبلاذري)، ويبدو أنّ السّمهودي يجعلها سببًا أوّلاً لبداية أحداث الحرّة[٢]، وهذا ما ذكره نقلاً عن كتاب الحرّة للواقدي:

«أوّل ما هاج أمر الحرّة أنّ ابن ميناء كان عاملاً على صوافي المدينة وبها يومئذ صوافي كثيرة حتّى كان معاوية يجد بالمدينة وأعراضها ١٠٠ ألف وسق[٣] و٥٠ ألف وسق ويحصد ١٠٠ ألف وسق حنطة. واستعمل يزيد على المدينة عثمان بن أبي سفيان وأن ابن ميناء أقبل بشرج[٤] له من الحرّة يريد الأموال الّتي كانت لمعاوية فلم يزل يسوقه ولا يصدّه عنه أحد حتّى انتهى إلى بلحارث بن الخزرج[٥] فنقب النقيب[٦] فيهم فقالوا ليس ذلك لك هذا حدث وضرر علينا. فاعلم الأمير

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٣٨.

(٢) السّمهودي، كتاب وفا الوفاء بأخبار دار المصطفى صلّى الله عليه وسلّم، مصر ١٣٦٢، ج١، ص٨٩.
E. I², Nouvelle Edition, article al-Harra.

(٣) ابن منظور، معجم مذكور، ج٣، ص٩٢٦: الوسقُ والوِسقُ: مكيلة معلومة. وقيل هو حمل بعير وهو ستون صاعا بصاع النّبيّ، وهو خمسة أرطال وثلث، فالوسقُ على هذا الحساب مائة وستون منًا. خمسة أوسق هي خمسة عشر قفيزًا. الوسق هي حمل البعير.

(٤) ابن منظور، معجم مذكور، ج٢، ص٢٩١: الشّرج مسيل الماء من الجرار إلى السّهل. وفي الحديث أنّ أهل المدينة اقتتلوا وموالي معاوية على شرج من شرج الحرّة.

(٥) ابن حزم، مصدر مذكور، ص٣٤٠ من الأنصار وبالتّحديد من الخزرج.

(٦) ابن منظور، معجم مذكور، ج٣، ص٦٩٩: النّقيب وهو عريف القوم وهو شاهد القوم وضمينهم. وفي =

عثمان بن محمد بذلك فأرسل إلى ثلاثة من بلحارث فأجابوه إلى أن يمرّ بهم فأعلم ابن ميناء فغدا بأصحابه فذبّوهم. فرجع إلى الأمير فقال أجمع لهم من قدرت وبعث معهم بعض جند وقال مرّ به ولو على بطونهم. فغدا ابن ميناء متطاولاً عليهم وعدا من يذبّهم من الأنصار ورفدتهم قريش فذبّوهم حتّى تفاقم الأمر ولم يعمل شيئًا. وكتب عثمان بن محمد إلى يزيد يخبره بذلك ويحرّضه على أهل المدينة جميعًا، فاستشاط غضبًا وقال والله لأبعثنّ إليهم الجيوش ولأوطننّها الخيل»[١].

تتمثّل هذه المشكلة في أنّ عامل معاوية على الصّوافي في المدينة، وهو ابن ميناء وأحد موالي معاوية، قد اتّخذ الموالي لخدمة أراضيه لأنّهم أكثر طاعة للخليفة من العرب. وكان هؤلاء الموالي حسب كيستر[٢] متسبّبين في حدوث الأزمة بين الخليفة يزيد بن معاوية وأهل المدينة، إذ كلّف ابن ميناء موالي معاوية بتحويل الشرج أي مجرى الماء لصوافي معاوية، فهبّ إليهم بلحارث بن الخزرج، وعبّر نقيبهم عن عدم

أحقيّة موالي معاوية بهذا العمل، وأخبروا الوالي عثمان بن محمد، وهذا كلّف ثلاثة رجال من بلحارث أن يساعدوا الموالي على افتكاك المياه، وعلى دخول أراضي الصّوافي بالقوّة بما أنّ الوالي أرسل معهم جندًا ربّما من الموالي أيضًا (موالي معاوية)، لكنّ بلحارث منعوهم وانضمّ إليهم الأنصار وقريش وقتل بعض موالي معاوية في هذا الاصطدام بين ابن ميناء وموالي معاوية من ناحية، والأنصار وقريش من ناحية أخرى. فكان ذلك سببًا مباشرًا لطرد بني أميّة والوالي الأمويّ

= حديث عُبادة بن الصامت: وكان من النقباء، وهو كالعريف على القوم، المقدّم عليهم، الذي يتعرّف أخبارهم، وينقب عن أحوالهم أي يفتّش. وكان النّبيّ، قد جعل ليلة العقبة، كلّ واحد من الجماعة الّذين بايعوه بها نقيبًا على قومه وجماعته، ليأخذوا عليهم الإسلام ويُعرفوهم شرائطه، وكانوا اثني عشر نقيبًا كلهم من الأنصار، وكان عُبادة بن الصّامت منهم؛

W. Montagomery Watt, *Mahomet*, Payot, Paris, 1989,p. 414.

(١) السّمهودي، مصدر مذكور، ج١، ص٨٩.

(2) M. J. Kister, *Idem*, p 33-49.

حسب كيستر، فأراضي الصّوافي وموالي معاوية هما السّبب المباشر لاندلاع هذه الثّورة ثورة أهل المدينة ضدّ سلطة الخليفة يزيد بن معاوية[١].

ويبدو أنّ أهل المدينة اعتبروا معاوية مغتصبًا لهذه الأموال الّتي هي أموالهم بما أنّها ملكيّات تابعة للمدينة. وكانت مداخيل معاوية ويزيد في ما بعد مداخيل هامّة من الصّوافي من القمح والتّمر. ولم تكن لمعاوية ملكيّات عقاريّة فلاحيّة فقط، بل كانت لديه أموال أخرى كالقصور[٢]. وكان إثراء الخليفة في المدينة يُثير غضب أهلها من أبناء المهاجرين والأنصار. وقد حاول الخليفة يزيد بن معاوية أن يجد حلًّا لهذه الأزمة عن طريق تدخّل عبد الله بن جعفر فوعَد يزيد بمنحهم عطاءين (عطاء في الشّتاء، وعطاء في الصّيف)، وحدّد سعر القمح في المدينة بما هو عليه في الشّام، وتعهّد بأن يدفع لهم الأموال الّتي احتبسها معاوية (أي الفارق في أسعار القمح)، لكنّ أهل المدينة رفضوا[٣].

ربّما كان أشراف الشّام من دون سائر أشراف الدّولة الآخرين يتمتّعون بكلّ هذه الامتيازات. وهذا ما يؤكّد إقليميّة الدّولة الأمويّة الّتي اعتمدت على أشراف الشّام كقاعدة للحكم الأمويّ. وكان أشراف المدينة يحسّون بهذا الفرق رغم إغداق الخليفة الهدايا عليهم، وكانت هذه الإقليميّة سببًا من الأسباب الّتي أدّت إلى ثورة أهل المدينة ضدّ يزيد بن معاوية.

ويبدو من خلال هذه الرّواية تسلّط مولى من موالي معاوية حين أراد تطبيق سياسة مولاه. كما يظهر تسلّط الوالي الأمويّ على الأنصار. ولم يكن هذا الوالي ضعيفًا على ما يبدو بل طبّق سياسة الدّولة على حساب الأنصار، كما أنّه أوغر صدر الخليفة على أهل المدينة. فهو من جيل جديد لم يعش الفتنة الأولى وبالتالي لم يحسب حسابًا لأهل المدينة وتبعات الأزمة بينهم وبين الخليفة.

---

(1) M. J. Kister, *Idem*, p 46-47

(2) M. J. Kister, *Idem*, p 44

(3) M. J. Kister, *Idem*, p 48

ويبدو الخليفة الأمويّ كأكبر ملاك عقاريّ، وهو يحمي مصالحه الخاصّة (ميراثه من أبيه معاوية). وكانت فئة الموالي تخدم مصالح الخليفة بمدينة الرسول. فهذه الفئة هي فئة «دخيلة» عليهم وتتصرّف في أموال الخليفة. وقد أشار زياد على معاوية باتخاذ الموالي بعد ما شكا له ذوي قرابته «لأنّهم أنصر وأغفر وأشكر»[١]. المهم أنّه حدث اتّفاق بين الأنصار وقريش ضدّ عامل معاوية.

لقد اتّخذ الخليفة معاوية بن أبي سفيان الإثراء كمظهر من مظاهر السّلطة متّبعًا في ذلك سياسة الخليفة عثمان[٢]. فقد اصطفى أراضي الصّوافي بالعراق وهي أراضٍ كان يملكها كسرى وآله[٣]. كما كان أوّل من جمع أراضي الصّوافي في العراق ومكّة والمدينة والشّام والجزيرة واليمن وأقطعها أهل بيته وخاصّته[٤]. ومكّنت هذه الصّوافي الخليفة من أن تكون له قاعدة ماليّة لحكمه منها يمنح عطاياه[٥].

وقد أدّى تطبيق مبدأ الصّوافي في العراق من قبل معاوية وحرمان القرّاء السّابقين من ادّعاءاتهم بالنّسبة لهذه الأراضي ومداخيلها إلى ثورة حجر بن عديّ الكنديّ وأصحابه على السّلطة. وهذا ما دفع بالخليفة إلى قتلهم[٦].

على هذا الأساس، مثلت سياسة معاوية في ملكيّة أراضي الصّوافي، ومن بعده سياسة ابنه يزيد، سببًا من أسباب ثورة أهل المدينة ضدّ سلطة يزيد. إذ كان تنامي الملك الأموي متعارضًا مع المصالح السّياسيّة والاقتصاديّة لأهل المدينة.

كما أنّ سياسة الخلفاء الأمويّين ذكّرت أهل المدينة من أبناء المهاجرين والأنصار بسياسة عثمان المتميّزة بالإثراء على حساب الدّولة. لكنّ أبناء المهاجرين والأنصار الّذين كانوا متشبّعين بالمبادئ الدّينيّة إضافةً إلى إحساسهم بتفوّقهم الدّينيّ من حيث

---

(١) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٧.
(٢) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٦، ص١٣٣
(٣) البلاذري، فتوح، ص٤١١.
(٤) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ليدن وبريل ١٩٦٩، ج٢، ص٢٥٨-٢٥٩.
(٥) بثينة بن حسين، *مرجع مذكور*، ص٢٢٣.
(٦) محمد عبد الحيّ شعبان، *مرجع مذكور*، ص١٠٠-١٠١.

السّابقة والقدمة على الخليفة يزيد بن معاوية السكّير والفاسق حسب رأيهم، ضاقوا ذرعًا بهذه السّياسة وقرّروا الثّورة على الدّولة.

وقد اعتبر فلهاوزن أنّ السّبب الأساسيّ لثورة أهل المدينة هو سبب سياسيّ يتمثّل في «شهوة المجد والسّيادة»، وما نعتهم ليزيد بالفاسق إلاّ تعلّة لافتكاك السّلطة منه[١].

أمّا كيستر فيرى أنّ واقعة الحرّة كانت نتيجة خلاف بين مالكي الأراضي بالمدينة والخلفاء الأمويّين المتعسّفين الّذين افتكّوا أراضي الأهالي[٢].

لقد تطوّر الملك الأمويّ على يد معاوية وابنه، واتّخذ كلّ منهما مظاهر لهذا الملك تمثّلت في امتلاك أراضي الصّوافي الّتي دعّمت الخزائن الخاصّة للخليفة ومكّنته من شراء الضّمائر والقيام بشؤون ملكه على الطّراز البيزنطيّ. واستند الخليفة معاوية على فئة جديدة هي فئة مواليه أي أعاجم من السّبي اعتنقوا الإسلام ودخلوا في ولائه، فطبّقوا سياسته وحافظوا على أمواله.

وإن كان هذا الملك مقبولاً في الشّام مركز الخلافة، فإنّه في المدينة، تحوّل إلى وسيلة الأنصار وأبناء المهاجرين لضرب الشّرعيّة التّاريخيّة الأمويّة وأساسًا الشّرعيّة الدّينية ليزيد. وهي ليست ثورة للأنصار فقط كمّا عبّر عن ذلك لامنس[٣]، بل هي ثورة مشتركة، إذ تكوّن هذا التّحالف من عناصر قرشيّة مستقرّة بالمدينة (عبد الله بن مطيع العدويّ، المنذر بن الزّبير بن العوّام وعبد الله بن أبي عمرو بن حفص بن المُغيرة المَخْزومي ومعقل بن سنان بن مُظَهّر بن أشجع[٤]، وهو من عناصر البدو المهاجرين المستقرّين بالمدينة)، وعناصر من الأنصار (عبد الله بن حنظلة بن الغسيل).

---

(١) فلهاوزن، مرجع *مذكور*، ص١٦١ـ١٦٢.

(2) M. J. Kister *Idem*, p 49.

(3) *E. I²*, Nouvelle Edition, article al-Harra.

(٤) ابن سعد، *مصدر مذكور*، ج٤، ص٢١٢: «قد صحب النّبيّ، وحمل لواء قومه يوم الفتح. بعثه الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، وكان على المدينة ببيعة يزيد بن معاوية».

ونضيف سببًا آخر لم تذكره المصادر لكنّنا نقدّمه كاجتهادٍ منّا وهو السّبب المتعلّق بالتّنظيم الإداريّ والعسكريّ أو الدّيوان ـ ديوان العطاء ـ فربّما تشدّد الخليفة يزيد بن معاوية في مراقبة هذا الدّيوان كأحد دواوين الولايات. وكان على رأس هذا الدّيوان عبد الملك بن مروان[١]، وهو صاحب مقدرة سياسيّة وهو من أمويّي المدينة. وقد حرص الخليفة يزيد بن معاوية على حسن سير هذا الدّيوان، وعلى تنظيمه تنظيمًا محكمًا. وربّما أقلق حرص للخليفة هذا على فرض سلطة الدّولة أهل المدينة أو أشرافها من قريش والأنصار الّذين كانوا قابلين على مضض لسلطة معاوية.

المهمّ أنّه تضافرت الأسباب الدّينيّة والاقتصاديّة ليعلن أشراف المدينة خلعه ويتبعهم النّاس في ذلك.

وقد أظهر الوفد من الأشراف شتم يزيد ثمّ أشهدوا النّاس أنّهم خلعوه، فتبعوهم[٢] في ذلك. وذكر السّمهوديّ أنّ خلع الخليفة يزيد بن معاوية كان في المسجد، وأوّل من ابتدأ بخلعه هو عبد الله بن أبي عمرو بن حفص المخزومي، فذكر أنّه خلع يزيد بن معاوية كما خلع عمامته ونزعها عن رأسه. ورغم أنّه وصله فهو سكّير، ثمّ خلع نعله فكثرت العمائم والنّعال[٣].

وتبدو هذه العادة ـ عادة خلع النّعال والعمائم ـ عادة جاهلية، قد رجعت في هذه الفترة. وذكرت في الفتنة الأولى النّعال في الصّراع الّذي حدث بين المسلمين عندما أغلظت عائشة زوجة الرّسول لعثمان، فقال لها بأنّها أُمرت أن تبقى في بيتها وليس لها أن تتدخّل في هذه الشّؤون السّياسيّة للأمّة، فساندته جماعة، وعارضه آخرون، «فاضطربوا بالنّعال، وكان ذلك أوّل قتال بين المسلمين بعد النّبيّ»[٤]. وهبّ النّاس

(١) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص١٦٦.
(٢) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٨٠؛ البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٣٨.
(٣) السّمهودي، *مصدر مذكور*، ج١، ص٨٩ـ٩٠.
(٤) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٦، ص١٤٤.

لعبد الله بن حنظلة الغسيل الأنصاريّ فبايعوه وولّوه عليهم[1]. بينما تذكر مصادر أخرى أنّ القرشيّين أسندوا القيادة لعبد الله بن مطيع العدويّ[2]. فحسب هذه الرّواية كانت القيادة مشتركة بين الأنصار وقريش.

لا بدّ في هذا المجال من التّأكيد على أنّ ابن الغسيل لم يُبايع لنفسه أو يدعو إليها، أي أنّ هذه الحركة لم تكن منظّمة ولم يكن لها قائد يدبّر أمرها بل أنّ القائد وُكّلت له القيادة بعد خلع يزيد.

وكان عبد الله بن حنظلة الغسيل[3] هذا رجلاً متديّنًا وورعًا حتّى أنّ مروان بن الحكم قال حين رآه قتيلاً يوم الحرّة: «رحمك الله فلَرُبَّ سارية رأيتك تُطيل الصّلاة إلى جانبها»[4].

أظهر جدّه أبو عامر الرّاهب الإسلام ثمّ التحق بقريش يوم أحد فسمّاه الرّسول بالفاسق[5]. وقُتل أبوه شهيدًا في أُحد «فغسّلته الملائكة»، فسُميّ أبناؤه ببني غسيل الملائكة. وقد قتله أبو سفيان بن حرب سيّد قريش[6]. ولد بعد وفاة أبيه، ومات الرّسول وله تسع سنوات. وكان يبيت في مسجد الرّسول ويصوم الدّهر[7].

على هذا الأساس ، كانت دوافعه من وراء خلع وقتال يزيد بن معاوية على ما يبدو دينيّة بحتة، لكن ربّما كانت له ـ مثل بقيّة أشراف المدينة ـ دوافع أخرى مرتبطة بإرادة أهل المدينة الخروج من تحت سيطرة الأمويّين.

وتضيف المصادر أنّ عبد الله بن حنظلة الغسيل بايع أهل المدينة على الموت[8]. وهذا يؤكّد قوّة الوازع الدّينيّ لديه.

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٨٠؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٣٨

(٢) ابن سعد، مصدر مذكور، ج٥، ص١١١؛ السّمهودي، مصدر مذكور، ج١، ص٩٠.

(٣) ابن سعد، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٨ ـ ٤٩: هو من الأوس.

(٤) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٥.

(٥) البلاذري، مصدر مذكور، ج١، ص٣٩١.

(٦) البلاذري، مصدر مذكور، ج١، ص٣٩٣.

(٧) ابن سعد، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٩.

(٨) ابن سعد، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٩.

أمّا عبد الله بن مطيع بن الأسود بن حارثة العدويّ وهو ابن العجْماء نسبة إلى جدّته وهي خُزاعية[1] فقد كان من أشدّ رجال قريش جلدًا وشجاعةً، وهو من عديّ بن كعب أي من أسد بن عبد العزّى. حبسه الوليد بن عتبة ـ والي المدينة ـ لهواه وميله لابن الزّبير حين هرب إلى مكّة ورفض البيعة ليزيد. فأخرجه بنو عدي من السّجن ولحق بابن الزّبير ثمّ رجع إلى المدينة[2]. وكان على قريش يوم الحَرَّة، وهرب لابن الزّبير، فاستعمله على الكوفة. ثمّ أخرجه منها المختار وأعطاه مائة ألف درهم يتجهّز بها. ثمّ قتل مع ابن الزبير بمكّة[3]. وكان ردّ فعل الخليفة يزيد بن معاوية أن أرسل لعبيد الله بن زياد وطلب منه أنّ يوثق المنذر بن الزّبير ويحبسه عنده حتّى يقرّر ما هو العقاب الّذي سيُلحقه به. وقد نزل المنذر ضيفًا على ابن زياد فأحسن ضيافته نظرًا لما بينهما من صداقة[4]. وكره عبيد الله أن يُلحق به مكروهًا لأنّه ضيفه. وهي المرّة الوحيدة الّتي يعصي أمر الخليفة، فاحتال ليتركه يعود للحجاز بدون أن يتفطّن أحد إلى مساعدة الوالي له[5].

وانضمّ المنذر بن الزّبير بن العوّام إلى ثورة أهل المدينة بصفته أحد أبناء الصّحابة، ولم ينضمّ إليها كمُمثل لأخيه عبد الله بن الزّبير المنشقّ عن الخليفة يزيد بن معاوية، وكان من أهمّ المحرّضين على يزيد في المدينة، فكان يقول بأنّ يزيد «ليسكر حتّى يدع الصّلاة»[6]. ولنا أن نتساءل: هل كان يُمثّل مصالح ابن الزّبير بالمدينة؟ أم أنّه كان يمثّل مصالح القرشيين؟

---

(١) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣١٦؛ مصعب الزّبيري، *مصدر مذكور*، ص٣٨٤ هي العجماء بنت عامر بن الفضل بن عفيف ابن كُليب ب حُبشية بن سلول بن كعب بن عمرو.

(٢) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣١٦.

(٣) مصعب الزّبيري، *مصدر مذكور*، ج١٠، ص٣٨٤؛ ابن سعد، *مصدر مذكور*، ج٥، ص١٠٩ ـ ١١١؛ البلاذري، *مصدر مذكور*، ج١٠، ص٤٨١ ـ ٤٨٢.

(٤) مصعب الزّبيري، *مصدر مذكور*، ص٢٤٥.

(٥) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٨٠ ـ ٤٨١؛ البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٣٨.

(٦) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٨١؛ البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٣٨.

لقد كان هذا التّحريض مجرّد شعار للقضاء على حكم الخليفة يزيد بن معاوية واسترجاع السّلطة من قبل أبناء المهاجرين والصّحابة.

وحاول الخليفة أن يجد حلاًّ سلميًا لهذه الأزمة، فأرسل النّعمان بن بشير الأنصاريّ وأمره بأن يُكلّم قومه ويقنعهم بالتّراجع عن مخطّطاتهم في الثّورة ضدّه[1]. وحمّلهم يزيد المسؤوليّة في تذكية نيران الفتنة (ولعلّه يعرّض بمسألة ابن ميناء وصوافي معاوية ورفض الأنصار أن يحمل المولى موارد الصّوافي للشّام. وكذلك رفضهم أن يتصرّف في المياه ويحوّلها لصوافي معاوية) واجتماع النّاس على خلافه. وكان يزيد متخوّفًا أساسًا على عشيرته من بني أميّة في المدينة أن يهلكوا في الفتنة[2]، فالخليفة كان يتّبع المداراة واللّين مع أهل المدينة لحماية عشيرته أساسًا. وستكون توقّعات الخليفة في محلّها في ما بعد، بما أنّ الثّوار سيحاصرون ويطردون بني أميّة من المدينة. وقدم النّعمان المدينة فدعا قومه ثمّ النّاس عامّةً، فأمرهم بالطّاعة ولزوم الجماعة وخوّفهم من الفتنة، ورغّبهم في بيعة يزيد بن معاوية، وحذرهم من جند الشّام[3]. ويبدو خطاب النّعمان بن بشير الأنصاري خطابًا إيديولوجيًا للدّولة الأمويّة، وكانت الطّاعة ولزوم الجماعة أساس هذه الإيديولوجيا. وأعاد النّعمان التّذكير بضرورة البيعة ليزيد بن معاوية، فالبيعة بقيت معلّقة بما أنّ أهل المدينة خلعوا الخليفة. وكان كلّ من الخليفة والنّعمان يحرصون على حقن دماء أهل المدينة من الأنصار وقريش. كما أنّ الفتنة كشبح مخيف ومدمّر للجماعة، كانت دائمًا ما تذكر على ألسنة رجال الدّولة الأمويّين.

كما تبرز في خطابه الإيديولوجيّ إقليميّة الدّولة الأمويّة في التّهديد بقدوم جيش الشّام الّذي «لا طاقة لأهل المدينة به»[4]، فهو جيش الطّاعة وجيش الدّولة الّذي

---

(١) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٣٩.

(٢) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٨١.

(٣) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٨١؛ البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٣٩.

(٤) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٨١.

يُسلّطه على كلّ من يخرج عن طاعته. وقد هدّد الخليفة بإرسال جيش الشّام لمعاقبة أهل المدينة بعد أن رفضوا الامتثال لأمر مولى معاوية. وهذا يؤكّد على أنّ الدّولة الأمويّة دولة إقليميّة، ركّزت سلطتها بالشّام وهي تحكم بدعم من أشراف الشّام وتسلّط قوّتها العسكريّة بفضل جند الشّام. كما أنّها كانت بدون شكّ تمنحهم أعطيات وامتيازات إضافيّة على حساب بقية الفرق المقاتلة في الولايات الأخرى. وكان هذا الطّابع الإقليميّ يُثير غضب النّاس في الولايات الأخرى. وأجاب عبد الله بن مطيع العدويّ النّعمان بن بشير بأنّه جاء لتفريق جماعتهم وإفساد أمرهم. فقال له النّعمان بأنّه إذا جدّ القتال فسيترك الأنصار يُقتلون، ويلتحق بمكّة، وقد حدث هذا بالفعل بعد الحرّة[1].

لكنّ لا أحد من النّاس استمع لمقالة النّعمان أي لمقالة الدّولة، كما أنّ ما أشار به النّعمان لنوايا عبد الله بن مطيع يُحيلنا على دوافع هذا الثّائر. فهو قرشيّ، ذو توجّهات سياسيّة غير واضحة، إذ هو صديق ابن الزّبير، لكنّه بعد أن التحق به في فترة الوليد بن عتبة أي بعد أن خرج من الحبس[2] عاد إلى المدينة والتحق بثورتهم وكان أحد القادة المُمثلين لقريش، غير أنّه لم يُكمل القتال في الحرّة وهرب لابن الزّبير- ويذكر البلاذري[3] أنّ عبد الله بن مطيع أخذ البيعة لابن الزّبير على أهل المدينة حين خالفوا يزيد بن معاوية، وعندما انتصر مسلم بن عقبة لحق بابن الزّبير.

على هذا الأساس، يطرح علينا هذا الشّخص إشكاليّة توجّهه السّياسيّ، فهو يثور مع كلّ من يثور ضدّ الأمويّين عداء لهم، ورفضًا لسلطتهم. لكنّنا لا نعتقد كما ذكر البلاذري أنّه أخذ البيعة لابن الزّبير في المدينة. بل كانت ثورة أهل المدينة مستقلّة عن ابن الزّبير ولها أهدافها الخاصّة بها رغم تعاطف أهل المدينة مع حركة ابن الزّبير.

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٨١؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٣٩.

(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج١٠، ص٤٨٢.

(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج١٠، ص٤٨١.

كما يبدو أنّ الخليفة يزيد بن معاوية لم يتوقف على إرسال النّعمان بن بشير لأهل المدينة بل كتب لهم كتابًا، ويندرج هذا الكتاب في إطار سياسة المراحل والمداراة الّتي كان يتّبعها يزيد مع أهل المدينة.

وبيّن الخليفة يزيد بن معاوية في هذا الكتاب أنّه تجاوز عن سيّئات أهل المدينة، ورفق بهم إلى حدّ أنّه عُجّز عندهم: «وقد حملهم على رأسه، ثمّ على عينه ثمّ على نحره، لكنّه الآن سيطؤهم تحت قدمه ليجعلهم أحدوثة كأحاديث عاد وثمود»[١]. وتمثّل ببيت شعر ذكر فيه أنّ الرّجل الحليم يستضعف، وعلى هذا الأساس غيّر يزيد سياسته من الحلم إلى القوّة.

لقد أجبر يزيد على تجاوز الوصيّة الّتي أوصاها له معاوية بأن «يُكرم أهل مكّة وأهل المدينة لأنّهم أصله ومنصبه»[٢]. وأرّخ بذلك لنهاية فترة الحلم السّفياني الّذي يعتبر الوسيلة الأساسيّة في الحكم لدى الخليفة معاوية.

والملاحظ أنّ هذه السّياسة قد فُرضت على يزيد فرضًا لأنّه لم يستطع أن يُخضع أهل المدينة بالحلم والمداراة لأنّ الظّروف تغيّرت.

لقد أسّس يزيد طريقة جديدة قوامُها عنف الدّولة وتجبّرها مع أهل المدينة من القرشيّين والأنصار. وفُرضت هذه الإيديولوجيا بقوّة السّلاح، وتهدّد يزيد بمعاقبة أهل المدينة على عصيانهم له شرّ عقاب كمعاقبة الله للشّعوب العاقة حتّى تبقى ذكرى هذا العقاب في الذّاكرة الإسلامية. وبالفعل كان له ذلك. وسيُصبح هذا المنهج السيّاسيّ الّذي اتّخذه يزيد لحدوث الفتنة منهجًا سياسيًّا للخليفة عبد الملك بن مروان. لكنّ أهل المدينة رفضوا الانصياع للخليفة، وابتدأت الفتنة.

اندلاع ثورة أهل المدينة

في بداية سنة ٦٣هـ/ ٦٨٣م، قام الثوّار بأوّل إجراء وقد تمثّل في طرد عامل

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٣٩.

(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص١٠٨.

المدينة من قبل الخليفة يزيد بن معاوية عثمان بن محمد بن أبي سفيان وطرد بني أميّة ومواليهم ومَن والاهم من قريش، وكانوا يعدّون قرابة ١٠٠٠ شخص[١]. وتذكّر رواية أخرى مشكوك فيها، رواها الواقدي، أنّ عدد بني أميّة كان ٤٠٠٠ رجل[٢].

وإذ تبدو المصادر غير متّفقة على عدد بني أميّة المطرودين من المدينة، فإنّه من المرجّح أن يكون عددهم قرابة ١٠٠٠ رجل.

فخرج بنو أميّة ونزلوا بدار مروان بن الحكم الّذي كان حاضرًا مع ابنه عبد الملك، فحاصرهم الثّوّار حصارًا ضعيفًا، وهتفوا بخلع يزيد بن معاوية.

ولم تذكر المصادر أين توجد دار مروان بن الحكم التي حُوصر فيها بنو أميّة، هل هي داخل المدينة؟ أم هي خارجها. وقد ذكر ابن سعد أنّ عبد الملك انتظر ردّ الخليفة يزيد بن معاوية عليهم بعد أن حُوصروا في قصر مروان بذي خشب[٣].

لقد حاصر الثّوّار بني أميّة في دار مروان كما حُوصر الخليفة عثمان بن عفّان في داره من قبل الثّوّار ومنعوا عنه الماء[٤]. فرجعت بذلك أحداث الفتنة الأولى لتعيد نفسها من جديد إذ حاصر الثّوّار الأمويّين ومنعوا عنهم الماء[٥].

فهل أراد الثّوّار أن يُعاقبوا الأمويّين كما عوقب عثمان بحصاره ومنعه الماء؟ المهمّ أنّ الدّولة الأمويّة كانت تركّز على القصاص للخليفة المظلوم عثمان، فانقلبت الوضعيّة بالنّسبة لأمويّي المدينة إذ أصبحوا هم في وضعيّة الخليفة المحاصر المظلوم.

لماذا لم يطرد أهل المدينة بني أميّة بعد مقتل عثمان؟

---

(١) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٨٢؛ البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٣٩.

(٢) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٤٦.

(٣) ابن سعد، *مصدر مذكور*، ج٥، ص١٧٤؛ ياقوت، معجم مذكور، ج٢، ص٣٧٢: «واد على مسيرة ليلة من المدينة».

(٤) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٦، ص١٨٨.

(٥) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٨٢.

وجّهت الأنظار بعد مقتل عثمان إلى أمور الخلافة والفتنة بانتقال عليّ بن أبي طالب إلى الكوفة. لكن في فترة الخليفة يزيد بن معاوية أصبح هناك كره ضدّ هذه السّلالة من قريش التي تحتكر السّلطة والملك من قبل أبناء المهاجرين من قريش والأنصار.

فهل أراد الأنصار وأبناء المهاجرين من قريش الإنفراد بالسّلطة بالمدينة، وطرد الأمويّين إلى الشّام مركز الملك الأمويّ ومقرّ الأمويّين السّفيانيّين؟

ربّما أراد الثّوّار معاقبة أمويّي المدينة «بخطإ» أمويّي السّلطة في دمشق. كما أنّ الكراهيّة ضدّ سلطة يزيد تصاعدت خاصّةً مع استغلاله في تلك الفترة أراضي الصّوّافي كما استغلّها معاوية على حسابهم. فهم يعتبرون الخلفاء الأمويّين مغتصبين لأراضيهم بالإضافة إلى تسلّط موالي معاوية على ممتلكاتهم.

المهمّ أنّ مروان بن الحكم وعمرو بن عثمان بن عفّان (زوج رملة ابنة معاوية[1]) أرسلا إلى حبيب بن كرّة، وكان مروان يدبّر أمرهم بما أنّه كبير بني أميّة، أمّا عثمان بن محمد بن أبي سفيان الوالي المخلوع من قِبَل أهل المدينة فكان صغيرًا ولم يكن له رأي. وتحالف بنو أميّة ومواليهم بقيادة مروان بن الحكم الّذي جعل من داره ملجأ لبني أميّة وأنصارهم من قريش ومواليهم. وقد اضطلع مروان بن الحكم بهذه المهمّة بعد أن كان قد خبر مناصب عديدة.

مات الرّسول ومروان له ٨ سنين، وبقي في المدينة مع أبيه الحكم بن أبي العاص حتّى مات أثناء خلافة عثمان. وكان كاتب الخليفة عثمان[2]، وقد عاب الثّوّار على الخليفة محاباته له ومنحه الأموال على حساب المسلمين، وقاتل عن عثمان يوم الدّار أشدّ قتال حتّى كاد أن يقتل[3].

كما قاتل مروان بن الحكم مع عائشة وطلحة بن عبيد الله والزّبير بن العوّام

---

(١) مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، مصدر مذكور، ص١٠٦ ـ ١٢٨.

(٢) ابن عبد ربّه الأندلسي، كتاب العقد الفريد، دار الكتاب العربيّ، بيروت، ١٩٦٢، ج٤، ص١٦٨.

(٣) ابن سعد، مصدر مذكور، ج٥، ص٢٩.

عليًا بن أبي طالب للقصاص للخليفة المظلوم. لكنّه قتل طلحة إذ كان أشدّ النّاس عليه، واختبأ بعد الجمل حتّى منحه عليّ الأمان، فبايعه. وفي عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان، عيّن على المدينة مرّتين[١].

وكان مروان حريصًا على بقاء السّلطة الأمويّة قويّة (إشارته على الوليد بن عتبة بأخذ البيعة من الحسين بن عليّ وابن الزّبير بقوّة السّيف قبل أن يخرجوا من عنده[٢]).

على هذا الأساس، كانت لمروان تجربة في السّلطة سيُوظّفها في هذه الأزمة التي تعرّض لها بنو أميّة في المدينة في فترة يزيد بن معاوية. فكتب وجماعة من بني أميّة إلى الخليفة يزيد بن معاوية، فأخذ الكتاب عبد الملك بن مروان وخرج معه إلى ثنيّة الوداع[٣]، فسلّمه الكتاب، وقال له بأنّه قد أجّلهُ ١٢ ليلة ذاهبًا و١٢ ليلة راجعًا، وعند انقضاء ٢٤ ليلة يجده منتظرًا له في ذلك المكان، وفي تلك السّاعة[٤].

وكان محتوى الكتاب: «... فإنّه قد حُصرنا في دار مروان بن الحكم، ومُنعنا العذب، ورمينا بالجبوب[٥]، فيا غوثاه، يا غوثاه!»[٦].

كان عقاب أهل المدينة لبني أميّة الحصار في دار مروان، ومنعهم من الماء الصّالح للشّراب وضربهم بالجبوب.

لماذا لم يُقاتل بنو أميّة بالمدينة الثّوّار؟، هل كان عددهم ١٠٠٠ رجل غير كافٍ لمواجهة جيش الثّوّار؟، أم أنّهم كانوا في وضعيّة حسّاسة بما أنّهم عاشوا في

---

(١) ابن سعد، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٢٧ ـ ٢٨.
(٢) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٤٠.
(٣) ياقوت، معجم مذكور، ج٢، ص٨٦: وهو اسم من التوديع عند الرحيل: وهي ثنية مشرفة على المدينة يطؤها من يريد مكّة، واختلف في تسميتها بذلك، فقيل لأنها موضع وداع المسافرين من المدينة إلى مكّة، وقيل لأنّ النبيّ، ودّع بها بعض من خلّفه بالمدينة في آخر خرجاته، وقيل في بعض ثواياه المبعوثة عنه.
(٤) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٨٢.
(٥) ابن منظور، معجم مذكور، ج١، ص٣٩٣: الجبوب: التراب.
(٦) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٨٢.

المدينة، وهم ينتمون إلى قريش؟، فكانت هناك حرمة لقريش تمنعهم من شنّ الحرب عليهم؟. أو ربّما كانت حكمة مروان تقضي الاستغاثة بجيش الخليفة الشّاميّ الّذي لا تربطه علاقات بهم وبالتّالي يسهل عليهم قمعهم؟.

ويبدو عبد الملك بن مروان المدبّر الثّاني بعد مروان في جماعة بني أميّة المحاصرين في المدينة في دار مروان بن الحكم، فهو حازم وسياسيّ. «ولد في ٢٦هـ في خلافة عثمان، وشهد يوم الدّار مع أبيه وهو ابن ١٠ سنين»، وركب بالنّاس البحر وكانت له ١٦ سنة، وكان على أهل المدينة في الجهاد[١]. وكان الخليفة معاوية معجبًا بذكائه ومروءته[٢]، فعيّنه على ديوان المدينة، فتولاّه في عهده وبقيَ في هذا المنصب إلى آخر أيّام الخليفة يزيد بن معاوية أي أنّه أيّام الحرّة كان على الدّيوان[٣]. ويعتبر هذا منصبًا هامًا، فهو يتمثّل في منح أهل المدينة أعطياتهم الّتي ضُبطت في دفاتر. وكان هذا المنصب حسّاسًا في المدينة بالذّات نظرًا لرفض أهل المدينة وأساسًا أبناء الصّحابة في عهد معاوية الانصياع لأوامر الدّولة بإصلاحها للدّيوان[٤]، وهو إصلاح تمّ في العراق بدون مشاكل على يد زياد بن أبي سفيان[٥]. فكان عبد الملك بن مروان على درجة من الحنكة السّياسيّة الّتي تمكنّه من إدارة شؤون الدّيوان.

على هذا الأساس، كان تدخّل مروان وابنه لحلّ هذه الأزمة مرتبطًا بإرادتهما الحفاظ على مصالحهما في المدينة، وهي مصالح سياسيّة واقتصاديّة. كما أنّ اضطلاع عبد الملك بأعباء هذا المنصب لا يتعارض مع تديّنه، فقد كان متنسّكًا ومن قرّاء المدينة يجالس القرّاء بمسجد المدينة[٦]. كما كان خبيرًا بالمسافة بين

---

(١) ابن سعد، مصدر مذكور، ج٥، ص١٧٣.
(٢) ابن سعد، مصدر مذكور، ج٥، ص١٧٣.
(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص١٦٦.
(٤) مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص١٥٤ ـ ٣٨٩.
(٥) بثينة بن حسين، مرجع مذكور، ص١١٩ ـ ١٢٠.
(٦) البلاذري، مصدر مذكور، ج٧، ص٢٠٤: «وقال الواقدي: كان عبد الملك.. عابدًا ناسكًا قبل الخلافة، وسمع من عثمان، وأبي سعيد الخدري وأبي هريرة».

المدينة ودمشق لوجود علاقات وثيقة بين أمويّي المدينة وأمويّي دمشق (أصحاب السّلطة).

لقد دافع مروان بن الحكم وابنه عبد الملك على الدّولة من موقع أنّهما أمويّان والدّولة دولتهم، كما أنّهما سيدافعان عنها من موقع انتمائهما لأمويّي المدينة، فهما لم يتنقلا كالسّفيانيّين إلى الشّام بل بقيا في المدينة. فقد أرسل الخليفة أبو بكر الصّديق يزيد بن أبي سفيان مجاهدًا بالشّام[1]، ثمّ واليا له عليها وأبقاه الخليفة عمر بن الخطّاب واليًا على دمشق. ثمّ عندما مات عيّن عوضه أخاه معاوية[2]. وبقيَ هذا الأخير واليًا لدمشق من قبل الخليفة عمر بن الخطّاب وجمع له الخليفة عثمان ولاية الشّام إلى أن قُتل. ودامت ولايته لها ٢٠ سنة، فكان على هذا الأساس من أمويّي الشّام. وفي الشّام ولد يزيد من أمّ كلبيّة[3]. المهمّ أنّ معاوية أسّس دولة ذات طابع أسرويّ، وربط مصالحه بمصالح الأمويّين بما أنّهم كانوا القاعدة الاجتماعية لدولته إلى جانب الأشراف[4]. ووجد الأمويّون بالمدينة أنفسهم مضطرّين للدفاع عن أنفسهم وعن مصالحهم فيها وهم ـ مثل الأنصار والعناصر القرشيّة الثائرة ـ يعتبرون من سكّانها.

وقدم حبيب بن كرّة على الخليفة يزيد بن معاوية[5]، فأخبره بحصار ثوّار المدينة لبني أميّة، فتمثّل الخليفة يزيد بن معاوية ببيت شعر:

لقد بدّلوا الحِلم الّذي من سجيّتي ... فبدّلتُ قومي غلظة بليان

كان الخليفة يزيد بن معاوية مصمّمًا على تغيير حلمه إلى قوّة ضدّ أهل

---

(١) ابن سعد، مصدر مذكور، ج٧، ص٢٨٤: يزيد بن أبي سفيان بن حرب بن أميّة، وأمّه زينب بنت نوفل بن حلف بن قوّالة من بني كنانة.

(٢) ابن سعد، مصدر مذكور، ج٧، ص٢٨٥.

(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٢٩.

(٤) بثينة بن حسين، مرجع مذكور، ص٣٤٧.

(٥) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٨٢؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٣٩.

المدينة[1]. وسأل حبيبًا إن كان بنو أميّة ومواليهم بالمدينة ١٠٠٠ رجل، وقد عجزوا عن القتال ساعة من نهار[2]؟ فأجابه حبيب بن كرّة بأنّ النّاس اجتمعوا ضدّهم، فلم يستطيعوا الدّفاع عن أنفسهم.

أرسل الخليفة يزيد بن معاوية إلى عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق، وهو يعتبر من أمويّي المدينة لكنّ عزله من الخليفة والصّراع الّذي حدث له مع الوليد بن عتبة دفعه للخروج للشّام، كما كانت له علاقات بالشّام نظرًا لتزوّجه من كلب، فكان محبوبًا من أهل الشّام ومطاعًا بينهم[3].

المهمّ أنّ الخليفة قرأ كتاب بني أميّة لعمرو بن سعيد، وطلب منه أن يقود جند الشّام لقتال ثوّار المدينة. لكنّ عمرو بن سعيد أجاب الخليفة بأنّه قام له بشؤون البلاد السّياسيّة، وحاول أن يتلطّف لابن الزّبير حتّى يأخذه برفق أو يقتله بحيلة[4]. غير أنّه ليس مستعدًا هذه المرّة لإراقة دماء قريش. وطلب منه أن يختار من هو أبعد منه رحمًا[5].

يبدو من خلال إجابته أنّ عمرو بن سعيد يرى ثورة أهل المدينة مرتبطة بابن الزّبير بينما نعتقد أنّها ثورة خاصّة بالمدينة. كما أنّ عمرو بن سعيد كان يُريد أن يقضي على ابن الزّبير قضاء مبرمًا لرفضه البيعة وبطريقة سريّة.

ويبدو كلامه متناقضاً مع سياسته مع ابن الزّبير عندما أرسل له جيشاً في الحرم بقيادة أخيه عمرو بن الزّبير. وانتهت هذه الحملة بمقتل عمرو بن الزّبير شرّ قتلة من قبل أخيه عبد الله. فعمرو بن سعيد بن العاص هو أوّل من هتك الحرمات. وربّما لم يُرد هتك حرمة المدينة وحرمة قريش. وهنا لا بدّ من التأكد على أرستقراطيّة الأمويّين ونرجسيّتهم بما أنّ عمرو لم يُشر لحرمة الأنصار.

---

(1) H. Lammens, Le Califat de Yazid Ier, p 34.

(٢) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٨٣؛ البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٣٩ ـ ٣٤٠.

(٣) ابن سعد، *مصدر مذكور*، ج٥، ص١٨٤.

(٤) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٤٠.

(٥) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٨٣؛ البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٤٠.

كما يظهر الحسّ السّياسيّ لدى عمرو بن سعيد عندما طلب من الخليفة أن يعيّن شخصًا آخر على قيادة الجيش، أي أنّه لم يُشر عليه بالعدول عن تعيين قائد لمعاقبة أهل المدينة. كما يبدو أنّ الخليفة يزيد بن معاوية كتب إلى عبيد الله بن زياد ليغزو ابن الزّبير، فقال بأنّه لا يجمع «للفاسق» أي يزيد قتل ابن بنت الرّسول وغزو البيت[1]. ولا نعتقد أن هذه الرواية التي تفرّد بها الطّبري قريبة من الواقع، فعبيد الله بن زياد كان مطيعاً للخليفة ومنفّذا لسياسته، ولا يمكن أن يرفض له أمرا، كما أنّ معاقبة أهل المدينة كانت حملة يمثلها أهل الشّام على مستوى القيادة والجيش وبالتالي عمليّة عسكريّة إقليميّة إلى أبعد حدّ.

أرسل الخليفة حبيب بن كرّة بعد أن رفض عمرو بن سعيد قيادة جيش الشّام، إلى مسلم بن عقبة المرّي[2]، وكان شيخا، فقرأ الرّسالة وسأل حبيب بن كرّة نفس سؤال يزيد: فهم ١٠٠٠ رجل وما استطاعوا القتال ساعة من نهار؟[3].

وأضاف بأنّ هؤلاء ليسوا أهلا لأن ينصروا بل يجب أن يتعبوا في «جهاد عدوّهم» ويدافعوا «عن سلطانهم»[4]. وذهب إلى يزيد، فأعاد على مسامعه نفس الكلام، وطلب منه أن يتركهم يقاتلون وحدهم لذلهم، فيرى الخليفة من هو على طاعته، من يستسلم. لكنّ الخليفة أجابه بأنّه «لا خير في العيش بعدهم»[5]. فالخليفة كان حريصاً أشدّ الحرص على إنقاذ عشيرته من بني أميّة، وعلى عقاب أهل المدينة. فعيّن مسلم بن عقبة المرّي قائدا على الجيش، جيش الشّام الذي سيقصد الحجاز لمحاربة أهل المدينة.

---

(١) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٨٣ ـ ٤٨٤.
(٢) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٨٣؛ البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٤٠.
(٣) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٨٣؛ البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٤٠.
(٤) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٨٣.
(٥) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٨٣.

ولنا أن نتساءل لماذا عيّن الخليفة مسلم بن عقبة رغم أنّه كان شيخاً كبيرًا وضعيفًا ومريضًا قاتل في الحرّة محمولاً على كرسيّ أو سرير[١] لشدّة مرضه وضعفه؟، هل كان يزيد واثقًا من قدرات مسلم بن عقبة العسكريّة الّتي كانت لوحدها كفيلة بإنجاح هذه المهمّة العسكريّة الخاصّة؟ ربّما كان مسلم حسب اعتقاد الخليفة هو الشّخص المثاليّ لتولّي هذا المنصب.

وتذكر رواية لأبي مخنف[٢] أنّ سبب اختيار الخليفة يزيد بن معاوية لمسلم بن عقبة المُرّي كقائد لهذا الجيش، يعود إلى وصيّة لمعاوية عندما حضرته الوفاة. فقد قال له بأنّ أهل المدينة سيثورون عليه في يوم ما، احترم يزيد بن معاوية وصيّة معاوية بتعيينه لمسلم بن عقبة قائداً على جيش الشّام. وبذلك اتّخذت وصيّة معاوية لدى يزيد بعداً هامّاً بما أنّه كان يُريد أن يكون وفيّاً لأبيه. ويبدو أنّ مسلم بن عقبة بدويّ وجافّ من أهل حمص[٣]، وقد وجّه الرّسول أسامة بن زيد[٤] إلى بني غطفان فسبى مسلم بن عُقبة المريّ فيمن سبى، فاشترت مسلم امرأة من الأنصار وأعتقته[٥]. وأقام في الشّام منذ فترة الفتح، وهو معروف بشجاعته، وبأنّه من الأشراف الذين خدموا معاوية بكلّ تفان، فقد أرسلته لاستعادة واحة دومة الجندل في معارك صفّين، وفشل[٦]. وعيّنه مع الضحّاك بن قيس الفهريّ، وكان يزيد غائباً في الأناضول للجهاد فأوصى لهما[٧].

كان مسلم بن عقبة من طراز عبيد الله بن زياد وزياد أي أنّه كان يطبّق إيديولوجيا

---

(١) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٨٩.
(٢) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٩٥.
(٣) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٥٤؛ ابن دريد، *مصدر مذكور*، ص٢٨٧.
(٤) ابن سعد، *مصدر مذكور*، ج٤، ص٤٤: «أسامة الحُبّ ابن زيد بن حارثة من كلب، وهو حبّ رسول الله، وأمّه أمّ أيمن واسمها بركة حاضنة رسول الله ومولاته. وكان زيد بن حارثة أوّل النّاس إسلامًا ولم يُفارق رسول الله».
(٥) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٤٨.
(٦) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٢٢٥.
(٧) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص١٥٤؛ الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٢٣.

الدّولة ويفرض سلطتها فوق كلّ حساب. وتوفّي فقيراً ولم يُثر من أموال الدّولة[1] إذ ترك مزرعة بحوران[2] أوصى أن تكون صدقة على عشيرته مُرّة. المهمّ أنّ الخليفة يزيد بن معاوية أمره بالاستعداد للذهاب للحجاز.

لم يكن هذا القرار الذي اتّخذه الخليفة متفقاً عليه من قبل جميع الأطراف، فقد كلمه عبد الله بن جعفر بن أبي طالب و«رققه عليهم وقال: إنّما تقتل بهم نفسك»[3]. فغزو المدينة وقتل أهل المدينة أي قريش من قبل يزيد هو عبارة عن قتله لنفسه وتدمير لذاته. لكنّ الخليفة كان مجبراً على ذلك لفرض سلطته ولإنقاذ بني أميّة المحاصرين بدار مروان بن الحكم. وانتدب ١٢ ألف جنديّا، وأمرهم بالمسير إلى الحجاز، وأعطوا أعطياتهم كاملة، ويتحصّل كلّ واحد منهم على ١٠٠ دينار[4].

لا بدّ من الإشارة إلى أنّ جند الشّام كانوا يتمتّعون بأعطيات أهمّ من أعطيات الجنود المقاتلين في بقيّة الأمصار نظراً لأنّهم جنود الدّولة، وعُرفوا بطاعتهم لها[5]. لكنّنا نطرح إشكاليّة عدد الجند فهو عدد ضخم، فهل بالغت المصادر في عدد الجند لتفخيم الدّولة وإبراز عظمتها بما أنّ من روى الخبر هو مولى لبني أميّة (حبيب بن كرّة)؟ وفي كلّ الحالات، يجب علينا أن نحترز من الأرقام التي تقدّمها المصادر ونتعامل معها بحذر.

ولم تذكر المصادر من أين خرج الجيش، هل خرج من دمشق؟، وأين كان يستعرض جند الشّام قبل الخروج للقتال؟ كلّ هذه الأسئلة لم تُجبنا عنها المصادر.

ويُعتبر هذا الخروج أوّل عمليّة من نوعها توجّه ضدّ الولايات في الفترة السّفيانيّة.

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٩٧.

(٢) ياقوت، معجم مذكور، ج١، ص٣١٧: كورة واسعة من أعمال دمشق من جهة، ذات قرى كثيرة ومزارع وحرار وقصبتها بُصرى.

(٣) ابن سعد، مصدر مذكور، ج٥، ص١١٠ ـ ١١١.

(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٨٣؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٠.

(٥) بثينة بن حسين، مرجع مذكور، ص١٠٨ ـ ١٠٩.

بما أن جند الشّام كانوا يقومون سنويّاً بالجهاد ضدّ الدّولة البيزنطيّة. وقد أشرف يزيد بنفسه على تحضيرات هذا الجيش، فتقلّد سيفه وتنكّب رمحه وركب فرسه وتجوّل بين صفوف الجند وهو يقول:

أبلغ أبا بكر إذا الجيشُ انبرى ... وأشرف القوم على وادي القُرى
أجمعَ سَكرانَ منَ الخَمْرِ تَرَى ... أم جمع يَقظان إذا حثّ السّرى
وا عَجَبا من مُلحدٍ وا عَجَبا ... مُخادع في الدّين يَقْفو بالفِرَى[1]

يبدو من خلال هذه الأبيات أنّ هذا الجيش كان موجّهاً للمدينة لكن له أيضاً مهمّتان: القضاء على ثورة أهل المدينة، ثمّ الالتحاق بمكّة لقتال «الملحد» ابن الزّبير. وكان يزيد مغتاظاً أشدّ الغيظ من التّعتيم عليه من قبل ابن الزّبير والقول بأنّه سكّير. فكان إرسال هذا الجيش وسيلة لعقاب ابن الزّبير، والقضاء عليه قضاء تامّاً.

فهل كانت ثورة ابن الزّبير في ذهن يزيد أهمّ من ثورة أهل المدينة؟.

المهمّ أنّ يزيد كان حازماً للقضاء على هذه الثّورات لفرض سلطته حتّى على حساب أماكن محرّمة كمكّة والمدينة.

كما ذكر البلاذري أنّ الخليفة يزيد بن معاوية تمثّل بشعرٍ آخر مخاطباً فيه ابن الزّبير وهو يدور يتفقد الجنود قبل رحيلهم للمدينة[2]:

استعذ ربّك في السّماءِ فإنّني ... أَدعُو إليكَ رجالَ عكٍّ وأشعرِ
ورجال كَلْبٍ والسّكون ولخمِها ... وجُذامَ تَقدُمُها كتائِبُ حِمْيَر
كيف النّجاةُ أبا خُبيبٍ[3] منهُمُ ... فاختَل لِنَفسِكَ قَبلَ أتيِ العَسْكَرِ

مقاتلي الشّام، وهؤلاء هم من أهل اليمن أساسًا أي قبائل عكّ والأشاعرة وكلب والسكّون ولخم وجذام وحمير.

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٨٤؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٠.
(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤١.
(٣) مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص٢٣٩: هو عبد الله بن الزّبير.

فلماذا لم تشارك القبائل القيسيّة في هذا الجيش المرسل لمحاربة أهل المدينة وابن الزّبير؟، هل كان الخليفة يُحابي القبائل اليمنيّة بالشّام وأساسًا كلب التي تنتمي إليها أمّه؟، ربّما كان للخليفة الشّاب ميل لأخواله من كلب. كما أنّه يبدو أكثر إقليميّة أي ارتباطاً بالشّام من معاوية، ولقد نفّذ هذه السّياسة الإقليميّة على حساب أهل المدينة.

ويبدو الخليفة يزيد بن معاوية سيّد قبيلة من الطّراز الجاهليّ يحذق قول الشّعر[١]، مثل أبيه معاوية[٢]، لكنّه أيضًا ملك على الطّراز البيزنطيّ بحرصه على تركيز السّلطة والحكم.

لا بدّ من الإشارة إلى أنّ هذا الجيش الّذي أرسل إلى الحجاز كانت له منذ البداية وجهتان ومخطّطان، فهو مكلّف بالقضاء على ثورة أهل المدينة والتّشنيع بهم. ثمّ كان على هذا الجيش أن ينتقل إلى مكّة لمحاربة عبد الله بن الزّبير المحلّ للبيت والمارق عن الدّين حسب الإيديولوجيا الأمويّة. وعلى هذا الأساس، تُعتبر مهمّة هذا الجيش مهمّة خارقة للعادة بما أنّه سيقضي على ثورتين في نفس الوقت.

كما برهنت ازدواجيّة مهمّة هذا الجيش على اتّخاذ الخليفة لقرار هو من أحسم القرارات وأجرأها في تلك الفترة.

فقد كان للخليفة يزيد بن معاوية من النّضج السّياسيّ ـ خلافًا لما رُوّج عنه من طيش واستخفاف وعجز عن تدبير شؤون الحكم ـ ما دفعه إلى الإسراع بفرض سيطرته وإنقاذ دولته وميراث أبيه السّياسيّ من الضّياع والاندثار. فقد فهم يزيد بن معاوية أن لبّ الصّراع بينه وبين أعدائه هو الحكم والسّلطة، فبادر من منطلق رجل الدّولة إلى القضاء على هذه الثورات بقوّة الجيش الشّاميّ وباستعمال القهر المميّز للدّولة.

لكنّ هذه المبادرة السّياسيّة والإيديولوجيّة والملكيّة اصطدمت بأكبر المحرّمات الإسلاميّة والجاهليّة، حرمة المدينة وحرمة الكعبة ومكّة، وحرمة قريش والصّحابة

---

(١) صلاح الدّين المنجّد، شعر يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٨٢، ص٦٣.

(٢) فاروق أسيلم بن أحمد، ديوان معاوية بن أبي سفيان، دار صادر، بيروت ١٩٩٦، ص١٦٥.

والأنصار وحرمة الرّحم والقرابة. ونفّذ الخليفة يزيد بن معاوية وصيّة أبيه، وأرسل جيش الشّام لأهل المدينة للقضاء على هذا العصيان والخروج عن الطّاعة، فقد عهد معاوية ليزيد قبل أن يموت: «انظر أهل الشّام فليكونوا بطانتك وعَيْبَتَكَ، فإن نابكَ شيء من عدوّك فانتصر بهم، فإذا أصبتَهم فارددْ أهل الشّام إلى بلادهم، فإنّهم إن أقاموا بغير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم»[١].

فنفّذ يزيد السّياسة الإقليميّة للدّولة لأوّل مرّة في تاريخها منذ التّأسيس. فقد التجأ معاوية إلى أهل الشّام لمحاربة أهل العراق في صراعه ضدّ علي بن أبي طالب، لكن، عند تولّيه الخلافة، لم يرسل جيش الشّام في قمع الثّورات في الولايات، وقضى عبيد الله بن زياد على ثورة الحسين بن علي بمقاتلي الكوفة. بينما لجأ الخليفة يزيد بن معاوية إلى هذا الحلّ الجذريّ بإرسال جند الشّام لأوّل مرّة لقمع ثورة أهل المدينة.

وجد حبيب بن كرّة مولى الأمويّين عبد الملك بن مروان ينتظره تحت شجرة في نفس المكان[٢]. وهذا دليل على حرص عبد الملك وحزمه، كما أنّه يدلّ على أنّ الحصار الّذي فرضه أهل المدينة على الأمويّين حصار ضعيف، فقد تمكّن عبد الملك من الخروج من دار أبيه، وانتظار رسولهم للخليفة الّذي رجع بالردّ. وأخبر حبيب بن كرّة عبد الملك بن مروان بقرار الخليفة، ففرح لذلك. وقصدا دار مروان بن الحكم فأخبرا بني أميّة الّذين حمدوا الله على ذلك[٣].

وغادر ذلك الجيش الشّام، وكانت أوامر الخليفة يزيد بن معاوية لمسلم بن عقبة المُرّي ـ قائد ذلك الجيش ـ تتمثّل في استخلاف الحصين بن نمير السكّوني[٤]

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٢٣.
(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٨٤.
(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٨٤.
(٤) ابن دريد، مصدر مذكور، ص٣٧١: الحُصين بن نُمير بن ناتل بن لبيد بن جعثنة، كان سيّدًا، وهو الّذي استخلفه مُسلم بن عقبة المرّي حين جاءه الموت، وحاصر عبد الله بن الزّبير؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٨: وهو من حمص.

(وهو من أشراف الشّام) على الجيش إذا حدث به حدثٌ. وأمره أيضًا بأن يُمهل أهل المدينة ٣ أيّام فإن هم رفضوا يقاتلهم، ويُبح المدينة ٣ أيّام لجند الشّام الّذين لهم الحقّ في افتكاك وأخذ الأموال الّتي يجدونها والأسلحة والطّعام. وإذا مرّت الأيّام الثّلاثة يكفّ عن النّاس، ويُكرم عليّ بن الحسين لأنّه لم يدخل في الثّورة. كما اشتملت أوامر الخليفة يزيد بن معاوية على تحريض مسلم بن عقبة على أهل المدينة الّذين يتميّزون «بالجهل والاستطالة»[١]. فقد أفسدهم حلم الخليفة معاوية واعتقدوا أنّهم لا تطالهم يدّ الدّولة أو الخليفة، والمقصود بذلك الهيمنة العسكريّة للدّولة وتركيز الخليفة لسلطته على المدينة. وأخيرًا، أمر الخليفة مسلم بن عقبة ألاّ يتهاون في تسليط أهل الشّام عليهم.

هكذا نظّم الخليفة القيادة العسكريّة حرصًا على أن يكون لمقاتلي الشّام قائدًا، وفي صورة موت مسلم بن عقبة كان الحصين أحسن معوّض له لطاعته ومقدرته العسكريّة. كما أنّ الخليفة يزيد بن معاوية كان حريصًا على إيجاد حلّ مع أهل المدينة قبل استعمال القوّة العسكريّة، وهذا دليل على حنكة سياسيّة. فكانت المدّة المُتاحة لأهل المدينة لتدارك أمرهم والدّخول في الطّاعة ٣ أيّام، وفي صورة إصرار أهل المدينة على العصيان أمر بالمرور للحلّ الأخير وهو القتال وإباحة المدينة ٣ أيّام لجند الشّام وتمكينهم من كلّ ممتلكات أهل المدينة، ثمّ يتوقفون بعد ذلك عن هذه الأعمال.

المهمّ هنا هو أنّ المدينة رمز، فهي حرم رسول الله[٢] الّتي حرّمها بعد الهجرة[٣]، وأصبحت بذلك مركزًا للدّين الإسلاميّ في الجزيرة العربيّة ومقرّاً للدّولة الجديدة التّيوقراطيّة[٤]، لكنّ هذه الحرمة ستمسّ في الفتنة الأولى عند مقتل

---

(١) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٤١.

(٢) ياقوت، معجم *مذكور*، ج٢، ص٢٤٤: الحرمان مكّة والمدينة.

(٣) هشام جعيط، *تاريخيّة الدعوة المحمديّة في مكّة*، ص١٠٦.

(٤) هشام جعيط، *نشأة المدينة العربيّة الإسلاميّة*، ص٢١١.

الخليفة عثمان بن عفّان[1]، وسيتواصل في فترة يزيد هتكها.

ولعلّه من غريب الصّدف أنّ معاوية كان قد أشار على الخليفة عثمان بأن يُرسل إليه جيشًا لحمايته من هجوم الثّوّار عليه، لكنّه رفض أن يكون «أوّل من يطأ أصحابَ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأنصاره بجيش»[2]. وعليه، فقد كانت الفكرة موجودة في ذهن معاوية قبل أن يتولّى الخلافة، وطبّق يزيد هذه الفكرة بعد موت أبيه.

وتتمثّل حرمة المدينة في حرمة المكان نظرًا لأنّ الرّسول هاجر إليها وأسّس بها دولته وضبط بها الدّين الإسلاميّ. كما أنّها اكتسبت طابعًا رمزيًا مرتبطًا بالمجموعات البشريّة الميتا ـ تاريخيّة المرتبطة بالرّسول من الصّحابة البدريّين والأنصار، أنصار الله[3]، الّذين ضيّفوا الرّسول في مدينتهم وناصروه على أعدائه من قومه في أهمّ غزواته ضدّهم كأحد والخندق. لكنّ الخليفة يزيد بن معاوية سيضرب بكلّ هذه الحرمة عرض الحائط بإرساله لجيش متركّب من أهل الشّام. فإرسال هذا الجيش يعني فرض سيطرة أهل الشّام كقوّة إقليميّة مرتبطة بالدّولة، وقد كانت مجزرة كربلاء الّتي قتل فيها الأمويّون الحسين وأهل بيته وأصحابه دافعًا للخليفة يزيد بن معاوية على إرسال جيش للحجاز وإلى الأماكن المحرّمة، أي المدينة ثمّ مكّة، للقضاء على تمرّد أهل المدينة أوّلاً ثمّ لمعاقبة الملحد بالبيت ابن الزّبير.

كما يطرح يزيد بن معاوية إشكاليّة المدّة الزّمنية لانتظار أهل المدينة ولإباحة المدينة بعد القتال ٣ أيّام. فما سرّ ٣ أيّام لدى يزيد؟، وهل كانت لهذا الرّقم رمزيّة ملكيّة أو غيرها؟.

---

(١) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٦، ص١٩٢: «وقال عثمان لعبد الله بن سلام (وهو من الأنصار) اخرج إليهم فكلّمهم، فخرج إليهم فوعظهم وعظّم حرمة المدينة وقال لهم إنّه ما قُتل خليفة قط إلاّ قتل به خمسة وثلاثون ألفًا، فقالوا كذبت يا يهوديّ ابن اليهودية».

(٢) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٦، ص١٥٦.

(٣) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٦، ص٢١١؛ الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٢٢٠.

استثنى الخليفة يزيد بن معاوية عليّ بن الحسين من أهل المدينة بتصرّف يليق بفضله ومكانته، بعد أن قتل أباه الحسين واستأصل أهل بيته وقتل أصحابه. ومثّل بهم، وتركهم في العراء بدون تكفين ودفن. فقد خصّ يزيد بن معاوية عليّ بن الحسين بصلّة الرحم. وهي صلّة غريبة بالمنطق السّياسيّ بما أنّ الحسين كان عدوًّا للخليفة وللدّولة الأمويّة في كربلاء. لكن، بعد القضاء على ثورة الحسين، عادت هذه العلاقات قويّة وصلبة منذ وصول نساء الحسين وأخواته وعليّ بن الحسين والصّبيان الّذين استصغروا فلم يقتلوا، إلى بلاط يزيد بقصر الخضراء بدمشق!. بينما جُرّد القرشيّون من حرمتهم وعُرّضوا للقتل والسّلب والنّهب، إذ اتّخذ يزيد بن معاوية سياسة جديدة خرجت عن الأطر الّتي اتّبعها معاوية، واستقلّ يزيد عن المنهج السّياسيّ الّذي اتّبعه معاوية وكان يمثّل توازنًا هشًّا طيلة العشرين سنة من حكمه وهو الحلم وكظم الغيظ.

وبذلك قد أحدث يزيد ثورة، من باب انتمائه إلى جيل جديد (فهو شابّ، كما أنّه ليس قرشيًّا فقط بل كانت تجري في عروقه دماء كلب[1])، على سياسة أبيه. فالحلم أصبح ضعفًا يجب طيّه وتجاوزه بإتّباع سياسة صارمة قوامها القوّة العسكريّة لأهل الشّام. كما ركّز سياسة إقليميّة منبعها خليفة لديه جذور شاميّة، وقائد شاميّ، وجيش من الشّام من العناصر الأكثر طاعة للخليفة وهي العناصر اليمنيّة.

وتسارعت أخبار قدوم هذا الجيش الشّاميّ بقيادة مسلم بن عقبة إلى أسماع ثوّار المدينة، فتعرّضوا للأمويّين، وضيّقوا عليهم الحصار في دار مروان بن الحكم، وتهدّدوهم بضرب أعناقهم، أو إعطائهم العهود والمواثيق بأنّهم لن يغدروا بهم ولا يُفشوا أسرارهم، ولا يُساعدوا عدوّهم ضدّهم. فوعدوهم بذلك، وأعطوهم العهود والمواثيق على الوفاء. وأطرد ثوّار المدينة الأمويّين بنسائهم وأموالهم[٢]. واعتبر

(1) Lammens, Le Califat de Yazid 1er, p 29.

(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٨٥؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٠.

الثّوّار أنّ المدينة هي ملكهم الخاصّ وبالتّالي كان الأمويّون دخلاء عليهم هم ومواليهم بما أنّهم يتعسّفون عليهم ويستغلّون ثرواتهم. وكان قرار الطّرد إلى الشّام نوع من تركيز لهويّة جديدة لأهل المدينة ولنفوذ جديد ليس فيه أمويّ واحد. بما أنّهم ناصبوا العداء للدّولة، وأصبح وجود مروان وبني أميّة ومواليهم ومن ناصرهم من قريش عبئًا ثقيلاً عليهم. وكان لا بدّ من التّخلّص من هذا العبء وإعادة تكوين خريطة سياسيّة جديدة للأمّة. لكنّ هذا الطّرد مثل حدثًا رمزيًا بما أنّه عبّر عن الفتنة والانقسام داخل الضّمير الإسلاميّ. وهو أخفّ من القتل لكنّه كن حدثًا نفسيًا كئيبًا للأمويّين الّذين وجدوا أنفسهم بين عشيّة وضحاها يُطردون من مدينتهم إلى مجال جديد عليهم (وهو مجال الشّام) رغم أنّه مركز الدّولة ومقرّ أبناء عمّهم السّفيانيّين. فتمزّقت العرى العاطفيّة في نفوسهم، وانتقل حالهم من الهيمنة السّياسيّة والاقتصاديّة في المدينة، إلى التّشرّد بنسائهم وأولادهم وأموالهم المنقولة فقط، بما أنّهم مجبرون على التّفريط في ضياعهم وقصورهم.

وكان هذا الطّرد الأوّل لبني أميّة من المدينة، لكنّهم سيرجعون إليها بعد الحرّة. ولم تحدث بينهم وبين أهل المدينة حساسيّات على ما يبدو[١]. لكنّهم سيطردون للمرّة الثّانية، لكن من قبل ابن الزّبير بعد وفاة الخليفة يزيد بن معاوية ودخول الفتنة الثّانية في فترتها الجديدة[٢].

وكان هذا الطّرد الثّاني أقسى وأمرّ حيث عرف بنو أميّة اضطهادًا وإذلالاً من قبل أهل الحجاز، كما أنّ هذا الطّرد كان عبارة عن تصفيّة للمجال لفائدة ابن الزّبير الذي استقلّ بالحجاز.

كما مكّن هذا الطّرد من خروج ونشأة الفرع المروانيّ من رحم الفرع السّفيانيّ ومن رحم الفتنة. وأصبحت الدّولة الأمويّة أكثر إقليميّة بما أنّها انحصرت بالشّام وتحصّلت على دعم القبائل اليمنيّة لتُعيد بناء ذاتها من جديد. وتقضي نهائيًا على

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٤.

(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٤؛ الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٥٠٣.

يد عبد الملك وقائده الحجّاج بن يوسف الثّقفي على سلطة الزّبيريّين وطموحات الحجاز في السّلطة والحكم.

واستجار مروان بن الحكم بعليّ بن الحسين، إذ كان صديقاً له منذ مدّة طويلة، بعد أن خرج بنو أميّة إلى الشّام مطرودين من قبل ثوار المدينة. فقد طلب منه أن «يغيّب» أهله عندهُ أيّ أن تسكن نساؤهُ مع نساء عليّ بن الحسين للرّحم الذي يربطهما. فقبل عليّ بن الحسين، وخرج بهنّ إلى ينبع[1]. وقد ذكر الطّبري إحدى نساء مروان بن الحكم التي أجارها عليّ بن الحسين وهي عائشة بنت عثمان بن عفّان، وهي أمّ أبان بن مروان. وكان مروان شاكراً لعليّ بن الحسين ذلك. وتبدو من ذلك علامة الرّحم والصّداقة بين عليّ بن الحسين ومروان قويّة. وهو معطى انتروبولوجي هامّ تكوّر في تلك الفترة بمعزل عن التّطورات السّياسيّة في بعض الحالات. كما يبدو مروان متخوّفاً على نسائه أن تُستباح حرمتهنّ من قبل أهل المدينة، وأراد تجنيبهنّ حالة القلق والحيرة والتّشرّد التي يعيشها بني أميّة في تلك الفترة.

ويبيّن هذا أنّ المحافظة على الأعراض[2] كانت ضروريّة في هذه الفترة من الفتنة الثّانية. ويبدو هذا التّخوف منطقيّاً بما أن مروان عاش الفتنة الأولى، ويعرف أكثر من غيره السّلب والنّهب والعنف الذي يطالهم من الثّوار. كما أنّ ذكر عائشة بنت عثمان من بين نساء مروان ما هو إلاّ تذكير بعثمان ـ الرّمز، فهو الخليفة المظلوم الذي اُضطهد كما يُضطهد بنو أميّة في تلك الفترة بالمدينة. بينما تذكر رواية أخرى أنّ عائشة بنت عثمان بن عفّان خرجت إلى الطائف، عندما أُخرج بنو أميّة من قبل ثوّار المدينة، فاعترضها عليّ بن الحسين بضيعة له حذو المدينة اعتزل بها خوفاً من

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٨٥؛ ياقوت، معجم مذكور، ج٥، ص٤٤٩ ـ ٤٥٠: «هي على يمين رَضوى لمن كان منحدرًا من المدينة إلى البحر على ليلة من رَضوى من المدينة على سبع مراحل، وهي لبني حسن بن عليّ وكان يسكنها الأنصار وجُهينة وليث، وفيها عيون عذاب عزيزة، وقال غيره: ينبع حصن به نخيل وماء وزرع وبها وُقوف لعليّ بن أبي طالب، يتولاّها ولده».

(٢) هشام جعيط، تاريخيّة الدّعوة المحمديّة في مكّة، ص٨١.

أن يُشرك في ثورة أهل المدينة(١). فطلب منها أن تحمل ابنه عبد الله معها، فحملته إلى الطائف حتّى انقضت ثورة أهل المدينة(٢).

ويبدو هنا أنّ لعائشة حرية التّنقّل، وهي لا تحبّ أن تنتقل إلى الشّام فبقيت بالحجاز وانتقلت إلى الطّائف. كما يبيّن الخبر وجود علاقات طيّبة بين الأمويين (فرع بني العاص) وعليّ بن الحسين، وهذا يبرهن على أهميّة الرّحم داخل عبد مناف من قريش. وقد بقيَ عليّ بن الحسين محافظًا على طاعته للأمويّين خوفًا من القتل، فمصيبة كربلاء ما زالت حاضرة في ذهنه. كما أنّ تخوّفه على ابنه من أن يقتل في الفتنة يُثير انتباهنا: فهل كان متخوّفًا أن يقتل في المعمعة؟ أم أنّه تخوّف من جند الشّام؟

المهمّ أنّ عليّ بن الحسين كان متخوّفًا من هذه الفتنة وكان شديد الحرص على حياة ابنه بعد الاستئصال الّذي تعرّض له أهل البيت. بينما حين طلب مروان هذا الطّلب ـ أي تغييب نسائه ـ من عبد الله بن عمر بن الخطّاب، رفض(٣). فلماذا رفض عبد الله بن عمر أن يحمي نساء مروان من الثّوّار؟ هل كان متخوّفًا من ردّ فعل أهل المدينة وعجزه عن القيام بمهمته على أحسن وجه؟

ربّما لم يُرد أن يقحم في هذه الفتنة، ولا أن يتورّط في أيّ أمر منها.

وبدأ أهل المدينة الاستعدادات لمواجهة جند الشّام. فعمدوا إلى كلّ ماء بينهم وبين الشّام فصبّوا فيه القطران(٤). لكنّ الأمطار تهاطلت على جند الشّام طيلة مسيرهم من الشّام إلى المدينة، فلم يستسقوا بدلو(٥)، لولا أن تجهّزوا بالثّلج يخلطوه بالماء خوفًا من العطش(٦).

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤١.
(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٨٥.
(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٨٥.
(٤) ابن منظور، معجم مذكور، ج٣، ص١١٤: القطران: هو عصير ثمر الصّنوبر.
(٥) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٩٥؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٥٣.
(٦) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٩٢.

لقد تصرّف أهل المدينة مع الأمويّين تصرّفهم مع أعدائهم من الكفّار بتسميم المياه حتّى يحرموا جند الشّام من الماء الصّالح للشّراب مثلما فعلوا مع بني أميّة المحاصرين. وبذلك أعاد أهل المدينة نفس الممارسات الّتي اتّبعت ضدّ عثمان بخصوص حرمانه من الماء، وماثل الأمويّون أولياء عثمان الذين طالبوا بدمه، بينما هم يُماثلون أهل المدينة وريثي عثمان في سياسته «الجائرة» الّتي أثرى فيها على حساب المسلمين، وقد أثرى معاوية وبعده يزيد على حساب الأنصار، فثاروا عليه مثلما ثاروا على عثمان، وكرّروا نفس الممارسات الّتي مارسوها ضدّ عثمان نسبيًّا مع الأمويّين. ولنا أن نتساءل هل أنّ هذه الممارسات تعود إلى الفترة الجاهليّة؟.

كما يبدو أنّ جيش الشّام جيش إمبراطوريّ ومتعوّد على الجهاد بما أنّ الشّام ثغر. وكان معاوية ثمّ ابنه يزيد يوجّهان كلّ سنة الصّوائف ضدّ بيزنطة. وبالتّالي فإنّ جند الشّام كانوا يتجهّزون حتّى بالثّلج يخلط في الماء الصّالح للشّراب.

ولقيَ الأمويّون المطرودون من المدينة مسلم بن عقبة المرّي في وادي القرى[1]، فنادى مسلم عمرو بن عثمان بن عفّان فسأله عن خبر أهل المدينة، وطلب منه أن يُشير عليه بماذا يفعل؟، أي الخطّة الّتي سيتّبعها في قتالهم. لكنّ عمرو بن عثمان أجابه بأنّهم عقدوا العهود والمواثيق على ألا يبوحوا بأسرار المدينة، ولا يساعدوا عدوًّا. فحلف مسلم بن عقبة بأنّه لولا أنّه ابن عثمان لضرب عنقه. وأضاف بأنّه لا يغفرها لقرشيّ آخر بعده[2].

تدخل مناداة عمرو بن عثمان بن عفّان كأوّل أمويّ يرمز لقرابته من الخليفة المظلوم فهو ابنه، وعلى هذا الأساس، كان رمز عثمان كعنصر أساسيّ من عناصر الإيديولوجيا الأمويّة حاضراً بقوّة في واقعة الحرّة متمثّلاً في القصاص للخليفة المظلوم. كما تتجلّى في ذلك بوادر غلظة مسلم وحرصه على تطبيق سياسة الخليفة

---

(١) ياقوت، معجم مذكور، ج٥، ص٣٤٥: «هو واد بين المدينة والشّام كثير القرى. فتحها النبيّ سنة ٧ ه عنوة. ثمّ صولحوا على الجزية. وهي من عمل المدينة».

(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٨٦؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤١.

في إذلال قريش. هذا إلى جانب أنّ عمرو بن عثمان لم يكن عنصراً فعالاً من النّاحية السّياسيّة.

وربّما خرج عمرو بن عثمان من فسطاط مسلم بن عقبة، فأخبر أصحابه بما لقي من قائد الخليفة(١). وبدا بنو أميّة في وضعيّة انتظار وترقّب وكذلك في وضعيّة ضعف تجاه هذا القائد العسكريّ الّذي لا يقهر بسلطانه.

وانقضّ مروان بن الحكم على الفرصة، وبرز الحسّ السّياسيّ الأمويّ وروح العصبيّة القبليّة، فوجد الحلّ بسرعة حسب ما يستوجبه الموقف. فقدّم ابنه عبد الملك ليقابل مسلم بن عقبة لأنه لم يُرد أن يحنث إيمانه الّتي حلفها لأهل المدينة. غير أنّنا نرى عكس ذلك حسب اعتقادنا، فقد تخلّى مروان عن كل العهود والمواثيق الّتي قطعها على نفسه لأهل المدينة بتقديم عبد الملك.

وسأل مسلم بن عقبة عبد الملك عن أحوال الثّوّار، وكيف يقاتل أهل المدينة. فأجابه عبد الملك بأن يتجنّب ذلك الطريق إلى المدينة. فما هو الطّريق الّذي طلب عبد الملك من مسلم أن يتجنّبه؟. ونصحه أن يسير مع الجند إلى أدنى نخل بها، فيعسكر بجنده، ويستظلّوا بهذه الواحة، ويأكلوا من عسل التّمر وعصارته. وإذا جاء اللّيل يُقيم الحرس الّذين يجب أن يتواتروا على الحراسة اللّيل كلّه لحماية جيش الشّام من هجوم لثوّار المدينة. وفي الغد، نصح عبد الملك بن مروان مسلم بن عقبة أن يُصلّي بالجيش، ثمّ يسير إلى الشّرق فيترك المدينة على يساره. ويدور بالمدينة إلى أن يأتيهم من قبل الحرّة مشرّقًا(٢). وتتمثّل استراتيجيًا قتال أهل المدينة في مواجهتهم ووراءهم الشّمس، فتكون طالعة على أكتافهم فلا تضرّهم بينما يتوهّج شعاع الشّمس في وجوه أهل المدينة، فتضرّهم حرارتها. ويرون بريق أسلحة أهل الشّام من سيوف وحراب. فيخاف أهل المدينة من قوّة جند الشّام، وعلى عكس ذلك، لا يتمكّن جند الشّام من رؤية أسلحة أهل المدينة. فيلعب هذا

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٨٦.

(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٨٦؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٢.

العامل دورًا هامًا في بقاء معنويّات جند الشّام مرتفعة. وأخيرًا، طلب عبد الملك من مسلم بن عقبة أن يُقاتل أهل المدينة، وسينصره الله عليهم لأنّهم خرجوا عن الطّاعة وفرّقوا الجماعة[1].

وقد أعجب مسلم بن عقبة إعجابًا كبيرًا بعبد الملك واعتبره أحسن خلف لمروان في حياته[2]، وعندما دخل مروان على مسلم عبّر له عن شدّة إعجابه بابنه عبد الملك، وقال بأنّه «قلّما كلّم رجلاً من قريش شبيهًا به»[3].

يبدو عبد الملك ذو معرفة جيّدة بتخطيط المدينة وبنقاط القوّة فيها ونقاط الضّعف، فهو قائد عسكريّ ممتاز رغم صغر سنّه، وقد مكّن مسلم من استراتيجيا حربيّة ساعدته على أن ينتصر بكلّ سهولة على أعدائه. فكان عبد الملك بذلك أساس انتصار جيش مسلم بن عقبة في الحرّة. فلولا مقدرته السياسيّة والعسكريّة وخطابته بما أنّه صاحب فصاحة لازمة لتفسير مخطّطه الحربيّ لمسلم بن عقبة.

وعلى هذا الأساس، فتح عبد الملك المدينة للشّاميين وقائدهم، ومكّن بالتّالي الخليفة يزيد بن معاوية من الانتصار. وهذا يؤكّد أنّ عبد الملك كان ممارسًا للنّشاط العسكريّ ومتقنًا للسّياسة. كما كان حريصًا على تركيز الإيديولوجيا الأمويّة وأساسًا الطّاعة.

وعندما تولّى الخلافة كان على درجة كبيرة من التّجربة، وكان خاصّة فاعلاً ومؤثّرًا على الدّولة السّفيانيّة. وسيخوض الصّراع السّياسيّ ضدّ ابن الزّبير ويحارب مصعب بن الزّبير بنفسه ويهزمه، ويقضي على هذه الفتنة الثّانية[4].

على هذا الأساس، ساهم مروان بن الحكم وابنه مساهمة كبيرة في إنقاذ الدّولة السّفيانيّة، فقد مكّن عبد الملك من انتصار جيش الدّولة بإفشاء أسرار المدينة،

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٨٦.
(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤١.
(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٨٦.
(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٦، ص١٥٧.

وبذلك تكون هذه هي المرّة الأولى الّتي أنقذ فيها مروان وابنه عبد الملك الدّولة، خاصّة وأنّ الدّولة تبدو ملكًا عشائريًّا لبني أميّة (بنو حرب وبنو العاص)، وقد تجاوز مروان بن الحكم الخلافات الّتي كانت تحدث بينه وبين معاوية لمساعدة ابنه يزيد على القضاء على ثورة أهل المدينة، فقدّم ابنه عبد الملك الّذي برهن على حميّة قبليّة وعلى تمسّك بفكرة الدّولة الأمويّة وبقائها قويّة في وجه أعدائها. وسينقذ مروان بن الحكم وابنه للمرّة الثّانيّة الدّولة الأمويّة بعد موت الخليفة يزيد بن معاوية (وبعد أن طُردوا للمرّة الثّانيّة من المدينة) حيث سيتوّلى الخلافة ويقضي على القيسيّة الموالين لابن الزّبير بقيادة الضحّاك بن قيس الفهريّ في معركة مرج راهط. وبذلك ستنتقل الخلافة الأمويّة لفرع أبي العاص بن أميّة لكنّها لا تخرج منهم كما عبّر الأمويّون بكلّ فرحة في اجتماع الجابية[1].

ويبدو أنّ مروان وعبد الملك كانا من ضمن بني أميّة الّذين بقوا بالمدينة، وقد بقيَ أغلبيّة الأمويّين بها بينما رحل البعض إلى دمشق[2].

واتّخذ مسلم بن عقبة معسكرًا في الحرّة مشرّقًا مثلما نصحه عبد الملك بن مروان. ودعا أهل المدينة بأن قال لهم: «... إنّ أمير المؤمنين يزعم أنكم الأصل، وإنّي أكره هراقة دمائكم، وإنّي أؤجّلكم ثلاثًا، فمن ارعوَى وراجع الحقّ قبلنا منه، وانصرفت عنكم، وسرت إلى هذا الملحد الذي بمكّة، وإن أبيتم كنّا قد أعذرنا إليكم»[3].

يُحطّم مسلم بن عقبة الشرعيّة التّاريخيّة لأهل المدينة من الصّحابة من المهاجرين من قريش. والأنصار، وأبناء المهاجرين وأبناء الأنصار. فقد سعى الخليفة يزيد بن معاوية منذ تولّيه السّلطة سنة ٦٠هـ/ ٦٨٠م إلى حقن دماء قومه. وكانت هذه

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٦، ص٢٦٠: اجتماع القبائل اليمنيّة والأمويين الذين بايعوا مروان بن الحكم بعد تدخّل هامّ لعبيد الله بن زياد سنة ٦٤هـ؛ ياقوت، معجم مذكور، ج٢، ص٩١: الجابية هي قرية من أعمال دمشق من ناحية الجولان قرب مرج الصفر.

(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٦.

(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٨٧؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٢.

الفرصة هي الفرصة الأخيرة لأهل المدينة للرّجوع عن عصيانهم وتقديم البيعة من جديد للخليفة، حتّى ينتقل إلى مكّة لمحاربة ابن الزّبير. فقد أمهلهم مسلم بن عقبة ثلاثة أيّام للتّراجع وإلاّ فهو مقاتلهم.

واقعة الحرّة

في الأثناء، قام أهل المدينة بتعبئة هامّة. واتّخذوا خندقًا في جانب المدينة[١]، وهو الخندق الذي استعمله الرّسول في محاربته لقريش سنة ٥هـ/ ٦٢٧م، وربّما وقع ترميمه من قبل أهل المدينة، وقد قضوا فيه ١٥يوما[٢]. وكان الرّسول قد اتّخذ هذه الطّريقة الدّفاعيّة الفارسيّة بإشارة من سلمان الفارسي، وهي طريقة لمواجهة هجوم للخيّالة من قبل أعدائهم. وقد مكّن هذا التّكتيك العسكريّ الرّسول من الانتصار على الأحزاب.

فلماذا أعاد أهل المدينة استعمال هذا التّكتيك العسكريّ؟ هل هو تذكير بشرعيّة تاريخيّة مستمدّة من الرّسول؟، أم أنّهم كانوا متخوّفين من جيش الشّام؟ وعسكر بباب من أبوابه عدد هامّ من أهل المدينة، وكان يترأسهم عبد الرحمن بن أزهر بن عوف الزُهري، وهم على ربع. وكان عبد الله بن مطيع على ربع آخر في جانب المدينة، وكان معقل بن سنان الأشجعيّ على ربع آخر في جانب المدينة، وكان معقل بن سنان الأشجعيّ على ربع آخر ممّا يلي الحَرّة، وكان هذا الرّبع من أعظم تلك الأرباع وأكثرها عدداً.

ويضيف البلاذري أنّ كلّ جماعة خندقوا على ربعهم[٣]. وكان أمير جماعتهم عبد الله بن حنظلة الغسيل. وكان عبد الله بن مطيع على قريش من أهل المدينة، وعبد الله بن حنظلة الغسيل على الأنصار، ومعقل بن سنان على المهاجرين،

---

(١) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٨٧؛ البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٤٢.
(٢) السمهودي، *مصدر مذكور*، ج١، ص٩٠؛
*E. I*², Nouvelle Edition, article Al - Harra; Watt, *Idem* p 263.
(٣) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٤٢.

وعلى الموالي يزيد بن هُرْمُز[1].

وقاتل مع أهل المدينة جماعة من التّجّار: ٤٠٠ شخص من أهل البحرين من أهل دارين[2]، قد أجبروا بالقوّة على المشاركة في القتال، وعقدوا لهم لواء، وكان أهل المدينة يقاتلون حول هذا اللّواء. فكتب مسلم بن عقبة المرّي إلى يزيد بن معاوية عن خبرهم. فكتب الخليفة يزيد بن معاوية إلى عامله بالبحرين أن يغرم أهل دارين ٤٠٠ ألف درهم[3].

وقدّم السّمهودي[4] وصفًا آخر للتّنظيم العسكريّ لأهل المدينة أو مواقع الأرباع من الخندق: «وكان لقريش ما بين راتج[5] إلى مسجد الأحزاب والأنصار ما بين الأحزاب إلى بني سلمة[6] وللموالي ما بين راتج إلى بني عبد الأشهل[7]».

لكنّ المصادر لم تذكر عدد جند المدينة. ويضيف البلاذري أنّ قائدي أهل المدينة و «القائمين بأمرهم»[8] في هذه المعركة هما عبد الله بن مطيع العدوي وعبد الله بن غسيل الأنصاري، وذلك قبل أن «يستجمع أمر ابن الزّبير»[9]. فقد كانت هذه الثّورة لأهل المدينة سابقة ومستقلّة عن حركة ابن الزّبير الّتي لن تتّضح معالمها إلاّ في الحصار الأوّل أي حصار مقاتلة الشّام لهم.

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٨٧؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٢؛ ابن سعد، مصدر مذكور، ج٥، ص٢١٦: «يزيد بن هرمز مولى لآل أبي دُباب من دَوس. وكان على الموالي يوم الحرّة ومات بعد ذلك. وكان ابنه عبد الله بن يزيد بن هرمز من فقهاء أهل المدينة المعدودين».

(٢) ياقوت، معجم مذكور، ج٢، ص٤٣٢.

(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٥٢، تبدو مركّزة السّلطة بيد الخليفة يزيد بن معاوية.

(٤) السّمهودي، مصدر مذكور، ج١، ص٩٠ ـ ٩١.

(٥) ياقوت، معجم مذكور، ج٣، ص١٢: أطم من آطام اليهود بالمدينة وتسمّى النّاحية به. والمراتج: الطرق الضّيقة. وأرتجت الباب أي أغلقته؛ ابن حزم، مصدر مذكور، ص٣٤٥ ـ ٣٤٦: بنو مرّة بن مالك بن الأوس بن حارثة وهم أهل راتج.

(٦) ابن حزم، مصدر مذكور، ص٣٥٨ ـ ٣٥٩: من الخزرج.

(٧) ابن حزم، مصدر مذكور، ص٣٣٩.

(٨) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٥١.

(٩) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٥١.

ولم يكن لثّوار المدينة برنامج سياسيّ واضح للثّورة، لكنّ تنظيمهم العسكريّ كان تنظيماً محكماً. ويبدو أنّهم قاموا بتعبئة هامّة، وقد أخاف على ما يبدو استعدادهم الكبير وعددهم الهامّ مقاتلة الشّام، وكرهوا قتالهم[١].

وقد تغنّى بعض الشّعراء، مثل شهوات مولى بني تيم[٢] (من قريش) بهذا التّنظيم (الخندق)، وهجا يزيد بن معاوية الذي ينتمي خاله لكلب أي أنّه ليس قرشيًّا. فهل كان أهل المدينة وأساسًا القرشيّون يستنقصون من قيمة يزيد لأنّ أخواله من كلب؟

ربّما كان هذا الاحتمال صحيحًا للنّزعة الأرستقراطيّة للقرشيين وتحقيرًا ليزيد، فعرّض الشّاعر بمجونه ولهوه. وطلب منه إن هو غلبهم أن يتنصّر، وهنا يبدو أنّ هذا المولى كان واثقًا من انتصار جيش المدينة. وقد تهكّم على يزيد وسخر منه إذا هو غلبهم أن يتنصّر ويتركنّ الصّلاة. وهذا تعريض ربّما بكلب لوجود عناصر نصرانيّة في كلب:

إنّ في الخندق المُكلّل بالمجـ ... د لضربًا يسوء ذا النّشواتِ
لستَ منّا وليس خالُك منّا ... يا مُضيعَ الصّلاة للشّهوات
بَزقعِ الدُّبَّ واحمِل القِرْدَ وانزلْ ... في بلاد الوُحوش بالفلواتِ
فإذا ما غلبتنا فَتَنَصّرْ ... واترُكَنَّ الصّلاة والجُمعاتِ

يبدو أنّه حدثت مفاوضات بين مسلم بن عقبة المُرّي وأهل المدينة في الأيّام الثّلاثة الّتي مُنحت لأهل المدينة. فقد عرض عليهم القائد العسكريّ عطاءين في السّنة (في الصّيف وفي الشّتاء)، وعرض عليهم أيضًا أن يغيّر سعر القمح بمثيله في الشّام، وهذا دليل على وجود مشاكل اقتصاديّة بين الخليفة وأهل المدينة[٣]. كما وعدهم الخليفة على لسان مسلم بن عقبة بأن يُرجع إليهم أموال العطاء الّتي

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٥٣.

(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٢.

(3) M. J. Kister, *Idem*, p 47-48.

اختلسها عمرو بن سعيد واشترى بها غلمانًا على حساب أهل المدينة[1]، لكنّهم رفضوا أن يُذعنوا له. وربّما عندها قرّر مسلم بن عقبة القتال، وتغيّر موقفهم عند ذلك فحاولوا التّأثير على القائد الشّاميّ. ويبدو أنّ الأنصار أرسلوا إلى مسلم بن عقبة يذكّروه بفضلهم عليه حيثُ سبي في غزوة لأسامة بن زيد، واشترته امرأة من الأنصار وأعتقته. لكنّ مسلم بن عقبة كان مصمّمًا على قتالهم لأنّهم قتلوا الخليفة عثمان[٢].

كان مسلم حريصًا على تركيز عنصر أساسيّ من عناصر الإيديولوجيا الأمويّة وهو القصاص للخليفة المظلوم. فقد رجع شبح الفتنة الأولى في السّاحة السّياسيّة الأمويّة خاصّةً أنّ مسرح مقتل عثمان كان المدينة.

وعبّر مسلم بن عقبة عن قوّة طاعته للخلفاء الأمويّين بتركيزه لإيديولوجيا القصاص للخليفة المظلوم. فقد طلب من الطّبيب الذي أرسله معه الخليفة يزيد بن معاوية بأن يكفّ عن مداواته، فهو على ما يبدو بعد انتهاء واقعة الحرّة حقق أمنية كانت بنفسه وهي البقاء على قيد الحياة للتّشفّي من قتلة عثمان أي أهل المدينة.

كان هذا القائد العسكريّ من أحرص أشراف الشّام على القصاص للخليفة المظلوم. وكانت الحرّة فرصة ذهبيّة له للتّشفّي والانتقام من قتله. وهذا يذكّرنا بنذر عبيد الله بن زياد للتّمثيل بجثّة الحسين بن عليّ بعد قتله. وقد نجح القائد في بلوغ غايته في التشفّي من قتلة عثمان من أهل المدينة مثلما تشفّى ابن زياد من قتل الحسين وآله. ثمّ تبرز الرّوح الدّينيّة العالية لمسلم عندما قال للطّبيب بأنّه يحبّ أن يموت على طهارته قبل أن يُحدث حدثًا فاعتبر قتله لأهل الحرّة الأجراس تطهيراً له[٣].

على هذا الأساس، قدّم مسلم بن عقبة صورة عن إخلاصه لمعاوية وطاعته

---

(1) M. J. Kister, *Idem*, p 46.

(٢) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٤٨.

(٣) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٤٩.

للخليفة يزيد وتركيزه لإيديولوجيا الدّولة الّتي لا تتقوّى إلاّ بمجموعة قرابين بشريّة وبسفك دماء أهل المدينة. فكانت دماؤهم تطهيراً للقائد الأمويّ عند احتضاره، وجثثهم تقرّبًا بها لله. فيصبح القائد طاهرًا مثل طهارة المجاهد في سبيل الله/ الخليفة المظلوم، وسيصبح أهل المدينة الذين يمثّلون رمزًا من الرّموز الإسلاميّة لعلاقتها بالرّسول عنوانًا للعصيان والمروق عن الدّين والرّجس بالمعنى المادّي والرّوحي.

كما طوّر الخليفة يزيد بن معاوية مظاهر الملك باتّخاذه لأطبّاء أو طبيب في البلاط الملكيّ بخضراء دمشق. كما أنّه حرص على سلامة قائده المُسنّ والمريض فزوّده بطبيب في غزوه للمدينة.

وبعد الأيام الثّلاثة الّتي أمهلها مسلم بن عقبة المُرّي لأهل المدينة، سألهم ما هم فاعلون فأجابوه بأنّهم سيحاربون. فطلب منهم ألاّ يفعلوا ويدخلوا في الطّاعة، ليُقاتلوا الملحد الّذي جمع إليه المُرّاق والفسّاق (والمقصود بهم الخوارج). لكنّ أهل المدينة شتموه وفجّروه وشتموا يزيدًا وسمّوهم بأعداء الله، وتهدّدوهم بمحاربتهم وبسدّ الطّريق عليهم حتّى لا يذهبوا إلى حرم الله ويحلّوا فيه، ويستحلّوا حرمته ويُخيفوا أهله[1].

وبذلك فشلت محاولات مسلم بن عقبة المُرّي في إقناع أهل المدينة بالعدول عن القتال والدّخول في الطّاعة. كما أنّه طلب منهم المشاركة في قتال ابن الزّبير فزاد في حقدهم وعزمهم على قتال الأمويّين. فقد بدا لأهل المدينة أنّ جند الشّام سيهتكون حرمة البيت ويستحلّون حرمته فصمّموا على قتالهم.

وكانت وقعة الحرّة، يوم الأربعاء أو الجمعة ٢٧ من ذي الحجّة سنة ٦٣هـ/ ٢٧ أوت ٦٨٣م[2]. ولا بدّ لنا[3] ـ قبل أن ندرس الواقعة العسكريّة في حدّ ذاتها ـ من

---

(١) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٨٧/ البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٤٣.

(٢) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٨٧ / البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٥٠.

(٣) ياقوت، معجم *مذكور*، ج٢، ص٢٤٥ «هي أرض ذات حجارة سود نخرة كأنّها أحرقت بالنّار، والحرار في بلاد العرب كثيرة أكثرها حوالي المدينة إلى الشّام. وحرّة واقم هي إحدى حرّتي المدينة، وهي الشّرقيّة.. وقيل: واقم اسم أطم من آطام المدينة تضاف إليه الحرّة. إليها خرج أهل المدينة يحاربون جيش=

تعريف الحرّة. الحرّة هي أرض مفروشة بصخر، تخترقها الأشراج وهي مسايل الماء في الحرار. وهي صحراء صخريّة فيها الصّخر والشّظايا السّوداء. وحرة واقم[1] هي أطم من آطام[2] المدينة سمّي بذلك لحصانته ومعناه أن يردّ أهله، وموضعها شمال ـ شرقي المدينة.

وابتدأ القتال، فأمر مسلم بن عقبة المُرّي بضرب فسطاط عظيم له على طريق الكوفة بالحرّة[3]. وكان جيش أهل المدينة متفوّقًا في البداية. فقد زحف مسلم بن عقبة وصمد مثل صمود أهل المدينة. وأرسل الخيل، فحمل عليهم ابن الغسيل في الرّجال الّذين معه، فكشف الخيل. ووصلوا إلى فسطاط مسلم بن عقبة، فقاتلهم قتالاً شديدًا هو ورجاله من أهل الشّام. وجاء الفضل بن عبّاس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلّب من بني هاشم[4] إلى عبد الله بن حنظلة الغسيل فقاتل في حوالي ٢٠ فارسًا. ثمّ طلب من ابن الغسيل أن يأمر من معه من الفرسان بأن يحملوا معه لأنّه كان يُريد أن يقتل مسلم بن عقبة أو يقتل دونه. فأمر ابن الغسيل عبد الله بن الضحّاك من بني عبد الأشهل من الأنصار أن ينادي في الخيل فيجمعهم إلى الفضل[5].

إنّ وجود الفضل بن عبّاس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلّب من بني هاشم المعروف بنسكه وصلاحه في هذه المعركة حدث رمزيّ إلى أبعد درجة من الرّمزيّة. فهو من بني هاشم وبالتّالي من أهل البيت، وكان تحمّسه للقتال ضدّ جيش الشّام أي جيش الدّولة الأمويّة هو بمثابة القصاص للحسين بن عليّ وآل بيته الّذين قتلهم ابن زياد في كربلاء بأمر من يزيد.

= الشّام بقيادة مسلم بن عقبة المُرّي».

(١) ياقوت، معجم مذكور، ج٢، ص٢٤٥ وقَم: ردّ وحَمَى؛ السّمهودي، مصدر مذكور، ج١، ص٨٨.

(٢) ابن منظور، معجم مذكور، ج١، ص٧١: «الأطم: حصن مبني بحجارة، وقيل الأطم مثل الأجم. وقيل كلّ بيت مربّع مسطّح. والكثير أطوم وهي حصون لأهل المدينة».

(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٨٧/ البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٣.

(٤) مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص٨٨: هو الفضل الأصغر، كان من النُّسّاك، قُتل يوم الحرّة، لم يُجرح فيها أحد من بني هاشم غيره، فقُتل». وكان الحارث جدّه عمّ الرّسول.

(٥) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٨٨/ البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٣.

فهل كان بنو هاشم من المحرّضين على يزيد؟ وبالتّالي هل لعب مقتل الحسين دورًا في التهاب نيران الفتنة في المدينة؟

نعتقد أنّ مقتل الحسين كان من العوامل الّتي شجّعت الثّوّار بالمدينة وخاصّة منهم بني هاشم، باستثناء عليّ بن الحسين الّذي اعتزل الفتنة، للثّورة ضدّ الحكم الأموي. ويبدو أنّ الفضل لم يكن الوحيد من بني هاشم الّذي قاتل الجيش الأمويّ في الحرّة حسب مصعب الزّبيري الّذي ذكر أنّ الفضل فقط قُتل من بني هاشم. وقد تمكّن الفضل بعد أن اجتمع إليه الخيّالة من أن يهزم جند الشّام، وشجّع جند المدينة على محاربتهم لأنّهم أصحاب لؤم[١].

ونلاحظ أنّ هناك اتّفاقًا بين قريش والأنصار ضدّ أهل الشّام. وكان لقائد أعدائهم أي مسلم بن عقبة رمزيّة كبيرة، فعندما يقتل القائد يضعف الجند عن القتال. وانهزم جند الشّام في أوّل هذه المعركة ضدّ أهل المدينة.

وكان الفضل متأكّدًا من النّصر، فحملوا مرّة أخرى على جند الشّام، فهزموهم ووصلوا إلى مسلم بن عقبة الّذي كان يُقاتل في ٥٠٠ راجل جثاة على الرّكب، ومشرعي الأسلحة نحو جنود المدينة[٢]. وانطلق الفضل ليقتل صاحب الرّاية الّذي كان غلامًا لمسلم بن عقبة، بينما اعتقد الفضلُ أنّه مسلم.

وهبّ هذا الأخير لتوبيخ جند الشّام لعدم دفاعهم عن دينهم ونصرتهم لإمامهم على أحسن وجه، وتهدّدهم بحرمانهم من العطاء، وبتجميرهم في أقاصي الثّغور[٣]. وكانت هذه التّهديدات مؤثّرة فيهم لأنّهم يعرفون أنّ القائد قادر على العقوبة. وكانت أقصى عقوبة لهم الحرمان من العطاء أي تجويعهم وهم مقاتلة ليس لديهم مداخيل سوى أعطياتهم. كما كان التجمير وهو عبارة عن نفي في أبعد الثّغور، عقابًا شديدًا.

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٨٨.

(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٨٨؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٣.

(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٨٨.

ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ أهل الشّام كانوا يقاتلون لأوّل مرّة مسلمين في إطار هذه الفتنة، إذ كانوا موجّهين دائمًا لجهاد الكفّار. ولعلّ هذا يفسّر تعثّرهم في البداية في قتال أهل المدينة.

وقد نجح مسلم بن عقبة في تحريض جند الشّام على القتال خاصّةً أنّه كان مريضًا يحمل على كرسيّ أو سرير، فأمر أن يوضع بين الصفّين، وطلب منهم أن يقاتلوا عن قائدهم[1]. وكان القتال على أشدّه إلى درجة أنّ السّيوف انثنت والرّماح تقصّفت. فكلّ طرف كان يدافع عن مصالحه السّياسيّة وقناعاته الإيديولوجيّة.

وكان مسلم بن عقبة يقاتل وهو محمول على كرسيّ أو سرير وهو يتمثّل[2]:

أحيا أباهُ هاشمُ بن حرملهْ ... يوم الهَباتَين ويوم اليعْمُلهْ
كُلّ المُلوك عندهُ مُغربلهْ ... ورُمْحُهُ للوالدات مثكَلَهْ
لا يَلبثُ القتيلَ حتّى يَجدلهْ ... يَقتل ذا الذنبِ ومن لا ذنبَ لهْ

لقد كان مسلم يشبه القوّاد البيزنطيّين باتّباعه لبروتوكول معيّن السّرير أو الكرسي الّذي حمل كلّ مرّة في أحدهما لمرضه حتّى يُقاتل، وينفذ أوامره لجيش الشّام. لكنّه كان أيضًا كشاعر بدويّ في الجاهليّة يمدح خصاله وتقتيله النّاس بذنب ومن غير ذنب. فهو سيف الخليفة المسلّط على الملوك أي أشراف قريش والأنصار. وبذلك دشّن مسلم بن عقبة نمطًا جديدًا من العنف العسكريّ للدّولة ولجيش الشّام قوامه الطّاعة والسّيطرة على بقيّة الولايات وإخضاعها للدّولة.

وقاتل جند الشّام الأرباع، وقاتلوا أساسًا ابن الغسيل الّذي التفّ حوله أصحابه. وحمل الفضل بن العبّاس بن ربيعة في جماعة من أشراف النّاس وفرسانهم على مسلم بن عقبة على مسافة ١٠ أذرع، وهو مريض على سريره. ووصل الفضل هو وأصحابه إلى سرير مسلم. فنادى جند الشّام وأمرهم أن يقتلوا العبد الأحمر (وكان

---

(١) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٨٩؛ البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٤٦.
(٢) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٩١.

الفضل رجلاً أحمر) بضربه بالرّماح، فطعنوه حتّى قتل[1]. وقتل ابراهيم بن نعيم[2] بن النّحام بن عبد الله بن عويج بن عديّ، وكان أحد الرؤوس يوم الحرّة. كما قتل معه زيد بن عبد الرحمن بن عوف[3]، ومعهم ناس كثيرون.

ويبدو أنّ مقاتلة الشّام كانوا يطبّقون أوامر أميرهم دفاعًا عن الطّاعة والجماعة وخوفًا من أن يحرموا من الامتيازات الّتي كانوا يتمتّعون بها دون غيرهم من المقاتلة في الولايات. كما أنّهم كانوا شديدي التّأدلج لصالح إيديولوجيا الدّولة كالقصاص للخليفة المظلوم عثمان والتّعتيم على القرآن والسّنّة، وبالتّالي تغييب ذكرى الرّسول.

وهجم مسلم بن عقبة وفرسانه على عبد الله بن حنظلة الغسيل. وامتطى مسلم بن عقبة فرسه رغم مرضه، وهذا يبيّن مقدرته الحربيّة وشجاعته عند القتال. وسار في مقاتلة الشّام وحرّضهم على القتال فذكر لهم أنّهم ليسوا بأفضل العرب في أحسابها وأنسابها، ولا أكثرهم عددًا، ولا أوسعهم بلدًا، بل هم حسنت منزلتهم لدى أئمتهم بطاعتهم واستقامتهم تجاههم. كما أنّه عتّم على أهل الحرّة أي أهل المدينة لأنّهم خرجوا عن الطّاعة والجماعة، ورغّبهم الصّبر في قتالهم حتّى ينتصروا عليهم، ويتحصّلوا على المكافآت من الخليفة[4].

يبدو خطاب مسلم بن عقبة المُرّي خطابًا إيديولوجيًّا إلى أبعد حدّ، فهو خطاب يرتكز على تركيز الطّاعة كعنصر أساسيّ في علاقتهم بالخليفة الأمويّ. كما أنّه ركّز

---

(١) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٨٨ ـ ٤٨٩؛ البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٣٤٣ ـ ٣٤٤.

(٢) ابن سعد، *مصدر مذكور*، ج٥، ص١٣٠؛ البلاذري، *مصدر مذكور*، ج١٠، ص٤٧٨ ـ ٤٧٩: أبوه نعيم وهو النّحّام بن عبد الله بن أسيد بن عبد عوف بن عبيد أسلم بعد عشرة. وسميّ النّحام لأنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «دخلت الجنة فرأيت أبا بكر وعمر، وسمعت نحمة من نعيم» فسميّ النّحام.
وكان يكتم إسلامه، وكان أبوه يقوت فقراء بني عديّ. فلما أراد نعيم الهجرة إلى المدينة تعلّق به قومه، وقالوا له دن بأيّ دين شئت، فأقام بمكّة لا يقربه أحد، ثمّ قدم المدينة مهاجرًا سنة ٦ ومعه ٤٠ من أهله. استشهد نعيم يوم مؤتة.

(٣) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٨٩: ابن الصحابي عبد الرحمن بن عوف.

(٤) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٨٩؛ البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٣٤٤.

خطابًا إيديولوجيًا إقليميًا يُعطي أهميّة لأهل الشّام وتفوّقهم على العرب بمحافظتهم على الطّاعة والجماعة. وذكر لهم خروج أهل الحرّة عن الطّاعة، فغيّر الله بهم. وعلى هذا الأساس، فإنّ الطّاعة لخلفاء الله تضمن النّصر لمقاتلة الشّام وحسن العاقبة لدى الله ولدى الخليفة بمكافأته لهم.

كما يبدو أنّ وقعة الحرّة ضربت شرف قريش وكسّرت شوكتها نهائيًا لصالح الأمويّين بيت الشّرف في قريش. فقد أراد الخليفة كسر الشّرف القرشيّ والسّابقة والقدمة، كما قضى على اعتزاز الأنصار بمكانتهم الميتا ـ تاريخيّة. فرجعت القيم الجاهليّة بقوّة في فترة يزيد بن معاوية. وتدعّم بصفة نهائيّة الطّابع الإقليميّ للدّولة الأمويّة الّتي اعتمدت على جند الشّام كقاعدة لحكمهم، ومن المجال الشّامي كمركز لسلطتهم الفعليّة رغم أنّ هذا المجال فقير بالمقارنة مع العراق (السّواد). وكانت الدّولة الأمويّة مكتسبة لهذه الهويّة الإقليميّة مع انتمائهم لأعزّ بيت في عبد مناف.

وأمر مسلم بن عقبة الخيّالة من جند الشّام أن يهاجموا ابن الغسيل ورجاله، وعندما هاجموهم ثاروا في وجوههم بالرّماح والسّيوف. واشتدّ القتال بينهم، فنادى مسلم بن عقبة الحُصين بن نمير السّكوني أن يقاتلهم في جنده من أهل حمص[1]. وحرّض ابن الغسيل جنود المدينة الّذين وعدهم بالنّصر، كما اعتبرهم من «أهل البصيرة ودار الهجرة»[2] لقتال مقاتلة الشّام، وذكر لهم أنّ الله أصبح راض أحسن الرّضا عن بلدهم كأحسن بلد من بلدان المسلمين ويقصد المدينة. بينما أصبح ساخطًا على أهل الشّام أشدّ السّخط لقتالهم لهم. وأمرهم بالاستشهاد في سبيل الله.

لا بدّ من الإشارة إلى أنّ ربع ابن الغسيل كان أهمّ ربع من النّاحية العدديّة. وكان مستهدفًا من قبل مقاتلة الشّام في هجماتهم. كما أنّهم كانوا على العكس من ذلك يُهاجمون أهل الشّام في مقدمة أرباع أهل المدينة.

---

(١) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٨٩ ـ ٤٩٠/ البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٣٤٤.
(٢) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٩٠

ويبدو هنا الخطاب الإيديولوجي لابن الغسيل خطابًا دينيًّا يرتكز على الشرعية التّاريخيّة والدّينيّة للمدينة الّتي نصرت الرّسول وآوته وآوت أصحابه. وكانت مقرّا لدولته ولتشريعاته الدّينيّة ومنطلقًا لغزواته ضدّ أعدائه. فاكتسبت المدينة بذلك مكانة ميتا ـ تاريخيّة وحرمة. وبالتّالي فإنّ ابن الغسيل ركّز إقليميّة حجازيّة خاصّة بالمدينة. وهذه الإقليميّة واجهت بقوّة الإقليميّة الشّاميّة الّتي مثّلها جند الشّام. وهي المعبّرة عن جبروت الدّولة الأمويّة.

هذا ويتجلّى لنا الاستشهاد كهدفٍ روحيٍّ سامٍ، وخاصّةً وابن الغسيل أهمّ معبّر عن هذه الشّهادة بما أنّ أباه استشهد في أحد وغسّلته الملائكة. فابن الغسيل كأنّما يريد أن يُعيد التّجربة الدّينية لأبيه في الاستشهاد مع جيش الرّسول ضدّ قريش (وكان قائدهم أبو سفيان بن حرب جدّ يزيد بن معاوية). يريد الاستشهاد ضدّ جيش الخليفة يزيد بن معاوية، وفي هذا ضرب للشّرعيّة التّاريخية الأمويّة، فهم من الطّلقاء أسلموا بعد فتح مكّة.

وكان أهل الشام يُقاتلون أهل المدينة ويقولون لهم يا يهود[١]. وكان أهل الشام يشتمون ويثلبون أهل المدينة من باب طاعتهم للخليفة يزيد بن معاوية. ويدخل هذا الثلب في إطار عداوة ما قبل إسلاميّة، وهو تذكير بوجود اليهود[٢] الذين استقرّوا بها قبل قدوم الأوس والخزرج، وقد كان اليهود يسيطرون على الأوس والخزرج كما يسيطرون على الثروات في يثرب (غراسة النّخيل في الواحات الثريّة لصالح قريظة والنّضير، وكان بنو قينقاع يقومون بالتجارة وصناعة الذّهب أساساً). وقضى الرّسول قضاء مبرماً على اليهود لتخطيطهم ضدّ الدّولة الإسلاميّة النّاشئة[٣].

من جانب آخر فرض مقاتلة الشّام الإيديولوجيا الأمويّة الّتي تعتّم على ذكرى

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٤٥.
(٢) ياقوت، معجم مذكور، ج٥، ص٨٥.
(3) Watt, *Idem*, p. 440-468-469-470.

الرّسول وعلى أهل المدينة من الصّحابة وأبناء المهاجرين والأنصار. كما ركّز أهل الشّام إيديولوجيا إقليميّة الدّولة.

وكانت صورة المدينة في واقعة الحرّة وبعدها لدى الأمويّين صورة المدينة الخبيثة، فقد تخاصم كلّ من يحيى بن الحكم بن أبي العاص وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب في فترة الخليفة عبد الملك بن مروان، فنعت يحيى المدينة بالخبيثة، فأجابه عبد الله بن جعفر بن أبي طالب أنّ الرسول سمّاها طيّبة وهو يسمّيها خبيثة. كما حلف يحيى أنه سيدفن بالشام الأرض المقدّسة، أحبّ إليه من أن يدفن بها. فنظرة يحيى هي نظرة إقليميّة للشام فهي أرض المحشر[١].

واقترب الحصين بن نمير برايته، وأمر مسلم بن عقبة عبد الله بن عضاه بن الكركر الأشعريّ، فزحف في٥٠٠ مُرام حتى اقتربوا من ابن الغسيل ورموهم بالنّبال. وطلب عبد الله بن الغسيل من كلّ طالب للشّهادة محبّ للجنّة، أن يقترب منه ويقف بجانب رايته. فاقتتل الطرفان أشدّ قتال، وقدّم ابن الغسيل أبناءه واحداً، واحداً فقتلوا بين يديه[٢]. وهذا في اعتقادنا، أكبر دليل على الاستماتة في قتال أهل الشّام من قبل ابن الغسيل، وقناعاته الدّينيّة وإيمانه بصدق مطالبهم تجاه «تعسّف» الخليفة يزيد بن معاوية.

وأثناء المعركة كان ابن الغسيل ينشد شعراً يحرّض فيه رجاله على القتال في سبيل الحقّ ومقاتلة أصحاب الفساد أي جند الخليفة يزيد بن معاوية.

بُعْداً لمن رام الفَساد وطغَى
وجانب الحقَّ وآيات الهدى
لا يُبعد الرحمنُ إلاَّ مَنْ عَصى[٣]

ونستبعد رواية كون ابن الغسيل يغطّ في نوم عميق إلى أن نبّهه أبناؤه بهزيمة

---

(١) اعتبرها معاوية أرض المحشر. البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٨.
(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٩٠؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٤٤.
(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٩٠؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٤٤.

جيش المدينة، فاستيقظ وقاتل إلى أن قُتل[1]. وقد روى هذه الرّواية أشياخ أهل المدينة. فما هي دوافعهم من وراء ذلك؟، هل كانوا يريدون تبرئة ساحة ابن الغسيل لانهزامه مع أهل المدينة؟.

واستمات أهل المدينة في القتال لكنّهم «لم يشعروا إلا بالكمين يضربهم في أدبارهم وسمعوا التكبير من خلفهم في جوف المدينة، فانهزموا»[2]. وكان الكمين من قبل بني حارثة[3]. وكان مروان بن الحكم مسؤولاً عن هذا الانهزام وتغيّر ميزان القوى بين الجيشين. فقد جاء لبني حارثة ورغّب رجلاً منهم في فتح طريق من جهتهم مقابل إكرام الخليفة يزيد بن معاوية لهم[4]. ويلعب بذلك مروان بن الحكم للمرّة الثّانية دوراً هاماً لصالح الجيش الأموي، فقد كانت نصيحة عبد الملك لابنه أساسيّة في الاستراتيجيا العسكريّة، وكان هذا التدخّل لمروان بطلب معونة بني حارثة أساسياً في تدمير مخطّطات أهل المدينة وانتصار جيش الشّام.

وقاتل أهل المدينة إلى أن قتلوا، فقد قتل ابن الغسيل وأخوه لأمّه مُحمّد بن ثابت بن قيس بن شمّاس الأنصاري الذي كان يقاتل ويقول إنّه لا يحبّ أن يقتله الديلم مكان هؤلاء[5].

ويبدو أنّ منزلة أهل الشّام كانت منزلة أكثر بشاعة من الكفّار. واعتبر أهل المدينة قتالهم جهاداً. وهي وضعيّة تذكّرنا بإيديولوجيا أهل البيت وأصحاب الحسين في قتالهم لمقاتلة الكوفة.

وقُتل مُحمّد بن عمرو بن حزم الأنصاريّ (وهو قاضي أهل المدينة)، وعبد الله بن أبي عمرو بن حفص المخزوميّ، وعبيد الله وسليمان ابنا عاصم بن عمر بن

---

(١) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٩٥؛ البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٣٥٣.

(٢) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٤٦ ـ ٣٤٨؛ البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٤٩٥.

(٣) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٤٦ ـ ٣٤٨؛ البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٤٩٥.

(٤) السمهودي، *مصدر مذكور*، ج١، ص٩١.

(٥) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٩٠؛ البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٥٢.

الخطّاب[1]. وفرّ عبد الله بن مطيع يوم الحرّة، فالتحق بابن الزّبير بمكّة[2].

المهمّ أنّ مسلم بن عقبة المرّي طبّق سياسة الخليفة يزيد بن معاوية إذ أباح المدينة ثلاثة أيّام لمقاتلة الشّام يقتلون النّاس ويأخذون الأموال وينهبون المدينة. «وكانوا ينفضون صُوف الفُرش ويأخذونها»[3]. ولم تنج من النّهب إلاّ دار أسامة بن زيد بن حارثة مولى الرّسول[4] فإنّ «كلب» حمتها، ودار امرأة من حمير فإنّ حمير حمتها[5]. «وكانوا يعبثون بالإماء ويفعلون ما لا يحبّه الله»[6]، فتّشوا النّساء[7]، وسبوا الذريّة واستباحوا الفروج، فحملت منهم ٨٠٠ حرّة وولدن فسمّي أولادهنّ أولاد الحَرّة[8].

لقد هتك مسلم بن عقبة المرّي حرمة المدينة، مدينة الرّسول بهذا النّهب. فقد كان السّياسي حاضراً حضوراً قوياً إذ طوّر الخليفة يزيد بن معاوية الملك، وكان من باب تأكيد الملك تعريض المدينة لعقاب لم يحدث أبداً من قبل بهتك حرمة الدّور والممتلكات وأساساً النّساء. وهذا جديد بالنّسبة للثّقافة العربيّة الّتي حافظت على الأعراض. وقد ذهب أهل الشّام إلى اغتصاب النّساء من الحرائر وحملهنّ من جرّاء هذا الاغتصاب.

على هذا الأساس، عُومل أهل المدينة كالعبيد في الفتوحات، وربّما بالغت المصادر في ذكر أفعال الأمويّين وتجاوزاتهم في المدينة. لكنّ المهمّ بالنّسبة إلينا

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٦ ـ ٣٥٠؛ مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص٣٦١: أمّهما عائشة ابنة مطيع بن الأسود.

(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٣، ص٣٤٦.

(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٥٢.

(٤) ابن سعد، مصدر مذكور، ج٤، ص٤٥: أسامة الحب ابن زيد بن حارثة بن شراحيل بن عبد العُزّى بن امرئ القيس بن عامر بن النعمان بن عامر بن .. ثور بن كلب.

(٥) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٥.

(٦) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٥.

(٧) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٩.

(٨) ياقوت، معجم مذكور، ج٢، ص٢٤٩.

أن مسلم بن عقبة انتهك كلّ الحرمات، وهذا جديد. وقد ابتدأ هذا الانتهاك منذ قتل الحسين وأهل البيت في كربلاء، وتطوّر انتهاك الحرمات من قبل الدّولة الأمويّة في المدينة. وبذلك أنشأت الدّولة سياسة جديدة لتأكيد الملك على حساب الحرمات. وحمت الحميّة القبليّة لقبائل الشّام دار مولى الرّسول لأنّه كان ينتسب إلى كلب، كما حمت حمير بيت امرأة من حمير.

ووضعت المدينة تحت رحمة جند الشام الذين استغلّوا هذه الفرصة ليبرهنوا على طاعتهم للخليفة، فعاقبوا أهل المدينة مثلما تعاقب المدن الضّالة العاقة.

وكانت مجزرة الحرّة أقوى من مجزرة كربلاء من حيث عدد النّاس الذين قُتلوا حيث ذكر البلاذري قتل حوالي ٧٠٠ رجل من وجوه قريش ومن أشراف الأنصار، وقتل من أخلاط[(١)] الناس ٦٥٠٠[(٢)]. وذكر ياقوت[(٣)] قتل جيش الشّام لـ ٣٥٠٠ من الموالي، و ١٤٠٠ من الأنصار، و١٣٠٠ من قريش.

كما ذكر البلاذري[(٤)] أسماء من قتلوا من الأشراف بالحرّة وهم إسماعيل بن خالد بن عقبة بن أبي مُعيْط[(٥)]، ويحيى بن نافع بن عُجَيْر بن عبد يزيد بن هاشم بن المطّلب بن عبد مناف[(٦)]، وعُبيد الله بن عُتبة بن غزوان من بني مازن بن منصور[(٧)]، والمغيرة بن عبد الله بن السّائب بن أبي بن أبي حُبيش بن المطّلب بن أسد بن عبد العزّى بن قُصيّ[(٨)]، وعياض بن حُمير بن عوف الزّهري[(٩)]،

---

(١) ابن منظور، معجم مذكور، ج١، ص٨٧٩: أخلاط من الناس أي أوباش مجتمعون مختلطون.
(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٥١.
(٣) ياقوت، معجم مذكور، ج٢، ص٢٤٩.
(٤) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٥٠.
(٥) مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص١٣٨ ـ ١٤٠ ـ ١٤١: عقبة بن أبي معيط قتله الرّسول يوم بدر صبراً، وابنه خالد بن عقبة «كان حسن المذهب، شهد الحسن بن عليّ مرّ بين أهله وأمسكوه فتفلّت منهم حتى شهده».
(٦) مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص٩٥.
(٧) ابن سعد، مصدر مذكور، ج٧، ص٣ ـ ٥: عتبة بن غزوان هو من صحابة الرّسول وهو حليف قريش، وقد مصّر البصرة.
(٨) مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص٢٢٨: أسد بن عبد العزّى.
(٩) مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص٢٧٣ زهرة بن كلاب.

ومحمد بن سعد بن أبي وقّاص[1].

لقد كانت واقعة الحرّة مجزرة لأشراف قريش والأنصار من أهل المدينة ومواليهم، وكان عددهم هامّاً. كما قتل أخلاط النّاس. ويبدو من خلال القائمة الّتي قدّمها البلاذري أنّ الأشراف الذين قتلوا في الحرّة ينتمون إلى عدّة فروع من قريش، فقد قُتل أحد الأشراف من بني أميّة إسماعيل بن خالد بن عقبة بن أبي مُعيْط، وابنان لصحابييّن عبيد الله بن عُتبة بن غزوان، ومحمد بن سعد بن أبي وقّاص وشريف من أسد بن عبد العزّى وشريف من زهرة بن كلاب.

إنّ قتل الأشراف من قبل جيش الشّام هو تعبير عن فرض الدّولة لسلطتها وقمعها لكلّ حركات المعارضة. كما أنّ انتماء الأمويّين إلى قريش لم يمنعهم من تقتيل أبناء قبيلتهم، وهذا دليل على أهميّة السّياسيّ الذي دمّر علاقات الرّحم والقرابة. لقد دُمّرت بذلك حرمة قريش نهائياً لأنّ الدّولة أو الخليفة أراد فرض سلطته وتأكيد ملكه الذي لم يُرد أهل المدينة الاعتراف به.

كما قتل مسلم بن عقبة المرّي عند دخوله للمدينة قوماً من المغنّين من بينهم سائب خاثر. إذ عرّفوا بأنفسهم وطلبوا منه أن يغنّوه ويكونوا بين يديه. فردّ عليهم بأنّ الجيش لم يأت للغناء، وقتلهم.

فلماذا قتل مسلم هؤلاء المُغنّين؟، هل أراد أن يقضي على مظاهر المجون واللهو في المدينة بما أنّ سائب خاثر كان معروفاً بتخنّثه؟

وقد قال في ذلك مُحمّد بن أسلم بن بجْرة الساعديّ[2]:

إنْ يقتُلونا يوم حرّة واقم	فنحن على الإسلام أوّل من قتلْ
ونحنُ قتلناكُم ببدرٍ أذلّةً	وأبْنا بأسْيافٍ لنا منكم نفلْ
فإن ينجُ منها عائذ البيتِ سالماً	فما نالنا مِنْهُم وإنْ شَقّنا جللْ

---

(١) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٩١؛ مصعب الزّبيري، *مصدر مذكور*، ص٢٦٣: «كان سعد بن أبي وقاص أحد العشرة من الصّحابة الذين بشروا بالجنّة».

(٢) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٥١؛ ابن حزم، *مصدر مذكور*، ص٣٤٦.

يبدو أنّ واقعة الحرّة أحيت الصّراع بين بني أميّة الكفّار في وقعة بدر بما أنّ أبا سفيان بن حرب (جدّ يزيد بن معاوية) كان سيّد قريش في حربها ضدّ الرّسول (أي جيش المهاجرين والأنصار). وقد أكّد هذا الشّاعر من الأنصار أنّهم قُتلوا يوم الحرّة ظلماً من قبل ابن طليق أي يزيد بن معاوية. وعلى هذا الأساس، بيّن الشّاعر الفرق بين الأمويّين ذوي الشّرعيّة التّاريخيّة والدّينيّة المنقوصة وأهل المدينة الذين شاركوا في غزوات الرّسول وذوي السّابقة والقدمة.

كان الصّراع بين الأمويّين كسلالة حاكمة وأعدائهم السّياسيّين كأهل المدينة في الحرّة يُحيلهم إلى إسلامهم الأوّل أي بعد فتح مكّة. وكانت هذه «التّهمة» الموجّهة ضدّهم للتّعتيم عليهم ولإبراز تديّن وسابقة أهل المدينة، وبالتّالي كانت السّلاح الإيديولوجي لأعدائهم حتّى يُظهروهم على باطل ويكسّروا شرعيّتهم التّاريخيّة. كما كان أهل الحرّة يتطلّعون للعائذ بالبيت علّه ينتصر لهم أي لأهل الحرّة ضدّ الأمويّين. وكان الشّعر وسيلة هامّة لبثّ دعاية أهل المدنية ضدّ الأمويّين.

ويبدو أنّ الخليفة يزيد بن معاوية قال بعد واقعة الحرّة:

لـيـتَ أشْـيـاخـي بـبَـدْر شَـهـدُوا ... جَـزَعَ الـخـزرج مـن وقـع الأسـلْ

لقد أحيى بذلك الخليفة يزيد بن معاوية ماض ما قبل إسلامي لبني أميّة، لمّا كان أبو سفيان بن حرب سيّد قريش في بدر وهو عدوّ الرّسول. فجاءت مجزرة الحرّة كردّ فعل على قتل أشراف عبد شمس في بدر وذوي الأسنان منهم[1] من قبل أهل المدينة (الخزرج والأوس) أي جيش الرّسول. وبالتالي فهي عبارة عن ثأر يزيد بن معاوية لبني أميّة. وعلى هذا الأساس، رجعت الصّراعات الجاهليّة بقوّة في فترة يزيد، مع تصفية الحسابات بين الأمويّين كسلالة حاكمة وأرستقراطيّة من قريش

(١) المقريزي، مصدر مذكور، ص٤٩: قُتل من بني أميّة في بدر عتبة بن ربيعة بن عبد اشمس (أب هند أمّ معاوية بن أبي سفيان) وهو سيّد عبد شمس. كما قتل الوليد بن عتبة وشيبة بن ربيعة عمّ هند أمّ معاوية؛ مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص١٥٢.

ضدّ أهل المدينة العاصين لسلطانها. وقد ركّز يزيد بن معاوية إيديولوجيا الدّولة الأرستقراطيّة، فهو ينتمي إلى بيت الشّرف في قريش بني عبد شمس من عبد مناف، وقد احتكرت هذا الشّرف قبل الإسلام، وتواصل شرفها في الإسلام بتولّي معاوية للخلافة وتأسيسه للحكم الأسروي الذي مثّله الخليفة يزيد بن معاوية أحسن تمثيل.

ولقّب أهل الحجاز أو أشياخ أهل المدينة مسلم بن عقبة المُرّي بمسرف بعد تقتيله لأهل الحرّة(١). فهو بدويّ قيسيّ جاف يذكّرنا بشمر بن ذي الجوشن. لكنّه من طراز عبيد الله بن زياد والحجّاج بن يوسف، أي قائد وموظّف لدى الدّولة يُنفّذ أوامر الخليفة بكلّ أمانة. وربّما يُبالغ في الطّاعة ويتجاوز كلّ الحدود كالحرمة حرمة قريش والأنصار وحرمة المدينة في سبيل فرض إيديولوجيا الدّولة وتركيز سلطتها. وبذلك اكتسب مسلم بن عقبة نفس الصّورة المشوّهة والمكروهة للخليفة يزيد بن معاوية ولعبيد الله بن زياد. فيزيد أمر بتقتيل الحسين وأهل بيته ثمّ أمر بتقتيل أهل الحرّة وضرب الكعبة بالمنجنيق. وكان ابن زياد المنفّذ الوفيّ لسياسة يزيد فقتّل الحسين وآله وأصحابه في كربلاء ومثل بأجسادهم، وبعث برؤوسهم إلى يزيد. وقد اتّبع مسلم بن عقبة هذا التوجّه السّياسي والإيديولوجي وأطاع الخليفة بتقتيل أهل الحرّة.

لقد اختار يزيد بن معاوية عُمّالاً أو قوّاداً عسكريّن حريصين على مصلحة الدّولة فوق كلّ اعتبار. فهتك الحرمات (حركة المدينة وحرمة الأشراف من قريش والأنصار وحرمة الأعراض والنّساء أساساً وحرمة أموال وممتلكات أهل المدينة). وكان

---

(١) المبرّد، مصدر *مذكور*، ج١، ص٢٦٠؛ ابن حزم، مصدر *مذكور*، ص٢٥٤: بنو مُرّة بن عوف بن ذُبيان من قيس: «والفاسق الملعون مسلم بن عقبة بن رياح بن أسعد بن مُرّة بن عوف صاحب يوم الحرّة لعنه الله وهو مُسرفٌ» لأنّه أسرف في القتل؛ ياقوت، معجم *مذكور*، ج٢، ص٢٤٩: «وسمّوه لقبيح صنيعه مسرف»؛ السمهودي، مصدر *مذكور*، ج١، ص٩٢؛ ابن منظور، معجم *مذكور*، ج٢، ص١٣٦ أسرف في القتل: أفرط. واختلف في الإسراف في القتل فقيل أن يقتل غير قاتل صاحبه. الإسراء ١٧/ ٣٣ ـ ٣٤ ﴿ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل﴾.

التّقتيل ضرورياً لفرض سلطة الدّولة وإيديولوجيّتها وتأكيد الملك للخليفة يزيد بن معاوية. فعبيد الله بن زياد لم يتورّع عن تقتيل أهل البيت واستئصالهم والتّمثيل بهم خاصّة سيّد أهل البيت الحسين حفيد الرّسول، وأبقاهم في العراء دون دفن.

والتّقتيل هو استئصال لقريش والأنصار لم يسبق له مثيل، وهو استئصال لأبناء الصّحابة من التابعين. وقد نفّذ يزيد ما وعده في رسالته لأهل المدينة مع النّعمان بن بشير[1]: «وأيم الله لئن وضعتكم تحت قدمي لأطأنكم وطأة أجعلكم بها أحاديث تُؤثر مع أحاديث عاد وثمود»[2]. لقد ركّز يزيد بن معاوية بذلك خطاباً إيديولوجيّا مبنيّاً على خلافة الله وعلى المعجم القرآني، بما أنّ الخليفة سيقضي على تمرّد أهل المدينة كما ألحق الله العقاب بالشّعوب الضّالة من عاد وثمود. وبقيت ذكرى عقوقهم مخلّدة في القرآن عبرة لمن يعتبر. فهذه القرابين البشريّة ضروريّة لتتطوّر السّلطة وتركّز ذاتها. وهي السّلطة الأكثر أرستقراطيّة في قريش، تمتدّ جذورها الأرستقراطيّة إلى الجاهليّة. «فبنو عبد شمس هم بيت قريش لكثرة عددهم. وحافظت سلالة عبد شمس وبنو أميّة على الشّرف المتأتّي من التّجارة في الجاهليّة والشرف التّليد المتأتّي من انحدارهم من قصيّ. وقد استرجع ابو سفيان رئاسة أبيه بعد بدر وبعد موت ذوي الأسنان من قريش، وليس من الصّدفة أنّ أوّل بيت حاكم في الإسلام كان من بني أميّة»[3].

وقد أفزع هذا التطوّر في عنف الدّولة وإباحة الحرمات من كان موجوداً من الصّحابة حيث هرب أبو سعيد الخدري[4]، وكان هذا الصحابيّ شاهد عيان على الحرّة، وهو من أكثر الصّحابة من الأنصار حديثاً وأفتى مدّة، وبايع الرّسول على أن لا يأخذه في الله لومة لائم ممّا جعله يبدي بآرائه طوال حياته بكلّ صراحة أمام

---

(١) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٣٩.

(٢) التوبة ٩/ ٧٠ ﴿ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود﴾.

(٣) هشام جعيط، *تاريخيّة الدّعوة المحمّديّة في مكّة*، ص٥٨ ـ ٥٩.

(٤) ابن سعد، *مصدر مذكور*، ج١، ص٣٠٣ ـ ٣٥٦، ج٢، ص١٧١؛ ج٣، ص١٩١؛ ج٤، ص١٤٥ سعد بن مالك بن سنان الأنصاري الخزرجي الخدري.

عمر بن الخطّاب ومروان بن الحكم ومعاوية إذ قدم عليه وهو خليفة بدمشق، وتوفّي سنة ٧٤هـ.

واحتمى بكهف في الجبل[١]، فرآه رجل من جند الشّام فتبعه ودخل عليه وهو متقلّد سيفه، وهاجمه الشاميّ فقال له: ﴿لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين﴾[٢]. فسأله الجندي من هو؟، فأعلمه أنه أبو سعيد الخدريّ، فقال له الشاميّ: صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلّم؟. فأجابه بنعم، فانصرف عنه أو أنه قال له بأن يذع له[٣].

ويذكر البلاذري أنّ الشّاميّ الذي هاجم أبا سعيد الخدريّ هو يزيد بن شجرة الرُّهاوي[٤]، بينما يذكر ابن سعد أنّه قُتل هو وأصحابه في البحر سنة ٥٨هـ في خلافة معاوية. وعلى هذا الأساس لا نعتقد أنّ هذا الخبر صحيح، لكنّنا متأكّدون من نجاح هذا الصحابيّ بفضل الخطاب القرآنيّ من منع الشاميّ من قتله تعظيماً لمكانته. وربّما كان الصحابيّ الوحيد الذي هرب من القتل.

يبيّن هذا الخبر أنّ أهل الشام كانوا جند الطّاعة وكانوا ينفّذون أوامر الخليفة وقائد الجيش الأموي. فعتّم على الصّحابة وعلى ذكرى الرّسول في إطار الإيديولوجيا الأمويّة. وجُرّد الصّحابة من هالتهم المقدّسة، وقُتلوا في إطار معاقبة المدينة وأهلها. وكانت الحرّة صدمة في الضّمير الإسلامي لاستهدافها هذه الجماعة الميتاـ تاريخية تدعيماً لإيديولوجيا الدّولة وتركيزاً لسلطة الخليفة.

وتفقد مسلم بن عقبة المُرّي ومروان بن الحكم القتلى[٥] بعد الحرّة، ويتنزّل هذا التفقد في إطار التلذّذ بالانتصار على أهل المدينة وإذلالهم لخروجهم عن السّلطة

---

(١) ياقوت، معجم مذكور، ج١، ص١٠٩: لعله جبل أحد: وهو في شمال المدينة، ويبعد عنها ميلا. وفيه كانت غزوة أُحد.

(٢) المائدة / ٢٨.

(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٥ ـ ٣٥٤.

(٤) ابن سعد، مصدر مذكور، ج٧، ص٣١٠.

(٥) ابن سعد، مصدر مذكور، ج٥، ص١٣٠.

الأمويّة ورفضهم الدّخول في الطّاعة. وبعد انقضاء الأيام الثلاثة على إباحة المدينة، دخل مسلم بن عقبة المدينة ودعا النّاس للبيعة بقباء[1]، وأمرهم أن يُبايعوا على أنّهم خول للخليفة يزيد بن معاوية يحكم كما يشاء في دمائهم وأموالهم وأهليهم[2]. فما معنى هذا؟. قد أجبر مسلم المدنيّين على تجديد البيعة ليزيد وأضاف صيغة إهانة يصرّح خلالها المبايع على أنّه عبد للخليفة بحيث يمكنه بيعه وبيع ممتلكاته!

يعتبر هذا الإجراء الثّاني بعد إباحة المدينة ونهبها، وهو إجراء يهدف إلى إذلال أهل المدينة وحملهم على الطّاعة في صيغة مُذلّة ومُهينة. وهو تعبير على أنّ الخليفة وقائده العسكري كانا يُركّزان الملك الأموي. فالفرد أصبح تابعاً للسّلطة في شخصه وممتلكاته ومصيره. وهذا تطوّر جديد في طبيعة الدّولة المسيطرة والمهيمنة. وعلى هذا الأساس، كانت الحرّة منعرجاً هاماً في سياسة الخليفة يزيد بن معاوية حيث فرض الطّاعة على القرشيّين وأهل المدينة بالقتل المبرم والإذلال وفرض طاعة الخليفة كأساس إيديولوجي هامّ. وطُلب الأمان لرجلين من قريش: ليزيد بن عبد الله بن زمعة بن الأسود بن المطّلب بن أسد بن عبد العُزّى ومحمد بن أبي جهم بن حذيفة العدويّ. ويزيد بن عبد الله بن زمعة بن الأسود بن المطّلب بن أسد بن عبد العُزّى[3] ابن زينب بنت أبي سلمة. وجدّته أمّ سلمة زوج الرّسول[4]. وقد كان ابن زمعة صديقاً ليزيد فأراد البيعة على كتاب الله وسنّة نبيّه وعلى أنّه ابن عمّ الخليفة[5].

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٩١/ البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٨؛ ياقوت، معجم مذكور، ج٤، ص٣٠١: أصله اسم بئر عُرفت القرية بها، وهي مساكن بني عمرو بن عوف من الأنصار. وقد قبوت الحرف إذا ضممته. والقبو هو الضمّ والجمع. وهي قرية على ميلين من المدينة على يسار القاصد إلى مكّة بها أثر بنيان كثير وهناك مسجد التّقوى.

(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٥٣.

(٣) مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص٢٢٢.

(٤) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٦؛ مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص٣٣٨.

(٥) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٥٣.

وفي رواية أخرى[1] اراد ابن زمعة مبايعته على سنّة عمر. وهنا نلاحظ إحياء القرشيّين لسياسة الخليفة عمر بن الخطّاب ورفض البيعة ليزيد، فابن زمعة يعترف بالقربة الّتي تربطه بالخليفة يزيد بن معاوية لكنّه لا يعترف به كخليفة وهو رافض للبيعة. وعلى هذا الأساس، رفض مسلم بن عقبة رفضاً باتّا مطلبه وطلب منه أن يبايع أمير المؤمنين على أنّه «عبد قِنّ يحكم في ماله ودمه»[2].

لكنّ مسلم بن عقبة ضرب عنقه حتّى لا يشهد شهادة على الخليفة، فقد قدم يزيد بن عبد الله على الخليفة وأكرمه ورجع إلى المدينة ففجّره وشهد عليه بشربه للخمر. وأتي بمحمد بن أبي جهم بن حذيفة (من بني عويج بن عديّ بن كعب)[3] وهو أحد الرؤوس يوم الحرّة[4]، وأراد ابن أبي الجهم أن يبايع مسلماً على كتاب الله وسنّة نبيّه[5]، لكن ضرب عنق هذا الشّريف القرشيّ حتّى لا يشهد على الخليفة يزيد بن معاوية شهادة زور أبداً[6].

لقد هتك مسلم بن عقبة حرمة قريش وحرمة القرابة والرّحم لتأكيد ملك الخليفة يزيد بن معاوية. فتركيز الطّاعة والجماعة كانت أساسيّة خاصّة أنّ هذين الشّريفين خرجا عن الطّاعة وشهدا شهادة زور ضدّ الخليفة بعد أن أكرمهما.

وقد كان مروان بن الحكم جالساً مع مسلم بن عقبة على سريره[7] عند بيعة النّاس له، أي أنّ انتماءه لبني أميّة ومشاركته مشاركة فعّالة في دخول مسلم إلى المدينة انهزام أهلها جعلت منه طرفاً هاماً حاضراً في بيعة النّاس لمسلم بن عقبة. فاستنكر ما فعله برجلين من قريش أتياه ليؤمّنهما فضرب أعناقهما. فنخس مسلم بن

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٩٣.
(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٦.
(٣) مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص٣٧٠ ـ ٣٧١؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج١٠، ص٤٨٤.
(٤) ابن سعد، مصدر مذكور، ج٥، ص١٣٠.
(٥) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٩٢.
(٦) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٧.
(٧) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٩٣.

عقبة جنبه بالقضيب في خاصرته، وتهدّده بالقتل إذا قال مثل قول القرشيّين[١]. كما طلب مروان لصهر بينه وبين يزيد بن وهب بن زمعة[٢] من مسلم بن عقبة أن يؤمّنه. لكنّه لم يمتثل وأمر بمروان فوُجئت عنقه[٣].

يبدو مسلم بن عقبة ممثّل للخليفة في مظاهر الملك السّرير والطّنفسة والقضيب، فقد تحوّلت مظاهر الملك إلى القائد العسكري ليزيد بن معاوية. وفي ذلك دلالة على تطوّر الملك في فترة يزيد، فالقائد العسكري كان ينفّذ أوامر الخليفة بكلّ طاعة، ومركز السّلطة بيده، فلم يكن باستطاعة أحد من رجال قريش وأساساً من بني أميّة التدخّل في قرارات القائد. كما نزع مسلم بن عقبة المرّي الحُرمة عن قريش في الحرّة بإحلال دمهم لخروجهم عن طاعة الخليفة، إذ ارتكبوا كلّ «المعصيات» على حساب سلطة الخليفة يزيد بن معاوية وخرجوا عن الطّاعة وفرّقوا الجماعة: رفض الامتثال لعامل الصّوافي الذي يستغلّ أراضي معاوية ثمّ يزيد على حساب أهل المدينة (تجريدهم من ثرواتهم وافتكاك مياههم)، والتّعتيم على أخلاقيّة يزيد بن معاوية من قبل أشراف المدينة الذين أكرمهم يزيد فشهدوا عليه شهادة زور. واكتملت «معاصي» أهل المدينة بطردهم وإجلائهم لبني أميّة ومواليهم ورجال قريش الموالين لهم المستقرّين بالمدينة وهم قرابة ١٠٠٠ رجل.

كما أتى عمرو بن مُحرز الأشجعيّ بمعقل بن سنان الأشجعيّ[٤] (وهو ابن عمّ مسلم بن عقبة المريّ[٥]، وكان صديقاً له قبل ذلك[٦])، فأجلسه معه على الطنفسة (وهي تشبه السّرير) وطلب منه إن كان يُريد أن يشرب، فأمر مسلم أن يُكرم معقل بن سنان بشربة عسل ممزوجة بالثّلج الذي أتى به مقاتلة الشام. فدعا معقل

---

(١) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٩٢.
(٢) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٩٣.
(٣) ابن منظور، *معجم مذكور*، ج٣، ص٨٧٧: وجأهُ في عنقه، ضربهُ.
(٤) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٩٢؛ ابن دريد، *مصدر مذكور*، ص٢٧٦.
(٥) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٤٧.
(٦) الطّبري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٤٩٢.

للقائد أن يشرب شراباً من شراب الجنّة، لكنّ مسلم بن عقبة دعا عليه ألاّ يشرب شراباً بعدها إلاّ من جهنّم! وذكّره عندما كانا صديقين ولاقاه بطبريّة[1]، بأنّه خرج من عند يزيد ـ بعدما أكرمه ـ قائلاً بأنّه وجد الفاسق ابن الفاسق يشرب الخمر، وأنه سيخلعه عندما يرجع إلى المدينة ويبايع لرجل من أبناء المهاجرين. فقرّر حينها عقبة أن يقتل ابن عمّه عندما يلقاه في حرب.

فلماذا لم يقتله في ذلك الحين؟ ربّا أراد أن يقتله وهو متلبّس «بجريمة» الخروج عن الطّاعة. ثمّ ذكّره بأنّ أشجع وغطفان ليس لديهم دخل في الخلع والخلافة، وضرب عنقه. وبذلك هتك مسلم بن عقبة حرمة الرّحم الّتي تربطه بابن عمّه. كما هتك حرمة الأمان كقيمة انتروبولوجيّة هامّة في الجاهليّة والإسلام، فقد أن شرب ابن عمّه ظنّا منه أنّ ذلك يحرّم قتله، لكنّ مسلم بن عقبة قتله. وهذا جديد في الثّقافة الانتروبولوجيّة للعرب لأنّ الدّولة سعت إلى كسر كلّ التّقاليد الّتي تمنعها من اختراق الأفراد والجماعات. ووضع مسلم بن عقبة نفسه بمنزلة يزيد فهو ممثّل لسلطة خليفة الله، وعلى هذا الأساس، استحقّ معقل بن سنان العقاب الإلهي على عقوقه للخليفة. كما أنّه، ورغم انتمائه إلى غطفان، رأى من موقعه كرجل دولة يحترم الطّاعة والجماعة أنّ ابن عمّه جدير بالقتل لخروجه عن الطّاعة. واعتبر مساهمة معقل بن سنان الأشجعي في ثورة أهل المدينة تطاولاً على الدّولة الأمويّة وعلى الأمويّين الذين ينتمون إلى قريش. وعلى هذا الأساس، ركّز مسلم بن عقبة الخطاب الإيديولوجي للدّولة الأرستقراطيّة.

يُعتبر مسلم بن عقبة المُرّي موظّفاً من موظّفي الدّولة الأوفياء، فهو يركّز سلطة الخليفة يزيد بن معاوية وإيديولوجيا الدّولة الأمويّة فوق كلّ حساب. وقد خدم الدّولة بكلّ تفان على حساب الحرمة حرمة قريش وعلى حساب القرابة (قرابة

---

(١) ياقوت، معجم مذكور، ج٤، ص١٧ ـ ١٨ ـ ١٩: «طَبَرَ: في العربيّة بمعنى قفز واختبأ، وهي بليدة مطلّة على البحيرة المعروفة ببحيرة طبرية وهي في طرف جبل وجبل الطور مطلّ عليها وهي من أعمال الأردنّ في طرف الغور بينها وبين دمشق ثلاثة أيّام».

معقل بن سنان له). فمكّن بذلك الخليفة يزيد بن معاوية من تأكيد سلطته.

وقد رثى الشّاعر معقل بن سنان الأشجعي وهو شريف من أشراف أشجع، فكان الشّعر وسيلة من وسائل تخليد الذّكرى ذكرى رجال القبائل ضدّ سلطة الدّولة الأمويّة. وهو عنصر من عناصر الثّقافة الجاهليّة لكنّه لعب دوراً في الفترة الأمويّة:

ألا تلكُمُ الأنصارُ تبكي سراتَها وأشْجعُ تبْكي مغْقِل بن سِنان.

ولم يكن عليّ بن الحسين على علم بما أوصى به الخليفة يزيد بن معاوية مسلم بن عقبة[1]. فقد أتى مروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان[2] بعليّ بن الحسين، وهو يمشي بينهما ليطلبا له الأمان من مسلم بن عقبة. وجلس عنده بينهما، فدعا مروان بشراب ليتحرّم به من مسلم. فشرب مروان قليلاً وأعطى لعليّ بن الحسين الذي سأله مسلم إن كان يشرب من شرابهم؟، فارتعد عليّ بن الحسين، ولم يأمنه على نفسه، وأمسك بالكأس لا يشربه ولا يضعه، فكلّمه مسلم قائلاً إنّ الخليفة أوصاه به، وإن كان الأمر لهما لقتلهُ. ثمّ أجلسه في السّرير معه، وطلب منه أن يشرب الشّراب الذي في يده أو يدعو له بغيره[3]، فشرب شرابه ذلك. وأمره بالعودة إلى أهله حتى يطمئنّوا عليه، واعتذر له عن الإبطاء عن إكرامه لانشغاله بالخبثاء أي أهل المدينة، ثمّ أمره بالانصراف وجزاه خيراً[4]. ويبدو من ذلك أنّ مروان بن الحكم كان حريصاً على تطبيق القيم الجاهليّة في الجوار وهي أن يشرب هو وعبد الملك وعليّ بن الحسين من شراب مسلم بن عقبة ليحرم قتله. وهذا دليل على قوّة هذه الرّوابط في الفترة الأمويّة. لكنّ رجال الدّولة أصبحوا يتصرّفون في هذه المبادئ حسب مصلحة الدّولة. وقد بدا تخوّف مروان وعبد الملك من ردّ فعل مسلم العنيف تجاه قريش وقتله لهم على عليّ بن الحسين.

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٨٥.
(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٨٣؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٧ ـ ٣٤٨.
(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٩٣.
(٤) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٨.

وأرادا إنقاذه عن طريق الجوار لكنّ مسلم احترم أمر الخليفة ونفّذه وقرّب عليّ بن الحسين بإجلاسه على سريره وإكرامه.

على هذا الأساس، حاول مروان بن الحكم وعبد الملك أن يلعبا دوراً في البيعة بعد إباحة المدينة، لكنّ مسلم بن عقبة ركّز السّلطة بيده، وتصرّف بمقتضى أوامر الخليفة. ويُعتبر هذا المثال من بين الأمثلة القليلة التي تمكّن صاحبها (وهو من قريش) من أن يبقى على قيد الحياة ولا يشمله القتل.

كما شمل عفو القائد شريفاً آخر من قريش ومن بني هاشم وهو عليّ بن عبد الله بن عبّاس. فقد أرسل مسلم بن عقبة المرّي إلى عليّ بن عبد الله بن عبّاس ليدخل في البيعة وينزل على حكم يزيد بن معاوية، فرأى فسطاطاً سأل عنه فقيل له إنّه فسطاط الحصين بن نمير بن ناتل السكّوني، فأتاهُ فاستجار به فأجاره بدافع الخُؤولة لأنّ أمّ علي بن عبد الله كِنديّه. ودافع الحصين بن نمير عن عليّ بن عبد الله بن عبّاس ضدّ رسل مسلم بن عقبة ومنعهم جند حمص تعصّباً للحصين بن نمير. وضربوهم بالسّياط حتّى تركوه[1]. ويبدو أنّ الحصين بن نمير السكّوني اشترط أن يُبايع ابن اختهم عليّ بن عبد الله بن عبّاس على ما يُبايع عليه عليّ بن الحسين، على أنّه ابن عمّ أمير المؤمنين «وإلاّ فالحرب بيننا»[2]. ووافق مسلم بن عقبة على أن يبايعه عليّ بن عبد الله على السّمع والطاعة.

وقد بيّن هذا الخبر أنّ الحصين بن نمير لعب دوراً أساسيّاً في تقديم عليّ بن عبد الله البيعة حسب ما تقتضيه العادة أي على السّمع والطّاعة ودون إذلال مثلما تعرّض له بقيّة الأشراف بالمدينة قبل تقتلهم فقد أجبروا على البيعة على أنه عبيد للخليفة يتصرّف فيهم وفي أملاكهم ويبيعها كما شاء. وكان عليّ بن عبد الله رافضاً لهذه الصّيغة المهينة، وكان جوار الشريف الشّامي أساسيّاً له بدافع الرّحم. وعلى هذا الأساس، كان الجوار والرّحم عاملان أساسيّان في إنقاذ هذا الشّريف القرشي من

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٨.

(٢) المبرّد، مصدر مذكور، ج١، ص٢٦٠ ـ ٢٦١.

بطش مسلم بن عقبة. كما أنّ التعصّب القبلي للسكّون أنقذ عليّ بن عبد الله من براثن رجال مسلم. لكنّ مسلم بن عقبة لم يستثن ابن الخليفة عثمان بن عفّان، فقد دعا بعمرو بن عثمان بن عفّان وكان ممّن رجع من بني أميّة إلى المدينة، ورفض أن يخبر مسلم بن عقبة بخبر أهل المدينة، فتهدّده بالقتل ولولا أنّه ابن عثمان، وذكر لأهل الشّام بأنّ هذا الخبيث ابن الطّيب إذا ظهر أهل المدينة قال إنّه منهم، وإذا ظهر أهل الشّام قال إنّه منهم. وكلّف غلاماً ينتف لحيته، وعيّر أمّه وكانت من دوس[1] بأنّها ورهاء. ويدخل التّعبير بالأمّ في إطار ثقافة جاهليّة لتحقير الخصم. ويبدو أنّ مسلم بن عقبة ذهب إلى حدّ ضرب عمرو بن عثمان بالسّياط وعايره بقوله إنّه هو ومقاتلة الشّام كانوا يدافعون عن دولتهم وهو كان يضيّعها[2]. وتدخّل مروان بن الحكم لفائدته على أساس أنه ابن عمّه، فأجابه مسلم بن عقبة بأنّ معقل بن سنان هو أيضاً ابن عمّه لكنّه قتله.

لقد طبّق مسلم بن عقبة عقابه على كلّ الخارجين عن السّلطة ولم يستثن ابن الخليفة عثمان بن عفّان الذي رفض الامتثال لأوامره. وهذه الممارسات تعتبر ممارسات جديدة بما أن أفراد العشيرة الأمويّة أنفسهم يُطبّق عليهم عقاب مسلم بن عقبة القائد المكلّف من قبل الخليفة بهذه المهمّة العسكريّة الجديدة من نوعها. وبعد أن طبّق مسلم بن عقبة سياسة الخليفة يزيد بن معاوية في معاقبة أهل المدينة على عصيانهم وخروجهم عن السّلطة الأمويّة، خرج إلى مكّة لمحاربة ابن الزّبير، وكان خروجه من المدينة ١٥ من محرم سنة ٦٤هـ/ ١٣ سبتمبر ٦٨٣م. وعيّن مسلم بن عقبة روح بن زنباع الجذامي، وهو أحد أشراف الشّام، على المدينة قبل رحيله لمحاربة ابن الزّبير[3]، وبذلك فقد ركّز سلطة ذات طابع إقليمي بما أنّه عيّن

---

(١) ابن حزم، مصدر مذكور، ص٣٧٩: دوس هي من الأزد؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٧؛ الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٩٤.

(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٧.

(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٩؛ الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٩٦.

شريفاً شامياً. ونستبعد أن يكون قد عيّن عمرو بن محرز الأشجعيّ على المدينة حسب رواية للواقدي[1]. ويرجع هذا إلى تركيز الإيديولوجيا الإقليميّة في واقعة الحرّة إذ هاجم جيش الدولة الأموية أي جند الشام المدينة وأهلها، وهي أوّل مرّة يهاجم فيها جيش الشّام مسلمين وبالتّحديد مدينة الرّسول. فهذا الشّريف الشّامي كان حريصاً على طاعته للخلفاء الأمويّين وعلى الاستماتة في سبيل فرض الطّاعة والحفاظ على وحدة الجماعة من الفتنة والانشقاق والانقسام.

ويبدو أنّ مسلم بن عقبة عرف مصيراً بشعاً بعد الموت، فقد ذكر أشياخ أهل المدينة[2] أنّه لحقه ثأر أمّ ولد ليزيد بن عبد الله بن زمعة، وكانت بُخاريّة[3] في مجموعة من غلمانها، ووقفت على قبر مسلم وقالت له بأنّه خرّب البيوت وأحرق القلوب، فنبشت قبره واستخرجت الجثّة وصلبتها على نخلة. وبذلك يبدو أنّ مسلم بن عقبة عوقب من قبل أحد نساء يزيد بن عبد الله (أحد أشراف قريش الذين قتلهم مسلم صبرا)، فقد مثّلت بجثّته انتقاماً وثأراً لزوجها، لكنّها ثأرت لأهل المدينة جميعاً أي أهل الحرّة بهذا التشنيع بالجثّة.

لقد أصبح أهل الحرّة القتلى وابن الزّبير الخارج عن سلطة الخليفة يزيد بن معاوية سلاحاً إيديولوجياً استعمله حسّان بن مالك بن بحدل خال يزيد بن معاوية في الفتنة الثانية بعد موت يزيد ودخول الشّام في حالة فوضى. وكان هذا السّلاح وسيلة بيد حسّان بن مالك لإبقاء أهل الأردنّ حلفاء للسّفيانيّين في خضمّ الفتنة الزّبيريّة وتحالف القبائل القيسيّة مع ابن الزّبير. فشهدوا بأنّ ابن الزّبير منافق، وقتلى أهل الحرّة في النّار[4]. وبالتالي سعى سيّد كلب وخال يزيد إلى تقوية

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٩٦.

(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٩ ـ ٣٥٠ ـ ٣٥٤ ـ ٣٥٥.

(٣) ياقوت، معجم مذكور، ج١، ص٣٥٣: «بخارى: من أعظم مُدن ما وراء النهر وأجلّها، يُعبر إليها من آمل الشّطّ، وبينها وبين جيحون يومان من هذا الوجه، وكانت قاعدة ملك السّامانية.

(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٥٣١.

الخطاب الإيديولوجي الأموي أي الإقليميّة وتأكيد شرعيّة يزيد التاريخيّة في قتل أهل الحرّة.

خاتمة:

أحدثت مجزرة الحرّة صدمة ثانية في الضّمير الإسلاميّ بعد الصّدمة الأولى، صدمة كربلاء الّتي قُتل فيه الحسين وأهل بيته وأصحابه الأوفياء. فقد ركّز الخليفة يزيد بن معاوية سلطته الجديدة الّتي تخلّت نهائياً عن الحلم السّفياني المشهور أي حلم الخليفة معاوية بن أبي سفيان، فكانت سلطته تشبه سيّد القبيلة رغم تأسيسه للدّولة الأمويّة وسنّه لمبدأ الحكم السّلالي. وابتدأ يزيد سياسة جديدة ترتكز على تأكيد الملك الذي يقوم بحدّ السّيف، وكان هذا السّيف هو جند الشّام حيث تربّى يزيد بين أظهرهم. فسلّطهم على أهل المدينة ـ مدينة الرّسول ـ الّتي سقطت حرمتها وحرمة الرسول معها بإباحة مسلم بن عقبة لها بعد الانتصار في الحرّة، وقضي كذلك على حرمة قريش وأبناء المهاجرين والأنصار فهتكت حرمة السّابقة والقدمة وحرمة الجماعة الميتا ـ تاريخيّة. ووضع يزيد بذلك أسس الدّولة الإقليميّة الّتي سيؤكّدها الخليفة عبد الملك بن مروان. كما وضع أسس الدّولة القاهرة والمتّبعة للقوّة المبرمة لتفرض وجودها أوّلا أمام القوى الإسلاميّة التقليديّة. فوضع بذلك أسس الدّولة المتجبّرة الّتي سيُحييها عبد الملك من رمادها ويُعيد بناءها من جديد على أنقاض دولة يزيد بن معاوية.

كان الخليفة يزيد بن معاوية ـ على عكس ما رُوِّج عنه من سكر وعربدة من قبل القرّاء وأعدائه السياسيّين من الشيّعة وثوّار أهل المدينة، وابن الزّبير ـ، كان رجل سياسة ورجل دولة على قردة كبيرة من المقدرة، ففصل بين الدّيني والسّياسي وتعرّض لكلّ المحرّمات فانتهكها في سبيل إبقاء الدولة قويّة ومسيطرة على الأوضاع. فركّز الإيديولوجيا الأمويّة كالطّاعة والقصاص للخليفة المظلوم عثمان والتّعتيم على القرآن والسنّة. حتّى أعجبت به المصادر البيزنطيّة وأطنبت في

الحديث عن مقدرته وحزمه، لنجد صدى ذلك في كتابات فلهاوزن ولامنس[1].
وكانت هذه المجزرة لأبناء الصّحابة والتّابعين من المهاجرين (من قريش) ومن الأنصار تعبيراً قوياً عن أزمة تطوّر للدّولة، فقد أثرى معاوية على حساب أهل المدينة باستصفائه للأراضي، وأصبح من كبار الملاكين العقاريّين. وأشرك أهله من بني أميّة في هذه الثّروات بتعيينهم كولاة على الحجاز، فعيّن مروان بن الحكم وسعيد بن العاص. لكنّ الشّخص الأساسي والمسؤول عن تصاعد الأزمة بين الأمويّين في دمشق وأهل المدينة ـ بعد أحقاد وتجاوزات دامت فترة معاوية الذي خنق حركة التّململ في المدينة بشراء الضّمائر والحلم ـ هو عمرو بن سعيد الأشدق حين طفت هذه التراكمات في فترة يزيد. فقد كان تكبّره واحتقاره للقرشيّين أساساً والأنصار بالمدينة أوّل هتكٍ لحرمة قريش، كما أنّه أثرى إثراء كبيراً على حساب أهل المدينة. وكان أوّل من هتك حرمة مكّة والكعبة وقريش وعلاقات الرّحم عندما أرسل جيشاً لجوف الكعبة قاده عمرو بن الزّبير ضدّ أخيه عبد الله بن الزّبير ليجبره على البيعة، وكان لهذه البعثة العسكريّة تبعات هامّة منذ قتل عمرو شرّ قتلة من أخيه، وفشل الأمويّون في فرض البيعة على ابن الزبير.

فكانت هذه السّياسة المتكبّرة والمتغطرسة لعمرو بن سعيد الأشدق وإثراؤه على حساب أهل المدينة إضافة لإثراء معاوية (الذي أورث ثروته ليزيد يستغلّها) وتحكّم موالي معاوية في هذه الثّروات الخاصّة ليزيد، والتّلاعب بأسعار القمح من قبل الخليفة معاوية ثمّ الخليفة يزيد على حساب أهل المدينة، قد أدّت إلى هذه الأزمة الكبيرة بين أهل المدينة ويزيد.

وتبع هذا تطوّر الدولة في عهد يزيد وهو تطور ثان بعد فترة معاوية وفترة بناء ثانية لدولة ذات طابع ملكي يمسك بزمامها شابّ طموح وحريص على فرض سلطتها وإيديولوجيّتها. وكان لا بدّ لهذا الملك الشّاب أن يصطدم بكلّ هذه

---

(1) *E. I²*, article Yazid ibn Muâwiya (G. R Hawting).

الصّعوبات الّتي انفجرت في سلسلة من القنابل، أوّلها مشكلة الحسين بن عليّ ثمّ ثانيها ثورة أهل المدينة.

كما كانت سياسة الدّولة الإقليميّة قائمة على محاباة أهل الشّام على مستوى العطاء لا تخفى على أهل المدينة الذين كان عليهم أن يرضوا بمقادير يفرضها الخليفة ولا تتماشى مع إثراء الأمويّين. وأحسّ القرشيّون والأنصار بحيف كبير وتهميش سياسيّ واقتصاديّ ابتدأ منذ فترة معاوية وتوصل بقوّة في فترة يزيد متماه مع تطوّر الملك، فهبّوا في وجه يزيد الذي قتلهم شرّ قتلة من باب الدّفاع عن سلطانه الخاصّ ونفوذه السياسي كرجل دولة.

لكنّ المصادر الإسلاميّة خاصّة منها الشيعيّة لم تغفر ليزيد بن معاوية هذا الهتك للحرمات، وألصقت به أشنع التّهم، ولم تتفهّم شغفه الكبير بالسّياسية الّتي أفرزتها الفتنة الأولى، وتركيزه لهذا السّياسي في الفتنة الثانية. ففي تركيزه للدّولة، كانت ليزيد بن معاوية الشّجاعة والتحدّي لضرب كلّ الحرمات ابتداء من التقتيل والتمثيل بأجساد الحسين وأهل البيت مروراً بإباحة مدينة الرّسل وتقتيل القرشيّين والأنصار شرّ قتلة. وقُضي نهائياً على الطموحات السياسيّة لأبناء المهاجرين والأنصار بالمدينة، وأصبحت المدينة طيلة القرن الأوّل هجريّة مركزاً هاماً للحديث والشّعر والغناء. وقد تزايدت على هذا الأساس العداوة بين السّلطة الأمويّة وأهل المدينة بعد واقعة الحرّة. واكتست هذه العلاقة طابعاً متوتّراً طيلة الفترة الأمويّة. وتزايد الصّراع بين الدّيني والسّياسي في فترة يزيد بن معاوية، وتصاعدت أصوات الفتنة لأنّ يزيد بن معاوية لم يتوقف عند هذا الحدّ من التّعنيف للمقدّسات الدّينيّة والحرمات بل عمد إلى مهاجمة ابن الزّبير في جوف الكعبة، وكان هذا الحصار قمّة ما وصلت إليه سياسة يزيد من قهر الدّولة وتركيزها للملك وللإقليميّة الشّاميّة، ومن ضرب لحرمة مكّة والكعبة وهتك لحرمة قريش وأبناء الصّحابة.

الفصل الثالث غزو الكعبة

يمثّل غزو الكعبة آخر مرحلة في معاقبة الخليفة يزيد بن معاوية لابن الزّبير[1]، ومحاولة القضاء عليه قضاء مبرماً لإلحاده بالحرم، فقد تمثّلت المحاولة الأولى في إرسال جيش من قبل والي المدينة عمرو بن سعيد الأشدق لإجبار ابن الزّبير على البيعة ليزيد والإتيان به في جامعة ليبرّ قسم الخليفة. وكان قائد الجيش صاحب شرطة عمرو بن سعيد وأخو ابن الزّبير نفسه.

واضطرّ الخليفة يزيد بن معاوية للمرّة الثانية إلى إرسالة جيش إلى الكعبة لمحاربة ابن الزّبير، لكنّه هذا الجيش هو جيش أهل الشام طبقاً لوصيّة معاوية. ويعتبر هذا البعث قد مسّ الحرمات وهي ثالث حرمة بعد قتل الحسين بن علي حفيد الرّسول وغزو المدينة مدينة الرّسول وإباحتها، واخيراً غزو الكعبة وضربها بالمنجنيق. ويعتبر غزو الكعبة ذروة التعنيف والاعتداء على الحرمات وأعلى درجة من العنفي الدّيني.

وكان يزيد حافظاً لوصيّة معاوية: «.. وأمّا الذي يَجثِم لك جُثومَ الأسد، ويُراوغك مراوَغة الثعلب، فإذا أمكنته فرصة وثب، فذاك ابن الزبير، فغن هو فعلَها بك فقدَرت عليه فقطّعه إرْباً إرْباً»[2].

---

(1) *E.I²*, artic. 'Abd allah Ibn aL-Zubayr.

(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٢٣.

موت مسلم بن عقبة وتحوّل الحصين بن نمير إلى مكّة

طلب مسلم بن عقبة من أهل المدينة أن يدخلوا في الطاعة، ليُقاتلوا الملحد الذي جمع إليه المُرّاق والفسّاق[١] (والمقصود بهم الخوارج)، فقد كانت وجهة مسلم بن عقبة منذ البداية المدينة ثمّ مكّة.

وحجّ ابن الزّبير بالنّاس وكان يسمّي نفسه العائذ ويرى الأمر شورى[٢]. ووصل الخبر أهل مكّة في ليلة هلال المحرّم، وكان سعيد مولى المسور بن مخرمة هو الرّاوية فخبّرهم بما فعل مسلم بأهل المدينة فأكبروا ذلك وبدأوا يستعدّون للقتال إذ عرفوا أنّه سيأتيهم. فهل هرب هذا المولى من المدينة؟. وقصد مسلم بن عقبة المرّي مكة وهو يرتجز:

خُذها إليك أبا خُبيبٍ إنّها حربٌ كناصية الجَواد الأشقر[٣]

يبدو أنّ مسلم بن عقبة المُرّي كان متحمّساً قبل موته لقتال ابن الزّبير، ويبدو الشّعر وسيلة من وسائل تشجيع الجنود على القتال، كما يبيّن وجود الشّعر تواصل الثّقافة الجاهليّة في الفترة الأمويّة.

لمّا وصل مسلم بن عقبة المُرّي إلى المُشلّل[٤] أو إلى ثنيّة هرْشا[٥]، حضره الموت، فأرسل إلى رؤوس الأجناد أي أمراء الأجناد وهم أشراف القبائل الشّاميّة، فذكر لهم أنّه إن مات فهو يستخلف عليهم الحصين بن نمير السّكوني[٦]. ولم يكن

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٨٧.
(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٩٤.
(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٥٥.
(٤) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٩؛ الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٩٦؛ ياقوت، معجم مذكور، ج٥، ص١٣٦: المشلل: الشلُّ: الطّردُ: وهو جبل يهبط منه إلى قديد من ناحية البحر؛ ياقوت، معجم مذكور، ج٤، ص٣١٣: قُديد: اسم موضع قرب مكّة.
(٥) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٩٦؛ ياقوت، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٩٧ ـ ٣٩٨: هَرْشى: يقال رجل هرش وهو الجافي المائق. وهي ثنيّة في طريق مكّة قريبة من الجحفة يرى منها البحر ولها طريقان فكلّ من سلك واحداً منها أفضى به إلى موضع واحد.
(٦) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٩٦.

مسلم بن عقبة يريد تعيين الحصين بن نمير ووصفه بالأعرابيّ الجافي والجلف[1]، وسمّاه «بابن بردعة الحمار»، لولا طاعته عهد الخليفة يزيد بن معاوية في توليته أمر الجيش، وهو يكره مخالفته عند الموت. ولولا ذلك لعيّن حُبيش بن دُلجة القيني[2]. ويؤكّد هذا الخبر وجود «مجلس عسكريّ أعلى» متركّب من أشراف القوّاد العسكريّين الشّاميين الذين يستشيرهم القائد العسكريّ. لكن، ما سبب تفضيل مسلم بن عقبة المرّي لحُبيش بن دلجة؟ هل كان حُبيش بن دلجة أقدر عسكرياً من الحصين؟.

وقال رافعاً يديه إلى الله بأنه لم يغُشّ خليفة في سرّه أو في علانيته، وأنّ أطهر وأحبّ عمل عمله بعد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله قتله أهل الحرّة، «وإن دخل النار بعد ذلك فإنه شقي»[3].

لقد حرص مسلم بن عقبة على تطبيق أوامر الخليفة بمعاقبة أهل الحرّة على عصيانهم وعلى خروجهم عن الطّاعة. وقد عبّر حين احتضر حسب رواية الحصين بن نمير السكّوني عن تديّنه وإيمانه بالله خلافاً لما يُروّج ضدّه. فأكّد أنّه لم يخرج عن طاعة خليفة ولم يفارق الجماعة[4]. وهو بذلك يعتبر من عمّال الدّولة الّذين ركّزوا إيديولوجيّتها وسلطتها.

نصح مسلم بن عقبة المرّي الحصين بن نمير السكّوني عندما سلّم له قيادة الجيش قبل أن يموت بأن لا يُقيم بمكّة لأنها مدينة شديدة الحرارة لا يمكن للخيول أن تعيش فيها (أي خيول مقاتلة الشّام). كما نصحه بألاّ يمنع أهل الشّام

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٥٤.

(٢) البلاذري، ، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٣٩؛ ابن حزم، مصدر مذكور، ص٤٥٤: بنو القين من قضاعة، كان للقين جمع عظيم وثروة في أكناف الشّام، فكانوا يناهضون كلب بن وبرة، ثمّ ضعفوا، ووهن أمرهم. ص٢٢٨: بعث مروان بن الحكم حبيش بن دلجة القينيّ إلى الحجاز، فبعث ابن الزّبير الحنتف، فقتل حبيشاً وأفلت الحجّاج يومئذ، وكان مع حبيش.

(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٩ ـ ٣٥٠.

(٤) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٥٥.

من القتال. ونبّهه من رجال قريش أن يمنحهم ثقته لأنهم خبثاء ويغدرون. كما ذكر له بأنه يقدم على قوم ليس لديهم تحصينات، ولا عدّة، ولا سلاح. ولهم جبال مشرفة عليهم. كما أمره بنصب المجانيق عليهم، وإن عاذوا بالبيت يرمه، ثمّ يُعيدُ بناءه[1]. ونصحه أيضاً بأن يُعمّ[2] الأخبار، ويسرع السّير، ويعجّل في حرب ابن الزّبير. وأمره بألا يُقيم ثلاثة ايّام في مكّة حتى يحارب الفاسق[3]. وأكّد عليه «بالوقاف[4] ثمّ الثّقاف[5] ثم الانصراف»[6].

تبدو أوامر مسلم بن عقبة أوامر سلطة ذات طابع إقليمي تحتلّ وتحارب وتعاقب وتقاتل لكنّها لا تستقرّ في ذلك المكان المسلّط عليه العقاب عقاب الدّولة بل هي تنفّذ أوامر الخليفة ثمّ تغادر إلى الشّام. ويدخل هذا في إطار وصيّة معاوية ليزيد الذي طلب منه أن يستعين بأهل الشّام في إخماد الثّورات ثمّ يرجعهم إلى الشّام حتّى لا يتطبّعوا بطباع جديدة ويحافظون على طاعتهم للخليفة.

كما أنّ مسلم بن عقبة كان حريصاً على إخضاع ابن الزّبير أو تسليط العقاب عليه. ويجب أن يتمّ ذلك في أسرع وقت ممكن لعدّة اعتبارات وهي ارتفاع الحرارة، وعدم احتمال جند الشام والخيول للمناخ الصحراوي لمكّة.

ويبدو مسلم بن عقبة هو صاحب فكرة محاصرة ابن الزّبير وضرب الكعبة بالمنجنيق إذا هو احتمى بها. وبذلك رفع مسلم الحرمة عن الكعبة مثلما وضع الحرمة عن المدينة، وجعل من هدمها بالمنجنيق وسيلة لفرض الطّاعة والجماعة ومعاقبة ابن الزّبير، فهي لم تعد بناء دينياً لديه حرمة، بل بناء يمكن إعادة بنائه. ويُعتبر هذا تجديداً كبيراً على مستوى الممارسة السّياسيّة على حساب الدّيني

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٥٨.
(٢) ابن منظور، معجم مذكور، ج٢، ص٤٢٨: عمّ الأخبار أي لم فعلته وعن أيّ شيء كان
(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٩٧.
(٤) ابن منظور، مصدر مذكور، ج٣، صص٣٦٠: وقف معه في حرب أو خصومة.
(٥) ابن منظور، مصدر مذكور، ج١، ص٢٠: الثّقاف: العمل بالسّيف.
(٦) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٩ ـ ٣٥٠.

والحرام[1] الموجود منذ الفترة الجاهليّة وتواصل في الفترة الإسلاميّة.

وقد أعطى مسلم بن عقبة استراتيجيا عسكريّة للحصين بن نمير بيّن له فيها ضعف عدوّهم ابن الزّبير لأنّه بلا جيش، وليس لديه تحصينات أو استعداد عسكريّ واضح. بينما كان جيش الشّام جيش الدّولة وهو عبارة عن جيش نظاميّ مسلّح ومتعوّد على القتال في الصّوائف، وهو جيش مطيع للدّولة أو للخليفة يزيد بن معاوية.

لقد كان مسلم بن عقبة صاحب فكرة ضرب الكعبة بالمنجنيق. وقد نُزعت حرمتها أولاً بغزو مكّة من قبل عمرو بن الزبير بأمر عمر بن سعيد الأشدق، وطوّر يزيد بن معاوية قَمعه لابن الزّبير بإرساله لمسلم بن عقبة في جيش الشّام إلى مكّة، فأشار على الحصين بن نمير بمحاصرة مكّة وضرب الكعبة بالمنجنيق لوضع حدّ لثورة ابن الزّبير.

كان الغرض من وراء هذا هو تكسير إيديولوجيا ابن الزّبير العائذ بالبيت، فاحتماؤه بالبيت لحرمته لم يمنع الأمويّين وجيش الشّام من تنفيذ سياسة الدّولة والقضاء على هذه الحركة المعارضة. وبذلك أعطى مسلم بن عقبة المثال العسكري للحجّاج بن يوسف الثّقفي للقضاء على فتنة ابن الزّبير. المهمّ أنّ هذا القائد الشّامي دعّم الإيديولوجيا الإقليميّة للدّولة، وهي إيديولوجيا الاعتماد على جند الشّام، كما أنّه أطلق أيدي هؤلاء على المعارضين أي ابن الزّبير ورجاله الّذين خرجوا عن الطّاعة. وستطبع هذه الإيديولوجيا الدّولة الأمويّة طيلة الفترة المروانية.

كان مسلم بن عقبة المرّي المنفّذ لسياسة الخليفة يزيد بن معاوية في ما يخصّ الإقليميّة الشّاميّة. كما أنّه كان المنفّذ له للسّياسة العدائيّة ضدّ رجال قريش. فرغم انتماء يزيد إلى أرستقراطيّة قريش فإنّه لم يتسامح مع القرشيّين الذين خرجوا عن سلطته (الحسين بن عليّ وعبد الله بن الزّبير) ورفضوا البيعة له وشوّهوا صورته

---

(١) هشام جعيط، *تاريخيّة الدّعوة المحمّدية في مكّة*، ص١٠٦.

وشهدوا ضدّه شهادة زور. وعلى هذا الأساس، أحدث يزيد بن معاوية ثورة في القيم السّائدة وخاصّة القيم التي كان معاوية يعتمد عليها في حكمه كالحلم والمداراة. لكنّ معاوية ترك في وصيّته برنامجاً سياسيّاً هو البرنامج الذي نفّذه يزيد وهو القضاء على تكبّر وحرمة قريش لصالح سلطة الدّولة. وأصبح بذلك قوّاد الشّام وأشرافهم يقرّرون مصائر قريش وأبناء الصّحابة والمهاجرين الخارجين عن طاعة الدّولة الأمويّة، ويبيحون حرمة المدينة وهم سيبيحون حرمة الكعبة بمساعدة جنودهم من قبائل الشام.

مات مسلم بن عقبة في ٢٣ من المحرّم سنة ٦٤هـ/ ٢١ سبتمبر ٦٨٣م[١]، بعد أن وضع نهائياً قواعد سياسة يزيد الجديدة. ودفن الحصين بن نمير مسلماً بالمشلل[٢] لسبع بقين من المحرّم، وقصد مكّة في جيش الشّام «لحرب عبد الله بن الزّبير ومن كان على رأيه في الامتناع على يزيد بن معاوية»[٣].

وكان ابن الزّبير قد بايعه أهل مكّة وأهل الحجاز[٤]، فقد هرب أهل المدينة بعد الحرّة إلى ابن الزبير ليساندوه ضدّ أهل الشّام، وأصبح كلّ الحجاز موالياً لابن الزّبير بعد الحرّة.

وقد أقام الحصين بن نمير السكّوني بمرّ الظّهران[٥] ثلاثة أيام[٦]، ثمّ دخل مكّة لثلاث بقين من المحرّم سنة ٦٤هـ/ ٦٨٤م، وحاصرها لمدة ٦٤ يوماً حتى جاءهم نعي يزيد بن معاوية لهلال ربيع الآخر[٧].

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٥٧.
(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٩٦ ـ ٤٩٨.
(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٩٦؛ الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٤٩.
(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٩٧.
(٥) ياقوت، معجم مذكور، ج٤، ص٦٣: مرّ الظهران: واد قرب مكّة وعنده قرية يقال لها مرّ تضاف إلى هذا الوادي فيقال مرّ الظهران.
(٦) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٥٨.
(٧) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٩٨.

القوّة العسكريّة لابن الزّبير وللأمويّين

خطب ابن الزّبير في النّاس فحرّضهم على قتال أهل الشّام، ودعاهم إلى بيعته فبايعه أهل مكّة على القتال. وساعده المسور بن مخرمة بمواليه وسلاح كثير[1]. كما التحق به من هرب من أهل المدينة بعد الحرّة فهرب عبد الله بن مطيع وكان معه «في أمره كلّه»[2]، فأصبح ابن الزّبير في عدد هامّ من النّاس[3].

وقدم على ابن الزّبير ٨٠ من الخوارج، وهم نجدة بن عامر الحنفيّ[4] في جماعة من الخوارج وبنو بخدج (من بني حنيفة) حسّان وعبد الرحمن وأخ لهما ثالث، وحُجيّة بن أوْس العطاردي من بني تميم، وأبو الأخْنس الهزّاني، وأبو مالك، وأبو طالوت سالم بن مَطر من بني مازن، ويقال مولاهم، وعطيّة الأوس. وقد قدموا كلهم على ابن الزّبير يدافعون عن البيت[5]. وتخلّف حجيّة بن أوس العطارديّ لأنّ أمّه مرضت، لكنّ أباه حبسه حتّى لا يلتحق بهم. واختلفت المصادر في من قادهم: حسّان بن بخدج أو رجاء النّمر (من النمر بن قاسط). وقد قدموا مكّة قبل أن يأتيها أهل الشام. ولحق بهم عيسى الخطّي وهو عيسى بن حُدير أحد بني وديعة بن مالك بن تيم الله بن ثعلبة بن عُكابة الذي قرّر الخروج فتعلّقت بناته به، وبكين، وقلن له: إلى من تدعنا؟ لكنّه مع ذلك التحق بالخوارج للدّفاع عن البيت[6].

كان هدف هؤلاء الخوارج هو التثبّت من قول ابن الزّبير في عليّ وعثمان، فإن كان موافقاً لهم بقوا معه، وإن كان مخالفاً لهم ينصرفون عنه. فقد كان ابن الزّبير بالنّسبة للخوارج هو أحد الرّموز المتبقيّة من أصحاب السّابقة والقدمة. فكان جدّه

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٥٩.
(٢) ابن سعد، مصدر مذكور، ج٥، ص١١٢.
(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٥٨.
(٤) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٥٨.
(٥) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٢٤.
(٦) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٢٣ ـ ٤٢٤؛ المبرّد، مصدر مذكور، ج٣، ص٢٨٣.

أبو بكر الصدّيق صاحب الرّسول وأوّل خليفة للمسلمين. ويبدو أنّ ابن الزّبير وافقهم على رأيهم قبل أن يبدأ القتال مع أهل الشّام لكنّهم انتظروا ولم يبايعوه[1]. فكان بذلك ابن الزّبير مصلحيّا إلى أبعد درجة، إذ ضمن الدّعم البشري والعسكري للخوارج ضدّ أهل الشّام.

كما انضمّ إليه المختار بن أبي عبيد الثّقفي الذي خرج من حبس عبيد الله بن زياد، وكان متشيّعاً، والتحق به بعد مقتل الحسين لأنّه كان معارضاً للسّلطة، وعائذاً بالبيت. وكان المختار يريد أن يجمع أمره بابن الزّبير لأنّه سيّد العرب بعد مقتل الحسين، ويتّحدا في قتال يزيد بن معاوية[2].

قصد المختار ابن الزّبير فسأله عن أهل الكوفة، فأجابه بأنّهم يتفانون في خدمة سلطانهم في العلانيّة، وفي السرّ أعداء. واقترح عليه أن يبسط يده ليبايعه، ويعطيهم ما يرضيهم، كما نصحه أن يثب على الحجاز الذين سيساندوه. ثمّ خرج ولم يرجع لابن الزبير إلاّ بعد سنة. ولم يُر في مكّة ولا في المدينة. ويبدو أنّه ربّما كان بالطّائف مستقرّ ثقيف قبيلته. وادّعى أنّه مُبير الجبّارين، وجاء مكّة فطاف بالبيت أسبوعاً، والتفّ به جماعة من رجال الطّائف من معارفه، ولم يكلّم ابن الزّبير. فعمل الشّاهد العيان وهو عبّاس بن سهل على تشجيع المختار على بيعة ابن الزّبير بعد أن اجتمع إليه أشراف العرب من كلّ البيوتات ومن قريش والأنصار وثقيف[3]. فجاء المختار لابن الزّبير وبايعه على أن يقوم بالامور دونه، وعلى أن يكون من أوّل من يأذن له. كما بايعه على كتاب الله وسنّة نبيّه.

لكنّ كلا الطّرفين كانا متأكّدين أنّ هناك نوايا فرديّة لكلّ واحد منهما وطموحات شخصيّة. إلاّ أنّ ابن الزّبير كان «يُريد أن يشتري دين» المختار حتّى يقاتل معه جيش الشّام[4]، وبقي معه إلى أن مات يزيد بن معاوية، ولم يغادر مكّة إلاّ بعد خمسة

---

(١) المبرّد، مصدر مذكور، ج٣، ص٢٧٧.

(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٥٧٢.

(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٥٧٤.

(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٥٧٥.

أشهر .وقد كان ابن الزّبير يحذره ويعتبره خبيثاً وكان المختار طامعاً في منصب هامّ. ولمّا لم يقدّمه ابن الزّبير بعد موت يزيد بن معاوية، سأل عن أحوال أهل الكوفة وانتقل إليها ليثور على سلطة ابن الزّبير. وكان سبب تركه له أنانيّته وعدم اتّخاذه لرأي واضح في قراراته[١]، وكوّن سلطة شيعيّة مستقلّة عن الزّبيريّن. وقد نقل هذا الخبر سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص (أي حذّر ابن الزّبير والمختار من بعضهما البعض). ويبدو هذا التّحالف غريباً من قبل أحد الأمويّين، بما أنّ ابن الوالي الأموي السّابق والذي سلّط على ابن الزّبير أخاه عمرو بن الزّبير بمكّة[٢]. المهمّ أنّ علاقة ابن الزّبير بالمختار كانت علاقة مصلحيّة، إضافة لضبابيّة رؤيا المختار بن أبي عبيد الثّقفي.

كما أرسل النّجاشي ملك الحبشة جماعة من الحبش للدّفاع عن الكعبة، وساعد بهم ابن الزّبير، فضمّهم إلى أخيه مصعب فقاتلوا معه، فانكشفوا يوماً فاعتذروا[٣].

لقد كوّن ابن الزّبير بذلك جيشاً متركّباً من عناصر متنوّعة، وكانت كلّ هذه العناصر متحمّسة للدّفاع عن البيت كرمز من الرّموز الهّامة في الإسلام. وكان أصحاب ابن الزّبير فيما حول المسجد إلى المروة[٤] وما وراء ذلك، ووضع أهل مكّة خشباً حول الكعبة وغطّوها بالجلود لتحميها[٥]. وهكذا استعدّ ابن الزّبير للحصار، فكانت التّعبئة العسكريّة الّتي قام بها تعبئة فرضتها عليه الظّروف. فقد تحصّل على دعم من خارج مكّة نظراً لأنّه كان مُحتمياً بالحرم، فاستغلّ على هذا الأساس وجوده بالحرم، ومعارضته للخليفة يزيد بن معاوية ليجمع حوله النّاس، فانضمّ إليه كلّ السّاخطين على الأمويّين.

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٣٣.

(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٥٧٧ ـ ٥٧٨.

(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٢.

(٤) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٦؛ ياقوت، معجم مذكور، ج٥، ص١١٦ : المروة: «جبل بمكّة يعطف على الصّفا، ومن جبال مكّة المروة جبل مائل إلى الحمرة. رأس المروة، هي أكمة لطيفة في وسط مكّة تحيط بها وعليها دور أهل مكّة ومنازلهم، وهي ي جانب مكة الذي يلي قعيقعان».

(٥) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٢.

وأقام الحصين بن نمير السّكونيّ معسكره من الحجون[1] إلى بئر ميمون[2]. ونصب منجنيقاً[3]، وان هذا المنجنيق في الجبل الأحمر[4] الذي يلي دار النّدوة[5]. ولم يبدأ الحصين بن نمير السكّوني القتال ووقف حذو دار عمر بن عبد العزيز[6]، فقال لأصحاب ابن الزّبير بأنّه لو أبرّ هذا الأخير قسم الخليفة لأكرمه وعيّنه والياً للحجاز، فأجابوه بأنّهم عوّاذ بالبيت، وأنّ ابن الزّبير هو أحدهم لكنّه يُصلّي بهم[7]. ويبدو أنّ عبد الله بن الزّبير كان يُقدّم نفسه لأصحابه على أساس أنّه عائذ بالبيت، وهو أحد منهم. فكانت سلطته غير واضحة، وهو يغطّي طموحاته السّياسيّة وراء هذا اللّقب الدّيني. كما أنّ الحصين كان على ما يبدو يُريد الوصول إلى اتّفاق حتّى لا ينشب القتال بينهما، لكنّه فشل في إقناع أصحاب ابن الزّبير.

كما خرج عبد الله بن صفوان بن أميّة الجمحي، وهو من أشراف قريش[8] إلى الحصين، فوعظه وخوّفه من أهل الشام[9]، فأجابه بأنّ من أباح حرم الله هو الذي هاجمه بالخيل. لقد أراد بذلك الحصين بن نمير أن يفرض خطاباً إيديولوجيّا معتمداً

---

(١) ياقوت، *مصدر مذكور*، ج٢، ص٢٢٥: الحجون: الحجن الاعوجاج، مكان من البيت على ميل ونصف، أو هو جبل بأعلى مكّة فيه مدافن أهل مكّة.

(٢) ياقوت، *معجم مذكور*، ج١، ص٣٠٢: بئر ميمون بمكّة، منسوبة إلى ميمون بن خالد بن عامر بن الحضرمي، وكان ميمون حليفاً لحرب بن أميّة بن عبد شمس؛ البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٥٩ - ٣٦٦.

(٣) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٦٦.

(٤) ياقوت، *معجم مذكور*، ج١، ص١١٧: الجبل الأحمر جبل مشرف على قُعيقعان بمكّة وعلى دور عبد الله بن الزّبير؛ الأزرقي، *مصدر مذكور*، ج١، ص٢٦٧.

(٥) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٥٩؛ الأزرقي، *مصدر مذكور*، ج١، ص١١٠: أدخلت دار الندوة في المسجد الحرام.

(٦) الأزرقي، *مصدر مذكور*، ج١، ص٢٤٠: كانت لناس من بني الحارث بن عبد مناف فاشتراها عمرو أمر ببنائها في ولايته للحجاز في خلافة الوليد بن عبد الملك. وبناها الوليد من ماله ثمّ تصدّق بها عمر على الحجاج المعتمرين.

(٧) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٦٦.

(٨) مصعب الزّبيري، *مصدر مذكور*، ص٣٨٩ كنيته: المتكبّر؛ قُتل هو وابن الزّبير معاص في يوم واحد، وهو متعلّق بأستار الكعبة، ورفض أن يقبل الأمان.

(٩) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٥٩.

على إيديولوجيا الدّولة الإقليميّة أو الثّقل العسكري لجيش الشّام جيش الدّولة. وحاول أن يقوم بمفاوضات مع رجال عبد الله بن الزّبير قبل أن يبدأ القتال. لكنّ عبد الله بن صفوان كان مصمّما ومن ورائه عبد الله بن الزّبير على القتال، قتال أهل الشّام. وهذا دليل على أنّ الفتنة قد تطوّرت، ودخلت مرحلة جديدة من تاريخها، فكلّ فريق يرى أنّ الفريق الآخر يُحلّ البيت ويهتك حرمته.

دشّن الأمويّون في عهد الخليفة يزيد بن معاوية ظاهرة جديدة وهي مهاجمة مكّة والكعبة ونزع الحرمة عنهما وتهديم الكعبة في سبيل فرض سلطة الدّولة. كما أنّ إمكانيّة التّفاهم كانت منعدمة، وعلى هذا الأساس ابتدأ القتال بينهما، فقد رتّب ابن الزّبير رجاله في مواضع، وقسّم الحصين رجاله إلى مسالح.

وقد بدأ القتال يوم أحد لـ ١٣ ليلة خلت من صفر، فتراموا بالنّبل، وتواصل القتال في اللّيل حيث تقاتلوا بالرّماح، ثمّ رجع كلّ فريق إلى معسكره، وقد قتل من الشّاميّين ثلاثة أشخاص، وجُرح العديد من أصحاب ابن الزّبير، وقُتل أربعة منهم. وبقوا على ذلك أيّاماً[١].

وأخرج المسور بن مخرمة سلاحاً ففرّقه على مواليه، وكان متسلّحاً ووقف حذو الحذّائين[٢]. والمِسْور بن مَخْرَمَة بن نوفل (من زهرة بن كلاب)، خاله عبد الرحمن بن عوف. وكان المسور ملازماً لعمر بن الخطّاب ويحفظ عنه، وكان مع خاله مقيماً للشورى. استقر بمكّة إلى أن توفّي معاوية. ورفض البيعة ليزيد. وحوصر مع أهل مكّة وابن الزبير في الحصار الأوّل. وكانت الخوارج تتردّد عليه وتحترمه. ومات بحجر المنجنيق في الحصار الأوّل[٣].

ويبدو أنّ المسور كان على جانب من الثّراء، ويمتلك السّلاح والموالي دعّم بهما ابن الزّبير. ولا ننسى أنّ هذه الحرب هي حرب بين فروع قريش والفرع الأكثر أرستقراطيّة والذي يسوس الدّولة أي الفرع الأمويّ.

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٦.

(٢) الأزرقي، مصدر مذكور، ج٢، ص٢٣٤ : الحذّائين قرب دار الإمارة في الفترة العبّاسيّة.

(٣) مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص٢٦٢ ـ ٢٦٣.

ويخرج ابن الزّبير، ومصعب بن عبد الرحمن بن عوف، وعُبيد بن عُمير فيجتمعون إلى المسور وكانوا يردّون جند الشّام إلى الأبطح[١]، فقال لأخيه المنذر الذي شهد الحرّة بأنّ هذا الأمر لا يهمّه إلاّ هو وأخوه، فقاتلهم ساعة قتالاً شديداً[٢].

كما طلب ابن الزّبير من أخيه أن يحمل عليهم، فردّ عليه المنذر بأنّه ليس لديه قيمة ليعرّضه «لأنباط الشّام». وقد هاجمهم فخافت بغلته من قعقعة السلاح. ولحق به أهل الشّام فقتلوه[٣].

ويبدو هنا أنّ الزبير كلّف إخوته بالقتال. كما أنّ المنذر بن الزّبير عبّر عن نظرة إقليميّة للحكم. فهو يهاجم أهل الشّام على أساس أنّهم أنباط، وفي ذلك تحقير لهم.

لكنّ الطبري ذكر أنّ المنذر بن الزّبير قتل في مبارزة، فقد تحوّل القتال إلى مبارزات حيث نادى أحد جند الشّام المنذر بن الزبير للمبارزة، فضرب كل واحد منهما صاحبه ضربة خرّ لها ميّتاً[٤]، فجثا عبد الله بن الزبير على ركبتيه ودعا على من قتل أخاه. ويبدو أنّ القتال كان في كلّ واقعة بين الأمويّين وأعدائهم من المعارضة يشتمل على مبارزات مثل ما كان في الجاهليّة، وكانت هذه المبارزات قاتلة. وكان ابن الزّبير يهزم النّاس، فيتبعهم وحده وهو يقول[٥]:

إنّا إذا عضّ الثّقاف برأس صعدتنا أبينا

فقال بعض جند الشّام للحصين بأنّ رجلاً واحداً يتبعهم على رجليه، فلا يهاجمه

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٦؛ ياقوت، معجم مذكور، ج١، ص٧٤: الأبطحُ، كلّ مسيل فيه دُقاقُ الحصى فهو أبطح. والأبطح يُضافُ إلى مكّة وإلى مِنى، لأنّ المسافة بينه وبينهما واحدة، وربّما كان إلى منّى أقرب.

(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٩٧.

(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦١ ـ ٣٦٢.

(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٩٧؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٥٨.

(٥) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٠.

أحد وهم يقصدون بذلك ابن الزّبير، فأجابهم بأنّه من يهاجم أسداً يدافع بشجاعة عن ملك يحاول افتكاكه[١]. فابن الزّبير كان يقاتل لافتكاك السلطة من يزيد، وعلى هذا الأساس فإنّه جدّ في القتال.

ودعا ابن الزّبير الحصين بن نمير للمبارزة، لكنّه رفض، وذكر له أنّه لا يرفض مطلبه عن جبن بل هو يخاف إن قتله يُضيّع أصحابه وإن قتله (أي قتل ابن الزّبير) يخطئ في تقديره[٢]. ويبدو موقف الحصين غريباً نوعاً ما بما أنّه كان حذراً ولم يُرد التورّط في القتال.

كان مصعب بن عبد الرحمن يقاتل أشدّ قتال إلى أن يبست يده، فدعا ابن الزّبير بشاة فحُلبت على يده حتّى لانت[٣]. وتبدو هذه العادة عادة متّبعة في الجاهليّة. وقتل مصعب بن عبد الرحمن بن عوف عدداً كبيراً من جند الشّام[٤].

وكان المختار بن أبي عبيدي الثّقفي يستفزّ مقاتلة الشّام للقتال، فقتل منهم عدداً كبيراً[٥]، لكنّ البلاذري لم يذكر كم قتل منهم؟. وكان ابن الزّبير يقول بأنّه لا يهمّه إن كان المختار يقاتل معهُ لأنّه كان يُقاتل أشدّ قتال[٦]. وقد نصح المختار ابن الزّبير بشنّ القتال على أهل الشّام، وقد بقي أيّاماً لا يُقاتلهم، وقال له بأنّ الله يقول ﴿ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم﴾[٧]. واعتمد المختار على القرآن ككتاب رمز في الفتنة يعتمد عليه في القتال.

وكان المختار منضوياً تحت لواء إيديولوجيا ابن الزّبير، وكان خطاب الفتنة قوياً في ضرب الكعبة من الجانبين، فالمختار يرى أنّ جماعته على حقّ وأهل الشّام يرون أنّهم محقّين في قتالهم لابن الزّبير وجماعته.

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦١.
(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦١.
(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٢.
(٤) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦١.
(٥) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦١.
(٦) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٢.
(٧) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٠؛ البقرة ٢/ ١٩١.

كما قاتل ابن الزّبير مع عُمير بن ضبيعة الرقاشي في ٧٠ من الخوارج[١]. فسأله النّاس لماذا يقاتل في هذه المارقة؟، فأجابهم بأنّه لو أعانته الشياطين أو التّرك والدّيلم[٢] على أهل الشّام لقاتلهم بهم[٣]. ويبرز هذا الخطاب الذي اتّبعه ابن الزّبير تكتّل كلّ القوى الدّينيّة لقتال الأمويّين الذين هاجموا مكّة والبيت. فقد استند إلى صفة العائذ بالبيت كسلاح إيديولوجي استقطب كلّ الاتجاهات السّياسيّة الدّينيّة.

كما قاتلت امرأة من الخوارج تسمّى سلمى أهل الشّام، وهذا جديد ويُعبّر عن تشجيع الخوارج من الرّجال لمشاركة المرأة الخارجيّة في القتال. وهي ظاهرة جديدة أفرزتها الفتنة وأفرزها تطوّر المذهب الخارجي، وعلى هذا الأساس، فهي تعتبر المرّة الأولى الّتي تقاتل فيها المرأة في الحرم بينما قاتلت من قبل في البصرة، ممّا دفع بأحد المقاتلة الشّاميّن للقول:

إنّي لم أنس إلا ريث أذكرهُ   أيّام تطردنا سلمى وتنفينا[٤]

وحكّم ابن بحدج فقتل جماعة من أهل الشّام[٥]. وهكذا تكتّل الخوارج حول ابن الزّبير للدّفاع عن حرمة البيت الّتي انتهكها الأمويّون وفي ذلك فتنة وانقسام.

شدّ أهل الشّام على جند ابن الزبير وانكشف أصحابه وعثرت بغلته. ثمّ نادى أصحابه للقتال فقاتل المسور بن مخرمة بن نوفل بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة، ومصعب بن عبد الرحمن بن عوف الزّهريّ، وقد قتلوا كلّهم في القتال[٦]. ويبدو أنّ مصعب بن عبد الرحمن قاتل أشدّ قتال مقاتلة الشّام، وانحنى سيفه فقال:

---

(١) ابن حزم، مصدر مذكور، ص٣١٧ الرقاشيّون من شيبان.

(٢) المبرّد، مصدر مذكور، ج٣، ص٢٨٢.

(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٠

(٤) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦١.

(٥) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦١.

(٦) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٩٧.

سَنُوردُ بيضاً ثمّ نُعقِبُ حُمرةً　　　فيها انحناءٌ بيّنٌ بعْد تَقويمِ[1]

وبذلك يبدو أنّ القتال كان يدور في جوّ شبيه بالجاهليّة، وكان كلا الطّرفين ينشد الشّعر يفتخر بشجاعته ومقدرته على القتال.

وقد قتل مصعب خمسة من أهل الشام قبل أن يُقتل[2]. فكان الثّالوث مصعب بن عبد الرحمن بن عوف ومصعب بن الزّبير والمختار بن أبي عبيد الثّقفي من أهمّ رجال ابن الزّبير من حيث الشّجاعة والقتال، فهاجموا مسلحة للحصين بن نمير وقتلوا من أهل الشّام ١٠٠ مقاتل[3].

ولمّا قتل المنذر بن الزّبير والمسور بن مخرمة ومصعب بن عبد الرحمن، نادى المختار جيش ابن الزّبير للقتال. فحمي القتال، وقاتل المختار بكلّ بلاء[4]. ويبدو أنّ المسور أصابته شظيّة من حجر المنجنيق فمات من جراحه. وقد كان كلّ من المسور أصابته شظيّة من حجر المنجنيق فمات من جراحه. وقد كان كلّ من المسور بن مخرمة ومصعب بن عبد الرحمن يلعبان دوراً سياسياً هاماً لدى ابن الزّبير، فقد كان بينهما وبينه الأمر شورى[5].

كان المختار في ٣٠٠ من النّاس، وكان يُقاتل أشدّ قتال ثمّ يستريح هو وأصحابه، ويُعيد الكرّة، فيقاتل أهل الشّام إلى أن يكشفهم[6]. وصبر ابن الزّبير في القتال ضدّ أهل الشّام إلى اللّيل، ثمّ انصرفوا عنه. وقاتل غلام لابن الزّبير اسمه سُليم أو سُليمان وأبلى في القتال، فأعتقه[7]. كما شل القتال عبيد بن الزّبير أيضاً.

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٢.
(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٢.
(٣) مصعب الزّبيري، مصدر مذكور، ص٢٦٩.
(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٥٧٥.
(٥) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٧٠.
(٦) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٥٧٦.
(٧) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٠.

وبقي مقاتلة الشّام يقاتلون بقيّة المحرّم وصفر كلّه. وعندما مرّت ٣ أيّام من شهر ربيع الأول يوم السبت سنة ٦٤هـ/ ٦٨٤م، قذفوا البيت بالمجانيق، وحرقوه بالنّار[١]، ثمّ كفّ الحصين عن الرّمي[٢]. وكان صحاب الرمي مع الحصين بن نمير، الزبير بن خزيمة الخثعمي وهو من أهل فلسطين[٣]. وهو أوّل من أنشد هذين البيتين اللّذينْ يمثلان مرجعيّة تاريخيّة لجند الشّام الذين ارتجزوا بهما في الحصار الثاني:

خطّارةٌ مِثلُ الفنِيق المزبدِ نَرمِي بها أعْوادَ هذا المسجدِ

فقد شُبّه المنجنيق بالفحل المكرّم من الإبل، والجمل الهائج الذي لا يقهره أحد. وهذا يبيّن أنّ جند الشّام كانوا مطيعين للدّولة، كما أنّهم كانوا بدويّين (فيشبّهون المنجنيق بالإبل). كما أنّ استعمال المنجنيق يبيّن تطوّر أساليب القتال لدى الجيش الأموي. فمن أين جلبت هذه التقنية في القتال؟

وجعل عمرو بن حوط السدوسيّ يقول:

كيف تَرى صنيع أمّ فروة تأخذهم بين الصّفا[٤] والمروة[٥]

وهو يعني بأمّ فروة المنجنيق[٦].

نصب ابن نُمير المنجنيق على الكعبة، «فارتفعت سحابة فاستدارت على أبي قُبَيْس[٧]، ثمّ رعدت وأصعقت، فأحرقت المنجنيق ومن تحتها فلم يُعيدوا

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٩٨.
(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٦.
(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٠.
(٤) ياقوت، معجم مذكور، ج٣، ص٤١١ الصفا والمروة: وهما جبلان بين بطحاء مكّة والمسجد، أمّا الصّفا فمكان مرتفع من جبل أبي قبيس بينه وبين المسجد الحرام عرض الوادي الذي هو طريق وسوق، ومن وقف على الصفا كان بحذاء الحجر الأسود والمشعر الحرام بين الصفا والمروة.
(٥) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٩٨.
(٦) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٩٨.
(٧) ياقوت، معجم مذكور، ج٤، ص٣٠٨: أبو قبيسٌ: جبل مشرف على مسجد مكّة.

الرمي»[1]. وأعظم الصّحابة ذلك، واعتبروا يزيد وأهل الشّام مرتكبين لذنب كبير وهو قتل ابن بنت الرّسول وحرق بيت الله[2]. وعلى هذا الأساس، كان هدم البيت بالمنجنيق وحرقه قمّة ما وصلت إليه الدّولة من تركيز سياسيّ.

كما يبدو من خلال الخبر أنّ الحصين بن نمير غير عارف بمناخ مكّة وتخوّف من الصّاعقة فتوقّف عن القتال. ويبدو أهل الشّام بلا مرجعيّة دينيّة شبيهة بأهل الحجاز. وبالتّالي لم يكن لديهم من همّ إلاّ تركيز إيديولوجيا يزيد بن معاوية.

وروى شاهد عيان وهو عبّاس بن سهل الساعدي (ابن صحابيّ من الأنصار)، كان موالياً لابن الزّبير، وحارب في هذا الحصار الأوّل، أنّه تولّى القتال يوم تحريق الكعبة هو وعبد الله بن مطيع العدوي والمختار بن أبي عبيد الذي قاتل أشدّ قتال[3]. وكان أهل الشّام مستميتين في القتال بهدف الانتصار على ابن الزّبير وأصحابه، وتبعوا جنود ابن الزّبير في سكك مكّة. فقد تحوّل القتال إلى داخل مكّة حول الحرم بين مقاتلة الشّام وجيش ابن الزّبير. ويُضيف عبّاس بن سهل أنّ مقاتلة الشّام حاصروه هو والمختار في مكان واحد، فكانا يقومان بنفس الأفعال. وهجم عليهم جند الشّام من الخيّالة، فحصروهم في ٧٠ رجلاً من أهل الصبر[4]، قرب دار من دور مكّة، فقاتلهم المختار، ثم طلب كلّ من عبّاس بن سهل بن سعد والمختار من مقاتلة الشّام المبارزة، فقتل المختار صاحبه من أهل الشّام. وقتل عبّاس بن سهل رجلاً من أهل الشّام. وأخرج المختار وعبّاس بن سهل بن سعد مقاتلة الشّام من سكك مكّة كلها. وتفقدا في ما بعد الجنديّيْن من أهل الشّام، فوجدا أنّهما من العبيد (عبد روميّ وعبد أسود)[5]، فقرّرا ألاّ يُقاتلا إلا رجالاً معروفين. ويبدو من ذلك أنّ المبارزة لا تتمّ إلاّ مع رجال من الأشراف العرب.

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٠.

(٢) الأزرقي، مصدر مذكور، ج١، ص١٩٦.

(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٥٧٦.

(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٥٧٦.

(٥) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٥٧٧.

وبايع ابن الزّبير رجال كثيرون على الموت، فخرج عبّاس بن سهل بن سعد في عصابة يقاتل، والمختار في عصابة أخرى يقاتل في جماعة صغيرة من أهل اليمامة من الخوارج. وكان عبد الله بن مطيع يقاتل مع جماعته في جانب[١].

وكان عُبيد بن عُمير بن قَتَادة الليثي فقيه أهل مكّة[٢]، وكان يقصّ أيام يتوقف القتال بين الجيشين أي عند الهدنة. وكان أهل الشّام يسمّونه «بالرّجل الصّالح» ويقولون له بأن يقصّ بدون أن ينقص من قيمة خليفة الله في أرضه لأنها أعظم من حرمة البيت[٣].

ويبدو من خلال هذا الخبر أنّ أهل الشّام كانوا يعترفون لصاحب ابن الزّبير بورعه، لكنهم كانوا يطلبون منه تركيز إحدى عناصر الإيديولوجيا الأمويّة وهي إيديولوجيا خليفة الله الّتي كانت أهمّ من حرمة البيت، وعلى هذا الأساس، كان هذا الدّافع الإيديولوجي قوياً في نفوس أهل الشّام، وهو ما كان يدفعهم للقتال، بينما كان جيش ابن الزّبير يدافع عن حرمة البيت.

وكان أهل الشّام يشتمون ابن الزّبير فيقولون: يا ابن ذات النطاقين، فقال ردّا عليهم:

وعيّرها الواشونَ أنّي أحبُّها ... وتلك شكاةٌ ظاهرٌ عنك عارُها

كما أنّهم شتموه في الحصار الثاني فتمثّل بنفس هذا البيت[٤].

يبدو من خلال ذلك أنّ أهل الشّام كانوا لا يعترفون بقدمة وسابقة عبد الله بن الزّبير، وأنقصوا من شرعيّته التّاريخيّة كابن أسماء بنت أبي بكر الصدّيق. فقد كان شتم الأمّ عادة موجودة منذ الجاهليّة تواصل اتّباعها في الفترة الإسلاميّة. ويهدف هذا التّعتيم على أمّ عبد الله بن الزّبير لتقوية إيديولوجيا خليفة الله. كما كان الجوّ

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٥٧٦.
(٢) ابن حزم، مصدر مذكور، ص١٨٤ من ليث من بكر بن عبد مناة بن كنانة.
(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٤.
(٤) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٦ ـ ٣٦٧.

شبيهاً بأجواء القتال في الجاهليّة فهذه المعارك هي عبارة عن ملاحم. وكان ردّ فعل ابن الزّبير أنّه تمثّل ببيت شعر، وهذا الشّعر يحيلنا على أجواء صراعات الجاهلية.

وحمل بعض أصحاب ابن الزّبير ناراً فأطفأتها الريح فاحترقت أستار الكعبة وما كان ليقيها من ضرب المنجنيق[1]. كما تصدّعت (الكعبة)، فهدمها ابن الزّبير بعد أن استشار جابر بن عبد الله الأنصاري وعبد الله بن عمر. بينما كره ابن عبّاس ذلك لأنّه تخوّف أن تهدم بعده[2]. وهدمها ابن الزّبير إلى الأرض، ثمّ أعاد بناءها[3]. لقد تكسّرت حرمة الكعبة، وأدّى تكسير هذه الحرمة إلى هدم رمز من رموز الإسلام.

ويبدو أنّ ابن الزّبير هو المتسبّب في كلّ هذه العمليّات: هجوم الأمويّين على الكعبة وضربهم لها بالمنجنيق، كلّ ذلك نتيجة لفكرة العائذ بالبيت، فاختياره الحرم المكّي كمكان يحتمي به، هو فكرة وتطوّر أفرزته الفتنة الثّانية، وقد تصوّر أنّ احتماءه بالحرم سيمنعه من هجوم عسكريّ أمويّ. فوظّف بذلك الدّيني لفائدة السّياسي، وتنصّل من مسؤوليّة الإلحاد في الحرم وإحلاله. وانقلبت التّهمة ووُجّهت للأمويّين لمهاجمتهم الكعبة في جيش. وعلى هذا الأساس، لا يتحمّل الأمويّون مسؤوليّة احتراق الكعبة في هذا الحصار الأوّل. كما أنّ هدم الكعبة كانت فكرة لمسلم بن عقبة المرّي الذي نصح الحصين بن نمير بأن يضرب البيت بالمنجنيق إذا احتمى به ابن الزّبير الخارج عن سلطة الخليفة يزيد بن معاوية. وأمره بإعادة بنائه.

كما أنّ الكعبة ستدمّر في الحصار الثاني الذي قام به الحجّاج بن يوسف وقتل فيه ابن الزّبير وقضى على حركته نهائياً. وقد ضرب الحجّاج الكعبة بالمنجنيق، وأعاد بناءها.

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٩٨.

(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٩ ـ ٣٧٠.

(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٤.

المهمّ أنّ طابع الحرمة (حرمة البيت وحرمة مكّة) رُفع من جانب مقاتلة الشّام ومن جانب ابن الزّبير وأصحابه فأصبح القتال يدور حول البيت وفي سكك مكّة. فأصبح الجانب العسكري والسّياسي هما الأقوى في هذه الفتنة. لكن هذا لا يمنع حضور الجانب الدّيني الذي يمثله الخوارج، فقد كان الهدف من مساندتهم لابن الزّبير الدّفاع عن البيت.

وكان القتال ينقسم إلى مرحلتين: مرحلة المبارزات ومرحلة الضّرب بالمنجنيق، وكان نزول الصّاعقة فاصلاً بين الفريقين. كما كان يتخلّل القتال فترات موادعة أو هدنة تدوم أيّاماً.

وقتل من أصحاب ابن الزّبير في الحصار الأول: المنذر بن الزّبير، وأبو بكر بن الزبير (أخ ابن الزّبير)، وعامر بن عروة بن الزّبير (ابن أخ ابن الزّبير) وحذافة بن عبد الرحمن بن العوّام[1]، ومصعب بن عبد الرحمن بن عوف، وزيد بن عبد الرحمن بن عوف (أخ مصعب بن عبد الرحمن بن عوف)[2]. كما جُرح عبد الله بن مسعدة الفزاري (وهو من أشراف الشّام)، والذي جرحه مصعب بن عبد الرحمن، ولم يُقاتل إلى أن مات يزيد بن معاوية. لكنّ المصادر لم تذكر كم بلغ عدد الموتى من جانب ابن الزّبير وفي صفّ الأمويّين.

وحاصر جند الشّام ابن الزّبير حصاراً عنيفاً، وقاتلوا قتالاً شديدا[3] لكنّهم أجبروا على التوقف عن القتال عند سماعهم بخبر وفاة يزيد. فكان موت الخليفة يزيد بن معاوية فاصلاً بين جيش الشّام وقتال ابن الزّبير. ويبدو أنّ أهل الشّام ضاق ذرعهم بالقتال، كما غضب الخوارج لقتالهم[4]:

صاحبيّ ارتحلا ثمّ أملسا ... لا تحبسا لدى الحصين مخبسا

إنّ لدى الأركان ناساً بُؤسا

---

(١) ابن حزم، مصدر مذكور، ص١٢١.

(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص

(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٥٠١ ـ ٥٧٦.

(٤) المبرّد، مصدر مذكور، ج٣، ص٢٨١.

لقد كان الشّعر وسيلة المقاتلة من كلّ الأطراف في الافتخار بمقدرتها العسكريّة في هذه الظرفيّة من الفتنة الثّانية.

وتوفّي الخليفة يزيد بن معاوية لـ ١٤ ليلة خلت من ربيع الأول سنة ٦٤هـ وهو ابن ٣٨ سنة[١]، بعد أن طوّر السّياسي في الحكم في أعلى درجاته، وأكّد الملك في أقوى مظاهره.

ويبدو أنّ نعي يزيد لم يبلغ الحصين بن نمير وأصحابه بينما بلغ ابن الزّبير وأصحابه. وبقي مقاتلة الشّام ٤٠ يوماً لا يعرفون الخبر[٢] إلى أن أعلمهم ابن الزّبير قائلاً إن «طاغيتهم» قد مات، فمن شاء منهم أن يدخل في ما دخل فيه النّاس، ومن لم يُرد ذلك يرجع إلى شامه. لكنّ جند الشّام لم يصدّقوا وواصلوا قتاله[٣]. ويبدو من خلال هذا الخطاب لابن الزّبير وجود طابع إقليمي لسلطته إذ ركّزها في الحجاز عكس الطّابع الإقليمي لسلطة الدّولة الأمويّة التي ركّزت سلطتها على مساندة أهل الشّام.

ولم يُصدّق الحصين ورجاله إلى أن جاء ثابت بن قيس المُنْقَع النخَعيّ وهو من أشراف الكوفة، وكان صديقاً للحصين وبينهما مصاهرة، وكان يراهُ عند معاوية، ومتأكّداً من فضله وصلاحه وشرفه[٤]، فأخبره بموت يزيد بن معاوية. وعندما تأكّد الحصين من صحّة الخبر، أرسل إلى ابن الزّبير ليلتقي به في الأبطح.

إنّ لموت الخليفة يزيد بن معاوية تبعات كثيرة بما أنّ جيش الشّام لا يستطيع أن يُقاتل بدون إمام. ففراغ مؤسسّة الخلافة يشكّل فراغاً دينياً وسياسياً يتطلّب منهم أي الحصين ورجاله الدّخول في طاعة إمام. وعندما التقيا، كان الحصين دارعاً ولابساً سيفه. وعندما قال له ابن الزّبير بأنّه يغدره، أجاب بأنّه تخوّف أصحابه[٥]. فقد

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٤٩٩.
(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٢ ـ ٣٦٣.
(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٥٠١.
(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٥٠١ ـ ٥٠٢؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٢ ـ ٣٦٣.
(٥) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٧٢.

انقلبت وضعيّة الحصين من الثّقة إلى التخوّف بعد موت الخليفة يزيد بن معاوية من قتل ابن الزبير له ولأصحابه وتطبيق القصاص عليهم لقتلهم أهل الحرّة وأصحابهم. واقترح على ابن الزبير بعد موت يزيد أن يتولّى الخلافة وأن يبايعه هو وجند الشّام ويذهب معه إلى الشّام، فيبايعه الأشراف والفرسان. وأضاف أنّ أهل الشّام خاصّة منهم الأشراف يجتمعون عليه فتُهدر الدّماء التي بينهم وبينه، والتي بينهم وبين أهل الحرّة. لكنّه رفض هذا المقترح وتهدّد أن يقتل بكلّ رجل من أهل الحرّة عشرة من أهل الشّام. وجعل الحصين يكلّمه سراً وابن الزّبير يرفع صوته، فغضب الحصين وقال له بأنّ من يدّعي أنّه داهية فقد أخطأ[1]، وأنّه كان يدعوه للخلافة وهو يتهدّده بالموت[2]. وندم ابن الزّبير بعد ذلك، لكنّ الحصين بن نمير رحل إلى المدينة ومن بعدها إلى الشّام.

وتذكر رواية أخرى أن ابن الزّبير استشار أصحابه خاصّة منهم عبد الله بن صفوان الجمحي الذي يعتبر من أمراء ابن الزّبير بعد أن مات مصعب بن عبد الرحمن بن عوف والمسور بن مخرمة الزّهري، وقد رفضوا مطلب ابن نمير الانتقال إلى الشّام مع قوم رموا بيت الله، ويترك حرم الله وبيتا نصره الله فيه[3].

لقد قسمت الفتنة الأمّة إلى مجالين المجال الشّامي المحافظ على الإيديولوجيا الأمويّة، والمجال الحجازي الذي مثّل إيديولوجيا ابن الزّبير.

وقد أراد الحصين بن نمير أن يُبايع هو وأصحابه من أشراف الشّام لابن الزّبير لأنّه من قريش، واتّقاء للفتنة لأنّ الفراغ السّياسي والدّيني كانا مصدراً للخوف من المجهول ومن الفوضى الّتي تتولّد من هذا الفراغ، لكنّه لم يتوصّل إلى حلّ مع ابن الزّبير الذي كان ضيّق الآفاق مقارنة بمعاوية ويزيد. كما أنّه كان يتطيّر من الخروج من الحرم[4]، وكان أيضاً يرفض الإقليميّة الشّاميّة الّتي أسّسها معاوية بالشّام وقام

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٣٣ ـ ٣٣٤.
(٢) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٥٠٢؛ البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٢ ـ ٣٦٣.
(٣) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٧٢.
(٤) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٥٠٢.

٥

عليها الملك، «ونقله الله إليها» حسب تعبير الحصين[1].

كان ابن الزبير يرمي إلى اقتسام المجال الجغرافي للأمّة، فكان الحجاز هو المجال الذي اختاره لنفسه بينما رجع أهل الشّام إلى شامهم.

واقترح الحصين بن نمير الخلافة على عبد الله بن عمر وأن يلتحق بالشّام معه، لكنّه رفض وقال بأنّه «ليس من هذا الأمر في شيء»[2]، إذ اعتزل ابن عمر السّياسة والتّنافس على الحكم، واهتمّ بالقرآن والحديث والفتوى.

لكن قبل الرّحيل إلى الشّام، أرسل الحصين بن نمير إلى ابن الزّبير وأصحابه زفر بن الحارث الكلابي وعبد الله بن مسعدة الفزاري يستأذنهم في الطّواف ثمّ الانصراف عنه[3]. كما طلب منهم الأمان حتّى يكملوا الطّواف[4]، فقال عبد الله بن صفوان أنّه لا يحلّ لهم أن يمنعوهم، ووادعهم ابن الزّبير ومنعهم من الطّواف ثمّ سمح لهم. وأراد الخوارج أن يمنعوهم ثمّ قرّروا تركهم يطوفون ثمّ يذهبون «إلى لعنة الله فلن يزيدهم طوافهم إلاّ شراً»[5].

أصبح في التّعامل مع أهل الشّام إشكاليّة بما أنّهم كانوا غازين لمكّة وللحرم، فأصبحوا بعد موت يزيد في وضعية رهبة وخوف من حركة انتقام يقوم بها ضدّهم القرشيّون وأهل المدينة. وكان الحصين متخوّفاً من أن يقتل فرسه حمام الحرم، فقال له ابن الزّبير بأنّه يتحرّج من هذا وهو يريد أن يقتل المسلمين[6].

لقد مثل القوّاد الأمويّون مثالاً غير متفق عليه من قبل الأمّة: فهم قد أطاعوا الخلفاء بفرض إيديولوجيا الطّاعة لكنّهم اعتبروا ناقصي الدّين وضعيفي السّابقة، لكنّ هذا لا يعني أنّهم ليسوا متديّنين. إذ يبدو الحصين بن نمير متديّناً هو ورجاله،

---

(١) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٣.
(٢) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٤.
(٣) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٥٠١.
(٤) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٧٢.
(٥) البلاذري، مصدر مذكور، ج٥، ص٣٦٣.
(٦) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٥٠١.

وهو يريد القيام بالطّواف. وكان أشراف الشّام وفرسانهم متديّنين ويقومون بالفرائض على عكس ما يُروّج عنهم.

وكان على ابن الزّبير أن يتناظر مع الخوارج بعد انتهاء الحصار، فأتاه عيسى الخطّي وأبو طالوت وعطيّة ونجدة وأرادوا أن يعرفوا ما رأيه في عثمان وعليّ، فإن قدّم أبا بكر وعمر، وبرئ من عثمان وعليّ، وكفّر أباه وطلحة، بايعوه. وإن ظهر منه العكس تركوه[1]. فدخلوا عليه وقالوا له بأنّهم جاؤوا ليسألونه فإن كان على صواب بايعوه، وإن كان على غير ذلك دعوه إلى الحق. فسألوه ما يقول في الشّيخين، فأجاب بأنّه يقول فيهما خيراً. فسألوه عن قوله في عثمان الذي أحمى الحمى، وآوى الطريد وأظهر لأهل مصر شيئاً وكتب بخلافه، وأوطأ آل ابي معيط رقاب النّاس وأعطاهم فيء المسلمين. كما سألوه عن قوله في أبيه وصاحبه اللّذين نكثا على عليّ وهو إمام لم يظهر منه كفر، وأخرجا عائشة وقد أمرها الله هي ونساء الرّسول بالبقاء في بيوتهنّ[2]. وطلبوا منه أن يعبّر عن موقفه، فأجابهم بأنّ الرّسول قال: «لا تؤذوا الأحياء بسبّ الموتى» فنهى عن سبّ أبي جهل من أجل عكرمة ابنه، وأبو جهل عدوّ الرّسول. وفيما يخصّ رأيه في أبيه، أجابهم بأنّ الله أمر بالإحسان إليهم (قولوا للنّاس حسنا)[3]. وأمهلهم إلى العشيّة حتّى يكشف لهم رأيه في عثمان، فلمّا كانت العشيّة خرج إليهم لابساً سلاحه فتوقع نجدة من ابن الزّبير الخلاف.

وذكر ابن الزّبير عثمان فبرّأه وذكر أنّه آوى الحكم بن أبي العاص بإذن من الرّسول، وذكر الحمى وما كان فيه من الصّلاح. كما أكّد أنّ عثمان لم يكتب الكتاب لأهل مصر (الكتاب بقتلهم)، وحلف لهم بذلك ويمينه يُقبل وهو صهر الرّسول، وصاحب السّابقة. وأضاف أنّه وليّه وعدوّ عدوّه. كما برّأ الزّبير وطلحة،

---

(١) المبرّد، مصدر مذكور، ج٣، ص٢٧٨.

(٢) الأحزاب٣٣ / ٣٣ (وقرن في بيوتكنّ).

(٣) البقرة٢ / ٨٣؛ المبرد، مصدر مذكور، ج٣، ص٢٧٩.

فأبوه حواريّ الرسول، وقال الرسول عن إصبع طلحة لمّا قطعت يوم أحد سبقته للجنّة. كما أنّ عائشة هي أمّ المؤمنين مهما قيل عنها وقال الله في ذلك: ﴿النبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمّهاتهم﴾[1]. فما كان لهم أن يرفضوا ما قاله الله. ويبدو أنّ الخوارج لمّا سمعوا مقالة ابن الزّبير، انفضّوا من حوله. المهمّ أنّهم انفضّوا عنه، وتركوه بعد هذه المناظرة لعدم توافق رأيهم مع رأيه، ولمخالفته لهم. فولّوا أمرهم نافع بن الأزرق الحنفي أو ابن بُحْدُج على اليمامة ونواحيها إلى حضرموت وكافة أرض اليمن[2]. لكنّ عبيد الله بن زياد حبس نافع بن الأزرق ومعه جماعة من الخوارج، مع من كان في حبسه من الخوارج[3]. وكان موت الخليفة يزيد بن معاوية فرصة ليخوضوا تجربة جديدة في هذه الفتنة الثانية، فيتخلّصون من وطأة ابن زياد الذي كان يُضيّق عليهم ويقمعهم ويمثل بأجسادهم.

فما هو الوجه الجديد للخوارج بعد ٦٤هـ/ ٦٨٤م؟ وهل سيتمكّنون من قيادة المسلمين في هذه الفترة من الفراغ السّياسي؟

كانت الفتنة الأولى الّتي انبثقت عنها حركة الخوارج رمزاً من الرّموز الّتي بقيت مخيّمة في هذه الفتنة الثانية. كما وجد ابن الزّبير المجال مفتوحاً بعد موت يزيد للتفرّد بالزّعامة السياسيّة. فقُلبت الموازين بعد وفاة الخليفة ووجد ابن الزّبير المجال مناسباً فبويع بالخلافة بمكّة[4]. وكانت هذه البيعة هامّة بما أنّ ابن الزّبير لم يتحصّل على البيعة إلاّ بعد أن مات يزيد بن معاوية. كما أنّ أنصاره سيتغيّرون ويتنوّعون لظهور ظرفيّة جديدة.

---

(١) الأحزاب ٣٣/ ٦؛ المبرد، *مصدر مذكور*، ج٣، ص٢٨٠ ـ ٢٨١.
(٢) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٣٣.
(٣) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٦٤.
(٤) البلاذري، *مصدر مذكور*، ج٥، ص٣٧٠ ـ ٣٧٢.

خاتمة

ركّز الخليفة يزيد بن معاوية إقليميّة الدّولة الأمويّة كإيديولوجيا ارتكزت عليها الدّولة للقضاء على ثورة ابن الزّبير، فاستعمل يزيد مقاتلة الشّام لضرب الكعبة نظراً لطاعتهم العمياء للأمويّين. وهاجموا لأوّل مرّة مكة، وضربوا الكعبة بالمنجنيق لمعاقبة ابن الزّبير على إلحاده وإحلاله للحرم ورفضه برّ قسم الخليفة (لبس الجامعة). فالخليفة يزيد بن معاوية أراد تركيز الطّاعة والجماعة وتركيز الدّين واسترجاع حرمة الحرم الذي انتهكه ابن الزّبير وفرض حقه كخليفة يبايعه كلّ النّاس.

لكنّ ابن الزّبير كان يدافع عن مفاهيم السّابقة والقدمة، وكان غير معترف بشرعيّة الخليفة يزيد بن معاوية على أساس أنه سكّير وعربيد.

ونفّذ الخليفة يزيد بن معاوية سياسة جريئة بما أنّه حقق سياسة هي قمة التّعنيف الدّيني بمهاجمة مكّة والكعبة، وكان جيش الشّام وسيلته لتنفيذ هذه السّياسة. وواجه هذا الجند جيشاً متنوّع الإيديولوجيّات والمذاهب: جيش ابن الزبير من قريش والأنصار ومواليهم، وانضمّ إليهم الخوارج والمختار بن أبي عبيد الثقفي والأحباش. وفي هذا تطوّر للفتنة الثانية، وانعكاس لواقعة الحرّة الّتي كسّر فيها الخليفة يزيد بن معاوية شوكة أهل المدينة من قريش والأنصار وعلّمهم درساً لعنف وسلطة الدّولة الأمويّة.

وجمع ابن الزّبير حوله نوعاً من الإجماع بما أنّ كلّ القوى المعارضة للدّولة الأمويّة كالخوارج والمختار بن أبي عبيد الثّقفي، كانت ترى في مهاجمة أهل الشّام

أو جند الدّولة الأمويّة لمكّة وللبيت تهديداً لحرمتها وهتكاً لها. بينما كان مقاتلة الشّام يرون أنّ حرمة خلافة الله والدّفاع عنها من المحلّ ابن الزّبير، كانت الأهمّ. وستبقى هذه الجدليّة تُغذّي الفتنة (أي جدليّة الديني والسّياسي). لكنّ موت الخليفة يزيد بن معاوية، ودخول الأمّة في فتنة، سيستغلّه ابن الزّبير لفائدته ويستقلّ بالقرار السّياسي.

مات يزيد في عنفوان شبابه، بعد أن بدأ في تركيز الملك واختط منهجاً سياسياً جديداً مختلفاً عن معاوية لكنّ هذا الأخير نصحه باتّباعه. فتوقّف البرنامج السّياسي السّفياني عن العمل، وعجز ابنه معاوية بن يزيد عن القيام بشؤون السّلطة[١].

وتدخل الفتنة بعد موت الخليفة يزيد بن معاوية فترة جديدة غابت فيها الدّولة الأمويّة عن ممارسة نفوذها وسلطاتها. وسيسترجع الخليفة عبد الملك بن مروان كلّ المنهج السّياسي للخليفة يزيد بن معاوية بما يحتوي من عنف، ويُعيد مهاجمة الكعبة وضربها بالمنجنيق على يد الحجّاج بن يوسف الثّقفي.

وكان مقتل الحسين بن عليّ عاملاً محرّكاً لبقيّة الثّورات ضدّ الخليفة يزيد بن معاوية، فقد احدث مقتل الحسين صدعاً في الشّرعيّة التّاريخيّة والدّينيّة الأمويّة وأساساً شرعيّة الخليفة نفسه (سكّير وعربيد وماجن) وشرعيّة ابن زياد (ابن مرجانة أو ابن سميّة الزّانية وابن العبد المدّعي لغير أبيه)، كما أنّ قتل أهل الحرّة كان ضربة ثانية للشّرعيّة التّاريخيّة الأمويّة لتقتيل مسلم بن عقبة لأهل المدينة من قريش والأنصار. فرُفعت الحرمة عنهم لعدم تطبيقهم لأوامر الدولة.

وقضت الضّربة الأخيرة وهي الهجوم على الكعبة وضربها بالمنجنيق على الشرعيّة التاريخيّة، وكان من الصدفة أن مات الخليفة يزيد بن معاوية، فاندثر الفرع السّفياني وفتح باب الفتنة.

---

(١) الطّبري، مصدر مذكور، ج٥، ص٥٠٠.

نتائج البحث

كانت فترة الخليفة يزيد بن معاوية فترة بناء للدّولة الأمويّة رغم التّعتيم الذي تعرّض له هذا الخليفة أساساً من قبل العبّاسيين، فهو لم يكن كما ذكروا سكّيراً وماجناً بل كان دبلوماسيّاً ومتّزناً وسياسياً لا يقل مقدرة سياسيّة عن أبيه معاوية. لكنّ الأزمة الّتي اندلعت في عهده كانت حادّة ومهدّدة لشرعيّة الدولة وإيديولوجيّتها، فلم يجد يزيد وسيلة لينقذ ميراث أبيه إلا الإرهاب والقمع بمفهوم فيبير وفوكو للعنف السّياسي.

وكان هذا الصّراع بين الدولة والمعارضين (الحسين بن عليّ وعبد الله بن الزّبير ومعارضة أهل المدينة) بمثابة الامتحان العسير ليزيد وللدّولة الأمويّة لأنّ الجدليّة التاريخية[1] كانت تفرض بقاء قوّة سياسيّة واحدة هي الدّولة الأمويّة.

وكان هذا الصّراع بين قوى إسلامية ترى أنّ لها شرعيّة دينيّة وتاريخيّة وبين الدّولة الّتي تدافع على إيديولوجيّتها وكيانها. وهذا ما فجّر ما يعرف بالفتنة الثّانية الّتي ستتواصل طيلة عهد يزيد.

وقد قضى هذا الصّراع ولو لفترة على حرمة العلاقات الّتي كانت سائدة في الجاهليّة والإسلام كعلاقات الرّحم والقرابة. وكذلك على حرمة قريش كقبيلة أرستقراطيّة لصالح بني أميّة الفرع الأكثر أرستقراطيّة فيها.

وبنيت الدولة الأمويّة بناء ثانياً في فترة الخليفة يزيد بن معاوية بعد فترة بناء أولى

---

(١) لا ننسى الجدليّة التّاريخيّة المرتبطة بتطوّر الدّولة الأمويّة نفسها.

في فترة التّأسيس أي فترة الخليفة معاوية بن أبي سفيان. فكانت الدّولة في فترة تطوّر سياسي وإداري وعسكري واجتماعي وإيديولوجي. وقد شعر الأمويّون بتهديد المعارضين تهديداً قوياً لشرعيّتهم ولإيديولوجيّتهم فقتلوا الحسين بن عليّ وآله وقتلوا أهل المدينة وغزوا الكعبة وضربوها بالمنجنيق. فظهر بذلك جيش الشّام كقوّة «شبه» نظاميّة للدّولة وتدعّمت إيديولوجياً إقليميّة الدّولة. فكان الاعتماد عليهم أساسياً لقمع الثّورات بالحجاز: ثورة أهل المدينة وثورة ابن الزّبير.

ونفّذ يزيد وصيّة معاوية بالاستعانة بجيش الشّام لارتباطهم بالأمويّين وولائهم الشّديد لهم، وكان حريصاً على الوفاء لذكرى أبيه والحفاظ على الدّولة كميراث عائلي وعاطفي، فقد أسّس معاوية مبدأ الوراثة في الحكم[1] على حساب التقاليد الجاهليّة لقريش ـ الانتخاب ـ وعلى حساب التّقاليد السّياسيّة الإسلاميّة وتبنّى التقاليد السّياسيّة البيزنطيّة والفارسيّة.

وبيّنت هذه الفتنة أنّ للدّولة في فترة يزيد مؤسّسات قويّة، فوالي العراق عبيد الله لم يكن يقلّ مقدرة أو ذكاء عن أبيه زياد وهو بمثابة حاكم ثان يتمتّع بسلطات واسعة. كما أنّ لديه بيت مال ثريّ يمكّنه من تمويل الحرب ضدّ المعارضين (الحسين بن عليّ)، ومن شراء الضّمائر، ولديه نظام ردعي وقمعي يتمثّل في شرطة وجيش يمثّله مجموع المقاتلة أساساً بالكوفة ـ لأنّها مستهدفة بثورة الحسين ـ وهم مقاتلة مدجّجون بالسّلاح تمرّسوا بالقتال في الفتوحات.

وتبيّن أنّ الكوفة هي العصب السّياسي والعسكري للدّولة الأمويّة لأهمّيتها من النّاحية الاستراتيجيّة (الكوفة وما والاها من العالم الإيراني). وعلى هذا الأساس، أقامت الدّولة علاقات اجتماعيّة مع أشرافها، فمنحتهم المناصب الإداريّة والأموال حتى يؤطّروا عشائرهم. فكانت الكوفة عبارة عن مخبر تحسّست فيه الدّولة الفتية قدراتها.

---

(١) مبدأ الوراثة الذي خوّل ليزيد ولاية العهد ثمّ وراثة الحكم بعد موت معاوية.

وبذلك ركّز عبيد الله بن زياد إيديولوجيا الدّولة الإقليميّة بتخويفه الثوّار من «غزو» أهل الشّام لهم، وبتفريقهم في مغازي الشّام. كما كانت إيديولوجيا الطّاعة والحفاظ على وحدة الجماعة حاضرة دائماً في ثورة مسلم بن عقيل. وركّزت السّلطة خوف أهل الكوفة من حرمانهم من العطاء.

وقد ركّز يزيد مبدأ جديداً في السّلطة يتجاوز القرابة والرّحم بقتل ابن عمّه الحسين لتأكيد الملك[١]. كما ابتدع عادة سياسيّة جديدة هي المساس بالحرمات أو تكسير الحرمات، فقتل ابن بنت الرّسول ـ إباحة حرمة أهل البيت وحرمة قريش ـ وإباحة المدينة بمجزرة الحرّة الّتي كانت كارثة بشريّة قتّلت فيها قريش والأنصار عقاباً على خروجهما على الطّاعة.

وحوّل اتجاهه لمكّة وللحرم المكّي بغزو الحرم وضرب الكعبة بالمنجنيق في سبيل فرض سلطة الدّولة.

كما تمّت فترة البناء بجدلية مع الفتنة ومتزامنة معها. وركّزت الدّولة إيديولوجيا القصاص لعثمان بقتل الحسين بن عليّ بما أنّ عليّ اتّهم من قبل معاوية بالمشاركة في قتله وإيواء قتلته. كما ركّزت الدّولة إيديولوجيا الطّاعة للحفاظ على الأمّة من الفتنة، لكنّ هذا التّقتيل والاعتداء على الحرمات خاصّة منها مقتلة كربلاء واستئصال أهل البيت.

وطوّر يزيد وعبيد الله السّياسي في اقوى مظاهره وتواصل الصّراع بين السياسي والديني إلى حدّ اندلاع الفتنة بعد موت يزيد. وكان الخليفة مسيطراً على هذه القوى المعارضة ذات الطّابع الديني وما إن مات حتّى انفلتت. وهذه الفترة كانت فترة تطوّر لقمع الدولة وتجبّرها وتسلّطها، وأرست بذور عدّة قنابل متفجّرة، وغدّت الصّراع بين الديني والسّياسي.

وأحدث موت يزيد ديناميّة جديدة للفتنة بغياب الدّولة الّتي كانت تقضي على

---

(١) قتل مصعب بن الزّبير من قبل عبد الملك بن مروان «.. ولكنّ الملك عقيم». ابن سعد، مصدر مذكور، ج٥، ص١٧٥.

الفتنة بقمع العارضة. وبموت الخليفة يزيد بن معاوية تدخل الأمّة في فترة من الفتنة العمياء حيث تولى معاوية بن يزيد السّلطة لكنّه تنازل عنها. وأصبحت الأمّة بدون إمام وهو أمر غير مقبول دينياً. وتعدّدت الثّورات السّياسيّة الدّينية كثورة التّوابين وهو الشيعة الذين أرادوا التّوبة من الذّنب الأعظم لعدم مناصرتهم الحسين. كما أعاد الخليفة عبد الملك بن مروان بناء الدولة الأمويّة في خضمّ الفتنة الثّانية. فكانت الدولة تقمع الفتنة الزّبيريّة لكنّها في نفس الوقت كانت تدعّم مؤسّساتها خاصّة منها القمعيّة كالجيش. وكان الحجّاج بن يوسف الثّقفي المنفّذ لسياسة الدّولة الذي قضى أساساً على الفتنة الزّبيريّة بقتله لابن الزّبير بمكّة.

قائمة المصادر والمراجع

المصادر:

ـ القرآن الكريم.

ـ ابن حزم، **جمهرة أنساب العرب**، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣.

ـ ابن خلدون، **المقدمة**، الدار التونسيّة للنشر ـ المؤسسة الوطنيّة للكتاب، تونس والجزائر، ١٩٨٤، ج١.

ـ ابن دريد، **الاشتقاق**، دار الجيل، بيروت، ١٩٩١.

ـ ابن رسته، **الأعلاق النفيسة**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٨.

ـ ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٩٠، ج٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨.

ـ ابن عبد ربّه، **العقد الفريد**، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٥، ج١ و٤.

ـ ابن منظور، **لسان العرب**، دار لسان العرب، بيروت، د.ت، ج١ و٢و٣.

ـ الأزرقي، **أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار**، دار الأندلس، بيروت، ج ١ ـ ٢.

ـ البخاري، **صحيح البخاري**، دار الجيل، بيروت، ١٣١٣هـ، ٣ أجزاء.

ـ البلاذري، **أنساب الأشراف**، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٦، ج٢ـ٣ـ٥ـ٦ـ٧ـ٩ـ١٠ـ١١.

ـ البلاذري، **فتوح البلدان**، منشورات مؤسسة المعارف، بيروت، ١٩٨٧.

- ديوان معاوية بن أبي سفيان، حققه فاروق أسليم بن أحمد، دار صادر، بيروت، ١٩٩٦.
- الزبيري (مصعب)، **كتاب نسب قريش**، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢.
- السّمهودي، **كتاب وفا الوفاء بأخبار دار المصطفى صلى الله عليه وسلم**، مصر ١٣٩٢، ج١.
- السيوطي، **تاريخ الخلفاء**، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٨.
- الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩، ج٥-٦.
- الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ٢٠٠٤، ٢٤ج.
- المبرّد، **الكامل**، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، د.ت.، ج١ و٣.
- المسعودي، **مروج الذّهب ومعادن الجوهر**، دار الأندلس، بيروت، د.ت.، ج٣.
- المقريزي، **كتاب النزاع والتخاصم فيما بين بني أميّة وبني هاشم**، د المعارف، القاهرة، ١٩٨٤.
- النيسابوري (الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجّاج القشيري)، **صحيح مسلم**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت، ٤ أجزاء.
- اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ليدن وبريل ١٩٦٩، ج٢.
- وكيع، **أخبار القضاة**، عالم الكتب، بيروت، د.ت.، ج١ و٢.
- ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٦، ٥ أجزاء.

المراجع باللّغة العربيّة

- البكاي (لطيفة)، **حركة الخوارج نشأتها وتطوّرها إلى نهاية العهد الأموي (٣٧ - ١٣٢هـ)**، دار الطليعة للطّباعة والنّشر، بيروت، ٢٠٠١.
- بن حسين (بثينة)، **الدولة الأمويّة ومقوّماتها الإيديولوجيّة والاجتماعيّة**، منشورات كليّة الآداب والعلوم الإنسانية بسوسة، ٢٠٠٨.

ـ بن حسين (بثينة)، «شريح بن الحارث الكندي: أنموذجا لتطوّر مؤسسة القضاء بالكوفة في العهد الإسلامي الأوّل»، **القضاء والدولة والمجتمع في الفضاء المتوسّطي عبر العصور**، أعمال ندوة قسم التاريخ (سوسة، ٦ ـ ٧ ـ ٨ ديسمبر ٢٠٠٤)، جمّع النصوص وقدّم لها عدنان منصر، كلية الآداب والعلوم الإنسانيّة بسوسة، ٢٠٠٧، ص١٨١ ـ ١٩٣.

ـ بن سلامة (رجاء)، **الموت وطقوسه من خلال صحيح البخاري ومسلم**، دار الجنوب للنشر، تونس، ١٩٩٧.

ـ بوقرّة (رضا)، **الحركات الشّيعية في القرنين الأول والثاني تحليل سياسي ـ ديني**، شهادة التعمّق في البحث تحت إشراف الدكتور هشام جعيط، جامعة تونس الأولى كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس ١٩٩٢.

ـ الدوري (عبد العزيز)، **بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب**، المطبعة الكاثوليكيّة، بيروت، د.ت.

ـ العلي (صالح أحمد)، **التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري**، بغداد، ١٩٥٣.

ـ جعيط (هشام)، **الفتنة جدليّة الدين والسياسة في الإسلام المبكّر** دار الطليعة للطّباعة والنشر، بيروت، د.ت. (الترجمة العربيّة).

ـ جعيط (هشام)، **في السيرة النبويّة عدد ٢ ، تاريخية الدعوة المحمّدية في مكّة**، **دار الطليعة، بيروت**، ٢٠٠٧.

ـ جعيط (هشام)، **نشأة المدينة العربية الإسلامية الكوفية**، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ٢٠٠٥.

ـ شعبان (محمد عبد الحيّ)، **الثورة العباسيّة**، أبو ظبي، ١٩٧٧.

ـ شعبان (محمد عبد الحيّ)، **صدر الإسلام والدولة الأمويّة ٦٠٠ ـ ٧٥٠م (١٣٢هـ)**، **الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت**، ١٩٨٧.

ـ شمس الدّين (الشيخ محمد مهدي)، **دراسات ومواقف في الفكر والسياسة**

والمجتمع أبحاث فكرية وإسلامية عامّة، المؤسسة الدولية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٥.

- عبد الباقي (محمد فؤاد)، **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، د.ت.

- فلهاوزن (يوليوس)، **تاريخ الدولة العربيّة من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية**، ترجمة محمد الهادي أبو ريدة وحسين مؤنس، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٨.

- كريستنسن (أرثر)، **إيران في عهد الساسانيين**، بيروت، د.ت.

- لخضر (لطيفة)، **امرأة الإجماع**، دار سواس للنشر، تونس، ٢٠٠١.

المراجع باللّغات الأجنبيّة

- Jean Anouilh, *Antigone*, la table ronde, Paris, 2008.

- Georges Balandier, *Le pouvoir sur scènes*, Editions Balland, Paris, 1992.

- Pierre Bonte, Edouard Conte, Constant Hames, Abdel Bedoud Ould cheik, *Al-Ansab la quête des origines anthropologies historiques de la société tribale arabe*, Editions de la maison des sciences de l'homme, Paris, 1991.

- Anne Vincent Buffault, *Histoire des larmes*, Editions Rivages/Histoire, Paris, 1986.

- Jean-Pierre Callu, Le jardin des supplices au Bas-Empire, in Du châtiment dans la cité supplices corporels et peine de mort dans le monde antique, collection de l'Ecole Française de Rome 79, table ronde organisée par l'Ecole française de Rome avec le concours du Centre national de la recherche scientifique (Rome 9-11 novembre 1982), Ecole Française de Rome, 1981, p.313-359.

- Malek Chebel, *Dictionnaire des symboles musulmans*, Albin Michel, Paris, 1995.

- Jean Chevalier, Alain Gheerbrant, *Dictionnaire des symboles, Robert Laffont, Paris, 1982.*

- Alain Corbin, Jean-Jacques Courtine, Georges Vigarello, *Histoire du Corps, 1*. De la Renaissance aux Lumières, Editions du Seuil, Paris, 2005, p. 406.

- Crone Patricia & Hinds Martin, *God's Caliph Religious Authority in the First Centuries of Islam*, Cambridge, 1986.

- Encyclopédie de l'Islam

1ere édition, Leyde, 1913-1943.

2ème édition, Leyde, à partir de 1954.

- Michel foucault, *Surveiller et punir*, tel Gallimard, Paris, 1975.

- Isaac Hasson, "La conversion de Mu'awiya Ibn Abi Sufyan", *Jerusalem Studies in Arabic and Islam*, 22 (1998), p.214-242.

- Lynn Hunt, *Erotism and the Body Politic*, The Johns Hopkins University Press, Baltimore and London, 1991.

- M.J. Kister, "The battle of the Harra some socio-economic aspects", *Studies in memory of Gaston Wiet*, the Hebrew University of Jerusalem, 1977, p.33-49.

- Henri Lammens, *Etudes sur le règne du calife omaiyade Moawia 1er*, Extrait des Mélanges de la Faculté Orientale de l'Université Saint-Joseph Imprimerie Catholique, Beyrouth, 1906.

- Henri Lammens, *Etudes sur le siècle des Omaiyades*, Beyrouth, 1930.

- Henri Lammens, *Le califat de Yazid 1er*, Beyrouth, 1921.

- Jacques Le Goff Nicolas Truong, *une histoire du corps au Moyen Age, Liana Levi, Paris 2003.*

- Musée sans frontières, *les Omeyyades naissance de l'art islamique Jordanie*, Edisud, Aix-en-Provence, France, 2000.

- Mona Ozouf, *Les mots des femmes essai sur la singularité française*, Fayard, Paris, 1995.

- Alain Pastoureau, *Une histoire symbolique du Moyen Age occidental* Editions du Seuil, Paris, 2004.

- Evelyne Patlagean, *"Byzance ou le blason pénal du corps", in Du chatiment dans la cité supplices corporels et peine de mort dans le monde antique*, table ronde organisée par l'Ecole française de Rome79 avec le concours du Centre national de la recherche scientifique (Rome 9-11 no-

vembre 1982), Ecole Française de Rome, 1984, p.405-427.

- Paul Veyne, *Le pain et le cirque sociologie historique d'un pluralisme politique*, Seuil, Paris, 1976.

- Jean-Louis Voisin, "Les Romains, chasseurs de têtes, in *Du châtiment dans la cité supplices corporels et peine de mort dans le monde antique*, collection de l'Ecole Française de Rome 79, table ronde organisée par l'Ecole française de Rome avec le concours du Centre national de la recherche scientifique (Rome 9 -11 novembre 1982), Ecole Française de Rome, 1984, p.241-293.

- W. Montgomery Watt, *Mahomet*, Payot, Paris, 1989.

- Max Weber, *Economie et Société*, Paris, Plon, 1971, T-1.

الفهارس

١ ــ فهرس الآيات القرآنية

٢ ـ فهرس القوافي

٣ ـ فهرس الأعلام

(خ)

(د)

(س)

(ع)

(غ)

(ف)

(ي)

٤ ـ فهرس البلدان والأماكن والمواضع

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

المحتويات

القسم الأوّل
الفترة الأولى من الفتنة
رفض الحسين بن عليّ و عبد اللّه بن الزّبير البيعة

القسم الثّاني
الوجه الجديد للفتنة بعد مقتل الحسين بن عليّ

هذا الكتاب

إنّ كتاب الدّكتورة بثينة بن حسين يتناول ما أسمي بالفتنة الثّانية أو بالأحرى الفترة الأولى منها، من تولّي يزيد بن معاوية الخلافة في سنة ٦١هـ إلى زمن وفاته في ٦٤هـ. في هذه الفترة القصيرة ابتدأت الفتنة، لكن في واقع الأمر استعرت نارها بعد موت يزيد على حدود سنة ٧٨هـ واتّخذت أشكالاً متنوّعة، ولم يكن من الممكن أن تُدرس كاملة من بدايتها إلى نهايتها في كتاب واحد مهما كان حجمه، فوجّهت الدّكتورة بثينة طاقتها إلى فترة انطلاقها وعلى وجه من وجوهها، هذا الوجه هو مشكلة شرعيّة خلافة يزيد التي أورثه إياها في آخر حياته أبوه معاوية، وهذا تغير جذريّ في مسار الخلافة الإسلاميّة، فقامت ثورة الحسين بن عليّ ومن بعده ثورة عبد الله بن الزّبير، ممتنعين عن مبايعة الخليفة الجديد، وفي وسط كل ذلك ثورة الحرّة في المدينة. كلّ هذا، وطوال هذه الفترة، حلّلته الدكتورة بثينة بكلّ تأنّ وفي تفاصيله اللاّمتناهية التي زخرت بها كتب التّاريخ القديمة من أمثال تاريخ الطّبري، وأنساب الأشراف للبلاذري، وغيرهما من الكتب والمصادر.

هشام جعيط

